مطبوعات
كتاب اليوم

مصطفى أمين

من واحد لعشرة



مصطفى أمين

من واحد لعشرة

■ المشرف على التحرير : جمال الغيطانى

مطبوعات
كتاب اليوم
أسسه
مصطفى أمين وعلى أمين
سلسلة الشوامخ
رئيس مجلس الادارة
سعيد سنبل
العدد ذوالقعدة ١٤١٠ هـ
٣١٠ ١٥ يونيو ١٩٩٠ م
حزيران
الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط
تلكس دولى ٩٢٢١٥ - محلى ٩٢٢٨٢

- الغلاف : محمود الهندى
- الرسوم الداخلية والماكيت : محمد عفت

OOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOO
الطبعة الأولى ١٩٧٧ صدرت عن المكتب المصرى الحديث
الطبعة الثانية ١٩٨١ صدرت عن المكتب المصرى الحديث
الطبعة الثالثة ـ كتاب اليوم ، يوليو ١٩٩٠
OOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOOO

عمــرى .. قصــة حــب !

كيف أحسب عمرى ؟ بالصحف التى اصدرتها أو اشتركت فى تحريرها ؟

بعدد تلاميذى أم بعدد قرائى ؟

بالانتصارات التى حققتها ؟ أم بالهزائم التى منيت بها ؟

بالمرات التى خفق فيها قلبى ؟ أم بالصداقات الحلوة التى تمتعت بها ؟

احسب أن العمر هو كل هذا ، ولو كانت هذه القاعدة الحسابية صحيحة فلابد أننى عشت ألوف السنين !

وقديما قالوا إن عمر الانسان يحسب بالأيام السعيدة التى عاشها ، وبهذا أكون قد عشت كل يوم من أيام حياتى الصحفية التى بداتها فى طفولتى ، فإن كل كلمة كتبتها اسعدتنى ، حتى لو كلفتنى حريتى وحياتى بعد ذلك ، فانا اشعر وانا امسك قلمى اننى اعانق اجمل امراة فى العالم ، ولهذا عشت قصة حب طويلة ، ولا اتصور أننى أعيش يوما فى حياتى بغير قلم ، فلقد كان هذا القلم دائما صديقى وحبيبى ، أعطيته وأعطانى ، وعشقته وأخلص لى ، وعندما اموت أرجو أن يضعوه بجوارى فى قبرى ، فقد احتاج إليه إذا كتبت تحقيقا صحفيا عن يوم القيامة !

ولقد سألت نفسى اليوم لو كنت أختار لنفسى فترة عمرى فى التاريخ ، فأى فترة أختارها ؟ ووجدتنى أختار نفس الفترة التى عشت فيها ، فلقد عشت ثورتين كبيرتين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ وكان من حسن حظى أنى كنت قريبا من قائد الثورة الأولى سعد زغلول بحكم مولدى ومن قائد الثورة الثانية جمال عبدالناصر بحكم عملى ، وشهدت حربين عالميتين ، ورأيت نتائج الحرب العالمية الأولى ونتائج الحرب العالمية الثانية ، التى غيرت حياة البشر وتفكيرهم .

وعاصرت وصادقت وحاربت رجالا كبارا أمثال الملك عبدالعزيز بن سعود وغاندى وشكرى القوتلى ورياض الصلح وسعد الله الجابرى والدكتور أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى واسماعيل صدقى ومحمد محمود وعلى ماهر وأحمد حسنين وطلعت حرب ولطفى السيد وعباس محمود العقاد وطه حسين وعددا من عباقرة الشرق وساسته وكتابه ونجومه وأبرز من فيه .

وعشت صراع الشعوب المستعبدة ، وهى تحطم قيودها وتكسر أغلالها وتنقض على مستعبديها . ورأيت بلدى يتحول عدة مرات من مستعمرة إلى دولة مستقلة ، الشعب فيها أصبح صاحب الجلالة وصاحب السمو وصاحب الدولة وصاحب السعادة وصاحب العزة . ورأيت فلاحا مصريا يجلس فى مقعد رياسة الجمهورية ، وعاملا مصريا يصبح وزيرا ، وامرأة مصرية تجلس فى كرسى الوزارة ، وراقبت أعلام الدول الكبرى وهى تنزل من ساريات كل الدول العربية ، وترتفع بدلا منها الأعلام العربية معلنة أن الشعب العربى خرج من القفص الذى سجنه الاستعمار فيه .

وسمعت أم كلثوم وهى تغنى ، ورأيت نجيب الريحانى وهو يمثل ، وجلست مع محمد عبدالوهاب وهو يلحن ، وحضرت أمير الشعراء أحمد شوقى وهو ينظم شعره الخالد !

واجتمعت بعدد من عباقرة العالم الكبرى مثل نهرو وتشرشل وفرانكلين روزفلت وأينشتين وشارلى شابلن ..

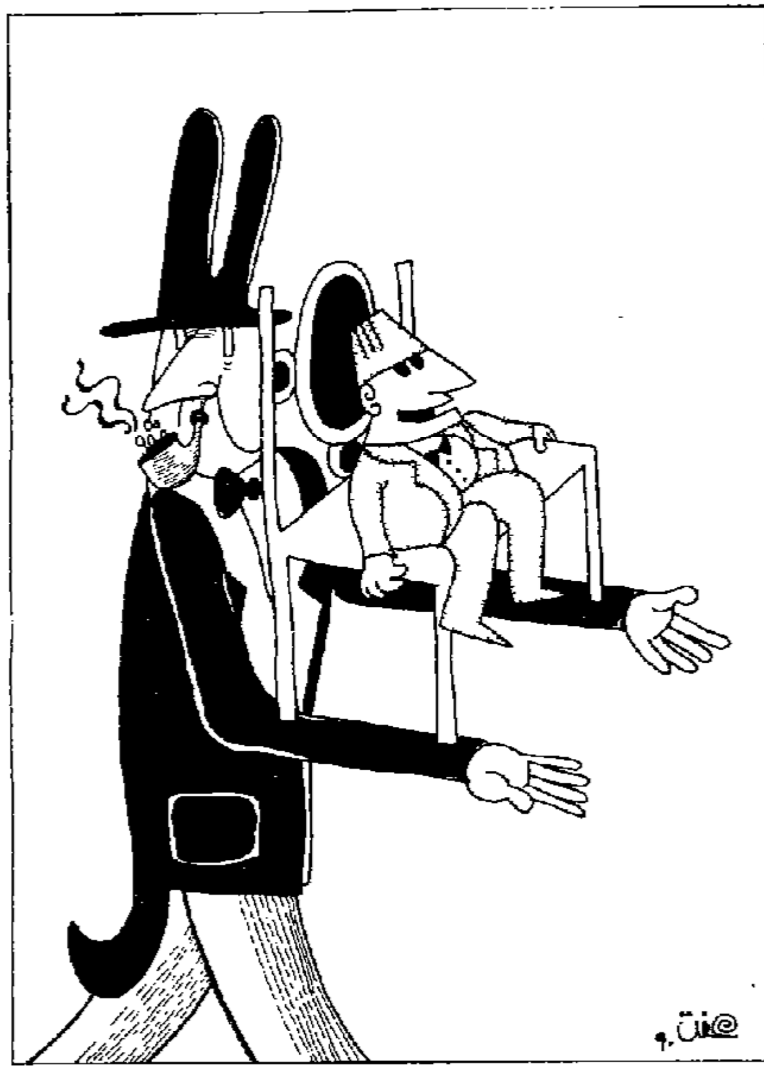
وشاركت فى صنع صحافة عظيمة فى بلادى ..

واليوم أحاول أن أكتب السنوات العشر الأولى من حياتى ..

إنها ليست قصتى .. إنها قصة مصر التى عشتها !

وإلى اللقاء فى « من ١١ إلى ٢٠ » !

● ● ●



• الفصـل الأول •

جلست الأسرة إلى المائدة استعدادا لتناول الغذاء . بقى المقعد فى رأس المائدة الطويلة شاغرا . إنه مقعد عميد الأسرة . لا يجلس فيه أحد سواه . لا أحد يجرؤ على الجلوس فى هذا المقعد الخالى حتى لو سافر عميد الأسرة أو تغيب عن القاهرة . الساعة اقتربت من الثالثة بعد الظهر ولم يحضر عميد الأسرة . لقد تأخر عن الحضور على غير عادته . ولا تستطيع الأسرة أن تبدأ فى تناول طعامها قبل أن يجىء عميدها . إن الطعام يصبح بغير طعم إذا لم يذقه قبلهم . ان كل واحد منهم يحس بشرف كبير لأنه سيجلس مع عميد الأسرة لتناول الطعام .

فليس الذ وأشهى ما على المائدة أطعمتها ، وإنما الشهى اللذيذ فيها هو حديث عميد الأسرة على المائدة . فالغداء يطول عادة ساعة والعشاء يطول ساعتين . وتناول الطعام لا يستغرق إلا بضع دقائق . أما الوقت الباقى فيمضونه فى الحديث يستمعون لعميد الأسرة وهو يحدثهم حديثا شائقا لذيذا فيه أخبار وفيه أسرار وفيه طرائف وفيه مداعبات ، وعميد الأسرة لا يعطيها من وقته إلا هذه الساعات القليلة . وإن كانوا فى كثير من الأحيان لا يستأثرون بها ، فيشاركهم فى الطعام زوار لا ينقطعون لا فى الغداء ولا فى العشاء . وعندئذ تختفى النساء من المائدة ولا يبقى إلا الرجال . فقد كانت التقاليد فى تلك الأيام الا تجالس السيدات الرجال ، بل ان بعض الأزواج لم يكونوا يسمحون لزوجاتهم بالجلوس معهم أثناء تناول الطعام ، فتقف الزوجة وراء زوجها وهو يأكل ، وتتولى خدمته . تحمل الاطعمة إليه ، تغير له الأطباق ، وتحمل الدورق ، وتسكب الماء على يديه وهو يغسلهما بالصابون ، وبعد أن يترك الزوج المائدة ، تجلس الزوجة لتتناول طعامها وحدها ، أو تشاركها الخادمات فيه !

ولكن عميد هذه الأسرة كان يسمح لأسرته بأن تتناول الغذاء معه ، وكانت الأسرة تعتبر هذا التكريم شرفا ما بعده شرف ، وثورة على تقاليد الفلاحين التى يحرص عليها عميد الأسرة ، وميزة لا تتمتع بها باقى الأسر التى تحرص على عادات الفلاحين .

كان عميد الأسرة فلاحا بنشأته وتربيته وتفكيره ومزاجه ، سافر إلى أوربا وعاد منها فلاحا . نال شهادة ليسانس الحقوق من باريس وعاد منها فلاحا . تزوج ابنة رئيس وزراء مصر ولا يزال فلاحا . الفلاح فيه أبرز صفاته ، وأقوى خصائصه .. فيه كل ما فى الفلاح المصرى من مزايا ومن عيوب . فيه طيبة الفلاح ودهاؤه . فيه تواضع الفلاح وكبرياؤه ، فيه سخرية الفلاح وإيمانه . فيه صبره وإصراره . فيه تعصبه وسماحته . فيه جرأة فى حذر ، وحلم فى غضب ، يتأرجح ويتردد ثم ينقض ، يتقهقر ليهاجم . يغمض عينيه ولا ينام . يحنى رأسه للطغاة وهو يلعنهم ، يحسبه القوى مستكينا وهو يستعد للانقضاض . يتظاهر بالهدوء وهو يتنمر ليتحول إلى عاصفة .

وعميد الأسرة فى بيته هو هذا الفلاح . جاء بأخلاق الفلاحين فى أكواخهم الى هذا القصر الذى بناه فى مدينة القاهرة . لم تصبه حمى المدينة وتقاليد الحضارة الأوربية . ولم تطبعه المدنية بطابعها التركى الذى حملته إليها نساء الشراكسة اللاتى تزوجن الكبراء والأثرياء . وبرغم أن عميد الأسرة عكف على كتب الغرب يلتهمها ، وطاف بعواصم أوربا ، ومغانيها ، وأحبته إحدى الأميرات، وقد لهث فى حبه ، وحاولت، عبثا أن تتزوجه ، وصاحب

الوزراء والكبراء وغشى نواديهم وصالوناتهم برغم كل هذا فقد ظل فلاحا مصريا ، أو كما يقول لأسرته دائما إنه يرتدى الجاكتة والبنطلون فوق جلابية الفلاح الزرقاء !

وقد خضعت الأسرة كلها لارادة هذا الفلاح ، فقد كانت تعتبره إلهها الصغير . وكانت زوجته تروى عنه انه قال عندما خطبها انه لا يحب أن تضع زوجته طلاء على وجهها . وأنها خضعت لارادته فلم تضع بودرة على وجهها او مساحيق فى فرحها أو ليلة زفافها ، فكانت العروس الوحيدة فى تلك الأيام التى لم تتزين يوم زفافها ، وبقيت كذلك لا تضع على وجهها ذرة واحدة من البودرة الى آخر يوم فى حياتها !

وقالت الزوجة أنه فى ليلة زفافها قالت لها أمها ان العريس سوف يصحبها فى عربة حانطور من بيت أبيها إلى بيته فى حى الظاهر ، وعندما تقف العربة أمام بيت العريس ، سينزل العريس ويقول لها : تفضلى ! فتمتنع عن النزول . فيقول لها للمرة الثانية : تفضلى ! فتمتنع . ثم يقول لها للمرة الثالثة : تفضلى ! وعندئذ تنزل من العربة وتتبع العريس الى داره .. وإن هذه هى التقاليد التى تتبع فى العائلات الارستقراطية الكبيرة !

وأطاعت العروس الصغيرة تعليمات أمها . فما ان وقفت العربة ونزل منها العريس وقال بصوت آمر : تفضلى حتى انكمشت العروس الصغيرة فى زاوية العربة الحانطور وتمنعت ولم تنزل من العربة كما قالت لها أمها وكما تقضى التقاليد !

وفوجئت العروس بالعريس يتركها ويمشى فى طريقه الى داره ، وعندها وجدت نفسها تقفز من العربة وتعدو وراءه !!

وكانت الزوجة تروى هذه القصة دائما وهى تقول :

— ومنذ تلك اللحظة أصبحت أجرى وراءه دائما !

وهكذا لم تشعر هذه العروس الصغيرة إلا أن هذا الرجل سيدها وإلهها الصغير . لا تتحرك إلا بإذنه . ولا تتكلم إلا همسا . نسيت منذ تلك اللحظة انها ابنة رئيس وزراء مصر الذى تولى حكم مصر ١٤ سنة بغير انقطاع . ونسيت انها ولدت وأبوها وزير ، وأنها كانت طفلة أبيها المدللة . وأنها عاشت طفولتها فى قصر أبيها الحاكم بين الحوارى والأغوات . وقد كان لديها فى قصر أبيها أغا اسمه فيروز ، حملها وهى طفلة فلما تزوجت أهدتها أمها هذا الأغا ، وإذا بعريسها يرفض هذه الهدية ويقول انه يرفض أن يعيش فى بيته أغا . لأن خصى الرجل وحرمانه من رجولته وبيعه كالرقيق عمل غير انسانى . وهو لا يقبل أن تعيش فى بيته جريمة تمشى على قدمين ! وهكذا كان فى بيت

اختها اغا خاص بها ، وفي بيت أختها الثانية أغا خاص بها ، وهي وحدها التي ليس في بيتها أحد من الأغوات .

وفوجئت العروس بهذه الآراء الغريبة تسمعها لأول مرة في حياتها . لقد كان عمرها وقتئذ ١٧ عاما ، وعمر عريسها ٣٥ سنة ، وقد أحست بجواره أنه قوي وهي ضعيفة . انه شخصية وهي طفلة . انه أستاذ وهي تلميذة . فأسلمته من يومها الأول إرادتها وقلبها وعقلها ووجدت نفسها مع الأيام تفكر كما يفكر ، وتتصرف كما يتصرف ، وأحست انها هي الأخرى أصبحت فلاحة ! ورضيت بأن تكون زوجة رجل يفخر بأنه يرتدي ملابس التشريفة الموشاة بالقصب والذهب والنياشين وتحتها جلابية الفلاح المصرى الزرقاء .

وبعد سنوات من إقامتها في حي الظاهر بنى عميد الأسرة بيتا في حي الانشا . بناه بطريقته ، وبخياله ، وبعقليته . فكان هو وحده الذى وضع تصميم هذا البيت الغريب . وكان الذى يدخل هذا البيت لا يصدق أنه بيت فلاح . أو بيت رجل كان فلاحا .

كان البيت مصمماً على طراز قصور الأثرياء في فرنسا . فقد كان عميد الأسرة كثير التردد على عواصم أوربا في أوائل القرن التاسع عشر ، وحرص على أن يكون البيت الذى يبنيه في القاهرة على طراز هذه القصور الكبيرة . واشترى بعض أثاثه من فرنسا وبعضه من فيينا ، وبعضه من ألمانيا . وكانت تحيط بالبيت حديقة واسعة ، ذات أسوار عالية ، يتوسطها باب حديدى ضخم ، وعلى يمين الداخل من الباب سلالم رخامية موصلة الى سلاملك فيه صالون كبير ، ثم مكتب لسكرتير ، ثم غرفة مكتب صغيرة ، ثم غرفة مكتب كبيرة ، وأمام هذه الغرف شرفة كبيرة توصل الى باب غرفة المائدة ، بحيث اذا دخل الرجال لتناول الطعام ، لم يمروا بالقاعة التي تجلس فيها السيدات . وكان تحت السلاملك سلم آخر يوصل الى خمس غرف كبيرة . وكان المفروض أن هذا البدروم مخصص للخدم من الرجال . ولكن عميد الأسرة لم يكن لديه قط هذا العدد الضخم من الرجال الذين يشغلون كل هذه الغرف ، وخاصة أن عم آدم البواب كانت له غرفة كبيرة على يسار باب الحديقة تكفي لأن ينام فيها خمسة من الخدم . وكان عم آدم ينام فيها مع حسن السفرجي . أما الحاج أحمد خادم عميد الأسرة الخاص ، فكان يبيت في داره خارج المنزل . ولم يكن لعميد الأسرة سكرتير ليشغل غرفة السكرتير الخالية .

وكان في مواجهة الباب الحديدى للدار سلم رخامي عريض يصعد نحو باب خشبي له نوافذ زجاجية ، وكان هذا الباب يسمى « باب الحريم » ، وهو يوصل الى صالة ضخمة تتسع لثلثمائة شخص . وكان على يمين الداخل غرفة

للطعام تسع ستة وثلاثين ضيفا . ثم غرفة لأدوات المائدة « اوفيس » لاعداد الطعام ، يليها حمام ضخم . ثم صالة توصل الى سلم حجرى يصعد إلى الدور العلوى ثم السطح ، وهو يبدأ من البدروم حيث توجد حوالى عشر غرف خصصت للمطبخ والغسيل والمكوى والكرار الخاص بحفظ وخزن الأطعمة . ولم يكن لدى عميد الأسرة هذا العدد الضخم من الخدم الذين يملأون هذا العدد الكبير من الغرف . كان لديه طاه واحد هو الأوسطى أحمد بدران وخادمة واحدة هى مدام مارى .

وفى مواجهة قاعة المائدة فى الطابق الاول يقع صالون صغير ، ثم صالون كبير ، تليه غرفة يقيم فيها سعيد ابن اخت عميد الأسرة ، وولده بالتبنى ، ولها سلم خاص يوصلها الى حديقة البيت .

وفى نهاية الصالة الضخمة سلم رخامى كبير يوصل إلى الدور العلوى . وإلى اليمين غرفة لزينة عميد الأسرة ولبسه ، تتصل بغرفة واسعة ، ويفصل بينهما باب ، كان فيها فراشان كبيران لرب الأسرة وزوجته كما تتصل بغرفة اخرى خاصة بزوجة عميد الأسرة لاستعمالها الشخصى . وإلى يسارها صالة واسعة فى نهايتها حديقة شتوية . وأمام غرفة النوم غرفة واسعة مخصصة لرتيبة ابنة شقيقة عميد الأسرة وطفليها . ولها شرفة واسعة جدا أشبه بالحديقة يلعب فيها الطفلان . ولهذه الغرفة حمام كبير وآخر صغير ، وامامهما صالة طويلة تؤدى الى سلم حجرى .. يوصل إلى السطح حيث توجد غرفة مخصصة للخدم من النساء .

وخلف الدار تقع حديقة صغيرة ، فى نهايتها اسطبل كبير فيه عربة حانطور وزوج من الخيل الاسترالى .

ولا يعلم أحد لماذا فكر عميد الأسرة فى إقامة مثل هذا البيت الضخم . وفى حى الانشا فى القاهرة .

كانت أسرته يومئذ مؤلفة من أربعة أفراد ، هم : زوجته وولداه بالتبنى : رتيبة وسعيد . وعندما بنى هذا البيت لم يكن يتصور انه سيرزق أولادا وبنات يملأون هذا البيت الكبير . كان قد مضى على زواجه إذ ذاك أكثر من عشر سنوات . وكان قد يئس من الانجاب ، بعد أن زار مع زوجته عواصم أوربا وعرضها على عدد من الأطباء ، فأجمعوا على أنها لن تنجب . أكان يفكر وهو يبنى هذا البيت الضخم أنه سيحتاج فى يوم من الأيام إلى كل غرفة فيه ؟ .. وأن كل غرفة من هذه الغرف حتى غرف البدروم سوف تشترك فى صنع تاريخ مصر ؟ هل كان يتصور أن هذا البيت سوف يتحول يوما الى قلعة ؟! وأن هذه الحديقة سوف تتحول إلى ساحة حرب ؟ .. وأن الشارع الذى يقع فيه البيت سوف يصبح ميدان قتال .. تسير فيه الجيوش ، وتقع المعارك ، وتسيل

الدماء ، وينهال الرصاص وتدوى القنابل ، وتمشى فيه الملايين ؟ ! هل كانت احلامه هي التي ملأت البيت ، أم أن البيت هو الذى صنع هذه الأحلام وملأت جنباته ؟ !

عندما أقام هذا البيت الكبير لم يكن يشتغل بالسياسة .. كان يومئذ مستشارا في محكمة الاستئناف . فلماذا بنى شرفات تصلح لالقاء الخطب ، وشرفات تصلح لاستعراض الجماهير ، وحدائق واسعة تكتظ بالجماهير ، وابوابا متعددة لتضليل البوليس . وعشرات الغرف لتكون مراكز للاجتماعات السرية ، وبدروما تحت الأرض كان للجهاز السرى بمثابة مخبأ يأوى إليه من مطاردة البوليس ، هل فكر ، وهو يبنى هذا البيت ، في أنه يضع تصميما لمركز قيادة ثورة .. أم بيتا للسكن والاسترخاء ؟

كان هذا البيت هو بيت سعد زغلول

الذى كانت تنتظره أسرته على المائدة لتناول طعام الغداء !

وجلست زوجته صفية زغلول في مقعد على يمين المقعد الخالى ، وبجواره ابنتها المتبناه رتيبة زغلول ، ثم ابنها بالتبنى سعيد زغلول ، وعلى مقعدين عاليين على يسار المقعد المخصص لسعد زغلول جلس الطفلان التوأمان على ومصطفى ..

وأحس أحد الطفلين الصغيرين بالجوع ، فانتهز انشغال ربة البيت في الحديث مع أمه ، ومد يده بسرعة إلى طبق البلور في وسط المائدة ، وأراد أن يأخذ قطعة صغيرة من الجبن .

ولمحته أمه فقطبت جبينها وقالت له وهى تبعد طبق البلور :

— عيب ! يجب أن تنتظر جدك حتى يجئ !

وكان كل من الطفلين ينادى سعد زغلول « ياجدى » وينادى صفية زغلول « ياستى » !

وسحب الطفل الصغير يده الصغيرة في خجل واستحياء وقد انهمرت من عينيه الدموع .

ولاحظت صفية زغلول دموع الطفل الصغير ، فقربت نحوه طبق الجبن ، وهى تقول لأمه في نظرة لوم :

— حرام ! إن الولد جاع .. إن خالك تاخر اليوم عن موعد غدائه .

وقالت الأم في حزم :

— يجب أن يتعلم أن يصبر وان ينتظر .. مادام يصر على الجلوس مع الكبار على المائدة فيجب أن يتصرف كما يتصرفون .

ثم التفتت الأم إلى الطفل وقالت :

— إذا كنت جائعا فلاذهب إلى « الأوفيس » وتناول طعامك هناك .. أما غرفة الطعام فلها آدابها !

وهز الطفل رأسه بشدة رافضا أن يغادر غرفة الطعام الخاصة بالكبار ، ومسح دموعه ، وفضل أن ينتظر برغم جوعه !

وهنا سمع الجالسون صوت خيول عربة حانطور تقترب من الباب ، وتتوقف ، فعرفوا أن عربة سعد زغلول قد وصلت ثم سمعوا جرس الباب الأمامي وعم آدم يدقه إعلانا بوصول الباشا ، ثم سمعوا وقع خطواته وهو يصعد السلم الرخامي . ودخل سعد زغلول الى غرفة المائدة فهب الجالسون جميعا واقفين ، ولم يتجه سعد زغلول إليهم ويقبلهم واحدا واحدا كما كان يفعل دائما ، بل اتجه إلى مقعده في رأس المائدة وجلس دون أن يوجه إليهم تحية .

كان وجه مقطبا . عيناه حانقتين . حاجباه أشعثين . شفته العليا الغليظة التي تختفي تحت شاربه الأبيض تضغط على شفته السفلى ..

وارتعش الجالسون في مقاعدهم عندما رأوا الكآبة التي تعلو وجه رب الأسرة . ساد غرفة الطعام صمت رهيب . وأحس كل واحد منهم بأنه ارتكب ذنبا يستحق عقابا . كأنهم يرون في وجه عميدهم غمامة تنذر ببرق ورعد وعواصف .

وجاء السفرجي يحمل الطعام ، وتقدم به أولا إلى سعد زغلول ، فالنظام في البيوت الغربية أن يبدأ بتقديم الطعام للسيدات ، ولكن في بيت الفلاح المصري جرت التقاليد على أن الرجل هو الذي يأكل أولا ..

ولكن سعد زغلول يشير بأصبعه إلى زوجته كأنه يقول للسفرجي أن يقدم لها هي الطعام أولا ..

وتجزع صفية . انها لم تتعود أن تأكل قبل زوجها . فلا تمد يدها إلى الطعام وتتجه إلى سعد زغلول وتقول له بحنان :

— مالك ياسعد ؟ هل أنت مريض .

ويجيب سعد بجفاء أنه لا يريد أن يأكل ، لأنه لا يحس بشهية للطعام ..

. وترفض صفية أن تأكل . وترفض رتيبة أن تأكل . ويرفض سعيد أن يأكل .. ولم يفهم الطفلان ان واجبهما الا يأكلا أيضا تضامنا مع عميد الأسرة الغاضب ، فتجاهلا نظرات أمهما المحذرة ومدا أيديهما يتناولان الطعام .

وابتسم سعد وقال لأمهما :

— سآكل من الطعام .. حتى لا تضربيهما !

وتقدم السفرجي إلى سعد زغلول ، فوضع سعد في طبقه كمية قليلة من الطعام وبدأ يأكل .

وعندئذ بدات الأسرة كلها تاكل فى صمت

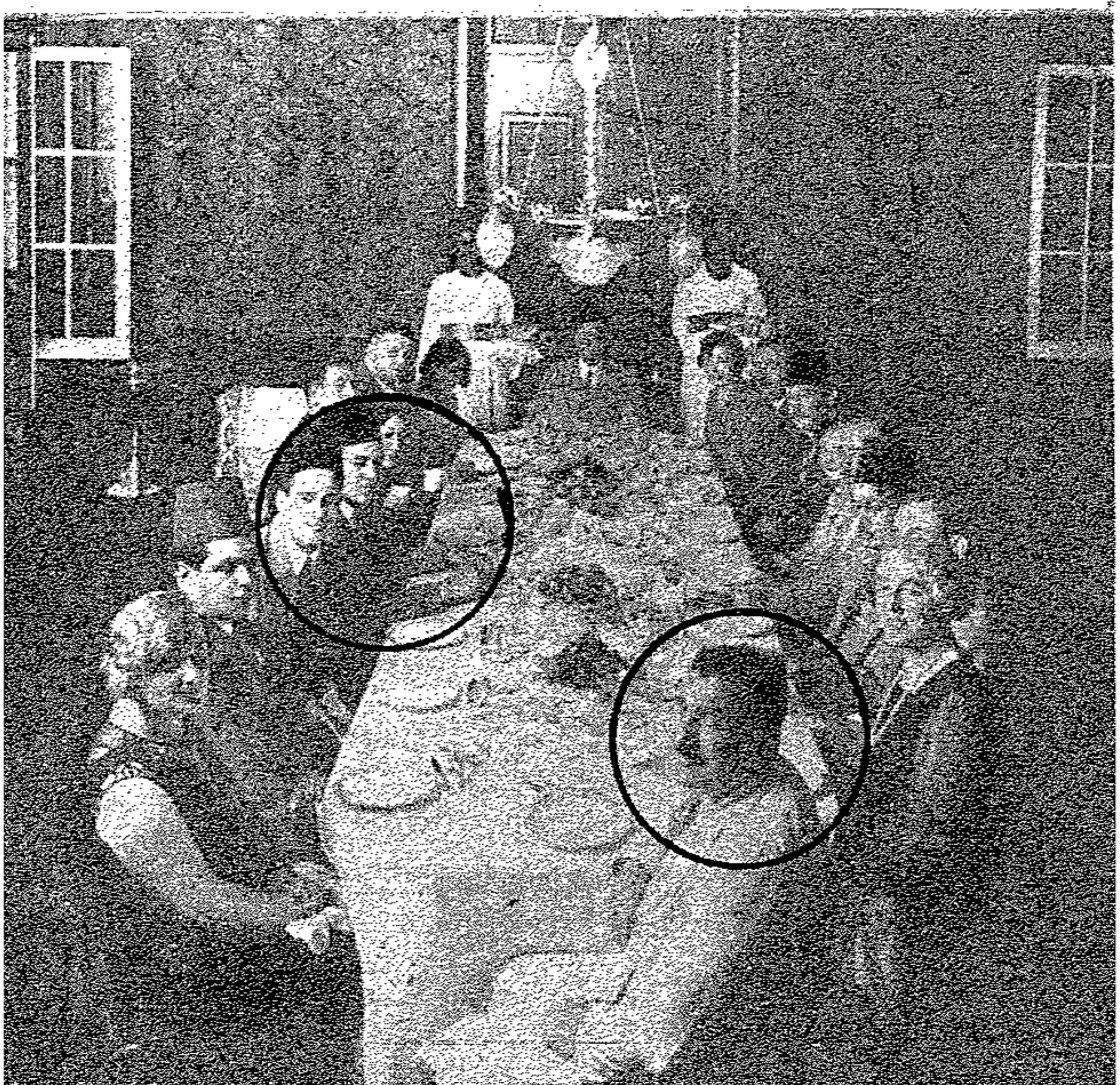
وتجرات صفية وقالت فى صوت متضرع :

— ماذا حدث ياسعد ؟

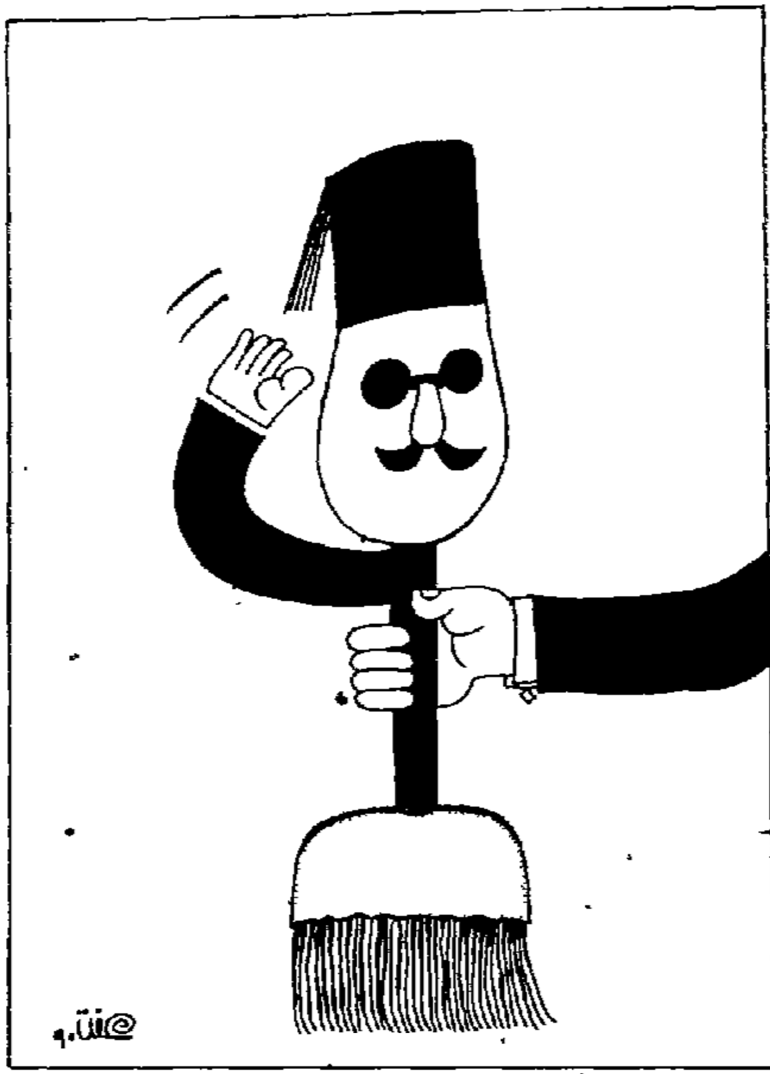
وصمت سعد زغلول لحظة ، ثم مد يده إلى زجاجة الدواء الموضوعة أمامه على المائدة ، وفتحها ، وسكب جرعة منها فى ملعقة فضية ، ثم افرغها فى جوفه ، وأعاد الملعقة إلى الطبق فى هدوء ثم قال :

— حدثت مصيبة ! مصيبة .. كارثة !

وتسمر الجالسون فى مقاعدهم ، وتضاعف رعبهم وفزعهم .



●● على أمين ومصطفى أمين على اليسار بجوار بعض .. وفى مقدمة الصورة والدهما الأستاذ أمين يوسف



• الفصــل الثــانى •

قال سعد زغلول فى حزن لأفراد أسرته أن الكارثة التى حدثت هى أن الانجليز رشحوا الأمير احمد فؤاد سلطانا على مصر .

وبدا أثر النبأ الفاجع على وجه صفية زغلول ورتيبة زغلول وسعيد زغلول . انهم يعرفون أن عميد أسرتهم يكره هذا الأمير ويزدريه ، وكثيرا ما روى لهم أنباء مواقفه المزرية وتصرفاته الشائنة . كان سعد زغلول قد روى لهم أن الأمير المفلس كان يستدين من كل أعضاء نادى محمد على . ولا يسدد ديونه ، وأنه راس مجلس ادارة الجامعة المصرية التى كان سعد أول من دعا إلى انشائها ، فكان يبدد أموالها على ملذاته ورحلاته فى أوربا وعلى مغامراته

الغرامية ، وأنه اصطدم مع سعد عندما أصبح وزيرا للمعارف . فقد حاول سعد أن يكون وزيرا بمعنى الكلمة ، لا « طرطورا » كالوزراء الطراطير في عهد الحماية البريطانية الذين تركوا أمور وزاراتهم في أيدى المستشارين البريطانيين . وبدأ سعد عهده في وزارة المعارف بأن جمع السلطات في يده وانتزعها من مستر دنلوب المستشار البريطاني الذى كان الحاكم بأمره في شئون وزارة المعارف في تلك الأيام . ثم إذا بسعد زغلول يفاجأ بأن الأمير أحمد فؤاد رئيس مجلس ادارة الجامعة المصرية يتجاهل الوزير المصرى ولا يعترف إلا بالمستشار البريطاني ، فإذا تقدم الأمير بطلب يختص بالجامعة تقدم به إلى مستر دنلوب وأبى أن يتقدم به إلى سعد زغلول . فما كان من سعد إلا أن رفض كل طلب يجيء إليه من الأمير فؤاد عن طريق المستشار البريطاني ، وحدث أن التقى الأمير أحمد فؤاد بسعد زغلول في مكتب شقيقه الأمير حسين كامل ، ورفض سعد زغلول وزير المعارف أن يصافح الأمير أحمد فؤاد .. وهاج الأمير أحمد فؤاد وشكا للخديو عباس أن أحد الوزراء المصريين أهانه ورفض أن يصافحه ، وأن في هذا التصرف من الوزير الفلاح اهانة لكل الأمراء !

وسأل الخديو سعد زغلول وزير المعارف لماذا رفض أن يصافح الأمير أحمد فؤاد ؟

فقال سعد زغلول : ان الأمير رفض أن يعترف بوجودى كوزير مصرى ومن حقى ان أرفض الاعتراف بوجوده على قيد الحياة !

وجمع الأمير حسين كامل بين شقيقه الأمير أحمد فؤاد والوزير سعد زغلول وصالحهما ، ولكن ظلت علاقتهما سيئة ، فقد كان سعد شديد الاعتزاز بكرامته ، وكان يعتقد أن الأمير أحمد فؤاد لا يحس بأنه مصرى ، ولا يحترم المصريين ، وأن من حق المصريين أن يحتقروه إلى أن يتعلم الأدب ! ولهذا ما كادت صفية زغلول تعلم أن الأمير أحمد فؤاد سوف يصبح سلطانا على مصر حتى علت وجهها التعاسة والمرارة وقالت : إنه آخر أمير في الأسرة يصلح سلطانا !

قالت رتيبة وقد بدا عليها الحزن لغضب خالها : انه غضب من الله على هذا البلد !

قال سعد زغلول في عصبية ظاهرة :

— انني سوف اذهب الآن وأقدم استقالتي من منصبي كتشريفاتي في القصر السلطاني . لا يمكن أن أواصل العمل في خدمة هذا الأفاق النصاب ! لقد كان يجيء لمقابلة شقيقه السلطان حسين ، وكنت أنا الذى أبلغه بأن السلطان يأمر بطرده من القصر ، وأنه لا يريد أن يرى وجهه . فكيف أجيء اليوم وانحنى له ! كيف انحنى لرجل أحتقره وأكرهه وأزدريه .

قال سعد :

— أنتظر حتى يعين سلطانا ، وسوف يتولى هو طردك ! إنه لن يطيق أن يرى ابن أخت سعد زغلول يعمل فى القصر .

قال سعد معترضا :

— ولماذا أنتظر حتى يطردنى ! لماذا أعطيه شرف طردى ؟ يجب أن يعلم اننى أنا الذى أرفض أن أعمل فى خدمته . ثم إننى لا أطيق عملى فى القصر . اننى قبلت هذه الوظيفة بناء على أمرك بعد إلحاح السلطان حسين . إننى تشريفاتى فى القصر . أى خادم نظيف . وأنا لا أطيق هذه الحياة ! كان السلطان حسين يعاملنى كابنه . ولهذا تحملت . ولكنى لا أقبل أن أعمل خادما لسلطان أكرهه وأحتقره !

قال سعد :

— أنت على حق ! اننى لو كنت مكانك لاستقلت أيضا . ان الأمير فؤاد سوف يتصور أننى أنا الذى طلبت أن تستقيل وترفض العمل فى خدمته . وسوف يعتبر هذا التصرف إعلانا من أسرة زغلول بالحرب عليه . وهذا أمر لا يخيفنى ، انه يعرف اننى أكرهه . وأنا أعرف أنه يمقتنى .. واستقالتك هى تسمية الأشياء بأسمائها !

ووقف سعد زغلول ، وتقدم إلى خاله وقبل يده وهو يقول :

— أشكرك ياخالى ! إن موافقتك على استقالتى من القصر هى أشبه بقرار تصدره بإطلاق سراحى من السجن الذى عشت فيه !

وقبله سعد زغلول فى جبينه وهو يقول :

لعل الله يمد يده إلى البلد لينقذه من الأمير فؤاد . ربما لا يموت السلطان حسين ، وقد يقبل ابنه الأمير كمال الدين حسين تولى العرش . وقد يعدل الانجليز عن تعيين الأمير فؤاد عندما يعرفون مدى سخط الشعب على هذا التعيين . وربما يقبل الانجليز اقتراحى بأن تجتمع الجمعية التشريعية وتنتخب السلطان الجديد ، باعتبارها البرلمان الذى يمثل الشعب ، وفى هذه الحالة لن يحصل الأمير أحمد فؤاد على صوت واحد من أصوات أعضاء الجمعية التشريعية ..

ولكن الله لم يمد يده !

كان السلطان حسين على فراش الموت ، وقد يئس الأطباء من شفائه . أصبحوا يعتقدون أنه لن يعيش إلا بضعة أيام . أصيب بحالة جنون فى أواخر أيامه . ثم أصيب بالشلل . وقرر الانجليز أن يخلفه ولى عهده الأمير كمال الدين . وفوجىء السلطان بالأمير كمال الدين يكتب إليه خطابا يعلن

فيه رفضه تولى العرش وتنازله عن كل حقوقه فى ولاية العرش . وشاع يومها أن الأمير كمال الدين شاب وطنى ، وأنه يرفض تولى العرش فى ظل الحماية البريطانية ، وذهب سعد زغلول لزيارة الأمير ، ليسأله عن سر رفضه قبول العرش فلم يفهم شيئا من الأمير الشاب ، ولم يشعر بأنه أمام بطل وطنى كما صورته الاشاعات ، ولم يعرف سعد يومها أن الأمير رفض العرش لأنه كان يحب فتاة فرنسية تقيم فى باريس ، وكان يخشى لو تولى العرش ، أن يحرم من التردد على باريس والاقامة بين ذراعيها ، وكتب لها الأمير يقول أن قبلة من شفتيها أهم لديه من عرش مصر كله !

ونادى سعد زغلول فى ذلك الوقت أن ليس من حق الانجليز تعيين سلطان مصر ، وأن الشعب هو الذى ينتخب السلطان ، وأن الجمعية التشريعية التى هى البرلمان الذى انتخبه الشعب ، هى صاحبة الحق فى انتخاب السلطان .

وكان سعد زغلول يومها هو رئيس الجمعية التشريعية بالنيابة .

وذهب سعد زغلول الى صديقه حسين رشدى باشا رئيس الوزراء وعدلى يكن باشا وزير المعارف واقترح عليهما أن يقرر مجلس الوزراء دعوة الجمعية التشريعية لانتخاب السلطان الجديد ..

وذهل الوزيران لهذا الاقتراح الغريب ! وقال حسين رشدى باشا رئيس الوزراء ان الانجليز طلبوا تأجيل اجتماعات الجمعية التشريعية لمناسبة الحرب ، ولا يمكن دعوتها ، وأنه من غير المعقول أن توافق دار الحماية على دعوة الجمعية للاجتماع ، لهذا أجلت اجتماعاتها خشية أن تعترض على اعلان الحماية على مصر ، وعلى عزل الخديو عباس حلمى من عرش مصر .

— وسأل عدلى يكن سعد زغلول :

— من تتصور أن الجمعية التشريعية سوف تنتخبه سلطانا على مصر ..

قال سعد :

— انني لم أفكر فى هذا الموضوع . ولكن رأيى الشخصى أن تنتخب مصريا ليكون سلطانا على مصر ..

فسأله عدلى يكن :

— مصريا ... مثل من ؟ ! من أمراء محمد على :

قال سعد زغلول :

— لا .. اننى لا أجد واحدا من هؤلاء الأمراء يصلح لأن يكون ملكا أو سلطانا .. ان رأيى أن محمود سليمان باشا يمكن أن ينتخب سلطانا ..

— وفوجىء حسين رشدى باشا وعدلى يكن باشا بهذا الاقتراح وفتحا فيهما

دهشة لقد كان عدلى يكن أحد أصهار أسرة محمد على . وكلمة « يكن » هى كلمة تركية معناها صهر الوالى . وكان حسين رشدى باشا من أسرة طبوزادة التركية ، ولم يخطر ببالهما فى يوم من الأيام أن يتولى مصرى حكم مصر .

وكان محمود سليمان باشا فلاحا ثريا من أعيان الصعيد ، وكان رجلا مسنا محبوبا من الفلاحين ، وكان والد محمد محمود باشا صديق سعد زغلول الحميم فى تلك الأيام ..

وقال رئيس الوزراء حسين رشدى باشا : اننى سأبلغ الانجليز رأيك . ولكنى لا أعدك بأن أوافق عليه . وسأقول لهم انه رأيك الشخصى ..

قال سعد زغلول :

ـــ انه ليس رأيى الشخصى .. انه رأيى باعتبارى رئيس الجمعية التشريعية الممثلة للشعب المصرى .

وعندما عرض رئيس الوزراء اقتراح سعد زغلول على المعتمد البريطانى قابله بسخرية واستهزاء ورفضه بشدة ، وقال ان تعيين سلطان مصر هو حق من حقوق وزير الخارجية البريطانية ، باعتبار أن مصر تحت الحماية البريطانية ، وأن تعيين السلطان سيصدر بقرار وزارى من وزير خارجية بريطانيا !

وكان بعض الانجليز المحليين فى القاهرة يشعرون بكراهية المصريين للأمير فؤاد ، فأراد بعضهم أن يجد حلا وسطا بين اقتراح سعد زغلول وبين تمسك الانجليز بأن يكون تعيين سلطان مصر بقرار منهم ، ففكروا فى أن تعين الحكومة البريطانية محمود باشا سليمان سلطانا على مصر . وذهب بعض الانجليز الى عوامة محمود باشا سليمان الراسية فى النيل ، وعرضوا عليه هذه الفكرة ، فرفض وقال : اننى مستعد لأن أصبح سلطانا لمصر ينتخبه المصريون ، ولست مستعدا لأن أكون سلطانا يعينه الانجليز كما يعينون خادما فى وزارة الخارجية البريطانية .

وهكذا فشلت محاولة سعد زغلول فى أن يكون من حق شعب مصر أن يختار حاكمه ، وصدر قرار فى أكتوبر سنة ١٩١٧ من وزير خارجية بريطانيا بتعيين الأمير أحمد فؤاد سلطانا على مصر !

وقع هذا القرار على بيت سعد زغلول وقع الصاعقة .

وعلق سعد زغلول على هذا التعيين بقوله :

ـــ الانجليز عينوا السلطان حسين سلطانا على مصر ولكنه كان طوال

الوقت يشعر بالخجل والعار لأن الانجليز هم الذين عينوه . أما الأمير فؤاد فهو يشعر بالشرف والفخار لأن تعيينه جاء عن طريقهم ، وكان سيشعر بالخجل لو أن المصريين هم الذين انتخبوه . ان السلطان حسين والسلطان فؤاد أخوان من أب واحد . ولكنهما مختلفان . السلطان حسين طيب ومجنون . والسلطان فؤاد عاقل وشرير . حسين كان يبيع أملاكه ليتشرى رضاء المصريين ، وفؤاد سيبيع المصريين أنفسهم ليشترى رضاء الانجليز . حسين ضرب أحد الوزراء المصريين بالشلوت لأنه ارتكب جريمة زنى مع ابنة أحد زملائه الوزراء . وفؤاد سيدوس بقدميه على شعب مصر كله لكى يحقق مآربه الشخصية . حسين يحب المصريين ويخاف منهم . وفؤاد يكره المصريين ويحتقرهم . حسين أحمق وفؤاد غادر .. حسين ينفجر فى خصومه غضبا ، وفؤاد يعانق أعداءه ويغمرهم بالقبلات وهو يغمد الخنجر فى ظهورهم . حسين يشعر بأن أسرة محمد على ضيفة على مصر . ويحاول أن يستميل أصحاب البيت حتى لا يطردوه من البيت . وفؤاد يعتقد أن مصر ضيعة لأسرة محمد على . هم السادة والشعب هو العبيد .

وما كاد السلطان أحمد فؤاد يتولى عرش مصر حتى اصطدم بأسرة سعد زغلول .. فعندما تسلم خطاب سعيد زغلول بك ، الذى يطلب فيه نقله من القصر الى أى وظيفة أخرى خارج القصر ، هاج السلطان وماج ، واعتبر هذا الطلب وقاحة وقلة ذوق من الموظف الصغير ..

وأرسل السلطان فؤاد الى سعيد زغلول يبلغه أن يختار بين أن يبقى فى وظيفته فى القصر بمرتبه الحالى وقدره أربعون جنيها فى الشهر أو ينقله الى وظيفة صغيرة بوزارة الحقانية بمرتب قدره خمسة عشر جنيها فى الشهر ..

وفوجىء السلطان بالشاب الصغير يقول انه يفضل وظيفة خارج القصر بمرتب خمسة عشر جنيها أى بأقل خمسة وعشرين جنيها من المرتب الذى كان يتقاضاه فى تلك الأيام ..

وأعجب سعد زغلول بموقف ابن اخته وقال له :

اننى سعيد أن ابنى صفع السلطان على وجهه !

وأحس الشاب سعيد زغلول بنشوة وهو يسمع اعجاب خاله سعد زغلول بالموقف الذى وقفه فى مواجهة السلطان فؤاد ، وتمنى أن يرى الفتاة التى أحبها لينقل اليها كلمات الاعجاب التى سمعها بأنه هو الذى صفع السلطان على وجهه .

وكان سعيد الصغير قد أحب الفتاة الصغيرة نازلى وملأت قلبه وفكره وحواسه وأحلامه . كانت طويلة القامة ، رشيقة القد ، بشرتها بيضاء كاللبن ، وشعرها الأسود الطويل ينسدل الى ما تحت ظهرها . عيناها سوداوان واسعتان ضاحكتان . كأنهما آنيتان مليئتان برحيق الآلهة . وكان وجهها مشربا باحمرار فى لون ورد الربيع . ولقد كان سعيد يشعر بأن شيئا مجهولا يجمعهما . انها كانت يتيمة مثله . ماتت، أمها كما ماتت أمه . وقالت أمها وهى على فراش الموت لصفية زغلول : أوصيك بنازلى ... اعتبريها ابنتك ! وعاملتها صفية كأنها ابنتها ، كما تعامل سعيد كأنه ابنها . وكانت صفية ترسل باستمرار العربة الحانطور الى بيت نازلى فى الجيزة ، فتحضرها وتمضى اليوم كله مع رتيبة وسعيد ووهيبة ابنة شقيقة صفية . وكانوا يمضون يومهم فى لعب « لعبة الشايب » . وكان سعيد دائما يكسب اللعبة ويصبح الملك الذى يصدر أحكامه على اللاعب الخاسر . وكانت ورقة « الشايب » تقع غالبا فى يد نازلى فيصدر الملك سعيد حكمه على المتهمة نازلى . وكانت أحكامه على نازلى دائما أحكاما خفيفة سهلة ليست بقسوة أحكامه إذا ما وقع الشايب فى يد شقيقته رتيبة أو صديقتها وهيبة . وهكذا بدأ بين الولد الصغير والبنت الصغيرة تفاهم وصداقة تطورت مع الأيام الى حب . وكان الحب فى تلك الأيام جريمة لا تغتفر . ولكن كانت علاقة العاشقين الصغيرين هى نظرات يتبادلانها فى الخفاء . وبسمات يسرقانها من خلف ظهر شقيقته الكبرى رتيبة وصديقتها وهيبة ، وقد كانتا متمسكتين تمسكا شديدا بالأصول والتقاليد . وهكذا عاش العاشقان سنوات وعناقهما هو النظرات وقبلاتهما هى البسمات ، وأحاديث الهوى بينهما هى أنفاس وزفرات وتنهدات لا تصل الى آذان الرقباء . وذات يوم قطع سعيد وردة من حديقة بيت سعد زغلول وأهداها لنازلى ، فأسرعت وأخفتها فى صدرها ، وأحس سعيد بسعادة لا حد لها وكأنه شعر بأن نازلى ضمته هو الى صدرها .

ولم يكن هواهما البرىء سهلا . فقد كان الاثنان يرتجفان من صفية زغلول ، فإذا جاءت وجلست معهما تشاركهما فى ألعابهما تعمد سعيد أن يتجه بعينيه الى الأرض حتى لا تلتقى عيناه بعينى نازلى ، وتعمدت نازلى ألا توجه إليه أى حديث وكان سعيد يحدث نازلى عن كراهيته للعمل فى القصر ، وضيقه بالحياة فى داخل بدلة التشريفة ، وعن رغبته فى أن يترك عمله فى السراى ليتحرر من قيودها ، فكانت نازلى تشجعه على أن يخطو هذه الخطوة ، وتشاركه فى ايمانها

بالحرية ، وتتعجله فى أن يترك حياة العبيد داخل القصور .. وانتهز سعيد فرصة غفلة من شقيقته وزوجة خاله فعرض على نازلى الزواج فرحبت بالفكرة وشجعته على أن يتقدم لخطبتها .

وكان سعيد شابا طويل القامة ، عريض المنكبين ، جميل الصورة . له عينان جميلتان ، وكان الذين يعرفون سعد زغلول فى شبابه يقولون أن سعيدا كان فى تلك السنوات صورة طبق الأصل من خاله الذى كان فى تلك الأيام يفتن قلوب النساء !

ولهذا لم يكن غريبا أن تقع نازلى فى هواه ، فهو الشاب الوحيد الذى تراه فى محيطها ، من غير أقربائها الشبان ، وقد ساعد على نمو الحب أنه كان يعيش دائما فى خطر . انه يحاول أن يخدع عيون الأذكياء ، فقد كانت صفية زغلول لماحة ، قادرة على أن تقرأ ما تخفيه العيون ، وكانت شقيقته رتيبة مشهورة باليقظة حتى أن أسرتها كانت تطلق عليها اسم « شارلوك هولمز » لقدرتها وبراعتها العجيبة فى اكتشاف الجرائم الغامضة أو السرقات والمخالفات ! .. ومع هذا فقد استطاع هذا الحب الصغير أن يخدع هذه الرقابة الشديدة المتخصصة فى كشف الأسرار وحل الألغاز . ومن طبيعة الحب أنه ينمو فى الخطر أسرع مما ينمو فى جو السلامة . الخطر يمنح الحب رعشته وقلقه وتوقده وحرارته . وجو السلامة يضفى على الحب استرخاء واستسلاما وانطفاء وبرودة ، فيحوله من شىء حى متحرك الى صورة لها اطار معلقة على جدار الحب المسروق كالقبلة المسروقة له طعم النشوة . فيه شىء حراق . له لسعة لذيذة . فيه حلاوة المغامرة وروعة المفاجأة . فيه شعور العاشقين بأنهما ينتصران على قوى ضخمة . كأنهما يخترقان الفضاء فى صاروخ .. بينما الحب المعلن أشبه بالسير على الأقدام !

وفاتح سعيد شقيقته برغبته فى الزواج من نازلى . وطلب اليها أن تتولى ابلاغ صفية زغلول هذه الرغبة لتستأذن سعد زغلول . فقد كان سعيد لا يجرؤ على أن يتقدم بهذا الطلب مباشرة الى خاله .

ورحبت رتيبة بأن يتزوج شقيقها من صديقتها نازلى ، ولكنها قالت انها تفضل أن تسأل صديقتها رأيها .

وألح سعيد على شقيقته فى ألا تسأله نازلى . ولكن شقيقته أصرت على أن تسأل نازلى أولا ، وسألتها ، فقالت لها نازلى وهى تضحك : دعينى أفكر دقيقة !

وأمسكت نازلى ساعتها وراحت ترقب عقارب الثوانى إلى أن قطع مسافة الدقيقة ثم قالت وهى تعانق رتيبة : موافقة جدا !

وذهبت رتيبة الى صفية زغلول وأبلغتها برغبة سعيد فى أن يتزوج نازلى فقالت صفية : ان سعد ابنى ونازلى ابنتى . وأنا ارحب بهذا الزواج ولكن يجب أن أسأل نازلى رأيها قبل أن أعرض الأمر على سعد .

واستدعت صفية زغلول نازلى الى غرفة زينتها وأغلقت الباب عليهما وألقت محاضرة على أن كل فتاة يجب أن تتزوج ، ولكن المهم أن يكون الزوج متعلما ومستقيما . وأن سعيد يريد أن يتزوجك . وانني أعتبر نفسى أمك . ومع انه يسعدنى أن تتزوجى من سعيد الذى أعتبره ابنى . إلا اننى لا أريد أن أؤثر عليك . فأنا أؤمن بأن الفتاة من حقها أن ترفض أو تقبل من يتقدم لخطبتها . صحيح أن التقاليد ترى أن هذا ليس من شأن الفتاة . ولكنى أحب أن أسألك أنت رأيك أولا .

قالت نازلى : اننى لو تزوجته فسوف أكون أسعد فتاة فى العالم .

وضمتها صفية الى صدرها وقبلتها وهى تقول .

— وأنا أرحب أن تقيما بعد زواجكما معى فى هذا البيت ..

وذهبت صفية وأبلغت زوجها سعد زغلول برغبة سعيد فى أن يتزوج نازلى . ولم تخبره صفية بأن سعيد اتفق مع نازلى على الزواج ، فلو أن سعد زغلول عرف أن ابن شقيقته اتفق مع نازلى على الزواج بغير علمه لأثار الدنيا عليهما ، فقد كان الفلاح فيه يعتبر أن ليس من حق أحد من أفراد الأسرة الشبان أن يفكر فى الزواج بغير استئذانه ..

ولهذا حرصت صفية على أن تتقدم الى سعد بالفكرة على انه اقتراح من عندها هى ، فوافق سعد عليه لأن والد نازلى صديقه ، ولأن أمها كانت صديقة زوجته . وطلب سعد من صفية أن تسأل الفتاة أولا قبل أن يتقدم الى أبيها ويطلب يدها لسعيد .

وتظاهرت صفية بأنها لم تفعل هذا بعد . ثم عادت اليه وأبلغته ان نازلى رحبت بالزواج ..

وعندئذ ذهب سعد زغلول وقابل والد الفتاة وطلب يدها لسعيد زغلول ، فرحب الأب وقال انه سيسأل ابنته نازلى ويبلغه بالرد . وتأكد سعد زغلول من أن المسألة انتهت ، فقد كان يعرف من زوجته أن نازلى وافقت على الزواج ..

ثم انشغل سعد زغلول بوفاة السلطان حسين وبترشيح الأمير فؤاد سلطانا

على مصر ، وبمحاولته أن يجعل من حق الجمعية التشريعية انتخاب السلطان الجديد ، وبفشله في تنفيذ رغبته في أن يكون لشعب مصر الحق في اختيار حاكمه ..

وتولى السلطان فؤاد عرش مصر ..

وكان أول قرار أصدره أن تتولى الدولة تسديد ديونه !

وتولت الدولة تسديد ديون السلطان الجديد ، واذا بينها ديون متأخرة للبقال والجزار ولخدم الأمير ، وديون قمار مستحقة لخزانة نادى محمد على ، وديون للترزى الايطالى ديليه ثمن ملابس حصل عليها فؤاد ولم يدفع ثمنها .. وبعض الديون دفعت لصاحبات بانسيونات كان يتردد عليهن الأمير .. وهكذا ظهر أن سلطان مصر كان يأكل « بالشكك » ويلبس « بالشكك » ويحب « بالشكك » أيضا !

وعرف السلطان الجديد أن سعد زغلول كان يتزعم المعارضين في تعيينه سلطانا ، فأرسل اليه صديقه أمين يحيى باشا التاجر الكبير بالاسكندرية ، ليؤكد له أن السلطان فؤاد قرر أن يتغير ، وأن يبدأ حياة جديدة ، وأنه يرغب في تعيينه وزيرا ولكن الانجليز يعارضون في ذلك ، ولكنه سيتغلب عليهم ولن يقبل أن يتلقى أوامر من الانجليز بعد اليوم !

وأبلغه كذلك أن السلطان فؤاد قرر أن يمتنع عن حياة الفسق والفجور وأنه سيصلى الجمعة كل اسبوع ، وأنه يرغب في أن يؤدى سعد زغلول معه الصلاة !

ثم عاد أمين يحيى باشا الى سعد زغلول ذات يوم وقال له ان السلطان الجديد يريد أن يعين عددا من كبار سيدات مصر وصيفات في القصر ، وأنه اختار صفية زغلول لتكون وصيفة . وثار الفلاح في سعد زغلول . غضب أن يفكر السلطان العازب في أن يجعل زوجة سعد زغلول وصيفة في قصره .

وقال سعد زغلول لرسول السلطان وهو ينتفض غضبا :

— قل للسلطان .. ان سعد زغلول ينصحك أن تتزوج فورا !

وخرج رسول السلطان من عند سعد زغلول مباشرة وذهب الى السلطان في قصر عابدين وأبلغه بغضب سعد زغلول وبأنه يرى أن يبادر السلطان بالزواج فورا !

● ● ●

وذات مساء دعا زغلول صديقه عبدالرحيم صبرى باشا مدير المنوفية لمشاهدة إحدى الروايات فى مسرح الأوبرا .

وفى أثناء الاستراحة سأله سعد زغلول

— انك لم تبلغنى بعد موافقتك على زواج نازلى من سعيد وتلعثم عبدالرحيم صبرى باشا وأجاب اجابة مبهمة .

ودهش سعد زغلول ، ودهش اكثر لأن لاحظ تغييرا لم يفهمه فى تصرفات صديقه عبدالرحيم صبرى باشا ، فلم يعد يطيق الدعابة كما كان يفعل من قبل ، ولكنه اعتقد أن صديقه تأخر فى الرد عليه لأسباب طارئة ، ولم يعلق ليلتها أهمية على اجابة صديقه المبهمة ..

ولكن سعد زغلول فوجىء فى اليوم التالى بإعلان خطبة السلطان فؤاد للآنسة نازلى كريمة عبدالرحيم صبرى باشا .. نازلى التى خطبها لابن شقيقة سعد زغلول .. والتى رحبت بهذا الزواج !

ونزل النبأ على سعد زغلول نزول الصاعقة !

لقد قال له سعد زغلول يوم أن استقال من خدمة القصر ، انه صفع السلطان .. ولكن لم تكد تمضى بضعة أسابيع .. حتى تلقى من السلطان صفعة هائلة . صفعة جعلته يترنح ، ويحس كأنه فقد توازنه . صفعة عملاق على وجه ضعيف .صفعة سلطان على وجه موظف صغير . أحس كأنه يهتز ويتهاوى . كأنه يموت وهو على قيد الحياة . اسودت الدنيا فى وجهه . شعر كأن أنفاسه تتقطع وهو واقف على قدميه كأنه يعدو وهو ثابت فى مكانه كأن مطارق هائلة تنهال عليه وهو غير قادر على أن يردها أو يحمى رأسه من هول ضرباتها . ما أشقى العاشق الضعيف عندما ينافسه طاغية جبار . انه فى ضعفه يراه أضخم مما هو ، بينما يرى نفسه أصغر مما هى . يحار : أيضحك من نفسه أم يبكى عليها ؟ هل يكتم الألم أم يصرخ من عذابه ؟ انه يريد أن يتوارى من الناس حتى لا يشهدوا هزيمته . ان هزيمة الرجل أمام رجل آخر عار ، ولكن هزيمة الرجل أمام السلطان ذل وهوان ! انه يشعر كأن كل الأصابع تشير اليه هازئة ساخرة .. هذا هو الشاب الذى خطف منه السلطان الفتاة التى يحبها ! هذا هو الصعلوك الذى تطاول الى مقام الملوك ! هذا هو المجنون الذى يحب زوجة السلطان ! انه يمشى فى الطرقات ورأسه منكس داخل معطفه حتى لا تراه العيون . يريد أن يركض هاربا من هذه الدولة التى يحكمها

غريمه . يريد أن يصرخ . وهو غير قادر على الصراخ . ان الصراخ فى وجه السلطان جريمة عيب فى الذات الملكية !

ويتذكر سعيد نازلى .. هذه الفتاة التى تحبه .. هل تقبل أن تتزوج من هذا السلطان الأفاق ! هذه الفتاة المليئة بالحيوية والشباب هل ترضى بأن تنام فى فراش واحد مع رجل فى سن أكبر من سن أبيها ! ان نازلى لا يمكن أن تقبل هذا الزواج . انها فتاة ذات شخصية لا يمكن اخضاعها . انها ورثت عن جدها لأمها سليمان باشا الفرنسى الذى كان معروفا باسم الكولونيل سيف صفة الثورة . لابد انها ستتمرد على أبيها . لابد انها سوف تثور عليه . لابد انها ستأبى أن يذبحوها قربانا لرضاء السلطان . لابد أن والدها هو الذى أرغمها على هذا الخطبة الغريبة . لابد أنه قيدها بالسلاسل وكممها وسجنها فى بيتها بالجيزة ومنعها من الاتصال بسعيد . ويشعر سعيد بالرغبة فى أن يذهب اليها ويحطم أغلالها ، ويفك قيودها ، ويحررها من أصفادها ، ويحملها على كتفيه ويهرب بها الى خارج مصر فى مكان بعيد لا تستطيع أن تصل اليه يد الطاغية ، ولا جبروت السلطان ، لا يمكن أن تكون نازلى توقفت عن حبه . ان قلبه يؤكد له انها تهواه . لقد عاش هذا الحب عدة سنوات . لاتزال فى أرجاء بيت سعد زغلول بقية من رائحة هذا الحب وشذاه . لا تزال خفقات قلبى العاشقين الصغيرين تحملها تموجات الهواء فى الدار التى شهدت مولد الحب وطفولته وربيعه . لا تزال بقية من نازلى فى الحديقة بجوار أشجار الورد . لا تزال انفاسها فى صالة الطابق الأول حيث كانا يلعبان « لعبة الشايب » . هذه اللوحات الزيتية شاهدت أصابعهما وهى تتشابك وتتعانق وتتناجى . ان عقل سعيد يقول له ان نازلى تكره حياة القصور ، تمقت معيشة الملوك . ترفض أن تكون جارية فى القصر وإن كانت جارية تحمل لقب صاحبة العظمة السلطانة ! ألم تشجعه نازلى على الاستقالة من منصبه فى القصر ليتنفس الهواء بدلا من أن يختنق فى الجو الموبوء . ألم تقل له انها توافقه على أن مرتبه الذى انخفض الى خمسة عشر جنيها فى الشهر وهو حر ، أشرف له ولها من مرتب أربعين جنيها وهو عبد رقيق ؟ الم تقل له نازلى انها تفضل أن تعيش معه يأكلان العيش والملح فى عالم الحرية ، على أن يعيشا معا وهو مسجون فى داخل بذلة التشريفة الموشاة بالقصب والمرصعة بالأوسمة والنياشين ؟ الم يحدث أن جاءت سيدة الى بيت سعد زغلول وقرأت كف نازلى وقالت لها : ستكونين ملكة فى يوم من الأيام . وشهقت نازلى وقالت : مستحيل أن أرضى أن أكون ملكة إلا إذا فقدت عقلى .

ماذا حدث إذن لنازلى ؟ هل فقدت عقلها خلال أيام قليلة ؟ هل جنت ؟ هل يموت الحب بالسكتة القلبية ؟ هل يمكن أن تفقد المرأة رأسها عندما ترى التاج . فتنسى فى لحظة واحدة حب عمرها وأحلام حياتها ؟ هل التاج كبير جدا اذا وضعه الانسان على رأسه غطاه حتى يجعل الانسان يفقد النظر فلا يبصر ، ويثقل على الرأس فيعطل ملكة التفكير . هل يمكن أن يكون للماس الذى يحلى التاج سلطان على القلب فيبهره كما يبهر العين ، فيصاب القلب بالعمى ، أو أن فى التاج مغناطيسا قادرا على أن يسلب الحب من القلب ، وينتزع الهوى من الروح ، ويستل العشق من الفؤاد ؟

وكان سعد زغلول واثقا من أن نازلى سترفض هذا الزواج . كان يحبها . لقد حملها وهى طفلة تحبو كان يعطف عليها ويعجب بأدبها وذكائها . كان يرى خسارة كبرى فى أن تتزوج الملاك الصغير من شيطان كبير . كان واثقا من أن نازلى ستفضل أن تعيش فى بيته زوجة لابن شقيقته سعيد ، على أن تعيش زوجة السلطان فؤاد فى قصر عابدين !

وكانت زوجته صفية زغلول مؤمنة بأن نازلى لا يمكن أن تخطو مثل هذه الخطوة قبل أن تستأذنها باعتبارها فى مقام أمها . كانت مؤمنة بأن العلاقة التى بينهما أقوى من العلاقة التى بين نازلى وأبيها ، فقد كانت نازلى تلجأ فى كل أمر من أمورها الى صفية . فهل يصدق عقلها أن تقدم نازلى على هذه الخطوة بغير استشارتها واستئذانها ، وهى التى سمعتها بأذنها تقول لها انها لو تزوجت من سعيد زغلول فستكون أسعد امرأة فى العالم ؟

وكانت رتيبة زغلول تعتقد أن صديقتها سترحب بأن تكون سلطانة ، فلم تكن حتى تلك الأيام تعرف بقوة العلاقة بين شقيقها الصغير وصديقتها الصغيرة .

وكان سعيد زغلول فى دهشة من أن حبيبته نازلى لعبت لعبة « الشايب » بعيدا عنه .

فوقع فى يدها الشايب ولم تنتفض كما كانت تفعل دائما عندما تبقى معها ورقة الكوتشينة المرسوم عليها الشايب وتصرخ جزعا ! بل انها احتفظت فى اللعبة بالسلطان « الشايب » وأصبحت ملكة فى الوقت نفسه ، وأصدرت حكمها .. انه حكم بالاعدام على قلبها وقلب سعيد !

ومضت الأيام ونازلى لا تتصل ببيت سعد زغلول .. وكانت قبل ذلك تتصل بهذا البيت تليفونيا عدة مرات !

وشعر كل فرد في هذه الأسرة بأنه مقهور مهزوم مغلوب على أمره . أحس سعد زغلول أن كبرياءه جرحت لأن السلطان خطف الفتاة التى اختارها زوجة لابنه بالتبنى . رأى فى عينى سعيد الألم الصامت والعذاب الدفين والكآبة المريرة أحس سعد بأن السلطان أصر على أن يتزوج من نازلى رغبة منه فى أن يبطش بالتشريفاتى الصغير الذى جرؤ على اعلان العصيان ، ورفض أن يبقى فى القصر دقيقة واحدة بعد أن تولى فؤاد عرش البلاد . فأراد أن يلطم هذا الشاب لطمة تهوى به الى قرار سحيق من الهزيمة والعار . وأحس أيضا أن السلطان أراد أن يلطمه هو ، لأنه تزعم المعارضة ضد توليه العرش ، ولأنه طالب بأن يكون للشعب حق اختيار حاكمه ، وأن يكون حكم المصريين للمصريين ، فجاء السلطان وأراد أن يذل هذا الفلاح الكبير ، ويمرغ رأسه فى التراب ، ويفهمه انه ليس من حق الفلاحين أن يختاروا ملوكهم ، بل ليس من حقهم أن يختاروا زوجات أبنائهم ، وبذلك يكسر قلبه ، ويحطم كبرياءه ، ويضعه فى مكانه ، ويدوس على أحلامه . ولعل هذا الحادث الصغير رسب فى ضمير الفلاح الكبير مع رواسب كثيرة سبقته فى صراعه المرير ضد سيطرة الحكام الأجانب على الشعب المصرى . فقد كانت حياته منذ شبابه صراعا لا يتوقف إلا ليتجدد . ولا ينتهى إلا ليبدأ ، ولا يستكين إلا ليتنمر من جديد ..

وأحست صفية زغلول بصدمة عنيفة . كأن السلطان اختطف ابنتها . الفتاة الصغيرة اليتيمة الجميلة التى طلبت أمها وهى على فراش الموت من صفية أن تأخذها وديعة عندها وأن تكون أمها بدلا منها . كانت صفية تعتقد أن السلطان فؤاد آخر من يصلح زوجا لنازلى . انه رجل فاسد أفاق لا أخلاق له . يستبدل عشيقاته كما يستبدل جواربه ! ان نازلى ستكون شقية فى زواجها ، سجينة فى قصرها . ان زوجة السلطان هى أشقى حريم السلطان . انها سجينة فى قفص من ذهب . كل من حولها يتجسس عليها . تحسب عليها خطواتها . ترقب أنفاسها . تحاك ضدها الدسائس . تدبر لها المؤامرات . لقد كانت صفية زغلول صديقة للأميرة اقبال زوجة الخديو عباس . وطالما سمعت منها القصص المحزنة عن تعاستها وعذابها . طالما رأتها تبكى وهى تقول : كنت أتمنى أن أتزوج كناسا ولا أتزوج ملكا ! كانت تروى لها كيف كان الخديو يصفعها ويضربها ويركلها بقدمه ، وكيف انها اشتبكت ذات مرة فى مشاجرة مع عشيقة الخديو النمساوية فأرغمها الخديو عباس على أن تذهب لكى

تعتذر لعشيقته وتطلب اليها الصفح والغفران ! وقد كانت صفية تقول ان الملكة هى جارية على رأسها تاج !

وكانت رتيبة تشعر بأن السلطان خطف منها صديقتها ! وقد سرها فى أول الأمر أن صديقتها الحميمة ستصبح سلطانة .. ولكنها عندما قرأت الدموع فى عينى شقيقها المفجوع جزعت ، ثم عندما عرفت من سعيد قصة الحب التى جمعته بنازلى فى غفلة منها أحست بعظم الفجيعة . ان صديقتها خانت شقيقها . باعته واشترت التاج . داست على قلبه لتصل الى العرش .. ولكنها مع حبها لأخيها وسخطها على هذا الزواج لم تستطع أن تكره نازلى . كانت دائما تحاول أن تلتمس لها المعاذير والأسباب . لعلها فعلت ما فعلت خضوعا لارادة أبيها . لعل شقيقيها حسين وشريف ألحا عليها فى قبول هذا الزواج . لعل سوء حالة أبيها المالية هو الذى اضطرها لأن تضحى بنفسها لانقاذ أسرتها .

وتم عقد زواج السلطان فؤاد من الآنسة نازلى عبدالرحيم صبرى .

وعاشت الأسرة فى حزن ، كأنها فقدت احدى بناتها ! كان زفاف نازلى للسلطان هو جنازتها . وكان قصر عابدين هو قبرها . وكان ثوب عرسها المرصع بالماس واللؤلؤ هو كفنها ! وكان زوجها السلطان فؤاد هو الذى خطفها منهم وذبحها ودفنها فى قبر من ذهب مرصع بالماس !

ولم يذهب أحد من الأسرة الى بيت نازلى يهنئها بالخطبة ولم يذهب أحد الى القصر ليهنىء السلطان بزفافه .. كانت زغاريد الأسرة فى ليلة الزفاف هى الدموع والتنهدات !

● ● ●

وبعد ذلك ظهرت الحقيقة .

عندما ذهب أمين يحيى باشا الى مقابلة السلطان وأبلغه بأن سعد زغلول ينصحه بأن يتزوج فورا ، اعتقد السلطان ان بقاءه أعزب هو ثغرة يمكن أن ينفذ منها خصومه للطعن عليه مستغلين سمعته السيئة كزئر نساء !

وأسرع الملك فؤاد الى لادى جراهام قرينة صديقه سير جراهام المستشار البريطانى لوزارة الداخلية وطلب اليها أن تبحث له فورا عن عروس ..

وقالت لادى جراهام انها تعرف الآنسة نازلى عبدالرحيم صبرى .. وأطلعته على صورة فوتوغرافية لها .. وقالت انها تخشى ألا تقبل نازلى هذا الزواج لأنها أخبرتها بأنها مخطوبة لسعيد ابن شقيقه سعد زغلول .

وطلب السلطان من لادى جراهام أن يرى نازلى .

فقالت له لادى جراهلم انه ليس من الممكن أن تجعله يلتقى بنازلى لأن تقاليد أسرتها تمنع هذا اللقاء ، ولكن من الممكن أن تدعو نازلى لتناول الشاى عندها ، وأن يختبىء السلطان خلف ستارة ويرى نازلى .. وافق السلطان على الفكرة وذهبت نازلى الى بيت لادى جراهام مع شقيقيها وتناولت معها الشاى ، ورآها السلطان من خلف الستار ..

ولما عرف السلطان أن نازلى سوف تخطب الى سعيد زغلول التشريفاتى الذى رفض أن يبقى للعمل فى قصره بعد توليه العرش ، وفضل وظيفة صغيرة خارج القصر على وظيفة كبيرة فيه ازداد تمسكه بأن يتزوج نازلى . كان فؤاد من أسرة تعشق مالا تمتلك ، وتزهد فيما تمتلك ، تتشبث بما فى أيدى الناس وتحتقر ما فى يدها . تريد أن تخطف من الناس ما فى أفواههم . لذتها أن تحرم الآخرين أكثر من لذتها فى أن تحصل على ما تريد . وقد ورث فاروق ابن فؤاد عن أبيه هذا الخلق الغريب . فبعد ثلاثين سنة تقريبا من هذا الحادث خطف فاروق الآنسة ناريمان صادق من خطيبها الدكتور زكى هاشم . ولم يثره جمالها ، وانما أثاره شعوره بأنه يخطفها من الخطيب الذى يحبها ، وأنه يأخذ اللقمة اللذيذة من فم رجل آخر . فالملك فؤاد كالملك فاروق لم يكن لهما ذوق فى اختيار النساء ! كانا يريان النساء بعيون الآخرين . ما يعجب الرجل الآخر يعجبهم . تستهويهم زوجات الآخرين . تجذبهم قصور الآخرين ، وممتلكات الآخرين ، ومجوهرات الآخرين ، أضعاف أضعاف ما يستهويهم ويثيرهم ما يملكون من نساء وقصور وزوجات وممتلكات ! فهو لا يعرف قيمة ما سلب إلا بمقدار شقاء المسلوب ، ولا يحس بلذة ما نهب إلا عندما يرى عذاب المنهوبين !

وعندما قامت ثورة سنة ١٩١٩ وهاجم الشعب السلطان ، اتهم الشعب فى أغانيه وأناشيده نازلى بأنها كانت عشيقة السلطان قبل أن تتزوجه ، وأنها حملت منه ، وأنه اضطر الى زواجها ليخفى جريمة اغتصابها وحملها ، وأن فاروق ابن زنى !

ونظم الشاعر بيرم التونسى زجلا مشهورا نشره فى مجلته « المسلة » وصف فيه الزفاف الذى تم قبل الخطبة والحمل الذى وقع قبل الزواج وؤ ويؤكد أن « الفرخة كانت مذبوحة » و « القرع كان سلطانى » ورددت الجماهير هذه الأزجال والأناشيد فى وقت الثورة وطبعت منشورات تتهم صراحة الأمير فاروق ولى العهد بأنه ابن زنى !

وغضب السلطان فؤاد على الشاعر بيرم التونسى ونفاه الى خارج مصر ، وبقى منفيا حتى مات الملك فؤاد ، ولم يعد الى مصر ألا بعد وفاته بعامين ؤ

ولم يكن فاروق ابن زنى ؤ كل ما هناك أنه ولد بعد الزفاف بسبعة شهور وهو أمر يحدث كثيرا بسبب كبر حجم المولود ؤ

وللتاريخ كانت نازلى مظلومة فى هذه التهمة ؤ

ولكن للتاريخ أيضا فأن نازلى رحبت بزواجها من السلطان فؤاد على الفور ، ولم تعترض كما تصور سعد زغلول ، ولم تربط بالسلاسل وتقيد بالأغلال كما تصور سعيد زغلول ؤؤ

وعاش سعيد زغلول فى عذاب ؤؤ

كان يرى صورة غريمه فى كل ديوان يدخله ؤ يقرأ اسمه فى كل جريدة يفتحها ؤ ولم تحاول نازلى أن تتصل بسعيد بعد خطبتها ، أو ترسل له كلمة اعتذار ؤؤ

ومات سعيد زغلول بعد ذلك بسنوات قليلة ؤؤ

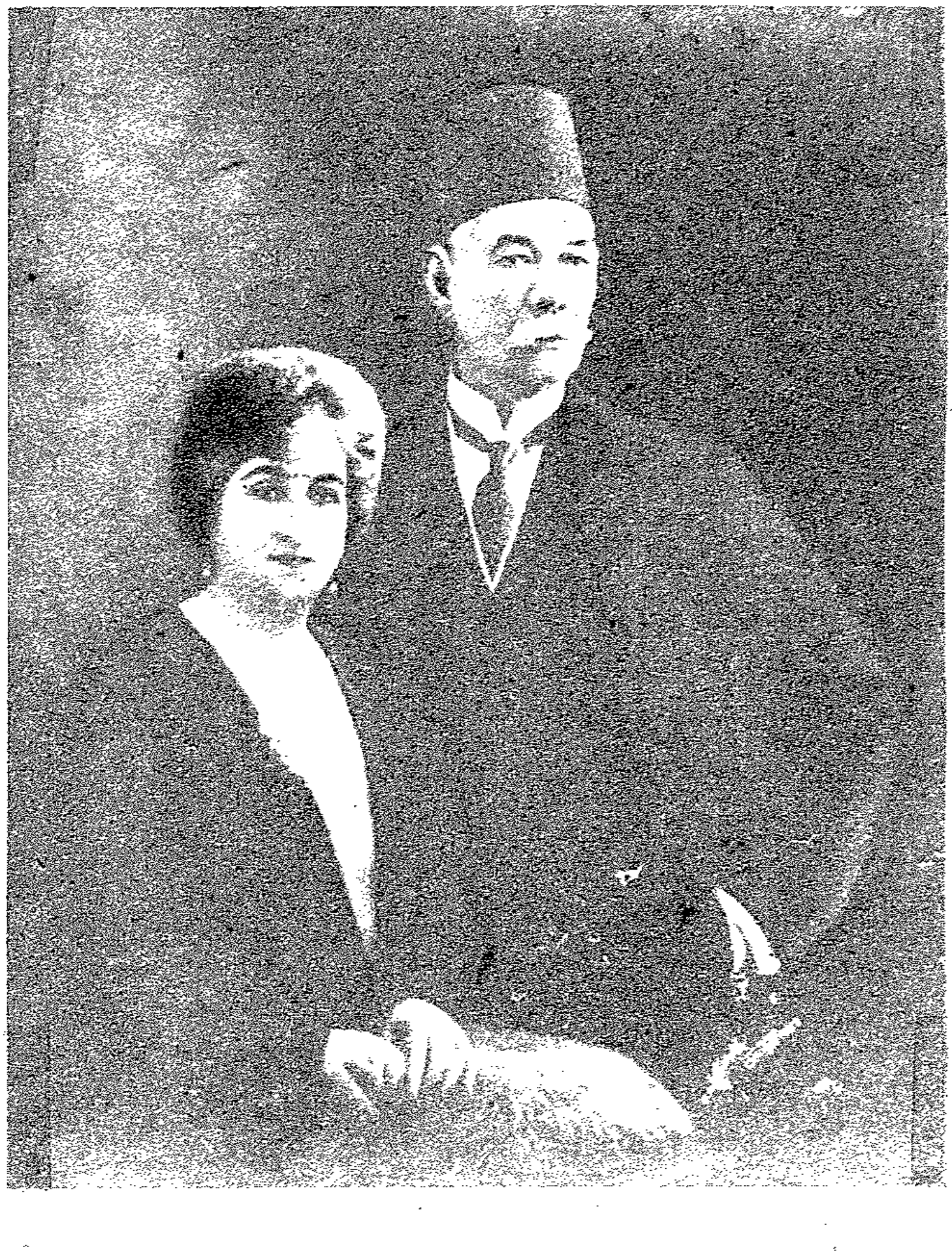
مات حزينا ، معذبا ، محسورا ، مهزوما !

وكانت نازلى تقول اننى أعرف أنه مات وهو يلعننى ؤؤ

ولكن أحدا لم يسمع سعيد يلعنها ؤؤ

فأن اللعنة لم تصبها ألا بعد وفاته بثلاثين سنة !

●●●



●● صورة نادرة للزعيم سعد زغلول والسيدة الجليلة أم المصريين .

• الفصـل الثـالـث •

بيوت صغيرة من الطين . مربعة ومستطيلة ومستديرة . بعضها مسقوف بالقش ، وبعضها مسقوف بالحصير وبعضها بلا سقوف على الاطلاق . تقيم فى كل بيت منها أسرة ، وأحيانا أسرتان ، وكثيرا ما كانت تقيم أربع أسر فى بيت واحد . الكل يعيش فى فقر مدقع . الذين يملكون والذين لا يملكون . الذى يملك فدانا كالذى يملك عشرة أفدنة . زبانية الحاكم ينتشرون فى الأرض فى لحظة ظهور المحصول فيفعلون فى المزارع ما يفعله الجراد . الحاكم لا يشبع . لا يهمه ساء المحصول أو أكلته الآفات . كل ما يهمه أن يجمع أكبر ما يستطيع من دم هؤلاء الفلاحين . انهم عبيد افندينا .

مهمة العبيد أن يزرعوا ويحصد أفندينا . أن يشقوا ويسعد أفندينا . أن يجوعوا ويأكل أفندينا ! والفلاحون فى قرية ابيانة فى شمال الدلتا لم يعرفوا وجه أفندينا هذا . وإنما يرون وجه المتصرف التركى الذى يهبط على القرية فوق حصان أبيض ، وفى يده سوط ، ويقوم بعملية السرقة الرسمية فى وضح النهار . يسطو على المحصولات بلا خجل ولا حياء . ينتزع طعامهم من أفواههم . يلهب بالسوط ظهورهم إذا ترددوا فى دفع ما يأمرهم أن يدفعوه . ان أوامره نهائية لا تقبل مناقشة . أحكامه غير خاضعة للنقض والابرام .

وكان الشيخ ابراهيم زغلول شيخ بلد ابيانة . يدفع صاغرا كما يدفع الفلاحون . يشهد أرضه تنهب أمام عينيه فلا يفتح فمه . كان الفلاحون جميعا ينظرون الى المتصرف التركى باعتباره قضاء وقدرا لا يستطيعون لهما ردا ولا دفعا . يحنون رءوسهم له اذا أقبل عليهم ، ويلعنونه اذا أدبر عنهم . يبشون فى وجهه وهو يغتصب محصولاتهم أمام أعينهم . كانوا يعرفون انهم يشترون بما يدفعون بقايا حريتهم وحياتهم ، ويحمدون الله على ما بقى فى الأرض مما عف المتصرف عن أخذه معه . وكان أهل القرية يكتفون بالدعاء لله ان ينقذهم من المتصرف التركى . أن يقبض روحه فلا يجىء اليهم . أن يشل يده التى تحمل السوط ليجدوا الجرأة على الوقوف فى وجهه . ولكن الله لم يقبض روحه ، ولم يشل يده ، بل كان المتصرف يزداد صحة وقوة وطغيانا ، والفلاحون يزدادون مرضا وضعفا واستخذاء .

وفي أحد المواسم ساء المحصول ولم تنتج الأرض من الدريس والقمح إلا ما يكفي لسد بطون الفلاحين طوال العام . وجاء المتصرف التركي فوق حصانه الأبيض يطالبهم بأن يدفعوا لأفندينا ما اعتادوا أن يدفعوه في مواسم الرخاء .

وتقدم الشيخ ابراهيم زغلول نحو المتصرف التركي وقال له :

— لن ندفع هذا العام لأنه ليس لدينا ما ندفع !

وشتم المتصرف التركي الشيخ ابراهيم زغلول وسبه وأهانه ..

وأصر الشيخ ابراهيم زغلول على أن الفلاحين لن يدفعوا ..

وهنا رفع المتصرف التركي سوطه وهم بضرب الشيخ أبراهيم فما كان من الشيخ ابراهيم إلا أن هجم على المتصرف التركي ، وانتزعه من فوق جواده الأبيض ، وهوى به على الأرض وانقض عليه ضربا وصفعا ..

وعرفت القرى المجاورة ما فعله الشيخ ابراهيم زغلول بالمتصرف فامتنعت بدورها عن أن تدفع شيئا للحكومة .

وكان سعد زغلول يروي دائما لأسرته قصة أبيه الشيخ ابراهيم زغلول ، فقد شهده في طفولته وهو ينتزع الطاغية من فوق الحصان وكان يقول :

— كان المتصرف التركي فوق الحصان يبدو أمام عيوننا عملاقا قدمه أعلى من رؤوسنا ، وكان يبدو لنا أطول مما هو ، فلما انتزعه أبي من فوق الحصان وألقى به على الأرض بدا قزما صغيرا ! لا يستحق هذه الصورة الرهيبة التي أفزعت الفلاحين طوال هذه السنين . ولقد رأيت هذا الفارس وعمري ٥ سنوات ولا تزال صورته ماثلة أمام عيني إلى اليوم !

وهكذا عاش سعد حياته يحاول أن ينتزع الطاغية من فوق الحصان !

وجلدوا الشيخ ابراهيم .. ومات الشيخ ابراهيم زغلول بعد هذا الحادث بعام واحد ، وكان عمر سعد الصغير ست سنوات ، وعندما بلغ الحادية عشرة من عمره أدخله أخوه الأكبر الى الأزهر . وكان أصغر تلاميذ الفيلسوف الثائر جمال الدين الأفغاني . وكان يتردد على بيته ويجلس أمامه مبهورا ، وكأنه منوم تنويما مغناطيسيا . ومن فم جمال الدين سمع أول كلمات سمعها في حياته عن أن الشعوب يجب أن تثور على الطغاة والمستبدين والمستعمرين . ان الشعب المصري قادر على أن يبقر بطون غاصبيه . انه أقوى من مستغليه . ان الحرية تؤخذ ولا توهب . ان الشورى هي أساس الحكم . وحدث أن طلب السيد جمال الدين الأفغاني من جميع تلاميذه أن يكتبوا بحثا عن الحرية وحق الشعوب فيها ..

وكتب جميع التلاميذ الموضوع المطلوب ، وقراها جمال الدين فإذا به يكتشف ان سعد زغلول وهو أصغر تلاميذه سنا أحسن من كتب عن الحرية ، بينما كان بعض تلاميذ جمال الدين في الستين من عمرهم !

وقال جمال الدين :

— من علامة نشأة الحرية في هذا الشعب ألا يجيد الكتابة في الحرية إلا ناشىء كهذا الفتى الصغير !

وذهل التلاميذ أن يكتب شاب في الثامنة عشرة بهذه القوة والبلاغة وبهذا الأسلوب الثورى الجديد !

وكان الشيخ محمد عبده من تلاميذ جمال الدين ، وكان قد سمع رأى جمال الدين في سعد زغلول ، لهذا عندما عين رئيسا لتحرير جريدة الوقائع المصرية اختار سعد زغلول ، وهو في العشرين من عمره ، مساعدا لرئيس التحرير ، ورئيسا للقسم الأدبى ..

وإذا بسعد زغلول يكتب في جريدة الحكومة الرسمية مقالات يطالب فيها بالشورى ، وأن يحكم الشعب نفسه بنفسه ، ويهاجم الطغاة والمستبدين ، ويثبت أن الدكتاتورية والطغيان ضد الدين ..

واستمر سعد زغلول يكتب مهاجما الحكم المطلق الى أن قامت الثورة العرابية ، واذا بمكتبه في جريدة الوقائع المصرية يتحول الى مكان يجتمع فيه شباب الثورة ، واذا به يؤلف خلايا من الشبان ، كل خلية مؤلفة من اثنين ، لمساعدة الثورة . وأصبح سعد زغلول هو رئيس حركة الشباب السرية في ثورة عرابى ! كان يحاول أن ينتزع الطاغية من فوق الحصان !

وفشلت الثورة . وقبض على سعد زغلول ، وطرد من وظيفته ، وخرج من السجن ، وبحث عن أصدقائه فوجدهم مشردين هائمين على وجوههم . بحث عن أستاذه محمد عبده فوجده منفيا في لبنان . أمضى زمنا بلا مأوى وبلا عمل . كان الانجليز قد سيطروا على كل شىء . كانت تهمة الاشتراك في الثورة العرابية الفاشلة أشبه بمرض الجذام يهرب منها الأصحاء !

واضطر أن يحترف المحاماة . رفضت كل الصحف أن تقبله محررا فيها .

وكانت المحاماة في مصر وقتئذ مهنة حقيرة . لم يكن في مصر كلها محام واحد يحمل شهادة عليا ! وما كاد يستقر في عمله في المحاماة حتى بدأ يجتمع بالشبان الذين عملوا تحت رياسته في العمل السرى في ثورة عرابى . وألف جمعية اسمها الانتقام . مهمتها أن تنتقم لمصر من جيش الاحتلال ومن الذين

تعاونوا مع جيش الاحتلال ومن الذين خانوا الثورة . وقبض الانجليز على سعد زغلول . وفشلوا فى اثبات التهمة عليه ، لأن الخلية الواحدة كانت مؤلفة من اثنين فقط ، ولم تستطع سلطات الاحتلال أن تجد ضد سعد زغلول سوى شاهد واحد . وحكمت المحكمة ببراءته لعدم كفاية الأدلة . ولكن الانجليز أبوا الافراج عنه فظل مسجونا أكثر من ثلاثة أشهر بعد الحكم ببراءته . وفى السجن بدأ يدرس أسباب فشل ثورة عرابى ، وأسباب فشل جمعية الانتقام التى ألفها . وأسباب فشل الخلايا السرية التى كونها من الشبان لمساعدة الثورة .

وقد وصل فى دراسته الى أن ثورة عرابى فشلت لأنها خلت من قيادات متعلمة ولأن الشعب غير متعلم ، ولأن الثورة لم تتغلغل فى الريف ، ولأن القيادات كلها كانت معروفة ، فما ان قبض الانجليز على القادة حتى انتهت الثورة ، ولأن الثورة اعتمدت على الجيش وحده ، وعندما انهزم الجيش انهزمت الثورة معه . وخرج سعد زغلول من السجن وهو مصمم على أن يؤلف جمعية جديدة للانتقام مؤلفة منه وحده ! وأن تكون مهمته أن ينظم ثورة يتلافى فيها كل أخطاء ثورة عرابى ، وكل أخطائه فى تأليف الخلايا السرية وجمعية الانتقام !

وكان سعد زغلول يقول انه بدأ فى التفكير فى ثورة ١٩١٩ فى أواخر سنة ١٨٨٢ أى أنه مكث سبعا وثلاثين سنة يفكر فى هذه الثورة ! وانه لولا أن ورث الصبر عن أمه « مريم » لما استطاع أن يحقق هذا الأمل ! وانه جاءت أوقات كثيرة يئس فيها من قيام مثل هذه الثورة ، وحدث فى وقت من الأوقات أن فكر فى الهجرة من مصر كلها ! وأول ما فكر فيه هو نشر التعليم ، فاشترك فى تأليف الجمعية الخيرية الاسلامية ، وكان الغرض الأساسى من تأليف هذه الجمعية هو إنشاء مدارس غير خاضعة لسلطة الاحتلال ، ثم دعا لانشاء الجامعة المصرية ، وعندما أصبح وزيرا للمعارف كان كل اهتمامه موجها الى انشاء الكتاتيب والمدارس ليتلافى الجهل الذى أدى الى فشل ثورة عرابى . ثم قرر أن يوفد البعثات الى أوربا ، واشترط فى الذين يوفدهم فى البعثات أن يكونوا شبانا يصلحون لأن يتولوا قيادات فى الثورة . ومن الغريب أن أكثر زعماء الجهاز السرى فى ثورة ١٩١٩ كانوا ممن أوفدهم سعد زغلول بنفسه إلى بعثات فى الخارج . وكان يصر على أن يستقبل الطلبة المتفوقين بنفسه ويناقشهم قبل أن يختار من يوفده الى الخارج . فهو لا يرسل إلا الشاب

ذا الشخصية القوية ، والذى يصلح للقيادة . وحدث أن قابل سعد زغلول أول الليسانس فوجده شخصية مهزوزة ، وقابل ثانى الليسانس فوجده غير مؤمن بمصر ، وقابل ثالث الليسانس فأعجب بشخصيته ، فاختار الثالث ليوفده فى البعثة ورفض أن يوفد الأول والثانى . وكان أول الليسانس من الأقباط . وعلم بذلك مستر دنلوب مستشار وزارة المعارف الانجليزى فهاج وماج ، واتهم الوزير سعد بالتعصب لأنه رفض إرسال الطالب المسيحى الذى كان ترتيبه الأول فى الليسانس واختار الثالث وعجب أن يهتم وزير المعارف بنفسه باختيار من يرسلونه فى البعثات . ولكن سعد أصر على موقفه ، واستمر يختار بنفسه، أعضاء البعثات ، الذين أصبحوا فيما بعد هم ساعده الأيمن فى ثورة سنة ١٩١٩ فالدكتور أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى وحسن كامل الشيشينى ومحمد شرارة زعماء الجهاز السرى للثورة هم شبان اختارهم سعد زغلول وهو وزير للمعارف وأوفدهم بنفسه الى بعثات فى أوروبا

وكان سعد زغلول مؤمنا بالشعب المصرى ، كان يعتقد أن هذا الشعب على استعداد دائما لأن يؤيد كل ثورة تحطم القيود التى كبلته وتدمر الأصنام التى استعبدته . ويحارب الذل والطغيان والاستبداد . ويقاوم الاستعمار بمخالبه وأنيابه ، وجشعه وجبروته ، وينقض على الذين امتصوا دمه مئات السنين . وكان يؤمن بأن الشعب لم يخضع يوما واحدا لهذا الطغيان ، ولم يكف عن المقاومة ، ولم يتردد مرات كثيرة فى أن ينتفض ثم ينقض على غاصبيه . ولكن فى كل مرة فعل ذلك ضربت ثورته من الخلف ، ولم يستطع أن ينطلق انطلاقته الكبرى . كان يهز الفارس الطاغية فوق حصانه ، ولكنه لم يستطع أن يقتلعه من فوق الحصان .

وكان سعد زغلول يؤمن بأن على مدى التاريخ لم يحدث أن شعبا من الشعوب ثار بعدد المرات التى ثارها الشعب المصرى . وهو لا يثور إلا على الأقوياء . ولا يضرب إلا العمالقة ، ولا يحارب إلا المنتصرين ! وهو أمر يدل على « فروسية » هذا الشعب ، وأن الثورة عنده ليست فرصة ينتهزها ، وإنما هى احساس يملأ قلبه . وإيمان يسيطر على حواسه ، فإذا قرر أن ينتفض لا يهمه السلاح فى يد خصمه ، واذا صمم أن يقاوم ، فإنه لا يحسب أى حساب قبل أن يخوض المعركة . متحديا قوى أكبر منه ، وأضخم ..

ولقد اشترك سعد فى ثورة عرابى باعتبارها حركة فلاحين حركة موجهة ضد الخديو الأجنبى ، وضد الباشوات الشراكسة الذين وزعوا أرض الفلاح على

أنفسهم وجواريهم ومحظياتهم ، وضد الذين طعنوا الثورة من الخلف ، وتعاونوا مع الانجليز ، ولولا تعاونهم مع الانجليز لما استطاع الجيش البريطانى أن يهزم عرابى ويحتل مصر ويقضى على الثورة .

وعندما قامت حركة مصطفى كامل . كان من رأى سعد زغلول أن تبدأ الحركة من النقطة التى انتهت اليها ثورة عرابى ، أى تبدأ بمقاومة الخونة الذين مهدوا لجيوش الاحتلال . أن تبدأ ضد سلطان تركيا الذى وزع على الفلاحين منشورا بصفته خليفة المسلمين يقول فيه ان كل من يقف بجوار عرابى كافر يدخل النار . وهكذا استغل سلطان تركيا سلطته الروحية ليقاوم الثورة ويرى فى كل من يدعو للحرية والديمقراطية كافرا خارجا على الاسلام ، وأن من يتعاون مع الاحتلال البريطانى والطغيان التركى مسلم يدخل الجنة ! وكان سعد فى تقييمه لأسباب فشل ثورة عرابى ، يعتقد أن هذه الفتوى الغريبة خدعت الفلاحين وغررت بهم وصرفتهم عن مقاومة الاحتلال .

ولكن سعد زغلول فوجىء بأن حركة مصطفى كامل كانت عكس ذلك تماما . تقف على خط مستقيم ضد آرائه ومعتقداته بصفته أحد تلاميذ ثورة عرابى .

كان مصطفى كامل يؤمن بأن محاربة الانجليز تكون بالانضمام الى تركيا ، وبالولاء لسلطان تركيا باعتباره خليفة المسلمين . وكان مصطفى كامل يبرق الى الخليفة فى استانبول يقول له فى برقياته بالحرف الواحد : «وستكون علاقة مصر بتركيا الى الأبد علاقة التابع بالمتبوع » !

وكان سعد زغلول يعتقد أن الأتراك طغاة مستبدون .لا تزال آثار سياطهم على ظهور الفلاحين المصريين . وكان يتابع مذابحهم فى البلاد العربية ومحاربتهم للحرية والديمقراطية . فكيف نثور لنستبدل بسوط الانجليز سوط الأتراك ! يجب أن نثور على كل صاحب سوط . فنحن نحارب الطغيان لا جنسية الطغيان !

وكان مصطفى كامل يتحالف مع الخديو عباس . ويعتبر الهجوم على عباس هجوما على الوطن . وقد ظهر من مذكرات محمد فريد أن الخديو عباس كان يساعد حركة مصطفى كامل بالمال . وكان مصطفى كامل يعتقد أن الخديو شاب وطنى ، أليس الخديو يكره الانجليز ؟ أليس الخديو يدفع مالا للحركة الوطنية التى تقاوم الانجليز ؟ أليس الخديو يكره عملاء الانجليز ؟

وكان سعد زغلول يرى أن الخلاف بين الخديو والانجليز ليس خلافا على استقلال مصر ، وإنما هو خلاف على من يستقل بحكم مصر . فالخديو لا يريد

أن تكون مصر حرة ، وإنما أن يكون هو حرا يفعل ما يشاء بالمصريين وهو لا يريد أن يكون المصريون مستقلين ، وإنما يريد أن يكون هو مستقلا بالمصريين أى أن الخديو يريد أن يحرر المصريين من الانجليز ليتولى هو استعبادهم كما فعل أبوه وجده ، وأبو جده من قديم الزمان !

وكان مصطفى كامل يعتقد أن أحمد عرابى خائن لمصر ، وأن ثورته على العرش خيانة عظمى ، وكانت صحف مصطفى كامل تقول صراحة أن ثورة عرابى قامت بالاتفاق مع الانجليز ، وأن الغرض منها هو تبرير احتلالهم لمصر !

وكان سعد زغلول يؤمن بأن أحمد عرابى وطنى ، وأن ثورة عرابى وطنية ، وأن الذى اتفق مع الانجليز على احتلال مصر هو الخديو توفيق والد الخديو عباس وليس عرابى باشا ولا العرابيون . وقد كون عقيدته هذه كفلاح مصرى ، شهد بعينيه السخرة ، ورأى سياط عملاء الخديو وهى تلهب ظهور الفلاحين ، ومهد لثورة عرابى ، واشترك فيها ، ودخل السجن من أجلها ، وألف جمعية الانتقام لينتقم من خصومها . فكانت مبادىء هذه الثورة أشبه باليقين ، لم تتزعزع على مدى السنين ، ولم تؤثر فيها الهزيمة ولا البطش ، ولا حملات الأقوياء . وقد كان هذا الخلاف الأساسى هو الذى أبعد سعد زغلول عن مصطفى كامل .

ولم يلبث مصطفى كامل أن عرف فى أواخر أيامه الحقيقة التى عرفها سعد زغلول قبله . وهو أن الخديو لم يكن يريد أن تستقل مصر ، وإنما كان يريد أن يستقل بمصر ، وأن الخديو لم يكن يريد أن يصبح شعب مصر هو صاحب مصر ، بل كان يريد أن يكون هو صاحب الحق الوحيد فيها ، فى استغلالها ، وامتصاص دم شعبها . ولهذا لم يكد الخديو يتفق مع سير جورست المعتمد البريطانى الجديد ـ الذى حل محل لورد كرومر ـ حتى تنكر للحركة الوطنية وشجع على القضاء عليها . ولكنه عرف الحقيقة بعد فوات الوقت ..

وبعد أن تولى محمد فريد زعامة الحركة الوطنية ، بعد وفاة مصطفى كامل ، حاول الخديو أن يستغل محمد فريد . ولكن صلابة محمد فريد جعلت تحقيق هذا الهدف مستحيلا . كان محمد فريد مستعدا لأن يستعمل الخديو لمصلحة الحركة الوطنية . ولكنه لم يكن مستعدا لأن يستعمل الحركة الوطنية لمصلحة الخديو . وعندئذ انقلب الخديو عباس على محمد فريد وطارده ، وتحالف مع الاحتلال البريطانى عليه حتى اضطر محمد فريد الى الهرب من مصر .

ثم رأى محمد فريد بعد ذلك أن يتناسى رأيه في الخديو من أجل استقلال مصر ، وتحالف معه بعد قيام الحرب العالمية الأولى ضد الانجليز . واكتشف محمد فريد كما دون في مذكراته انه كان مخدوعا للمرة الثانية ، وأن الخديو لا يهمه استقلال مصر ، وانما كل ما يهمه هو ثروته في مصر وأن تكون وراثة العرش في أبنائه !

وهكذا كان أعضاء الحزب الوطني يعتبرون كل من يقاوم أسرة محمد على خائنا للوطن . وكل من يقاوم طغيان سلطان تركيا واستبداده كافرا بالاسلام . وكل من اشترك في ثورة عرابى عميلا من عملاء الانجليز !

وكان الخديو هو الذى دس على الحزب الوطنى فكرة محاربة عرابى وهدم ذكراه ، بل انه جعل مهاجمة عرابى وثورة عرابى ثمنا لتأييده لحركة مصطفى كامل ! فقد كان الخديو عباس يحب والده الخديو توفيق حبا جما ، وكان يعرف أن الشعب المصرى يتهم الخديو توفيق بالخيانة ، لأنه سلم مصر للانجليز ، وتعاون معهم على هزيمة عرابى . وكان بذكائه يعلم أن الشعب المصرى لن يغفر له انه ابن الرجل الخائن الذى طعن بخنجره ثورة الشعب واستعان عليها بالجيش البريطاني ، وكان الخديو يعرف أنه ، لكى يحمى عرشه ، يجب أن يقنع الوطنيين بأن عرابى كان خائنا ، وأنه اتفق مع الانجليز على القيام بالثورة ، لكى يدخل الانجليز مصر ويحتلوها .

وكان الخديو بارعا في تزييف المستندات والوثائق واختلاق الأخبار .. وبلغ من كذبه أنه عندما عاد عرابى من منفاه محطما ، اتصل الخديو بجريدة اللواء لسان حال مصطفى كامل ، وطلب اليها أن تنشر أن اللورد كرومر المعتمد البريطاني وممثل الاحتلال كان في استقبال أحمد عرابى عند وصوله الى محطة مصر . اى أن ممثل الاحتلال البريطاني يستقبل عرابى لأنه هو الرجل الذى مهد للانجليز احتلال مصر . ونشرت اللواء الخبر . وكان الخبر كاذبا مائة في المائة . ولم يتصور أحد أن الخديو يلفق مثل هذاالخبر . ولكن الخديو كان يريد أن ينتقم من أحمد عرابى !

وكان أحمد شوقى أمير الشعراء هو شاعر الخديو فنظم قصيدة هاجم فيها عرابى بعنف واتهمه بالخيانة وبيع البلاد للانجليز !

ونشرت الصحف الوطنية قصيدة شوقى في صفحاتها الأولى !

وكان سعد زغلول يتعذب وهو يقرأ هذه الاتهامات ضد الرجل الذى كان زعيمه في وقت من الأوقات . وليس أشق على نفس الوطنى من أن يتهم في

وطنيته .. وان يلوث بالطين بأيدى الذين حارب من أجلهم ، ومن أجل أن يحولهم من عبيد الى أحرار !

وكان أنصار الحزب الوطنى يصدقون هذه الاتهامات حتى أن احد أعضاء الحزب الوطنى رأى أحمد عرابى جالسا فى قهوة فى المنصورة بعد عودته من منفاه ، وبصق فى وجهه وصاح : يا خائن !

ولم يتحرك أحمد عرابى من مكانه ، بل مسح البصقة عن وجهه ، وانهمرت من عينيه الدموع .

وكان سعد زغلول يحس كأن هذه البصقة وجهت الى وجهه هو !

كان يقول دائما لأفراد أسرته أن المصريين لا يستطيعون أن ينسوا المظالم التى تعرضوا لها فى عهد الأتراك وعهد محمد على . ملايين الفلاحين ، وهو منهم ، يذكرون السخرة ويذكرون الكرباج . يذكرون المتصرف التركى فوق الحصان الأبيض والسوط فى يده . بل انهم لا يزالون يذكرون جباههم التى عفرها التراب . والاهانات التى لحقتهم . والأرض التى سلبت منهم . والسجون التى سيقوا اليها . والمشانق التى علقوا فيها . والخوازيق التى عذبوا فوقها !

كانت كلمة الثورة تعنى عنده الثورة على الانجليز المحتلين ، والثورة فى الوقت نفسه على الذين أرغموا الفلاحين المصريين على السخرة وضربوهم بالكرباج وعاملوهم معاملة العبيد ! كان من رأيه أن الطغيان لا يتجزأ . ولا يمكن للفلاح المصرى أن يقتنع بأن الذين يجلدونهم بالسياط هم وطنيون مخلصون ، والذين حاولوا انتزاغ السياط من أيدى الطغاة هم الخونة المارقون ! وأن الذين نشروا السخرة هم أنصار الحرية ، والذين هاجموا السخرة هم أعوان الاستعمار !

وقد كتب الخديو عباس فى مذكراته يدافع عن نفسه وعن أجداده ويقول بالحرف الواحد :

« لن أتعب نفسى فى نفى الفساد ، فإن تلك الوصمة التى لحقت بفترة معينة ، تسرى فى كل البلاد الديمقراطية والحرة والاشتراكية» !!

« أما السخرة فإن الالتجاء إليها يرجع الى عهد سليمان الحكيم ، فهى إذن قديمة قدم مصر . وكانت لازمة . ولا سبيل الى تجنبها ، فى العصور التى لم يكن القانون فيها يطبق بغير القوة ..

« ومن الواضح أن الفراعنة ما كانوا ليتمكنوا من تشييد عمالقة آثارهم

بغير السخرة ، ومن شق شبكة قنواتهم التى نفذوها بعناية دقيقة من غير السخرة . وما كانت مصر لتحصل على الأهرام ، والمدن ، والمعابد ، والمسلات ، وخطوط المياه التى أخصبت الصحراء خلال آلاف السنين بغير السخرة .

« ان استعمال الكرباج ، تلك الأداة البربرية ، لا يزال ساريا فى جهات عديدة فى العالم . وخاصة فى آسيا والمستعمرات ، ولم يكن إذن فى يوم من الأيام تخصصا مصريا ..

« ان السخرة والكرباج لم يكونا جريمة أو حاجة سادية ، ولا كانا وقفا على مصر . لقد كانا موجودين فى انجلترا نفسها فى مراحل من تاريخها ، أقل تقدما من مرحلتنا » .

انتهى ما كتبه الخديو عباس فى مذكراته عن الفساد ، والسخرة والكرباج ! وكان هذا هو سر كراهيته لثورة عرابى ، ولتلاميذ ثورة عرابى ، فهو خلاف طبيعى بين الذى يحمل فى يده الكرباج ، وبين الذى يذوق طعم الكرباج !

كان الخديو يعتبر استعمال الفراعنة السخرة لبناء الأهرامات دليلا على عظمتهم . وكان سعد زغلول يعتبره دليلا على طغيانهم وجبروتهم . كان يعتبر الأهرامات تماثيل للظلم والظالمين تؤ كان يقول انها بنيت على أشلاء المصريين ، وارتفعت فوق جماجمهم، وإن مئات الألوف من الفلاحين قتلوا من أجل تشييد قبر لرجل واحد !

وكان يؤمن بأن الأحرار يستطيعون أن يشيدوا أهرامات بغير أن يقيدوا بالسلاسل ، وبغير أن يضربوا بالسياط ، وبغير أن تزهق أرواحهم وتراق دماؤهم . وأن الطغاة يستعبدون الشعوب من أجل أشخاصهم لا من أجل مصالح شعوبهم . فعظمة الأمم لا تقوم على استعباد أبنائها ، وإنما تقوم على منحهم الحرية والكرامة وحقهم فى الحياة !

وهكذا أعلنت أسرة محمد على حربا شعواء على عرابى . حاربوه وهو يقود الثورة .. وحاربوه فى منفاه . وحاربوه وهو جثة ، ولا يذكر التاريخ رجلا من الرجال جندت القوى والكفايات والأحزاب والكتاب الأجانب والمؤرخون لكى يهدموه ويشوهوا سمعته وينالوا منه ، وهو رفات فى قبره ، كما حدث مع احمد عرابى . ومن أجل هذا زورت كتب التاريخ . بل زورت الكتب المدرسية التى كانت توزع على التلاميذ . ونسبت إليه أحاديث لم يدل بها ، وأخطاء هو برىء منها وكان ذكر اسمه أشبه بلدغة عقرب تلدغ الملوك والحكام .

وكان الخديو عباس يمقت كل من اشترك مع عرابى فى ثورته . كان يكره سعد زغلول وكان يكره صديقه محمد عبده ، لأنهما اشتركا فى ثورة عرابى ، ولأنهما يدافعان عن أهداف الثورة ، ولأنهما كانا يرفضان أن يصما عرابى بالخيانة وأنه عميل بريطانى !

وحدث أن طلب الخديو عباس من مصطفى كامل أن يدعو الحزب الوطنى الى الاحتفال بمرور مائة سنة هجرية على تنصيب محمد على واليا على مصر ..

وكتبت جريدة اللواء لسان حال الحزب الوطنى تدعو إلى هذا الاحتفال الوطنى !

وشعر تلاميذ ثورة عرابى بالضيق من هذه الدعوة . وقال سعد زغلول انها دعوة للشعب المصرى أن يحتفل بجلاده !

وكتب الشيخ محمد عبده يهاجم هذه الفكرة بعنف ، ويذكر الشعب المصرى بأن محمد على هو الذى طغى واستبد ، وحكم مصر بالكرباج ، واستغل هذا الشعب لأغراضه ومراميه ..

وكانت شجاعة لاشك فيها من محمد عبده ..

وهاج الخديو .. وخرجت الصحف الوطنية تتهم الشيخ محمد عبده بأنه خائن لأنه يطعن فى محمد على مؤسس الأسرة العلوية العظيمة !

وكان سعد زغلول يضيق بصحف الحزب الوطنى التى تهاجم صديقه محمد عبده وتتهمه بالخيانة والمروق لأنه ينادى بالرأى الذى يؤمن به كل فلاح مصرى ذاق هو أو أجداده سياط أسرة محمد على . وكان يشعر بأن هذه المقالات هى سياط أخرى تنهال عليه كالسوط الذى كان يحمله المتصرف التركى عندما انتزعه أبوه الشيخ ابراهيم زغلول من فوق الحصان . وكان يحس بغيظ ومرارة وهو يرى الوطنيين يلوثون بالطين ، وخصوم الوطن يكللون بالغار . وكان يضايقه هذا الانفصال الشبكى بين مدرسة مصطفى كامل ومدرسة العرابيين . وكان يرى أنه يجب أن يكون من مطالب الشعب خلع أسرة محمد على . وكثيرا ما ردد : لو أن مصطفى كامل درس بتجرد ثورة عرابى لعرف أن من أسباب هزيمتها أن الاقطاعيين المصريين تخلوا عن عرابى وراحوا يؤيدون الخديو والانجليز ضد ثورة المصريين ، وأن محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب المصرى كان فى استقبال جيش الاحتلال ، وانه قدم الى قائد الاحتلال رسالة بتوقيعه وتوقيع الاقطاعيين المصريين يشكرون فيها جيش الاحتلال الذى هزم عرابى وعلى « إنقاذ البلاد من غوائل الفتنة العاصية » ..

ولكن لم يكن في استطاعة مصطفى كامل أن يعلن خيانة الخديو توفيق ، إذ كان ابنه الخديو عباس راعيا للحزب الوطني ، ولم يكن يستطيع أن يعلن خيانة محمد سلطان باشا فقد ورد في مذكرات محمد فريد أن ابنه ـ وهو عمر سلطان باشا ـ كان عضوا في اللجنة الادارية للحزب الوطني ، وأصبح أحد ممولي الحزب .

ويظلم هذا الجيل مصطفى كامل ومحمد فريد اذا جملهما مسئولية التنكر لثورة عرابي . فقد كانا يهاجمانها عن اقتناع بأن الخروج على العرش هو خروج على الوطن ، وكانا يحملان عرابي نتائج الثورة التي انتهت باحتلال مصر ، وكانا يؤمنان عن عقيدة بأن عرابي لو وقف الى جانب الخديو بدلا من الوقوف ضده ، لما جرؤ الانجليز على احتلال البلاد . ولعل اعتناقهما لهذا الرأي . كان مبنيا على انهما لم يكونا من الفلاحين ، ولم يشتركا في ثورة عرابي ، ولم يشعرا بالمظالم التي كانت ترتكبها أسرة محمد علي ، فقد كان والد محمد فريد يعمل في وظيفة كبيرة في القصر ، كما أوفد الخديو مصطفى كامل في بعثة الى الخارج .

فلم ير الزعيمان إلا الصورة الحسنة لأسرة محمد علي . بينما رأى سعد زغلول منذ طفولته الصورة البشعة بما فيها من مظالم وطغيان وجبروت واستبداد .

ثم ان الخديو جند عددا ضخما من المؤرخين والكتاب لينالوا من هذه الثورة ، ومن أحمد عرابي بالذات ، فلم ينس الخديو أن فلاحا مصريا تجرأ وقام يزلزل العرش من تحت أحد أفراد أسرة محمد علي . وتأثر الزعيمان الوطنيان في قراءتهما بهذه الآراء التي شوهت أمام عيونهما صورة الزعيم الوطني المهزوم . فعند نجاح أي ثورة تنسب الى قائدها كل انتصاراتها ، فإذا فشلت ، ألقيت عليه تبعة كل أخطائها !

بل ان الخديو عباس ، في مذكراته التي كتبها بعد ثورة عرابي بأكثر من خمس وستين سنة ، كتب يقول بالحرف الواحد :

« ان جميع تفصيلات حكم الخديو توفيق « والد الخديو عباس » قد غدت من حق التاريخ . ان الآلام التي عاناها أبي لتقترن بجهوده اليائسة لانقاذ مصر من عبودية احتلال اجنبي ، كانت حجته طموح رجل ، لاشك في خيانته لملكه ووطنه ومواطنيه « أحمد عرابي » !!

وانه من الخطأ البين أن نجعل من هذا الطاغية العسكري أحد الأبطال الأول للوطنية المصرية . »!

وهكذا يرى الخديو عباس أن الرجل الذى سلم مصر للانجليز هو الذى بذل جهوده لانقاذ مصر من عبودية الاحتلال ، أما أحمد عرابى الذى حارب الاحتلال فهو خائن لملكه ولوطنه ولمواطنيه ، ولا يستحق أن يكون بطلا وطنيا بل هو طاغية عسكرى !!

ويمضى الخديو عباس فى مذكراته يدافع عن تسليم والده مصر للانجليز وتأييده للاحتلال البريطانى بقوله :

« ان أبى بالرغم من الهموم التى عاناها ، وبالرغم من مركزه العسير عندما وضع الانجليز يدهم على البلاد ، لم يطأطىء الرأس ، وانما قبل الأمر الواقع «!! »

« وما كان يسعه أن يفعل غير ذلك ولقد كان فوق ذلك يؤمن بالأمانة البريطانيّة »

ألم يقل الانجليز أن هذا الاحتلال هو تدخل قصير الأمد ، ريثما يعود الأمن ، ولحماية الشخصية الحاكمة فى مصر ، وتأييد العرش ، وحماية مصالح الأجانب وخصوصا الانجليز ؟

وقد اضطر الخديو الى ملاطفة هذا الاحتلال القصير الأمد » «!! »

هذا هو دفاع الخديو عباس عن موقف والده من الاحتلال البريطانى ، فلم يكن عجيبا أن يظل طوال الاثنتين والعشرين سنة التى حكم فيها مصر يحاول أن يلوث سمعة عرابى ، وأن ينتقم من كل ناصر ثورة عرابى . وفى مقدمة هؤلاء محمد عبده ، وسعد زغلول .

ولقد بقى الخديو عباس يتعقب محمد عبده حتى بعد وفاته .

وكان أحمد شفيق باشا رئيسا لديوان الخديو .

ومات الشيخ محمد عبده ، والخديو غير موجود فى مصر ، واشترك أحمد شفيق باشا فى تشييع جنازة الشيخ محمد عبده .

وكتب أحمد شفيق باشا فى مذكراته التى نشرها بعنوان « مذكراتى فى نصف قرن » أن الخديو عباس غضب عليه أشد الغضب لأنه اشترك فى تشييع جنازة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية فى ذلك الحين ، وكتب إليه يقول : « ان الجنازة حارة والميت كلب » !

وجاء فى رسالة الخديو الى رئيس ديوانه بالحرف الواحد :

« يظهر ، والله أعلم ، انكم أردتم بالسير وراء نعشه ، المجاملة بعد الموت ، وهو على ما تعهدونه عدو الله ، وعدو النبى ، وعدو الدين ، وعدو الأمير والخديو ، وعدو العلماء ، وعدو المسلمين ، وعدو أهله ، وعدو نفسه .. فلم هذه المجاملة ؟ »

وهكذا بلغ حقد الخديو على الشيخ محمد عبده ، لا لشيء إلا لأنه اشترك في ثورة عرابي ، ولأنه رفض الاحتفال بمرور مائة سنة على تولى محمد على حكم مصر ، ولأنه كتب يذكر الشعب بما تحمله في عهد محمد على من فساد وسخرة وضربات السياط !

وهذا يفسر كيف حاول الخديو عباس أن يحتضن حركة مصطفى كامل ، ليوجهها الوجهة التي يريدها ، وليحاول أن ينتقم لأبيه من عرابي ، ومن انصار عرابي ، ومن كل الذين يطالبون بتخليص مصر من السيادة التركية وحكم الباشوات الأتراك ، وحق الشعب المصرى في أن يحكم نفسه بنفسه ، ومن الذين يهاجمون السخرة وحكم الطغيان والكرباج !

ولقد كان الوطنيون الشبان أمثال مصطفى كامل يصدقون أكاذيب الخديو ضد الشيخ محمد عبده وكراهيته له بدعوى أنه كان صديقا للانجليز !

ولم يكن معقولا أن الشيخ محمد عبده الذى ساند ثورة عرابي ، وكتب مؤيدا لها ، ووقف بجوارها في حربها ضد الانجليز هو الذى يؤيد الانجليز !

ولكن الشيخ محمد عبده كان يطالب لشعب مصر بالحرية التي يتمتع بها الانجليزى في بلاده .

كان يطالب بأن يكون لمصر مجلس نواب ، وهو أول ما طالب به عرابي ، كما طالب بتقييد سلطة الحاكم كما قيدت سلطة ملك الانجليز . وأن يكون الحكم ديمقراطيا كما هو الحال في بلاد الانجليز .. وكان الخديو يعتبر هذا خيانة وطنية !

وكان الشيخ محمد عبده يقول انه يفضل أن يواجه الاحتلال البريطاني المصريين صراحة ، لا أن يتستر الاحتلال وراء الخديو ، وكان يصرح بأنه يرى أن استبداد الأتراك وأسرة محمد على بالشعب المصرى ، لا يقل في طغيانه عن استبداد الاستعمار .. وكانت هذه الآراء في نظر الخديو كفرا بالله .. فكيف يجوز للشيخ محمد عبده أن يسوى بين طغيان حاكم مسلم وطغيان حاكم غير مسلم ؟ !

وكان الشيخ محمد عبده يقول لأصدقائه أن الطغيان كفر بالله سواء كان الطاغية مسلما أو غير مسلم ، بل ان الطاغية المسلم الذى يستبد بشعب مسلم أكثر اجراما من طاغية غير مسلم يستبد بشعب مسلم !

ولقد نسب الى الشيخ محمد عبده انه قال مرة ان الشعب المصرى مستعد ، اذا تخلص من أسرة محمد على ، لأن يقبل وزيرين انجليزيين في الوزارة ، ونوابا انجليزا في مجلس النواب المصرى !

ولا يمكن أن يكون الشيخ محمد عبده جادا في مثل هذا الرأى الغريب ..

ولاشك انه أراد أن يبين مقدار ما يعانيه الشعب المصرى من أسرة محمد على ، وأنه مستعد لأى تضحية من أجل أن يتخلص من هذا الطغيان الأجنبى ، حتى لو جاء بوزيرين انجليزيين فى الوزارة المصرية .. ولم يكن المصريون هم أصحاب فكرة دخول وزيرين انجليزيين فى الوزارة المصرية ، فإن الخديو اسماعيل عندما غرق فى الدين ، وقبل أن يقوم عرابى بثورته ، جاء بوزيرين انجليزيين فى الوزارة المصرية !

فالشيخ محمد عبده ، وهو فلاح مصرى ، كان لا يزال يحس فى جسمه بآثار ضرب السياط من أيدى أسرة محمد على ، كانت لا تزال تدوى فى أذنيه الاهانات التى كان يتلقاها الفلاحون المصريون من حكامه المتعالين عليه ، الذين ارتفعوا على أكتاف الشعب المصرى ، ثم داسوه بعد ذلك بأقدامهم . كان يرى فى احتلال أسرة محمد على احتلالا اجنبيا لا يقل بشاعة عن احتلال الانجليز . وكثيرا ما ردد أن من حق المصريين أن يتولوا حكم أنفسهم بأنفسهم ، وأن يكون الحكم شورى ، غير قائم على طغيان واستبداد الأسرة الحاكمة . كما يرفض أن يستبدل باستبداد الانجليزى استبداد التركى . بل يأبى أن يستبدل بالطاغية الانجليزى طاغية مصريا !

وكان هذا الخلاف فى الرأى فى شأن أسرة محمد على ، هو سبب الخلاف الأساسى بين محمد عبده وسعد زغلول من ناحية وبين مصطفى كامل من ناحية أخرى .

ولقد كتب الشيخ محمد رشيد رضا الذى كان سكرتيرا خاصا للشيخ محمد عبده وأحد تلامذته فى كتابه « تاريخ الامام » يقول :

« كان مصطفى كامل يود الاتفاق مع الأستاذ الامام « محمد عبده » والعمل معه ، أو برأيه ، لمصر والاسلام . ولكن الأستاذ ورجاله لم يقيموا وزنا لثنائه واعجابه . لكونه مُسخرا للخديو بالمال . وكان سعد زغلول يقول انه مجنون . وأما الأستاذ الامام فقال فى وصف مقالات مصطفى كامل انها مجموعة نوبات عصبية ، بعضها شديدة وبعضها خفيف » .

ولم يكن مصطفى كامل مجنونا كما صوره سعد زغلول ، فقد كان شابا وطنيا متحمسا ، يكره الانجليز ، ويحب سلطان تركيا لأنه اعتقد أن تركيا قادرة على تخليص مصر من الاحتلال البريطانى ، ولم يكن آلة مسخرة بالمال ، فى يد الخديو ، كما يقول الشيخ رشيد رضا ، وإنما كان يعتقد أن مساعدة الخديو له بالمال دليل على وطنية الخديو ، وأن كل من يهاجمون الخديو الوطنى هم خونة ، ولم تكن مقالاته تشنجات عصبية كما يقول الشيخ محمد عبده وإنما كانت مقالات حماسية لم تستطع فى حماسها أن تفهم مدرسة

العرابيين أمثال محمد عبده وسعد زغلول . فلم يكتشف مصطفى كامل أن الخديو كان كذابا ، وكان يخدعه إلا فى أواخر أيامه .

وكان سعد زغلول وزيرا للمعارف ، وكثيرا ما تحدى مستر دنلوب المستشار الانجليزى فى الوزارة ، بسبب سياسته ضد التعليم .. فعمل سعد على نشره بيد أبناء الأمة متحديا الانجليز لاعتقاده بأن ثورة عرابى لم تفشل إلا بسبب الجهل المتفشى بين الشعب . وكان الخديو يوعز الى مصطفى كامل بأن يقول أن سعد زغلول يفرط فى حقوق الوطن ، ويضعف فى مقاومة الانجليز .

وكان الخديو ينصح الوزير سعد زغلول سرا بألا يتشدد فى مواقفه ضد المستشار الانجليزى ..

وكان سعد زغلول يستعين بالمصريين فى وزارته ويسند إليهم مناصب كبرى متحديا دنلوب ، وكان الخديو من جانبه يستدعى هؤلاء المصريين الذين عينهم سعد زغلول ويأمرهم بالوقوف الى جانب مستر دنلوب الانجليزى فى صراعه ضد الوزير المصرى !

وفى الوقت نفسه يوعز إلى صحف الحزب الوطنى بأن تنشر أن وزير المعارف سعد زغلول يبصم على كل الأوامر التى يصدرها المستشار الانجليزى !

وكان صحفيو الحزب الوطنى معذورين فى تصديقهم للخديو الوطنى « !! » عندما يوعز إليهم بأن الوزير المصرى متواطىء مع الانجليز ! وكانوا معذورين أيضا لأنهم لم يتصوروا أن ملك البلاد ممكن أن يزيف الأخبار ويخترع الأكاذيب ضد أحد وزرائه !

ولكن الخديو عباس كان يريد أن يقضى على سعد زغلول . كما قضى على محمد عبده . وكما قضى على عرابى قبل ذلك . كان لا يستطيع أن يغفر لهم انهم اشتركوا فى الثورة العرابية على أبيه . وانهم لم يلعنوا الثورة كما لعنها الباشوات الأعيان الذين وقعوا عريضة يقولون فيها ان عرابى خائن للوطن . وكان لا يستطيع أن يغفر لمحمد عبده وسعد زغلول انهما يطالبان بالدستور ، وبتقييد سلطة الملك ، وبأن يكون الشعب المصرى مصدر السلطات . ولو أن الحزب الوطنى كشف يومها لعبة الخديو عباس وعرف حقيقته ودوافعه لما وقف هذا الموقف من الذين اشتركوا فى ثورة عرابى .

وهكذا شعر الذين يقيمون فى بيت سعد زغلول أن أساس الخلاف بين مصطفى كامل وبين تلاميذ ثورة عرابى هو على النظرة للثورة العرابية نفسها . كان الخديو يعتقد أن عرابى خائن ، وأن محمد عبده خائن ، وأن جمال الدين الأفغانى جاسوس انجليزى ، وأن عبدالله النديم مشعوذ أفاق !

وكان تلاميذ ثورة عرابى يقولون ان هؤلاء هم الوطنيون الحقيقيون ، وأن الخونة هم الخديو توفيق والد الخديو عباس . ومحمد سلطان باشا والد عمر سلطان باشا عضو مجلس ادارة الحزب الوطني ، وجميع الباشوات الذين خانوا عرابى وانضموا الى الخديو .

ولاشك أن مصطفى كامل كان في تقديره لثورة عرابى ضحية للمعلومات الخاطئة التي كان يقدمها له الخديو عباس . ولولا الخديو عباس لما حدثت هذه الشقة الواسعة بين المدرستين ، فإن الثورة العرابية هى الأم الشرعية لجميع الثورات والحركات الوطنية التي قامت في مصر بعد الاحتلال .

ولقد نجح الخديو عباس في أن يبعد العرش عن أن يكون أحد أهداف الحركة الوطنية ، بل نجح في بعض الأوقات في أن يجعل هذا العرش احد أعلامها . وكان هذا بلاشك نكسة للحركة الوطنية ، وتراجعا عن الخط الثورى الذى وصلت اليه في أثناء ثورة عرابى

وقد اختلف سعد زغلول مع أصدق صديق له وهو قاسم أمين بشأن رأيهما في مصطفى كامل . وحدثت بين الصديقين الحميمين جفوة بسبب هذا الخلاف .

واستمر الصراع بين أنصار مصطفى كامل وأنصار عرابى زمنا طويلا .. ففى مذكرات محمد فريد يقول في يوم ١٧ فبراير سنة ١٩١٤ ..

سافرت الى عزبه المستر « بلانت » . المؤرخ الانجليزى وصديق عرابى لقضاء اليوم عنده فوجدته في غاية الصحة .

« وقد أطلعنى على جوابين محررين الى عرابى باشا ، أحدهما من الشيخ محمد ظافر ، والثانى من أحمد راتب باشا في ربيع سنة ١٢٩٩ هجرية يعربان صراحة بأن السلطان عبدالحميد كان يمنيه بملك مصر . ويحضه على الدفاع عنها حتى لا يملكها الأجنبى كما أخذت فرنسا تونس .

« وقد نشر ترجمتهما في كتابه تاريخ مصر السرى » وسينشر نسختيهما بالفوتوغراف في ترجمة هذا الكتاب .. الذى وعد بنشره أحمد أفندى عبدالغفار من أعيان تلا منوفية « أحمد عبدالغفار باشا وزير الزراعة الدستورى فيما بعد » والذى كان بلجنة الحزب الوطنى بجامعة اكسفورد .

« ولقد اطلعت بطريق الصدفة على جواب كان بينهما ، من الشيخ محمد عبده الى مستر « بلانت » تاريخه ذى الحجة سنة ١٢٩٩ أرسله اليه من السجن يشكو حاله .

« ويذكر له الشيخ محمد عبده مقابلة المستر « برودلى » المحامى له في السجن ، ويقول ما معناه انه واثق بأن انجلترا سيكون لها تمثال في قلوب المصريين .

« وبكل أسف لم أتمكن من أخذ صورته . وعلمت من المستر « بلانت » أن لديه أوراقا كثيرة بالعربية من رجال الحزب الأهلي « حزب عرابي » إذ ذاك . فإذا مكنتني الفرصة ، وأقمت في لندن بضعة أسابيع ، سأعود اليه ، وأطلب منه اطلاعي على هذه الأوراق ، لعلي أجد فيها شيئا يفيد نشره » .

وهكذا كان الزعيم محمد فريد حتى بعد خروجه من مصر ، لا يزال متأثرا بفكرة الحزب الوطني بأن عرابي خائن . وأنه قام بثورته لأنه يريد أن يكون ملكا على مصر ، وأن الشيخ محمد عبده ، وهو أحد أقطاب حزب عرابي ، كان يرى إقامة تمثال للانجليز .. وكان محمد فريد يريد الحصول على هذه الرسائل حتى يفضح العرابيين !

ولا يعيب عرابي أن يطمع في أن يكون ملكا على مصر ، فإن من حق المصريين أن يفكروا في أن يكون حاكمهم مصريا مثلهم . ولكن في تلك الأيام التي كتب فيها محمد فريد مذكراته لم يتصور بعض الناس أن يفكر فلاح مصري في أن يكون حاكما لمصر !

ولقد كان الخديو توفيق يريد أن يشنق جميع قادة ثورة عرابي بغير محاكمة ، ولكن الانجليز خشوا أثر ذلك على الرأى العام العالمي ، وأصروا على إجراء محاكمة علنية ، وقد سر العرابيون في سجونهم حين علموا بأن الانجليز كانوا يحسبون حسابا للرأى العام العالمي . فإذا جاء المحامي الانجليزي لمحمد عبده في سجنه وقال له أن الخديو يريد شنقه بغير محاكمة ، وان الانجليز يطالبون بمحاكمة عادلة .. فهل يطلب منه أن يقترح اقامة تمثال لمن يطالب بإعدامه ، أم يشكر الذين طالبوا بأن يقدم الى المحاكمة ؟ ! هل مطلوب من المظلوم أن يهلل للظلم اذا جاء على يد تركي ، وأن يلعن العدل اذا جاء على يد بريطاني ! ان العدالة لا وطن لها ، والظلم لا وطن له . والذين يطالبون المظلومين بأن يسكتوا على ظلم الحاكم لأنه من أبناء بلدهم ، هم شركاء للظالم في ظلمه ، ثم من قال أن الخديو توفيق من أبناء هذا الوطن ؟ !

ولكن جريمة محمد عبده الكبرى أنه كان يطالب بأن تكون الأمة مصدر السلطات ، وجريمة سعد زغلول أنه كان يريد دائما أن ينتزع الخديو الظالم من فوق الحصان !

وعندما كان سعد زغلول وزيرا للمعارف كتب في مذكراته في يوم ١٥ يناير سنة ١٩٠٨ يقول :

« مضيت الليلة مع أرق ، منشؤه الفكر في حالتي ، وما صارت اليه . من جهة أشعر بأن الانجليز غير راضين ، لأنني شديد الوطأة عليهم ، مخالف لهم في أميالهم ، جار على مبادىء لا تتفق مع مقاصدهم .

« ومن جهة الجناب الخديو فإنه غير واثق بي ، لأني من اصدقاء الشيخ محمد عبده الذي كان يكرهه أشد الكراهية ، وزاد كراهته فيه ، وإن كان ميتا ، خطابان نشرتهما الجرائد كان أرسلهما الشيخ محمد عبده الى مستر بلنت « صديق عرابي » عقب الاتفاق الانجليزي الفرنسي بأن نظام الحكومة يجب أن يكون مبنيا على غل يد الخديو عن كل شيء في الادارة ، حتى الأمور الخاصة بالدين ، وأن تكون القوة التشريعية في يد نواب الأمة . ولا بأس أن يوجد فيهم انجليز . والسلطة التنفيذية في مجلس النظار ، الذي لا يضر أن يكون فيه بعض الانجليز ، بشرط أن يكون الرئيس مسلما ، وأن تكون جميع الوظائف بعد ذلك في يد المصريين سواء كانت قضائية أو ادارية ، ولا بأس أن يكون السردار انجليزيا ، وبعض القواد أيضا .

« فهذه الكتابات زادت كراهية الخديو للشيخ محمد عبده ، وأثارت في نفسه بغض أصدقاء المرحوم الشيخ محمد عبده ، خصوصا وقد ورد في الخطابين أنه استشار فيما تضمنهما كثيرا من الفضلاء .

« وبما أني أحد أصدقائه ، فمن الطبيعي أن أكون أول من يخطر ببالى سمو الخديو والملتفين حوله .

« أنا متضايق من الانجليز ، ومن الخديو ، وكذلك من الذين تحت ادارتي ، وخصوصا الذين اختلفوا مع دنلوب « مستشار وزارة المعارف الانجليزي » في شأن ترقيتهم ، فإنهم لم يؤيدوا حسن ظني ، وخذلوني أمامه ، وأمام ضميري .

« كل هذا كان يمر بالفكر وقت الأرق ، وأني في حيرة شديدة من أمري ، تحدثني نفسي مرة بأن أقدم استقالتي وأستريح من هذا العناء ، ولكن يصدني عن ذلك رجاء صلاح الحال من جهة ، وضيق العيش من جهة أخرى ، وشماتة الأعداء من جهة ثالثة . ومن سوء البخت .. انهم كثيرون .

« ويرد على خاطري انني اذا تركت الخدمة استرددت حريتي ، واشتغلت بالمحاماة ، وبالصحافة . ولكن يضعف عزيمتي عن ذلك ضعف صحتي ، واختلال رجال المحاماة ، وفساد الصحافة .

« والأحسن أني أفوض أمري الى الله في جميع ذلك ، لأنه عودني أن يدبر لى الأمور بأحسن مما أتصور ، وأفيد مما أريد » .

وهكذا كان سعد زغلول وهو وزير للمعارف يتلقى الضربات من الانجليز لأنه شديد الوطأة عليهم ، ولأنهم كانوا يشكون في اتصالاته بالشبان المصريين ، وفي الأسباب التي تجعله يوفد أشخاصا بالذات في بعثات

الى الخارج ، ولا ينسون انه كان متهما بتأليف جمعية الانتقام . وكان الخديو يحاربه لأنه من مدرسة العرابيين ، ومن أصدقاء محمد عبده ، ومن المطالبين بغل يد الخديو ، ومن المنادين بإنشاء مجلس نواب مصرى . وكان سعد زغلول يختلف مع مستر دنلوب المستشار الانجليزى فى وزارة المعارف فى شأن تعيين مصريين فى الوظائف الكبرى فى وزارته ، فإذا انتصر على دنلوب ، ورفع هؤلاء المصريين الى هذه المراكز ، استدعاهم الخديو سرا وألبهم ضد الوزير الذى حارب من أجلهم ، وجعلهم يضمون الى المستشار الانجليزى فى صراعه ضد الوزير المصرى . وفى الوقت نفسه يوعز الخديو الى صحف الحزب الوطنى بأن تهاجمه وتتهمه بانه انجليزى ، وتكتب بعض الصحف أن الدليل الأكيد على أن سعد زغلول انجليزى هو انه كان مشتركا فى الثورة العرابية التى نادت بخلع الخديو ، والتى هاجمت أسرة محمد على ، وأنه سجن بسبب هذه الثورة الخائنة !! وأنه كان يؤيد الشيخ محمد عبده فى عدم الاحتفال بعيد ميلاد محمد على منشىء مصر الحديثة وصاحب الأيادى البيضاء على الشعب المصرى ، والذى وصلت جيوشه الى أبواب الاستانة ، والذى قام بالاصلاحات العظيمة المجيدة فى البلاد .

وكان سعد زغلول يضيق بهجوم الصحف الوطنية عليه فى اتهامها له بالخيانة ، لأنه يطالب بأن يحكم مصر المصريون ، لأنه يؤيد الدعوة بأن مصر للمصريين وليست لسلطان تركيا ولا للخديو ولا للانجليز ، لأنه رفض تأييد حركة المؤتمر الاسلامى التى وقف فيها الشيخ عبدالعزيز جاويش يهدد أقباط مصر بقوله و« سنجعل من جلودكم نعالا ، ومن شعوركم حبالا » فقد كان سعد زغلول يؤمن بأن مصر ستعود الى المصريين عندما يتعانق الصليب مع الهلال وتتخلص من حكم غير المصريين ..

وكان سعد زغلول يتحدث الى أسرته دائما عن أن مصر يجب أن يحكمها المصريون . كان يقول أن الحاكم الأجنبى لا يشعر بشعورهم ، ولا يتألم لآلامهم ، ولا يحس بعذابهم . عندما يطلق عليهم الرصاص يشعر بالنشوة التى يشعر بها الصياد عندما يصطاد البط فى بركة أكياد ! يمر على السواقى فيتصور أنها تغنى . بينما يشعر الفلاح بأن صوت السواقى هو عويلها فهى تذرف الدموع على الفلاحين الذين بنوها ولم يشربوا من مائها ! ماتوا من العطش ، بينما مياه الساقية تروى أراضى الأمراء ! الحاكم الأجنبى يزور الأهرامات فلا يشعر إلا بعظمتها . ولكن الذين بنوها وحدهم الذين يشعرون بآلام السياط فى أيدى الفراعنة ، يعرفون أن هذه الصخور طحنتهم تحتها . القهر هو الذى صنعها . الاستبداد هو الذى شيدها . لم تلصق أحجارها

بالأسمنت ، بل بدماء الفلاحين المصريين . الحاكم الأجنبي بنى سلطانه على دموع المحرومين ، وجثث المشردين ، وقبور المستضعفين ، وأنين الجوعى والضائعين والتائهين في بلادهم ! انهم أعطونا الفقر وأخذوا منا الغنى ، هدموا أكواخنا ليبنوا قصورهم ، نهبوا أرضنا ليملكوا التفاتيش والأبعديات . أسكتونا ليتكلموا . أحنوا رقابنا ليرتفعوا فوقها . فرشوا طريق المجد لهم بجماجم أبنائنا . حفروا قناة السويس بعظام فلاحينا . انهم اعتبروا طيبتنا غفلة . وبراءتنا سذاجة ، وصبرنا رضى ، وطهرنا عبطا ، وسكوتنا استسلاما وصمتنا استكانة . ذلك لأنهم لا يفهمون لغتنا ، ان الدمعة تفقد حرارتها عندما تترجم ! ولو كان مصطفى كامل فلاحا لفهم المرارة التى نشعر بها نحن الفلاحين ..

وبقي الحديث عن الخلاف مع مصطفى كامل حديث مائدة سعد زغلول زمنا طويلا ..

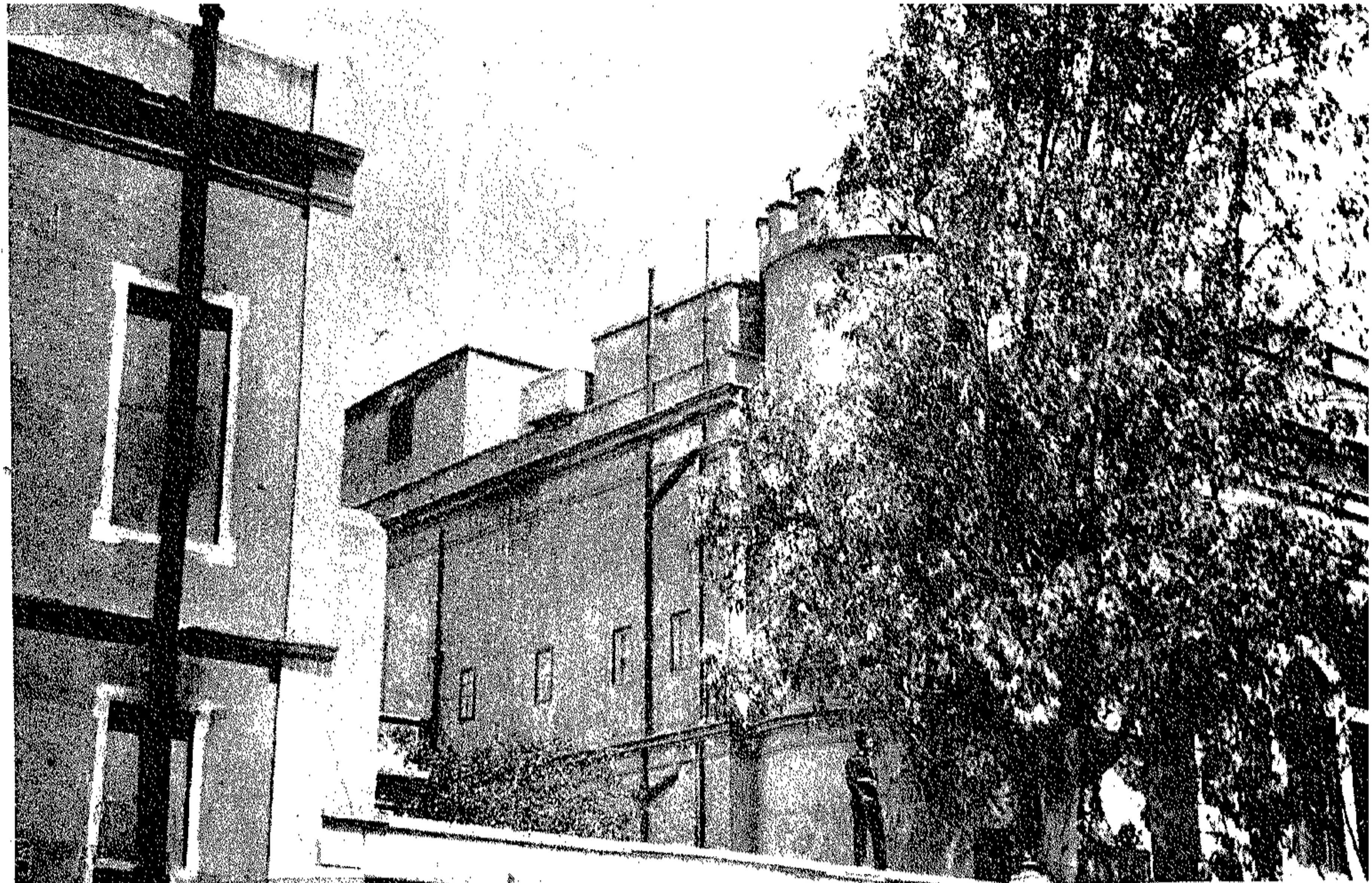
وفجأة احتد الحديث .. وارتفعت الأصوات ..

فقد تزوجت ابنة أخت سعد زغلول ، وابنته بالتبنى ، رتيبة زغلول من محام شاب .. وعقد القران فى بيت سعد زغلول .

وتم الزفاف فى بيت سعد زغلول ..

وبعد القران والزفاف عرف سعد زغلول لأول مرة ان العريس الجديد عضو فى الحزب الوطنى !!

● ● ●



●● تفتيش بيت الأمة .. ووضع الحراسة عليه من كل جانب

• الفصل الرابع •

وقفت عربة أجرة ، يجرها حصانان هزيلان ، ونزل منها شاب في العشرين من عمره ، نحيف القامة ، متوسط الطول ، على رأسه طربوش أحمر طويل ، يملأ وجهه شارب كبير غليظ يحاول جاهدا أن يخفي صغر سنه ، ودفع الشاب للحوذي أجره مضاعفا ، حتى لا يثير مشاجرة في هذه اللحظة الرهيبة من حياته ، فدعا له الحوذي بالتوفيق ، وأحس أنه في حاجة فعلا الى هذا الدعاء واستدار الشاب يتأمل بعينين قلقتين حائرتين البيت الفخم الكبير الذي وقفت العربة أمامه ، وقطع في رهبة المسافة الى الباب الحديدي الشاهق ، وخفق قلبه من الخوف وقد أحس أنه يخطو الى عالم جديد مجهول ، عالم مسحور لم يدخل الى مثله من قبل . وتقدم نحوه الحاج أحمد خادم سعد زغلول الخاص تملأ وجهه ابتسامة كبيرة ، واطمأن الشاب قليلا عندما رأى الوجه الطيب والابتسامة الرقيقة فقد أخرجته الابتسامة من الوحشة التي أحس بها وقاده الخادم الى حديقة البيت دون أن يسأله عن اسمه ، وكأنه كان ينتظره ، ويتوقع قدومه ، ويعرف لماذا جاء . ومضى به يصعد درجات السلم الرخامي الى المكتب الكبير الخاص بالباشا في السلاملك . وأشار الحاج أحمد الى مقعد في الغرفة الكبيرة الخالية ، فجلس الشاب فيه ، وتركه الحاج أحمد وخرج وأغلق الباب وحاول الشاب جاهدا أن يخفي اضرابه وأن يتمالك أعصابه ، وراح ينقل عينيه بين أثاث المكتب والصور الفوتوغرافية المعلقة على الجدران ، كأنه يستنجد بها أن تخفف وحشته أو تؤنس وحدته أو تزيل قلقه واضطرابه ولكنه أحس كأن العيون التي ترمقه في الصور تطل من اطاراتها شزرا ، كأنها في دهشة من جرأة هذا الصعلوك على دخول المكتب الذي يتردد عليه الوزراء والأمراء والملوك !

وأخرج الشاب منديله ليمسح عرقه . صحيح أنه حفظ درسه جيدا . انه يعرف انه سيواجه امتحانا صعبا رهيبا . يختلف عن كل الامتحانات التي اجتازها حتى حصل على شهادة الليسانس من مدرسة الحقوق . وصحيح أن صديقه طاهر اللوزي أحد موكليه في مدينة دمياط مهده للمحنة التي سوف يواجهها . ان طاهر اللوزي هو زوج ابنة شقيقة صفية زغلول ، وهو الذي أخبره بأن لسعد زغلول ابنة متبناه في سن الزواج ، وصحيح ان طاهر اللوزي حذره من أن سعد زغلول يستقبل كل من يتقدم لخطبة رتيبة ، بطريقة

تختلف عما اعتاده الناس فى مثل هذه المناسبات . فبدلا من أن يسأل طالب الزواج الأسئلة العادية التى يسألها آباء العرائس ، يحول هذا اللقاء الى امتحان رهيب ، فيوجه الى طالب الزواج عشرات الأسئلة فى السياسة والأدب والاجتماع ، ويثير معه عشرات الموضوعات ، تماما كما كان يفعل وهو وزير المعارف مع الشبان الذين كان يستقبلهم ليوفد منهم من يختاره لارساله فى بعثة الى الخارج ! وعرف أن الباشا اكتسب من عمله كمستشار فى محكمة الاستئناف خبرة فى التحقيق ، فلا يفرق بين المتهم وطالب الزواج . وتعلم فى الأزهر فن الجدل ، فكانت هوايته صراع الأفكار ومبارزة الآراء . وهو يكره الذين يوافقونه على كل رأى ويمقت الذين يعارضونه فى كل رأى ! وهو أحيانا يجد لذة فى أن يعبث بالذين يجادلهم . يتظاهر أحيانا بالتمسك برأى لا يؤمن به . حتى اذا اقنع سامعه واستسلم لرأيه ، انقلب على الرأى نفسه . وفنده . وهدمه بنفس الكفاية والعبقرية التى بنى بها الرأى الأول وشيده وسنده وأوقفه على قدميه ! فهو أشبه بمركم موهوب ، لا يرضيه أن يرى خصمه واقفا على قدميه . ولا يرضيه أن يراه ملقى على الأرض !

« وقال له طاهر اللوزى أن كثيرين تقدموا لخطبة رتيبة ، فكانوا يسقطون دائما فى هذا الامتحان العجيب . فهو يرفض أبناء الباشوات لأنه يحتقر أبناء هذه الطبقة ، ويؤمن بأنهم طبقة رخوة ، ليس فيها طين الريف الذى هو أشبه بالأسمنت فى بناء الرجال . وهو يرفض أبناء أعيان الريف ، لأنهم غير متعلمين ، وهو يؤمن بأن العصر القادم هو عصر المتعلمين ، ولا يريد أن تعيش ابنته المتبناه فى عصر الجاهلية ، ثم هو يرفض المتعلمين من أبناء الريف لأنهم يقيمون فى الريف . وهو يريد لرتيبة أن تتزوج فى القاهرة وتبقى مع زوجها فى بيته الكبير لأنه لم يرزق بأولاد . ثم هو يرفض الموظفين الذين يقيمون فى القاهرة لأنه يعتبر أن الوظيفة سجن ، تحول الرجال الى عبيد ، وتحول العبيد الى رقيق أذلاء وهو يرفض الشباب صغار السن لأنهم بلا تجربة ، ولا يعجبه كبار السن لأنه لا يريد لها أن تعيش أرملة !

والشاب الذى يجلس فى غرفة الامتحان اليوم لا يتوافر فيه أى شرط من الشروط التى يطلبها الباشا ، ولكن روح المغامرة فيه هى التى جعلته يقبل أن يواجه هذا الامتحان الرهيب ، ولكنه ما كاد يجلس فى قاعة الامتحان حتى أحس بأن ثقته بنفسه تتخلى عنه ، ولولا خوفه من أن يكون الحاج أحمد واقفا أمام الباب ، لفتح الباب ، وأطلق ساقيه للريح !

انه شاب فقير مات أبوه المحامى وهو لا يزال طالبا فى السنة الأولى بمدرسة الحقوق ، وكان أبوه أكبر محام فى دمياط وكان الطالب يعيش فى رغد ،

ولكن بعد أن مات أبوه عرف أن ديون أبيه كانت أكبر منه فلم يجد في البيت مصاريف الجنازة والمأتم فاقترضها .

لم يجد مالا يتم به دراسته فاضطر أن يعطي دروسا خصوصية للتلاميذ ليأكل ولينفق على أمه وليصل الى شهادة الليسانس ! ما أبعد المسافة بينه وبين الذين جاء لمصاهرتهم ! هذا القصر الضخم . هذا الأثاث الفخم . هذا الخادم الذي يرتدي بذلة لا تقل أناقة عن البذلة التي يرتديها العريس !

ياله من أحمق ! كيف تصور أنه أهل لأن يتقدم طالبا يد ابنة سعد زغلول وابنته المتبناه . لقد أقام أثناء دراسته في بيت أحد أقاربه وأحب ابنة قريبة البيك وأحبته ، وتقدم الى البيك والدها يطلب يدها ، ورفضه البيك ، لأنه فقير ، ولا يملك ثروة ، ومحام مبتدىء وفوجىء بالفتاة التي أحبها تلقى بنفسها من النافذة احتجاجا على قرار أهلها . وكادت تقتله الصدمة ، وقرر أن يعيش طول حياته أعزب يبكي حبه ، ولكن أصدقاءه أقنعوه بأن يحاول أن ينسى حبه المذبوح بزواج جديد كما نصحوه أن ينظر الى تحت ، لأن الذين ينظرون الى فوق تقطع سيوف الآباء رقابهم ، ولكنه أصر على أن يصاهر سعد زغلول بعد أن رفضته أسرته هو لهوان شأنه وفقره وديونه .. لكن .. هل من المعقول أن يرفضه قريبه البيك ، ويقبله الباشا الذى لا يعرفه ! ؟

كانت هذه الأفكار والخواطر تتقاذفه .. كانت أشبه بالمطارق تدق على رأسه ، وتكاد تحطمه بضوضائها ، فلم يشعر بأن سعد زغلول فتح باب المكتب ودخل الغرفة إلا عندما رآه أمامه ، وقفز الشاب من مقعده معتذرا ، فدعاه سعد الى الجلوس في مقعد بجوار المكتب وجلس هو الى مكتبه . وأحس الشاب بالرهبة ، فقد توقع أن سعد زغلول سيجلس الى جواره في جلسة عائلية ، فإذا به يستقبله كأى وزير يستقبل زائرا ، وكأن الشاب هو أحد أصحاب الحاجات ..

وبدأ سعد زغلول الحديث بقوله انه ستجرى انتخابات للجمعية التشريعية ، وأن بعض أصدقائه اقترح عليه أن يرشح نفسه في الانتخابات نائبا عن دائرة السيدة زينب ، ولكن الغالبية من أصدقائه قالت أنه لا يجوز أن ينزل سعد زغلول من مكانته كوزير سابق ، ويرشح نفسه في الانتخابات ، وهو يميل الى هذا الرأى ، فإنه لم يسبق لوزراء في تاريخ مصر أن نزلوا في الانتخابات ..

وقال الشاب انه على العكس يعتقد أنه يشرف سعد زغلول أن يكون نائبا عن الأمة . وأن رؤساء وزارات في فرنسا وانجلترا وألمانيا يرشحون أنفسهم للانتخابات ولمعت عينا سعد زغلول ، وارتسمت ابتسامة على شفتيه ، وقام

من مقعده ، واتجه الى الشاب ، ووضع يده على كتفه ، ودعاه الى الجلوس بجواره على أريكة جانبية وقال : يظهر ان المناقشة ستكون حامية !

واحتدمت المناقشة بين الباشا والشاب الصغير . سعد يثير الاعتراضات والشاب يفندها .. سعد زغلول يقول ان الشعب لا يمكن أن يعرف كيف يختار من يمثله ، سوف يبيع صوته للمرشح الغنى ، وهو لا يريد أن يشترى أصوات الناخبين ، الشعب سوف يختار مرشح السلطة ، وهو خصم الخديو وخصم اللورد كتشنر الملك الحقيقى للبلاد !

والشاب يؤكد له أن فى الشعب المصرى حساسية خاصة تجعله يعرف كيف يفرق بين خصومه والذين يسعون الى خدمته .. الذين يستغلونه ، والذين يدافعون عن مصالحه وأحلامه وأمانيه ..

واستمرت المناقشة العنيفة ساعة ، واذا بسعد يقول له ·

اننى مقتنع تماما برأيك ، ولكن أردت أن أدرس شخصيتك من خلال المناقشة ! ان البلد فيه بلاط للخديو ، وبلاط للمعتمد البريطانى وأنا أريد أن أنشىء بلاطاً للشعب !

الخديو هو ملك بالوراثة ، ولورد كتشنر هو ملك بالقوة ، والشعب هو الملك الشرعى . لقد عشنا سنوات نتصور أن الطريق الوحيد للحكم فى هذا البلد هو طريق قصر عابدين حيث يقيم الخديو عباس ، أو طريق قصر الدوبارة حيث يقيم لورد كتشنر ، وأريد أن أثبت أن الطريق الصحيح هو الشارع ! أريد أن أثبت أن الشارع هو صاحب الجلالة ! وهى مهمة تبدو الآن مستحيلة . ولكنى أؤمن بأن فى قدرة هذا الشعب أن يسترد سلطانه . ان التقاليد المتبعة عندما يترك أحد الوزراء منصبه أن يجلس فى نادى محمد على . يقف فى الموقف . لا يفتح فمه . الى أن يرضى عنه المعتمد البريطانى أو الخديو . فيعيده أحدهما الى الوزارة . وأنا لا أريد أن أقف فى الموقف وأنتظر ! لقد طردنى لورد كتشنر والخديو عباس من الوزارة طردا وأرسل الى الخديو يطلب منى أن أقفل فمى ، وانه سوف يعيدنى الى الوزارة فقلت للرسول كأن الخديو أماتنى ليحيينى من جديد ! يفتح الله ! إن الله وحده هو الذى يحيى ويميت ! وأنا أريد أن أثبت نظريتى بأن الشعب وهو وحده فى رأيى ظل الله على الأرض . هو الذى يحيى ويميت !

وقال الشاب : ان الثورة العرابية فشلت لأنها لم تعرف كيف تنظم الشعب .

وهزت كلمة الثورة العرابية سعد زغلول وقال له .

وما الذى تعرفه عن الثورة العرابية ؟

قال الشاب :
أبى ! كان أبى الشيخ أمين يوسف أحد زعماء المقاومة فى دمياط ، وسجنه الانجليز بعد فشل الثورة ، وحكموا عليه بالنفى خمس سنوات ، وأمضى مدة التقى مع الشيخ محمد عبده فى لبنان .
ولمعت عينا سعد زغلول :
هل أنت ابن الشيخ أمين أبو يوسف ؟
قال الشاب : نعم ..
قال سعد زغلول : اننى أعرف أباك .. وكنت معجبا بالحركة الشعبية التى قامت فى دمياط ، وسمعت تفاصيلها من الشيخ محمد عبده ..
وسكت سعد زغلول قليلا ثم قال : اننى موافق على أن تتزوج رتيبة ..
وذهل الشاب .. ان سعد زغلول لم يطرح عليه واحدا من الألف سؤال التى استعد للاجابة عليها ..
وقال الشاب متعلثما : ولكننى فقير . ان أبى مات معدما نتيجة السجن والنفى ..
قال سعد : هذا لا يهم !
قال الشاب : وأنا ارغب فى أن تقيم معى زوجتى فى دمياط ..
قال سعد : هذا لا يهم أيضا ! ... متى تريد أن تتزوج ..
قال الشاب : بأسرع ما يمكن !
قال سعد وهو يضحك : سأتفق معك فيما بعد على الموعد .. أما المهر فادفع أى مبلغ تستطيع .
قال الشاب وهو لا يصدق : ان كل هذا تم بسرعة . هل هذا هو الرد النهائى ؟
قال سعد : ان ردودى دائما نهائية !
وخرج الشاب ..
وصعد سعد زغلول الى الدور العلوى حيث كانت تنتظره زوجته صفية وقال لها سعد :
مبروك :
ودهشت صفية . فإنها لم تتوقع أن يصدر زغلول قراره بهذه السرعة وسألته :
هل عرفت كل شىء عنه !
قال سعد : عرفت أنه ابن الشيخ أمين يوسف أحد قواد الثورة فى دمياط فى عهد عرابى !

قالت صفية : اننى لا أسأل عن أبيه .. أسأل عنه !

قال سعد : اننى أعرف أباه وهذا يكفى !

قالت صفية : وهل وافق على أن يعيش معنا فى البيت ؟

قال سعد : لا .. لم يوافق .. أنا الذى وافقت على أن تقيم رتيبة معه فى دمياط !

وشهقت صفية وقالت : فى دمياط ؟ أى فى آخر الدنيا ! كيف تقبل أن تفترق رتيبة عنا ..

قال سعد : انه أصر على ذلك ..

قالت صفية : وهل له ثروة تجعله يهيىء لرتيبة حياة فى مستوى الحياة التى تعيشها معنا .

قال سعد : انه فقير جدا ! فقد أبوه كل ما يملك عندما سجنه الانجليز ونفوه خارج البلاد !

ولم تستطع صفية زغلول أن تعارض فى قرار زوجها ، فإنها تعرف أن قراراته دائما لا تقبل النقض . ولكنها انتهزت فرصة لقائها بالعريس بعد الخطبة ، واتفقت معه على أن تتردد العروس بين القاهرة ودمياط ، وخاصة انها علمت أنه يعمل فى مكتبين ، مكتب بالمنصورة ، ومكتب فى دمياط ، حتى لا تبقى العروس وحدها عندما يضطره عمله الى مغادرة دمياط الى مختلف مدن القطر للمرافعة فى محاكمها ..

ووافقت رتيبة ، التى لم تر وجه الشاب ، على الزواج ، لأن صديقتها العزيزة ، وهيبة ، ابنة شقيقة صفية زغلول ، متزوجة فى دمياط ..

ولم تر رتيبة وجه العريس إلا فى يوم الزفاف ! ..

وهكذا عقد قران الآنسة رتيبة زغلول على الأستاذ محمد أمين يوسف المحامى . وتم عقد القران والزفاف فى بيت سعد زغلول ، وكان سعد شاهد العروس .

وكانت صفية زغلول تضحك وهى تتذكر ما حدث يوم تقدم العريس للخطبة ، وتقول : لقد جاء سعد بجميع المعلومات عن والد العريس ولم يجىء بأى معلومات عن العريس ، كأن البنت ستتزوج والد العريس وليس العريس نفسه ! وعندما سألت سعد هل العريس طويل أم قصير ، نحيف أم بدين ، أبيض أم أسمر ، قال لى سعد انه لا يذكر فقد انشغل فى الحديث معه عن الانتخابات وثورة عرابى !!

ولقد عرف سعد زغلول بعد ذلك أن صهره من شباب الحزب الوطنى ، وأنه شريك فى مكتب المحاماة مع الأستاذ عبدالرحمن الرافعى المحامى الشاب

وأحد أعضاء اللجنة الادارية للحزب الوطني وشقيق أمين الرافعي رئيس تحرير جريدة العلم لسان حال الحزب الوطني ، ودارت مناقشات عاصفة بين سعد زغلول وصهره ، واكتشف أمين يوسف أن سعد زغلول قريب جدا الى أفكار هؤلاء الشباب ، الأفكار واحدة ولكن كلا منهما يعبر عنها بلغة مختلفة ! وجاء مع عدد من أصدقائه من شباب الحزب الوطنى والتقوا بسعد زغلول عدة مرات ، وناقشهم سعد بعنف ، وناقشوه بحدة وهاجموه وهاجمهم . واتهموه ودافع عن نفسه ، واذا بهم يقتربون منه ، ويتعاونون معه ، بل انهم اشتركوا معه فى المعركة الانتخابية وطافوا يدعون له فى الشوارع والحوارى والبيوت ، وانضم اليهم الشباب الذين أوفدهم سعد زغلول فى بعثات الى الخارج عندما كان وزيرا للمعارف بعد أن عادوا من بعثاتهم . وأعلن الخديو الحرب على المرشح وأمر بإسقاطه وأصدر لورد كتشنر أمره الى رئيس الحكومة بأن يكون سقوط سعد زغلول فى الانتخابات سقوطا شائنا حتى لا تقوم له قائمة بعد ذلك اليوم ، ونفذ رئيس الوزراء أوامر الخديو والمعتمد البريطانى فأمر البوليس ومشايخ الحارات بإسقاط سعد زغلول ، وإنجاح مرشح القصر والحكومة والانجليز !

وأصبحت دائرة السيدة زينب ميدان معركة طاحنة ، بين رجل يعتمد على الشارع ، ورجل يعتمد على الخديو والدولة وجيش الاحتلال بكل ما لهم من نفوذ وجبروت وسلطان !

وإذا بالشارع يسيطر على المعركة . وهنا أحس سعد زغلول أن دائرة السيدة زينب لا تكفي وحدها لتكون ميدان القتال ، فأراد أن يوسع الميدان ، فرشح نفسه أيضا عن دائرة بولاق !

وكان برنامجه الانتخابى متواضعا وهو إنارة الشوارع ! لم يطالب بالاستقلال ولا بالجلاء ، ولا بالدستور ! ولكن خصومه أدركوا ما يعنيه من كلمة إنارة الشوارع ! أدركوا أنه يعلن حربا على الظلام ! الظلام بما فيه من طغيان واستبداد واحتلال وفساد !

وركزت الدولة كل سلطانها لتهزم المرشح الذى أراد إضاءة النور ! وجرت الانتخابات ، وإذا بسعد زغلول يكتسح منافسيه فى الدائرتين الانتخابيتين معا ، ويكتسح معهم الخديو والوزارة وممثل جيش الاحتلال !

وأصبح الشعب كله من الاسكندرية الى أسوان يهتم بهذه المعركة الغريبة ، ويبتهج لنتيجتها ، فقد أحس كل فرد أنه هو الذى انتصر فى هذه المعركة ! واذا بشباب الحزب الوطنى يرون أن سعد زغلول هو خير من ينتخب رئيسا للحزب بعد أن اضطر زعيم الحزب محمد فريد للهروب من مصر فرارا من بطش الخديو وطغيان الانجليز ..

ورأى الشبان أن يخففوا الصدمة عن زعيمهم محمد فريد فكتبوا اليه يستأذنونه فى أن يختاروا سعد زغلول نائبا لرئيس الحزب الوطنى فى أثناء غيابه فى أوربا ، ولم يعجب محمد فريد بهذا الاختيار .

وفى الوقت نفسه لم يوافق الشبان الذين كانوا يعدون للثورة مع سعد زغلول سرا على أن يتولى سعد رياسة الحزب الوطنى ، فقد كان من رأيهم أن تقوم ثورة جديدة لا ترث خصومات الحزب الوطنى وأخطاءه ..

واتصل خبر ترشيح سعد زغلول لرياسة الحزب الوطنى اللورد كتشنر فهاج وماج ، واستدعى سعد زغلول وهدده وتوعده اذا تولى رياسة الحزب الوطنى ، وأكد له سعد زغلول أنه لا يفكر فى هذه الرياسة ..

ولكنه كان يفكر فى معركة أخرى ، كان يعتقد أنها أخطر من معركة رياسة الحزب الوطنى فقد نص قانون الجمعية التشريعية على أن يعين الخديو رئيس الجمعية ووكيلها وأن ينتخب أعضاء الجمعية الوكيل الآخر ..

وعين الخديو أحمد مظلوم باشا رئيسا للجمعية ، وهو وزير من المدرسة التركية القديمة وعين الخديو عدلى يكن باشا وكيلا لها ، وهو من أصهار أسرة محمد على .

ولم يترك الخديو لأعضاء الجمعية أن يختاروا الوكيل الثانى ! عز عليهم أن يكون من ممثلى الشعب أحد الوكيلين ، فرشح الخديو مدحت يكن باشا العضو المعين فى الجمعية وأحد أصهار أسرة محمد على لينتخبه الأعضاء وكيلا للجمعية ! أى أن يكون الرئيس والوكيلان فى البرلمان المصرى من الأتراك ، وألا يكون بينهم فلاح واحد !

وجاء لورد كتشنر المعتمد البريطانى وأيد هذا الاختيار على الرغم من أنه كان يطلق على نفسه لقب صديق الفلاح المصرى !

وجاءت الحكومة وتبنت مدحت يكن باشا مرشح الخديو ومرشح المعتمد البريطانى وإذا بسعد زغلول يرشح نفسه لمنصب وكيل الجمعية منافسا المرشح الذى اجتمعت عليه كلمة قصر عابدين وقصر الاحتلال وقصر الحكم !

وبدأت معركة جديدة بين الشارع وبين القصور الثلاثة !

وانضم النواب الفلاحون الى سعد زغلول ، وأسقطوا مدحت يكن باشا مرشح مجلس الوزراء ! وانتخب ممثلو الشعب سعد زغلول وكيلا للجمعية التشريعية ، متحدين أوامر الخديو ، وتهديد لورد كتشنر ، وضغط الحكومة وتلويحها بحل الجمعية التشريعية إذا أعلنت العصيان بانتخاب خصم الخديو وعدو لورد كتشنر !

وكان لورد كتشنر يبدو فى وجه المصريين فى صورة الطاغية المرعب حتى

ى جريدة الأهرام وصفته عند تعيينه فى منصبه بقولها بالحرف الواحد ، قالوا لنا اللورد كتشنر قادم ، فارتعدت أقلام ، واصطكت ركب ، وارتجفت أيد . فهذا يذكر سيفه البتار ، وذاك يذكر البطل المغوار .. »

وشعر الشعب للمرة الثانية بأنه انتصر على لورد كتشنر ، القائد الجبار ، والحاكم المتغطرس ، والعسكرى الذى اشتهر بانتصاراته المتوالية فى كل معركة حربية دخلها ، فإذا بهذا الشعب الذى هزمه الانجليز فى معركة التل الكبير ، وأذلوه ، واستعبدوه ، وطاردوا أحراره ، ونفوا زعماءه ، وشردوا رجاله ومحوا جيشه ، وهدموا معاقله ، ودكوا بيوته .

إذا بهذا الشعب يهزم الذين هزموه ، وينتصر على الذين غلبوه ، ويفرض رأيه على لورد كتشنر ، وعلى الاحتلال ، وعلى الحكومة كلها !

وامتلأ بيت سعد زغلول الخالى . ضاقت غرفه الواسعة ، ازدحمت صالاته الكبيرة ، غصت حديقته بالجماهير . أصبح كل مصرى يعتقد أنه شريك فى النصر الذين انتخبوا سعدا من أعضاء الجمعية التشريعية أحسوا أنهم أصبحوا أبطالا أمام الجماهير ، والذين انتخبوا سعدا فى الدائرتين الانتخابيتين شعروا بأنهم هم الذين هزموا البطش والارهاب والجبروت ، والذين لم يكونوا ناخبين أنهم شركاء فى المعركة ، بقلوبهم التى هزها النصر ، وبألسنتهم التى تحمست لممثل الشعب ، وبلعناتهم على ممثل السلطة وممثل العرش وممثل الاحتلال .

وكانت هذه هى المرة الثانية التى يصبح فيها بيت سعد زغلول كعبة المواطنين . كانت المرة الأولى قبل ذلك بست سنوات عندما دعا سعد زغلول المصريين للاجتماع فى بيته فى سنة ١٩٠٦ للاكتتاب لانشاء الجامعة المصرية ، بعد أن رفض الانجليز انشاء الجامعة !

وكانت هذه الخطوات كلها هى الرد على السؤال الذى بقى بغير جواب . لماذا بنى سعد زغلول فى سنة ١٩٠١ هذا البيت الكبير ! ؟

فى يوم وليلة أصبح هذا البيت هو مركز قيادة المعارضة ضد الخديو وضد اللورد كتشنر وضد الحكومة !

وفى هذا البيت توثقت عرى الصداقة بين الذين وقفوا مع سعد زغلول فى المعركة من أعضاء الجمعية التشريعية وكان هؤلاء الذين وقفوا معه فى هذه المعركة والمعارك التالية ، هم الذين اختارهم سعد زغلول ليكونوا أعضاء فى الوفد الذى قاد ثورة سنة ١٩١٩ بعد ذلك بسنوات . فإن الذين اختارهم سعد زغلول للقيادة بعد ذلك بسبع سنوات كانوا إما من هؤلاء النواب الذين بدأوا يترددون على بيته فى معاركه فى الجمعية التشريعية ، أو من جيرانه فى البيوت

التى تجاوره ، أو من الطلبة الذين أوفدهم فى بعثات عندما كان وزيرا للمعارف . فعبدالعزيز فهمى بك وعبداللطيف المكباتى وسينوت حنا ومحمد على علوبة وجورج خياط وعلى الشمسى ، أعضاء الوفد هم أنفسهم أعضاء الجمعية التشريعية الذين وقفوا بجوار سعد زغلول وانتخبوه وكيلا للجمعية ضد إرادة الخديو واللورد كتشنر ورئيس الحكومة . وحمدْ الباسل باشا الذى اختاره بعد ذلك وكيلا للوفد يقيم فى البيت المقابل لبيته فى نفس شارع سعد زغلول ، ومحمود أبوالنصر ، عضو الوفد يقيم فى نفس الشارع ، وابراهيم سعيد باشا الذى اختاره ليكون رئيسا للجنة الوفد المركزية يقيم فى بيت خلف بيته مباشرة ، وعبدالرحمن فهمى بك الذى اختاره رئيسا للجهاز السرى للثورة كان يقيم فى شارع القصر العينى على بعد خطوات من شارع سعد زغلول ، ومحمد محمود الذى كان عضوا فى الوفد يقيم فى شارع الفلكى فى نفس الشارع الذى يقع على ناصيته بيت سعد زغلول وكان الشيخ أحمد جاد الله العامل فى الترسانة وأحد زعماء الاغتيالات السياسية فى ثورة سنة ١٩١٩ أحد ناخبى سعد زغلول فى دائرة بولاق ! وقد كانت استعانة سعد زغلول بجيرانه فى تدبير الثورة سببا هاما فى كتمان أنبائها عن الانجليز الذين اشتد نشاط مخابراتهم فى تلك الأيام فى القاهرة لأن القاهرة كانت هى مركز قيادة قوات الحلفاء فى الشرق الأوسط فى أثناء المعارك ، وكانت تحشد فيها الجيوش التى تنطلق الى فلسطين وسوريا والى مختلف ميادين القتال . وكان البوليس المصرى تحت سيطرة الانجليز ، حكمدار القاهرة انجليزى ، ونائب الحكمدار انجليزى ، وكبار الضباط فى البوليس المصرى انجليز ، ووكيل الداخلية انجليزى .. ومدير الأمن العام انجليزى ، ومع ذلك تمت الاجتماعات السرية تمهيدا للثورة ، تحت أنف الانجليز ، بل أن بيت سعد زغلول الذى كانت تدبر فيه الثورة كان على بعد خطوات من مجلس الوزراء ، وعلى بعد خطوات من وزارة الداخلية التى كانت عيونها كأيدى الأخطبوط تمتد الى جميع أنحاء البلاد . ولهذا تصور البوليس أن هذه الاجتماعات إنما هى زيارات بين الجيران ، وليس تمهيدا للقيام بأول ثورة فى الشرق بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى !

والذين عاشوا فى البيت فى أثناء التمهيد للثورة أحسوا أن عميد الأسرة مشغول ، زوار يدخلون وزوار يخرجون . زوار يتناولون الغداء وزوار يتناولون العشاء . ولكن أحدا من الجيران لم يش بالثورة ، لأن الجيران أنفسهم كانوا شركاء فيها ! ولم يكن الاعداد للثورة قد بدأ قبل قيامها بيوم أو يومين كما قال بعض المؤرخين ، ولا قبلها بعام أو عامين ، بل كانت

عملية الاعداد قد بدأت قبلها بسنوات طويلة أو كما قال سعد زغلول انها بدأت يوم فشلت ثورة عرابي . بدأت وسعد زغلول مسجون في سجن القلعة ، بعد أن استسلم عرابي والجيش المصرى ، ودخل الجيش البريطاني القاهرة ووقف الخديو يستعرض جيوش الاحتلال في ميدان عابدين ! ولم تكن خطة الثورة كما رسمها سعد زغلول في خياله خطا مستقيما ، بل كان خطا متعرجا ، يتقدم الى الأمام ، ثم يتعرج اذا صادف عقبة ، ثم يعود الخط الى الوراء اذا اصطدم بمحنة ، أو يدور حول نفسه في دائرة أو يتوقف في مكانه ، وقد كان هذا الخط يقترب من خطوط أخرى ، أو يختفي تحت خطوط مختلفة لأن المرحلة قضت بالاقتراب أو حتمت الاختفاء . فإن جمعية الانتقام التى ألفها سعد زغلول عقب فشل الثورة العرابية كانت بداية هذا الخط ، ثم تقهقر الخط عندما اكتشف الانجليز التنظيم السرى الذى وضعه ، وكانت دعوة سعد زغلول لانشاء الجمعية الخيرية الاسلامية استمرارا للخط ، ثم دعوته لانشاء الجامعة المصرية هي أيضا استمرار للخط نفسه ، ثم تحريضه لقاسم أمين على دعوته لسفور المرأة ووقوفه بجواره في معركته الضارية ضد الرجعيين كان استمرارا للخط الثورى ، ثم مساهمته سرا في تأسيس جريدة « الجريدة » التى رأس تحريرها صديقه لطفي السيد ، والتى نادت بشعار « مصر للمصريين » فأغضبت الذين يؤمنون بالتبعية لتركيا وانهالت عليها الاتهامات بالخيانة والكفر والمروق ، كانت هذه الدعوة جزءا من الخط الثورى أيضا . وتولى سعد زغلول وزارة المعارف فدعا الى إنشاء المدارس والكتاتيب ، وإيفاد الشبان الذين يصلحون لقيادة الثورة القادمة في بعثات الى أوروبا وكانت هذه الدعوة كذلك جزءا من هذا الخط الثورى والاعداد الثورى . كما كان ترشيحه للجمعية التشريعية وانتصاره على عرشي الخديو والانجليزى جزءا هاما من هذا الاعداد ..

ولم يكن الطريق سهلا ، بل كان حافلا بالعقبات والأشواك والمخاطر ، وكان أكثر ما يؤلم سعد زغلول اضطراره الى أن يخفي خطته عن أقرب المقربين إليه ، فلم يكن يستطيع أن يكشف أوراقه ، أو أن يطلع أحدا على نواياه ، إلا عددا من الشبان الذين اختارهم ليكونوا نواة الجهاز السرى للثورة ، وكان عددهم قليلا جدا . وكانت حيطة سعد وحذره يجعلانه يحرص على إبعادهم عن أصدقائه الكبار . وهكذا كان يركب حصانين في وقت واحد ، حصان الكبراء والأعيان واعضاء الجمعية التشريعية ، وحصان الشباب المتحمس الذى اختار أفراده وأوفدهم في بعثات الى أوروبا ، فلما عادوا الى بلادهم ارتبطوا به وجعلهم تلامذته الثوريين . وكان يحرص على ألا يجتمع بهم في بيته

ڧ القاهرة ، بل كان يسافر الى عزبة يملكها قرب دمنهور ، وهناك كان يجتمع ڧ بيت صغير بالعزبة بأحمد ماهر ومحمود فهمي النقراشي وحسن كامل الشيشيني ، وغيرهم من الشبان الذين كانوا روح الجهاز السرى لثورة سنة ١٩١٩ وكان يجتمع بأحمد لطفي السيد ڧ عزبة تملكها زوجته ڧ قرية مسجد وصيف بقرب مدينة زفتى .

وكان سعد زغلول يتصور وهو يقوم بهذه الاعدادات السرية أن أحدا لن يكشف خطته ولكن حدث يوما أن وقع له حادث أذهله .. ورواه لأفراد أسرته وقد تملكه العجب واستبدت به الدهشة ، وبقى طوال حياته يردد هذا الحادث ولا يجد له تفسيرا معقولا ..

حدث ذات يوم أن استقل سعد زغلول قطار السكة الحديد من محطة القاهرة ڧ طريقه الى حضور أحد هذه الاجتماعات السرية ڧ مسجد وصيف . وجرت العادة ڧ تلك الأيام على أن تحجز مصلحة السكة الحديد ديوانا للوزير السابق .

وبينما كان سعد زغلول جالسا وحده ڧ الديوان والقطار ينهب الأرض بأقصى سرعته ، إذ فتح باب الديوان رجل عجوز له لحية بيضاء كبيرة ، وعلى رأسه عمامة بيضاء كبيرة ، ويرتدى عباءة بيضاء كبيرة ، ودون أن يستأذن الشيخ أغلق باب الديوان ، وجلس قبالة سعد زغلول وقال له اسمع ! ستكون زعيما لهذه الأمة !

وفوجىء سعد زغلول بهذا التصريح العجيب ، واذا بالشيخ يقف ويغادر الديوان ويغلق الباب . حدث هذا ڧ نفس اللحظة التى كان سعد زغلول يفكر فيها ڧ فشله ، وأن الاجتماعات التى كان يعقدها مع أصدقائه لم يتفقوا فيها إلا على شيء واحد وهو فض الاجتماع !

وكان سعد زغلول يومها يائسا من كل شيء عقبات كبيرة ڧ طريقه ، بعض الذين ظن أنه يستطيع أن يعتمد عليهم لم يصمدوا ڧ الطريق . الخديو يهدد بالبطش به . اللورد كتشنر يسد أمامه كل مسلك الشعب يبدو مستسلما أمام القوى الغاشمة التى تنهال على رأسه بالمطارق والضربات .. اسمه لا يكاد يذكر على لسان أحد . أصدقاؤه الشبان قدموا له ڧ اجتماعهم السابق تقريرا عن حالة الشباب المصرى بأنه يعيش ڧ مرحلة انعدام الوزن !

وقام سعد زغلول من مقعده وفتح باب القطار ، ومضى يبحث عن هذا الشيخ الغريب ولم يجده ڧ مقاعد الدرجة الأولى . ولا مقاعد الدرجة الثانية . ولا مقاعد الدرجة الثالثة . عاد يبحث عنه من جديد فلم يجده من غير المعقول أن يكون اختفى من القطار الذى كان يجرى بأقصى سرعته . ولكنه لم يجد هذا الشيخ الغريب !

وشغل هذا الحادث سعد زغلول . لقد رأى الشيخ بنفسه . سمع صوته . انها ليست رؤيا ولا وهما ولا خيالا ، فأين ذهب هذا الرجل ، ومن هو ؟ ولماذا جاء ؟ ولماذا اختفى . إن كل هذه الأسئلة ظلت تشغل بال سعد زغلول الى آخر يوم في حياته .

ولكنه اعترف لأسرته بأن هذا الحادث رفع روحه المعنوية . منحه قوة جديدة . أضاف إلى عموده الفقرى عمودا فقريا أقوى وأصلب يجعله قادرا على مواجهة الأحداث والضربات والصدمات !

ففى الوقت الذى كان يعد فيه للثورة ضد الانجليز ، كان يهاجم بشدة ويتهم من بعض الناس أنه من أنصار الانجليز ! وليس أصعب على نفس الوطنى من أن يتهم بخيانة بلاده ! أن يرى العبيد يلطخون بالطين من يحاول تحطيم قيودهم ! أن تلفق التهم بأيد مصرية لرجل يطالب بالحرية لجميع المصريين . ولقد كانت السلطة هى التى توعز بتلطيخ سعد زغلول . كان الخديو يخافه فكان يطلق عليه كلابه تنهش فيه .

وكان لورد كتشنر يكرهه ، فراح يوعز الى صحفه بأن تتهمه بخيانة الوطن ! فالوطنية عند الحاكم الظالم هى أن يحنى الناس رؤوسهم ، ويخرسوا ألسنتهم ، ويسجدوا أمام الطغيان ويحرقوا البخور للجبروت ! فإذا ارتفع رأس اتهم بالخيانة لأن الوطنية فى نظرهم هى أن نحنى الرؤوس ، وإذا تحركت شفاه قالوا عنها انها عميلة للأجنبى ، لأن الاخلاص للوطن لا يكون إلا بالسكوت على الظلم ، أو التسبيح بحمد الظالمين !

ولورد كتشنر يعتبر انجلترا هى الوطن . وكل خارج على انجلترا خارج على الوطن ، ومن خالف سياسة انجلترا فهو خائن للوطن يستحق الرجم فإذا اجتمع الخديو عباس ولورد كتشنر وعقدا بينهما حلفا مقدسا تحولت السلطة الى إله مقدس ، على الجميع أن يسجدوا له ويطيعوه ، ومن أغضب واحدا منهما فقد أغضب ربه ، ومن خرج عليهما معا فقد كفر بالله !

وجاء وقت على سعد زغلول وجهت اليه فيه الاتهامات فى الصحف فلا يجد صحيفة تنشر له ردا ! وتكال له المطاعن وتمنع الرقابة من نشر دفاعه عن نفسه . وراحت الصحف تشهر به وتعيره بأنه اشترك فى ثورة عرابى ، وتعتبر هذا دليلا على خيانته للوطن !

والضعفاء وحدهم هم الذين ينهارون اذا انهالت عليهم اللطمات ، أما الأقوياء فإنها تزيدهم إصرارا وتضاعف من صلابتهم ، وتقوى عزائمهم ، وتحول آراءهم الى عقيدة ودين . والرجل المؤمن برأيه أشبه بالكرة كلما قذفتها على الأرض بقوة زاد ارتفاعها . وكما أن الصواريخ هى التى تدفع السفن

الى الفضاء . فكذلك التلفيق والتنكيل والمظالم والعنف والاستبداد فإنها وقود المؤمنين .. الذى يزيدهم انطلاقا أو كأنها الصاروخ الذى يرتفع بهم الى ما وراء الفضاء ليحقق المعجزات . وإن كثيرين من العظماء مدينون بعظمتهم للذين ظلموهم واضطهدوهم . فلولا الصليب الذى صلب عليه المسيح ، لما أصبح الصليب معلقا على صدور الملايين ! ولولا النار التى أحرق فيها الظالمون جان دارك . لما أضاء تاريخها بالنور خلال مئات السنين . فالأكاذيب التى يلفقها السلطان لخصومه مثل « الفشنك » الذى يطلق من البنادق ، يدوى ولا يقتل . ولكن الحقائق التى يطلقها التاريخ على الطغاة هى أشبه برصاصات المسدس مع كاتم الصوت ، تقتل دون أن تدوى !

كان سعد زغلول يستطيع أن يخرس خصومه إذا اكتفى بأن يلغى التصريحات الوطنية الجوفاء ويسبح بحمد الخديو ، ولكنه كان بذلك يكسب السلطة ويفقد الثورة . فما أرخص الوطنية اذا كانت هى التسبيح بحمد الطغاة ، والسير فى مواكبهم ، ورفع أعلامهم والهتاف بحياتهم !!

ان الوطنية الحقيقية ألا تفقد الثقة ببلدك ولو تألبت كل القوى ضدك . أن تتحمل كل ما يوجه اليك من ظلم شخصى من أجل أن تخلص البلد من ظلم أكبر . الوطنية أن تعمل فى صمت وتبذل من عرقك ودمك ، وتسهر الليالى الطوال تعمل لانقاذ هذا البلد من غاصبيه ومحتليه ، بينما تنهال عليك التهم والأكاذيب من سذج أبرياء . أو من غادرين أدنياء ، يرون الوطنية فى الرقص على حبل المواكب أو فى الدفوف فى أفراح الحاكمين ! ما أرخص الضوضاء الوطنية وما أسهلها . وما أغلى العمل الوطنى الصامت وما أصعبه . إنك لا تسمع صوت العالم الذى صمم سفينة الفضاء ولكنك تسمع صراخ بائع الخيار فى الطريق العام !

وكثيرا ما قال سعد زغلول لأفراد أسرته أنه عندما كان يضع نواة الثورة لم يكن يفكر فى أن يكون قائدها . كان يتمنى لو عاش الشيخ محمد عبده ليقود هو الثورة ويعمل هو تحت قيادته ! فقد كانت الثورة الجديدة من أحلام الشيخ محمد عبده الذى شهد مصرع الثورة القديمة .. ثورة عرابى ! ومع ذلك كان سعد حريصا على أن يضيق المسافة بينه وبين شباب جيله ، فيتصل بهم . ويناقش آراءهم ، وكان يقول لأسرته اننى أريد أن أكون أبا للثورة القادمة ، لا جدها الكبير ، ولهذا أحرص على أن أكون أقرب الى الشبان من الشيوخ .

وكان يحدث أسرته باستمرار ، عندما يجتمع بهم على الافطار أو الغداء أو العشاء عن أنباء الصراع الذى يخوضه وما فيه من هزائم وانتصارات ، وقد عاش طوال حياته فى صراع لا ينقطع .

ولم يكن الصراع صراعا سياسيا فقط ، بل كان صراعا في داخل الأسرة نفسها ! فإن الرجل الذى اندمج بشباب الأمة ، لم يستطع أن يندمج بشباب أسرته !

كان لسعد زغلول شقيق واحد هو أحمد فتحي زغلول وشقيقة واحدة هي أم رتيبة ، وكان باقي اخوته وأخواته غير أشقاء ، وكان سعد يكبر فتحي بعدة سنوات . وتولى تربيته بنفسه ، وكان يعامله كابنه ، ولكن فتحي زغلول تعلم في فرنسا ، وكان شابا نابغا موهوبا ، وعاد من باريس بشخصية مستقلة ، فلم يكن على استعداد لأن ينطوى تحت جناح أخيه الأكبر . كان سعد أقوى شخصية ، وكان فتحي أقوى علما . عاد فتحي من دراسته بعقلية أوربية . وعكف على ترجمة الكتب العالمية الكبرى . وفي مقدمتها كتاب « سر تقدم الانجليز » وكان من رأيه أن تقطع مصر كل صلة بماضيها وتنتقل الى القرن العشرين وأن تصبح قطعة من أوربا .

وكان سعد زغلول متأثرا بعقليته الثورية ، بهزيمته في ثورة عرابي ، بإيمانه أنه لابد من التخلص من الاحتلال وأسرة محمد على معا لتمضى مصر الى القرن العشرين . ان مصر لا يمكن أن تترجم . ان تاريخها يمتد خمسة آلاف سنة ، يجب أن تنصهر فيها المدنية الفرعونية والمدنية العربية والمدنية الجديدة لتقوم دولة مصرية صميمة ، لها شخصيتها ، وليست صورة باهتة مترجمة عن دول أوربا .

واشتد الخلاف بين الشقيقين عندما قبل فتحي زغلول أن يكون أحد قضاة محكمة دنشواى التي حكمت بإعدام الفلاحين الذين ضربوا جنديا انجليزيا حتى الموت . وبعد أن عين سعد زغلول وزيرا للمعارف عين فتحي زغلول وكيلا لوزارة العدل . ثم غضب الانجليز على سياسة سعد زغلول في وزارة المعارف فأوعزوا الى الخديوى بنقله من هذه الوزارة ، فعينه وزيرا لوزارة العدل .

وفوجيء الشقيق الأصغر وكيل وزارة العدل بأن شقيقه الأكبر أصبح وزيرا للعدل ..

وبدلا من أن يتعاون الشقيقان اختلفا ، وأصبح فتحي زغلول يعتقد أنه أحق من أخيه الأكبر بمنصب وزير العدل . انه أكثر منه علما . وأكفأ منه في شئون الادارة ..

ولكن أحدا لم يشعر بالخلاف بين الشقيقين ، فقد بقى محصورا بينهما إلى أن مات فتحي زغلول وعندئذ بكاه سعد زغلول كما لم يبكه أحد !

وحدث صراع آخر بين سعد زغلول وبين ابن شقيقته فتح الله بركات باشا ..

فقد كان نجل فتح الله باشا الأكبر الدكتور بهى الدين بركات من أقرب شباب الأسرة إلى سعد زغلول ..

وفكر بهى الدين بركات بعد أن حصل على شهادة الدكتوراه فى الحقوق فى أن يتزوج واستأذن سعد زغلول فى الزواج وعرض عليه اسم الفتاة التى اختارها بصفته عميد الأسرة ، فوافق سعد زغلول ..

وتم عقد القران وحضره سعد زغلول وبارك الزواج .. وإذا بالعروس تموت فجأة .. وكانت صدمة قاسية على الشباب الرقيق بهى الدين بركات ، ورأى فتح الله بركات باشا أن يسارع الى تضميد جراح ابنه ، فخطب له ابنة أحمد عفيفى باشا ناظر خاصة السلطان حسين .

ورحب بهى الدين بالعروس الجميلة الصغيرة ..

وغضب سعد زغلول لأن بهى الدين لم يستأذنه فى الزواج بصفته عميد الأسرة ، وأنه خطب ابنة أحمد عفيفى باشا ، وهو رجل يكرهه ، منذ كان الاثنان يعملان مستشارين فى محكمة الاستئناف ! وكان معروفا أن أحمد عفيفى باشا كان يلغى كل حكم تصدره دائرة سعد زغلول !

ودهش سعد زغلول أن يختار ابن أخته مصاهرة رجل كان سعد معه على طرفى نقيض .. وعلى خلاف مستحكم ..

ورفض سعد زغلول حضور الزواج . ومنع صفية من حضور الزفاف . كما منع رتيبة وسعيد من حضوره أيضا ، رغم انهما كانا يعتبران بهى الدين بمثابة شقيق أصغر لهما وأصدر سعد أمره بمقاطعة أسرة فتح الله بركات !

ولقد كان فتح الله بركات فلاحا ، وكان يعرف تقاليد الفلاحين التى تقضى بألا يتم زواج فى الأسرة إلا بعد موافقة عميدها ، ولكن ابنه بهى الدين بركات كان قد درس فى فرنسا وعاد بآراء جديدة ، لا تتفق مع هذه التقاليد البالية ، منها أن من حق كل شاب أن يختار عروسه بغير أن يحصل على موافقة أبيه وعميد الأسرة .. ثم انه ارتبط بكلمة ، وكرامته أن يحافظ على كلمته .. فالرجل هو الكلمة التى يقولها ..

وأيد فتح الله بركات ابنه فى موقفه ضد خاله سعد زغلول ..

وكانت محنة قاسية لرتيبة .. فإنها كانت تعتبر فتح الله بركات خالها ، وتعتبر زوجته خالتها ، وأولاده أخوتها ، ولكنها عاشت تطيع سعد زغلول طاعة عمياء فاضطرت أن تخضع لأمره وقطعت صلتها بأقرب الناس إليها ..

أما زوجها الأستاذ محمد أمين فقد رفض أن يخضع لهذا الأمر ، واستمر على صلته ببهى الدين بركات ، فقد كان زميله وصديقه فى الدراسة فى المدرسة الخديوية ثم مدرسة الحقوق .

ثم حدث أن سافر سعد زغلول إلى باريس ، وخيل إليه أنه رأى بهى الدين فى أحد شوارع باريس ، فلم يتقدم بهى الدين لتقبيل يده ، وإنما اكتفى برفع قبعته له .

وهاج سعد زغلول واعتبر تصرف بهى الدين وقاحة وقلة حياء .. بينما لم يقصد بهى الدين اهانته ، وإنما رآه مشغولا فى حديث مع أحد الكبراء ، فلم يرد أن يقطع عليه الحديث ..

ولكن هذا الحادث جعل الزوبعة تشتد فى الأسرة ، والخصام يتضاعف ، حتى انه عندما قاد سعد زغلول ثورة سنة ١٩١٩ رفض فتح الله باشا أن ينضم إليه ولكن عندما نفى الانجليز سعد زغلول الى مالطة ، تقدم فتح الله بركات على الفور وانضم الى الوفد ونفى مع سعد زغلول الى سيشيل ، وعاد وأصبح يد سعد اليمنى فى الثورة ، وأحب سعد زغلول زوجة بهى الدين التى قاطعه من أجلها ، بعد أن عرف أنها كانت من أولى المصريات اللاتى خرجن فى مظاهرات ثورة سنة ١٩١٩ ولكن هذه القطيعة التى استمرت عدة سنوات تركت أثرا عميقا فى نفس كل من صفية زغلول وزوجة بهى الدين بركات ! فالمرأة لا تنسى ولا تصفح كما ينسى ويصفح الرجل ..

فعندما مات سعد زغلول ، وانحصر الترشيح لرياسة الوفد بين فتح الله بركات ومصطفى النحاس ، اذا بصفية زغلول تتقدم وتلعب دورا كبيرا وحاسما فى تأييد النحاس ضد فتح الله بركات !

وكان فتح الله بركات باشا يقول : ان ما تفعله صفية هانم معى .. هو نفس ما فعلته السيدة عائشة زوجة النبى مع سيدنا على بن أبى طالب !

وهكذا بعد أن مضى ١٤ عاما على الخلاف لم يلتئم جرح صفية زغلول !

ثم حدث فى عام ١٩٣٣ خلاف آخر بين الوفديين .. وكان ذلك بين الأقلية برياسة مصطفى النحاس ، وأغلبية الوفد برياسة فتح الله بركات .. وانضمت صفية زغلول الى الأقلية ضد الأغلبية ، وأصدرت بيانا للشعب تؤيد فيه فصل أغلبية الوفد .. وكان هذا بعد عشرين عاما من الخلاف الأول !

و[illegible] الخلاف من جديد بين أسرة فتح الله بركات وأسرة سعد زغلول .. [illegible] وفاة صفية زغلول بسنوات قليلة !

ولم ينته هذا الخلاف إلا [illegible] خلاف ثالث : فقد تقدم

ثم حدث بعد ذلك بثلاث وثلاثين سنة أن [illegible] مصطفى أمين إلى ابنة بهى الدين بركات وخطبها . ووافقت [illegible] الخطبة ..

وإذا بزوجة بهى الدين تعترض على الزواج وتحاربهم ، وتقيم العقبات فى طريقه .. وذلك لأن أمه رتيبة كانت من فريق الأسرة الذى وقف ضد زواجها

من بهى الدين . رغم مضى ثلاث وثلاثين سنة على هذا الخلاف !

وهذه أشياء تبدو عجيبة للجيل الذى نعيش فيه اليوم ولكن فى تلك الأيام كانت أسر الريف المصرى تلتزم بتقاليد وعادات تقدسها وتعتنقها وتؤمن بها . وهكذا نجد أن سعد زغلول الثائر المجدد الذى دعا الى انشاء الجامعة ، والذى أيد قاسم أمين فى سفور المرأة ، والذى حارب التقاليد الرجعية ، يعيش فى بيته بعقلية قريته فلاحا أصيلا ، يقبض على أسرته بيد قوية ، ويسيطر عليها ، ويلزمها بالتمسك بتقاليد الفلاحين التى ورثها سواء أكان أفراد الأسرة هؤلاء كبارا أم صغارا ، يحملون أعلى الشهادات أو أكبر الألقاب .. انهم أمامه جميعا أولاد صغار !

ولقد تأثرت صفية زغلول بتعاليمه .

فقد كان لصفية زغلول أخت كبرى تحبها حبا يقرب من العبادة ، وكانت هذه الأخت متزوجة من الدكتور محمود صدقى باشا محافظ القاهرة .

وعندما قامت ثورة سنة ١٩١٩ قال محمود صدقى باشا فى نادى محمد على انه يعتقد أن الشعب المصرى لا يستحق الاستقلال ، وأن سعد زغلول سيفشل فى ثورته !

ودهشت صفية زغلول لهذا التصريح الغريب . كيف يصدر مثل هذا الكلام من زوج شقيقتها الكبرى ضد الثورة التى يقودها سعد زغلول ..

واتصلت بشقيقتها الكبرى وسألتها عن الرواية التى سمعتها نقلا عن زوجها .

وقالت الشقيقة ان الشعب المصرى لا يستحق الاستقلال إلا بعد عشرين سنة !

وإذا بصفية زغلول تنقطع عن زيارة أختها الكبرى ، وعن مقابلتها وعن التحدث إليها ..

وبقيت هذه القطيعة عدة سنوات .. بغير أن يطلب سعد زغلول من زوجته أن تقاطع شقيقتها .. بل لقد ألح عليها بعد ذلك فى أن تزيل ما بينها وبين شقيقتها وقال لها أنا سامحتها فى اساءتها لى !

قالت صفية ولكن الشعب المصرى لم يسامحها !

ولعل الشعب سامح شقيقة صفية الكبرى لما اعتبرته إهانة للشعب بأنه لا يستحق الاستقلال إلا بعد عشرين سنة !

والواقع أن الشعب المصرى لم يحصل على الاستقلال الحقيقى إلا بعد ذلك بخمس وثلاثين سنة .. أى بعد ١٥ سنة من الموعد الذى قدرته شقيقة صفية زغلول وجعلها تقاطعها لهذا السبب الخطير !

ومن الغريب أن السيدتين اللتين لم يضمد الزمن جراحهما كانتا طارئتين على أسرة زغلول ، ولم تكونا من صميمها ، وهى طبيعة المرأة التى تتزوج فلاحا مصريا ، فإنها لا تلبث أن تندمج فى حياته ، فإذا دمه هو الذى يسرى فى دمها ، فرأيه يصبح عقيدتها ، وعقيدته تصبح دينها ، وخدشه الوقتى يتحول الى جرح أبدى لا يشفيه الزمن . رجلها ينسى وهى تذكر . يغفر فلا تغفر . ولعل جروح النساء أشبه بالكسور فى عظام العجائز تحتاج الى وقت طويل كى تلتئم . ولعل قلوب الرجال كعظام الأطفال سريعة الالتئام !

فلقد حدث فى نهاية حياة سعد زغلول أن قرر أن يضم صفوف الشعب ، ويأتلف مع خصومه ، ويحتضن أعداءه القدامى ويجعل البلد كتلة واحدة فى مواجهة الانجليز . وكان أكبر خصومه يومها عدلى يكن باشا وعبدالخالق باشا . ونسى سعد زغلول صراعه مع عدلى كما نسى أن ثروت باشا اشترك مع الانجليز فى نفيه الى سيشيل ، وفى تشريد رجاله وإعدام أنصاره

وحدد سعد موعدا يستقبل فيه العدوين السابقين فى بيته وإذا بزوجته ترفض أن تبقى فى البيت أثناء هذه الزيارة ، وتغادر فعلا ولا تعود إليه إلا بعد انصراف العدوين القديمين . ولم يستطع سعد زغلول مع سلطانه ومنزلته لدى زوجته أن يرغمها على البقاء فى بيته فى أثناء هذه المقابلة التاريخية التى رحب بها الشعب كل الترحيب

وكان سعد يضحك لتمرد أفراد أسرته عليه ولطالما كان يعجب كيف استطاع أن يسيطر على الملايين ولم يستطع السيطرة على بضعة أفراد ، يتزوج بعضهم بغير إرادته ، ويخالفه بعضهم فى الرأى ويخرج آخرون على أوامره وتعليماته .

والواقع أن سعد زغلول هو المسئول عن أزماته مع الأسرة ، فقد كان حديثه المحبب إليها يدور دائما حول التمرد على السلطة ، وكيف يكون هذا التمرد ، وكيف يكون من حق الشعب أن يناقش السلطة فى أحكامها ، وكيف أننا يجب أن نتحرر من قيودنا وأغلالنا ، ونأبى السيطرة ونرفض الطغيان ..

كان سعد زغلول يقصد فى دروسه اليومية الى أسرته سلطة الاحتلال وسلطة القصر . ولكن أفراد الأسرة شبوا يتمردون على كل سلطة . لذلك لم يكن عجيبا أن يتمردوا على السلطة التى أمامهم وهى سلطته هو . عميد الأسرة . وهكذا زرع سعد زغلول الريح فى حديقته فحصد العواصف فى بيته ! .

ولكن هذه الصراعات العائلية لم تضعف رابطة الحب التى كانت تجمع رب الأسرة بأبنائها . كانوا يخشونه ويعبدونه . يرهبونه ويقدسونه . يخرجون عليه فى الصغائر من الأمور ويقفون الى جانبه فى كبائرها . وكثيرون منهم

انضموا الى الجهاز السرى للثورة بغير استئذانه ، فهو لم يدع واحدا منهم الى الخطر . ولكنهم هم الذين أقبلوا عليه ، وتسابقوا اليه .

ولقد كانوا شغوفين بالاطلاع على اعداده السرى للثورة . الصغار فيهم تابعوه وكأنهم يشهدون فيلما بوليسيا مثيرا ، أو لعبة عسكر وحرامية ، السلطة هي العسكر والشعب هو الحرامية الذين لا يريدون أن يضبطهم العسكر وكان الكبار منهم يشهدون الاعداد السرى وكأنهم يشهدون مولد دين جديد ، عميد أسرتهم هو نبيه والشعب المصرى هو جبريل الذى يحمل له الوحي والالهام ! وكانت نساء الأسرة أسرع الى الايمان من الرجال ، وأقوى يقينا ، وأكثر استعدادا للتضحية ، وأجرأ فى مواجهة الخطر ، وقد كان صمود كل امرأة منهن وراء زوجها هو سلاحه السرى الذى جعله يواجه أخطارا لا قبل له بها ..

وكان سعد زغلول فى إعداده الطويل للثورة أشبه براقص التانجو .. لا يحتضن امرأة ، ولكنه يحتضن حركة سرية . يخطو خطوتين ثم يتراجع خطوة ، ويدور حول نفسه ، ثم يخطو ثلاث خطوات ويتأخر خطوتين ، ثم يتقدم خطوة ويتأخر خطوة ، وكأنه يبحث فى حلبة الرقص عن ثغرة ينطلق منها مع المرأة التى يراقصها الى الفجر الجديد !

وكانت الحياة فى داخل البيت نفسه حياة مثيرة . زيارات فى الظلام . أبواب تفتح بهدوء ثم تغلق . زوار يدخلون من الباب الأمامى ، وزوار يدخلون من الباب الخلفى ، وآخرون يدخلون من باب الاسطبل حيث يقيم الحصانان والعربة الحنطور ! منهم من يستقبله سعد فى مكتبه ، ومنهم من يستقبله فى الصالون ، أو فى الطابق العلوى ، أو يجتمع بهم فى البدروم ! وكان الحرص من الحرص فى ألا يلتقى الزوار ببعضهم البعض . ألا يرى الجالس فى المكتب الشخص المجهول المنتظر فى البدروم . وكان أبرز ما فى هذه الزيارات انها تتم جميعا بمواعيد محددة . وكان أغرب ما فى بيت سعد زغلول فى [illegible] أن فى كل غرفة ساعة كبيرة .. فإذا دُقت الساعات مرة واحدة ، خيل إليك أنك تسمع أجراس الكنائس فى ليلة عيد الميلاد !

وذات يوم كانت الأسرة كلها فى انتظار زائر جديد !

وفوجئت الأسرة . انه بدلا من أن يصل زائر واحد ، وصل زائران معا ! ..

ووقعت الأسرة فى أزمة !

● ● ●

• الفصل الخامس •

صرخت رتيبة بصوت عال دوى كالرعد وهز جدران بيت سعد زغلول الهادىء . وقفزت صفية من مقعدها ملتاعة فزعة . راحت تعدو فى لهفة إلى غرفة ابنتها المتبناة التى تنتظر مولودها الأول . كان صراخ رتيبة يمزق أعصاب صفية ، انحنت عليها ومسحت رأسها بيدها فى حنو تطمئنها وهى أشد هلعا من الأم التى تصرخ وتتلوى بصوت يفتت الأكباد . إن صفية رأت قبل الآن شقيقتها الكبرى زكية تلد ابنها حسينا ، ورأت أختها فهيمة تلد خمس مرات ، ولكنها لم تسمع فى مرات الوضع هذه هذا الصراخ الذى يمزق قلبها كسكين ، لم تشهد هذه الآلام المروعة التى تحطم روحها ، لم تحضر ولادة أرعبتها وملأتها حيرة وفزعا كالولادة التى تشهدها الآن .

كان صفية قد حرمت طوال سنوات زوجها من أن تكون أما . لم تذق عذاب الوضع . كم تمنت أن تحس بهذا العذاب اللذيذ لتسعد زوجها سعد الذى حرمته متعة أن يكون له أطفال . عاشت طوال شهور حمل رتيبة تحلم بأن يجيء اليوم الموعود . يوم ترى طفلا فى بيتها لأول مرة منذ أكثر من عشرين عاما .

وها هو ذا اليوم قد جاء ، وجاء معه برعب يملأ قلبها ، ان رتيبة لاتلد كما تلد الأمهات . انها لا تلد وإنما تموت ! . وهى سترى اليوم حفيدها وتفقد فى نفس اليوم ابنتها ؟ ربما مات الطفل فى بطنها ؟ ربما ماتت الأم والطفل معا . انها تخشى أن تكون روح رتيبة هى التى تخرج الآن من جسمها وليس وليدها . انها تعرف أن رتيبة ورثت من خالها سعد زغلول قوة احتماله . لم ترها تشكو يوما . كانت قادرة على أن تخفى عذابها تحت ابتسامة . أن تصبر على بلواها . فلابد أن آلامها اليوم أكبر مما يحتمل البشر ، ولهذا أطلقت هذا الصراخ والعويل والأنين . إن شيئا من داخل رتيبة يتمزق . هى كلها تتمزق . ليست هذه ولادة طبيعية . انما هو جو جنازة . ان الصراخ المدوى والعويل الدامى ليس إيذانا بمولد طفل ، وإنما هو نعيب يعلن عن موت أم !

وأسرعت صفية تعدو . وتقفز درجات سلم الطابق الثانى . واتجهت الى الطابق الأول تستغيث بزوجها سعد ، وتبلغه أن رتيبة على وشك الموت ، واتصل سعد تليفونيا بالدكتور ملتون الطبيب السويسرى المشهور فى القاهرة . وطلب إليه أن يحضر على الفور .

ووصل الدكتور ملتون ودخل الحجرة فى الساعة الأولى بعد ظهر يوم السبت ٢١ فبراير سنة ١٩١٤ ، وبعد دقائق كان يحمل فى يده مولودا أكبر من الحجم المعتاد ، وراح يضرب ظهره بيده فينطلق صراخه . وتتلق صفية زغلول الطفل وتدور به فى الغرفة وهى تصيح فى فرح وزهو . ولد ! ولد ! .

- ومضت صفية تقول وهى تلف المولود باللفافات والأربطة

- معذورة رتيبة ! ان ضخامة جسم المولود هى السبب فى صراخها وعويلها ..

واذا بالسيدة الحكيمة التى كانت تساعد الدكتور ملتون تصرخ فى فزع :

- الحقونى ! الحقونى !

واتجهت صفية فى رعب الى الفراش الذى ترقد فيه رتيبة وتصورت انها ماتت فى أثناء الوضع .

وقالت الحكيمة وهى لاتزال منحنية على جسم رتيبة

- فيه واحد ثانى ..

وأخرجت الحكيمة مولودا هزيلا ضعيفا ضئيلا ، حجمه أقل من المعتاد ، ويدق قلبه كما تدق الساعات الرخيصة التى لاتنتظم خمس دقائق الا لتتوقف خمس دقائق .

وراح الدكتور ملتون يضرب بيده ظهر الطفل الهزيل فلا ينطق ، واستمر يضربه حتى خرج من فمه صوت هزيل ضعيف أقرب الى حشرجة عجائز يموتون . منه الى صراخ أطفال يولدون !

وسلمت صفية المولود الأول الى الحكيمة ، وحملت المولود الثانى وصاحت فى دهشة .

- ولد كمان ! ؟ .. ولد تان ؟ ؟

وما كادت رتيبة تعلم انها رزقت بولدين توأمين حتى أغمى عليها من الفزع . وأسرع الطبيب يسعفها من أثر الصدمة الهائلة ! لم تكن ولادة التوأمين منتشرة فى مصر فى تلك الأيام كما هى منتشرة الآن . كانت رتيبة تحمل هم تربية مولود واحد . فاذا بها تفاجأ بأنها رزقت بولدين معا فى وقت واحد . كيف تربيهما معا ؟ كيف تحملهما معا ؟ ان هذه أول مرة تلد فيها ، وهى لاتعرف كيف تعنى بطفل واحد ، لابطفلين أثنين فى وقت واحد . وهى قد أعدت ملابس ولوازم طفل .. فماذا تفعل بالطفلين !

ومضت رتيبة تبكى وتندب سوء بختها . وقلة حظها . لماذا هى وحدها دون نساء العالم ترزق بمولودين معا !

وكانت رتيبة تشهق بالبكاء حزنا وأسى بسبب المصيبة الفادحة التى حلت

بها . وتندب حظها لأنها رزقت وحدها دون جميع أمهات الأسرة بولدين في وقت واحد . وتركتها صفية وخرجت الى الغرفة المجاورة التى كان يجلس فيها سعد زغلول ثم عادت مرة أخرى . وجلست بجوار رتيبة في فراشها تهدىء روعها وتقول لها :

- إن سعد قال لى الآن انه أسعد رجل في العالم لأنك رزقت بولدين .

فقالت رتيبة ودموعها تنهمر من عينيها : ولكننى أتعس أم في العالم ؟ ! كيف يمكن أن أربى ولدين في وقت واحد ؟

قالت صفية :

- إن سعد حل هذه المشكلة . انه يقول أن الله شاء بهذين الولدين أن يحل مشكلتنا . أنا وخالك نتمنى أن يكون لنا ولد .. هذه هى أمنيتنا الكبرى . وقد حقق الله أمنيتنا فرزقك بولدين ، لنأخذ نحن أحدهما وتأخذى أنت الثانى ..

قالت رتيبة في سعادة :

- صحيح هل وافق خالى حقا على أن يأخذ أحدهما .. خذى من تريدين منهما ؟

قالت صفية : لقد اقترحت أن أسمى الأول على باسم عمى على بك زكى وأسمى الثانى مصطفى باسم والدى وقد وافق سعد على ذلك . وقال انه سيترك لك على المولود القوى الصحيح ، وسيأخذ هو المولود الضعيف الهزيل مصطفى .. وسوف نتبناه .. وسوف يحمل اسم خالك سعد زغلول ، وسيكون اسمه في شهادة الميلاد مقرونا باسم والده سعد زغلول وأمه صفية زغلول .

واجهشت رتيبة بالبكاء وقالت :

- إنك تسخرين منى ؟ إنك تكذبين على بهذا الاقتراح . لتخففى عنى المصيبة .

قالت صفية زغلول :

- أقسم لك برأس والدى أن سعد يريد أن يتبنى مصطفى ، وقد عرض على الفكرة ، فرحبت بها من كل قلبى . انك تسعدين خالك إذا نزلت عن « مصطفى » له .

قالت رتيبة : إننى مدينة لخالى بحياتى . إنه هو الذى ربانى وأنا طفلة يتيمة . كما تبنانى مع أخى سعيد ، ولو طلب حياتى لأعطيتها له . إننى لا أظن أن في الدنيا أبا خيرا من خالى سعد ولايوجد في الدنيا أم خير منك .

قالت صفية : وهل سيوافق زوجك على أن نأخذ مصطفى ؟

قالت رتيبة في عتاب :

- يوافق ؟ إنه سيرقص من الفرح والفخر ..

ولم يكن الأب موجودا من القاهرة عندما وضعت زوجته . كان غائبا فى دمياط . فإن الأطباء أجمعوا على أن رتيبة سوف تلد بعد موعد الوضع الفعلى بأسبوع على الأقل . وكان الأب الأستاذ أمين يوسف يترافع فى محكمة دمياط ، فى قضية غرامية كانت تهز المدينة الصغيرة هزا عنيفا . وكان أول قضية حب فى محكمة دمياط . قضية قسمت المدينة قسمين . رجال المدينة فى ناحية ونساؤها فى ناحية أخرى . الرجال يؤيدون الجانى وهو شاب من أغنيائها المعروفين . والنساء ينتصرن للمجنى عليها وهى ابنة أحد أثرياء المدينة التى أحبها الثرى الدمياطى وبادلته الحب . ووعدها بالزواج ثم أنكر وعده .

وكان أمين يوسف هو محامى العاشقة الحسناء .

وحار سعد زغلول كيف يبلغ أمين يوسف أنه رزق بتوأمين . وأعتقد انه سينزعج كما انزعجت الأم الصغيرة . وجلس وكتب برقية يقول فيها :

« نهنئكم . حرمكم أنجبت مولودا ذكرا » والامضاء سعد زغلول .

وضحك سعد وقال لصفية :

ـ وهكذا .. يعرف أمين المصيبة بالتدريج ! .. وعندما يعود الى القاهرة من دمياط نخبره بأمر المولود الثانى !

وعندما وصلت البرقية الى أمين يوسف كان يسمع الحكم لمصلحة موكلته العاشقة الحسناء ، ويستلم منها ثلثمائة جنيه ذهبا مؤخر أتعاب المرافعة فى هذه القضية ويتلقى التهانى من الرجال الذين كسبهم بعد أن سمعوا مرافعته !

وتفاءل أمين يوسف بأن يزف اليه نبأ ولادة مولوده الأول فى اللحظة التى ينتقل فيها من محام صغير الى محام معروف مشهور !

واستقل أول قطار وعاد الى القاهرة ، وما كاد يدخل بيت سعد زغلول حتى أحضرت له صفية زغلول مولودا واحدا .

وسر به سرورا عظيما . كان المولود سمينا جدا . ممتلئا صحة وعافية .

وبعد أن اطمأن الأب على صحة زوجته . عاد يطل على المولود . وفوجىء به هزيلا شاحبا ضعيفا .

وأصيب الأب بالذعر . اعتقد أن مولوده أصيب فجأة بنزيف حاد . جعله يفقد نصف وزنه فى خلال دقائق . وأسرع الأب يعدو الى الشارع باحثا عن الدكتور طلعت باشا الطبيب المشهور لينقذ مولوده البكر المهدد بالموت .

وأسرع بهى الدين بركات باشا يعدو خلفه ، ويعيده الى البيت ، ويخبره بأنه رزق بولدين . لابولد واحد ، أحدهما قوى بدين ، والآخر ضعيف هزيل .

ولم يحتمل الأب الصدمة ، فأغمى عليه ، انه لم يسمع قبل ذلك أن أما رزقت بولدين فى بطن واحد ..

وأبلغته رتيبه باقتراح سعد وصفية أن يسمى الولد الأول على والولد لثانى مصطفى فرحب بالاقتراح .

ولكن ما كادت رتيبة تخبر زوجها باقتراح سعد أن يتبنى مصطفى حتى نضب الأب وثار ورفض الاقتراح بعنف وقال :

- لا يمكن أن أبيع ابنى !

قالت رتيبة

- ان المسألة ليست مسألة بيع وشراء ، إننا كنا نريد من الله ولدا واحدا وأعطانا ولدين ، وقد صدمت أنت كما صدمت أنا بالنبأ جاء خالى وطلب أن يتبنى مصطفى لأنه محروم من نعمة الأولاد . فلماذا لانسعده بأن نعطيه الولد الضعيف الهزيل ؟ !

قال الأب

- أنا لا يمكن أن أعطى ابنى لأحد !

قالت رتيبة

- أنه ليس « أحد » انه خالى وأبى الذى تبنانى وربانى أنا وأخى وأنا يتيمة الأبوين فأقل ما أفعله أن أرد له جميله وأسعده فى شيخوخته ووحدته .

قال الأب .

-يمكنك أن تعطيه ما تملكين ! ولكن ابنى لايمكن أن أنزل عنه لأحد !

وتألم سعد كثيرا لموقف الأب .

وعندما أرادت صفية أن تقنعه قال لها ما قاله لزوجته بعنف أقسى ، وغضبت صفية للطريقة القاسية التى أبدى بها رفضه

وبكت رتيبة على رفض زوجها أن يتبنى خالها مولودها الضعيف .

ولم تمر هذه الأزمة ببساطة على بيت سعد زغلول . انها جرحته لقد عاش سعد بضع ساعات يتصور أنه أصبح أبا . أن ولدا سيحمل اسمه . انه سيحمل بين يديه . سيحبو فوق ركبتيه . سيسلى به شيخوخته سيطربه صراخه . سيملأ صوته الصغير البيت الهادىء الساكن الوقور . وعندما تلقى سعد رفض أمين يوسف عبس وجهه واكفهر . تحولت عيناه الضاحكتان الى عينين جامدتين حزينتين . أحس كأنه طعن فى قلبه الذى نبض لأول مرة نبضة الأبوة بسكين زوج ابنته المتبناه . أو كما قال مرة : أحسست كأننى رزقت بولد وحيد ثم مات بعد بضع ساعات ! أيستكثر عليه أمين يوسف أن يعطيه المولود الذى لم يرده ولم يتوقعه ؟ ماذا سيفعل هذا الأب الشاب بمولودين اثنين ؟ إن أمامه سنوات كثيرة يرزق بعدد من الأولاد والبنات . ولكنه هو .. إنه لا أمل له فى أن يرزق بالولد . لقد طاف بزوجته أوروبا . وعرضها على

أكبر أطبائها فأجمعوا على انها لايمكن أن تلد . ايضن عليه يوسف بمولود يخفف عنه وحدته . يضيء شمعة حياته التى بدأت تخبو ؟ أيكون هذا جزاءه بعد أن منح رتيبة وسعيد ولدى أخته الوحيدة كل حبه وكل عطفه وكل حنانه . حتى نسيا ذل اليتم . وهوان فقد الأب والأم فى سنوات طفولتهما الأولى ؟ هل يعطى الله الذين لا يريدون أكثر مما يريدون . ويحرم الذين يحلمون بولد ولو كان ولدا مستعارا ؟ !

وعاش سعد فى تلك الأيام لحظات قاسية ، من الحزن والهم والغم . وحاولت رتيبة وصفية أن تسريا عنه ، وأن تزيلا كآبته ، وجاء الأب يعرض اقتراحا أن يبقى الطفلان فى كنفه دائما وأن حملا اسم ابيهما .

ورفض سعد الاقتراح بشدة فى أول الأمر ، ثم عاد فقبله ، وحاول أن يتناسى اقتراحه المرفوض ، ولكنه كان يعود بين وقت وأخر ويستذكر رفض عرضه ، وفى ايام يتسلى بملاعبة الطفلين الصغيرين ، يداعبهما ويحملهما ، ويدرس تصرفاتهما ، ويكتب عنهما فى مذكراته السياسية ، ويسأل عنهما إذا غابا ، ويبحث عنهما إذا اختفيا . وفى أحيان أخرى تعود إليه رغبته فى أن يكون أبا وضيقه بأنه حرم من أن يتبنى أحد الطفلين ، فيطلب الى صفية أن تبعد الطفلين حتى لايتذكر أنه فقد أحدهما ، ويفضل أن يعتكف وحيدا فى ضيعته بمسجد وصيف طوال الصيف ، ويطلب الى صفية أن تعطى رتيبة نفقات المصيف لتصحب الطفلين الصغيرين الى اى مصيف ، بدلا من أن يمضوا الصيف معه . حتى لايتذكر فى كل يوم أنه حرم من أن يكون أبا لأحدهما . وتنفذ صفية أمر زوجها . ولاتكاد رتيبة تحزم حقائبها لتصحب طفليها الى مصيف بعيد ، حتى يعود سعد ويصدر أمره بالغاء أمره الأول ، وباحضار الطفلين وأمهما الى مسجد وصيف من جديد . !

ويمضى سعد مع الطفلين وقت راحته ، فيتناول إفطاره معهما ، وغذاءه وعشاءه ، ويصحبهما على حمارين للتجول فى مزارعه بمسجد رصيف .. ويتولى تعليمهما الكتابة ، كما يتولى امتحانهما فى دروسهما .

ولكن كل هذا لم يستطع أن يقضى على رغبة سعد فى أن يكون له ولد من لحمه ودمه ، فعندما كان يعد لثورة سنة ١٩١٩ اعتزل فى قرية مسجد وصيف . ليجتمع سرا بالذين اختارهم للاشتراك معه فى قيادة الثورة ، وكان فى ذلك الوقت مشغولا طوال اليوم واغلب الليل فى عملية الاعداد والتصميم والترتيب ووضع خطة الثورة ، واختيار قيادات متوالية ، اذا سجنت قيادة أو أعدمت أو نفيت ، قفزت القيادة التالية مكانها حتى تستمر الثورة مهما حدث لقادتها . وفى هذا الجو القاتم الذى كان سعد يفترض فيه أنه قد يفقد

رأسه إذا فشلت الثورة ، فكر من جديد فى أن يكون له ولد ! وعجيب أن يفكر رجل يعرف أنه مهدد بالموت فى أية لحظة . فقد يقتل رميا بالرصاص ، أو يعلق فى مشنقة . أو ينفى حتى الموت ، عجيب أن يفكر رجل ، فى مثل هذه الظروف ، فى أن يكون له ولد . ولقد كتب فى تلك الأيام فى مذكراته أنه يتمنى أن يكون له ولد ، وأن الطريقة الوحيدة لكى يحقق هذه الأمنية . أن يتزوج من فلاحة مصرية . وأن يبقى زواجه سرا ! ولكنه مالبث أن عدل عن أمنيته خشية أن ينكشف السر ، ويجرح قلب زوجته التى يحبها ، وعاد من جديد يلاعب على ومصطفى ويصحبهما معه فى كل مكان يذهب اليه .

وبعد قيام الثورة ونجاحها . ومرور عدة سنوات على رفض أمين يوسف التنازل عن ولده مصطفى ، لم ينس سعد هذا الأمر ، وذات يوم كان يتناول غذاءه فى بيت الأمة ومعه صفية ورتيبة وزوجها وعلى ومصطفى وفجأة قال سعد :

ـ إن أمين عز عليه أن أكون أباً لمصطفى .. ولكن الله عوضنى عن هذا الحرمان ، فبدلا من أن أكون أبا لولد واحد أصبحت أباً لأربعة عشر مليوناً من المصريين .. وأصبحت صفية أم المصريين كلهم .. لقد جاءنى اليوم أحد الأطباء يحمل صور ولديه التوامين ، وقال لى أنه مستعد أن يتنازل لى عن ولديه التوامين . ودهشت أن يعرض على شخص غريب أن أتبنى ولديه التوامين معاً ، بينما أبى على زوج إبنتى أن أتبنى أحد توأميه ، إننى رفضت عرض الطبيب شاكرا . ولكن لشد ما آلمنى هذا العرض !

واصفر وجه أمين يوسف ووضع رأسه فى طبق طعامه .

وامتلأت عينا رتيبة بالدموع .

وقالت صفية فى ابتسامة مغتصبة :

ـ كان أمين فى ذلك الوقت شاباً .. وهى هفوة من هفوات الشباب !

وسمع على ومصطفى ما أثاره سعد فى دهشة وذهول .. فقد كانا يجهلان تماما هذه القصة الغريبة قبل أن يسمعاها فى ذلك اليوم من فم سعد زغلول .

وعندما انفردا بأبيهما قال مصطفى له :

ـ كيف ترفض أن يتبنانى سعد زغلول ؟

ـ وسكت والده قليلا وقال :

ـ عندما تصبح أباً ستعرف سر رفضى ..

قالت رتيبة :

ـ ولكنك كسرت قلبه .. إن قلبه لايزال مكسورا حتى الآن .

قال الأب :

ـ إنني فعلت ما يجب أن يفعله كل أب   ولو أن التاريخ أعاد نفسه لفعلت الشيء نفسه من جديد .

إن الشحاذ يرفض ان ينزل عن ابنه   حتى لو عرف أنه سيصبح ملكا بعد ذلك ! إنني أفضل أن يحمل ابني اسمي ويصبح شحاذا . على أن يحمل إسم رجل آخر ويصبح ملكا !

قالت الأم   كان يمكنك أن ترفض بطريقة أخرى .. دون أن نجرحه هذا الجرح الذى لم يلتئم حتى الآن بعد أكثر من عشر سنوات !

قال الأب : إن الحقيقة تجرح مهما أخفيناها في ورق مفضض ! لقد كنت على ثقة أنه إذا تبنى سعد زغلول مصطفى ، فإن ابنى كان سيحصل على تربية أرقى ، وسيعيش منعما مترفا ، وسيحمل اسما تاريخيا ، ولكن كل هذا لايعوض حنان الأب الحقيقي وحنان الأم الحقيقية .

قالت رتيبة : ولكنه لم يطلب منا الا نرى ابننا ! إننا نقيم معه طوال الوقت ! كل ما طلبه هو الاسم ! إنني تمتعت بحنان خالى سعد وحب زوجته صفية كأنهما أبى وأمى   لم يشعرانى قط بأننى فقدت الأب والأم . مع اننى كنت أعرف اننى فقدتهما . ولم يكن مصطفى سيفقد في يوم من الأيام الحب والحنان . كنا سنكون معه باستمرار . ولابد انه سيعرف أن أخاه على هو شقيقه . وهو توأمه ، بسبب الشبه العجيب بينهما . ولن يفقد حنان الأخوة وحبها . لقد خلفت فعلتك في نفس سعد جرحا لم يندمل حتى اليوم ، إنك كسرت قلب خالى . الرجل الذى يعلن الملايين اليوم استعدادهم للتضحية بحياتهم فداء له !

ويصيح الأب : كيف أقبل أن يحمل ابنى إسم رجل آخر ، حتى ولو كان هذا الرجيل زعيمنا ومن الطريف أن المولود الذى كانت تدور حوله كل هذه المعارك كان مولودا هزيلا ، وكان من رأى بعض الأطباء أنه لايمكن أن يعيش !

واقترحت إحدى الممرضات أن يوضع الطفل في النبيذ وجاءوا بطشت غسيل ، وأفرغوا فيه زجاجات النبيذ ، ووضعوا فيه مصطفى أربعين يوما !

وبدأ مصطفى يسترد أنفاسه .

وقرر الأطباء بعد عدة شهور من مولده بأنه قد يعيش !

واذا كان الطفلان في حماسهما لسعد زغلول قد لاما والدهما على وقوفه هذا الموقف العنيد ، فلاشك انهما بعد أن كبرا ـ كما تنبأ والدهما ـ قد كفا عن لومه . بل انهما أصبحا يدركان الآن ما جهلاه في طفولتهما . وقدرا سبب عناده واصراره على أن يحتفظ بالتوأمين معا ، فلو أن مصطفى حمل هذا الاسم الضخم على ظهره . لتعثرت خطواته ، ولاختلفت حياته، ولفقد أجمل مافيها.

وهى الصلة القوية الحلووة اتى تربطه بأخيه التوأم « على » ، فلو أن سعد زغلول منح مصطفى اسمه وجعله ابنه ووريثه بحكم القانون لكان من الطبيعى أن يفترق التوأمان . ولعاشا حياتين مختلفتين . لصحب سعد ابنه فى كل مكان يذهب اليه . وبهذا يحرم التوأمان من هذا الاندماج اللذيذ الذى كان احلى ما فى حياتهما . هذا التلازم الذى كان أشبه بلحن موسيقى واحد يشتركان فى عزفه معا . واذا كان تقسيم الذرة قد أحدث انفجارا ، فإن شطر هذين التوأمين كان سيدمر حياتهما معا ، سيفقدهما حلاوتها التى تشبه حلاوة القبلة . فإذا كانت القبلة تحتاج لاثنين لتتكون حلاوتها ، لأن شفة واحدة لاتصنع شهدا ، فكذلك كانت حياة مصطفى فى وحدته سوف تتعثر ،وهو يحمل على رأسه الصغير الاسم الهائل ، اسم سعد زغلول . ولاشك أن هذا الثقل الكبير الذى كان سينوء به . كان سيبطىء خطواته . وسيفقده روح المغامرة التى صنعت حياته ، ويحرمه من طاقة الاندفاع التى ساعدته على شق طريقه . كانت تربيته ستختلف حتما .. ان ابن الافندى لابد أن يختلف فى نوع تنشئته عن ابن الباشا . وأى باشا ؟ انه معبود الملايين . الرجل الذى يستطيع بكلمة منه أن يشعل ثورة ، وبإشارة منه أن يسقط وزارة . الرجل الذى كان يخلق من الأفندية وزراء . ويسخط الوزراء فيحولهم الى منبوذين لايجرؤون على الخروج من بيوتهم خشية أن ينقض الشعب عليهم ويدوسهم بالأقدام . كان هذا السلطان الضخم سيفسد مصطفى ، سيشعره بأنه ابن الاله ، سيرى الرؤوس الكبيرة تتحنى بين يديه . سيشهد العظماء ينزلقون اليه . سينتفخ كالبالون المملوء بالهواء . ذلك الهواء الذى استمده من جاه ابيه زعيم الأمة وقائدها ورمزها . لن يكون أكثر من ابن الزعيم . يصعد على أكتاف انصاره . ينال المناصب تكريما لذكراه . كان سعد سيدلله أضعاف ما دللته أمه . التى كانت تحرص على معاملته بحزم . والأب العجوز يضعف أمام طفله الصغير . يخاف عليه من النسيم حتى لايصاب بالبرد . يخشى عليه من التراب حتى لايصاب بالتهاب فى الحلق . تحمله السيارة حتى لاتتعب قدماه . وما كان هذا التدليل بقادر على أن يصنع منه أكثر من ابن ذوات . وهكذا يتحول الى وارث بدلا من خالق ، يصبح نباتا متسلقا لا شابا عصاميا ، ستمتد اليه أيد كثيرة تساعده على المشى ، سيحملونه على أكتافهم حتى لايتعثر وهو يصعد سلم الحياة ، فيصاب بذلك الكساح الذى يصاب به الذين يعجزون عن الوقوف . ولا يعتمدون على أقدامهم . الذين لم يذوقوا متاعب العثرات ، ولم يعرفوا الاصطدام بالعقاب ، ولم يعانوا الام التدحرج وهم يحاولون صعود جبل الحياة ، وهذه التجارب الشاقة هى وحدها التى

تقوى عضلات الأقدام لتجعلها قادرة على الوقوف فى مواجهة العواصف . وأعاصير الأيام .

ولو كان مصطفى حمل اسم سعد زغلول . لما دخل المعارك التى دخلها . ولما عاش الحياة الصاخبة التى عاشها . ولما خاض غمار الصراعات التى اشترك فيها . ولبقى جالسا فى واجهة زجاجية تحمل اسم والده العظيم كأنه أحد المخلفات التاريخية . ولما ذاق مرمطة الحياة الصحفية . ولما اضطر أن يمسح بلاط صاحبة الجلالة الصحافة قبل أن يجلس مع أخيه « على » فوق أحد عروشها .

وقد اعتدنا فى الشرق أن ندلل أبناء كبرائنا . أن نجعلهم أولياء عهود فى غير ممالك . أن نحيطهم بالتكريم والتبجيل زلفى لابائهم . نكاد نلفهم بأوراق مفضضة حتى لايصل إليهم الغبار . ناسين أن الغبار هو الذى يصنع الرجال ، وأن الذين لايغوصون فى الطين لايستطيعون أن يقتحموا الصخور . وأن القمم فى الحياة لا تفتح أبوابها للراكبين على اكتاف أبائهم . وإنما تفتحها لمن يحفرون الصخور بأظافرهم . والعظمة تكتسب ولاتورث . والأب قد يورث ملامحه ولون بشرته وبعض طباعه لأبنائه . ولكن لايستطيع أن يورثهم عبقريته . فالعبقرية عمل متواصل .. فالاجيال ترث عبقرية العظماء . لأنها تراث هائل لا يستطيع أن يحمله بعد صاحبه شخص واحد أو بضعة أشخاص . ويظهر هذا وضوح فى الشرق فإن أكثر أولاد عظمائنا فشلوا فى أن يكرروا عبقرية أبائهم . ورثوا أسماءهم ولم يرثوا عبقريتهم . بينما نجد فى الغرب مثلا بضع أسس توارثت علوما وفنونا وخبرات . وهى ظاهرة يكاد يخلو الشرق منها . فابن أمير الشعراء أحمد شوقى حاول أن يكون شاعرا وفشل . وابن سيد درويش حاول أن يكون مطربا واحتكر لعدة سنوات ألحان أبيه ورفض أن يغنيها سواه وفشل .. وابن توفيق الحكيم القصصى العبقرى . شب يكره الأدب . وأصبح عضوا فى فرقة موسيقية تعزف الموسيقى الراقصة الحديثة التى كان يمقتها توفيق الحكيم ويعشق الموسيقى الكلاسيكية .

ولم يشتغل ابن واحد من أبناء الزعيم أحمد عرابى العديدين لا بالحرب ولا بالسياسية . ورفض أولاد السياسى الداهية اسماعيل صدقى الاشتغال بالسياسة ، فكان أولهم طبيبا . وثانيهم مهندسا وثالثهم موظفا ثم فلاحا . وعشرات من أولاد العظماء احترقوا فى أضواء أبائهم ، واكتفوا من أمجاد هؤلاء الآباء بأن يقال انهم أولاد هؤلاء العظماء الموهوبين . بينما نجد أن الأمر يختلف فى الغرب فإن بعض أولاد الممثل الهزلى العالمى شارلى شابلن أصبحوا نجوما فى السينما والمسرح . وونستون تشرشل ورث السياسة

عن أبيه . وبرز فيها أكثر من أبيه زعيم المعارضة فى مجلس العموم . وكذلك الحال مع نيفيل تشمبرلين رئيس وزراء بريطانيا أوائل الحرب العالمية الثانية . ونجد أن أبناء الاقتصادى العالمى روكفلر ورثوا عبقريته الاقتصادية . وكذلك الحال مع فورد الصغير . وجون كنيدى وروبرت كنيدى برزا فى السياسة أكثر من أبيهما الذى وصل الى منصب سفير أمريكا فى لندن . ولكن الشرق لم يشهد مثل هذه الوراثة الا فى دائرة محدودة . وقلما وصل فرد واحد من أبناء عظمائنا الى عبقرية أبيه . أو الى شهرته . أو الى نبوغه فى فنه . فهل الشخصية لاتورث فى الشرق كما تورث فى الغرب . أم أن لطريقتنا فى تربية أولاد عظمائنا أكبر الأثر فى مسح هذه الشخصية أو مسخها . أو أننا نهتم بمظهر هؤلاء الأبناء دون مخبرهم . أو أن الآباء العظماء بدلا من يلقوا بأولادهم فى خضم الحياة يسبحون فيها ويغوصون . يحمولنهم على أكتافهم خشية أن تغرقهم أمواجها . وهكذا يفقد ابن العظيم صلته بالارض التى خرج من طينها ، واذا كان للأب جذور راسخة فى الأرض يجىء أولاده بلا جذور !

* * *

وكان سعد زغلول فى بعض الأحيان يعزى نفسه عن عدم انجابه بقوله ان كثيرا من عظماء العالم لم يرزقوا أولادا ذكورا ! .. فمصطفى كمال أتاتورك زعيم ثورة تركيا لم يرزق ولدا ولابنتا . وقاسم أمين زعيم سفور المرأة الشرقية لم يرزق ولدا واحد وانما رزق عدة بنات . ومحمد عبده زعيم الاصلاح الدينى فى مصر لم يرزق ولدا وانما رزق بنتا ، وملاحظة سعد زغلول حقيقية الى حد كبير فى البلاد العربية فان طلعت حرب زعيم مصر الاقتصادى لم يرزق ولدا ولكنه رزق ثلاث بنات . ورياض الصلح أحد زعماء الحرية والقومية العربية لم يرزق ولدا . وانما رزق عدة بنات . وأحمد ماهر زعيم الجهاز السرى لثورة سنة ١٩١٩ لم يرزق ولدا وانما رزق بنتا . وفتحى زغلول لم يرزق لا ولدا ولابنتا . وكذلك عباس العقاد ، ومصطفى النحاس ، ومحمود مختار المثال المصرى الكبير ، وأم كلثوم ونجيب الريحانى ويوسف وهبى كل هؤلاء وغيرهم لم يرزقوا لا أولادا ولابنات . ولكن مع كل ما وصل اليه هؤلاء من مجد ، كان الكثيرون منهم يشعرون بحسرة لأنهم لم يرزقوا ولدا يكون امتدادا لهم ، كأن تاريخهم لايكفيهم . أو كأنهم تصوروا أن الولد يمكن أن يعيش عمرا أطول من عمر التاريخ ! أو أنهم خشوا أن يعجز التاريخ عن أن يحمل للغد صورهم على الورق . فتمنوا لو أن صورتهم رسمت باللحم والدم على اولادهم !

وكل هذا شعور طبيعى ومفهوم ، ولكن الذى ليس طبيعيا ولا مفهوما . أن يقوى هذا الاحساس الطبيعى فى سعد زغلول وهو مقبل على معركة مصيره .

وهو يعد لثورة ١٩١٩ التى كان يقدر تماما اخطارها . كان يعرف أن الموت فيها هو المؤكد والنجاه هى المحتملة . كان يعلم أنه مقبل على طريق ينتهى الى حبل المشنقة .. يلتف حول عنقه . أو الى منفى قد يلقى فيه حتفه على أحسن الاحتمالات . ومع ذلك كان فى هذا الوقت بالذات يحس برغبة فى داخله أن يكون له ولد ، ولد من صلبه . ولم يكن هذا الشعور خاطرا مر به واختفى . وانما ظل يسيطر عليه وهو يعد للثورة حتى انه فكر فى أن يتزوج سرا من فلاحة مصرية ليكون له منها هذا الولد الذى يريده ، وهو الذى يحب زوجته صفية حبا جارفا . ولايكتفى بالتفكير بل يدون هذا كتابة بخط يده فى مذكراته . ويقول انه يريد أن يكون زواجه من هذه الفلاحة سرا حتى لايجرح زوجته . ثم يعدل عن هذه الفكرة لأنه خشى أن يذاع هذا السر ويبلغ زوجته !

ومن حسن حظ سعد زغلول أنه قاوم هذه الرغبة فى نفسه ، لأنه لو استجاب لها ، لفقد صفية زغلول التى لعبت دورا سياسيا فى الثورة . ولفقد نساء مصر اللاتى انضممن اليها . ومشين فى المظاهرات متحديات بنادق الانجليز ومدافعهم هاتفات لسعد محرر المرأة المصرية ، مستجيبات له عندما دعاهن الى رفع الحجاب كانت المرأة المصرية المثقفة ترى فى سعد زغلول صورة الزعيم التقدمى المتحرر . وكان هذا سر حماسها له . ولم تكن المرأة المصرية لترضى أن تعرض حياتها لرصاص الانجليز من أجل زعيم متزوج من امرأتين فى وقت واحد .

وكانت صفية زغلول تطيع زوجها طاعة عمياء لأنها كانت تحبه حبا جما ، ولكنها كامرأة ذات شخصية قوية وإرادة جبارة . ماكانت لتقبل أن تقاسمها امرأة أخرى فى سعد زغلول ، فكان من الطبيعى لو تم هذا الزوج . ورزق سعد بالولد الذى ينتظره . أن تعلم صفية بأمره وتبتعد عن سعد . ان لم تنفصل عنه ، وما كانت فى مثل ذلك الظرف كامرأة ترضى أن تقوم بهذا الدور البطولى الذى قامت به فى ثورة سعد زغلول . لما تولت قيادة الثورة بعد نفى سعد ، ولما اصدرت البيانات الحماسية الثورية التى ألهبت الجماهير . ولما ألقت الخطابات النارية التى كانت تلهب المتحمسين ، وتشعل المترددين ، وتشجع المتخاذلين ، وتقوى الضعفاء الخائفين .. فلو أن سعد زغلول طعن صفية بهذا الزواج من فلاحة ثم أنجبت له هذه الفلاحة ولدا . لتغير وجه تاريخ ثورة ١٩١٩ .

لاختفى منها وجه صفية زغلول .

ولاختفت منها نساء مصر ..

ولفقدت الثورة بذلك بعض ابرز سماتها .

○ ○ ○



• الفصل السادس •

عاش الطفلان التوأمان فى بيت سعد طفولة عجيبة لاتشابه طفولة كثيرين من الأطفال فى سنهما . لم يسمعا « الحواديت » التى ترويها أمهات تلك الأيام لأطفالهما . لم يعرفا قصة الشاطر حسن وست الحسن والجمال . ولا قصة الغـول ولاقصة « أبـورجل مسلوخة » . كان يسمعان من جدهما قصصا مختلفة . قصصا عن تاريخ حياته وعن مغامراته . كان هو فيها الشاطر حسن . وكانت أحلامه عن الحرية والاستقلال والديمقراطية هى ست الحسن والجمال التى يحاول الشاطر حسن أن يصل إليها ؛ وكان الغول احيانا يبدو فى صورة الانجليز الذين يحتلون البلاد ، أو السلطان الذى عينه الانجليز ليذل

هذا الشعب ، أو عن طبقة الأتراك من بقايا الحكم التركى التى كانت تجلد ظهور الفلاحين بالسياط ! ولم يلعب الطفلان لعبة عسكر وحرامية أولعبة الاختفاء التى يسمونها « الاستغماية » وإنما اللعبة الوحيدة التى كانا يلهوان بها اسمها لعبة « عسكر وثوار » .. الثوار يختفون ، والعسكر يحاولون أن يمسكوا بهم ويضربوهم .

وكان الطفلان يهويان كثيرا أن يقوما بدور الثوار حتى لو كان ثمن ذلك ما يلحقه بهما زملاؤهما من أطفال الجيران من ضرب مبرح . فقد كانت قصص سعد عن حياته المثيرة كشاب ثورى يطارده البوليس . ويهرب من عيون الحكومة ، ويضلل مطارديه . هى أحلى القصص التى يستمعون اليها . ويتابعون سعد وهو يرويها لهم بأسلوبه الشائق ولغته السهلة . وكانت أمهما تبذل جهدا كبيرا فى حملهما من مقعديهما ليناما حين يحل موعد النوم . كانا يتشبثان بمقعديهما ويرفضان أن يغادرا الغرفة الى فراشهما . وتجذبهما أمهما فيصرخان ويستنجدان بسعد . فكان حينا يهب سعد الى نجدتهما ويستبقيهما معه ساعة أخرى . وأحيانا يضحك ويعدهما بأن يتم القصة فى اليوم التالى ، ويجىء اليوم التالى ولايتم القصة . لانشغاله بأعماله وحينئذ ينسى شوق الطفلين الى بقيتها . ثم يستأنف حديثه العذب فى مناسبة أخرى تاركا القصة الأولى بغير خاتمة . أو يتمها عندما يطالبه الطفلان باتمامها !

وذات يوم سمع الطفلان سعد يتحدث غاضبا عن سيدة اسمها « صفية » وبهت الطفلان .. ان سعد يهاجم صفية هذه بعنف ومرارة ، انهما يعرفان أن ستهما اسمها صفية وهى زوجة سعد ، وهو يحبها كل الحب ، ويحترمها أشد الاحترام .. واذا بالطفلين يبكيان فى وقت واحد حزنا لأن جدهما يشتم ستهما بهذه الألفاظ القاسية !

وتنبه سعد الى بكائهما ودهش ، وسألهما عما يبكيهما ؟ فقالا فى صوت واحد : لأنك تشتم ستى !

وضحك سعد طويلا وضحكت صفية زغلول .. وقال سعد انه لايهاجم صفية زوجته وانما يهاجم صفية السادات أرملة صديقه الشيخ على يوسف !

وكانت هذه هى أول مرة يسمع فيها الطفلان سعد يقسو فى الحديث عن امرأة !

وكان سر قسوته انه سمع أن أرملة صديقه أحبّت بعد وفاته ممثلا مغنيا اسمه زكى عكاشة ، وانها قد تتزوجه ، وكان سعد ثائرا على هذا التصرف ، فقد رأى فيه عدوانا على ذكرى صديقه الذى أعطى هذه المرأة اسمه ومجده وحياته فداست على كل هذا بالاقدام من أجل ممثل شاب ! صحيح أن هذا

الحب بدأ بعد وفاة صديقه بعشر سنوات . ولكنه كرجل فلاح لم يتصور أن تنتهي قصة حب شهدها ، هذه النهاية .

كان يريد أن تعيش الأرملة طوال حياتها مخلصة بجسدها وقلبها لذكرى صديقه الذى احبها !

وكانت القصة التى أثارت سعد زغلول كل هذه الثورة ، من الغرابة بمكان ، فقد كان الشيخ علي يوسف فلاحا فقيرا في قرية بلصفورة في الصعيد ، وجاء الى القاهرة ودرس في الأزهر ، ولكنه لم يستطع اتمام دراسته لشدة فقره . فعمل في الصحافة . وبرز فيها . وأصدر جريدة المؤيد ، وأصبح الصحفي الأول في مصر . وكانت المؤيد تهاجم الانجليز وتنشر مقالات مصطفى كامل . وكان سعد يساعد المؤيد ماليا عندما تقع في صراعها مع الانجليز . وأحب الشيخ علي يوسف الآنسة صفية السادات ابنة الشيخ السادات وهو عميد أسرة عريقة تنتسب الى سلالة الحسين احفاد النبي . وتقدم الصحفي الأول الى الحسيب النسيب يطلب يد ابنته . ووافق الأب في أول الأمر . ثم تدخل خصوم الصحفي الأول واقنعوا الأب بأنه لايليق بكرامة أسرة السادات العظيمة أن تزوج ابنتها لصحفي وضيع الشأن من أسرة حقيرة لاتنتسب للنبي ولا للخلفاء الراشدين . واقتنع الأب وصرف النظر عن الزواج . واذا بالانسة صفية تتصل سرا بالصحفي الأول وتبادله الخطابات الغرامية وتتفق معه على أن تهرب من بيت أبيها وتتزوج منه . وفعلا تم الزواج وفوجيء به الأب . ولم يكن سعد في أول الأمر موافقا على هروب صفية من بيت أبيها ليتزوجها حبيبها الصحفي الأول . ولكنه لم يلبث أن وقف مع الصحفي علي يوسف عندما رأى الرجعية كلها تقف ضده . فقد أوعز الانجليز الى الأب أن يرفع قضية امام المحكمة الشرعية يطلب طلاق ابنته من الصحفي الأول بحجة عدم كفاءة علي يوسف لابنته لأن نسبه حقير . وحرفته . وهي الصحافة . مهنة حقيرة بل أحقر الحرف ، حرفة كلها عار وشنار لايحترفها الا كل متشرد آفاق وكل من لا صناعة له وكل من نفضته الأعمال الشريفة !

وفوجيء سعد بأغلبية الرأى العام تقف ضد الشيخ علي يوسف وتقول إنه لا يجوز . للصحفي الذى هو فلاح من أسرة غير منسبة ، أن يتزوج من ابنة كبير الاشراف !

ووجد سعد نفسه في معسكر علي يوسف ضد أغلبية الراى العام في مصر . انه هو ايضا فلاح مثل علي يوسف . ان أسرته لاتنتسب للنبي مثل علي يوسف . إنه كان صحفيا مثل علي يوسف ، ومع ذلك فقد تزوج من ابنة رئيس وزراء مصر ، ولم يجرؤ أحد على أن يقول أن هذا الزواج غير متكافيء !

وهو يؤمن بأن من حق المرأة التى بلغت سن الرشد أن تختار زوجها ، هكذا يوصى الاسلام . وهكذا يقرر .

ولم يتردد سعد وهو مستشار فى محكمة الاستئناف أن يشترك فى كتابة الدفاع الذى سيتولاه حسن بك صبرى (حسن صبرى باشا رئيس الوزراء فيما بعد) عن الشيخ على يوسف . ومحمد عز العرب المحامى (عضو الوفد فيما بعد) عن الآنسة صفية ومع ذلك الدفاع القوى حكم القاضى الشرعى الابتدائى بالتفريق بين الزوجين . ثم حكمت محكمة الاستئناف بتأييد حكم الطلاق .

وفوجىء سعد زغلول بمصطفى كامل وصحف الحزب الوطنى تشيد بالحكم وتؤيد الطلاق وتهاجم الصعلوك الفقير على يوسف لأنه تجرأ وتزوج حفيدة الأشراف . ولم يقنع هذا الموقف سعد . فكيف يطالب حزب بالحرية ثم يستنكر على صحفى فلاح أن يتزوج من ابنة عميد الأشراف . فليس من المنطق أن تطالب بجلاء الانجليز عن مصر لأن أبناءها أهل لحكم أنفسهم ونستنكر على مصرى أن يتزوج ابنة السيد السادات لأن أصله فلاح . أو كما قال محامى السادات فى المحكمة أن السادات يعود نسبة الى ألفى سنة من الحسب الرفيع الشريف . والشيخ على يوسف من قرية حقيرة جدا كل أهلها فقراء وصعاليك !

فلا يجوز أن يتزوج الصعلوك من بنات الكبراء والملوك - لايجوز لأبناء الفقراء أن يناسبوا أسر السادة الأمراء . لايجوز لمن يمتهن الصحافة وهى احقر مهنة فى العالم أن يصاهر أسرة واسعة الثراء . الرجل الفقير اذا اغتنى فإن وصمة الفقر تبقى عالقة به الى الأبد . لايستطيع أن يتطهر منها مهما بلغ بعد ذلك من عز وجاه !

ومع صدور هذا الحكم الغريب بالطلاق استمر الصحفى الأول يحب صفية السادات واستمرت هى تبادله الهوى والغرام . وسعى الشيخ على يوسف حتى حصل على رتبة الباشوية . وبعد ثلاث سنوات قبل الأب أن يزوج ابنته . من على باشا يوسف بعد أن رفض أن يزوجها من الصحفى الأول الشيخ على يوسف . وأفنى الشيخ على يوسف صحته وجهده فى قضية هذا الحب . دخل المعارك ، وأنفق الأموال وصرف أغلب ثروته ليحصل على لقب « شيخ السادة الوفائية » . وسجل اسمه فى سجل الأشراف أحفاد النبى !!

وعندما مات الشيخ على يوسف كانت صفية السادات فى السادسة والعشرين من عمرها .. وبعد ذلك بعشر سنوات ذهبت الى مسرح حديقة الأزبكية لتشهد فرقة عكاشة تمثل رواية شهداء الغرام .

وكان زكى عكاشة يمثل دور روميو ويغنى قصيدة كلها حب وغزل وشوق

ولهفة الى لقاء الحبيب . وكانت صفية السادات تشهد تمثيله وتسمع غناءه من لوج غطي بستائر بيضاء . ودخل الحب من ثقوب الستائر وبدلا من أن ترسل صفية السادات الى الممثل زكي عكاشة خطاب غرام أرسلت له خاتما من الزمرد لايقدر بثمن !

وبدأت قصة الغرام سرا . ثم داومت صفية السادات على الحضور كل ليلة لتشهد زكي عكاشة يمثل ويغني ..

وانتشرت قصة الغرام بين الممثل الأول وأرملة الصحفي الأول .. وأنها قررت الزواج بمن تحب .. وأبلغت صفية السادات رغبتها هذه الى سعد بصفته صديق زوجها القديم .. وكان هذا سر ثورة سعد زغلول !

ولكن سعدا لم يستطع أن يفعل شيئا ليمنع هذا الزواج ، فقد كانت ثورة ١٩١٩ قد اندلعت ، ولم تعد تعترف بالفروق بين الطبقات ، وكان سعد زغلول قد تولى رياسة الوزارة وكانت وزارته أول وزارة تعترف بالمسرح المصرى وتوزع جوائز على أبرز الممثلين والممثلات والمطربين والمطربات !

ومع أن رئيس الوزراء كان ضد هذا الزواج وضد هذا الحب فلم يستطع أن يستعمل سلطته ليمنعه ، بل اعتبر الأمر مسألة شخصية ليس من حق الحكومة التدخل فيها . ولو أنه تدخل لمنع الزواج لناقض نفسه عندما أيد الصحفي الأول ضد قوى الرجعية كلها !

ولم تعترض صحف الحزب الوطني هذه المرة على أن يتزوج ممثل من حفيدة النبي ، ولم يرفع أحد قضية طالبا التفريق بين الممثل الصعلوك وحفيدة الأشراف والملوك . لأن الدنيا قد تغيرت ، وغيرتها ثورة ١٩١٩ نفسها التى ثار قائدها على هذا الحب وهذا الزواج . لا لأنه يستنكر زواج ابنة شيخ مشايخ الأشراف من ممثل ، بل لأنه تصور أن أرملة الرجل العظيم الذى أحبها كل هذا الحب ، وأفنى صحته دفاعا عن حبها ، وتعرض للشتائم والسباب وقصائد الهجاء وحملات الصحف . وصمد حبه لكل هذه العواصف تصور أن مثل هذه المرأة الشابة سوف تعيش طول حياتها على ذكرى هذا الحب ، وعبير هذا الهوى ، وأنفاس هذا الغرام .. وهذه المأساة التى صدم بها سعد زغلول في أوج سلطاته .. تكررت للملايين بنفس الصورة بعد أكثر من خمسين عاما عندما تزوجت جاكلين كنيدى أرملة رئيس جمهورية الولايات المتحدة الشاب من المليونير اليوناني العجوز أوناسيس !

فهل كان سعد زغلول لا يعرف حقيقة قلب المرأة ؟ أم أن النساء مختلفات ؟ لقد بقيت صفية زغلول عشرين عاما بعد وفاة سعد زغلول وفية لذكراه ، وكانت تزور قبره كل يوم طوال العشرين عاما ولم تنقطع يوما واحدا

عن الزيارة .. حتى يومها الأخير في الحياة !

أم أن الفلاح فيه هو الذى جعله يستنكر زواج قرينة صديقه بعد وفاته بعشر سنوات ؟

أم أن حب سعد للمرأة وتقديره لها هو الذى جعله يضعها فوق صرح عال كما تفعل بالتماثيل التى تعجبنا ، ولم يتوقع أن التمثال سوف يمل وقفته فوق قاعدته ، وسوف يترك الصرح ليمشى فى الشارع الذى يمشى فيه البشر ؟ !

ان الطفلين التوأمين يذكران أن سعد قال مرة :

- إن بعض الناس يسألون فى دهشة :

- ماسر حماس هذا الرجل الفلاح الأزهرى للمرأة المصرية ؟ ! ما الذى جعله يشجع صديقه قاسم أمين على اصدار كتابه عن تحرير المرأة . ويقف الى جواره فى الحرب التى أعلنها الرجعيون ضد سفور المرأة ؟ ما الذى جعله يؤيد سفورها فى ثورة ١٩١٩ ؟

قال سعد زغلول :

بعض الناس يعتقدون أن الفضل فى آرائى التقدمية بشأن المرأة يعود الى زوجتى صفية وهذا غير صحيح . وبعض الناس يتصور أننى أخذت من زياراتى لباريس للحصول على ليسانس الحقوق ، إيمانى بالمرأة ، وهذا غير صحيح ايضا . الواقع اننى مدين بايمانى بحق المرأة فى الحرية والمساواة لأمى مريم بركات . كانت أمى فلاحة لا تقرأ ولا تكتب ، ومات أبى وتركنى أنا واخى فتحى وأختى أم رتيبة وسعيد أطفالا ، وكانت أمى صغيرة السن عندما اصبحت أرملة . وكانت جميلة . وكان أولاد أبى من زوجته الأولى أكبر منها سنا . وحاول أعيان الناحية أن يتقدموا إليها عارضين الزواج فأبت وقالت : إننى ساكرس حياتى لتربية أولادى . واستطاعت وحدها أن تقاوم الاغراء والضغوط من أسرتها كى تتزوج مرة أخرى . واذا بها وهى امرأة تصبح عميدة الأسرة كلها . لقد تمكنت بقوة شخصيتها أن تفرض احترامها على كبار الأسرة الرجال . ثم فرضت شخصيتها على القرى المجاورة . وكنت أرى الرجال يحضرون للاحتكام إليها فى خلافاتهم . وقد ورثت عن أبى اندفاعه وثورته ، وورثت عن أمى حكمتها وحسن تدبيرها ، فعندما أغضب . فهذا هو أبى ، وعندما أكون حكيما ، فهذه هى أمى ! وحينما اندفع . فهذه هى ثورة أبى ، وعندما أتدبر أمرى وأسوس نفسى ، فهذه هى سياسة أمى وحكمتها . وكنت معجبا بشخصية أمى القوية وثباتها وصمودها . وهذا هو الذى جعلنى أتمسك بايمانى بالمرأة .. فاذا كانت أمى الفلاحة الأمية قد استطاعت أن تفعل كل هذا ، فان من حق المرأة المصرية ان تتساوى بالرجل . وأنا لا يمكن

أن أدعو الى تحرير الرجل واستعمار المرأة فى بلادى فى وقت واحد . فالحرية لاتتجزأ . ومن أجل احترامى لأمى احترمت كل امرأة مصرية ، فأنا لم أغضب على صفية السادات لأنها تزوجت ممثلا . بل غضبت عليها لأننى توقعت من زوجة صديق أن تفعل ما فعلته أمى ، وترفض أن تتزوج بعد وفاة صديقى على يوسف الذى حارب الدنيا كلها من أجل حبها . ولم أرد أن يسخر الناس من ذكراه ويقولون انه كان على خطأ عندما ضحى من أجل صفية السادات بكل شىء . فلم تقدر هذه التضحية وتزوجت بعد وفاته ، لقد قيل أن فرقه زكى عكاشة كانت أول فرقة مسرحية خرجت فى مظاهرة الى الشارع فى سنة ١٩١٩ يتقدمها الممثل المطرب زكى عكاشة وكانت تنشد قصيدة أبى الهول لأمير الشعراء أحمد شوقى ، وهذا قد خفف من وقع المصيبة بعض الشىء .. فان الثورة فى اعتقادى جعلت كل من اشترك فيها أصحاب حق فى المساواة ولا أستطيع أن أقول أن صفية السادات ابنة كبير الأشراف وزوجة على باشا يوسف أكبر مقاما من رجل اشترك فى الثورة لأنه ممثل ومطرب . ولكنى أقول اننى بصفتى الشخصية كرجل فلاح أزهرى كنت أود لو أن زوجة صديقى الذى أفنى حياته من أجل حبها . ظلت وفية لهذا الحب ، ومن أجل هذا لم أقاوم الزواج ولم أحاول أن أمنعه ، كل ما فعلته اننى استعملت حقى كإنسان .. حقى فى أن أتألم !

ولقد سبب حماس سعد للمرأة المصرية كثيرا من المتاعب له . فعندما أصبح وزيرا للمعارف واهتم بتعليم البنات ثار عليه الخديو ، وهاجمته الصحف واتهمته بالخروج على الدين الحنيف !

وكان من رأى سعد دائما أن أى ثورة فى مصر لا يمكن أن تنجح الا اذا اشتركت فيها المرأة مع الرجل ، وكان هذا الرأى يلقى معارضة شديدة من اصدقائه الذين يعدون معه للثورة .. وخاصة الشباب منهم ؟

وكان سعد يردد دائما قصة وقعت أحداثها فى مؤتمر الحزب الوطنى الذى عقد فى مدينة بروكسل فى سبتمبر سنة ١٩١٠ برياسة الزعيم محمد فريد . فقد وقفت الزعيمة الهندية المعروفة السيدة كاما وقالت للأعضاء وهى لاترى بينهم سيدة مصرية واحدة .

- أيها المصريون ! إننى أسألكم أين نصف سكان مصر ؟ إذا كان النصف الأول من سكانها هم الرجال . فأين إذن الأمهات والأخوات والزوجات ؟ إن الحرية لا تتحقق بنصف الأمة ، انها تتطلب جهدا مشتركا من الرجال والنساء !

وكان الدكتور محمد حسين هيكل يحضر المؤتمر فوقف يرد على الزعيمة الهندية ويقول

ـ كنا نقول منذ بضع سنوات أن المرأة لا ينبغى ان تتلقى التعليم ، لأنها . إذا تعلمت القراءة والكتابة . سوف تستطيع كتابة الخطابات الغرامية ! !

وكان سعد يضحك ويقول : إن ما ذكره هيكل ليس مبالغة إنه حقيقة ! لقد سمعت هذا الاعتراف من الخديو عباس عندما تقدمت ، وأنا وزير للمعارف . بمشروعات لتعليم البنات ، واذا بالخديو بثور ويقول :

ـ ان تعليم المرأة المصرية يفسدها ! لولا أن صفية السادات تجيد القراءة والكتابة لما تبادلت مع الشيخ على يوسف الخطابات الغرامية التى أدت الى هذه الفضيحة !

وبعد مناقشة طويلة قبل الخديو أن تتعلم الفتاة المصرية الى سن الثانية عشرة .

وقال الخديو : مادمت على عرش مصر فلن أسمح بدخول امرأة مصرية إلى المدارس العليا !

وفعلا لم تدخل الفتاة المصرية المدارس العليا الا بعد عزل الخديو وصدور الدستور !

وكان سعد يقول :

ـ غير صحيح ما كان يعتقده الخديو من أن صفية السادات أحبت الشيخ على يوسف لأنها كانت تعرف القراءة والكتابة ، لأن درجة تعليمها لم تكن تسمح لها بأن تفهم مقالات الشيخ على يوسف السياسية ، انها أحبت فيه شخصيته اللامعة التى يتحدث الناس عنها ، أحبت فيه مغامراته الصحفية ونشره البرقيات السرية وتقديمه الى المحكمة بتهمة اذاعة أسرار عسكرية وبراءة المحكمة له . وكانت المجالس فى كل البيوت لاتتحدث الا عن على يوسف كبطل أسطورى يقاوم اللورد كنشتر قائد الجيش المصرى . ويدافع عن الجنود المصريين الذين يفتك بهم الوباء فى السودان . وكان المتعلمون والأميون يتحدثون عنه كبطل أسطورى . وهذا هو ما جعل الفتاة الصغيرة صفية السادات تتدله فى حبه وتتمسك بهواه وهذا هو نفس ما جعلها تحب زكى عكاشة . فالممثل المغنى على المسرح هو بطل فى نظر المرأة . ولو كانت صفية السادات تجهل القراءة والكتابة ! لأحبت الشيخ على يوسف رغم ذلك . ولقد عرف الناس الحب قبل أن يعرفوا القراءة والكتابة ! فزليخا التى أحبت سيدنا يوسف كان تجهل القراءة والكتابة ! وحواء أقنعت آدم بالخروج من الجنة بغير حاجة الى خطاب غرام !

ولعل من أسباب حماس سعد زغلول لصديقه الصحفى على يوسف أنه كان صاحب الفضل الأكبر فى تشجيعه على اصدار جريدته . وقد تكونت شركة

اصدار جريدة المؤيد في بيت سعد زغلول ، وكلما واجهت الجريدة أية أزمة مالية ، كان سعد زغلول يسارع الى إمدادها بالمال من أرباحه الطائلة في المحاماة . وقد اعترف الشيخ علي يوسف بهذه الحقيقة في مقال كتبه بنفسه في جريدته .

وحدث مرة أن غضب الانجليز على جريدة المؤيد فأغلقوها ، وكان سعد زغلول يومها وزيرا في الوزارة . فذهب الى صهره مصطفى فهمي رئيس الوزراء . وقال له إنه سيستقيل من منصبه كوزير للمعارف إذا لم يصدر فورا قرارا بعودة جريدة المؤيد .. وكان غريبا في تلك الأيام أن يستقيل وزير بسبب جريدة .

وأسرع مصطفى فهمي باشا رئيس الوزراء الى المعتمد البريطاني وأبلغه تهديد سعد زغلول . فصدر أمر بإلغاء قرار الاغلاق ..

وعادت المؤيد الى الصدور !

إن سعد عندما غضب على المرأة التي تنكرت لذكرى صديقه فقد غضب في الوقت نفسه من أجل ذكرى رجل وقف بجواره في محنته . وهدد بالاستقالة من أجل جريدته . وأمده بالمال ليستطيع أن يقاوم الاحتلال .. ولأنه قبل كل شيء فلاح مصري مثله تماما !

ولكن العقبات التي وضعها الخديو عباس والرجعيون في طريق تعليم المرأة المصرية جعلت سعد زغلول يتحمس لتعليم المرأة في بيته ! فعندما تزوج سعد من صفية اكتشف انها لم تدخل أي مدرسة ! فإن والدها أحضر لها معلمة فرنسية تعلمها اللغة الفرنسية وأخرى مصرية تعلمها مبادىء القراءة والكتابة .. وشعر سعد بخيبة أمل . انه يريد شريكة لا زوجة . امرأة تقرأ الصحف العربية . وتناقشه في أحداث السياسة ، وتلفت نظره الى المقالات الهامة ويقرأ عليها ما يكتب .. لهذا بادر سعد باحضار معلمة للغة العربية تتولى تعليم زوجته وابنته المتبناه رتيبة في نفس الوقت ! وكان سعد يشرف بنفسه على تعليم صفية ورتيبة . ويطلب إليها أن تقرأ كل منهما بصوت مسموع . ليصحح لهما النطق ويناقشهما في معاني ما تقرآن . ومع الوقت أصبح يأتيهما بمقالات مصطفى لطفي المنفلوطي وقصائد سامي البارودي . وهكذا أصبحت صفية تقرأ الصحف المصرية بانتظام وتتبع الأخبار وتشترك في التعليق على الحوادث .

وكأن سعد . دون أن يشعر ، كان يعد صفية لتقوم بدور هام في حياته ، وكان غريبا أن تتلقى زوجة وزير المعارف درسا يوميا في اللغة العربية ، وبقيت صفية تتلقى هذه الدروس بانتظام الى أن قامت الثورة !

وهذه الدراسة المستمرة هي التي هيأت صفية لمتابعة الأحداث في حياة سعد . فلم تقف فيها موقف المتفرج ، بل وقفت دائما موقف الشريك ولم يكن من عادة الأزواج أن يطلعوا زوجاتهم في تلك الأيام على دقائق السياسة وما يجري وراء الستار ، ولكن سعد زغلول كان في حاجة دائما لانسان يأتمنه على أسرار ومؤامرات واستعدادات الثورة . أسرار قد تكلفه رأسه . فلم يجد سوى صفية ليتحدث إليها بهذه الأمور التي كان لايحدث بها الا نفسه . فإن أحدا سواه لم يكن يعرف قصة الثورة كلها ! كان كل فريق يعرف طرفا منها . المعتدلون لا يعرفون سوى دورهم والمتطرفون لا يعرفون سوى أشخاصهم . وكان سعد يركب الحصانين معا . وكان يحدث صفية بكل مايجري وكأنه يفكر بصوت عال وقد وجد فيها الشريك الكتوم الأمين أو كما كان يسميها « خزانة الأسرار » . ولأنها عرفت دوره تماما عرفت دورها هي تماما .

وقد لا يعرف كثيرون أن سعد زغلول لم يطلب من زوجته أن تقود ثورة ١٩١٩ بعد نفيه ، بل إنه لم يتوقع انها تستطيع أن تقوم بهذا الدور كل ما فعله قبل قيام الثورة انه قال لها :

يا صفية لقد قررت أن أضع رأسي على كفي اليمنى

فقالت صفية :

وضع يا سعد رأسي على كفك اليسرى !

وفهم سعد من هذا الحديث أنها مستعدة لأن تتحمل ما يصيبها من تضحيته بنفسه في الثورة ولكنها فهمت في الواقع أنها وقعت معه ميثاقا مكتوبا بأن تقود الثورة اذا غاب زوجها عن مكانه !

وعندما قبض الانجليز على سعد زغلول في يوم ٨ مارس سارع على باشا شعراوي وكيل الوفد ودعا أعضاء الوفد الذين لم ينفوا مع سعد الى اجتماع طارىء يعقد في بيت على شعراوي لبحث الموقف

وسمعت صفية زغلول بأمر الدعوة فثارت واتصلت بمنزل على شعراوي باشا فردت زوجته هدى شعراوي . وطلبت صفية التحدث الى على شعراوي

ودهشت هدى شعراوي فلم تكن التقاليد أيامها تسمح لسيدة متزوجة بأن تطلب التحدث مع رجل متزوج في التليفون .

واستدعت زوجها فقالت له صفية :

- سمعت انك ستعقد اجتماعا للوفد في بيتك ! هذا الاجتماع يجب أن يعقد في بيت سعد

قال على باشا شعراوي كيف نعقد الاجتماع في بيت سعد باشا وهو غير موجود .

قالت صفية : انه موجود ! وسوف يكون موجودا ولو قتله الانجليز !

إن هذا ليس بيت سعد . انه بيت الأمة . انه قلعة الثورة . كيف تستسلم القلعة لأن قائد الجيش أسره العدو . يجب أن تبقى القلعة وتقاوم فقال لها على شعراوى باشا : لك حق .. سنجيء ونعقد الاجتماع فى بيت سعد باشا .. ولكنى أحب أن أحذرك .. فقد تتعرضين للمتاعب نتيجة لهذا ..

قالت صفية : بعد أن أخذوه لم تعد لحياتى قيمة ! قيمة حياتى وهو هنا !

وأمرت صفية بفتح أبواب البيت ، وتخصيص كل غرفة للثورة ، واحتفظت بثلاث غرف . غرفة لها وغرفة لرتيبة وولديها وغرفة لسعد زغلول ، وخصصت كل غرف الدار وصالوناتها وحديقتها لمكاتب الثوار !

وكتبت السيدة سيزا نبراوى التى عاصرت الثورة فى مذكراتها التى نشرتها فى مجلة المصور فى ٧ مارس سنة ١٩٦٩ تقول :

« لقد تعرف العالم على المرأة المصرية كانسانة وكرائدة منذ ثورة ١٩ . وأذكر موقف السيدة صفية زغلول زوجة سعد زغلول حينما نفى زوجها ومنعها الانجليز من اصطحابه الى المنفى . وكان لهذا المنع أثر فى تذكية الثورة فى النفوس المصرية . وهذه نبذه من بيانها الذى أذاعته على الشعب بعد نفى سعد » .

« أبناء وطنى » .

« لما رأيت الجنود يطوفون بالبيت ، ويملأون الحديقة ، وينتزعون سعدا ، كان أول شعور قام فى نفسى أن أتبعه خطوة فخطوة ، أينما شاءت القوة أن تذهب به . فلما رأيتكم تقتلون من أجله ، تحول إليكم فجأة كل حبى . واحساسى . وشعرت من أعماق قلبى بأنى غير مستطيعة أن اترككم فى مثل هذا الوقت العصيب . وبأن واجبى أن أقاسمكم حظا شاءته الأقدار لكم .

« ولئن كانت خدمتى لسعد لازمة ، وهو محتاج اليها الآن حاجة قصوى . فأنا أعلم أنه عن مسلكى راض . وبهذه التضحية مغتبط . لأنه ضحى من أجل الوطن بكل شيء . بسكينة وارتياح .

« أبنائى البررة ! لقد أثبتم أنكم مستعدون لبذل دمائكم فداء للوطن ، حتى لو لم يكن فى ذلك البذل إلا أن تثبتوا للعدو أنكم بواسل تفضلون الموت على أن تعيشوا عبيدا أذلاء » .

« وكان لهذا البيان فعل السحر فى الشعب المصرى » .

... فأرسل لورد اللنبى الى وزارة الخارجية البريطانية يقول :

« مدام زغلول باشا نشرت بيانا من نار . هذه المرأة أقوى من ألف رجل أرى أن وجودها فى مصر خطر . أرى السماح لها بالسفر مع زوجها . »

وجاء رد وزارة الخارجية البريطانية بالسماح لأم المصريين بالسفر فورا الى زوجها ..

فقالت أم المصريين :

« لا .. سعد ذهب .. وأنا هنا مكانه ! »

وهكذا وقفت صفية زغلول فى الثورة موقفا فيه صمود . وفيه قوة . وفيه بطولة . واستطاعت هذه المرأة أن تلهب مشاعر الرجال والنساء . والعجائز والأطفال ، فتلهب بطولتها حماسهم ، وبشعل صمودها ثورتهم . وتصبح صيحاتها فى الجماهير شعارات ترفعها المظاهرات ، وهى تواجه دانات المدافع وطلقات الرصاص .

وما كان سعد يتخيل هذا وهو يعد للثورة ، ويكتب فى مذكراته أنه يفكر فى أن يتزوج من فلاحة مصرية لتنجب له ولدا !

○ ○ ○

• الفصل السابع •

واذا كان الفلاح في سعد زغلول جعله يحس وهو يعد لثورة ١٩١٩ بما يحس به القروى الأمي ، الذى يزرع أرضه بالفأس والمحراث . ويفتقد العزوة والقوة . ويفكر في أن ينجب ولدا . كما يفكر القروى البسيط في أنه يحتاج الى أيدى عاملة في حقله ، يحتاج الى ولد يساعده ، يحتاج الى ابن يعيش فيه بعد موته ، يحتاج الى العزوة والعشيرة في قريته ، في شخص أولاد من صلبه ودمه . فإذا لم تنجب زوجته التي يحبها هؤلاء الأولاد الذين يشدون أزره ويحمون ظهره . ويدافعون عن أرضه ، بحث عن زوجة أخرى تجيء له بأولاد يصنعون له العزوة التي يفتقدها ، ويحققون له العشيرة التى هو في حاجة اليها لتحمي أرضه . وكأن حبه للأرض أقوى من حبه للمرأة !

إذا كان هذا هو الفلاح في سعد ، يطل من داخله في لحظات غريبة . وغير منتظرة ، فإن الفلاح فيه كان يطل من داخله في اماكن غير منتظرة وغير متوقعة ، كان هذا الفلاح يطل من داخله وهو جالس يتصدر مائدته الفخمة ذات الطراز الأروبي في قصره الضخم الذى يشرف على ثلاثة شوارع في وقت واحد . كان ذلك عندما تراه أسرته يتوقف عن الطعام لحظة . ويسرح قليلا ، ويتحدث فجأة عن حنينه الى فحل البصل الذى كان يأكله وهو طفل يجلس حافيا على الترعة في قريته إبيانة ، أو يتغنى بطعم عود السريس الذى يفضل مذاقه على طعم « الأسبرج » المستورد من باريس .. وكان إذا أراد أن يتخذ قرارا جريئا في حياته ، وأحس بشيء من الحيرة والتردد . اتجه الى الريف . كأنه يستلهم من الأرض وحيا . ومن جو الريف قوة ، ومن رائحة المزروعات عطرا يجعله ينتشي ، ومن ماء الترعة الآسن خمرا تثير فيه الجراة والشجاعة والاقدام . وكان يمشي بين الحقول متأملا فيها ، وكأنه ينظر الى « سينما سكوب » يرى فيها مصر كلها . ويحدق في عيدان الذرة ورءوسها المذهبة وكأنه يستعرض جنودا مسحورين يحملون أسلحتهم ويبايعونه على المضي وراءه الى ساحة القتال واذا كان الانسان العادى اذا أراد أن يقدم على مغامرة مجهوله العواقب تجرع زجاجة من الخمر ليستمد من نشوتها القوة والجراة والاندفاع . فقد كان الفلاح سعد يتجه الى قرية مسجد وصيف أو قرية أسرته في ابيانه . أو الى عزبة اشتراها في احدى قرى البحيرة ويبقى بها بضعة أيام قبل أن يتخذ قراره الخطير . فعل ذلك عدة مرات . فعله عندما انضم الى

الثورة العرابية ، وفعله عندما قرر تأليف جمعية الانتقام بعد فشل الثورة . وفعله عندما أراد أن يعد لثورة ١٩١٩ . وفعله عندما كان يستعد للقيام بثورته الثانية سنة ١٩٢١ .

وعندما يعود من الريف . كان يبدو رجلا مختلفا عما كان قبل أن يغادر المدينة . يذهب الى الريف مترددا ، ويعود من الريف حازما أمره ، يدخل القرية مهدما مريضا مهموما ، ويخرج منها صحيح البدن ، سليما معافى ، صلبا صامدا ، كأن طين القرية وأتربتها ومياهها غير المقطرة ، ومنظر الفلاحين المسحوقين فى جلاليبهم الزرقاء الممزقة وحياة العدم التى يعيشون فيها ، تمنحه قوة غير منظورة . وكان سعد يقول مفسرا ذهابه الى الريف قبل كل معركة ، اننى أرى الله فى الريف اكثر مما أراه فى المدينة .. !

وكان تعصبه للريف المصرى طابعا يميزه ، ولم يكن ير فى وجوه الفلاحين المسحوقة ضعفها وهزالها . وانما كان يرى كفلاح ، روح التصميم والقدرة على الصمود . وكان رأى المثقفين دائما أن الفلاح المصرى لايمكن أن يثور . انه لم يشترك اشتراكا فعليا فى ثورة عرابى . ان حركة مصطفى كامل انحصرت فى المدينة . ولم تستطع أن تمد جذورها الى الريف الا يوم وفاة مصطفى كامل ! ولمدة يوم واحد ! ولكنه كان يؤمن بأن ثورة لا يشترك فيها الفلاح المصرى لابد أن تولد ميتة . ثورة الفلاحين اعصار يقتلع كل شىء . وثورة الافندية وحدهم زوبعة من تراب !

ولعل القصة التى رواها الأستاذ كامل سليم فى مذكراته تعطى صورة لتعصب سعد للريف المصرى .

كان سعد يستقل القطار من مدينة لندن فى عام ١٩٢٠ مغادرا انجلترا بعد مفاوضاته مع لورد ملنر . وكان الانجليز قد حاولوا أن يبهروا سعد زغلول بعظمة مدينتهم ، فدعوه الى أكبر القصور . وأقاموا له أعظم المآدب . ومع ذلك كان يشعر بأنه يختنق فى أكبر مدن العالم فى تلك الأيام ، كان تعسا غاية التعاسة . بائسا كل البؤس ويقول سكرتيره : « وبعد دقائق معدودات . كان القطار يطوى الأرض طيا ، وسط المزارع المزهرة الجميلة . والمراعى الخضراء النضرة ، ونظرت الى سعد . وكنت جالسا أمامه ، فوجدته غارقا مستمتعا ، ثم أفاق بعد قليل ، وابتسم ابتسامة الرضا وقال :

« أشعر الآن بمزيد من السعادة ، سعادة السجين المعذب الذى انتهى عذابه ، وخرج من السجن طليقا ، يذهب الى حيث يشاء ، فاستعاد حريته ، وأوشك أن يستعيد صحته ، وأصبح يجد متاعا فى كل ما يراه من آيات الله »

ثم بدأ سعد يتحدث حديثا عذبا عن أيام صباه . وعن حبه العميق للريف المصرى .

ومكث يتحدث عن هذا طول رحلة القطار !

ثم روى السكرتير كيف زال عن نفس سعد كل ضيق وكدر ، وانشرح صدره ، وتنفس الصعداء . وعاد الابتسام الى وجهه الحزين ، اذ لم يبتسم مرة واحدة طوال فترة المفاوضات في لندن . كل هذا الكابوس الخانق الثقيل قد انجاب عنه فجأة ، بقدرة قادر .

وعاد سعد باسما كمن يستقبل الحياة بوجه جديد . » !

كل هذا التحول عاد إلى الرجل عندما أمضى بعض ساعات يتحدث عن الريف المصرى وعن ذكرياته فيه . ذلك لأن القرية المصرية كانت هواه الكبير ! ولا يمكن لرجل ليس فيه هذا الهوى كله ويرى روعة الريف الانجليزى ، ومناظره الخلابة ، وحقوله الأنيقة .

وسهوله الجميلة ، وبيوته النظيفة فلا يستهويه كل هذا ، ولا يرى الجمال الا في قريته المهملة المسحوقة ، وفي الفلاحين شبه العرايا ، وفي بيوتهم المهدمة ! »

ويمضي سكرتير سعد فيقول : إنه في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى رأى سعد وعلى وجهه ابتسامة عريضة تدل على السرور ثم أخبرنى أنه مسرور ، لأنه استطاع أن ينام ليلة أمس اربع ساعات متتالية . وهذا شيء نادر جدا بالنسبة له ، وأنه لايذكر اخر مرة تمتع فيها بمثل هذا النوم الطويل ، وقال إنه استيقظ منشرح الصدر وفي نشاط ، بعد أن كان يصحو في لندن كل صباح ، وهو متعب ، متخاذل الأعضاء شديد الانقباض ، ثم ادهشنى أنه اعد نداء الى الأمة ، وقد بدأ كتابته ابتداء من الساعة السابعة صباحا » !

هذا هو وصف سكرتير سعد له ، وهو يقارن بين حالته وهو في اكبر مدينة في العالم في تلك الأيام ، ثم حالته بعد أن تركها وراح يتامل الريف الانجليزى الرائع فلا يرى فيه الا ما يذكره بالريف المصرى . واذا بالحديث عن الريف المصرى هو الأكسير ، الذى يعيد للرجل المتهدم شبابه . ويرفعه من حضيض اليأس الى سماء الأمل . ويحول الهزيمة فيه الى الانقضاض . فهو يستمد قوته من هذه الأرض . طين القرية الرخو يمنحه صلابته . ماء الترعة الآسن فيه طعم ألذ من طعم القبلة من فم أجمل امرأة في العالم . يسقيه ويرويه ويملأ روحه بالقوة ، ونفسه بالايمان . وقلبه بالاقدام . فيرى بلده القزم عملاقا . ويرى أكواخ قريته المتهدمة وبيوتها المبنية بالطين كأنها القلاع والحصون القادرة على الصمود أمام مدافع أقوى إمبراطورية في العالم في ذلك الحين . ولقد كان إيمانه بقوة الفلاح المصرى . يذهل أصدقاءه الذين درسوا الريف . وعرفوا مافيه من مرض وفقر وجوع وعدم . ولكنه كان دائما يقول ان ثورة

تقتصر على المدينة أشبه بالحب الافلاطونى الذى لا يلد شيئا . ولكن ثورة تمتد الى الفلاحين هى التى تخصب وتلد وتؤدى الى نتائج !

ولقد كان إيمانه بالقرية المصرية وحبه لها . واعتزازه بالفلاح المصرى وإيمانه به . هى أكبر أسرار نجاحه ، ولعل هذا أيضا هو الفرق بينه وبين الذين نافسوه على زعامة مصر . فبينما كان سعد ينقبض من الحياة فى مدينة لندن العظيمة . كان منافسه عدلى يكن باشا يحرص على الا يتولى كى ثيابه الا أشهر مكوجى فى لندن ، وكان يرسل ملابسه بانتظام من القاهرة الى المكوجى الخاص بكى ملابس اللوردات والدوقات والأمراء الانجليز ! وبينما يصرح سعد وهو رئيس وزراء مصر فى حديث لصحيفة التيمس اللندنية بأنه فلاح ابن فلاح . وأنه ليفخر بأن أغلب أقاربه لا يزالون الى اليوم يرتدون الجلاليب الزرقاء واللبدة والطاقية ، ويحملون الفئوس . كما هو فخور بأن يكون زعيم الجلاليب الزرقاء . وبينما سعد يصرح بهذا ، كان عدلى يكن باشا يفخر دائما بأنه من أصهار الأسرة المالكة . وأن اسم « يكن » بالتركية معناه صهر السلطان !

وبينما كان سعد يتباهى بأنه كان يذهب حافيا الى « الكتاب » ويجلس على الأرض ويضربه العريف الشيخ عبدالحفيظ ، وأنه درس فى الأزهر مجانا ، وعاش سنوات على الفول والبصل والطعمية .. كان عدلى يكن يتباهى بأنه لم يدخل أى مدرسة مصرية وأنه تعلم فقط فى مدارس « الفرير » !

وبينما أسرة عدلى يكن تحمل أسماء تركية مثل مدحت وجليباظ وجلوسنا وباكيناز . نجد أن بين أخوات سعد زغلول من يحملون أسماء الشناوى وشلبى وستهم وفرحانه وشلبية . وغيرها من أسماء الفلاحين والفلاحات المصرية العربية الصميمة .

ولهذا لم يكن عجبا أن يفاخر الرجل وهو جالس بين أفراد أسرته بانتسابه الى الفلاحين . وكان يشعر دائما بأن شيئا يجذبه الى أرض الريف والى ذكريات الريف . وكأنه يخيل له وهو يقف فوق هذا الطين كانما تزداد قامته ارتفاعا بينما كان غيره يتنكرون لأصلهم الريفى ويخشون الوقوف فوق هذا الطين حتى لايغوصوا فيه !

وكان سعد عندما يتحدث عن جلابيته الريفية والطاقية اللتين يرتديهما فى إبيانه كان يتحدث عنهما بحنين عجيب ، وقد ظل يحتفظ بالجلابية التى جاء بها الى القاهرة . وكان يعلقها بجوار ثوب التشريفة الموشى بالقصب والمرصع بالاوسمة والنياشين ويتدلى منها سيف ذهبى بدولاب فى غرفة مجاورة لغرفة نومه ، وكأنه لايريد أن ينسى انه مدين ببذلة رياسة الوزراء الى جلبابه وهو

فلاح ! فإذا عاد الى بيته خلع طربوشه . وارتدى الطاقية ، وكان يقول انه يفكر وهي فوق راسه خيرا من تفكيره وهو تحت الطربوش ، ولعله تحت الطاقية يحس كأنها تحمله الى الريف . فيشعر بأنه أصبح أقوى مما هو ، تماما كما يشعر الملك بالسلطان والجبروت عندما يضع على رأسه التاج !

وكان من أعذب أحاديثه ذكرياته عن « الكتاب » الذى كان يتردد عليه فى قريته إبيانه حيث يجلس على الأرض ، ويحفظ القرآن ، ويتعلم مبادىء القراءة والكتابة ، ويصف الفلقة أو العصا التى طالما ذاق ضرباتها على يد الشيخ عبدالحفيظ عريف الكتاب ، كلما أخطأ فى اللغة العربية .

وروى يوما للتوأمين الصغيرين أنه احتج مرة لأن الشيخ عبدالحفيظ ضربه ضربا مبرحا ، وذهب يشكوه الى أخيه الأكبر الشناوى زغلول ، وتصور سعد أن الشناوى سيذهب فى اليوم التالى ويضرب الشيخ عبدالحفيظ انتقاما لأخيه الصغير ، ولكن الذى حدث كان عكس ذلك تماما . فإن الشناوى صحبه الى الشيخ عبدالحفيظ وقال له : انك لاتضرب سعد ضربا كافيا ، وعليك أن تزيده ضربا ليزداد علما وعمل الشيخ عبدالحفيظ على تنفيذ نصيحة الأخ الأكبر وصدقت نبوءة الشناوى فقد أصبح سعد زغلول أنبغ تلاميذ الشيخ عبدالحفيظ وصحبه أخوه الشناوى الى القاهرة وأدخله الأزهر .

وذكر سعد زغلول للتوأمين أنه لايزال يذكر أول يوم رأى فيه مدينة القاهرة وكيف ، أحس بالسعادة عندما صحبه الشناوى الى قهوة متاتيا فى ميدان العتبة الخضراء الذى بدأ فى عينيه أكبر مائة مرة من مساحة قريته إبيانه !

وجلس الشناوى مع بعض معارفه ، وسألوه ماذا يطلب ؟ فطلب الشناوى شيشة ! والتفتوا الى سعد الصغير يسألونه ماذا يطلب ؟ عرقسوس ؟ تمر هندى ؟ وتمنى سعد فى تلك اللحظة أن يطلب « لكوم » وهو الاسم الذى يطلق على حلوى الملبن ! وقبل أن يفتح سعد الصغير فمه ليطلب اللكوم ! اعترض أخوه الشناوى وقال :

ـ ليس من حق سعد أن يطلب شيئا فى القهوة . الا عندما يستطيع أن يدفع من عرق جبينه ثمن ما يأكله !

ووجم سعد ، وماتت كلمة « لكوم » فوق شفتيه ، وشعر بالضيق الشديد ، ولكن هذا الدرس رسب فى نفسه ، وأصبح يفكر دائما فى أن يدرس ويتعلم وليكسب قوته بعمله . حتى يستطيع أن يجلس فى قهوة « متاتيا » ويطلب « واحد لكوم » ! وارتبط اسم قهوة متاتيا بحياة سعد وتاريخه ، ولكن عندما جاء اليوم الذى أصبح يستطيع فيه أن يجلس فى قهوة متاتيا ، لم يذق « اللكوم » الذى تمناه وهو صغير ، وانما ذاق شيئا كان فى شفتيه أحلى من

المبن والعرقسوس والتمر هندى . ذاق لأول مرة طعم الثورة . وظل هذا الطعم . الذى ذاقه فى قهوة متاتيا عالقا بشفتيه الى أن لقى ربه !

ففى قهوة متاتيا التقى الطالب الشاب الأزهرى سعد بالزعيم الثائر جمال الدين الأفغانى . وسمع منه لأول مرة فى حياته كلمة « ثورة » . سمع أن من حق الشعوب المغلوبة على أمرها أن تثور على حكامها الظالمين المستبدين . سمع أن الشعوب التى يدوسها الطغاة بالأقدام قادرة على أن ترفع رأسها ، وتقتلع هؤلاء الطغاة من عروش جبروتهم . سمع أن الملايين المقيدة قادرة على ان تحطم سلاسلها وتنقض على جلاديها . وأصبح يتردد على قهوة « متاتيا » كل مساء . ليأكل نوعا جديدا من اللكوم من شفتى الشيخ الثائر .

وكان زملاء سعد فى الأزهر وفى « الربع » الذى يقيم فيه يترددون فى الليل على قهاوى حى الحسين يشنفون أذانهم بالمواويل البلدية . أو يحضرون حفلات الذكر اما سعد فإنه كان يتسلل وحده الى قهوة متاتيا .

كان حديث الأفغانى هو موسيقاه التى تطربه . كان كلامه عن الثورات يجعل سعد يهز رأسه بعنف كما يفعل زملاؤه فى حفلات الذكر ، فقد كان الأفغانى كل ليلة يوزع السعوط بيمناه ، والثورة بيسراه ، الكلمات تخرج من شفتيه كالقنابل ، والنظرات تنبعث من عينيه كالشرار !

وسمع سعد ذات ليلة الأفغانى يقول : أنت أيها الفلاح المسكين الذى تشق قلب الأرض لتأكل مايمسك الرمق ، لماذا لاتشق قلب ظالمك ؟ لماذا لاتشق قلب الطغاه الذين أكلوا تعبك وعرقك ودمك !

واستقرت هذه الجملة النارية فى قلب الشاب الصغير . وكان يقول لأسرته بعد ذلك بعشرات السنين أنه فى تلك الليلة تصور أنه يرى السكين بين أسنان الأفغانى ، وأنه اعطاها له . وانه خبأها تحت عباءته . ثم أمضى حياته بعد ذلك يبحث عن أيد تحمل هذه السكين !

كان يقول إن هذه الجملة النارية هى التى صنعت منه ثائرا ، هى التى هزته كما هزته رؤية أبيه وهو ينزع المفتش التركى من فوق حصانه الأبيض . هى التى دفعته وهو طالب فى الأزهر الى أن يؤلف جمعية سرية تطالب بثورة فيه . وكان يخرج من غرفته فى الليل متسللا فى الظلام . وهو يخفى وجهه فى عباءته . ويلصق بنفسه المنشورات الثورية التى طبعها . فيغطى بها أعمدة الأزهر وجدرانه . منشورات تطالب بأن يتعلم الطلبة الحرية كما يتعلمون الدين لأن ديننا هو الحرية . مناديا بأن يدرس المشايخ للطلبة أصول الشورى كما يعلمونهم ألفية ابن مالك . مطالبا بادخال تاريخ الشعب المصرى بين مواد الدراسة الى جانب الفقه . ليعرف الأزهريون انهم هزموا نابليون . وقاوموا

الاستبداد . وأن واجبهم مقاومة كل نابليون جديد !

هذه الجملة النارية هي التي صنعت منه ثائرا في ثورة عرابي ، يؤلف الخلايا السرية ، ويتزعم شباب الثورة فإذا فشلت الثورة وقبض الانجليز عليه وجردوه من السكين ، خرج من السجن مشردا وانتزع السكين من جديد ، وألف جمعية سرية جديدة باسم « جمعية الانتقام » هدفها الانتقام من الذين تعاونوا مع جيش الغزاة ، وخانوا الثورة ، وكانوا سبب الهزيمة الكبرى .

لم ينس سعد هذه الجملة النارية قط ، وقبل ذلك عندما أمر الخديو توفيق بنفي جمال الدين من مصر بحجة « أنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش ، مجتمعة على فساد الدين والدنيا » . عرض جمال الدين على سعد أن يصحبه الى منفاه . فقال له سعد : ان واجبي أن ابقى في مصر لأفسد دينهم المزيف ودنياهم المزيفة .. واجبي أن أبقى لأشق قلب الظالمين ! ان مصر تحرر في مصر ولاتحرر في باريس !

وابتسم الافغاني ولم يقل كلمة واحدة وانما اغرورقت عيناه بالدموع . وكانت هذه الدموع هي تحية وداع الفيلسوف الثائر لأصغر تلاميذه سنا .

وسرعان ما قبض الانجليز على سعد . وأودعوه السجن بعد أن كشفوا سر جمعية الانتقام . وخرج سعد من السجن فوجد زعماء الثورة قد تشردوا في المنافي والسجون والمعتقلات . تنكرت الدنيا للثوار المهزومين . أصيب رجالها بيأس قاتل مرير . جثا بعض قادتها على اقدام الغزاة يستغفرون لجريمة الدفاع عن وطنهم . سارع آخرون الى الخديو الذى اتهموه بالخيانة ، يعلنون توبتهم ويعاهدونه على ألا يذكروا على شفاهم كلمة حق الشعب المصرى في أن يحكم نفسه بنفسه .

ويروى سعد انه في تلك الأيام تلقى كتابا سريا من صديقه الشيخ محمد عبده في باريس يبلغه انه مختلف مع جمال الدين الافغاني . الأفغاني يريد مواصلة الثورة . لأن الثورة إذا توقفت ماتت . وأن في إمكان خمسة رجال أن يصنعوا ثورة ! ..

وكان من رأى الشيخ محمد عبده أن واجبنا أن نراجع أولا اسباب الفشل . أن نذهب إلى مكان بعيد غير خاضع لسلطان الانجليز ولا لسلطان الأتراك . أن نجلس في هدوء ندرس أسباب الهزيمة . أن ننشىء « مدرسة للزعماء » . نحن في حاجة الى زعماء متعلمين . سر فشل ثورتنا ان زعماء الثورة كانوا جهلاء . الثورة علم كالهندسة والجغرفيا ، لابد من مدرسة للزعماء !

فقال الافغاني غاضبا : مدرسة للزعماء ؟ !! إن عندك في مصر سعد زغلول

واخوانه الثوار ، هؤلاء ليسوا فى حاجة الى دخول مدرسة ليصبحوا زعماء ثورة !

وقال سعد زغلول لأسرته انه مع شدة حبه للأفغانى واعتزازه برأيه ، كان يوافق الشيخ محمد عبده على وجهه نظره . ان جمال الدين لم يكن فى مصر عندما قامت ثورة عرابى . وعندما فشلت هذه الثورة . لم يعرف ما نعرف عن هزيمتنا السريعة . لقد تخيلت عقب خروجى من السجن فى المرة الثانية عقب براءتى لعدم كفاية الأدلة فى جريمة تأليف جمعية الانتقام ، تخيلت أن أقدر الناس على الثورة هم بقايا الثوار . وكانت هذه الفكرة هى محنتى الكبرى . لم ألبث أن اكتشفت أن لطمة الهزيمة أصابت العرابيين بدوار دائم . كثير منهم لم يستطع بعد عدة سنوات أن يقف على قدميه . الهزيمة سحقتهم . خيبة الأمل قلبت بعضهم من النقيض الى النقيض . الشجعان القدماء حولتهم الصدمة الى جبناء متخاذلين . العمالقة أصبحوا أقزاما . الأقوياء أصبحوا ضعفاء . أغلبهم فقد الثقة بنفسه . وفقد الثقة بمصر كلها !

كان شبح الهزيمة يعيش فى داخلهم . لم يروا الهول بل عاشوه . رأوا بعض قادة الثورة يتهاوون قبل أن تنهال المطارق على رءوسهم . ان أتعس حياة هى حياة الثوار المهزومين . انهم يهزمون أنفسهم قبل أن يهزمهم المنتصر ، يأكل بعضهم بعضا قبل أن تأكلهم مدافع العدو وتبتلعهم سجونه ومنافيه . جو الهزيمة حولهم يخنقهم . ظلام الفشل يعميهم . ولست ألومهم فقد رأوا بأعينهم احتفالات تقام للمحتلين ، وأقواس نصر يمر من تحتها الغزاة الفاتحون . وسمعوا بآذانهم الذين هتفوا لعرابى يلعنونه ، والذين نظموا فى بطولته قصائد الغزل . يسبونه ويشتمونه . رأوا بعض الذين داسوا التاج بالاقدام قد رفعوه فوق رؤوسهم . رأوا منشورات الثورة تحرق فى الشوارع . رأوا كثيرين أنكروا ماضيهم . وتنكروا لمبادئهم ومعتقداتهم .

وأحسست على الفور أن الثوار المهزومين هم آخر من يصلح لقيادة ثورة جديدة . ان الذى غرق فى صباه فى الترعة يعيش طول حياته يفزع اذا رأى البحر من بعيد . ان الهزيمة لاتقضى على الجيش وحده . انها تقضى على شىء أهم من الجيش وهو الأخلاق . يتخلق المهزوم بأخلاق العبيد ليعيش ! يتهاوى الذين يرفعون رؤوسهم ويطالبون بالحرية ويركعون على أقدامهم يطالبون بالطعام . وطالب الحرية مرفوع القامة وطالب القوت محنى الرأس . الفرق بينهما كالفرق بين الفارس والشحاذ . والويل لنا عندما يتحول الفرسان الى شحاذين . فهم بحكم طبيعة تكوينهم لايعرفون أنصاف الحلول . بقدر جبروتهم القديم يكون خنوعهم الجديد . وأفجع من كل هذا أنهم فى هوانهم

هذا لايعترفون بمسئوليتهم عن الهزيمة ، ولايحاولون أن يقفوا على اقدامهم من جديد ، وانما يكتفون بالقاء اللوم على غيرهم ، وهم يزحفون على بطونهم وهكذا عشنا فترة يلقى فيها الجيش اللوم على الشعب . ويلقى الشعب اللوم على الجيش ، ويعزو الجنود الهزيمة الى القادة ، ويؤكد القادة أن الجنود هم سر الهزيمة ، والحقيقة اننا جميعا شركاء فى الهزيمة ، فقد كانت أكبر من أن يتحملها فريق دون فريق .

وبقى الافغانى مصرا على رايه . مصرا على ضرورة استئناف الثورة فورا . وكان يقول للشيخ محمد عبده : لو قابلت سعدا لأقنعته بأن يقود الثورة .. اما أنت فمثبط للعزائم !

ومضى سعد يروى لأسرته :

- وكان جمال الدين يرسل الى بعض الرسائل من منفاه ، وكان يكتب فى بعضها جملة « لاتنس السكين » ! وكنت أمزق هذه الرسائل ، لأننى كنت أتوقع فى كل يوم أن يفتضح أمرى . وأن يفتش بيتى ، ولهذا كان من عادتى الا أحتفظ بأوراق هامة . حتى مذكراتى كنت أدونها بطريقة أفهمها ولا يفهمها غيرى . وقبل وفاة جمال الدين الأفغانى بعام تقريبا . وكنت مستشارا بمحكمة الاستئناف . تلقيت منه رسالة سرية يدعونى لمقابلته فورا فى الاستانة .

وسافرت الى الاستانة . وكنت غير راض عن تصرف أستاذى جمال الدين الأفغانى لأنى فوجئت به يبايع السلطان عبدالحميد سلطان تركيا المستبد بخلافة المسلمين .

وقلت له : كيف تبايع طاغية .. يامولانا ؟ ؟

قال جمال الدين : بايعته لينهض بالمسلمين ويقاوم طغيان أوربا ومكائدها .

قال سعد : لقد علمتنا يامولانا أن الطغيان لا يقاوم بالطغيان .. الطغيان لايقاوم الا بالحرية .

قال جمال الدين : صدقت يابنى ! انك قد حفظت الدرس .

قال سعد : انك قلت لنا يامولانا أن فاقد الشىء لايعطيه . اننا لايمكن أن نصنع من الطغاة أحرارا . قد يتكلم الطغاة لغة الحرية . ولكن الاستبداد يجرى فى عروقهم بدلا من الدم !

قال جمال الدين الافغانى : خدعنى السلطان عبدالحميد . أوهمنى بانه مقتنع بآرائى فى الدستور وحكم الشعب . اعترف بأن الاسلام أول من دعا إلى الشورى ووعد بأن يطبق الشورى والحرية فى كل بلاد الشرق التابعة لتركيا ، ثم اكتشفت أن هذا السلطان جبان . لم يجرؤ على مواجهتى بآرائه الحقيقية التى يؤمن بها وهى الطغيان والاستبداد . فكان السلطان يوافقنى وأنا معه . فإذا خرجت من مقابلته عاد طاغية مستبدا فاجرا من جديد .

وقد ذهبت اليه فى قصره وقلت له : إننى لأستميح جلالتك فى أن تقيلنى من بيعتى لك . لأنى رجعت عنها . نعم أنا بايعتك بالخلافة والخليفة لايصح أن يكون غير صادق الوعد .

وسكت الأفغانى ونظر الى سعد طويلا ثم قال :

ـ أنت على حق ياسعد .. ان الملوك لايصنعون الثورات وإنما يخدمون الثورات . الشعب هو الذى يلد الثورة . والحاكم هو جلادها !

ثم التفت جمال الدين الأفغانى الى سعد وقال له :

ـ ومتى تثور مصر ؟

قال سعد : عندما تستعد للثورة ، وتجد قائدا .

قال الأفغانى وهو يضع يده على كتف سعد :

ـ أنت ستكون قائد هذه الثورة !

قال سعد ضاحكا :

ـ أنا يامولانا ؟ لقد خرجت منها وأنا احد جرحاها ! ولايزال دم الطغيان ينزف منى !

قال الأفغانى : ان الجروح هى التى تصنع قادة الثورات . والذين لم يتعذبوا ولم يذوقوا السجن والطغيان والهزيمة والفشل ، لايمكن أن يقودوا ثورة حقيقية ! لاتنس ياسعد السكين ! لاتنسى الكلمة التى قلتها لك . لماذا لاتشق قلب ظالمك ! ؟

وكان سعد يقول لأسرته أن جمال الدين الأفغانى مات دون أن يشهد الثورة التى يحلم بها . الثورة التى توقظ الشرق كله . انه مات قبل قيام ثورة ١٩١٩ باثنين وعشرين عاما . ولكن الشىء الذى كان يذهل سعد أن جمال الدين مات يوم ٩ مارس سنة ١٨٩٧ وثورة مصر انفجرت فى ٩ مارس سنة ١٩١٩ . نفس اليوم الذى مات فيه القائد الروحى للثورة . هو نفس يوم انفجار هذه الثورة !

ولكن الثورة لم تكن فورا كما أراد جمال الدين . واذا كان الأفغانى قد رفض اقتراح الشيخ محمد عبده بأنشاء « مدرسة للزعماء » . فإن سعد زغلول أنشأ هذه المدرسة . وبدأ هذه المدرسة بتلميذ واحد هو سعد زغلول نفسه . وكانت الطريقة البطيئة التى اختارها سعد لانشاء مدرسة الزعماء تدل على الصبر الغريب الذى ورثه عن أمه ، فبدأ يقرأ عن الثورات التى نجحت . ويقرأ عن الثورات التى فشلت . يقرأ تاريخ مصر . يقرأ الجبرتى . يدرس قصة كفاح شعب مصر ضد الأتراك وضد نابليون وضد المماليك . يلتهم كتب تاريخ الثورة الفرنسية وأفكار فلاسفتها . ويدرس كل ما كتب باللغة العربية عن نهضة اليابان .

ولكنه مع كل هذه القراءات بقى متأثرا بالجملة النارية التى سمعها من جمال الدين الأفغانى عن قدرة الفلاح المصرى على شق قلب ظالميه ! ..

لقد عاش دائما يفكر ويحلم كيف يشق قلب ظالميه ! قلب التركى الذى جلد أباه . قلب كل من يمتطى حصان الحكم ، ويحاول بالكرباج أن يذل الفلاحين ويستعبد المصريين . مهما كانت جنسية هؤلاء الحكام . مسلمين أو غير مسلمين . مصريين أو غير مصريين . كيف يشق قلب الاحتلال الانجليزى ؟ كيف يشق قلب الخديو الأجنبى ؟ كيف يشق قلب الطبقة المستغلة . من بقايا الأتراك . انه ضد كل طغيان مهما كان اسمه . مهما كانت جنسيته . يرفض أن يعتمد على تأييد دولة أجنبية كبرى . رأى بعينيه كيف خذلت تركيا عرابى . وسيرى بعينيه بعد ذلك كيف ستخذل فرنسا مصطفى كامل . وكيف ستخذل تركيا مرة أخرى محمد فريد . انه يؤمن بأن مصر لايحررها الا المصريون . انه ليس مستعدا لأن يستبدل بالسيد القديم سيدا جديدا نكاية فى السيد القديم ! هذه هى عقلية العبيد وليست فلسفة الأحرار . انه ليس مستعدا لأن يستبدل بالطغيان البريطانى الطغيان التركى ، بل هو ليس مستعدا لأن يستبدل بالاستعمار الانجليزى الاستعمار المصرى !

وهو يقول إن الدول الكبرى لاتساعدنا لنستخلص حريتنا من الانجليز . وإنما هى تريد أن تطرد الانجليز لتحتلنا بدلا منهم . الدول العظمى ليست جمعيات خيرية توزع المساعدات على المحتاجين فهى جميعا لها مطامعها الاستعمارية . عسكرية أو اقتصادية أو سياسية . كلها تريد أن تأكلنا ! بعضها يريد أن يلتهمنا بأصابع يديه . وبعضها يريد أن يستعمل الشوكة والسكين . ولكنها جميعا تريد أن تلتهمنا ! بعض هذه الدول يكشر فى وجوهنا وهو يلوح بالسوط . وبعضها يبتسم وهو يخفى نفس السوط وراء ظهره !

ومن هنا كان من رأى سعد أن ثورته يجب أن تختلف عن الثورات والحركات التى سبقتها ، فثورة الشعب مثل الثورة فى الشعر والثورة فى الفن والثورة فى الموسيقى . لكى تكون ثورة يجب أن تتمرد على الأشكال والمضامين والمدارس القديمة ، فهى انصهار فكر جديد فى وعاء قديم ، وليست وضع فكر قديم ، وليست وضع فكر قديم فى وعاء جديد . وكما يلغى الفنان الثائر قواعد الخطوط والألوان والنسب ليقوم بثورة جديدة فى الرسم . وكما يتخطى الشاعر الثائر قواعد الأوزان المعترف بها والقوافى المتوارثة ، فيجب أن يتخطى الثائر الجديد اللغة القديمة والشعارات القديمة فيحول الكلمة إلى صاعقة والشعار إلى إعصار ..

وهكذا بدأ سعد يقوم بعمليات « ربط » بين مختلف الاتجاهات والأفكار

باحثا عن لغة جديدة لغة تفهمها الملايين . لغة يفهمها الفلاحون . لغة يفهمها الجيل الجديد الذى لم يهزم فى الثورة ولم يذق مرارة الفشل . ولهذا اتجه الى ثوار جدد لم يهزموا . إن أول ما يفعله قائد الجيش الذى هزم جيشه فى معركة عسكرية ان يجيء بفرق جديدة لم تذق طعم الهزيمة والانكسار ، لكى تستطيع بهذه الروح الجديدة أن تنتصر فى المعركة التالية . فهو يبحث عن أرواح جديدة لم يسحقها المنتصرون .

وكان عليه ان ينتظر وقتا طويلا حتى ينسى الشعب نكبته ، ويتجاوز هزيمته ، ويتخلص من عقدة المغلوب . ومن طبيعة الناس أن ينسوا انتصاراتهم بسهولة ، وينسوا هزائمهم بصعوبة ، فالنصر على وجه الأمة كالطلاء ، والهزيمة فى وجهها كالوشم . الأيام تزيل الطلاء . والنار وحدها هى التى تمحو الوشم ..

وعندما اتجه سعد إلى بقايا الحزب الوطنى السرى الذى الفه جمال الدين الافغانى فى مصر قبل الثورة العرابية ، والذى قاد ونظم الثورة العرابية واكتوى بنارها . وكان سعد فى مقدمة أعضائه الشبان . وجد امامه فلاسفة ولم يجد مناضلين . فلاسفة لا عمل لهم الا فلسفة الهزيمة بانها قدر مكتوب ، وانها إرادة الله ، واننا شعب لانصلح للنضال . وأن أحدا لم يعد يثق بأحد ، وأن كل فرد أصبح يشى باخيه ، ويكيد له عند الحاكم ، كأن جثث الأصدقاء والزملاء هى درجات السلم الوحيدة التى يصعد عليها ليصل إلى الحاكم الجديد فى مكانه الرفيع .

وأظلمت الدنيا فى وجه سعد . وكان بعد خروجه من السجن على اتصال بالشيخ محمد عبده فى منفاه فكتب إليه ، وهو يرى أثر الهزيمة شائعا فى كل مكان : « مولاى . ذكرت لحضرتك أن الضعف ألم بفكرى . فبالله الا قويته بتواصل المراسلة ، غير تارك فيها ما عودتنا عل سماعه من النصائح والحكم التى نهتدى بها الى سواء السبيل ، ونتمكن بها من السير فى العالم المصرى الذى اختبرت حقائقه وعرفت خلائقه ، ومايناسبها من ضروب المعاملة » .

ويقول سعد إن الشيخ محمد عبده كتب إليه رسالة سرية من منفاه يقول : « نبدأ من الصفر . إننا فى حاجة الى العلم . هو سلاح الثوار الحقيقى . لولا قادتنا الجهلاء لما كانت هذه الهزيمة النكراء . كانوا يحاربون بدون سلاح . نتعلم أولا ، ثم نثور ثانيا . إن الفرق بين الجهل والعلم هو الفرق بين الهزيمة والنصر »

وهكذا بدأ سعد من الصفر ، واشترك فى تاليف الجمعية الخيرية الأسلامية . وكان الهدف الحقيقى من إنشائها هو إقامة مدارس تنشر العلم

وتقضى على الجهل . مدرسة للزعماء الصغار ! وكان الغرض الثانى من انشائها هو تجميع المصريين . لتعليمهم روح الفريق الواحد . وتعودهم على أن يعملوا معا . ولو من أجل هدف صغير . المهم أن يحدث تجمع . أن تعقد اجتماعات . أن تحدث مناقشات . أن يتبادل أعضاء الجمعية الرأى . أن يعرف بعضهم بعضا أن يتفاهموا . أن يثق بعضهم ببعض فى وقت فقد فيه كل الناس الثقة بكل الناس !

ثم بدأ تأليف الحزب السرى للشيخ محمد عبده . وكان الشيخ هو عميده الدينى ، وكان سعد زغلول عميده المدنى . وهو حزب عجيب لم يعرف به أحد ، ولكنه جمع عدداً من المصلحين الذين تولوا قيادة الاصلاح فى مصر . وأعضاء هذا الحزب هم الذين حملوا لواء إصلاح الأزهر ، وقاوموا رجعية الخديو . وكان منهم قاسم أمين الذى دعا إلى تحرير المرأة . ومصطفى كامل الغمراوى الذى تبرع بأربعمائة فدان لأنشاء الجامعة المصرية التى دعا سعد زغلول لاقامتها بأموال الشعب مادام الانجليز يرفضون أن تقيمها الدولة بأموال الحكومة .

وكان سعد يروى لأسرته أن كل هذه الاجتماعات لم يجر فيها حديث صريح عن قيام ثورة . بل إن كلمة ثورة لم تذكر فيها قط . ولكنها كانت أشبه بمدارس سخط . سخط على الاحتلال . سخط على طغيان الخديو . سخط على ركوع الوزراء المصرين الضعفاء أمام الانجليز .

وكان سعد يغذى مدارس السخط هذه من وراء ستار بتشجيع الشيخ على يوسف على مهاجمة الانجليز فى « المؤيد » بتأييد مصطفى كامل فى حركته خارج الحدود . بتحريض أحمد لطفى السيد على الهجوم على تبعية مصر لتركيا . والمطالبة بأن تكون مصر للمصريين .

ثم انتقل سعد من مرحلة الهمس برأيه الى مرحلة الجهر به فى المنتديات والمجالس ، وهو مستشار فى محكمة الاستئناف ، حتى أن مصطفى كامل وصفه فى جريدة اللواء بقوله : « إن سعد زغلول معروف فى ماضيه وحاضره انه أشد الناس تمسكا باستقلاله وحقوقه . وأكثرهم انتقادا على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم . كان فى ماضيه الرجل المستقل الذى لايخدعه منصب ولامال »

وكان سعد يقول لأسرته بعد قيام ثورة ١٩١٩ أن أول حديث جدى جرى عن وجوب قيام ثورة فى مصر . جرى فى مكان لايخطر على بال أحد . فقد وقع على بعد ثلاثة أمتار من مكان يجلس فيه ممثل الاحتلال البريطانى فى مصر . وفى بيت رجل كان يؤمن بالتفاهم الدائم بين مصر وبريطانيا ، وكان يعتبر الحديث عن الثورة فى مصر هو حديث مجانين !

وكان مصطفى فهمي باشا والد صفية زغلول زوجة سعد هو رئيس الوزراء فى ذلك الحين ، وكان الانجليز يثقون به حتى انهم أبقوه رئيسا لوزراء مصر ثلاث عشرة سنة بغير انقطاع . وكان يسكن فى بيت فى حى باب اللوق بالقاهرة ـ هو مدرسة الفرير الآن .

وكان سعد زغلول يجلس مع صهره مصطفى فهمي والصاغ عبدالرحمن فهمي الذى كان ياورا لمصطفى فهمي باشا عندما كان وزيرا للحربية .

وأقبل لورد كرومر المعتمد البريطانى بغير موعد سابق وترك سعد زغلول وعبدالرحمن فهمي غرفة رئيس الوزراء ليجتمع بالمعتمد البريطانى على انفراد . وجلسا فى غرفة مجاورة فى انتظار نهاية الاجتماع .

وقال سعد لعبد الرحمن فهمي : إن الانجليز يتدخلون فى كل شأن من شئون الدولة والخديو يتدخل فى كل شأن من شئون الدولة كأن هذا البلد بلا صاحب ، وهم يفعلون هذا مطمئنين إلى أن الشعب نائم فى سبات عميق ..

قال عبد الرحمن فهمي هامسا : لابد من قيام ثورة .. ثورة ضد الانجليز والخديو معا !

ودهش سعد أن يسمع كلمة « ثورة » من فم ضابط رشحه اللورد كتشنر القائد البريطانى للجيش المصرى ليكون ياورا لوزير الحربية المصرى . ومعنى هذا الاختيار أنه محل ثقة الانجليز واطمئنانهم . قال سعد : ثورة ؟ .. من يقوم بها ؟

فقال عبدالرحمن فهمي : ثورة يقوم بها الجيش المصرى ويتولى الحكم !

ولم يكن سعد يؤمن بالحكم العسكرى ، فقد عاش الحكم فى أثناء الثورة العرابية وشهد هزيمته ، ولمس الأخطاء التى ارتكبها ، وانتقد مهازل ذلك الحكم وجهله وغروره . واتصل بحكم عمله فى الثورة ببعض الضباط فهاله أن فيهم حماسة الثيران وعقول الفراخ . وصيحة الأسود . وصفات الفيران . وأن الأبطال منهم هم الذين ماتو أو سجنوا أو نفوا .. وأن أعلاهم صوتا كان أسرعهم قرارا من المعركة . وكان من رأيه أن الحكم العسكرى أشبه بالسيرك ! له ضجيج السيرك وزيناته ، فيه طبوله وزموره . مواكبه واستعراضاته . له قدرة على اجتذاب المصفقين فى الزفة والهاتفين فى الحفلة والراقصين فى الضوضاء . مع فارق واحد : أن فى السيرك يتحكم أدميون فى بعض الحيوانات .

وفى الحكم العسكرى يتحكم بعض الحيوانات فى كل الناس !

ويومها قال سعد لعبد الرحمن فهمي : ان ثورة الجيش هى استبدال طاغية واحد كبير بعدد من الطغاة الصغار . وأن الثورة الحقيقية لايقوم بها

جيش وإنما يقوم بها الشعب . كل مانريده هو الا يقف جيش مصر ضد ثورة مصر ! الثورة التى نريدها ثورة فلاحين !

واعترف عبد الرحمن فهمى بأن الانجليز أخرجوا أغلب الضباط الوطنيين من الجيش المصرى . وأنه لايثق الا بثلاثة من الضباط الشبان فى الجيش كله ، ولكنه مؤمن بوطنية الجنود .

وهنا انتهت المقابلة بين لورد كرومر ورئيس الوزراء . وخرج مصطفى فهمى باشا يودع المعتمد البريطانى إلى باب الحديقة الخارجى ..

وقال سعد هامسا فى أذن عبدالرحمن فهمى :

للحديث بقية !

واستمر الحديث بينهما حوالى العشرين سنة ..

وكل الحديث يدور حول اجابة سؤال واحد هو : كيف نجعل الفلاح المصرى يثور ، ويشق قلب ظالميه !

لا . . . ليس الفلاح وحده . . . وإنما مصر كلها !

○ ○ ○



●● صورة نادرة تجمع بين زعيم الأمة وأم المصريين ..

● الفصل الثامن ●

كان عبدالرحمن فهمي يتردد على بيت سعد باستمرار . كان الصديقان القديمان بلا عمل . كان سعد أكبر من عبدالرحمن فهمي بعشر سنوات . لم تكن السن وحدها هي الفارق بينهما . كانت في عبدالرحمن خشونة العسكري القديم . وكان في سعد حزم القاضي القديم وعبدالرحمن يطالب بوضعها في قفص .

كان سعد يحب المناقشة ويهوى المجادلة . يجد لذة في مقارعة الحجة بالحجة . كلاعب السيف العبقري يلاعب خصمه حتى يسقط السيف من يد منافسه . ثم ينحني ويلتقط سيف خصمه ويسلمه له . ويعود إلى مبارزته مرة أخرى .. إلى أن يسقط السيف من جديد . وينتشي وهو يكرر عملية إسقاط السيف من يد خصمه وإعادته إليه إلى أن ينكسر سيف الخصم ويتحطم . أما عبدالرحمن فقد كان يحب إصدار الأوامر ويهوى النظام . ويمقت المناقشة فإذا أمسك السيف بيده قطع به رقبة خصمه .. وهذا الاختلاف في شخصية الرجلين كان كفيلا بأن يباعد بينهما إلى الأبد . لولا أن ما يجمعهما معا كان أضعاف ما يفرقهما . فقد كان كل منهما ثائرا .

وكان سعد زغلول في تلك الأيام قد أخرجه الخديو والانجليز من الوزارة . مغضوبا عليه من قصر الدوبارة حيث السلطة الفعلية التي هي سلطة الانجليز . ومغضوبا عليه من قصر عابدين حيث السلطة الشرعية وهي سلطة الخديو عباس . وقد اختلف سعد مع الانجليز لأنه كان مصرا على أن يكون وزيرا بمعنى الكلمة ، وألا يسمح للموظفين الانجليز بأن يحولوه الى طرطور يحركونه كما يشاءون كما يفعلون مع باقي الوزراء المصريين . واختلف سعد مع الخديو لأنه اتهم أحد رجاله المقربين بسرقة أموال تركة كبيرة كان مؤتمنا عليها .. وكان الخديو شريكا للباشا المتهم ! وهكذا خسر سعد بلح الشام وعنب اليمن معا !

وكان عبد الرحمن فهمي في نفس وضع سعد زغلول تماما . فقد أخرجه الانجليز من منصب مدير الجيزة لأنه إصطدم بهم . ورفض أن يركبوه كما يركبون باقي زملائه من المديرين المصريين في تلك الأيام . وطرده الخديو بعد ذلك من منصب وكيل الأوقاف لأنه اعترض على مسروقات الخديو منها !

وقد كتب عبد الرحمن فهمي في مذكراته التي طبعها سنة ١٩٣٧ :

« كنت سائرا فى جميع أعمالى بالوظائف التى تقلدتها سيرا ماكنت الاحظ فيه الا إرضاء ضميرى ، وكرامة المركز . بمعنى اننى كنت اتصرف فى جميع المسائل . كبرت أو صغرت . بما يوحى الى الضمير . مع مراعاة القوانين الجارى العمل بها ، وما كنت أسترشد برأى مخلوق كائنا من كان ، وهذا للأسف الشديد كان يخالف الطريقة التى كان يتبعها زملائى المديرون فى تصريف أعمالهم . حيث كانوا يستأنسون بآراء المفتشين الانجليز فى كل الأعمال المهمة . وكثير من غير المهمة » !

ولو كان سعد زغلول كتب أسباب خلافة مع الانجليز لما كتب أكثر من هذا ، ولو كان كتب أسباب خلافه مع الخديو لما ذكر إلا ما ذكره عبدالرحمن فهمى عند خلافه مع الخديو اللص الذى يسرق لنفسه أموال الشعب .

وهكذا فى سنة ١٩١٣ شعر الرجلان بانه لهما عدوا مشتركا هو القصر والاحتلال . وأن كل السلطات صاحبة الأمر فى مصر ضدهما .. ولم تبق الا مصر نفسها .. مصر التى ليس لها أى سلطة . ولا أى نفوذ ، ولا أى شأن فى حماية أبنائها .

ولكى تصبح مصر سلطة يجب أن تتخلص من الاحتلالين معا . احتلال الانجليز ، واحتلال القصر ..

وكان عبد الرحمن فهمى يعرف أن سعد زغلول هو الذى رشحه مديرا للجيزة فى اجتماع مجلس الوزراء سنة ١٩٠٨ ، وكان يعرف أيضا أنه طرد من منصب وكيل الأوقاف بعد طرد سعد من الوزارة بعام فى سنة ١٩١٣ .

فى ذلك العام أصبح سعد عاطلا وعمره ٥٣ سنة ! وأصبح عبدالرحمن فهمى عاطلا وعمره ٤٣ سنة !

وعندما رشح سعد زغلول نفسه نائبا فى الجمعية التشريعية عن دائرتى السيدة زينب وبولاق كان عبدالرحمن فهمى أحد معاونيه فى الانتخابات . والغريب أن سعد وطد صلته بناخبيه فى الدائرتين . وهما نصف مدينة القاهرة وقتئذ . ولم تقطع صلته بناخبيه حتى بعد وقف جلسات الجمعية التشريعية . فعندما قامت ثورة ١٩١٩ بدأت أول مظاهرة شعبية فى الثورة فى حى السيدة زينب . دائرة سعد الانتخابية . وسقط أول شهيد فى دائرة السيدة زينب .

وكان ناخبو سعد زغلول فى دائرة بولاق هم أكبر قوة عمالية هاجمت الانجليز وقتلت عشرات منهم . وكان الشيخ أحمد جاد الله العامل فى العنابر وأحد ناخبى سعد زغلول ، هو زعيم العنابر التى اشترك عمالها فى معارك دامية مع الانجليز ، وكان الشيخ أحمد جاد الله نفسه هو رئيس خلية من أهم

خلايا الجهاز السرى التى لعبت الدور الأول فى اغتيال الضباط والجنود الانجليز ، وعندما قبض عليه بعد مصرع السردار عذبه الانجليز تعذيبا وحشيا ، وكان فى السبعين من عمره ، ولكنه لم يفتح فمه ، ولم يعترف بأنه كان على صلة وثيقة بسعد زغلول من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩٢٤ !

* * *

وكثيرا ما كان سعد يدعو عبدالرحمن فهمى لتناول الغداء معه فى بيته مع أفراد أسرته . وكان الطفلان يلاحظان دائما شيئا غريبا . وهو أن عبدالرحمن لم يجىء مرة واحدة الى بيت سعد مع زوجته ، وكان متزوجا للمرة الثانية . وكان الطفلان يلاحظان أن عبدالرحمن عندما يحضر للغداء كانا يتخليان له عن المقعد الأول فى المائدة على يسار سعد . ويتأخر مكانهما الى المقعدين التاليين ، وكانت صفية تجلس فى المقعد المقابل له عن يمين سعد . وكان عبدالرحمن عندما يجلس يضع عينيه دائما فى الطبق الذى أمامه ، ولايرفعها فى وجه صفية ، ولافى وجه والدتهما . وكان لايوجه الحديث الا لسعد باعتبار أن صفية ورتيبة غير موجودتين على الاطلاق !

وكان غريبا فى تلك الأيام أن يدعى رجل من غير أفراد الأسرة للجلوس على مائدة واحدة مع سيدات الأسرة ، ولكن الفلاح الأزهرى القديم سعد زغلول كان لايجد غضاضة فى أن يجلس أصدقاؤه المقربون مع أسرته لتناول الغداء والعشاء .

وكانت هذه ظاهرة غريبة فى بيت سعد زغلول ! إن معاصريه ماكانوا ليسمحوا لزوجاتهم برؤية أصدقائهم ، ولا يذكر أحد من أصدقاء عدلى يكن باشا أنه رأى وجه زوجته . ولايذكر أقرب صديق لحسين رشدى باشا أنه تناول معه الغداء فى حضور زوجته .. بل الأغرب من هذا كله أن قاسم أمين زعيم تحرير المرأة . كان يتردد باستمرار على بيت سعد زغلول ويتناول الغداء معه ومع صفية ، ولكن زوجة قاسم أمين لم تحضر هذا الغداء الدورى مرة واحدة !

ويذكر الطفلان بعد وفاة قاسم أمين بعشر سنوات أن زوجته كانت تأتى بين وقت وآخر لزيارة صفية زغلول ، فلا تكشف وجهها أمامهما ، بل انها إذا تناولت الغداء مع صفية ، كانت تعد لها مائدة فى غرفة أخرى ، وتناول سعد الطعام وحده ، ذلك أن قاسم أمين الرجل الذى دعا المرأة المصرية الى نزع الحجاب فشل فى إقناع زوجته بأن تنزع حجابها ، وظلت متمسكة بوضع الحجاب على وجهها الى مابعد أن نزعت أغلب المصريات حجابهن !

وكان أكثر ما يؤلم قاسم أمين .. أنه لم يفلح فى إقناع زوجته التى تقيم معه فى بيت واحد بالرسالة التى آمن بها !

ولم يكن موقف زوجة قاسم أمين شاذا في ذلك الوقت عند المجتمع الذى عاشت فيه . فإن قاسم أمين كان يروى أنه حضر ذات يوم اجتماعا في بيت سعد زغلول كان يحضره الامام الشيخ محمد عبده .

وفجأة دخل أحد رجال الدين يلطم خديه ويشق عباءته حزنا على ما يجرى للاسلام ! وطلب رجل الدين من الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية في ذلك الحين أن يفتى بأن يحل دم ابراهيم الهلباوى بك نقيب المحامين . بعد أن ثبت عليه الكفر والالحاد وحلت عليه لعنتا الأرض والسماء .

فقد أقسم شهود عدول أنهم رأوا ابراهيم الهلباوى يركب عربة حانطور بجوار زوجته في محطة مصر !

ذلك أن رجال الدين اعتبروا ركوب رجل مع زوجته في عربة حانطور فعلا فاضحا في الطريق العام ، والمفروض أن يركب ابراهيم الهلباوى بك في عربة حانطور ، وتركب زوجته في عربة « كوبيل » مسدلة الستائر ومغلقة النوافذ !

وروى قاسم أمين أيضا أن زوجة أحد الوزراء في ذلك الحين مرضت .. فدعا الزوج الوزير أحد الأطباء لفحصها . ودخل الطبيب الغرفة فوجد سريرا وبجواره أحد الأغوات .. ورأى السرير مغطى بعدد من الألحفة والبطاطين .

ولم يتبين الطبيب مكان زوجة الوزير الا بعد أن أشار الأغا إلى السرير !

وطلب الطبيب من السيدة أن تخرج يدها من تحت الأغطية ليقيس نبضها ، ولكن الأغا رفض أن تخرج الست هانم ذراعها ، وقدم الأغا للطبيب ذراعه هو !

وأراد الطبيب أن يرى لسان السيدة زوجة الوزير .

وأخرج الأغا الطبيب من الغرفة .. ثم دعاه بعد لحظة فإذا بالطبيب يرى جزءا من اللسان ، من خلال الأغطية والبطاطين !

وفي الوقت الذى يروى فيه قاسم أمين هذه الصورة الكئيبة عن زوجات أصدقاء سعد ، كان سعد يسمح لصفية بحضور الغداء مع الشيخ محمد عبده وقاسم أمين وعبدالرحمن فهمى وغيرهم من أصدقائه الحميمين ، وكان يصحبها في رحلاته السنوية الى أوروبا .

ولكن عبدالرحمن فهمى كان يوافق على أن تكشف صفية وحدها وجهها ، ويرفض أن يوافق على أن تخلع باقى المصريات الحجاب !

وعندما قبض الانجليز على سعد زغلول يوم ٨ مارس سنة ١٩١٩ قامت الثورة في اليوم التالى .

ولكنها كانت في أسبوعها الأول ثورة رجال فقط . واجتمعت في بيت سعد زغلول صفية زغلول وهدى شعرواى وحرم محمد محمود باشا .

وقالت هدى هانم إنها كتبت برقيات احتجاج باسم سيدات مصر الى زوجة المندوب السامى البريطانى ، وأن زوجها على شعراوى رئيس الوفد بالنيابة اخذ البرقيات وعرضها فى اجتماع الوفد ثم عاد إليها متهلل الوجه وقال لها : لقد أعجب أعضاء الوفد ببرقيتك حتى أنهم قرروا حفظها فى محضر جلسة الوفد !

قالت صفية : إن كتابة الاحتجاجات والبرقيات لاتكفى . يجب أن تخرج المرأة المصرية الى الشارع ! تخرج جميع النساء الى الشوارع متظاهرات . هاتفات بسقوط الاحتلال ..

قالت زوجة محمد محمود متحمسة : إننى لم أضع قدمى فى الشارع منذ كنت طفلة . ولكنى موافقة على الخروج الى الشارع .. حتى لو ضربنا الانجليز بالرصاص !

قالت هدى شعراوى . يضربوننا بالرصاص ! لو قتلوا امرأة واحدة فسوف تلتهب مصر كلها .

قالت صفية هذا ما نريده تماما !

واتصلت هدى شعراوى بزوجها على شعراوى باشا تعرض عليه الفكرة فذهل ! كيف تخرج السيدات المحترمات الى الشوارع !

وكان على شعراوى باشا رجلا وقورا فى السبعين من عمره . يطلق لحيته ، ومن أهالى المنيا المحافظين المتمسكين بالتقاليد . ولكنه كان أكبر بأربعين سنة من زوجته . وكان يحبها حبا يقرب من العبادة ، فلم يستطع أن يقاوم تصميمها على المظاهرة ، وخاصة بعد أن أخبرته بأن هذا رأى صفية زغلول وحرم محمد محمود باشا ، فوعد بأن يعرض فكرة مظاهرة السيدات على أعضاء الوفد فى الاجتماع ويبلغها بالنتيجة .

وعقد الوفد اجتماعا وما كاد يعرض على شعراوى باشا الفكرة حتى هاج وماج كل الأعضاء ورفضوا خروج النساء فى مظاهرة ، وكان من رأى الأغلبية أن هذا الفعل وقاحة وقلة حياء ، وكان من رأى الأقلية أنها من تقديرها للوطنية التى أملت هذه الفكرة الجريئة ، الا أن الأغلبية العظمى للشعب تستنكر خروج النساء الى الشوارع ، وأن هذا سوف يقسم الرأى العام فى مسألة فرعية ، بينما هو مجمع لأول مرة على مسألة واحدة هى مسألة الاستقلال ، فخروج النساء قد يجعل الانجليز يتهمون الثورة بانها تدعو الى الخروج على الدين الاسلامى ، وبذلك تنفض أغلبية الشعب عن الثورة ..

وكانت الأغلبية التى تعتبر خروج المرأة الى الشارع وقاحة ، وقلة حياء مؤلفة من على باشا شعراوى نفسه ، وعبدالعزيز بك فهمى ، ومحمد على

علوبة وجورج بك خياط وحسين باشا واصف وعبدالخالق باشا مدكور ومحمود أبوالنصر بك وعبداللطيف المكباتى بك .

وكانت الأقلية التى رفضت رفضا دبلوماسيا خشية انقسام الأمة ، مؤلفة من أحمد لطفى السيد بك ومصطفى النحاس بك وسينوت حنا بك وعلى ماهر بك ودكتور حافظ عفيفى .

وقال عبد العزيز بك فهمى : اننى أعجب أن سيدة عاقلة مثل صفية هانم تقترح خروج النساء الى الشوارع ..

وضاق على باشا شعراوى يقول عبدالعزيز فهمى عن صفية زغلول من أنها العاقلة الوحيدة ، فمعنى ذلك أن زوجته هو مجنونة ! وقال إنه حاول أن يقنع زوجته بالعدول عن المظاهرة وأبلغته أن صفية هانم هى صاحبة الفكرة .

وقال عبدالعزيز فهمى أنه سيتصل بصفية هانم ويبلغها قرار الوفد بالاجماع بمنع مظاهرة النساء !

واتصل عبد العزيز فهمى تليفونيا بصفية زغلول وأبلغها بأسلوب رقيق قرار الوفد

- نحن نخشى أن تتبهدل السيدات !

فقالت صفية : أى بهدلة أكبر من بهدلة الانجليز لمصر باحتلالها وقتل شبابها ونفى زعمائها !

قال عبدالعزيز فهمى : لو كان سعد باشا موجودا لرفض أن تخرج السيدات الفضليات الى الشوارع .

قالت صفية : أبدا ! إن من رأى سعد أن ثورة لا تشترك فيها المرأة المصرية لايمكن أن تنجح ..

فقال عبدالعزيز فهمى : إنه لم يقل لنا ذلك .

قالت صفية : ولكنه قال لى !

قال عبدالعزيز فهمى : أخشى أن تفشل المظاهرة ، ان بعض أصدقائى قرروا أنهم سيطلقون زوجاتهم إذا خرجن فى مثل هذه المظاهرة !

قالت صفية : لن يجرؤ رجل أن يطلق زوجته لأنها تدافع عن شرف بلادها ! ..

وشرف مصر هو شرف كل رجل فيها !

قال عبد العزيز فهمى : إنهم يخشون على مراكزهم فى البلد من ألسنة الناس .

قالت صفية : إن الرجل الذى يخشى من الألسنة .. سوف يخشى أكثر مدافع الانجليز . ومثل هؤلاء الرجال لا يحسب لهم حساب فى قيادة البلد !

وأنهى عبد العزيز فهمي الحديث وهو يحاول جاهدا أن يمسك أعصابه ويقول :

ـ تأكدى أنني أحترم المرأة وأقدرها ..

قالت له صفية :

ـ لو كنت تحترم المرأة لما حاولت أن تحرمها من شرف الدفاع عن بلادها !

وأسرع عبد العزيز فهمي بك إلى زملائه وقال لهم أنه يخشى أن تكون صفية هانم قد جنت . وأن صدمة نفى زوجها . أثرت على عقلها !

وسمع عبد الرحمن فهمي بما حدث فتطوع بأن يتولى إقناع صفية هانم نظرا للعلاقة الوثيقة بينه وبينها .. ولكن صفية انقضت عليه كما انقضت على عبدالعزيز فهمي . وقالت إن نساء مصر لسن أعضاء فى الوفد . ولا توجد امرأة تمثلهن فى الوفد . ولهذا ليس من حق الوفد أن يصدر الأوامر إليهن !

وتحمست السيدات المصريات لتحدى قرار الوفد .. واجتمعت مئات السيدات فى بيت الأمة ، وتولت هدى شعراوى الاتصال تليفونيا بعدد من صديقاتها ، وراحت السيدة استر فهمي ويصا وهدية بركات وعطية أبو اصبع وفكرية حسن واحسان القوصى يتصلن بمعارفهن وصديقاتهن وقريباتهن للاشتراك فى مظاهرة حدد لها يوم ١٦ مارس .. بعد سبعة أيام من قيام الثورة .

واتفقت السيدات على أن يجتمع عدد منهن فى بيت الأمة ، وعدد ثان فى منزل أحمد بك أبو اصبع فى ميدان الاسماعيلية (ميدان التحرير الآن) ثم يتجمع الفريقان فى لحظة واحدة بحديقة جاردن سيتى ومن هناك تتحرك المظاهرة الكبرى ..

ولم ينم عبد الرحمن فهمي الليل ! إنه لم يستطع أن يفهم لماذا تريد أن تزج المرأة بنفسها فى السياسة ! لماذا تريد أن تفسد بتصرفها وقار الثورة ؟ وكان أكثر ما يزعجه موقف زوجة صديقه وزعيمه سعد زغلول . انها هى التى تنادى بأن تخرج المرأة المصرية الى الشارع . وفى الوقت نفسه عندما استقبلته ليناقشها فى هذا القرار لم تقابله وجها لوجه . بل إنها وقفت تحدثه من خلف الباب ! إنه لم يرها بل سمع صوتها فقط من وراء الحاجز ! أى أنها حرصت على ألا تظهر وجهها له فى غياب زوجها ، بينما كان يتناول معها الغذاء والعشاء وهى سافرة فى حضور سعد ، فإذا كان هذا هو مبلغ حرص صفية على التقاليد فما الذى جعلها تخرج عليها وتصر على خروج النساء الى الشارع متظاهرات ! وماذا يحدث لوأن الأزهريين اعتدوا على النساء المتظاهرات ! وماذا يحدث لو أن بعض الشبان تعرض لهن وألقى عليهن كلمات

« البصبصة » المبتذلة التى يقولها أولاد البلد لكل امرأة يرونها فى الطريق العام ! وأى مصيبة سوف تحدث لوتعرضت زوجات قادة الثورة « للبهدلة » والسخرية والزراية والاستخفاف ؟ !

واتصل عبد الرحمن فهمى بالشيخ مصطفى القاياتى الاستاذ بالأزهر ومندوب الجهاز السرى للثورة فى الأزهر ، والذى اختير رئيسا للبوليس الوطنى ، وطلب إليه أن يرسل عددا من رجاله لحراسة المظاهرة ، وضرب أى شخص يحاول أن يغازل إحدى المتظاهرات !

وكلف الأستاذ توفيق صليب أن يتابع المظاهرة ويبلغه مايحدث أولا بأول .. وتحركت المظاهرة . وحملت النساء أعلاما سوداء احتجاجا على الاحتلال ونفى سعد . وفجأة انضم الى المظاهرة عدد من بنات البلد . وعلا صوت النساء لأول مرة فى تاريخ مصر يهتفن للثورة ولسعد وللاستقلال وسقوط الحماية البريطانية . وألهبت المظاهرة الجماهير فتجمعت حولها الألوف المؤلفة . وتصدى للمظاهرة طابور بريطانى مسلح . وحمل الجنود الانجليز مدافعهم الرشاشة ووجهوا فوهاتها الى صدور النساء ..

وأرادت هدى شعراوى أن تقتحم الحصار ، واتجهت الى جندى إنجليزى يجلس القرفصاء ويصوب فوهة بندقيته الى صدرها . وصاحت فى الجندى :

ـ اقتلنى ! .. ليكون لمصر اليوم « مس كافل » بين المصريات .

وكانت مس كافل بطلة إنجليزية قتلها الألمان فى الحرب العالمية الأولى ..

واهتزت البندقية فى يد الجندى البريطانى ، ثم تهاوت يده بالبندقية المصوبة .

وصرخت هدى شعراوى فى النساء وهى تخترق الحصار :

ـ اتبعنى !

وإذا بحرم الدكتور حبيب خياط تحتضنها وهى تصيح :

ـ لا .. لا .. ياحبيبتى .. هذا جنون ! لو قتلوك فسوف تريقين دماء ألوف من هؤلاء الشبان ..

وعندئذ تراجعت هدى شعراوى ولم تقتحم الحصار ..

واستمر وقوف النساء ثلاث ساعات فى الشمس ، والجموع تتجمع حولهن . حتى تكونت مظاهرة ضخمة ، واضطر الانجليز الى فك الحصار ، واتجهت المظاهرة الى بيت سعد زغلول ..

وأسرع توفيق صليب الى بيت عبد الرحمن فهمى فى شارع القصر العينى يبلغه كل ما حدث وذهل عبدالرحمن فهمى وقال :

ـ وماذا كان يفعل الرجال وهم يرون النساء فى الشارع .

فقال توفيق صليب :

- كانوا ينظرون الى النساء . وكأنهن يؤدين الصلاة !

وكتب الشاعر حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة التي يقول فيها : خرج الغواني يحتججن . ورحت أرقب جمعهنه . فإذا بهن تخذن من سود الثياب شعارهنه . فطلعن مثل هنه كواكب . يستطعن في وسط الدجنة . وأخذن بجتزن الطريق وبيت سعد قصيدته . يمشين في كنف الوقار ، وقد أبن شعورهنه . واذا بجيش مقبل . والخيل مطلقة الأعنة . وإذا الجنود سيوفها قد صوبت لنحورهنه . والخيل والفرسان قد طربت نطاقا حولهنه .

وعندئذ فقط آمن عبدالرحمن فهمي بأن سعد وصفية كانا على حق في إصرارهما على اشتراك المرأة في الثورة .

في ذلك اليوم رأى الصغيران أمهما تخرج الى الشارع وقد ارتدت الحبرة السوداء والبرقع الأبيض . تحمل علما أسود في يدها . لم تستأذن أباهما ! لم تستأذن أحدا كما تفعل دائما .. كان اليوم بداية ثورة النساء !

ولم يكن هذا هو الخلاف الوحيد بين سعد وعبدالرحمن في أثناء الاعداد للثورة ، فقد اختلفا أيضا في أثناء اختيار الطبقات التي يتألف منها الوفد . فقد كان سعد يعد قائمة فيها أسماء عدد من الوطنيين مقسمين الى سبع طبقات . إذا نفيت طبقة أو أعدمت أو سجنت ، حلت محلها الطبقة التي تليها . وبذلك لاتخلو قيادة الثورة يوما واحدا .

وكان عبدالرحمن فهمي بحكم نشأته العسكرية يميل إلى أن يضم سعد الى هذه القائمة أسماء عدد من الضباط الوطنيين السابقين الذين عرفهم في أثناء خدمته في الجيش .

غير أن سعد لم يوافق على ضم ضباط الى القيادة ..

وبعد إلحاح قبل سعد زغلول أن يصبح في القائمة اسم ضابط واحد ، ووضعه في الطبقة الخامسة في الوفد ، أي الفريق الذي يتولى القيادة بعد إعدام أو نفي أو سجن الطبقات الأربع الأولى ..

وكان هذا الضباط هو الأميرالاي محمود حلمي إسماعيل ، وأثبت الأميرالاي في الثورة جرأته وشجاعته وإقدامه .

ولكن حدث أثناء نفي سعد إلى جبل طارق . ونفي الطبقة الأولى من الوفد إلى جزيرة سيشيل ، والحكم بإعدام الطبقة الثانية من الوفد ثم استبدال الاعدام بالسجن في معتقل الماظة ، ونفي الطبقة الثالثة من الوفد في راحة المحاريق وسجن الطبقة الرابعة من الوفد في قشلاق قصر النيل . حدث أن اجتمعت الطبقة الخامسة في الوفد في بيت الأمة تناقش اتخاذ قرار في احدى

مسائل الثورة .. واحتدمت المناقشة ، واذا بالأميرالاى محمود حلمى اسماعيل يضرب بعض أعضاء الوفد أثناء النقاش ! وعندئذ قرر الوفد فصل الأميرالاى محمود حلمى اسماعيل من عضويته ، وبقى عبدالرحمن فهمى بك هو الضابط السابق الوحيد بين أعضاء الوفد !

ولم يختلف سعد فى اختيار أسماء أعضاء الوفد مع عبدالرحمن فهمى وحده .. وإنما اختلف كذلك مع عدد من زملائه ..

وانتصر فى بعض الخلافات . وفشل فى البعض الآخر ..

وروى سعد لأسرته أنه يخطىء من يتصور أنه كان واثقا من قيام الثورة ، ففى أوقات كثيرة كان يشعر بيأس من اندلاع هذه الثورة ، وكان أحيانا يصاب بخيبة أمل غير منتظرة فى أشخاص اختارهم . كثيرا ما دون قوائم بأسماء الذين يمكن أن يعتمد عليهم ، ثم شطب بعض الأسماء . ثم شطب أكثر الأسماء على ضوء تصرفاتهم ، أو أحاديثهم معه .. وكثيرا مامزق القوائم كلها ، وأسودت الدنيا فى وجهه اعتقادا منه أنه لن يجد من يمكن الاعتماد عليه فى هذه المهمة الخطيرة ، ثم يعود بعد ذلك ويبدأ كتابة القوائم من جديد !

فقد اختلف مع لطفى السيد فى شأن دخول عبدالعزيز فهمى إلى الوفد ..

كان عبدالعزيز فهمى نقيب المحامين ، وعضو الجمعية التشريعية وخطيبا مفوها . وقانونيا ضليعا ، وصديقا لسعد زغلول .. ومع ذلك كان سعد لايثق به ، ولايطمئن اليه !

وكان لطفى السيد يلح عليه باستمرار فى ضم عبد العزيز فهمى ..

وكان سعد يرفض ..

وأخيرا اضطر سعد الى قبول عبد العزيز فهمى تحت إلحاح لطفى السيد ..

ثم جاءت مشكلة إسماعيل صدقى ..

كان فى ذلك اليوم مطرودا من الوزارة ، لأن البوليس ضبطه فى عوامة مع ابنة أحد زملائه الوزراء . وانتحرت السيدة المتزوجة فى اليوم التالى ، وكانت فضيحة .. واعتزل اسماعيل صدقى الحياة العامة .. وقع هذا الحادث قبل قيام الثورة بثلاث سنوات ..

وكان سعد يؤمن بعبقرية صدقى وكفايته . ولكنه كان لايستطيع أن يفرق بين الرجل وأخلاقه الشخصية ..

وألح أعضاء الوفد على سعد حتى جعلوه يقبل تعيين إسماعيل صدقى عضوا فى الوفد على مضض ..

ثم حدثت المشكلة الكبرى .. كان من رأى سعد أن يضم الوفد عددا من الأقباط وكانت أغلبية الوفد تعارض فى دخول قبطى واحد إلى القيادة !

وتألف الوفد المصرى الأول الذى اعطاه الشعب توكيلا عنه وليس فيه قبطى واحد !

وحاول سعد من جديد .. واقترح اسم واصف غالى ، وأرسل إليه برقية فى باريس يبلغه بهذا الاختيار فلم يرد عليه واصف غالى !

وقال له زملاؤه : ألم نقل لك إن الأقباط لايمكن أن يدخلوا فى حركة ضد الانجليز ..

ثم اكتشف سعد زغلول أن رقابة التلغرافات الانجليزية حجزت هذا التلغراف ولم ترسله إلى واصف غالى ..

واجتمع سعد بعدد من زعماء الأقباط وتم الاتفاق على اختيار جورج ويصا باشا وهو من كبار أثرياء الأقباط ..

ثم ظهر أن جورج ويصا باشا هو قنصل أمريكا فى الصعيد ولهذا عدل سعد عن اسمه !

واختار سينوت حنا بك عضو الجمعية التشريعية وجورج خياط بك من أعيان أسيوط .

والقائمة التى وضعها سعد بأسماء أعضاء طبقات الوفد السبع حوت أسماء أختفت من التاريخ بإرادتها .

فقد قبل هؤلاء عضوية الوفد قبل الثورة ، وعندما رأوا أعضاء الوفد ينفون إلى مالطة وعدن وسيشيل وجبل طارق ويحكم عليهم بالاعدام وتصادر ممتلكاتهم ، رفضوا قبول عضوية الوفد عندما جاء دورهم لتولى القيادة !

وكان فى مقدمة الأسماء التى وضعها سعد فى قائمة الوفد الأول اسما شقيقين لم يصبحا عضوين فى الوفد أبدا .. وهما أمين الرافعى وعبدالرحمن الرافعى .. وقد قبلا عضوية الوفد بشرط موافقة اللجنة الادارية للحزب الوطنى ، وقد كانا عضوين فيه ..

وإذا باللجنة الادارية ترفض الموافقة على انضمامهما الى الوفد ، فاضطرا للخضوع لهذا القرار ، ولكن هذا لم يمنع أمين الرافعى من قبول العمل مساعدا لعبد الرحمن فهمى سكرتير لجنة الوفد المركزية . ومن قبول عبدالرحمن الرافعى لمهمة أخطر ، وهى أن يكون عضوا فى المجلس الأعلى للاغتيالات فى الجهاز السرى للثورة !

ووضع سعد فى القائمة الأولى اسم ميشيل لطف الله بك عضو الجمعية التشريعية ليمثل السوريين فى الوفد .

وقبل ميشيل بك .. ووضع اسمه فى توكيل الوفد الذى يوقعه الشعب وطبع من التوكيل مئات الألوف من النسخ فى سرية تامة ، فى ظل الأحكام العرفية البريطانية . وكان جهدا شاقا مرهقا محفوفا بالمخاطر .

وبعد أن انتهى طبع مئات الآلات من هذا التوكيل ، فوجىء سعد بميشيل لطف الله يطلب حذف اسمه منه لأنه مرشح ملكا على سوريا !

واضطر الوفد الى إحراق مئات ألوف النسخ .. وإعادة طبع مئات الألوف من التوكيلات الجديدة وليس فيها اسم ميشيل بك لطف الله !

ولم يكن فى القائمة التى كتبها سعد زغلول قبل الثورة بأسماء طبقات الوفد اسم مكرم عبيد مثلا ، الذى أصبح فيما بعد سكرتيرا للوفد ، وكان فى حساة سعد من أقرب الأعضاء إليه ، والسبب فى ذلك أن سعدا لم يكن يعرف وقتئذ مكرم عبيد .. فقد كان مكرم سكرتيرا للمستشار القضائى البريطانى فى وزارة العدل ، ولم يخطر ببال سعد وقتئذ أن سكرتير المستشار البريطانى سينضم الى الثورة ويرفس منصبه ويصبح من أعضاء الوفد المتطرفين .

وقد أمضى سعد عدة سنوات قبل تأليف الوفد يحاول إقناع أصدقائه بضم الأقباط الى عضوية الوفد . وكان أعيان الصعيد المسلمون من أعضاء الوفد . أكثر المعارضين لهذا الضم ، فقد كانوا متأثرين بالخلافات المحلية بينهم وبين أغنياء الأقباط فى مديرياتهم ، وكان على شعراوى باشا مثلا يقول انه لايسمح لقبطى أن يجلس معه ، فكيف يسمح لقبطى بأن يصبح زميلا له فى عضوية الوفد ؟ !

وكان بعض الأعضاء متأثرين بالجو العام الذى نشأ عن الخلاف العنيف الذى وقع بين الأقباط والمسلمين بعد اغتيال ابراهيم الوردانى لبطرس غالى باشا رئيس الوزراء وعقد الأقباط مؤتمرا لهم طلبوا فيه حمايتهم من تعصب المسلمين . وعقد المسلمون مؤتمرا خطب فيه الشيخ عبدالعزيز جاويش ودعا إلى ذبح جميع الأقباط والتخلص منهم !

وكان بعض أعضاء الوفد يتوهم أنه لو دخل قبطى فى عضوية الوفد فسوف ينقل أسراره الى الانجليز ، باعتبار أن الانجليز هم الذين يتولون حماية الأقليات وفى مقدمتهم الأقباط . وكانوا يستولون على ذلك بأن قيادة الثورة العرابية لم يكن فيها قبطى واحد . وقيادة حركة مصطفى كامل لم يكن فيها قبطى واحد كذلك ! ..

وبذل سعد جهدا متواصلا فى إقناع زملائه بأنه من مصلحة الثورة أن تضم عنصرى الأمة ، وأنها بذلك تقطع الطريق على الانجليز بأنهم يحتلون مصر لحماية الاقليات ، وأنه يعرف أقباطا لايقلون وطنية ولا اخلاصا لمصر عن أكثر المسلمين المصريين حماسا لمصر وإيمانا بها .. وأن التفريق بين الأقباط والمسلمين ليس من صنع المصريين . وإنما هو الوسيلة التى لجأ اليها المستعمرون لتمزيق الروابط بين المصريين واضعافهم لاحتلالهم ولتمكين هذا الاحتلال ..

وفشل سعد فى أول الأمر وتألف الوفد الأول من سبعة أعضاء هم سعد زغلول وعلى شعراوى وعبدالعزيز فهمى ومحمد محمود وأحمد لطفى السيد وعبداللطيف المكباتى ومحمد على علوبة .. وكلهم مسلمون وليس فيهم قبطى واحد !

ولم يستسلم سعد لهذه الهزيمة ، واستمر فى محاولات اقناع زملائه .

وكان أول من كسبهم سعد الى رأيه أحمد لطفى السيد ، ثم عبدالرحمن فهمى . ثم باقى أعضاء الوفد واحدا واحدا .. واقتضى الأمر أن يمكث ساعات طويلة مع كل من اختارهم من الأعضاء ، يناقشه ويحاوره ويقنعه .. حتى تمت الموافقة على هذا الاقتراح .

ولكن ماكاد سعد يقترح اسم واصف غالى حتى ثار الأعضاء ! إنه ابن بطرس غالى باشا رئيس الوزراء الذى قتله الوردانى لأنه فرط فى السودان ..

وقال سعد . ليس الابن مسئولا عن أعمال أبيه .. إننى أعرفه وهو شاب وطنى يحب بلاده ومتعلم ومثقف . وما دام الأقباط يعتبرون بطرس غالى زعيمهم . فإن اختيار ابن هذا الرجل الذى اتهموا المسلمين بقتله ، هو ترضية للأقباط جميعا ، وهو دليل على أن المصريين غير متعصبين ضد الأقباط عموما ، ولكنهم يقفون ضد الذين يخرجون عليهم ، سواء كانوا أقباطا أو مسلمين .. وقد يدهشكم أن تعلموا اننى أنا شخصيا تآمرت على بطرس غالى .

لقد كنت وزيرا فى وزارته وطالما ضقت به واتفقت مع محمد سعيد باشا زميلى فى الوزارة على أن نتآمر على رئيسنا ، وأن نقنع الخديو للتخلص منه .. وأن نذهب معا الى الخديو ونبلغه بقائمة الاتهامات ضد بطرس غالى رئيس الوزراء .. وإذا فى اليوم المحدد لتنفيذ هذه المؤامرة اغتال ابراهيم الوردانى بطرس غالى باشا ، وفعل المسدس ما أردت أنا وزميلى أن نفعله بلساننا ! . ولكن ليس معنى خلافى مع رجل واحد قبطى أن اختلف مع كل الأقباط ، وألا أقدر كفاءة ابنه الشاب ووطنيته .

ونزل أعضاء الوفد على رأى سعد ، ووافقوا على ضم واصف غالى الذى كان موجودا فى باريس فى تلك الأيام .

ومن سخرية القدر أن أعضاء الوفد من الأقباط ظلوا صامدين الى جوار سعد أكثر من كثير من أعضاء الوفد من المسلمين ..

فعندما اختلف سعد مع أغلبية الوفد فى باريس فى شأن قبول مشروع ملنر الذى كان حماية مقنعة .. كانت الأغلبية التى تمثل المعتدلين مؤلفة من ثمانية : سبعة منهم من المسلمين هم محمد محمود وعلى ماهر وحافظ عفيفى

وعبداللطيف المكباتي وعبدالعزيز فهمي ومحمد على علوبة ولطفى السيد وقبطي واحد هو ويصا واصف وكان الأقلية التى وقفت الى جانب رأى سعد المتطرف مكونه من عضوين أثنين كلاهما من الأقباط وهما واصف غالى وسينوت حنا !

وعندما نفى الانجليز سعد زغلول فى سنة ١٩٢١ الى سيشيل كان البيان الذى أصدره الوفد احتجاجا على نفيه بتوقيع خمسة أعضاء فقط .. فيهم مسلم واحد هو مصطفى النحاس وأربعة من الأقباط هم واصف غالى وسينوت حنا وويصا واصف ومكرم عبيد !

وأعضاء الوفد الذين نفاهم الانجليز الى سيشيل كانوا ستة ، أربعة منهم من المسلمين هم سعد زغلول وفتح الله بركات ومصطفى النحاس وعاطف بركات واثنان من الأقباط هما سينوت حنا ومكرم عبيد !

وأعضاء الوفد الذين حكم عليهم بالاعدام كانوا سبعة ، ثلاثة من المسلمين هم : حمد الباسل ومراد الشريعى وعلوى الجزار ، وأربعة من الأقباط هم : مرقص حنا وواصف غالى وجورج خياط وويصا واصف !

وأعضاء الوفد الذين نفاهم الانجليز الى الصحراء فى معسكر المحاريق كانوا سبعة ، أربعة من المسلمين : المصرى السعدى بك والسيد حسين القصبى ومحمد نجيب الغرابلى والشيخ مصطفى القاياتى وثلاثة من الأقباط هم : فخرى عبدالنور بك وسلامة ميخائيل بك والاستاذ راغب اسكندر .

وهكذا كان سعد على حق فى اصراره على أن يشترك الأقباط فى قيادة الثورة ، فقد حملوا أكثر من نسبتهم العددية فى أخطارها ، وهذا يفسر أنه عندما ألف سعد زغلول وزارته الأولى سنة ١٩٢٤ اختار وزيرين من الاقباط .. وعندما عرض قائمة الوزراء على الملك فؤاد تأمل القائمة وقال :

ـ يوجد خطأ فى أسماء الوزراء .. إن التقاليد أن يكون عدد الوزراء عشرة بينهم وزير قبطى واحد ! .. ان النسبة هى واحد من الأقباط لكل تسعة من المسلمين !

فقال له سعد :

ـ هذه ليست وزارة تقاليد .. انها وزارة ثورة .. عندما كان الانجليز يطلقون علينا النار فى الثورة لم يراعوا النسبة بين الأقباط والمسلمين .. وعندما نفانا الانجليز الى سيشيل نفوا أربعة من المسلمين واثنين من الاقباط ولم يراعوا النسبة .. فكيف نراعى اليوم هذه النسبة فى اختيار الوزراء ؟

واضطر الملك فؤاد أن يوقع مرسوم الوزارة بتعيين اثنين من الأقباط وثمانية من المسلمين .. وقع المرسوم على مضض .. وما كاد سعد يخرج

من الوزارة حتى عادت النسبة كما كانت من قديم : قبطي واحد في مقابل تسعة من المسلمين !

وكان انضمام الأقباط الى الثورة مفاجاة مذهلة للانجليز .. كانوا يتوقعون أن يقف الأقباط ضد الثورة ويطلبون حماية الانجليز .

وعندما فوجيء المندوب السامي البريطاني في القاهرة بدخول اثنين من الأقباط في عضوية الوفد أرسل البرقية رقم ١٩٥٣٤٧ بتاريخ ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٨ يقول فيها : وأما بالنسبة للقبطيين (جورج خياط بك وسينوت حنا بك اللذين عينا عضوين في الوفد) فإن خياط لا وزن له . وسينوت حنا لا مال له ، وإن كان كلاهما من أسرتين كبيرتين من أسر الصعيد المصري » !

وكان الطفلان التوأمان يريان اتصالات سعد وصفية بالأقباط . لم يشعرا يوما في البيت بروح التعصب . لم يسمعا قط كلمة قبطي ومسلم ، كان سعد زغلول قد حذر من استعمال هذه الكلمة في البيت ، كانت في البيت خادمتان : إحداهما مسلمة واسمها فاطمة والأخرى مسيحية اسمها ماري . وكانت صفية تهتم بأن تؤدي فاطمة فروض الصلاة ، وتهتم في الوقت نفسه بأن تذهب ماري الى الكنيسة يوم الأحد ، فإذا تلكأت ماري في الذهاب تعجلتها صفية وطلبت إليها أن تترك ما في يدها من عمل ! وكان من أعز صديقات صفية سيدة قبطية هي حرم سينوت حنا ، وسيدة قبطية أخرى هي أستر فهمي ويصا زوجة فهمي بك ويصا وأخت الاستاذ لويس فانوس . وشهد الطفلان الصغيران صفية وهي مكبة على صنع علم جديد !

فقد كانت صفية زغلول هي اول من فكر في تصميم علم للثورة مؤلف من الهلال والصليب ، وقد صنعت هذا العلم بيدها في بيتها ، واشتركت في صنعه معها عدد من السيدات بينهن زوجتا سينوت حنا ومرقص حنا .. وكان العلم مصنوعا من الحرير ، ولم يلبث أن أصبح بعد ذلك العلم الوحيد الذي ترفعه كل المظاهرات في الثورة .

وكانت صفية مهتمة اهتماما عجيبا بوحدة الصليب والهلال .. وكانت تقول أن وصية سعد الوحيدة اليها يوم نفيه هي وجوب المحافظة على وحدة المسلمين والأقباط !

وذات يوم علمت صفية بخبر ازعجها ، ففي الوقت الذي اضرب فيه جميع الوزراء المصريين ، عين الانجليز وزيرا قبطيا هو يوسف وهبة باشا رئيسا للوزارة .

وكانت السيدات المصريات قد طفن بجميع الوزراء المصريين ، وأرغمنهم على القسم بالقرآن على الا يؤلف واحد منهم الوزارة .. ولكنهن لم يذهبن

الى بيت يوسف وهبة باشا لأنهن لم يتصورن أن يؤلف قبطى الوزارة !
وجنت صفية وقالت إن الانجليز قصدوا بهذه العملية أن يقسموا الأمة ويفرقوا بين الأقباط والمسلمين ، وبذلك قضوا على ما كسبه الشعب من ثورة سعد ..

وارسلت واستدعت عبدالرحمن فهمي بك سكرتير لجنة الوفد المركزية وقالت له :

ـ ان قبول قبطى تأليف الوزارة مصيبة !

فقال عبدالرحمن فهمي إنه فكر في ذلك وإنه سيقترح أن تنتخب لجنة الوفد المركزية مرقص حنا بك . وهو قبطى ، رئيسا للجنة بالنيابة .. وبذلك نرد على الانجليز بأن قبطيا يرأس وزارتنا وقبطيا يرأس حركتنا ..

قالت صفية : هذا لايكفى !

وفي اليوم التالى جاء عبدالرحمن فهمي اليها وقال لها ان طالبا في مدرسة الطب ألقى قنبلتين على يوسف وهبه باشا رئيس الوزراء .. وأن المهم أن هذا الطالب قبطى اسمه عريان يوسف سعد ..

قالت صفية : إننى أريد أن أقبل هذا الشاب !

قال عبدالرحمن فهمي : لقد قبضوا عليه .

قالت صفية منزعجة : لا تدعوهم يقتلوه .. حاولوا أن تخطفوه !

قال عبد الرحمن فهمي : اطمئنى .. سنحاول ذلك !

وبذلت محاولة لخطف عريان سعد ولكنها فشلت ..

وحكمت المحكمة العسكرية البريطانية بإعدام عريان سعد ، واضطرت تحت ضغط الرأى العام الى استبدال حكم الاعدام بالسجن المؤبد ..

وبقىَ عريان سعد في السجن خمس سنوات الى أن تولى سعد زغلول الوزارة واستصدر عفوا عنه ، وعينه سكرتيرا للجنة الداخلية في مجلس الشيوخ التى يرأسها يوسف وهبه باشا الذى حاول أن يغتاله أثناء الثورة .

وبلغ من حرص صفية على وحدة الأقباط والمسلمين أنه حدث عندما حكم الانجليز على أعضاء الوفد السبعة بالاعدام أن وقفوا جميعا وهتفوا : نموت وتحيا مصر .. وبعد أيام علمت صفية زغلول أن أحدهم وهو جورج خياط بك بدأ ينهار بسبب حالته الصحية ، وأن محاميه زاره في السجن ونصحه أن يكتب استرحاما للقائد العام البريطانى يطلب العفو ..

وذعرت صفية من هذا النبأ .. وقالت : ان الشعب يجد في صمود أبطاله سببا لاستمرار الثورة والنضال ، فإذا انهار واحد منهم . فسوف تنهار معنوية الشعب ..

واستدعت صفية الاستاذ محمد أمين يوسف والد التوأمين وطلبت إليه

ان يبحث عن طريقة تيسر لها زيارة أعضاء الوفد المحكوم عليهم بالاعدام سرا فى سجنهم فى معسكر الماظا ..

وقال أمين يوسف : إن هذا مستحيل . ان المعسكر كله محاط بالجيش البريطانى وهو معسكر بريطانى ، يتولى حراسته الانجليز .. ولو كانوا فى سجن مصرى لأمكن تدبير هذه المحاولة !

قالت صفية : افعل المستحيل !

وبحث أمين يوسف فعلم انه فى يوم الأربعاء يتولى قيادة المعسكر ضابط ايرلندى ..

فذهب إليه ، وقال : ان أم هؤلاء المسجونين تريد أن تراهم .

فقال الضابط الأيرلندى : ان هذا مستحيل وضد التعليمات .

فقال له أمين يوسف : لنفرض أنك وقعت أسيرا فى يد الألمان ، وحكموا عليك بالاعدام ، وجاءت أمك لزيارتك ، ورفض قائد المعسكر الألمانى أن يسمح لك بهذه الزيارة فماذا تقول ؟

قال الضابط الأيرلندى : أقول انه وحش .. وسوف أسمح لها بهذه الزيارة وأحب أن أقول لك انه لو علم رؤسائى بذلك فسوف أحال الى محكمة عسكرية لمحاكمتى ..

قال له أمين يوسف : خير لك أن تكون انسانا وتحال الى محكمة عسكرية !

قال الضابط : صدقت ! هاتها ..

وفى مساء الأربعاء تسللت صفية زغلول ومعها أمين يوسف ، ودخلا المعسكر البريطانى وقابلت أعضاء الوفد المحكوم عليهم بالاعدام .. وذهل أعضاء الوفد عندما رأوها أمامهم ..

وجلست معهم طويلا وقالت لهم : إن مصر تعتبركم جميعا أبطالا فلا تخذلوها فى إيمانها بكم ..

واستطاعت ان ترفع روح جورج خياط المعنوية ..

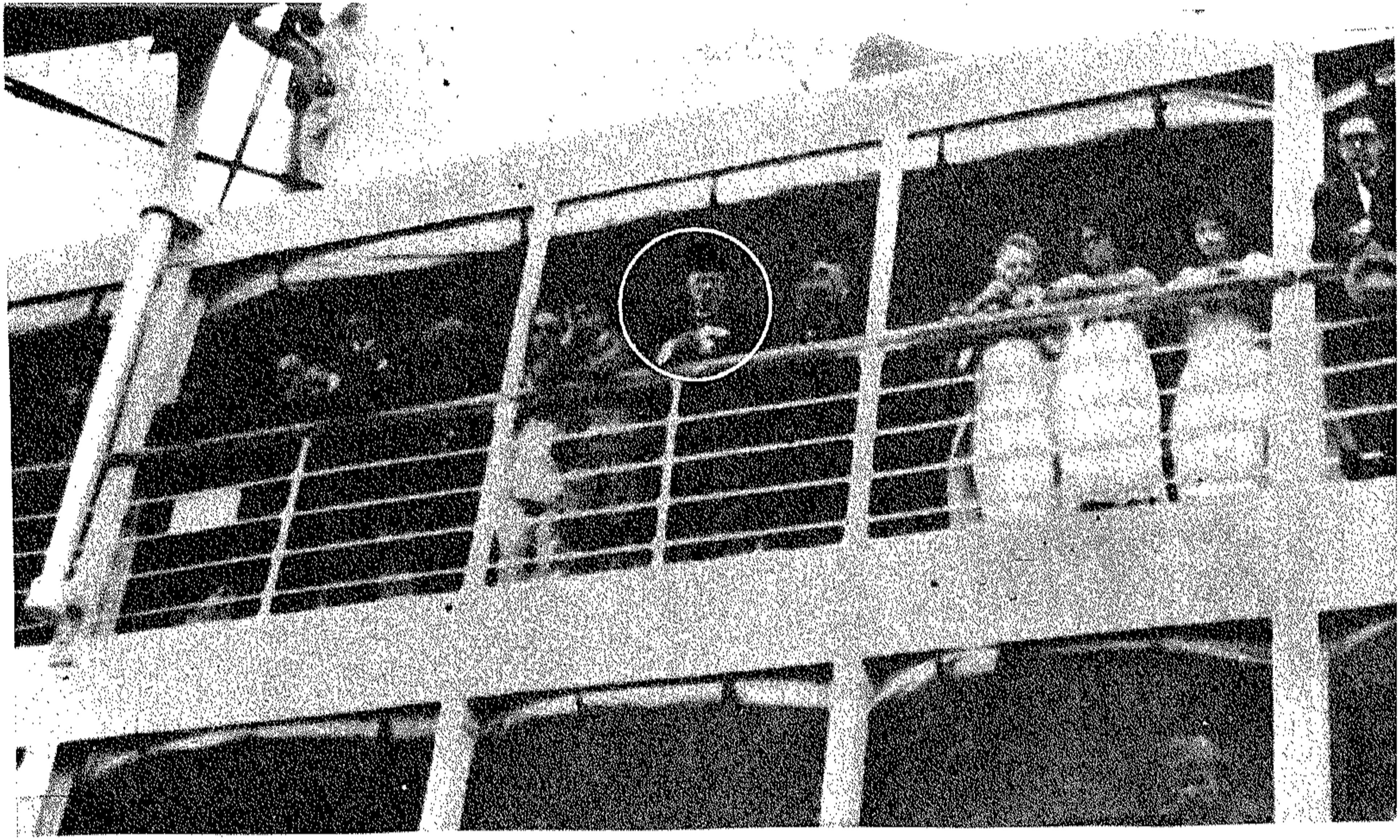
وفى صباح اليوم التالى جاء المحامى ليتسلم من جورج خياط الالتماس واذا به يفاجأ به يقول له :

ـ التماس ؟ .. إننى أفضل ان اشنق بيد انجليزى .. على أن أنتحر بيدى ! إننى أفضل أن أموت بطلا على أن أعيش جبانا !

وذهل المحامى الكبير ولم يعرف ماحدث .. لم يعرف أن صفية زغلول ملأت قلب جورج خياط بحقنة من الصمود والثبات والايمان ..

انه رأى امرأة تقتحم معسكرا بريطانيا .. تخترق الأسوار والمدافع والحراس لتقول له إن الشعب كله يقول انك بطل .

ooo



●● زعيم الأمة فى الباخرة .. فى طريقة إلى المنفى .

● الفصل التاسع ●

كان اليوم هو يوم التنفيض . اليوم المخصص فى كل أسبوع لتنظيف البيت . وهو يوم مقدس عند صفية . تقلب فيه أثاث البيت رأسا على عقب . الخدم يشمرون عن سواعدهم . يمسكون رأس العبد وينظفون الأسقف . يلمعون خشب الباركيه . يحملون السجاجيد والأبسطة وينفضونها فى حديقة البيت . يغسلون درجات السلالم الرخامية بالماء والصابون . إذا دخلت البيت فى ذلك اليوم حسبت أن أهله يستعدون للانتقال الى بيت آخر . صفية تروح وتجىء بين الخدم . ووراءها رتيبة . كل منهما تحمل فوطة فى يدها . تمسح التراب عن الزجاج وإطارات الصور المعلقة على الجدران . أو تزيل التراب عن أوانى الزهور . ولاتتردد إحداهما فى تناول المقشة من يد الخادمة لتتولى بنفسها عملية الكنس زيادة فى العناية والاهتمام . وكانت عملية التنظيف تتم كل يوم . وكانت أرض الغرف تبدو دائما كالصينى النظيف ، والأثاث يلمع دائما كأنه خرج من المصنع من بضع دقائق . ولكن يوما محددا كل أسبوع كان مخصصا « للتنفيض الكبير » . كأن البيت يغسل وجهه صباح كل يوم ، ولكن فى يوم التنفيض الكبير يقوم البيت بعملية كاملة للاستحمام !

وكان سعد يضيق بهذا اليوم المقدس الذى لاتقبل فيه صفية تبديلا ولا تغييرا ولا تأجيلا . فمطلوب من سعد فى هذا اليوم أن يترك غرفة نومه مبكرا لأن عملية التنظيف تبدأ من الدور العلوى حيث غرفة نومه . ومطلوب منه أن يتناول طعام الافطار بسرعة حتى لايلحقه التنظيف وتسحب منه مائدة الطعام وهو لايزال يتناول الافطار . ومطلوب منه الا يستقبل زوارا فى هذا اليوم حتى لاتتعطل عملية التنظيف وعليه أن يتناول غداءه فى نادى محمد على أو يبحث عن صديق يدعوه الى الغداء حتى لايضع الزوار عقبات فى عملية المسح والغسل والتنفيض والتلميع .

وكان سعد هو سيد البيت فى كل أيام الأسبوع إلا هذا اليوم ! هنا ينزل عن عرشه وتجلس صفية عليه تصدر اليه الأوامر والتعليمات . وفى هذا اليوم تدخل صفية غرفة سعد وتقف أمامه لا تتحرك ولاتتكلم . ويفهم سعد من هذه الحركة انها تدعوه الى الجلاء عن البيت بسرعة . وكان يسميها فى ذلك اليوم « مقلقة الراحات وهادمة اللذات » ! فقد اعتاد كل يوم أن يقوم من فراشه بتثاقل . ويحمل معه الصحف إلى دورة المياه . ويمكث فيها ساعة كاملة .

ثم يخرج الى الحمام يحلق ذقنه بيده ، ولم يكن يعرف إلى آخر أيامه ماكينة الحلاقة . وانما كان يستعمل الموسى الطويلة التى يستعملها الحلاقون ، ثم يرتدى ملابسه على مهل . وينزل إلى مائدة الافطار ويتناول افطاره الذى يستمر ساعة أو أكثر من ساعة . ولكن فى يوم التنفيض الكبير يسرع كل شيء . لا يبقى فى الحمام الا دقائق . لايبقى على مائدة الطعام الا دقائق . وبين دقيقة وأخرى تظهر صفية لتتعجله . وكان سعد يقول أن صفية مريضة بمرض اسمه « النظافة » وأن ابنة أخته رتيبة أصيبت بعدوى هذا المرض ، وقد كان منظرهما وهما تقومان بعملية التنفيض الكبير يثير الضحك ! فهما تقبلان على هذه العملية بشغف غريب وبتفان واخلاص كأنهما تخوضان حربا مقدسة . وعيونهما تلتقط ذرات التراب على الأبواب ، وتحت الكراسى ، وبين صفحات الكتب ، وخلف الصور المعلقة على الجدران ، وكانت صفية تضع منفضة من الحديد فى أدنى درجات السلم الخارجي ، ومنفضة من سعف النخل فى أعلى . الأولى ليمسح فيها الزائر قدميه من الطين . والثانية ليمسح فيها الزائر حذاءه من التراب . فإذا وجدت آثار اقدام على الرخام الابيض فى سلم السلاملك ، نادت عبدالكريم فراش السلاملك ليسارع إلى محو هذه الآثار حتى تبدو درجات السلم الرخامية ناصعة البياض تبرق وتلمع وتضيء ! فقد كانت ترى آثار الأحذية على الرخام كأنها وصمة عار فى جبين البيت الأبيض النظيف !

ولكن منذ أن بدأ سعد يستعد للثورة فقد يوم التنفيض الكبير قداسته بين أيام الأسبوع . لم يعد سعد يستطيع أن يطلب من زائريه ألا يدخلوا بيته فى اليوم المقدس . لم يعد يستطيع أن يتناول غداءه خارج البيت . وكان يضحك ويقول لصفية أن تنظيف البلد من الاحتلال أهم من تنظيف البيت من التراب !

واستسلمت صفية لارادة سعد . وتضاءل شأن يوم التنفيض الكبير . فاقتصر على تنظيف غرف البيت ، وأصبح السلاملك متمتعا بالاستقلال الذاتى . يتولى الفراش عبدالكريم مهمة تنظيفه . ولم تلبث صفية أن بدأت ترى فى آثار الأقدام على درجات سلم السلاملك وفى حديقة البيت ما يهيجها ويسعدها . لم تعد آثار طين الأقدام وصمة عار وإنما أصبحت أوسمة ونياشين . كلما كثرت آثار الأقدام دل هذا على ازدياد عدد أنصار سعد ، والمترددين على داره ، والمؤمنين بحركته ، ولن تمضى بضعة شهور حتى تتغير آثار الأقدام . فلاتقتصر على آثار أحذية . وإنما تجد بجانبها آثار شباشب وقباقيب واقدام حافيه وسوف تجلس سيدات بالملاية اللف على مقاعد الأوبسون الفاخرة . وسوف تلتصق جلاليب الفلاحين الزرقاء بالحرير الفرنسى الثمين الذى يغطى الوسادات التى تستعمل مساند للارائك . وسوف

تتحطم أوانى الورود والأزهار فى الحديقة لتستعمل قذائف تلقى على الجنود الانجليز ردا على طلقات بنادقهم . وسوف تفرش السجاجيد العجمية فى فناء الدار لتتوسدها جثث قتلى الثورة وجرحاها . وسوف يتحول الشارع الهادىء الى ميدان قتال . وسوف تجد صفية فى كل هذه المظاهر عملية تنفيض كبيرة . وسوف تقبل على هذه العملية بشغف غريب وتفان واخلاص كأنها تخوض حربا مقدسة . وسوف تجد فى الدم الذى يتساقط على درجات السلم الرخامى البيضاء علامات على الطريق الى الحرية . وسوف ترى حديقتها الجملية وأزهارها التى كانت تعنى بكل واحدة منها وهى تسقط تحت أقدام الجماهير المحتشدة التى جاءت تسمع خطب زوجها الثائر ، وكان هذا هو الفرق بين بيت الباشا .. و « بيت الأمة » .

ولكنها فى ذلك اليوم لم تر كل هذا .. انهت عملية التنفيض وذهبت مع رتيبة تزور شقيقتها الكبرى زكية حرم الدكتور محمود صدقى باشا .

وكانت الساعة الخامسة بعد الظهر يوم ٨ مارس سنة ١٩١٩ . الجو ربيع . الطفلان الصغيران على ومصطفى يلعبان فى حديقة الدار . سلاملك الدار أشبه بخلية نحل . الفراش عبدالكريم يحمل صينية عليها فناجين القهوة وأكواب الماء . لايكف عن الصعود الى السلاملك بالفناجين الممتلئة . والهبوط الى البدروم بالفناجين الفارغة . السلاملك الذى يشبه خلية النحل . فى كل غرفة فيه رؤوس منكسة تهمس أوتكتب أوتترجم . فى مكتب سعد زغلول الكبير بعض أعضاء الوفد . عبدالعزيز فهمى بقامته المنحنية قليلا . اسماعيل صدقى بابتسامته التى لاتفارق شفتيه . جورج خياط بشاربه الضخم . فجأة رأى الطفلان عدة سيارات عسكرية بريطانية تحيط بالدار . احداهما تتوقف على ناصية شارع الفلكى وشارع سعد زغلول . الثانية تقف أمام باب البيت الخلفى فى شارع ناظر الجيش « شارع ضريح سعد الآن » . الثالثة تقف على بعد مائة متر من بيت سعد إلى ناحية شارع القصر العينى . ثم رأى الطفلان الطالب على شاهين الجندى وهو يندفع الى داخل البيت مهرولا وهو يصيح : الانجليز جاءوا للقبض على سعد باشا ..

واستوقفه بعض الشبان الموجودين فى شرفة السلاملك ليسألوه عن التفاصيل .. فقال أنه كان أمام بيت محمد محمود فى شارع الفلكى ورأى الانجليز يقبضون عليه وأنهم قادمون الآن ليقبضوا على سعد زغلول . ولم يسأله أحد كيف استطاع بجسمه البدين أن يعدو حوالى الكيلومتر ، وأن يسبق السيارة البريطانية . ويبدو أن الذين سمعوه لم يصدقوه لأن أحدا لم يتحرك من مكانه .

ولكن على الصغير أسرع يفتح باب مكتب جده سعد زغلول ويدخل بدون استئذان ويتقدم نحو سعد ويقول هامسا : الانجليز جاءوا يقبضون عليك !

وابتسم سعد وقال له : طيب .. روح انت العب !

ثم مضى يكتب فى ورقة امامه .. وخرج الطفل وهو لا يعرف ماذا يقصد جده . هل شك فى الخبر ؟ هل اخطأ حين دخل المكتب دون أن يقرع الباب ! هل كان سعد يتوقع القبض عليه ؟ واعتقد الطفل « على » أن أمه ستضربه علقة عندما تعود فتعلم انه اخطأ فى البروتوكول ودخل غرفة مكتب جده بغير استئذان !!!

ولم يلبث الطفلان أن شهدا سيارة عسكرية رابعة تقف أمام باب البيت . ويقفز منها ضابطان بريطانيان يتبعهما جنديان بريطانيان يحمل كل منهما مدفعا رشاشا . وصعد الضابطان بسرعة درجات سلم السلاملك وهما يقبضان على مسدسيهما . وتقدم أحدهما الى السكرتير وقال له : جئت لمقابلة سعد زغلول باشا .. أين هو ؟

وأشار السكرتير الى غرفة الانتظار وطلب منه أن ينتظر فى الغرفة حتى يبلغ سعد زغلول ويستأذن له فى مقابلته .. ولكن الضابط البريطانى أزاح السكرتير جانبا وقال له : انني سأذهب إليه بنفسى ..

ثم صوب مسدسه الى السكرتير ، وطلب اليه أن يرفع يديه فى الهواء ..

وشعر سعد بالضجة التى حدثت خارج مكتبه ، فخرج الى باب المكتب . فاتجه اليه الضابط البريطانى . وادى التحية العسكرية وقال :

- أريد ان اتحدث الى معاليك على انفراد .

ودعاه سعد الى دخول غرفة المكتب . وجلس فى مقعده أمام مكتبه ، ودعا الضابط الى الجلوس فى مقعد مجاور ..

ولكن الضابط رفض أن يجلس وقال :

- لدى أمر من القائد العام للقوات البريطانية بالقبض عليك .

وابتسم سعد وقال :

- لقد جئت متأخرا ! انني انتظرك منذ وقت طويل !

ولم يفهم الضابط النكتة فقال :

- ان الأوامر التى عندى أن أقبض على معاليك فى الساعة الخامسة مساء .. ولأن الساعة الخامسة مساء !

قال سعد وهو يقف :

إذن هيا بنا !

وتقدم سعد الضابط البريطانى ، الذى كان ممسكا بمسدسه ، وخرج

سعد من الباب ، وتقدم مرفوع الرأس ، فى ثبات ووقار وجلال ، وكانت عيون الواقفين حوله تسأل فى لهفة ماذا حدث .. لكنه لم يقل شيئا .. بل التفت الى الواقفين حوله فراى فى وجوههم هلعا وخوفا ولهفة .. فقال لهم : تشجعوا ! وكررها عدة مرات !

ثم توقف عند أعلى درجات سلم السلاملك وقال للضباط البريطانى :

- سأرسل فى إحضار عربتى !

فلم يفهم الضابط ماذا يقصد سعد وقال له :

- لدى أمر بالقبض على معاليك ..

وابتسم سعد وقال :

- أنا أعرف هذا .. ولكنى أريد عربتى لاستقلها معك . لأننى لا أستطيع أن أمشى على قدمى !

قال الضابط البريطانى :

- لدى سيارة عسكرية لتركبها ..

ثم التفت الضابط الى الواقفين وقال :

- أين أسماعيل صدقى باشا ؟

وتقدم صدقى باشا وهو يبتسم وقال : أنا

قال الضابط وهو يضع يده على كتفه : وانت أيضا مقبوض عليك !

ومشى صدقى وراء سعد .. وهنا تقدم عبدالعزيز فهمى من وراء الصفوف واتجه الى الضابط وقال له فى صوت عصبى :

- إذا أردتم واحدا منا ، فيكفى أن تكتبوا إليه ، وهو يحضر اليكم !

ثم إلتفت الضابط الى الواقفين وقال :

- أين منزل أحمد باشا الباسل ؟

فأشاروا الى البيت المواجه للسلاملك فى نفس الشارع .

ونزل سعد درجات سلم السلاملك يتوكأ على عصاه . وكان ينظر أمامه . لا يلتفت يمينا أو يسارا . كأنه أراد أن يتفادى نظرات الجزع فى عيون أصحابه . أو كأنه لم يعد ينظر الا الى الأمام . لم يعد ينظر الى الخلف . كل من حوله يتصور أنه ذاهب الى المجهول . ولكنه هو وعددا قليلا منهم كانوا يعرفون هذا المجهول ! وفى عينيه بريق عجيب . ليس بريق الغضب ، فقد كان يبدو راضيا . ليس بريق القلق فقد كان يظهر مطمئنا . الواقفون حوله يتساءلون فى صمت : الى أين يذهبون به ؟ الى السجن ؟ الى المنفى . الى المشنقة ! ولكنه بدا كأنه يعرف الطريق جيدا . كأنه مشى فيه قبل ذلك عدة مرات . كأنه ذاهب الى نزهة . أو الى موعد غرام .. نعم موعد غرام مع المجد .. مع التاريخ !

وكان الضابط البريطاني يمشى وراءه خائفا متوجسا متعثرا ، ينظر حوله في قلق وريبة .

ولم يلبث سينوت حنا بك وهو يرى صورة سعد وصورة الضابط الذى يقبض عليه أن قال :

- يبدو كأن سعد باشا هو الذى قبض على الضابط البريطاني !

ولم يضحك أحد على هذه النكتة في هذا الموقف الرهيب . انها لم تكن نكته أو قفشة أو مفارقة ! كانت الحقيقة . أن أكبر خطأ وقع فيه الاحتلال البريطاني . أنه قبض على سعد زغلول ! إنه وقع في الشرك الذى نصبه له سعد زغلول . ولولا ذلك لتأخرت ثورة ١٩١٩ ولولا ذلك لما حدث الانفجار الهائل .

وكان سعد على حق عندما قال للضابط البريطاني انه جاء متأخرا ، وانه انتظره منذ وقت طويل ! فقد كانت خطة الثورة السرية أن ساعة الصفر لانفجارها هي ساعة القبض على سعد زغلول .

وأرسلت قيادة الثورة تعليمات سرية شفوية بتحديد هذه اللحظة ، الى كل تنظيمات الثورة السرية في الأقاليم من الأسكندرية الى أسوان .

وهذا سر الخطأ الذى وقع فيه كثير من المؤرخين عندما قالوا أنه عندما قبض الانجليز على سعد انفجرت الثورة على الفور من الاسكندرية الى أسوان . فهم يؤرخون بعقلية الحاضر لا بحقيقة الماضي . هم يتصورون أن خبر القبض على سعد زغلول أذيع في الاذاعة فانفجرت الثورة على اثر إذاعة النبأ في كل أنحاء البلاد . ناسين أن الراديو لم يخترع الا بعد انفجار الثورة بسنوات عديدة .. أو أنهم تصوروا أن الصحف نشرت الخبر . وما كاد يطلع القراء على الصحف حتى ثاروا .. ناسين أن الصحف كلها منعت من نشر الخبر ! وكانت طرق المواصلات في تلك الأيام بدائية ، حتى أن نبأ القبض على سعد زغلول وصل الى بعض بلاد الصعيد بعد القبض عليه بعدة أيام !

وقد أسفرت التحقيقات التى أذاعها الرسميون الانجليز بعد الثورة بخمسين سنة . عن أنه قد ثبت لهم أن الثورة كانت منظمة تنظيما دقيقا .

ولكن الانجليز لم يعرفوا في ذلك الوقت أن سعد زغلول كان يتعجل القبض عليه لتحل ساعة الصفر !

وعندما ذهب سعد في يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ الى المندوب السامي البريطاني يطالب بالاستقلال التام ، توقع أن يقبض الانجليز عليه في اليوم التالي هو وزميليه على شعراوى باشا وعبدالعزيز فهمي بك ، اللذين صحباه في هذه الزيارة .

وفعلا طلب سعد من صفية فى ذلك اليوم أن تعد حقيبته التى سيأخذها معه الى السجن ، وأوصاها أن تضع فيها مصحفا وبيجامة وطاقية وموسى للحلاقة وكثيرا من الجوز « عين الجمل » الذى كان يأكله بدلا من الخبز .

وأعدت صفية الحقيبة ..

وجلس سعد فى داره ينتظر قدوم الانجليز فلم يحضروا !

وأدهشه أنهم لم يحضروا فى الموعد الذى حدده !

ولم يكن يعرف يومئذ أن سير وينجت المندوب السامى البريطانى لم يبرق بنبأ هذه المقابلة التاريخية الخطيرة فى يوم وقوعها ! بل انه انتظر خمسة أيام حتى يرسل بالنبأ الى وزير الخارجية البريطانية يبلغه هذه المقابلة الخطيرة !

ولكن وزير الخارجية البريطانية إهتم بهذه البرقية ، وأمر بارسالها على الفور الى الملك جورج ملك انجلترا وامبراطور الهند ، والى لويد جورج رئيس الوزراء . والى جميع أعضاء وزارة الحرب البريطانية !

وكان المندوب السامى البريطانى قد ذكر فى برقيته أن المصريين الثلاثة هم من ذوى الآراء المتقدمة . وأنهم طالبوا بالاستقلال الذاتى التام لمصر . ولا يبقى لبريطانيا العظمى الا حق الاشراف على مسالة الدين العام والتسهيلات الخاصة بالسفن البريطانية فى قناة السويس .

ووضعت وزارة الخارجية البريطانية مذكرة علقت فيها على تقرير المندوب السامى البريطانى ، وقالت فيها انه ليس بين الوطنيين المصريين الثلاثة من يستطيع أن يزعم أنه ممثل الشعب المصرى . فسعد زغلول وعبدالعزيز فهمى محاميان ، وسجلهما معروف ، وربما كانا يمثلان طبقة معينة من المثقفين ، ولكن سعد زغلول قد حط من شأنه كثيرا . أما عبدالعزيز فهمى فخطيب قدير قوى الحجة ، وله بعض الأتباع فى الجمعية التشريعية : « وقد أدهشنى أن أرى على باشا شعراوى متصلا مع هذين الرجلين . فهو من أصحاب الأراضى الواسعة فى مديرية المنيا ، وهو رجل ثرى . وهو نموذج طيب لطبقة الباشوات المحافظة والرجعية . وله مقعد فى الجمعية التشريعية كعضو عن مديرية المنيا . ولكنه عارض كل اقتراح للاصلاح ، كضريبة الدخل أو رسوم التركات ، أو القيود الخاصة بزواج الأحداث . وهو متعصب . ولا يتكلم الا العربية ، وغير محبوب لدى الفلاحين » .

وأبدى وزير الخارجية البريطانية أسفه لأن المندوب السامى البريطانى لم ينبذ هؤلاء الوطنيين بطريقة أشد حزما من الطريقة التى استخدمها .

وهكذا كذبت الحكومة البريطانية حسن ظن سعد بغباوتها ، فلم تأمر بالقبض عليه كما توقع ، وانما اكتفت بتوبيخ مندوبها السامى لأنه لم يكن

حازما فى حديثه معه ، وانه لم ينبذه بالقدر الكافى من الاحتقار .. وكل مافعلته الحكومة البريطانية أن قالت ان سعد زغلول رجل لاقيمة له ، وأن مطالبه بالاستقلال التام غير معقولة ولايمكن قبولها .

وابلغ المندوب السامى البريطانى رسالة وزير الخارجية الى حسين رشدى باشا رئيس الوزراء . وقال له ان لندن تقول أن سعد زغلول وزميليه يتحدثون بالنيابة عن مصر ، دون أن تكون لهم اية صفة تخول لهم هذا الحق .

وابلغ حسين رشدى باشا ما حدث لسعد زغلول ، وأن المندوب السامى يقول عنهم انهم جماعة من المتطفلين ، يدعون صفة ليست لهم ، وأن أحدا فى مصر لم يكلفهم بطلب الاستقلال لأن المصريين سعداء تحت الحماية ولايريدون الاستقلال !

ورأى سعد زغلول أن يرد على انكار بريطانيا لصفته وصفه الوفد .. بأن يطبع توكيلات يوقع عليها المصريون ويفوضونه وزملاءه اعضاء الوفد فى السعى للحصول على استقلال مصر التام .

وفكرة « التوكيل » أملتها على سعد سابقة اشتغاله بالمحاماة . أن يكتب صاحب القضية توكيلا للمحامى ليتولى قضيته ؟ . إذن فإن واجب الشعب أن يكتب له ولزملائه توكيلا ليتولى قضية استقلال مصر .

ولكن بعض الباشوات من أعضاء الوفد اعترض على كلمة « الاستقلال التام » وقال انه طلب غير معقول ! تكفى كلمة الاستقلال فقط !

وبعض أعضاء الوفد طلبوا أن يضاف الى التوكيل أن يكون السعى للاستقلال « بالطرق المشروعة » لأنهم خشوا أن تفسر الصيغة الأولى بأنها قيادة ثورة .

وبعض أعضاء الحزب الوطنى اعترضوا على صيغة التوكيل واقتصار الطلب على استقلال مصر ، وطالبوا بإضافة السودان والملحقات .

ويومها كان سعد يحاول أن يركب ثلاثة خيول فى وقت واحد !

حصان الحكومة ، وهو يتألف من حسين رشدى باشا وعدلى يكن باشا ، وكان يعتقد انه فى حاجة الى تأييد الحكومة أو على الأقل الى « تحييدها » لتستطيع الحركة الوليدة أن تتغلغل فى الريف . دون أن تبادرها الحكومة بالبطش والتنكيل ..

وكان حسين رشدى وعدلى يكن يوهمانه بأنهما يؤيدانه فى المطالبة بالاستقلال ، وفى السفر الى لندن ليطالب . باسم مصر . بالاستقلال ..

واذا بالوثائق الرسمية البريطانية التى اعلنت بعد قيام الثورة بخمسين عاما تثبت انهما كانا يؤيدان بقاء الحماية البريطانية ، وانهما كانا يلحان

فى سفر سعد زغلول حتى يسمع من لندن كلمة الرفض ولا يحرج الحكومة بمطالبه !

وكان سعد لايثق كثيرا فى حسين رشدى ، وعدلى يكن ، ولكنه كان يحس أنه فى حاجة الى ركوب هذا الحصان ليعبر به مرحلة الاعداد للثورة .

كان الحصان الثانى الذى يريد أن يركبه هو فريق الباشوات والأعيان .

لقد كان يشعر بأن الحركة فى حاجة الى واجهة مؤلفة من أشخاص لهم صفة نيابية ، لتستطيع أن تدعى انها تمثل مصر كلها ، والباشوات والأعيان الذين اختارهم لعضوية الوفد كانوا أعضاء فى الجمعية التشريعية . وهى آخر هيئة برلمانية انتخبها الشعب ، وعلى الرغم من تضيق اختصاصاتها فقد كانت لها صفتها الديمقراطية التى لايمكن للانجليز انكارها . صحيح أن الانجليز أوقفوا نشاطها عندما استطاع سعد أن يكسب للجمعية التشريعية حقوقا لم يعطوها لها .. كما استطاع أن يجعل الشعب يهتم بها ، ويتتبع مناقشاتها ، ويتولى قيادة المعارضة فيها ، وبذلك أصبح الشعب ينظر الى الهيئة كما ينظر الى مجلس نواب حقيقى يزلزل المقاعد من تحت الوزراء الجالسين عليها .

وهكذا وقفت الجمعية ضد الخديو وضد الانجليز وضد الحكومة التى يؤديها الانجليز وحرص على أن يكون أعضاء الجمعية التشريعية الذين اختارهم من الأعضاء المنتخبين الذين اختارهم الشعب ، لامن الأعضاء المعينين الذين عينهم الخديو أو اختارهم الانجليز .

وفضل فى عملية الاختيار الأعضاء الذين وقفوا بجواره فى معاركه الذين انتخبوه وكيلا للجمعية التشريعية واسقطوا أحمد مدحت يكن باشا مرشح القصر والانجليز ، الذين أيدوه عندما طالب بأن يسبق الوكيل الذى انتخبه الشعب الوكيل الذى عينه الخديو . لأن الأمة فوق الحكومة . الذين كانوا ينسحبون معه من جلسات الجمعية كلما اصطدمت المعارضة بالحكومة ، وأرادت الحكومة أن تحتج بقانون انشاء الجمعية التشريعية عند مناقشة بعض الموضوعات الحساسة !

كانت الجمعية التشريعية مؤلفة من ٦٦ عضوا ينتخبهم الشعب و ١٧ عضوا يعينهم الخديو . واستطاع سعد فى أول الأمر ان يحصل على أغلبية الأصوات ، ويهزم الحكومة فى معاركه الأولى ، ولكن كلما اشتدت معاركه مع الخديو والانجليز والحكومة ، اشتد ضغط السلطة على الأعضاء وتضاعف ارهابها ، فإذا بعدد من الذين خاضوا معاركه الأول ينفضون من حوله فى معاركه الأخيرة . حتى لم يبق معه فى النهاية سوى ٢٧ عضوا .. وكان هو الثامن والعشرين .

وعندما طالب بزيادة سلطة الشعب . تخاذلت أغلبية ممثلى الشعب .. وصرخ فيهم سعد من فوق المنبر : اننى فى هذا الموقف أدافع عن شرفى وشرفكم ، وإذا قبلتم نظريتى كانت أصلح لى ولكم وللصالح العام !

ولكن الأغلبية تخاذلت ! انها لاتريد أن تدخل فى معركة مع الخديو والانجليز والحكومة فى وقت واحد . انها لاتريد أن يثير سعد زغلول موضوعا شاءت ان تتجاهله وهو أن سلطة الشعب سلبها الخديو والانجليز . انها تريد أن تسد الباب الذى يجىء منه الريح وتستريح !

ويزأر صوت سعد زغلول وهو يقول لممثلى الأمة :

- نحن نبكى وندافع ما دام حقنا يعتدى عليه ، يجب علينا أن ندافع عنه مهما كان الآخذ له . ولو سكتنا عن الدفاع عن حقنا لكنا مجرمين !

ولكن اغلبية الأعضاء فضلت أن تكون مجرمة فى حق الشعب . على أن تكون مجرمة فى حق القصر وحق الانجليز ..

ويصيح الوزراء بأن القانون لا يعطى الجمعية الا حقوقا محددة .

ويقول سعد ساخرا :

- هذا القانون يعطى الأمة حقا . لا لأن تستعمله ، بل لأن يكون زينة ! أنا لا أرضى بأن يبلغ الاستخفاف بالأمة الى هذا الحد .

ولكن اغلبية الأعضاء رضيت أن تستخف الحكومة بالأمة . ونصرت الحكومة على سعد ، وانسحب سعد وأنصاره من الجلسة ..

وفى جلسة اخرى وقف سعد يتحدث عن سلطة الخديو ، وأنه ليس من حقه أن ينشىء وزارة الأوقاف بدون استشارة الجمعية ممثلة فى الشعب .

وصاحت الحكومة : أن الخديو هو صاحب السلطة .

وضرب سعد المنبر بقبضة يده وقال :

- ان الجمعية التشريعية ، ممثلة الشعب - ورغم ضعفها - هى شريكته فى التشريع .

إن الخديو لايملك صفته كحاكم الا باشتراك القوى التشريعية معه !

وهاج الوزراء فى مقاعدهم وصرخوا فى سعد .

- ان اختصاص الجمعية التشريعية منحة من الخديو .

قال سعد :

- أنا أرفض هذا .. أنا جئت الى هنا بإرادة الأمة وحدها !

فصاح رئيس الوزراء غاضبا :

- إن تكوين الوزراء فى أوروبا هو حق يملكه رئيس الدولة وحده .

قال سعد :

ـ عجبا لك ! تستدلون بنظام ليس عندنا منه الا شيء قليل ! اعطونا النظام بأكمله ، واستدلوا كما شئتم ! هناك لو أن الرئيس أصدر أمرا مخالفا لنظامهم لأسقطوه من عرشه .

وهاج الوزراء وماجوا ، وتلمظ الأعضاء من أنصار الحكومة بشفاههم بصوت مسموع استنكارا :

كيف يجرؤ سعد ويطالب للجمعية بأن يكون لها حق عزل الخديو !

وقالت الحكومة : ان الخديو صاحب السلطة على الأوقاف بالذات .

قال سعد : أن الخديو يستمد سلطته من القاضى الذى عينه ناظرا على الأوقاف .

قالت الحكومة : ان الخديو يملك عزل القاضى ، فلا يتصور أن يستمد منه سلطة .

قال سعد : يمكنكم أن تعزلوا القاضى بالقوة .. أما نحن الآن فإننا نتكلم بالقانون .

وأحدثت هذه المناقشة دويا عنيفا فى الرأى العام . ثار الخديو على وقاحة سعد زغلول . هاج لورد كتشنر المندوب السامى البريطانى على تحدى سعد للخديو الذى كان قد عقد سياسة وفاق مع الانجليز . وعلى تحدى الحكومة التى عينها الانجليز . وأصيب الوزراء بهستيريا من أن الرأى العام كله وقف يؤيد سعد زغلول ..

وأسرع بعض الأعضاء يتبرأون من حديثه ويتهمونه بالاضرار بالبلاد وبالشعب ويتحدى الجناب العالى الخديو أمير البلاد وولى النعم ..

وأجاب سعد : ان المطالبة بالعدل واحترام الحقوق لا يضر بالدولة ، واننى تكلمت عن الخديو بحرية ، وأنا وحدى المسئول عن كلامى !

ولم يتحمل لا الخديو ولاالانجليز ، ولا الحكومة هذه المواقف ، ولم تعش الجمعية التشريعية الا ثلاثة أشهر فقط . ولكن كانت هذه المدة كافية لتجعل من سعد الزعيم الشعبى ولتنشىء له قاعدة واسعة فى الرأى العام . حتى أن المنشورات السرية ملأت جدران بناء الجمعية التشريعية تاييدا لسعد ضد الخديو وضد الانجليز وضد الوزارة . وكانت هذه الأشهر الثلاثة . قبل كل هذا كافية لغربلة أعضاء الجمعية . ليعرف سعد من يستطيع الصمود والوقوف الى جانبه فى معركته الكبرى ..

ومن هنا كان مجال الاختيار أمام سعد ضيقا وهو يقارن بين أعضاء الجمعية التشريقية ليختار من بينهم أعضاء للوفد .

وتحرى سعد فى اختياره لأعضاء الوفد أن يكونوا من ذوى الثراء ،

كانت الثورة فى حاجة الى واجهة ومال ..

وكان من رأيه أن الثورة محتاجة الى مال ، والى مال كثير ، بعد أن أدرك أنه كان السبب فى فشل جمعية الانتقام التى ألفها عقب الثورة العرابية لأنها لم تكن تملك مالا تطبع به منشورات . ولم تكن تملك مالا تشترى به الأسلحة ، ولم تكن تملك مالا توسع به نشاطها ، وتدفع نفقات سفر أعضائها للأقاليم لانشاء فروع فيها .

كما كان يعرف ان المال كان سببا فى تقييد حركة مصطفى كامل ، فحاجته الى مال الخديو عباس هى التى قيدت حركته . وهى التى قصرت خطوطه ، وهى التى جعلته يسكت على كثير من جرائم الخديو ..

وكانت حاجة مصطفى كامل الى المال هى التى جعلت جريدة المقطم لسان حال الاحتلال البريطانى تسميه « شحاذ بردنجوت » .

فهو لايريد أن يكرر المأساة التى حدثت له ولحزب جمال الدين ولجمعية الانتقام بعد هزيمة الثورة العرابية .

ولا يريد أن يكرر مأساة مصطفى كامل عندما كان يغضب عليه الخديو فيقبض يده . ويرضى عنه فيبسط يده . ويحاول أن يأخذ بالقليل الذى يدفعه الكثير من مصطفى كامل وحركته .

كان سعد يعتقد أن الثورة فى حاجة الى مال لانفاقه فى الدعاية للقضية المصرية فى الخارج . ولدفع مصاريف الوفود التى سيوفدها الى عواصم العالم تشرح قضية الشعب المصرى وحقه فى الاستقلال .

مال لشراء أسلحة . إن الجيش البريطانى جمع الأسلحة من الأهالى عقب إعلان الحماية البريطانية . جرد الشعب من السلاح . أنه لايريد سلاحا فى مستوى سلاح الجيش البريطانى الذى هو أعظم جيوش العالم سلاحا . ولكنه يريد أسلحة للمقاومة . أسلحة توقف زحف الجيوش أو تؤخر هذا الزحف ، ولايطمع فى الحصول على أسلحة ينتصر بها المصريون على جيش أكبر إمبراطورية فى العالم .

مال لتمويل عمليات الاضراب وخاصة اضرابات العمال . انه مؤمن بوطنية العمال ولكنه مؤمن أيضا بأن العامل المصرى لا يقتصد مليما واحدا لينفق منه يوم ينقطع أجره اليومى . انه يستطيع أن يتحمل الجوع يوما . ولكنه لا هو ولا زوجته ولا أطفاله يحتملون الجوع الكافر لأسابيع وشهور . يجب أن تكون الثورة قادرة على دفع تعويضات بسيطة تضمن للعامل المضرب قوته الضرورى ، بدلا من أن تترك العمال وأسرهم يموتون من الجوع .

مال للانفاق على أسر الضحايا والشهداء . يكفى أن الشهيد قدم روحه

من أجل هذا الوطن . يجب أن يقف الوطن الى جوار أسرة هذا الشهيد . حتى لا يقول الناس : هؤلاء الضحايا هم ضحايا يحيا الوطن !

مال لطبع المنشورات ، ومال لطبع الصحف السرية بسبب اعلان الأحكام العرفية والرقابة الصحفية ، ومال لانشاء شبكة مواصلات سرية تعمل تحت الأرض فى أنحاء مصر كلها .

ومن أجل هذا رحب سعد بضم على شعراوى باشا الى الوفد لأنه مليونير كبير . ويعتبر أغنى رجل فى الصعيد . على الرغم من أنه رجعى التفكير ، متعصب ضد الأقباط ، وهو الأمر الذى أدهش الانجليز عندما علموا بانضمامه الى حركة سعد زغلول ، ومن أجل هذا رحب أيضا بمحمد محمود . وقد كان صديقه الحميم ، وكان ثانى رجل من الأعيان فاتحه سعد بفكرة إنشاء الوفد وكان الرجل الأول هو أحمد لطفى السيد . وكان محمد محمود مثل سعد ساخطا على الانجليز وعلى القصر ، ولكنه قبل ذلك كان الابن البكر لمحمود سليمان باشا من كبار أغنياء الصعيد ، والذى رشحه سعد زغلول سلطانا على مصر ، وقد اختاره رئيسا للجنة الوفد المركزية فى مصر ، ومن أجل هذا رحب بضم جورج خياط بك فهو الى جانب تمثيله للأقباط يملك آلاف الأفدنة فى الصعيد ، ومن أجل هذا أيضا رحب بضم عبدالخالق مدكور باشا سر تجار مصر لأنه مليونير .

وكان سعد يعتقد أن الحركة فى حاجة الى أموالهم .. بل انها فى حاجة الى أموال ضخمه أكثر من أموالهم .

وحدث فى أثناء تأليف الوفد أن زار سعد فى داره أغنى رجل فى مديرية المنوفية ، وأبلغه انه معجب أشد الاعجاب بموقف سعد وحركته ، ولهذا فإنه مستعد لأن يتبرع للوفد بمائة ألف جنيه ..

وسر سعد لهذا الموقف الوطنى الكريم من عين أعيان مديرية المنوفية .

ولكن حدث فى اليوم التالى ان ذهب الثرى الكبير الى سعد ، وقال انه تأكد أن الانجليز والحكومة والقصر لا يوافقون على حركته . ولذلك فهو يسحب تبرعه !

ومرة ثانية ذهب أحد اباشوات المتزوجين من احدى أميرات أسرة محمد على ، وكان صديقا حميما لسعد ، وأبلغه أن الأميرة زوجته متحمسة لحركته ، وأنها على استعداد لأن تتبرع بأى مبلغ يريد سعد مساهمة منها فى حركته الوطنية .

وبعد يومين عاد الباشا زوج الأميرة الى سعد ، وأبلغه أن الأميرة تأكدت أن هذه الحركة التى يتزعمها ترمى الى القضاء على السلطان وأسرة محمد على ، ولهذا فهى تسحب تبرعها !

وغير هؤلاء من الأثرياء والأغنياء والاقطاعيين نكصوا على أعقابهم عندما علموا أن الانجليز ينظرون الى الحركة بالعين الحمراء ، وان السلطان فؤاد يقاومها ، وأن الحكومة تؤيد الحركة علنا وتحاربها سرا !

وقد دون سعد هذه الوقائع كلها في مذكراته في أول الثورة . وقال أنه ثبت له وهو في بداية الثورة انه لايمكن الاعتماد على كبار الأغنياء ، الذين لايفكرون الا في مصالحهم الشخصية ، وأنه يجب الاعتماد على الفقراء ، الذين لايملكون ألوف الأفدنة ، وليست لهم أرصدة ضخمة في البنوك ، ولايريدون الا خدمة وطنهم وهم مستعدون لأن يبذلوا كل ما يملكون ، حتى أرواحهم ، في سبيل تحرير البلاد من الاحتلال .

وهذا يدل على أن سعد كان يعرف قيمة هذا الحصان ، حصان الاغنياء ، منذ أول الأمر ، ولكنه كان مضطرا أن يمتطي هذا الحصان في فترة مرحلية ، ليحصل على واجهة ديمقراطية للثورة ، وليحصل على المال الكافي لتمويل عملياتها .

أما الحصان الثالث الذى كان يحاول أن يركبه فهو حصان الثوار .. حصان الشبان .

وكان بين هؤلاء الشبان من تعدى الأربعين مثل عبدالرحمن فهمي ، ومن هو في الثلاثين من عمرهم أمثال الدكتور أحمد ماهر ومحمود فهمي النقراشي وحسن كامل الشيشيني وعبده البرقوقي ويوسف الجندى وغيرهم .

ولم يكن أى واحد من هؤلاء معروفا للناس ، أو يملك أى مال تعتمد عليه الثورة ، ولكن كان فيهم طاقات ثورية تساوى ملايين الجنيهات ، وحرص سعد على أن يكون كل هؤلاء تحت الأرض ، ولم يضم الى عضوية الوفد واحدا منهم ، حتى عبدالرحمن فهمي لم يدخل عضوية الوفد الا في سنة ١٩٢٤ بعد خروجه من السجن .

وكانت تعليمات سعد لهذه القيادة تحت الأرض أن ساعة القبض عليه هي ساعة الصفر ، وبدأت القيادة السرية تستعد . راحت تؤلف الخلايا . تشترى الاسلحة . تضع الخطط . انتظارا لساعة الانقضاض ! ولكن ساعة الصفر المحددة للانفجار لم تجيء !

ورأى سعد أن يتحرك من جديد . أن يتعجل ساعة الصفر المنتظرة فانتهز محاضرة يلقيها المستشار القضائي البريطاني في جمعية الاقتصاد السياسي وذهب الى المحاضرة وألقى خطابا ناريا في حضور المستشارين الانجليز أعلن فيه سقوط الحماية البريطانية عن مصر وبطلانها أمام القانون الدولي . وانتظر سعد أن يقبض عليه بسبب هذا الخطاب المثير ولكن هذا لم يحدث . فقرر أن يتعجل ساعة الصفر من جديد .. ساعة القبض عليه .

أرسل التعليمات الى جميع الأجهزة السرية بتوسيع نطاق الحصول على توقيع الشعب على التوكيلات . كانت التعليمات مقصورة على أن يكون التوقيع لأعضاء الجمعية التشريعية والمحامين والأطباء والعمد والمجالس المحلية والأعيان فأمر سعد بألا يقتصر جمع التوكيلات على المتعلمين ، بل أن يوقع أيضا الفلاحون والعمال . الذين يعرفون الكتابة يوقعون بأيديهم . والذين يجهلون يوقعونها بأختامهم أو بابهامهم !!

واندفعت التنظيمات الى الحقول الى تجمعات العمال . وقع الحوذية . وقع عمال الترام . بصم عمال العنابر . بصم الفلاحون . خرج الشعب كله يوقع التوكيل لسعد زغلول وزملائه متحديا الأوامر التى أصدرها مستشار وزارة الداخلية البريطانى بمنع التوكيلات ومصادرتها ..

وتوقع سعد أن يكون هذا التحدى الجديد سببا فى دفع الانجليز الى سرعة القبض عليه .

ولكن وزير الخارجية البريطانية الذى تلقى أنباء هذه التوكيلات وما صاحبها من مطالبة الشعب بالسماح لسعد بالسفر الى لندن ليقدم طلب مصر الخاص بالاستقلال . ولكن وزير الخارجية لم يأمر بالقبض على سعد زغلول . وإنما أبرق إلى المندوب السامى البريطانى يقول له « ألاحظ أن الزعماء المتطرفين يستغلون استقبالك لهم بدار الحماية . وهو عمل جانبه التوفيق . إنك بطبيعة الحال سوف توضح لهم تماما أنك تنظر الى أعمال الاثارة التى يقومون بها . والى جميع من يشتركون فيها . نظرة عدم الرضا . كذلك فإننى أوجه نظرك الى مطالبة السلطان والوزراء بأن يظهروا مشاركتهم لرأيى . وقد سمعت أن زعماء الحركة ليس لهم وزن كبير . ولكن الحركة يمكن ببساطة أن تصبح حركة خبيثة ، بل يمكن أن تتسبب فى فتنة . إذا سمح لها بأن تمضى دون أن تكبح ، ولاشك أنك ستتخذ كافة الاجراءات اللازمة لمنع هذه التطورات . وأرجو أن تبقينى على علم كامل . »

هكذا تصور وزير خارجية بريطانيا أن المصريين أقبلوا على تأييد سعد زغلول الذى لا وزن له لأن المندوب السامى البريطانى فى القاهرة شرفه بأن يستقبله فى دار الحماية ! وأنه لولا هذه المقابلة لما كان لسعد وزميليه أى شأن أو أى وزن أو أية قيمة ! وتصور وزير الخارجية البريطانية أنه يكفى أن يعلم سعد أن المندوب السامى البريطانى ينظر الى أعماله « نظرة عدم الرضا » حتى يتوقف عن أعماله ، ويعدل عن المطالبة بالاستقلال . ويمزق توكيلات الشعب !

وذهب المندوب السامى البريطانى الى السلطان فؤاد وطلب إليه أن ينفذ

أمر وزير الخارجية البريطانية ويبلغ سعد زغلول أنه غير راض عن حركته !

وأوفد السلطان فؤاد صديقه أمين يحيى باشا الى سعد يبلغه عدم رضاه .

وضحك سعد وقال : انني لم أشك في يوم من الأيام في أن السلطان غير راض عن حركتي ! لقد عرضت عليه أن أكون رئيسا للجمعية الخيرية الاسلامية فقال إنه لا شأن له بهذا . قالها بعصبية ! فإذا كان قد استكثر على أن أكون رئيسا لجمعية خيرية .. أفلا يستكثر على بالتالى أن أكون رئيسا للوفد الذى يمثل الأمة !

قال أمين يحيى باشا . ان السلطان يعتذر بأن هذه أوامر وزير خارجية بريطانيا .

وقهقه سعد وقال : غلبان عظمة السلطان ! كان الله في عونه ! انني أعرف أنه يخاف أن يرفته الانجليز فيموت من الجوع !

وذهب حسين رشدى باشا الى سعد زغلول وقال له أن المندوب السامى البريطانى تلقى تعليمات بأن يظهر العين الحمراء لسعد زغلول ..

فقال سعد .

ـ هذه بشرى طيبة .

قال رشدى : أن من رأيه أن يحنى رأسه للعاصفة حتى تمر ، ويتوقف عن طلب السفر الى لندن للمطالبة باستقلال مصر ..

ورد سعد على هذا الرجاء بأن كتب خطابا الى القيادة البريطانية يطلب جوازا للسفر له ولزملائه ، للمطالبة باستقلال مصر ..

ورفضت القيادة البريطانية منح جوازات السفر . فلم يسكت سعد وأرسل الى المندوب السامى البريطانى يحتج على الرفض .

وأراد المندوب السامى أن يظهر احتقاره لسعد زغلول . تنفيذا لتعليمات لندن . فكلف سكرتيره بأن يرد عليه برفض الطلب ويقول له اذا كان لديه طلبات فليتقدم بها كتابة الى المندوب السامى البريطانى ، بشرط أن تكون هذه الطلبات في حدود الحماية البريطانية على مصر .

وعاد سعد فكتب الى المندوب السامى مطالبا بالسماح له بالسفر الى لندن ، ويقول له أن الشعب وكله للمطالبة بالاستقلال التام . وليس بتقديم مطالب في حدود الحماية ، وأنه لايستطيع أن يخرج عن توكيل موكليه .

ولم يرد المندوب السامى البريطانى على خطاب سعد ، فما كان منه الا أن أرسل برقية احتجاج مطولة الى مستر لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا

وأمر المندوب السامى رقابة البرقيات بمنع ارسال هذه البرقية .

وهنا قرر سعد أن يبدأ حملته الدولية . فوضع مذكرة بمطالب مصر ،

وقعها هو وعبدالعزيزي فهمى وعلى شعراوى ، وفيها نداء موجه الى دول العالم يشهدها على التصرفات الاستبدادية للسلطة الانجليزية فى مصر . وان مصر ترفض اى قرار يصدره مؤتمر الصلح فى غيبتها ..

ووزع النداء على جميع الدول الأجنبية فى مصر ..

وابرق بنفس النداء الى الرئيس ويلسون رئيس الجمهورية الأمريكية .

وثار المندوب السامى البريطانى ، فقد أصبحت الحركة تتحدى بريطانيا دوليا .

وطلب سعد من حسين رشدى أن يقدم استقالته تضامنا مع الوفد واحتجاجا على منعه من السفر ، وقدم رشدى استقالته هو وعدلى يكن ولكن السلطان لم يقبلها ..

وبدأ رشدى باشا يتلقى تهديدات من جمعية اليد السوداء تطلب اليه الاصرار على الاستقالة .

وكان سعد قد طلب من رشدى أن يكتب فى استقالته انه يستقبل احتجاجا على الانجليز . لأنهم منعوا الوفد ممثل الشعب من السفر الى لندن للمطالبة بالاستقلال .

ولكن رشدى لم ينفذ ما طلبه سعد زغلول وقصر سبب استقالته على منعه وزميله عدلى يكن من السفر الى لندن .

وبعد عشرين يوما كتب رشدى باشا استقالة أخرى ضمنها ما طلب سعد زغلول ! ورفض السلطان الاستقالة .

وكان السلطان يتلقى كل يوم خطابات تهديد بالقتل من جمعية اليد السوداء وجمعية الانتقام وجمعية الشعلة ، وجمعية مجلس العشرة وجمعية مجلس الانتقام وجمعية المصرى الحر !

ودب الذعر فى قلب السلطان مما جعله لا يبيت فى مكان واحد ليلتين متتاليتين . كان حائرا يتنقل بين قصر البستان وقصر عابدين وقصر القبة !

ولم يجد السلطان مصريا واحدا يجرؤ على تأليف وزارة !

واسرع السلطان فؤاد الى المندوب السامى يقول انه يعيش فى رعب ، وان سعد زغلول هو الذى يمنع الوزراء المصريين من تاليف الوزارة . وأن بعض الذين كانت تحفى أقدامهم من أجل أن يصبحوا وزراء . يرفضون الآن منصب رئيس الوزراء فى ظل الحماية .

وجن جنون المندوب السامى البريطانى . وجن جنون السلطة البريطانية ، وعقدوا اجتماعا لاتخاذ اجراء مع سعد زغلول .

وبادر القائد العام للقوات البريطانية باستدعاء سعد زغلول وأعضاء الوفد للحضور الى مركز القيادة فى فندق سافواى .

وخيل لسعد انهم سيلقون القبض عليه فحمل حقيبته معه فى العربة
ولكن خاب أمل سعد .. فما كاد الزعماء يجتمعون فى غرفة سكرتير القائد العام ، حتى أوقفهم السكرتير صفا واحدا أمام القائد العام !

ووقف القائد العام البريطانى وقفة عسكرية ثم تلا بالانجليزية البيان التالى :

« علمت أنكم تضعون مسألة وجود الحماية البريطانية موضع المناقشة ، وأنكم تقيمون العقبات فى سبيل الحكومة المصرية ، بالسعى فى منع تشكيل وزارة جديدة ، وحيث ان البلاد تحت الأحكام العسكرية . لذلك فواجبى أن أنذركم بأن أى عمل منكم يرمى الى عرقلة مسير الادارة ، يجعلكم عرضة للمعاملة الشديدة ، بموجب الأحكام العرفية . »

وبعد أن ألقى القائد البريطانى بيانه أمر بترجمته الى اللغة الفرنسية ليتأكد من أنهم فهموه ..

وطلب بعض الأعضاء ترجمته الى اللغة العربية .

فقال القائد العام بحزم الفرنسية فقط !

وبعد انتهاء المترجم . وجه القائد العام الى سعد ورفاقه نظرة حادة وقال :

ـ لا مناقشة !

وتركهم وانصرف .

وابتسم سعد وهمس فى أذن محمد محمود !

ـ ما معنى هذا ؟

قال محمد محمود

ـ معناه انصراف !

قال سعد فى حسرة : إنصراف ؟ إنصراف كيف ؟

وهكذا تأجلت ساعة الصفر مرة أخرى !

واعتقدت القيادة البريطانية أن الانذار البريطانى العنيف ، سيرعب سعدا وزملاءه ، وسوف يغلقون أفواهم ، ويلزمون بيوتهم ، خوفا ورهبة من تهديد القائد العام ..

واذا بسعد يبرق فى اليوم التالى الى رئيس وزراء بريطانيا يحتج على إنذار القائد العام وتوعده بأشد العقاب العسكرى وقال انه يطالب بالاستقلال التام ويرى أن الحماية غير مشروعة ، واستطرد فى برقيته قائلا : « إننا أخذنا على عاتقنا واجبا وطنيا لا نتأخر عن أدائه ، وهدد رئيس وزراء بريطانيا بسخط العالم المتمدن على هذا التصرف الجائر ! »

وأمر المندوب السامى البريطانى السلطان فؤاد . بأن يقبل استقالة وزارة

حسين رشدى ، فصدع السلطان بالأمر ، وقبل استقالة الوزارة

وكتب سعد خطابا عنيفا الى السلطان فؤاد ، وكان أعنف خطاب كتبه شرقى الى ملك وسلطان ، وفيه يلومه باسم الشعب لأنه قبل استقالة الوزارة ، كما يلومه على أنه قبل مشورة الانجليز ، ويلوح له بأنه من الخير له أن يتنازل عن عرش مصر من أن يقف هذا الموقف من مطلب شعبه فى الحرية والاستقلال .

وذهب سعد وزملاؤه الى القصر وطلبوا مقابلة السلطان ليقدموا له هذا الخطاب باسم الأمة .

ورفض السلطان أن يقابلهم .

فتركوا له الخطاب موقعا عليه منهم . وتركوا معه ترجمة باللغة الفرنسية ، لأن السلطان فؤاد لايجيد اللغة العربية !

وأسرع سير شيتهام المعتمد البريطاني فأرسل البرقية التالية الى لورد كيرزون وزير الخارجية .

« إن استقالة رشدى باشا كانت صدمة شديدة لسعد زغلول ، الذى كان يعتقد أنه وأصدقاءه سيسمح لهم على وجه اليقين بالسفر الى أوروبا للدعوة للاستقلال . ان سعد زغلول يحاول الآن منع تشكيل حكومة جديدة تعمل على تدهور حزبه أكثر مما تدهور ومن الواضح أن السياسيين الذين كان من الممكن أن يشتركوا فى تأليف الوزارة يتعرضون للتهديد بالقتل حتى لا يقبلوا دخول الوزارة .

« واتخذ سعد اجراء محددا لتهديد السلطان . ووقف تعاونه الحالى معنا فى إعادة تشكيل مجلس الوزراء

« وفى يوم ٣ مارس توجه سعد الى قصر عابدين ومعه بعض أتباعه من أعضاء وفده الأصلى ، ولما لم يسمح لهم بالدخول ترك سعد احتجاجا موجها للسلطان وقد أرسلت ترجمة لهذه الوثيقة بالحقيبة الدبلوماسية أمس

« ولو أن الاحتجاج صبغ بلهجة مؤدبة فى نواح كثيرة ! الا انه يندد بالحماية . ويحذر السلطان من قبول مشورة دار الحماية . ويتضمن تهديدات مقنعة بقناع رقيق ضد السلطان اذا مضى فى تشكيل الوزارة » .

« وقد قيل لى أن لغة الاحتجاج لاتبرر رفع الدعوى أمام المحاكم المصرية ضد سعد زغلول ، على أساس أن الاحتجاج فيه إهانه للسلطان ، كما قيل لى أن هناك صعوبات فنية لادانة سعد زغلول بنفس التهمة فيما لو رفعت عليه الدعوى أمام المحاكم العسكرية البريطانية ، بموجب القوانين المعمول بها » .

« وفى رأيى على أية حال ، اننا لانملك أن نتغاضى عن حملة من التهديد تستهدف منع تشكيل حكومة مصرية فى ظل الحماية فى وضعها الحاضر »

« ولدى معلومات وثيقة ، بأن سعد يحاول إثارة نقابة المحامين الوطنية ، وهي حصن مؤيديه ، لتوجه احتجاجا وقحا آخر الى السلطان ، وكذلك لشل حركة المحاكم الوطنية عن طريق إضراب عام » .

« فإذا ما سمحنا لهذه الاجراءات بأن تستمر ، فإن علينا أن نتوقع حدوث مؤامرات ، توجه ضد اطاعة القوانين الحكومية مباشرة ، وازدياد صعوبة تشكيل وزارة .

« وعلى ضوء هذه الاعتبارات فقد طلبت الى القائد العام فى مصر أن يرسل فى طلب سعد وأتباعه المعروفين ، وأن يلفت نظرهم بصورة جدية ، الى أن طريقة الاثارة التى يتبعونها فى الوقت الحاضر تتعارض مع المصالح العسكرية ، ومثل هذا التحذير لن يكون كافيا لاقناع الزعماء الوطنيين بالكف عن سياسة التهديد والمؤامرات الخفية » .

« ان السلطان فؤاد قد اهتز للأسلوب الذى صيغ به إحتجاج سعد زغلول . الذى يعتبر فى الحقيقة إهانة للسلطان وأمنه » .

وقد أخذت رأى المستشارين الرئيسيين الذين اتفقوا معى على أن السبيل الواضح أمامنا هو نفي سعد زغلول خارج مصر ، ويفضل أن يكون ذلك فى الهند أو سيلان . أن سعد زغلول لم يعد منذ وقت طويل يصغى لجانب العقل .

ويقضى وقته فى لعب القمار ، وقد وصلت حركته الى نقطة يتحتم معها الالتجاء الى وسائل أشد عنفا ، للاحتفاظ بقبضتنا على طبقة المثقفين .

وأصبح المعتدلون ، وذوو الإدارك من المصريين ، يعجبون لسماحنا لهذه الحركة بأن تمضى فى طريقها طويلا دن أن تكبح ، ولربما كان من المؤسف أن أضطر الى طلب إقصاء مشاغب سياسى فى الوقت الحاضر ، بالنظر الى طبيعة دعاية سعد المتمثلة فى أنه أشد خطرا من أولئك الذين نفيناهم الى مالطة منذ بداية الحرب ، لهذا فإنى أطلب إلقاء القبض عليه وإبعاده فورا .

وأرجو اتخاذ قرار عاجل فى هذا الشأن من أجل سمعة السلطان فؤاد باعتبارها ذات أهمية سياسية لنا » .

وأهمية هذه البرقية فى أن المندوب السامى البريطانى أرسلها الى وزير الخارجية البريطانية بالاتفاق مع السلطان فؤاد ، الذى شعر بأن سعد يهز عرشه من تحته ، وقال انه لايستطيع أن يحكم اذا بقى سعد فى مصر .

ما كاد لورد كيرزون يتلقى هذه البرقية حتى اتصل بلويد جورج رئيس الوزراء ولورد بلفور وزير الخارجية الموجود فى باريس ، واتفق الثلاثة على إلقاء القبض فورا على سعد زغلول .

وفى اليوم التالى أرسل لورد كيرزون من لندن البرقية التالية الى سير شيتهام القائم بأعمال نائب الملك فى القاهرة .

« بشأن برقيتكم رقم ٣٤٨ . عليكم أن تتخذوا على الفور إجراء يضع حدا للأعمال التى يقوم بها سعد زغلول وأتباعه . لمحاولتهم منع السلطان والوزراء من ممارسة مهامهم ومسئولياتهم على الوجه الصحيح .

« ولذلك فقد خولناك السلطة للاتفاق مع القائد العام على إلقاء القبض على سعد ، وإبعاده فورا الى مالطة . بدون تحذير آخر لسعد وللمقربين المتصلين به عمليا فى حملته المتعمدة للاثارة .

« ونرى الا يشمل الابعاد أكثر من عدد الأشخاص الذين تحتم الضرورة إبعادهم . وألا يكون عبدالعزيز فهمى واحدا منهم !!!

« وقد صدرت التعليمات الى حاكم مالطة للاتفاق مع القائد العام فى هذا الشأن . ولاتخاذ ترتيبات إقامة الأشخاص المبعدين .. »

انتهى نص البرقية السرية !

وهى البرقية التى حددت ساعة الصفر التى مكث سعد زغلول طويلا ينتظرها ..

ومن أجل هذا كان سعد يقول « لابد من قارعة » !

ومن أجل هذا كان يتمشى أمام مكتبه مترقبا كل يوم . وصول الذين يجيئون للقبض عليه .. فإذا مضى اليوم دون أن يحضروا قال لأحد أعضاء الوفد

ـ أتراهم لا يأتون ؟ هذا لاينفع !! إما أن يدعونا نسافر أو يقبضوا علينا . والا فهم يتركوننا نموت فى مواضعنا !

ومن أجل هذا هش سعد فى وجه الضابط البريطانى الذى جاء للقبض عليه وقال له :

ـ جئت متأخرا .. إننى أنتظرك منذ وقت طويل !

وهكذا تم القبض على سعد فى يوم « التنفيض الكبير » ! !

ولم تضرب رتيبة يومها ابنها « على » الصغير لأنه أخطأ فى البروتوكول ودخل مكتب جده « سعد » بغير استئذان . وقطع عليه حبل تفكيره ، فقد كان عذر الطفل الصغير أنه ارتكب خطأ فى البروتوكول فى يوم القيامة !

○ ○ ○



●● زعيم الأمة سعد فى طريقه إلى إنجلترا لمفاوضة الانجليز على الجلاء ..

● الفصل العاشر ●

أحس الطفلان الصغيران بالرعب فى وحدتهما المفاجئة . خلا البيت فى دقائق من أعضاء الوفد وأنصار سعد وأعضاء السكرتارية ، كأن الأرض انشقت وابتلعتهم جميعا . أطفئت أنوار السلاملك وأنوار الباب الكبير . ولم تغب ستهما وأمهما طويلا . كانت المسافة التى قطعتها العربة التى يجرها حصانان لاتتجاوز عشر دقائق ، من بيت زكية هانم شقيقة صفية الكبرى وبيت سعد . ولكن هذه المسافة القصيرة بدت كأنها طويلة جدا . بدت لهما فى رعبها كأنها استمرت دهرا طويلا . ان أحدا لم يهتم بهما .. لم يفسر لهما ما حدث . لم يشعرا بمعني القبض على جدهما الكبير الا عندما خلا البيت من الناس ومن الدوى ومن خلايا النحل . فهما عندئذ أن شيئا هائلا قد حدث . وساعد ظلام مارس المبكر على خوفهما . وبدت لهما أشجار الحديقة كأنها أشباح . وعندما وقفت العربة ونزلت منها زكية هانم تتبعها صفية ثم رتيبة . أسرع الطفلان يرتميان فى احضان أمهما وستهما ويبكيان . واحتضنتهما الأم والجدة . وتلفتت صفية حولها الى السلاملك المطفأ الخالى وقالت : ماذا حدث ؟

قال الحاج أحمد خادم سعد الخاص : قبضوا على الباشا !

قالت صفية : أعرف انهم قبضوا على الباشا .. ولكن أين الناس ؟ أين أعضاء الوفد ؟

قال الحاج أحمد : انصرفوا الى بيت شعراوى باشا وأخذوا أوراق الوفد خشية أن يعود الانجليز الى تفتيش البيت !

وهاجت صفية وماجت وقالت : ان سعدا لم يمت .. ان بيت سعد سيبقى مفتوحا ليكون مركز قيادة الثورة . وأسرعت الى التليفون وطلبت الى على شعراوى باشا أن يعود أعضاء الوفد الى البيت ليجتمعوا فيه .

وجلست صفية فى النافذة تطل على الشارع . كأنها تنتظر قدوم الثورة ولكن الشارع بقي هادئا ساكنا . كأن الناس أصبحوا يخافون السير فيه لأنه أصبح شارع الخطر . كأن البيت طار فجأة واستقر فى صحراء مهجورة وغير مسكونة . ثم بدأت بعض السيدات فى الحضور الى البيت . كان أغلبهن متشحات بالسواد وكأنهن جئن للتعزية فى ميت . الوجوه كالحة . العيون دامعة . الشفاه هامسة . وصرخت صفية قائلة : لسنا فى مأتم اننا فى ثورة !

وسكت السيدات الجالسات مشدوهات . كأن واحدة منهن لم تفهم ما تعنى صفية !

وقالت زوجة أحد الوزراء من صديقات صفية : ان الباشا قال لى أن رشدى باشا حذر سعد باشا من هذا المصير وطلب اليه التروى وياليته سمع كلام رشدى باشا .

وتشجعت سيدة أخرى وقالت . أن سعد باشا أخطأ فى الاعتماد على الشعب ! ان الشعب لا حول له ولا قوة !

وانتفضت صفية من مقعدها وتركت ضيوفها وخرجت الى غرفة أخرى فيها رتيبة وقالت لها

— اذهبى أنت واجلسى معهن ! لو بقيت فى الغرفة فسوف أطرد كل هؤلاء السيدات من البيت !

وعادت صفية تطل من النافذة من جديد فى انتظار الشعب ، ولكن الشعب لم يجىء ، وبعد ساعة وصلت سيارة فيها على شعراوى باشا وقابلها وقال لها :

— ان الوفد أرسل احتجاجا الى رئيس وزراء بريطانيا ورئيس جمهورية أمريكا والى مسيو كليمنصر رئيس مؤتمر الصلح ! . لقد أرسلنا الاحتجاجات بالتلغراف !

وقالت صفية ساخرة ان التلغرافات لا تحطم قضبان السجون !

قال لها شعراوى ان كل اعضاء الوفد بكوا عندما سمعوا بالقبض على سعد باشا !

قالت له بعدم اكتراث . الدموع لا تحرر الأمم ولكن تحررها السيوف .

قال على شعراوى يهدئها : ان سياسة الوفد هى المقاومة بالطرق المشروعة ..

قالت صفية وهل القبض على سعد وزملائه عمل مشروع ؟ ! الرد على العمل غير المشروع يكون بالوسائل غير المشروعة !

ولم يشأ شعراوى باشا ان يمضى فى مناقشتها فتركها ودخل الى مكتب سعد ثم تتابع حضور اعضاء الوفد .

ودخل اعضاء الوفد وقابلوا صفية وقال عبدالعزيز فهمى .

— المهم أولا أن نعرف أين سعد باشا ؟

قالت صفية

— المهم أولا ان أعرف أين انتم ؟ أنا لا أعرف هل سيسجنونه . هل سيقتلونه .. هل سيحاكمونه .. وأؤكد لكم أنه لايهمه مصيره . المهم هو مصير البلد . المهم أن يتحرك البلد !

قال جورج خياط بك ! البلد فى مأتم !

قالت صفية : لا أريد أن تجعلوا المسألة مأتما لرجل أو لأربعة رجال ! .. المهم أن يكون اليوم هو بعث الأمة كلها !

قال لها أحمد لطفي السيد . اننا لن نتخلى عن سعد أبدا .. أن أرواحنا وحياتنا فداء له فاطمئني !

وعادت صفية من لقائهم تعسة أكثر مما كانت عندما علمت بالقبض على زوجها . وجدتهم أسفين أكثر مما هم غاضبون . وجدتهم حزانى أكثر مما هم ثائرون . وجدتهم لا يزالون يتحدثون عن البرقيات والاحتجاجات والمذكرات !

وعادت تطل من النافذة من جديد . تحاول أن تسمع أقدام الملايين وهي تدب على أرض الشارع . تحاول أن تلتقط همسات من بعيد فتتوهم بأنها أصوات الجماهير الغاضبة .

ثم تسمع انفجارا تحسبه طلقات رصاص . فيبدو على وجهها الارتياح . وتهتز طربا كأنها سمعت انغام موسيقى خالدة . ثم تقطب وجهها بعد أن تبين أن ما سمعته هو صوت طرقعة ماسورة موتوسيكل . ويزيد في كأبتها ما تسمعه من السيدات من صديقاتها . كلماتهن فيها أشفاق فيها عزاء فيها لعنات على هذا الشعب الذى لا فائدة فيه ولا رجاء منه . الناس موتى لا يبعثون . نائمون لا يتيقظون خائفون لا يتحركون . الناس لا يهمهم الا أنفسهم . أن سعد باشا كان ينفخ في قربة مقطوعة . كان يستند الى جدار مائل . كان يعتمد على من يتصور أنهم أسود فاذا بهم يثبتون انهم فيران ! كانت كل سيدة تطعن في الشعب المصرى وهي تظن انها بذلك تعزى صفية في بلائها . ولكن هذا العزاء كان أشبه بالسياط يجلد روحها . أين الشعب ؟ لقد مضت ساعات بعد القبض على زعيمه ولم ينتفض . لم تقم مظاهرة . لم تخرج الجماهير من بيوتها لتخليصه من يدى آسريه ! ان الناس ينامون الأن كما اعتادوا أن يناموا كل يوم . يأكلون كما كانوا يأكلون . بعضهم ذهب الى السينما أو ذهب الى المسرح ليشهد رواية « كشكش بك عمدة كفر البطيخ » لفرقة نجيب الريحاني أو ليضحك في مسرحية « ياستى .. ماتمشيش كده عريانه » التى تمثلها روزاليوسف وعزيز عيد !

أيكون زوجها مخدوعا في هذا الشعب الذى امن به ، الذى وهبه عمره وفكره ؟ لقد كان يقول لها دائما انه مؤمن بأن هذا الشعب قادر على أن يحطم قيوده ويكسر أغلاله . وينقض على غاصبيه وجلاديه . ولكن أين هو هذا الشعب ؟ انها تعودت أن تصدق كل كلمة يقولها سعد . انها عرفته طول حياتها معه رجلا لا يكذب أبدا . ولكن هاهي ذى ترى القيامة تقوم دون أن يبعث الناس من قبورهم . هاهي ذى تسمع صوت القارعة .. وكأن المصريين جميعا أصيبوا بالصمم لا يسمعون ما تسمع ..

وجلست صفية ورتيبة والطفلان على مائدة العشاء . وبقى مقعد سعد خاليا . الطبق أمامه . والشوك والسكاكين والأكواب فى مواضعها المعتاد .
وأبت صفية ورتيبة أن تأكلا شيئا .. جلستا صامتتين لا تتكلمان .
وأكل الطفلان كالمعتاد . لم تستطع معدة الطفلين الخاوية أن تشارك فى الموقف الرهيب .
ثم أقبل الحاج أحمد وقال لصفية : الدكتور أحمد ماهر يريد أن يقابلك فورا .. لقد قلت له ان الهانم على العشاء فقال انه يريد أن يراك الآن وليس لديه أى وقت للانتظار .
ونهضت صفية من مقعدها وهى تقول : لعله جاء هو الاخر ليعزينى !
وبعد دقائق عادت صفية الى المائدة وهى امرأة اخرى .. هذه المرأة العجوز اصبحت عروسا من جديد . امتلأ وجهها بالشباب والجمال . كانت عيناها تضحكان وترقصان ..
وطلبت الطعام الذى رفضت ان تأكله . وبدأت تأكل بشراهة ورتيبة تنظر اليها فى دهشة ..
وأخيرا قالت صفية لرتيبة :
— ألم أقل لك أن سعد لا يكذب أبدا !
إن أحمد ماهر جاء لصفية فى وسط الخطر يقول لها :
— انتظرى غدا .. ان الشعب سيتحرك غدا !
ولكنها لم تخبر يومها الطفلين وأمهما بما قاله الدكتور أحمد ماهر . كل ما قالته أن الشمس ستشرق غدا !
ولم يفهم الطفلان ما تقصده ستهما ؟ ولم يفهما لماذا ملأت الابتسامة وجه أمهما الحزين . انهما يعرفان أن الشمس تشرق صباح كل يوم . أكانت ستهما وامهما فى شك من أن الشمس لن تشرق فى اليوم التالى لأن الانجليز قبضوا على جدهما ؟ أيكون المقصود بهذا الكلام المريب أن جدهما هو الشمس . وأنه غاب اليوم وسيعود غدا ؟
ويملأ الفضول صدرى الطفلين . كل واحد منهما يريد أن يسأل ما معنى أن الشمس ستشرق غدا . ولا يجرؤ على هذا السؤال الذى يطل من فمه ثم يعود الى الاختفاء . كل منهما يخاف أن يغضب سته وأمه . كثيرا ما نهرتهما أمهما على كثرة اسئلتهما . كثيرا ما صدمتهما ستهما لأنهما يريدان أن يعرفا كل شىء كانت تقول لهما أن هناك أشياء لا يعرفها الا الكبار . كان سعد هو حاميهما الوحيد فى هذا البيت . كان يجيب على كل سؤال . كان يشرح كل تساؤل . لم يكن يتركهما يتوجعان فى صمت . ويقفلان فمهما فى خيبة ، ويطبقان شفاههما

فى خجل ! فى تلك اللحظة أحسا أكثر من أى لحظة بأنهما فقدا جدهما ، فقدا حاميهما . فقدا مانعة الصواعق التى كانت تمنع أمهما وستهما من المضى فى عبارات التأنيب والتوبيخ لتدخلهما فيما ليس لهما شأن فيه !

ويلاحظ الطفلان أن ستهما لن تدخل غرفتها لتنام وانما دعت أمهما لتنام معها . ودخل الطفلان غرفتهما ليناما وليتحدثا معا عما تقصده ستهما من أن الشمس ستشرق فى اليوم التالى ويتساءلان همسا لماذا ستتركهما أمهما ، وتنام فى غرفة سعد مع ستهما ، لابد أن ستهما خائفة من النوم وحدها بعد غياب زوجها . ولهذا استنجدت بأمهما لتحميها من الخوف .

ولكن الطفلين يتذكران انهما سيتامان وحدهما فى الغرفة بغير أمهما . إذن هما اللذان سيخافان بدلا من ستهما ! ثم يقفزان من فراشهما ويسرعان الى النافذة ويزيحان الستائر فلا يريان الا الظلام الدامس . الا الليل المخيف . لاشىء يبشر بأن الشمس ستشرق قبل موعدها ، ستشرق فى الظلام .

ويعود الطفلان الى خوفهما من جديد ! البيت ليس فيه رجل ! بجدهما مقبوض عليه . أبوهما فى دمياط . الحاج أحمد عاد الى بيته لينام ، ترى ماذا يفعل الانجليز بجدها الآن ؟ هل يضربونه ؟ هل أعطوه طعام العشاء ؟ انهما علما أنه لم يصحب معه الحقيبة التى اعدتها له صفية . لن يجد بيجاما ينام فيها . لن يجد موسا يحلق بها ذقنه لن يجد جوز عين الجمل . ان جوز عين الجمل اختفى اليوم من مائدة العشاء لأن سعد لم يكن موجودا . لقد كانا يحبان الجوز . كانا كل صباح يقولان لجدهما وهما يدخلان الى مائدة الأفطار « صباح الخير ياجدى » . ثم يجلسان إلى جواره ويمدان يديهما إلى طبق الجوز ويكبشان منه وكان سعد يلاحظ هذه الحركة ضاحكا وذات صباح قال لهما مداعبا لماذا تقولان صباح الخير ياجدى يجب أن تقولا صراحة صباح الخير ياعين الجمل ! وأصر سعد أن تكون تحيتهما الصباحية بقولهما « صباح الخير يا عين الجمل » ! ..

وبقى الطفلان يتحدثان همسا عن السجن . كثيرا ما سمع الطفلان جدهما يتحدث عن أنه سيذهب الى السجن ! يتحدث عنه كأمنية ، كانه يتحدث عن رحلة شائقة عن مغامرة لذيذة . حياة فى عالم آخر . انهما يذكران انه روى لهما كيف دخل السجن فى شبابه . كان السجن فى سرداب فى القلعة . كان ينام على الأرض والقيد فى قدميه والسلاسل فى يديه . وكان يحرسه جندى انجليزى ضخم له شارب كبير . وكان الجندى لا يتكلم الا الانجليزية وسعد لايتكلم الا العربية . فكان اذا طلب سعد ماء ليشرب تصور الجندى الانجليزى أنه يسبه . واذا شتم سعد الجندى رفع يديه بالتحية متوهما انه يقول له صباح الخير !

وخطر ببال الطفلين صورة لجدهما وفى قدميه القيد وفى يديه السلاسل . ودهشا أن يرحب سعد بهذا السجن . وبينما هما فى محاورتهما الساذجة سمعا صوت سيارة تقف بالباب الخارجي وجرس الباب يدق دقا متواصلا . وقفز كل أهل البيت من الفراش تصور بعضهم أن سعد قد عاد ، وتصور آخرون ان أخبارا جاءت منه .

وفتح عم آدم الباب ، ودخل ضابط انجليزى ومعه مترجم وطلب مقابلة صفية . وقال لها الضابط أن سعد معتقل فى احد المعسكرات وأنه محتاج الى ملابس ثقيلة ، وأنه مسافر الى رحلة طويلة . وانه مسموح له بأن يصحب خادما معه . وألحت صفيه فى أن تعرف إلى أين يسافر ، ورفض الضابط الانجليزى أن يجيب . وفكرت صفية فى محمد التوتنجى ! والتوتنجى كلمة تركية معناها الخادم الخاص أو الشماشرجي . لقد كان خادما خاصا لوالدها ، صحبه سبع عشرة مرة فى رحلات الى أوربا . يجيد التحدث بالفرنسية والانجليزية . وهو غير متزوج . وعندما مات والدها أصر على أن يسكن بجوار قبره . مضت عليه خمسة أعوام وهو مقيم فى المدفن . وأرسلت صفية فى استدعائه مع حقيبته . ووصل محمد التوتنجى وأبدى استعداده لأن يذهب مع سعد الى رحلة المجهول .

وأرادت صفية أن تستدرج الضابط الانجليزى فقالت له : الملابس التى يحتاجها زوجى .. لمدة أيام غير الملابس التى يحتاجها لمدة شهر . غير التى يحتاجها لمدة عام .

فقال الضابط : يكفى ملابس لمدة شهر !

وأشرقت الشمس وصفية عاكفة على اعداد الثياب ..

ونظر الطفلان إلى الشمس ولم يريا فيها شيئا مخالفا عما كانت عليه فى كل صباح .

ومضى الصباح كئيبا متثاقلا . وفى كل خمس دقائق تتجه صفيه الى النوافذ الأمامية فى شارع سعد زغلول والخلفية فى شارع ناظر الجيش ، والجانبية فى شارع الفلكى تتسمع أصوات المظاهرات القادمة فلا تسمع الا الصمت !

ويعود القلق الى عينيها الواسعتين . أخدعها الدكتور ماهر عندما قال لها أن الشمس ستشرق غدا . هاهى ذى شمس الطبيعة قد أشرقت . ولكن شمس الثورة لاتزال غائبة . ونظرت الى ساعتها فوجدت انها السابعة صباحا ! مضى على شروق الشمس عدة ساعات ولم يحدث شىء . ولم تكن صفية تعرف أن الشعوب لاتثور فى الفجر . الجيوش فقط هى التى تثور فى الفجر . أما الشعوب فانها لاتثور الا بعد موعد دخول الموظفين الى الدواوين والعمال الى المصانع والطلبة الى المدارس !

ثم بدأ البيت يمتلىء بالناس . وبدأت صفية تشعر بأنها لم تعد وحيدة . بدأ أهل البيت يزيدون ولكن الناس الذين جاءوا لم يكونوا اولئك الذين تنتظرهم صفية . بعضهم فضوليون جاءوا يسألون عن الأخبار . وبعضهم ساخطون يعبرون عن غضبهم . وبعضهم حائرون جاءوا يسألون ماذا تفعل بعد الآن .

وبدأ على الجميع أنهم لا يعرفون ما يفعلون . ودخل بعض اعضاء الوفد إلى مكتب سعد ، والتف حولهم عدد من الشبان يمطرونهم أسئلة واستجوابات . والتفت إليهم عبدالعزيز فهمى شزرا وقال لهم :

دعونا نعمل فى هدوء !

نزلت كلمة « هدوء » كالدش البارد على الأعصاب المتوترة والنفوس الثائرة .. وإذا بعدد من الشبان يندفعون الى حديقة البيت كالسهام ، وطرابيشهم فى أيديهم ، والعرق ينهمر من وجوههم ويصيحون :

— أضربت مدرسة الحقوق : ابراهيم عبدالهادى وحسن ياسين يقودان مظاهرة فى طريقها الى هنا !

وما كاد الموجودون فى البيت يسمعون هذه الجملة حتى اندفعوا الى الخارج . وكأنهم عرفوا جواب سؤالهم الحائر ماذا نفعل الآن .

واستقبلت صفية الشبان الثلاثة وراحت تستفسر منهم ، هل كل الطلبة أضربوا ؟ ماذا كانت الهتافات التى يرددونها ! واقبل طالب فوق دراجة وصاح : مدرسة الهندسة أضربت . الطالب عبدالمجيد بدر خطب ودعا الى الثورة ! واقتحم البيت طالبان يصرخان : مدرسة الزراعة أضربت وهى تهتف بسقوط الانجليز . ورابع يعلن أن مدرسة التجارة العليا أضربت .

وخطب الدكتور أحمد ماهر استاذ المحاسبة فى الطلبة وقال : مكان الطلبة اليوم فى الشارع لا فى مقاعد الدراسة ! وخامس يقول طلبة مدرسة الطب أضربوا وضربوا ناظرهم الانجليزى عندما أراد أن يسد الباب ويمنعهم من الخروج .

ولكن صفية لم تطمئن . إنها لا تريد أن تسمع الأخبار .. انها تريد أن ترى بعينها الأخبار ..

وبدأت الأنباء تتواتر عن المظاهرة الكبرى . الطلبة يندفعون إلى الشوارع هاتفين بحياة سعد والاستقلال يهتفون بالعربية والانجليزية والفرنسية ليفهم الاجانب صوت مصر الذى يعلنون . الجماهير تنضم الى المظاهرة الجالسون على القهاوى يلقون ما فى ايديهم من ورق اللعب وزهر الطاولة ويسيرون مع المظاهرة . أصحاب الحوانيت يغلقون محالهم ويأخذون مكانهم بين

المتظاهرين . الباعة السريحة . باعة الصحف . أطفال الأزقة اسرعوا وراء المظاهرة يرددون شعاراتها . مظاهرة الحقوق بدأت في شارع الفلكي بمدرسة . وانتهت أمام بيت سعد بشعب .. شعب بكل طبقاته ، بكل فئاته ، بكباره وصغاره .. بالذين سمعوا باسم سعد من قبل ومن لم يسمعوا به . أصبح هتاف يحيا سعد يعني أشياء كثيرة ! يعني الأستقلال ويعني الحرية ويعني الجلاء ويعني المساواة . الشرر يتطاير من العيون . الهتافات تخرج من الحناجر كالقذائف . أصوات الجماهير كالرعد . شارع سعد امتلأ بالجماهير . من أين خرج هؤلاء الناس كلهم . أين كانوا طوال الليل . كيف اجتمعوا في لحظة واحدة وسدوا الشوارع كلها المحيطة ببيت سعد . لم تكن الهتافات منظمة . لم تظهر أعلام في أيدي المتظاهرين . كأن كل واحد منهم له نداؤه الخاص . ولكنك لا تفهم من هذه النداءات المختلفة والهتافات المتباينة الا كلمة واحدة هي سعد . وخرجت صفية لهم الى النافذة والدموع في عينيها . لوحت لهم بمنديلها . ثم مسحت بالمنديل عينها . كانت تبكي ، لأنها في تلك اللحظة فقط رأت الشمس تشرق غدا !

وانهمرت الأنباء كالمطر . طلبة دار العلوم أضربوا . طلبة المدرسة الالهامية الثانوية أضربوا . طلبة مدرسة التجارة المتوسطة أضربوا . طلبة مدرسة القضاء الشرعي أضربوا . مظاهرة ضخمة في السيدة زينب . انضم العمال الى الطلبة . أخذت القيادة الانجليزية على غرة . عقد الحكمدار الانجليزي أجتماعا في المحافظة مع القائد البريطاني وضباط البوليس الانجليز . تقرر إرسال فرقة من الفرسان برياسة الأمير الاى ارشر وكيل الحكمدار الانجليزي . كانوا يحملون الرماح في أيديهم . أتجهت فرقة الفرسان الى شارع الخليج . هاجمت الطلبة المتظاهرين . تقدم بعض الطلبة ونزعوا الفرسان من فوق خيولهم وألقوهم على الأرض . تكونت في الحال فرق من الطلبة والأهالي تلقي الطوب على الفرسان . خرجت النساء من الأحياء البلدية يجمعن الطوب من الشوارع والحواري ويضعنه في متناول أيدي المتظاهرين . وقعت معركة طاحنة . سقط عدد من الفرسان جرحى . سقط بعض الطلبة تحت سنابك الخيل . أرسل الأميرالاى أرشر يطلب نجده . أقبلت قوة أخرى من الفرسان بقيادة الضابط شاهين . قبض على ثلثمائة طالب . أودعوا خرابة مهجورة داخل سجن القلعة . نفس الخرابة التي سجن فيها سعد بعد ثورة عرابي . منعوا من تناول الطعام . صرف لهم الانجليز خبزا جافا . تركوهم يبيتون من غير غطاء . في هذه الليلة لحن الدكتور محمود أحمد الحفني . وكان أحد طلبة كلية الطب المقبوض عليهم . الأغنية المشهورة التي أصبحت أغنية الطلبة طوال الثورة :

« يا عم حمزه احنا التلامذة ! واخدين ع العيش الحاف ! والنوم من غير لحاف ! مستعدين ! ناس وطنيين ! دايما صاحيين . احنا التلامذة .. يحيا الوطن ! »

وانفجرت المظاهرات في كل مكان . اتجهت الجماهير الغاضبة تحطم عربات الترام ومصابيح الشوارع . قذفت المظاهرات الجنود الانجليز بالطوب والأحجار . صبيان في الثامنة من عمرهما يشتركان في المظاهرات . السيدات يزغردن من النوافذ تحية للثوار . الموظفون تركوا مكاتبهم الى الشوارع . أصبحت لاتعرف أى فئة هي التي تتظاهر ، شيوخ متحمسون كأنهم شباب . أطفال ثائرون كأنهم كبار . طرابيش وعمائم وطواقي ولاسات . المظاهرات لاتنقطع . لا تكاد تنفض تحت هجوم الفرسان الانجليز حتى تتجمع من جديد . عدد من الطلبة يدخلون على اعضاء الوفد بغير استئذان ويقولون لهم : إننا نريد أن نعرف المكان المسجون فيه سعد ، سنقتحم السجن وننتزع منه سعد زغلول . اعضاء الوفد يذعرون . ان الطلبة يتحدثون بلهجة غريبة . الى الأمس فقط كانوا يجيئون طالبين النصح ويستمعون الى الأوامر والتعليمات . ولكنهم اليوم يتحدثون كأنهم أصبحوا القادة . كأنهم لا يعترفون الا بقيادة سعد وحده . وعندما اختفى أصبح كل واحد قائدا ! ويعنف الطلبة في حديثهم مع الباشوات اعضاء الوفد . ويقسم الأعضاء أنهم لا يعرفون المكان الذى سجن فيه الانجليز الزعيم .

وانقسم أعضاء الوفد الى فريقين كبار السن يدعون الى الروية والحكمة . والشبان يؤيدون الثورة والانقضاض . والأغلبية تميل الى الاعتدال . ولم ينم بيت الأمة . الجماهير تتقاطر عليه . الشبان يترددون على غرفه ومكاتبه . الصحفيون جاءوا يتقصون الأخبار .. البوليس السرى اندس بين الجماهير ليعرف كيف حدث هذا . ومن الذى فعل هذا ، وماذا سوف يحدث من كل هذا !

وفوجئت صفية في اليوم التالى بمنشور بإمضاء طلبة المدارس العليا يستحلفون مواطنيهم الأعزاء ان يلتزموا الهدوء والسكينة ! وسألت صفية محمود فهمي النقراشي عن هذا المنشور الغريب . فقال لها انه مدسوس على تنظيمات الثورة . وأن بعض أعضاء الوفد هم الذين كتبوا هذا المنشور وطلبوا من بعض الطلبة توزيعه في الشوارع . وان التنظيمات جمعت هذه المنشورات وأحرقتها ! وأن الجماهير لم تفهم هذا المنشور ، فكانت تهاجم المحلات الانجليزية وهي تهتف بحياة الهدوء والسكينة ! وكانت تضرب الجنود الانجليز وهي تصرخ « نموت .. وتحيا الهدوء والسكينة ! » !!

فقدت القاهرة كل اتصالاتها بالأقاليم . خرج الفلاحون في الليل ونزعوا

قضبان السكة الحديد . توقفت جميع القطارات . حطموا أسلاك التليفونات فانقطعت انباء المديريات . وضعوا المتاريس فى الطرق الزراعية فتعذر الانتقال بين مدينة واخرى . انعزلت العاصمة . الدولة لم تعد تعرف مايجرى خارج حدود القاهرة . بدأت تصل الى بيت الأمة رسائل متقطعة . مديرية المنيا أعلنت استقلالها . تكونت لجنة وطنية للاشراف على الدولة الجديدة . أنضم اليها جنود وضباط البوليس والمدير ! هاجم الفلاحون فى الجيزة مخازن غلال الجيش البريطانى واشعلوا فيها النار . هاجم أهل أسيوط مراكز تموين الجيش البريطانى وحولوه الى رماد . وقعت معركة بين شعب أسيوط والجيش البريطانى سقط فيها قتلى وجرحى من الفلاحين والعمال المصريين والجنود الانجليز . خرج ألوف المتظاهرين فى المنصورة واستولوا على المحافظة ورفعوا راية الثورة . أضرب الأزهر وجميع المدارس العالية والثانوية والابتدائية فى كل مدن القطر . خرجت مظاهرة صاخبة من الأزهر تهتف الموت للانجليز ! هاجمت بعض المظاهرات المحلات الأجنبية . رفض جنود البوليس المصريون أن يطلقوا النار على ابناء وطنهم . جردت قوات البوليس المصرية من السلاح وحل مكانها جنود من الانجليز . سقط فى المعركة غلام مجهول الاسم فى ميدان السيدة . أصيب بعشرات من رصاص الانجليز . حمل المتظاهرون جثته المخضبة بالدم وذهبوا بها الى بيت الأمة . نزلت صفية زغلول الى الحديقة وقبلت الغلام فى رأسه واحتضنته . مشت المظاهرات فى الشوارع تحمل جثة الغلام المجهول وهى تهتف بصوت كالرعد « الموت للانجليز » . ذهبت الى مجلس الوزراء وصاحت فى حسين رشدى باشا رئيس الوزراء قائلة : استقيلوا من مناصبكم والا كنتم شركاء للمجرمين !

كانت صفية سعيدة بما تراه . رفضت أن تغسل يدها من دم الشهيد الأول الذى احتضنته الى صدرها . كانت تشعر كأنها خضبت يديها بالحناء يوم زفافها . كانت فخورا بثوبها الذى سقطت عليه بقع من دم الشهيد . بقيت ترتدى الثوب نفسه عدة أيام . وتقول أنها تفخر بأنها تحمل قطرات من دم أول شهيد فى الثورة !

عاشت القاهرة فى الظلام . كل فوانيس النور فى الشوارع حطمها المتظاهرون . دور السينما أقفلت أبوابها . مسارح نجيب الريحانى وعلى الكسار وعكاشة اغلقت بالضبة والمفتاح . وخرج الممثلون والممثلات يتظاهرون فى الشوارع . لا بيع ولاشراء . كل المحلات التجارية مغلقة . صدرت الصحف وكل صفحاتها الأولى اعمدة بيضاء . الرقابة حذفت أنباء القبض على سعد . هذه المساحة البيضاء كانت غاصة بالاشاعات التى تتناقلها الافواه المنتشرة اكثر من انتشار الصحف . السلطان مختبىء فى قصره .

الانجليز أرسلوا فى طلب نجدات من فلسطين . القطارات العسكرية التى أرسلتها القيادة البريطانية لاخضاع الأقاليم واقفة بغير حراك لأن القضبان نزعت من أمامها ومن خلفها . كلما أرسلت القيادة فرقة من المهندسين لاصلاح أحد الأمكنة ، خرج الفلاحون وحطموا ما أصلحه سلاح المهندسين .

ولكن صفية زغلول تسأل باستمرار عن أخبار مديرية البحيرة ! عن أخبار البدو ؟ وما من أخبار من البحيرة ولا من البدو ! ولكن لماذا مديرية البحيرة بالذات ؟ ولماذا بدو الصحراء ؟!

كان السر فى ذلك أن سعد زغلول كان يملك عزبة فى مديرية البحيرة . وكانت هذه العزبة هى مكان اجتماعاته السرية بأعضاء الجهاز السرى . وكان يجتمع فى هذه العزبة بعدد من أصدقائه من مشايخ العربان . كحمد الباسل باشا والمصرى السعدى بك وبعض أفراد اسرته وغيرهم من مشايخ القبائل . وجرت بينهم أحاديث طويلة أبدوا فيها استعدادهم للاشتراك فى أى حركة يقوم بها سعد ضد الانجليز . وكانوا فى حاجة الى السلاح . وتم الاتفاق على ان يتم تهريب سلاح الى هذه القبائل بواسطة بعض زعماء أسرة السنوسى ، وكانوا على قرابة بحمد الباسل باشا والمصرى بك السعدى وأسرة المصرى بالبحيرة . ولم تكن الثورة فى حاجة الى أسلحة ضخمة ، وقد كانت وجهة نظر سعد انها تحتاج الى أسلحة تناسب عمليات المقاومة . وفعلا تم شراء بعض الأسلحة . وكان من رأى حمد الباسل باشا أن تتحرك الثورة فى سنة ١٩١٤ بعد أعلان الحماية وخلع الخديو ، ولكن سعد لم يوافق على هذا الموعد ، لأنه خشى أن تفسر الثورة على أنها احتجاج على عزل الخديو عباس وليست ثورة وطنية يقوم بها الشعب .

ومضت ٢٤ ساعة ولم تتحرك مديرية البحيرة ، ولم تتحرك مديرية الفيوم وهما مراكز القبائل التى عرفت صفية من سعد انها ستكون أول من يشترك فى الثورة . ولم تقدر صفية وقتئذ ان انقطاع المواصلات وتحطيم قضبان السكك الحديدية . وقطع أسلاك التليفون كان السبب فى تأخر ساعة الصفر الى هذه المراكز النائية .

وكان سعد قد اتفق مع صفية على شفرة تستعملها معه بعد القبض عليه . فاذا لم تتحرك البلاد بعد القبض عليه لاترسل اليه شيئا ، واذا تحركت ترسل له قبلة . واذا ثار البلد ترسل اليه مائة قبلة .. وبقدر حرارة الثورة تكون حرارة القبلات ! وطلب اليها أن تسلم الرسالة الى محمود فهمى النقراشى وهو الذى سيتولى ايصالها اليه بطريقته الخاصة .

وكتبت صفية تقول له « أقبلك مليون قبلة » ! وسلمت الرسالة

الى النقراشى .. ولكن الرسالة لم تصل الى سعد . فقد عجز الرسول المكلف عن اقتحام كل الحراسات الى داخل قصر النيل .

وكان سعد فى القاهرة فى قشلاق قصر النيل عندما انفجرت الثورة . ولكنه لم يعلم بها ، وعندما لم يتلق أى رسالة من صفية أعتقد أن الجهاز السرى فشل فى حركته ! .

ولم يغادر سعد القاهرة الا فى اليوم الثانى لقيام الثورة . ففى اليوم الثالث للقبض عليه وضعه الانجليز وزملاءه الثلاثة فى سيارتين عسكريتين ووراءهما سيارة لورى تحمل الخدم والحقائب . وأمام هذا الموكب ثلاث سيارات عسكرية فيها جنود يحملون المدافع الرشاشة ، ووراءهم ثلاث سيارات مصفحة ومر موكب السيارات فى شوارع جانبية حتى محطة القاهرة ، ثم ادخلوا المحطة يحيط بهم عشرون من الضباط الانجليز مسلحون بالمدافع الرشاشة وكانت المحطة قد أخليت من الجماهير . وساروا بهم الى رصيف قطار بورسعيد . ولم يكونوا يعرفون الى أين هم ذاهبون . ورأى سعد على الرصيف عديله محمود صدقى باشا زوج زكية هانم شقيقة صفية الكبرى . فطلب منه أن يعطيه مامعه من النقود . فاعطاه ثمانية عشر جنيها . ولكنه لم يقل له كلمة واحدة عن قيام الثورة ، فقد حذره أحد كبار الضباط الانجليز من الافضاء الى سعد ولو بكلمة واحدة وإلا أعدموه رميا بالرصاص . ولزم محمود صدقى باشا الصمت التام ولم يقل شيئا ! وعندما استقل سعد وزملاؤه الباخرة التى ستنقلهم الى مالطة واوغلت فى عرض البحر بهم عرفوا عندئذ فقط أنه تقرر نفيهم الى مالطة !

ولهذا كان سعد والباخرة تحمله الى منفاه يعتقد أن البلد لم يتحرك لأنه لم تصله قبلات من زوجته !

أما حمد الباسل باشا ومحمد محمود باشا فكانا يعتقدان أن الثورة على وشك القيام ..

وكان اسماعيل صدقى باشا يميل الى الرأى بأن البلد لن يثور !

وعندما علمت صفية أن رسالتها لم تصل الى سعد أرسلت اليه برقية الى مالطة تقول له « مليون قبلة .. صحتنا جيدة » .. ولكن الرقيب منع ارسال هذه القبلات ! .. ولعله لم يصدق أن عجوزا ترسل الى زوجها العجوز مليون قبله فى منفاه !

وفى يوم الثلاثاء ١١ مارس أضرب عمال الترام . وتبعهم سائقو التاكسى . ثم الحوذية . اغلقت البنوك والشركات . اغلقت البنوك والشركات . اغلقت المحال التجارية . خلت الوزارات من الموظفين . خرجت مصر كلها الى الشوارع

تهتف لمصر والثورة . وفى كل مدينة قامت معركة بين الشعب وجيش الاحتلال . معركة فى شبين الكوم . معركة فى طنطا . الثوار يستولون على محطة السكك الحديدية . استولوا على المنشآت العامة . نشب قتال رهيب . سقط ٢٢ شهيدا و ٥٠ جريحا . قتل وجرح عشرات من جنود الاحتلال . معركة عنيفة فى الاسكندرية بين الشعب والانجليز . قبض الانجليز على ٥٠ متظاهرا . احتل المتظاهرون عددا من مراكز البوليس . أضرب المحامون . خرجوا الى الشوارع يرتدون أرواب المحاماة ويهتفون بسقوط الاحتلال . أصدر القائد العام البريطانى انذارا بمحاكمة كل من يمشى فى مظاهرة أمام محكمة عسكرية بريطانية .

وفى اليوم الرابع تحدت الجماهير الانذار البريطانى . تضاعف عدد المظاهرات . معارك فى كل مدينة وكل شارع . دوريات بريطانية مسلحة فى كل مكان . الجماهير تهاجمها بالطوب وهى ترد عليهم بالرصاص والمدافع . الشبان يعرضون صدورهم لطلقات المدافع الرشاشة . يندفعون الى السيارات المدرعة . ينتزعون ضباطها الانجليز من داخل السيارات . كم من مرة استطاعت شجاعة الطوب وجرأة العصى أن تهزم البنادق والمدافع فى أيدى الجنود البريطانيين . المظاهرات تتضاعف مع التهديدات والانذارات كل يوم .

وفى يوم الجمعة ١٤ مارس سقطت أول شهيدة مصرية . اسمها حميدة خليل من كفر الزهاوى بحى الجمالية . قتلت برصاص الانجليز فى مظاهرة ضخمة . سقط معها ١٢ شهيدا . حمل المتظاهرون جثث القتلى تتقدمهم جثة حميدة وذهبوا الى بيت الأمة يهتفون « نموت ويحيا سعد » ! كان أغرب ما حدث فى ذلك اليوم أن الجماهير عندما حملت جثة حميدة الى بيتها فى حى الجمالية قابلتها نساء الحى باطلاق الزغاريد !

١٢ قتيلا فى مظاهرة أخرى أمام مسجد الحسين . اكتشف الأطباء أن أغلب القتلى مصابون برصاص دمدم الممنوع دوليا . أضرب الأطباء مشوا فى مظاهرة الى معتمدى الدول وقدموا اليهم مذكرات يحتجون فيها على استعمال هذا الرصاص الوحشى .

وفى ذلك اليوم شهد شارع سعد زغلول منظرا مثيرا . رأى الطفلان كأن أرض الشارع انشقت فجأة وخرج منها ثلاثة آلاف فلاح بملابسهم الزرقاء . يحملون فى أيديهم العصى والأشجار والفئوس ويلوحون بها فى الهواء . أصوات مزمجرة غاضبة . تهتف كالرعد وتلوح بقبضة أيديها أو بالاشجار هاتفة مزمجرة . وعرف انهم أهل مدينة قليوب . خرجت المدينة كلها بكل شبابها وشيبها وزحفت الى القاهرة تهدد بالانتقام للأبرياء الذين قتلوا برصاص الانجليز . لسعد الذى نفاه الانجليز . لقد أقسموا أن يقتلوا كل انجليزى فى طريقهم الى القاهرة !

وخرج اليهم عبد العزيز فهمي من مكتب سعد ، ووقف في شرفة السلاملك المطلة على الشارع . وتسلل الطفلان ووقفا خلف عبدالعزيز فهمي . وأحاط به أعضاء الوفد . ورفع يده مهدئا الجماهير الصاخبة أن تسكت . ومضت الجماهير في صخبها وثورتها . وصاح صوت يقول « اللى يحب سعد باشا يسكت » . وسكتت الألوف كأن على رؤوسها الطير . لو انك ألقيت دبوسا في وسط هذه الألوف لسمعت صوت سقوطه . وخطب عبدالعزيز فهمي داعيا الجماهير الى الهدوء والسكينة ومراعاة النظام وعدم الخروج على القوانين . وطلب اليها أن تترك الوفد يعمل لخير مصر بالطرق المشروعة . ومكث نصف ساعة يخطب . وكان خطيبا مفوها من أبلغ خطباء مصر . وبعد أن شعر بأنه استطاع بطلاقة لسانه وقوة حجته أن يقنع الجماهير . دعاها الى العودة الى قليوب في هدوء ..

وما كاد ينتهي عبدالعزيز فهمي من كلمته حتى صرخت الجماهير بصوت كالرعد :

الثورة . الثورة . الثورة ..

وغضب عبدالعزيز فهمي وخلع طربوشه ورماه في الأرض وهو يقول :

— ملعون أبوكم !

ولكن لحسن الحظ أن صوته ضاع في دوى الرعد الذى ينادى بالثورة !

وكان منظر عبدالعزيز فهمي وهو في ثورته يبعث على الضحك في هذا الموقف الرهيب . وكانت صفية تطل من النافذة وترقبه وهو يخطب . ثم وهو يلقى طربوشه على الأرض غاضبا . وظلت تضحك ربع ساعة بغير انقطاع ، وكانت هذه هي المرة الأولى التى ضحكت فيها منذ نفى سعد زغلول !

ولم تكن صفية تحب عبدالعزيز فهمي ، فقد كانت تعلم أن سعد عارض في ضمه الى الوفد ، وقبل دخوله تحت الحاح لطفي السيد ، وزاد حنقها عليه حين قرر الطلبة الخروج في مظاهرة فأرسلوا ثلاثة من زملائهم الى بيت الأمة يستشيرون أعضاء الوفد في الاضراب والاعتصام بمدارسهم أو الخروج الى الشارع متظاهرين . وثار عليهم عبدالعزيز فهمي وقال : هذا لعب عيال ! لا اضراب ولا مظاهرة ! انتم تفسدون علينا عملنا بحماقتكم . وخرج الطلبة متذمرين ولحق بهم محمود أبوالنصر وعبداللطيف المكباتى عضو الوفد يحاولان التلطيف من توبيخ عبدالعزيز فهمي لهم ، واستدعتهم صفية وطيبت خاطرهم وقالت لهم : انتم أبناء سعد ! وهؤلاء أصدقاؤه . والأب يعتمد أولا على أبنائه ! فقالوا لها : لقد كنا نفكر في ضربه ! قالت لهم : المفروض الآن هو أن نضرب الانجليز لا أن نضرب بعضنا !

وقالت صفية يومها وهى تروى القصة . لقد هممت أن أقول لهم اذهبوا واضربوه ولكنى أمسكت نفسى بصعوبة !

وكان سعد يصف عبد العزيز فهمي بقوله « ما رأيت رجلا مغرورا بنفسه فى تواضع . ولا خبيثا فى صالح . ولا عسوفا فى عادل . ولا كذوبا فى صادق ، ولا جبانا فى شجاع ، ولا متقلبا فى ثابت ، ولا مرائيا فى صريح ، أكثر من هذا الرجل ـ عبدالعزيز فهمى » !

والواقع أن عبد العزيز فهمي كان يمثل المعتدلين ، وسعد كان يمثل الثوار . الأول عصبي قليل الصبر والثانى يؤمن بأن الصبر فلسفة ! الأول إذا غضب أطلق النار مندفعا فطاشت الرصاصة فى الهواء ، والثانى اذا غضب تأنى وانتظر ، واستعد ، وتمرن ، وتهيأ ، وصوب وبعد ذلك يطلق الرصاصة فى المليان ! الأول يؤمن بنفسه والثانى يؤمن بشعبه . الأول واقعي يعيش فى الحاضر والماضى ، والثانى حالم يعيش فى المستقبل ، ويحاول أن يصنع هذا المستقبل ، الأول يعتقد أن مصر لا تستحق أكثر من الاستقلال الذاتى ، والثانى يؤمن بأن مصر تستحق الاستقلال التام . عبدالعزيز يحترم المثقفين ويحتقر الجهلاء . وسعد يستمد قوته من كل المصريين ، ولأنهم مصدر قوته يحترمهم جميعا ويتجه إليهم جميعا ويحسب حسابهم جميعا عبدالعزيز يندفع ثم يتردد . وسعد يتردد ثم يندفع ، عبدالعزيز يكر كالاسد ثم يفر كالفأر ، وسعد يحوم حول فريسته ثم ينقض عليها ، عبدالعزيز تضعفه الصدمات وتيئسه العقبات . وسعد الضربات وحدها هى التى تدفعه الى الأمام . والصدمات تلهمه الصمود . الصواعق تؤنسه ولاتخيفه . المطارق عندما تسقط على رأسه توقظه من نومه ! عبدالعزيز يمشى فى طريقه فاذا رأى الجبل أمامه جلس على سفحه وزرع شجرة ، وسعد إذا رأى الجبل أمامه تحول الى كاسحة صخور تشق طريقها فى الجبل . كل منهما فلاح يتحمس للفلاحين ، ولكن الفلاحين ، ولكن الفلاحين فى تعريف عبدالعزيز فهمى أصحاب الأطيان ، والفلاحين فى إيمان سعد هم الحفاة العراة المسحوقون ! كل منهما كاهن فى معبد القانون . عبدالعزيز يرى احترام القانون فى كل الظروف والأحوال حتى ولو كان الحاكم مستبدا طاغية أو أجنبيا محتلا ، وسعد يريد أن تقوم المحبة بين الناس مقام القانون . بل هو يرى أن طاعة قانون الطاغية هو خروج على القانون . وعندما تثور الشعوب على حاكميها يجب أن تثور على قوانينهم . ولو أنها اكتفت بأن تعارضهم من خلال قوانينهم وفى ظلها فكأنها تعمل على توطيد دعائم الاستبداد .

الفرق بين عبد العزيز وسعد هو الفرق بين الساخط والثائر ، ان السخط هو المدرسة الابتدائية للثوار . ولكن إذا بقى الرجل طول حياته فى مدرسة

السخط دون أن يخطو الى جامعة الثورة ، كان أشبه بالذى يمضى عمره كله تلميذا فى المدرسة الابتدائية . فمعاول السخط هى التى نبدأ بها فى تحطيم قلاع الطغاة . ولكن يوم نمضى حياتنا فى مواقعنا تسقط الانقاض فوق رؤوسنا . ولهذا يجب أن نتقدم بالمعاول لنحطم رؤوس الطغاة . فلا نبقى فى المرحلة الأولى الا المدة الكافية لعملية الانتقال للمرحلة التالية وهى مرحلة الانقضاض .

وكان عبد العزيز ملكيا . وسعد جمهوريا . وقد ألقى عبد العزيز فهمى خطابا فى عام ١٩٢٣ هاجم فيه سعد زغلول واتهمه بأنه مجنون ، واستدل على جنونه بأن ذكر انه ـ أى عبدالعزيز فهمى ـ أعد اثناء المفاوضات مع الانجليز مشروع دستور لمصر بعد الاستقلال نصت مادته الأولى على ان ملك مصر هو الملك فؤاد ، ويخلفه على العرش ولى عهده الأمير فاروق . وما كاد سعد يقرأ نص هذه المادة حتى هاج وماج . وغضب وثار . وألقى بالدستور كله فى وجه عبدالعزيز فهمى .

وقال له :

ــ ألا يكفيك أن تجىء لنا بفؤاد ؟! .. وتريد ايضا ان تنكبنا بفاروق !

وهكذا كان يتصور عبد العزيز فهمى . فالجمهورية فى تفكيره جنون ، أما الملكية فهى منتهى العقل والادراك . ولهذا أنقسمت الثورة منذ يومها الأول الى مجانين وعقلاء . والى متطرفين ومعتدلين ، والى حالمين وواقعيين . وكان عبدالعزيز فى فريق العقلاء والمعتدلين والواقعيين باعتبارهم الفريق القانونى . وكان سعد دائما فى فريق المجانين والمتطرفين والحالمين باعتبارهم فريق الثوار .

والعقلاء والمعتدلون والواقعيون يسجنون انفسهم فى زنزانة من مخاوفهم . ناسين أن المستقبل لا يصنعه الا الذين يقفزون واقعهم الى غدهم تمتد أبصارهم من الحاضر الى المستقبل . لايتقيدون فى تفكيرهم بسلاسل الماضى الثقيل ..

وعندما بدأ تأليف الوفد رأى بعض الأعيان انه لايجوز أن يكون رئيس الوفد من « الرعية » أى من الشعب ، أقترحوا أن يكون رئيس الوفد أميرا من أسرة محمد على ورشحوا الأمير عمر طوسون لرياسة الوفد بدلا من سعد زغلول !

وحارب سعد هذه الدعوة . وأصر على أن يكون الوفد برياسة رجل من صميم الشعب ، وانضم عبدالعزيز فهمى فى أول الأمر الى المؤيدين بان يكون رئيس الوفد أميرا بحجة أن الشعب سيسير خلف الحركة إذا وجد فى قيادتها أميرا من الأسرة المالكة . ولن يحترم الحركة إذا وجد على رأسها رجلا من الشعب !

وانتهى الخلاف عندما أمر السلطان فؤاد الأمير عمر طوسون بألا يقبل رياسة الوفد نزولا على الأمر الذى أصدره اليه نائب ملك انجلترا فى مصر ؛

وكان سعد يتصور أن حماس عبدالعزيز فهمى لكى يرأس الأمير الوفد هو أن عبدالعزيز يحسده على هذه الزعامة ، ويستنكر على فلاح مصرى ان يقود الأمة المصرية .

وقد أعرب سعد لسكرتيره الأستاذ محمد كامل سليم أثناء وجوده فى باريس يوم ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٠ عن رأيه فى عبدالعزيز بقوله : « لقد عجبت من أمر هذا الرجل .. الذى يطفح الحقد فى صدره . وانى أرثى لحاله ، لأن الحسد سيأكل نفسه ، حتى يهلكها . بينما الحقد يضنيه ، ويشقيه ، ويذويه ، ثم يفنيه . »

كان عبد العزيز يضيق برياسة سعد ، ومع ذلك قبل بعد ذلك أن يكون مرءوسا لرجل أقل من سعد علما وكفاية ، قبل أن يكون سكرتيرا لحزب الأحرار الدستوريين الذى يرأسه عدلى يكن . لأن عدلى يكن كان من أصهار أسرة محمد على ، وليس فلاحا مثله . ولا مصريا صميما مثله .

وكان عبد العزيز يعتقد أنه أحق من سعد بالزعامة والرياسة ، فهو من أسرة أعرق من أسرته ، وأكثر ثراء ، وأوسع نفوذا ، وهو أكثر منه علما وثقافة . وهو أفقه منه فى القانون . وهو أخطب منه اذا خطب . وأبلغ منه اذا كتب ، وأعظم سحرا اذا تكلم . ولا يرى فى سعد أكثر من منوم مغناطيسى . قادر على أن يسحر الجماهير . ويسلب لبهم . ويسيطر على عواطفهم ويتحكم فى مشاعرهم . ولكنه غير قادر على أن يحرك عقولهم أو يهز أفكارهم .

ولم يكن عبد العزيز بكل السوء الذى يصفه به سعد ، فقد كان عالما كبيرا ورجلا من أعظم الرجال الذين تولوا منصب قاضى القضاه فى مصر ، وله مواقف تاريخية مشهورة . ولكن عصبيته وكراهيته لسعد افقدته موازينه فى بعض الأحوال .

فعبد العزيز فهمى هو أبوالدستور المصرى . وله الفضل فى وضع كثير من مبادئه الحرة . وعندما تردد الملك فؤاد فى الموافقة على الدستور وأراد أن يحذف المواد التى تؤيد سلطة الأمة كان صوت عبد العزيز فهمى أعلى صوت أرتفع مدافعا عن حقوق الأمة المسلوبة ، وصدر الدستور بالمواد التى حاول الملك أن يحذفها . وجرت الانتخابات الأولى لمجلس النواب ، ورشح عبدالعزيز فهمى نفسه نائبا فى دائرته الانتخابية حيث أهله وأسرته وعزوته ومزارعه . ورشح سعد زغلول ضده رجلا مجهولا من أنصار الوفد . لا نسبة بين كفايته أو علمه وبين كفاية وعلم عبدالعزيز فهمى . وفوجىء عبدالعزيز بالأغلبية

فى دائرته تسقطه هو وتنتخب المرشح المجهول ، لا لسبب الا لأنه مرشح سعد زغلول . ومنعته عصبيته أن يحنى رأسه لارادة الناخبين فتبرأ من الدستور ولعن حكم الأمة . وأعلن أن الدستور ثوب فضفاض وان الشعب المصرى لا يستحقه ، ومضى يؤيد كل حكومة تعطل هذا الدستور أو تلغيه أوتطأه بالأقدام !!

ووقف عبدالعزيز فهمى موقفا تاريخيا ضد الملك فؤاد دفاعا عن حرية الرأى عندما أراد الملك أن يعزل الشيخ على عبدالرازق من منصبه عقابا له على تأليف كتاب « الاسلام وأصول الحكم » الذى أثبت فيه أن الملكية بدعة فى الاسلام .. وطلب الملك الى عبدالعزيز أن يستقيل فرفض . فأصدر الملك أمرا بإقالته ووقف عبدالعزيز فهمى يخطب ويهاجم علنا حاشية الملك ومستشاريه بخطابه المشهور الذى قال فيه « حنانيك يانشأت » إشارة الى حسن نشأت باشا رئيس الديوان الملكى فى تلك الأيام .

واتحدت جميع الأحزاب لمقاومة الملك . وفوجىء عبدالعزيز فهمى وهو رئيس حزب الأحرار وقتئذ بأن الاحزاب كلها انتخبت سعد رئيسا لمؤتمرها وزعيما لها . فلم يطق زعامة سعد وألقى طربوشه على الأرض واستقال من رياسة حزب الأحرار الدستوريين وانسحب من الحياة السياسية كلها ..

وعندما تولى محمد محمود رياسة الوزارة وعطل الدستور عينه رئيسا لمحكمة الاستئناف ثم أعيدت الحياة النيابية واذا بالاستاذ زهير صبرى عضو مجلس النواب يقدم سؤالا لوزير العدل عن المرتب الاستثنائى الذى يتقاضاه رئيس محكمة الاستئناف . واعتبر عبدالعزيز فهمى سؤال النائب اعتداء على قدسية القضاء . فأعلن أن مقعد القضاة يهتز تحته واستقال .

وكان غريبا أن يستقيل رجل درس القانون الدستورى لهذا السبب .. فان من حق النائب فى جميع برلمانات العالم أن يناقش مرتبات القضاة ! وعجيب أن يثور الرجل الذى وضع فى الدستور المصرى مادة تنص على أن الأمة هى مصدر السلطات . عجيب أن يثور عندما يرى أحد نواب الأمة يمارس احدى هذه السلطات . وهى سلطة السؤال والاستجواب ! وأعجب من هذا الا يهتز المقعد تحت قاضى القضاة حين يرى الدستور ــ وهو أبوالقوانين ــ قد عطلت كل مواده . ويهتز لأن نائبا قدم فى البرلمان سؤالا عن مرتب قاضى القضاة !

ولكن اختلاف المدرستين والعقليتين والاتجاهين هو الذى فرق بين عبدالعزيز فهمى وسعد زغلول ..

وقد حدثت فى أوائل الثورة معركة غريبة بين عبدالعزيز وصفية كاد عبدالعزيز أن يستقيل بسببها من الوفد ، ولم يمض على قيام الثورة سوى بضعة أيام .

فقد اندلعت الثورة فى كل مكان ، وتحركت مديرية البحيرة وانقض أهاليها على مدير البحيرة وأوسعوه ضرباً واضطر الى الهرب . وهو بين الموت والحياة ، واستولى الأهالى على المديرية . وثارت الغربية والدقهلية . واشتعلت الدلتا كلها . وتسلم الشعب السلطة فى كل مكان . وأعلن يوسف أحمد الجندى الجمهورية فى مدينة زفتى . وعزلت القاهرة عن القطر كله . وأصبح الانجليز غير قادرين على الاحتفاظ بالصعيد تحت ضربات الثوار . وتحرك فرسان البدو فى البحيرة والفيوم واستولوا على جميع مخازن الجيوش البريطانية وتموينها . ورفعت أعلام الثورة فى كل مكان . وأنذر القائد العام البريطانى باعدام كل من يقطع المواصلات فاضرب عمال السكة الحديد فى اليوم التالى وقطعت جميع القضبان وأسلاك التلغراف والتليفون . وهدد القائد العام باحراق كل قرية تقع على مقربة منها القضبان . فتحدت جميع القرى هذا التهديد وحطمت القضبان التى أصلحها الانجليز ..

ودعا القائد العام البريطانى الى مقر القيادة فى فندق « سافوى » بعض الوزراء وأعضاء الوفد وقال لهم :

« ان السلطة العسكرية البريطانية اقتصرت حتى الآن على اتخاذ إجراءات دفاعية ضد الحوادث الجارية فى البلاد . فإذا استمرت هذه الحوادث فسوف أرانى مضطرا الى اجراء خطة هجومية . وانى أحذركم من حملى على انتهاج هذه الخطة التى تكون عاقبتها وبالا على البلاد . فان مدارها تدمير العمائر . وتخريب القصور . فضلاً عن احراق القرى ، وازهاق الأرواح البريئة . الى غير ذلك مما يقتضيه الموقف . وانى جمعتكم هنا لأعلنكم بهذا الانذار . واعلموا أنه آخر إنذار . واعملوا أن كل شيء فى وسعكم لتسكين الأهالى . ومنعهم عن احداث القلاقل ، » وإلا فإنى سأنفذ خطتى » .

وفى نفس يوم الانذار خرجت النساء فى مظاهرتهن الأولى . ولم تتوقف الثورة بل زاد اندلاعها ، لم يخف الانذار الشعب بل تضاعف اندفاعه ، لم يتراجع الثوار وانما استمروا فى تقدمهم . فشلت قنابل الطائرات فى اخضاع الأهالى . عجز احراق القرى عن تاديب الفلاحين . اعلنت بريطانيا انها قررت إيفاد اللورد اللنبى فاتح القدس وحامل عصا الماريشاليه لاخضاع الثورة فزاد اندلاع الثورة .

وفى اليوم التالى لوصول اللورد اللنبى الى القاهرة فوجئت صفية زغلول بحسين رشدى باشا رئيس الوزراء المستقيل وهو يقترح عليها أن تذيع بيانا للشعب تدعوه للهدوء والسكينة ويحافظ على القوانين .

وقالت صفية ان هذه وثيقة خضوع واستسلام ترفض أن توقعها وانضم

إليها في هذا الرأى عبدالرحمن فهمي وأحمد ماهر والنقراشي وجميع أعضاء الجهاز السرى للثورة .

ثم فوجئت صفية بأن رشدى باشا أقنع عبدالعزيز فهمي باصدار هذا البيان . وان عبد العزيز فهمي أقنع أعضاء الوفد بتوقيعه .

وكان نص البيان يقول :

« أصدرت السلطة العسكرية انذارا بأنها ستتخذ أقسى مايكون من الوسائل الحربية عقابا على ما يقع من الاعتداء على طرق المواصلات والأملاك العمومية . ولا يخفى على أحد أن الاعتداء سواء كان على الأنفس ، أو على الأملاك يحرم بالشرائع الالهية والقوانين الوضعية . وأن قطع طرق المواصلات يضر أهل البلاد ضررا واضحا اذ هو يحول بينهم وبين مباشرة مصالحهم . ويوقف حركة النقل للمحاصيل والأرزاق . ويعطل المعاملات والأخذ والعطاء . ويسبب العسر وسوء الحالة .. على أن العقاب عليه يعرض بعض القرى للتخريب . ويعرض الأنفس البريئة الى أن تؤخذ بما لم ترتكب من الذنوب . وينبغي أن يلاحظ أن هذا الاعتداء يضيع على المصريين ما ينتظرون من العطف عليهم بما يسبب من رواج اشاعات السوء عنهم ، ومن أجل ذلك رأى الموقعون على هذا أن من أقدس الواجبات الوطنية أن يناشدوا الشعب المصرى باسم مصلحة الوطن ، أن يجتنب كل اعتداء ، وألا يخرج أحد في أعماله عن حدود القوانين ، حتى لايسد الطريق في وجه كل الذين يخدمون الوطن بالطرق المشروعة . كما أننا ندعو أعيان البلاد وأرباب النفوذ فيها أن يقوموا بالواجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيسارعوا الى اتخاذ جميع ما لديهم من الوسائل لمنع وقوع ما ينجم عنه ضرر بالبلاد . وإنا شديدو الرجاء في أن الأمة المصرية بما عرفت من التعقل والروية تصغى الى هذا النداء . وتلزم طريق الحكمة في سلوكها . والله الهادى الى سواء السبيل »

وكان البيان واضحا في أنه تصفية كاملة للثورة .. ودعوة للشعب الى احترام القوانين .

وغضب الثوار احتجاجا على هذا البيان الغريب ..

وقالت صفية انها تؤيدهم في أن هذا البيان فضيحة كبرى !

ولم تدهش صفية حين رأت شيخ الأزهر والبطريرك قد وقعا البيان ، كما لم تدهش لأن حسين رشدى وجميع وزرائه وقعوه أيضا ، ولكنها ذهلت حين علمت أن أحد عشر من أعضاء الوفد الموجودين في القاهرة وقعوا هذا البيان . على شعراوى باشا ومحمد على علوبة وعبدالعزيز فهمي ومحمود أبوالنصر وأحمد لطفي السيد وجورج خياط وسينوت حنا وعبداللطيف

المكباتى ومصطفى النحاس وحافظ عفيفى ومحمد عبدالخالق مدكور ..

وقالت صفية انها ستطرد أعضاء الوفد من بيت الأمة .

وان الذى كتب هذا البيان يستحق أن يضرب بالرصاص !

وسمع عبد العزيز فهمى هذا فثار . فقد كان هو كاتب هذا البيان ، وكان يرى أنه فى مصلحة البلاد . فهدد بالاستقالة من الوفد وقال انه لن يضع قدمه فى بيت سعد زغلول !

وقيل لعبد العزيز فهمى ان هذا لم يعد بيت سعد وانما هو بيت الأمة . فقد حدث أثناء تأليف الوفد أن أثيرت مناقشة عنيفة بين سعد وبين الأستاذين محمد زكى على ومصطفى الشوربجى المحاميين وعضوى الحزب الوطنى واشتد زكى على فى مهاجمة سعد فقال له سعد : كيف تهيننى فى بيتى ؟ . فقال له محمد زكى على : هذا ليس بيتك .. انه بيت الأمة .. ومنذ ذلك اليوم أصبح بيت سعد هو بيت الأمة ..

وقيل لعبد العزيز فهمى ان صفية لم تكن تعرف أنه هو الذى كتب البيان عندما طالبت بقتل كاتب البيان . ورضى عبدالعزيز أن يعدل عن استقالته ويعود الى العمل وهو يضرب كفا بكف ويقول :

— والله عال .. الحركة أصبحت حركة عيال ونسوان !

ولكن « العيال والنسوان » انتصروا على عبد العزيز فهمى . اذ استمرت الثورة فى اندفاعها . داست باقدامها على بيان التهدئة . زادت عمليات التدمير فى كل مكان . وقعت معارك دموية فى كل القطر بغير استثناء ..

وحدث أثناء اجتماع صفية بالثوار حادث طريف .. ففى أحد الأيام اجتمعت صفية فى دارها بعبد الرحمن فهمى وأحمد ماهر والنقراشى وعدد من أعضاء الجهاز السرى للثورة ..

وتحدثت صفية بعبارات نارية . تدعو الى استمرار الثورة .. الى المضى فى تحدى الانجليز ، فى الاستهانة بالموت أمام المدافع والرصاص ..

وقال الدكتور أحمد ماهر فيما بعد : كانت تتكلم يومها وكأنها جان دارك !

وفجأة صرخت صفية ، وقفزت واقفة فوق المقعد ، وقد ارتسمت عليها كل علامات الذعر والرعب والخوف وصاحت :

— الحقونى .. الحقونى !

وذهل الثوار الموجودون .. وتلفتوا حولهم فلم يروا شيئا ..

وأشارت صفية بيد مرتعشة الى الأرض .. وتلفتوا نحو الأرض فوجدوا صرصارا !

وأغرق الثوار فى الضحك ، ودهشوا من أن المرأة التى لاتخاف أساطيل الانجليز وطياراتهم ومدافعهم ودباباتهم تخاف من صرصار !

وهذه هى المرأة فى صفية زغلول . تتحدى أقوى قوى الدنيا وتخاف من حشرة صغيرة !

ولكن كيف اشتطاعت هذه المرأة التى تخاف من الصرصار أن تتحول الى بطلة . وتلعب دورا رئيسيا فى ثورة ١٩١٩ ؟

إنه الحب . ان حبها لزوجها هو الذى رفعها من امرأة تخاف من صرصار الى بطلة تخافها أقوى دولة فى العالم .. ان المرأة الشرقية اذا أحبت زوجها أمنت بأفكاره . فقد كانت خديجة أول من أمن بمحمد . المرأة الشرقية اذا أحبت زوجها تطبعت بطباعه . أو كما يقولون بالعامية « تشرب دمه » . هذا الامتزاج بين الجسدين والقلبين يصنع روحا واحدا وتفكيرا واحدا . فاذا أحبت المرأة تفانت ، واذا تفانت عبدت الرجل ، واذا عبدته أندمجت فيه اندماجا فكريا كاملا . ولقد كانت قصة الحب بين هذين الزوجين أقرب الى قصة عاشقين حبيبين ..

ان التوأمين الصغيرين يذكران عندما كبرا ودخلا عليها فى غرفتها . اذا بها جالسة تحرق خطاباتها الغرامية !

كانت أصابعها ترتعش . وهى تخرج كل خطاب من المظروف . وتقرأه على مهل . وتبلله بدموعها . ثم تلقى به فى النار !

كانت تخشى أن تقع هذه الخطابات فى أيد لا تعرف قيمة حبها وحب سعد ، فقررت أن تحرقها واحدا واحدا !

كانت لاتحرق ورقا : بل تحرق نبضات قلبها ، وهى تلقى بالخطابات فى النار !

كيف كتب زوجها هذا العدد الضخم من الخطابات الغرامية !

متى وجد الوقت ليكتب كل هذا ؟ كان يحمل فوق كتفيه مسئولية أمه بأكملها . كان يحارب أقوى امبراطورية فى العالم .. فكيف وجد الوقت لكتابة كل هذه الصفحات ؟

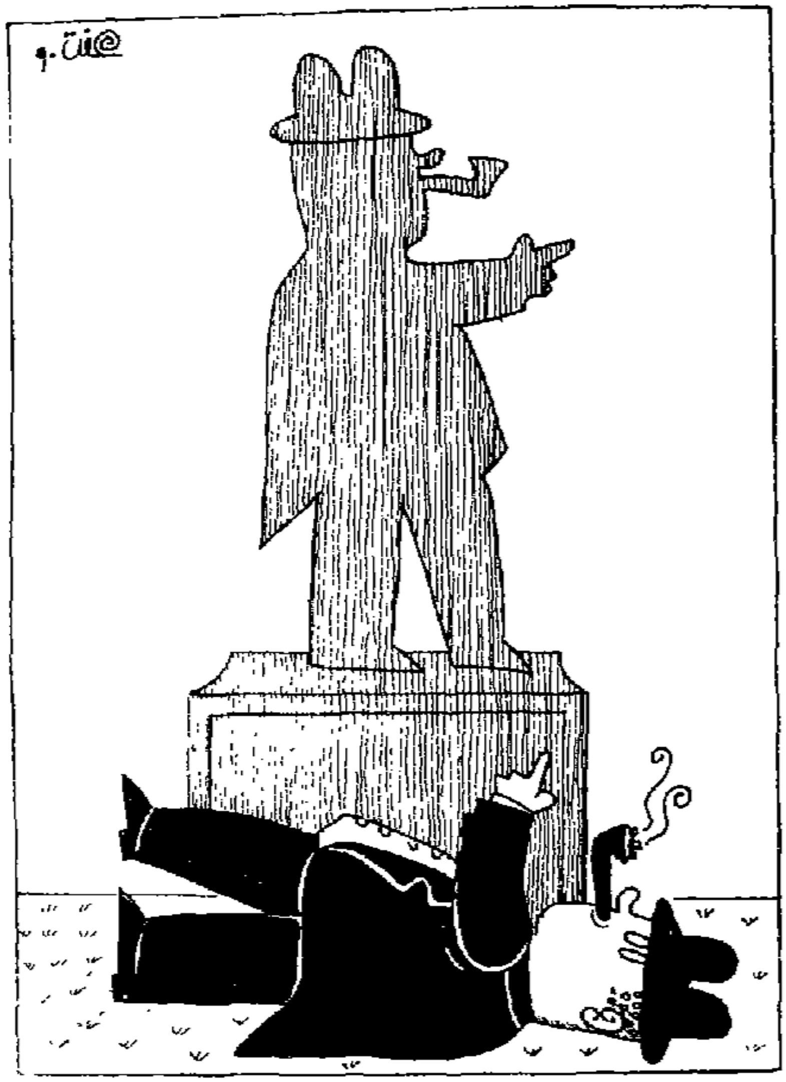
وقالت صفية يومها ان زوجها تعود أن يكتب لها خطابا غراميا فى كل مرة يتناول فيها طعامه خارج البيت . كان يحرص دائما على أن يعوضها عن غيابه عنها بكلمات رقيقه تنبض بالدفء والحب والحنان ! واستمر يكتب خطابات الغرام الى ما بعد السنين . فقد كان يؤمن بأن العمر لا يمكن أن يطفىء الحب !

وفقد الأدب العربى أرق رسائل حب كتبها زوج الى زوجته !

لقد قيل ان الحب قادر على أن يصنع المعجزات !

ولكنها المرة الأولى التى استطاع فيها الحب أن يصنع زعيمة ثورة !!

○ ○ ○



• الفصل الحادى عشر •

أصبح البيت أشبه بسوق عكاظ . أصبح سوقا للأدب والفن والشعر والخلق والابتكار . ولكن السوق بلا بائعين ولا مشترين . لامكان فيه للسماسرة والتجار . وعندما يصبح الدم يبذل بلا ثمن يصبح كل شيء بلا ثمن !

على شرفات البيت ولد خطباء الثورة . بعض هؤلاء كان يتكلم لأول مرة ، وإذا بالاحداث تحول حماسهم إهى بلاغة ، وترددهم الى اقدام ، وتلعثمهم إلى فاصحة وبيان .

على هذه الشرفات ولدت فصاحة مكرم عبيد ، وسحر عبدالمجيد بدر . وتدفق ابراهيم عبدالهادى وثورية الأب سر جيوس ، وشعبية الدكتور محجوب ثابت ، وبلاغة الشيخ مصطفى القاياتى .

كانت شرفات البيت منابر دائمة ، لاينزل خطيب حتى يصعد خطيب . من هذه الأفواه وغيرها خرجت عبارات نارية كانت تلهب مشاعر الجماهير ، كانت أشبه بصوت نفير يدعو جيوشا مجهولة للقتال . وكان هؤلاء الخمسة تلاميذ سعد خطيب الثورة الأول . عبدالمجيد بدر يقلد صوته حتى إذا وقف يخطب من وراء ستار تصورت أن سعد زغلول هو الذى يخطب . ومكرم يقلده فى بلاغته وفى اسجاعه وتشبيهاته . وعبدالهادى يقلده فى حماسته واندفاعه ، وسرجيوس ومحجوب يقلدانه فى اللغة العامية التى كان يستعملها أحيانا وهو يتحدث الى العمال والفلاحين حتى لتحسبه واحدا منهم . فهم عقليتهم واندمج فى بيئتهم . وحفظ أمثالهم ، وعرف نكاتهم الشعبية ونوادرهم الموروثة . وأصبحت كل مديرية تتباهى بخطيبها ، وكل قرية تجىء الى البيت بفصيحها ، ولم تكن خطب الخطباء تنشر فى الصحف لأن السلطة البريطانية كانت تمنع نشرها فيها . ولم تكن الخطب تذاع فى الاذاعة لأن الراديو لم يكن قد اخترع بعد ، ولم يكن من السهل طبع الخطب فى منشورات . فقد كان كل من يضبط يطبع منشورا يحكم عليه بالأعدام . وإنما كانت ألسنة الجماهير هى التى تنشر الخطب وتذيعها ، وكانت لسعد كفاية وقدرة جبارة على أن يجعل الألوف التى تسمع خطابا تحفظ على الفور أكثر عباراته ، وترددها على الفور وكأنها قطع محفوظات ! وكانت له جمل لها رنين تطير على الفور الى انحاء البلاد ، فيرددها الناس كأنها أغنية أو نشيد ! وكانت له عبارات خالدة على الزمن . ودخلت اللغة العربية وأصبح الناس يذكرونها فى أحاديثهم ويكتبونها فى رسائلهم فعبارة « أخجلتم تواضعى » قالها سعد ردا على خطباء أشادوا ببطولته وقالوا عنه بانه نبى الوطنية ، وما لبثت هذه الجملة أن أصبحت تعبيرا يتناقله الناس حتى الآن ! وعندما أصر الانجليز على أن يختار السلطان فؤاد أعضاء الوفد المصرى الذى يفاوض الانجليز قال سعد زغلول : كيف يختار السلطان الذى عينه الانجليز الوفد الذى يفاوض الانجليز كأن جورج الخامس يفاوض جورج الخامس ! وكان جورج الخامس هو ملك انجلترا فى تلك الأيام ، وأصبحت جملة « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس » على لسان الملايين بين يوم وليلة !

وعندما خرج المنشقون من أعضاء الوفد على سعد أطلق عليهم اسم « برادع الانجليز » ولصقت بهم هذه الصفة .. حتى أنهم بعد ذلك بعدة

سنوات عندما تقدموا للانتخابات سقطوا جميعا فى دوائرهم ومركز نفوذهم واقطاعياتهم . وكان الفلاحون يعتذرون من عدم انتخابهم بأنهم لايستطيعون انتخاب برادع الانجليز ! ..

وهكذا استطاعت بلاغة سعد فى خطبه أن تعيد الى اللغة العربية اعتبارها . بعد أن كان الاحتلال قد جعل اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية واللغة التركية هى لغات السياسة والسياسيين . بل ان لغة الصحف نفسها ارتقت ، وأحس الراغبون فى الاشتغال بالسياسة أن واجبهم أن يجيدوا لغة التحدث الى الملايين ، فإن فصاحة سعد وقوة حجته هما اللتان منحتاه هذه القوة الهائلة التى جعلته قادرا على أن يحرك الشعب كله ضد الانجليز والسلطان . وكان الساسة المصريون قبل الثورة . وأغلبهم من أصل تركى ، يعتمدون فى وصولهم الى النفوذ على المناورات والدسائس والمؤامرات فقد كانت هذه هى لغة القصور . وكان الحكم فى مصر فى يد قصر الدوبارة وقصر عابدين . وهكذا جلست الكلمة لأول مرة على العرش . إذ أصبح لها قوة السيف وهيبة الصولجان .

وعلى جدران غرف البيت علقت لوحات فنانين . استوحى الفنانون فيها المعارك التى خاضها الشعب . الشهداء وهم يسقطون تحت وابل من رصاص الانجليز . مظاهرات الشعب الصاخبة وهى تهاجم ثكنات الاحتلال . الجماهير تحمل شهيدا مغطى بعلم مصر وتنزف منه الدماء . فرسان البدو فوق جيادهم يهاجمون السيارات المصفحة فى دمنهور . من كل مدينة منظر بطولة . من كل قرية مشهد فداء . كل مصرى يحاول أن يعبر عن شعوره : الذى لايعرف كيف يخطب الجماهير يكتب منشورا . والذى لا يعرف كيف يكتب المنشور يرسم لوحة . والذى لايجيد الرسم ينحت تمثالا . هذا تمثال نصفى لسعد ، وهذا تمثال له وهو يخطب . وهذا تمثال ثالث له والانجليز ينتزعونه من بيته . وهذا تمثال لمصر تبعث من قبرها . تماثيل مختلفة الاشكال والأحجام . بعضها بدائى وبعضها منحوت بيد مثال موهوب . النساء يصنعن الأعلام . يطرزن على القماش صورتى سعد وصفية . وخريطة لوادى النيل ، سيدات طنطا جئن بقطعة قماش حريرية طرزت عليها جملة دخلت التاريخ وهى « عائشة أم المؤمنين وصفية أم المصريين » . وهذه اللوحة هى التى جعلت صفية زغلول أم المصريين ، وما كادت الجماهير تراها فى أيدى سيدات طنطا فى احدى المظاهرات حتى أصبح الأسم الجديد على كل لسان !

وفى الشوارع المحيطة ببيت سعد ولدت الاناشيد الوطنية . كان النشيد الوطنى قبل الثورة نشيدا سخيفا يقول « افندينا دخل الديوان ، والعسكر

ضربوا له سلام » .. وفجأة سارت مظاهرة يقودها معلم موسيقى قصير القامه اسمه أحمد خيرت . وسار وراءه أطفال يحملون الطبول والمزامير ويعزفون نشيد « يحيا سعد » وفى يوم وليلة اختفى نشيد أفندينا دخل الديوان والعسكر ضربوا له سلام . وأصبح نشيد يحيا سعد هو النشيد الوطنى الذى يعزف فى كل مكان وتبدأ به المسارح وتنهى حفلاتها !

ووضع الشاعر مصطفى صادق الرافعى نشيد « اسلمى يا مصر إننى الفدا . ذى يدى إن مدت الدنيا يدا » . وانطلقت الجماهير تنشد النشيد الجديد من القاهرة الى أسوان .

وعندما بدأ الانجليز يقابلون المتظاهرين بالرصاص ويسقط منهم شهداء خرج سيد درويش بنشيد « اليوم يومك ياجنود . ماتجعليش للروح ثمن . يوم المدافع والبارود . ماليكيش خلافه فى الزمن » .

ووضع شاعر مجهول فى أثناء إحدى المظاهرات أغنية ترددها الجماهير تقول : « باردون ياونجت . بلادنا خربت . قتلوا ولادنا . نهبوا بلادنا . نفوا رئيسنا . أكلوا دريسنا . باردون ياونجت . بلادنا خربت . ! » وكان وينجت هو السير وينجت نائب ملك بريطانيا فى مصر أثناء قيام الثورة . وانتشرت هذه الأغنية بالذات انتشارا ذريعا فى القرى والكفور فى أنحاء البلاد .

وحول مجهولون من أفراد الشعب أغانى الفولكلور المصرى إلى أغان وطنية وأغانى ثورية . فعندما بدأت الحرب العالمية الأولى جمعت السلطة البريطانية العمال والفلاحين المصريين بالقوة واستخدمتهم قسرا فى ميادين الحرب فى أوربا نظم بعض العمال المجهولين أغنية تقول « ياعزيز عينى . وأنا بدى أروح بلدى . بلدى يابلدى والسلطة أخذت ولدى » .

وعقب قيام الثورة ونفى الانجليز سعد تبدلت الأغنية فى المظاهرات على الفور وأصبحت تقول « ياعزيز عينى وأنا بدى أحرر بلدى ! بلدى يا بلدى . والسلطة نفت سعدى » ! بلدى يا بلدى وكل مصرى وفدى ! بلدى يا بلدى . بلدى يا بلدى . ربنا معايا وانجلترا ضدى ! بلدى يابلدى . اديهم جامد إدى ! ياعزيز عينى لازم أحرر بلدى ! »

وحولت الجماهير أغنية يا وابور الساعة ١٢ يا مجبل ع الصعيد » إلى أغنية تقول يا وابور السعاعة ١٢ يامجبل على مالطة . هات لى معاك بلطة . أكسر بها قيودى . أرجع مجد جدودى . ياوابور الساعة ١٢ يامجبل على مالطة . طمن لنا زغلول ، قول له البلد بتقول . الواد ماسك طوبة . والحرمه فى ايدها بلطة .. والراجل ماسك فاسه . والافندى بيشغل راسه . والأمة يد واحدة .. وما عملناش ولا غلطة .. والانجليز بقوا سلطة .. يا وابور الساعة ١٢ يامجبل على مالطة ! »

وجاء الشاب حسن فايق الى بيت الأمة وغنى للجماهير أغنية تقول :

« مدد يا رفاعى مدد . ملك الأفاعى يا أسد . مين زينا احنا فى البلد ناكل رصاص من غير عدد دا احنا ولدنا من جديد . زى الحديد . الأب والأم والوليد صبحوا رجال من غير عدد . مدد يا رفاعى مدد ! قلنا محال . يبقى احتلال يا نعيش كرام . يانموت كرام . من غير عدد . نموت نقول . يعيش زغلول . مدد يا رفاعى مدد . ملك الأفاعى يا أسد » .

وفى فترات كان يبدو للجماهير كأن الثورة قد توقفت . نزلت الضربات على الثوار فانكفأ البعض منهم على وجوههم . يمسح جراحه . أو يحمل قتلاه . أو يجفف عرقه . اشتد البطش . وضعت المدافع فى الشوارع . نصبت المشانق فى الميادين . ضاقت السجون بالأحرار . أطفئت الأنوار . قطعت الألسنة . الشعوب دائما لها حكاية مع الظلام . الأسقف الواطئة التى يجتمع تحتها قادة الثورة تجعلهم يبدون أمام الجماهير وكأنهم أحتلوا ظهورهم تحت ضربات السياط . همساتهم وهم يلتقطون أنفاسهم ليضربوا ضربة جديدة تبدو للجماهير كأنها حشرجة الموت قبل أن تلفظ الثورة نفسها الأخير ! ولم تكن الثورة قد تراجعت . ولكن الجماهير القلقة توجست خيفة . فخرجت الأناشيد تهاجم المترددين ، تشجع الخائفين . تشحذ قوى الضعفاء . توبخ الجبناء . وتندفع مظاهرات تنشد أغنية جديدة من تلحين سيد درويش ونظم بديع خيرى ، تقول . « قوم يا مصرى . مصر دايما بتناديك . خذ بناصرى . نصرى دين واجب عليك . يوم ما « سعدى » راح هدر قدام عنيك ! عيد لى مجدى اللى ضيعته بإيديك !هشو فى قبورهم ليل نهار . من جمودك كل عضمة بتستجار . صون آثارك ياللى ضيعت الأثار ! .. دول فاتوا لك مجد خوفو لك شعار ! » ولم يكن شعب مصر يستحق كل هذا التوبيخ . فقد كانت المظاهرات تغنى هذا النشيد احتجاجا على أن الشعب ترك سعد زغلول فى المنفى ثلاثة أسابيع ! وكانت الشوارع مغطاة بجثث الشهداء . وكان المعارك فى كل قرية وفى كل شارع بين شعب سلاحه الطوب وجيش أكبر امبراطورية فى العالم يحمل المدافع . وكان ألوف المصريين فى السجون . ولكن كل هذا لم يكن يكفى الشعب الغاضب كلما أعطى ، أراد أن يعطى أكثر . كلما بذل من دم . استرخص الفداء . كلما كسب خطوة فى الطريق . طالب بالاندفاع الى نهاية الطريق ! لم تكن عظام قدماء المصريين تستغيث كما قالت أغنية سيد درويش . وإنما كانت ترقص اعجابا بقوة هذا الشعب الأعزل الذى انقض فجأة على غاصبيه ووضع قدمه فوق رأس ظالميه !

ولكن الثورة مثل الخمر كلما شربنا منها كأسا زدنا شوقا إلى كئوس جديدة

ان حماس الشعب سبق أحلام الثوار ، فإن الذين نظموا الثورة أشبه بالذين صنعوا القنبلة الذرية ، فإن انفجارها كان أقوى مما قدروه . وكان أعظم مما تمنوه ، كانوا يحلمون بأن يوقظوا الشعب الذى نام عشرات السنين . ولكنه لم يستيقظ فقط ، وانما تحول الى مارد جبار . كانوا يعدونه ليدافع عن نفسه فإذا بهم يجدون انفسهم فى يوم وليله أربعة عشر مليونا من الثوار !

وجزع بعض الناس الذين يسمون أنفسهم عقلاء من هذا الشعب المجنون ! هذا الشعب الذى يهزأ بالرصاص . يعانق المدافع . يهزأ بالقنابل . يتزاحم لينال شرف الاعدام بأيدى الانجليز . لايخيفهم احراق قراهم . لا يرهبهم فرض الغرامات على أهل القرى الثائرة ، لايجزعهم أزيز الطائرات وهى تقتلهم بالقنابل والمواد الحارقة ! أشفقوا على الشعب الذى يموت وهو يغنى . أو أشفقوا على أنفسهم من أن تأكلهم نار الثورة التى أمتدت الى كل قوى الظلم والاستبداد فى البلاد . وهنا خرجت أصوات « عاقلة » تدعو الى التعقل . ناسية أن صوت العقل فى اثناء المعركة هو صوت الجنون ! خرجت أصوات « حكيمة » تدعو الى الحكمة ، متغافلة عن أن نداء الحكمة لشعب يقاتل دفاعا عن حياته هو صوت الهزيمة !

خرجت أصوات تنادى بالسلام .. والسلام بين الذئب والشاة هو الاستسلام ! . ونشرت مقالات بهذا المعنى فى جريدة الأهرام .

وكانت هناك أغنية شعبية تقول « خذ البزة واسكت خذ البزة ونام ! أمك السيدة ، وأبوك الأمام ! » وقلبها المتظاهرون إلى أغنية ساخرة بدعاة التردد والهزيمة تقول : « خذ البزة واسكت . خذ البزة ونام ! ياواد ياللى بتقرأ جرنال الأهرام ! »

وحدث أن كتب الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية نداء دعا فيه الشعب الى الهدوء والامتناع عن العنف ، واستشهد فى نداءاته بآيات من القرآن والحديث الشريف ! .

وإذا بالجماهير تخرج فى اليوم التالى بمظاهرات تغنى أغنية من نظم الشاعر محمود بيرم التونسى ، يغنونها على أنغام الربابة وهى تبدأ ببيت يقول : « أول ما نبدى نصلى على النبى . نبى عربى يلعن أبوك يا بخيت ! » وبعد تلك الأغنية لم يعد مفتى الديار المصرية يدعو الى الهدوء والسكينة !

وكان أكثر ما يزعج الانجليز وحدة الشعب فى أثناء الثورة . ونجاح سعد فى أن جعل الصليب والهلال يتعانقان فى علم الثورة . وأصبح المشايخ يخطبون فى الكنائس . والقساوسة يخطبون فى المساجد . وبدأ الانجليز يحاولون إثارة الفتنة بين المسلمين والأقباط ، محاولين تمزيق وحدة الأمة . مدعين انهم

يحتلون مصر ليحافظوا على أرواح الاقباط من مذابح المسلمين . وكان سعد يقاوم هذه الفتنة في خطب ونداءات . وكان من بين خطبه المشهورة قوله : احذروا هذه الدسيسة . واعلموا أن ليس هناك أقباط ومسلمون . ليس هناك الا مصريون فقط ومن يسمونهم أقباطا كانوا ولا يزالون أنصارا لهذه النهضة . وقد ضحوا كما ضحيتم . فاحثوا التراب في وجوه أولئك الدساسين . لولا وطنية في الأقباط . واخلاص شديد ، لتقبلوا دعوة الأجنبي لحمايتهم ، وكانوا يفوزون بالجاه والمناصب ، بدل النفي والاعتقال ، ولكنهم فضلوا أن يكونوا مصريين معذبين محرومين من المناصب والجاه والمصالح . يسامون الخسف ، ويذوقون الموت والظلم على أن يكونوا محميين بأعدائهم وأعدائكم » .

وترجم نجيب الريحاني المسيحي خطاب سعد الى أغنية . وخرجت فرقته . وهو على رأسها ، تمشي في الشوارع والجماهير تردد وراءها أغنية تقول . « أوع يمينك ! أوع شمالك ! أوع الفتنة توقف حالك ! إن كنت صحيح بدك تخدم . وعاوز مصر تتقدم . لاتقول نصراني ولامسلم . ولايهودي ياشيخ اتلم ! اللي أوطانهم تجمعهم ، عمر الأديان ماتفرقهم » !

وأصبحت هذه الأغنية على كل لسان ، الرجال والنساء والأطفال يرددونها ، الفلاحون والعمال يترنمون بها . لم تحملها اليهم اذاعة ، ولم تنشر في صحيفة . ولم تطبع على اسطوانات ، ولكن شعبا بأسره كان يغنيها في كل مكان . وكأن الملايين كانوا يردون في وقت واحد ردا حاسما على الفتنة التي دبرها الانجليز !

وذات يوم أصدر القائد العام البريطاني أمرا عجيبا ، وهو يقضي بأن يحكم بالسجن خمس سنوات على كل من يذكر اسم « سعد » أو ينشره في جريدة ، أو يردده في مكان عام ، أو يشير اليه في منشور وكان الانجليز يتوهمون أنهم إذا منعوا اسم سعد أن ينساه المصريون لأن مصر بلد كل شيء فيه ينسى بعد حين !

وخطرت لصفية زغلول فكرة عجيبة . فقد أحضرت « ختما » من الكاوتشوك كتبت عليه « يحيا سعد » وأصبحت تطبع هذه الكلمة على كل ورقة من أوراق البنكنوت ! واشتركت السيدات في هذه العملية وأصبحت مئات الألوف من الجنيهات والخمسين قرشا والعشرة القروش عبارة عن منشور يحمل كلمة « يحيا سعد » واذا بالمصريين جميعا يكتبون على كل ورقة بنكنوت في جيوبهم كلمة « يحيا سعد » !

وفوجيء الانجليز بأن كل مصري في جيبه ورقة مكتوبا عليها « يحيا

سعد » وصدر الأمر بطبع ورق بنكنوت جديد .. ولكن هذه العملية احتاجت الى عدة شهور !

وفجاة خرجت المطربة منيرة المهدية بأغنية من نظم الأستاذ محمد يونس القاضي يحتال فيها على تذكير الشعب بسعد ، تذكير الذين لايملكون فى جيوبهم « ورق بنكنوت » وكانت الأغنية تقول : « يا بلح زغلول يا حليوه يا بلح ! يا بلح زغلول ! عليك بنادى ! فى كل وادى . وأقول يا بلح ! يا بلح زغلول ! »

وخرج الرجال والنساء والأطفال يحملون على رؤوسهم سلات فيها البلح ويغنون فى الشوارع أغنية يا بلح زغلول ! واسقط فى يد الانجليز .

وكتب مستر ريجنالد ديليني مراسل رويتر . « أن الذى يمشر فى شوارع مدن مصر وقراها يخيل اليه أن جميع أهلها من رجال ونساء وأطفال تحولوا الى باعة متجولين . يبيعون بلحا اسمه بلح زغلول » !

وفى تلك الأثناء خرج نشيد « اسلمى يامصر » من نظم الاستاذ مصطفى صادق الرافعي ، وتلحين الأستاذ صفر على .

وتحولت المسارح الى مسارح ثورية ! اختفت هزليات ما قبل الحرب ، اختفت مسرحية « ياستى ماتمشيش كده عريانه » « وخللى بالك من اميلى » . وبدأت تظهر مسرحيات وطنية تؤيد الثورة وتطالب بالاستقلال !

فى يوم وليله تحول مؤلفو الفودفيل والمسرحيات الساخرة الى مؤلفى مسرحيات تثير حماس الشعب ، وتؤيد الثورة وتهاجم الانجليز ! وأمر رسل باشا الحكمدار الانجليزى بمنع المسارح من تمثيل المسرحيات الوطنية ، وتحايل الفنانون ، واتجهوا الى الرمز ، وظهرت روايات بريئة المظهر . ولكنها فى الحقيقة تسخر من الطغيان وتتحدث عن حق الضعفاء فى الحرية والحياة !

وقد بدأت صلة الطفلين الصغيرين بالفن فى تلك الأيام . حفظا الأغانى والمنلوجات والأناشيد ، ان أذن الطفل تلتقط هذه الكلمات البسيطة ، هذه الألحان الساذجة ، كانت لعبتهما ، ثم أصبحت هوايتهما ، لم يعرفا الفنانين كمهرجين ، وانما عرفاهم كأساتذة فى الوطنية ، كأبطال يحركون الجماهير ، كقوى جبارة من قوى الثورة ونضالها ، ان هذه الصلة بالفن بدأت مبكرة ولكنها لم تنقطع قط ، وهكذا أصبح الفن جزءا من حياتهما ، سرى فى دمهما . امتزج بأحلامها وأمانيهما وفى هذه السن المبكرة عشقا الفن ، وسيطر على تفكيرهما . وحدث فى تلك الأيام أن غادرت صفية زغلول مصر الى باريس لتلحق بزوجها بعد أن أرغمت الثورة الانجليز على الافراج عنه . وخرج الشعب الى الشوارع يغنى ويرقص على أنغام أغنية وضعها حسن فايق تقول : « ايه اللى جرى النهارده ياحاج ياسين . بلادنا بتلالى وناسها مزقططين . رايات ترفرف وحاجات تفرح يامحمدين ! »

وكانت القاهرة قبل ذلك مدينة مقطبة الجبين ، ولكنها في ذلك اليوم كانت المدينة الضاحكة الراقصة ، مواكب لا أول لها ولا آخر تمشى أمام بيت الأمة . لاتمشي .. إنما ترقص ! عجائز يرقصون . أطفال يرقصون ! كل المدينة ترقص على لحن « إيه اللى جرى النهارده يا حاج ياسين » .

ورأت أم الطفلين أن تعود بهما الى مدينة دمياط بعد سفر صفية زغلول الى باريس . وما كاد يصل الطفلان الى دمياط حتى خطر ببالهما خاطر غريب وهو أن يقيما مسرحا في المدينة ، وأن يتولى الطفلان إلقاء المنلوجات والاناشيد التي سمعاها في بيت الأمة أثناء الثورة . ووجدا خرابة بجوار البيت وقررا أن يطبعا تذاكر ، كل تذكرة بقرش صاغ ، وأهل دمياط مشهورون بالحرص ، ولكنهم أقبلوا على شراء التذاكر من الطفلين الصغيرين وصديقهما جلال الدين الحمامصي . واستأجروا مقاعد وأقاموا سرادقا وجاءوا بكلوبات النور ، وبنوا مسرحا .. كل ذلك وعمر كل واحد منهم هو خمس سنوات وبضعة شهور ! وأقيمت الحفلة ووقف الأطفال الثلاثة يغنون الأناشيد الوطنية والجماهير ترددها وراءهم !

واكتشفت أم الطفلين أنهما ليسا نائمين في سريرهما كما أوهماها ، لقد دخلا السرير وأطفئت الأنوار . ثم انسل الطفلان حافيين الى مكان الحفلة ! ولحسن الحظ لم يحدث هذا الاكتشاف الخطير الا في نهاية الحفلة ، والا لتفرج المتفرجون على علقة ساخنة نالها الفنانان الصغيران من أمهما . لم تشفهما من مرض الفن . وانما زادت من هيامهما وعشقهما لهذا الفن الجميل ! ولهذا لم يكن غريبا أن يكون أول ما لفت نظر الطفلين من المجلات هي المجلات المسرحية ، مجلة المسرح لصاحبها عبدالمجيد حلمي . مجلة روزاليوسف لمحررها محمد التابعي . مجلة الحياة الجديدة . مجلة الميكرسكوب . مجلة الممثل . مجلة النجوم . كل هذه مجلات مسرحية متخصصة . وكانت التقاليد في تلك الأيام أن كل مجلة تصدر في مصر ترسل نسخة منها هدية لسعد زغلول . وكانت تتكدس في بيت سعد مئات من هذه المجلات . بعضها يصدر في مصر ، وبعضها يصدر في البلاد العربية . وبعضها يصدر في أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية باللغة العربية . ولم يجتذب اهتمامهما بين المجلات السياسية ، والمجلات الأوربية والمجلات القصصية شيء منها . المجلات المسرحية هي التي جذبتهما . وبدأ الطفلان يؤلفان مجموعات من هذه المجلات ويتابعان النهضة المسرحية من تلك السن المبكرة !

وعندما انشئت فرق مسرحية في مدارسهما انضما على الفور إليها . وعندما انشئت في المدرسة الثانوية الملكية فرقة للموسيقى يدربها محمد عبدالوهاب

كانا أول من انضم الى هذه الفرقة . وعندما اصدرا وهما فى سن الثمانية أول مجلة لهما باسم « الحقوق » مكتوبة بالقلم الرصاص . كان فى المجلة صفحة كاملة تتحدث عن الفن والفنانين !

وبعد ٤٠ سنة من ثورة ١٩١٩ فصلت الفرقة القومية الممثلة زينب صدقى بلامعاش ، وقامت أخبار اليوم بحملة واسعة بعنوان « ادفع ثمن تذكرة رواية لن تشهدها » . وجمعت من قرائها مبلغا ضخما سلمته لشركة مصر للتأمين التى تعهدت بدفع معاش للنجمة التى انطفأت ، معاش الى آخر يوم فى حياتها ! وكانت الحملة كبيرة ، والمبلغ كبيرا . وتساءل الناس ماهى الصلة التى تربط زينب صدقى بالتوأمين ؟ ولم تكن زينب صديقة لهما . فذهبت تسألهما كيف وقفا بجوارها فى الوقت الذى تخلى عنها فيه ألوف المعجبين ومئات الأصدقاء . وقال لها مصطفى : اننا رأيناك فى سنة ١٩١٩ على رأس مظاهرة الممثلين والممثلات فى بيت الأمة ورأينا فرقة من الجنود الانجليز تهاجم المظاهرة واذا بك تتقدمين نحوها وتهتفين . يحيا الاستقلال التام لمصر والسودان ! قد تنسى دورك فى غادة الكاميليا . ودورك الرائع فى مجنون ليلى . ولكن لايمكن ان تنسى ابدا دورك على رأس المظاهرة تواجهين بنادق الانجليز !

وتأثر الطفلان بدور الفنان فى ثورة ١٩١٩ عاش معهما ، فإن مصطفى مثلا لعب دورا هاما فى تحويل أم كلثوم من غناء القصائد الغرامية الى القصائد الوطنية . ففى عام ١٩٤٥ اختار لها أغنية سلوا قلبى . التى جاء فيها بيت من الشعر هو « ومانيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا » . فهذا البيت هو بيت القصيد فى القصيدة كلها . وعندما أنشدته أم كلثوم تحول الى شعار للشعب فى مظاهراته التى تطالب بالجلاء .. وقد اشترك بعد ذلك مع أم كلثوم فى اختيار أغلب قصائدها الوطنية . وهو صاحب فكرة الأغنية المشهورة : « مصر التى فى خاطرى وفى دمى من منكمو يحبها مثلى أنا ؟ » وقد كتب كلماتها نثرا . وتولى الشاعر أحمد رامى تحويل النثر الى نظم .

وكان الممثلون والممثلات دائما أقرب الأصدقاء الى قلوب التوأمين ، كل هذا لأنهما شبا على صوت أناشيدهم فى ثورة ١٩١٩ وحفظاها ورددها . ولم يكن صوتهما جميلا ولكنهما مع ذلك كانا يشعران بأنهما استطاعا أن ينقلا هذه الأناشيد الى أهل مدينة دمياط . وأن يجعلا الألوف يرددونها ، وأحسا بفخر كأنهما استطاعا أن يوزعا منشورات ثورية . كأنهما ، وهما فى الخامسة من عمرهما وضعا قنابل تحت أقدام الانجليز ! لقد كنت تسمع الأغانى الوطنية فى أثناء الثورة والفلاحين يغنونها خلف المحاريث والسواقى والشواديف ! ولم تكن أصوات الفلاحين جميلة . ولكن الصدق كان يعطيها جمالا وحلاوة

ليست فى أعظم المطربين . فالفن العظيم هو الفن الصادق ! صوت بسيط أجش ولكنه يؤمن بكلمات الاغنية فيطرب ويؤثر فى النفس أكثر مما يؤثر صوت ملائكى يغنى على أنغام أكبر فرقة أوركسترا عالمية ! ولا يؤمن بالكلمات التى يؤديها !

لقد انتشرت فى أثناء الثورة ألحان لملحنين مجهولين ولمؤلفين مجهولين . أغان تعزف على تصفيق الأيدى لا على أنغام الآلات الموسيقية ، أنغام بسيطة ولكنها حلوة ، مسارحها هى الشوارع . الكورس الذى يرددها هو الملايين . ولكنها ألحان صادقة خرجت من القلب فدخلت الى كل القلوب . وكانت الجماهير تغير فى كلمات الأغنية أو تعدل فيها حسب الظروف والمواقف . فهى تختار النغمة الصحيحة لكل موقف . وتختار « الطبقة » بحيث تقترب طبقة القائد العازف من طبقة ألوف المرددين والمنشدين . وبذلك لم يحدث « نشاز » بين الثوار وأغانيهم . فالأغنية الوطنية أشبه بقائد المظاهرة اذا تقدم أكثر مما يجب فقد الذين يتبعونه فى الطريق . واذا تأخر أكثر مما يجب تاه صوته دون أن يصل الى مسامعهم . فإذا استطاعت أغنية أن تجعل شعبا يرقص على أنغامها كان هذا دليل أصالتها وصدقها . واذا استطاع لحن أن يوقظ النائمين وينبه الغافلين تحولت أنغامه الى صوت أعلى من صوت المدافع !

ولم يكن للثورة وزارة ثقافة تنظم الفن . فعندما ينتظم الفنانون يتحولون الى طوابير تمشى بخطوات عسكرية . والخطوات المنتظمة ليس فيها رنين اللحن الحلو الذى يدخل القلوب بغير استئذان . الخطوات المنتظمة قد ترهب وقد تخيف . ولكنها بغير نبض وبغير روح . وقيمة الفن الأصيل هى بقدر مافيه من نبض روح . وهو يستمد نظامه من فوضاه . القيد لا يلهمه وانما يحدد خطواته ويوقف انطلاقه . فالناس قد تفعل أى شىء بقرار . ولكنها لايمكن أن تغنى بقرار . أو أن تحب بقرار ! ولعلهم لهذا السبب يسمون أدنى « طبقة » فى السلم الموسيقى العربى بالقرار !

فالثورة ألهمت الفنانين فنا جديدا . أخرجت الذين تحت الأرض منهم . هيأت لهم جو الحرية فالفن لايستطيع أن يتنفس ويعيش الا من خلال الحرية ولكنها لم تضع فى أفواههم ما يقولون . لم تدق لهم لحنا واحدا وطلبت اليهم أن يرقصوا على نغاماته . تركت لهم أن يعبروا عن أحاسيسهم . جعلت الشعب هو الرقيب الذى يبيح ما ينشد وما لاينشد .. فالاغانى التى أحبها الشعب رددها كتب لها الحياة . والأغانى التى ماتت .. ماتت على شفاه الملايين !

ولكن الثورة صنعت شيئا للفن . انها منحت الفنان اعتباره لأول مرة فى تاريخ مصر ! كان الفنان محتقرا . واذا بسعد زغلول يسمح لفنان مثل حسن

فايق أن يقف بجواره على منبر الخطابة . ويدعوه ليلقى منلوجه قبل أن يلقى خطابه السياسى ! كان الفنانون يغنون للخاصة . وأصبحوا يغنون للشعب كانت المسارح وقفا علي الوجهاء فاذا بها تصبح للملايين . فليس غريبا أن يطرأ ما طرأ على الفرق المسرحية ، فبعد أن كانت تفلس مرة كل شهر قبل الثورة . اذا هى تتحول بعدها مباشرة الى مؤسسات محترمة . وبعد أن كان الممثل يتقاضى مرتبه يوميا ، أصبح لأول مرة فى حياته يتقاضى مرتبا منتظما كل شهر . وبعد أن كانت القاهرة تعمل فيها ثلاث فرق غير منتظمة أصبح عدد الفرق المسرحية فيها أكثر من عشر . وتألفت فرق مسرحية فى جميع المحافظات والأقاليم .

وجاءت وزارة سعد زغلول ولأول مرة فى تاريخ المسرح المصرى قررت أن تمنح مكافآت سنوية لأبرز الممثلين فى فنون الدراما والتراجيدى والكوميدى والغناء والغناء المسرحى وقررت ادخال التمثيل فى المدارس ! ولم يكن فى مصر قبل الثورة مجلة مسرحية واحدة ، فأصبح فيها عشرات المجلات المسرحية . ولم تكن المحاكم الشرعية تقبل شهادة الممثل بحجة أنه يمتهن مهنة حقيرة ولايجوز قبول شهادة الممثل . فإذا بنجيب الغرابلى وزير الحقانية فى وزارة سعد زغلول يكتب الى النائب العام يطلب منه التنبيه بقبول شهادة الممثل والممثلين لأنها مهنة محترمة تعترف بها الدولة وتمنح المتفوقين فيها جوائز حكومية .

ولم يقف أثر الثورة على الفنون المسرحية والتشكيلية ، بل أنها بعثت فى النحت من جديد .. وألهمت الثورة المثال محمود مختار الذى كان يدرس فن النحت فى باريس أن يصنع تمثال نهضة مصر .. ويعرضه بمتحف جريفين .

وكان فن نحت التماثيل قد توقف فى مصر منذ أيام قدماء المصريين . حتى أنه لم يكن فى مصر كلها تمثال صنعه مصرى !

وزار ويصا واصف عضو الوفد المعرض ورأى تمثال نهضة مصر وهو مصنوع بالطين . فأعجب به وقال أنه على يقين من أن الأمة التى تنهض وتريد نصيبها فى الحياة انما تنهض فى كل مظاهر الحياة سياسية واقتصادية وعلمية وفنية . وذهب ويصا الى سعد وصحبه لمشاهدة التمثال . وما كاد سعد يرى التمثال حتى أعجب به . وكان أكثر ما أعجبه . وهو الفلاح المعتز بأنه فلاح . إن التمثال أظهر أن فلاحة مصرية هى التى توقظ أبا الهول !

وقال سعد : هذا التمثال يجب أن يوضع فى أكبر ميدان فى القاهرة !

. فقال مختار : لا يمكن أن توافق الحكومة التى عينها الانجليز على أن تقيم تمثالا يعبر عن ثورة الشعب ضد الانجليز !

قال سعد : هذا التمثال يجب أن يقام فى أكبر ميدان فى القاهرة ، انه يمثل ثورتنا . انه يربط مجد هذا الشعب اليوم بمجده القديم ممثلا فى أبى الهول وقيمة هذا التمثال أن فيه رائحة الأرض . ان الطين فيه يقول شعرا ويحكى تاريخا ويرسم واقعا ويصور أملا !

قال مختار : ولكن لكى يقام هذا التمثال يجب أن يحول من طين الى حجر . ويجب أن تخصص له الحكومة ميدانا ليقام فيه ، ومن غير المعقول أن الانجليز الذين يضربون بالرصاص كل من يقول تحيا الثورة . يسمحون بأقامة مظاهرة دائمة يرمز لها التمثال فى المخزن ، وعندما تحصل مصر على استقلالها تقيم هذا التمثال ، فإن تحويله الى حجر سيتكلف عدة ألوف من الجنيهات ومن غير المعقول أن تدفع الحكومة التى عينها الانجليز مليما واحدا من أجل تمثال نهضة مصر .

وسكت سعد قليلا ثم قال . الشعب هو الذى سيدفع ثمن هذا التمثال ! ..

وبهت مختار وقال : هل تتصور معاليك أن الشعب سيدفع ثمن تمثال لم يره .. ان المبلغ المطلوب يتجاوز بضعة ألوف

قال سعد : إننى سأوجه اليوم من باريس نداء الى الشعب فى مصر أطلب منه أن يتبرع بالمبلغ الكافى لاقامة هذا التمثال العظيم !

وعندما اجتمع سعد بزملائه أعضاء الوفد وأبلغهم بفكرته . اعترض البعض منهم خشية أن يتعرض الوفد لمسألة كهذه من الممكن أن تحدث انقساما فى الأمة ! وقالوا أن الدين الاسلامى ضد اقامة الاصنام . وما تمثال مختار الا صنم من هذه الأصنام التى لعنها القرآن ! وقد ينتهز السلطان هذه الفرصة فيوعز لبعض أصدقائه من رجال الدين ليعلنوا أن دعوة المسلمين لبناء صنم كفر . وأن كل من يدفع لاقامة الصنم هو كافر وزنديق !

قال سعد : فى هذه الحالة نقول لهم لماذا لم تعترضوا على تمثال محمد على فى الاسكندرية وتمثال ابراهيم باشا فى القاهرة ! اهدموا التمثالين فنعدل عن اقامة تمثالنا ! ان ثورتنا تقدمية قامت لتحطيم الأصنام .. وتمثال نهضة مصر هو صورة شعب يستيقظ ليحطم الأصنام !

وأرسل سعد زغلول برقية يدعو الشعب للاكتتاب لصنع تمثال نهضة مصر وانهالت التبرعات على جريدة الأخبار لسان حال الوفد ، وفى أيام قليلة غطى الشعب المبلغ الكبير المطلوب !

ولم يجرؤ صوت واحد أن يرتفع ويعترض على جميع الأموال لاقامة تمثال نهضة مصر ..

كان ذلك فى عام ١٩٢٠ ولكن التمثال بقى ثمانى سنوات مسجونا فى أحد المخازن ! وكان الانجليز معترضين على اقامة التمثال !

وكان سعد يسمى تمثال نهضة مصر « المسجون السياسى الوحيد الذى لم يفرج عنه بعد » !

ثم قرر مجلس النواب برياسة سعد زغلول تاليف لجنة برلمانية للتحقيق فى سر تعطيل العمل فى التمثال ..

ولم يزح الستار عن التمثال الا بعد وفاة سعد بعدة شهورة !

ولم يكن سعد يتصور أن ما أصاب تمثال نهضة مصر سوف يصيب تمثاليه هو ! فلا يصبح تمثال نهضة مصر المسجون السياسى الوحيد ، بل يحمل تمثالاه هو أيضا لقب المسجونين السياسين أيضا !

ففى اليوم التالى لوفاة سعد اجتمع مجلس الوزراء وقرر أن يقام لسعد تمثال فى القاهرة وتمثال فى الاسكندرية ، وقرر أن يتولى التمثال محمود مختار صنع التمثالين ..

وكان الملك فؤاد فى ذلك الوقت غائبا فى أوروبا ، وكان عبدالخالق ثروت باشا رئيس الوزراء غائبا فى أوروبا كذلك .. ورأس مجلس الوزراء جعفر والى باشا وزير الحربية وأقدم الوزراء .

وكانت الوزارة وزارة ائتلافية يشترك فيها الوفديون والأحرار الدستوريون . ولكن الذى تقدم بهذا الاقتراح لم يكن أحد الوزراء الوفديين ولا الوزراء الدستوريين . بل كان الوزير المستقل فى الوزارة ، كان أحمد زكى أبوالسعود باشا وزير العدل .. وأقترح بعض الوزراء أن يؤجل نشر القرار الى أن يستأذن الملك الغائب فى أوروبا وثار أحمد زكى أبوالسعود باشا فى الوزير الذى اقترح استئذان الملك وقال .

— من العار أن نستأذن فى تكريم زعيم أمتنا :.

ولم يكتف زكى أبوالسعود بهذا الاقتراح بل أضاف اليه قرارا باقامة ضريح لسعد وأن يكون بيت الأمة متحفا وطنيا . وبأن يكون البيت الذى ولد فيه فى قرية ابيانة ومتحفا وطنيا ..

وكان موقف زكى أبوالسعود فى مجلس الوزراء غريبا . وقد أيده الوزراء بالاجماع ولكنهم سألوه عن سر حماسه هذا ..

فقال لهم . ان سعد زغلول هو الذى عينني ، وهو رئيس للوزراء . عضوا فى مجلس الشيوخ . وعند افتتاح البرلمان ألقى سعد خطاب العرش ، ولم يعجبنى الخطاب وقررت أن أهاجمه ..

وثارت بينى وبين سعد زغلول مناقشة عنيفة فى مجلس الشيوخ . لوح فيها سعد بالاستقالة . فلم أتردد فى المضى فى انتقاده .. وكنت أول صوت ارتفع لمعارضته فى مجلس الشيوخ .. وقال لى محمد سعد باشا وزير المعارف : كيف تعارض سعد وهو الذى عينك فى مجلس الشيوخ .. ؟

قلت له : لو كان عينني لأكون « نمرة » لأهانني ! ولو قبلت أن اكون نمرة » فإنني أهينه لسوء اختياره !

قال محمد سعيد باشا : إنك بهذا الموقف أضعت مستقبلك السياسى الى الأبد !!

وعندما ألف عدلى يكن باشا وزارته الائتلافية فوجئت به يعرض على منصب وزير العدل !

قلت له : ان سعد باشا هو زعيم الأغلبية ولا يمكن أن يوافق على اختيارى .

فابتسم عدلى باشا وقال : ان سعد باشا هو الذى رشحك وهو الذى أصر على اختيارك ، وهو الذى اختار لك وزارة العدل ، وعندما سألت سعد عن سبب إصراره عليك قال : لأنه عرف كيف يحرجنى وأنا رئيس للوزارة ! إنه قال نفس الكلام الذى كنت سأقوله لو كنت فى مكانه ! وأعجبنى أكثر رده على محمد سعيد باشا عندما وبخه لأنه عارضنى !

وعندما أرسل القرار بتخليد ذكرى سعد الى الملك فؤاد فى أوروبا ليوقعه ، هاج الملك وماج ، واستدعى رئيس الوزراء ثروت باشا الى فيشى وقال له : كيف يقام لرجل من الرعية تمثالان .. وأبى الخديو اسماعيل ليس له تمثال واحد !

وعندما عاد الملك فؤاد بحث عن الوزير الذى اقترح إقامة التمثالين وعلم أنه أحمد زكى أبوالسعود ، وقرر الملك الا يدخله أى وزارة ما دام على قيد الحياة .

وفعلا لم يدخل أحمد زكى أبوالسعود بعد ذلك الوزارة الى أن مات !

وأتم محمود مختار صنع تمثالى سعد .. وتقرر وضعهما فى مخازن وزارة الأشغال ..

ورفع مختار عدة قضايا على الحكومة يطالب بالافراج عن التمثالين ! وبقى التمثالان مسجونين ١١ عاما !!

وتوفى الملك فؤاد .. وأصبح الافراج عن التمثالين المسجونين أحد المطالب التى ينادى بها الشعب !

ولم يزح الستار عن التمثالين الا فى عام ١٩٣٨ وفى عهد وزارة محمد محمود باشا الثانية فقد أصبح تمثالا سعد جزءا من دستور الشعب . يعطل الدستور فيعطل العمل فى التمثالين ، ويلغى الدستور فيلغى الاعتماد المخصص لاقامة التمثالين ، ويعود الدستور فيعود العمل فى التمثالين !

ولكن ازاحة الستار عنهما لم تمر بهدوء .. فقد اقترنت بأزمة عنيفة .. فقد رأى الملك فاروق أن يعتذر للشعب عن موقف أبيه من التمثالين ويزيح بنفسه الستار عن تمثال سعد فى الاسكندرية .

ودعا الملك صفية زغلول لحضور الاحتفال . وقبلت أم المصريين الدعوة ، ولكن قبل الحفلة علمت أنها لن تجلس عن يمين الملك . كما جرت العادة في أوروبا عند إزاحة الستار عن تماثيل العظماء . بل انه سيخصص مكان للحريم تجلس هى فيه !

ورفضت صفية أن تجلس في الحريم وقالت ان ثورة سعد قامت لالغاء الحريم .. وجلوسها في الحريم هو اهانة لمبادىء سعد الذى يحتفلون بازاحة الستار عن تمثاله ! وأبلغ محمد محمود باشا الملك أن صفية زغلول ترفض حضور هذا الاحتفال .

وأوفد الملك فاروق إلى رئيس الوزراء محمد محمود باشا ، على ماهر باشا رئيس الديوان الملكى يقول له ان الملك لايستطيع أن يجلس بجواره سيدة في احتفال رسمى لأن ذلك سيثير رجال الأزهر والبلاد الاسلامية !

وقالت صفية زغلول .

ـ قولوا لجلالة الملك .. انه يشرفه كثيرا أن يجلس الى جوارى ، ولايشرفنى كثيرا أن أجلس الى جواره !

فقيل لصفية ان إصرارها على رفض حضور الاحتفال الملكى بإزاحة الستار عن تمثال سعد ، قد يؤدى الى غضب الملك ، وعدوله عن حضور الاحتفال

قالت صفية : إن سعد زغلول دخل التاريخ من باب الشعب ، ولايهمه أن يدخل من الباب الملكى .

وأخفى على ماهر باشا رئيس الديوان الملكى عن الملك رسالة صفية زغلول العنيفة الموجهة إلى الملك ، حتى لا يثير غضبه !

وحضر الملك فاروق الاحتفال ، وراح يتلفت حوله ، فوجد مقعدها خاليا في المكان المخصص للحريم ..

والتفت الملك الى رئيس الوزراء وقال له :

ان رأس صفية هانم ناشف مثل رأس زوجها ! كان أبى يقول ان رأس سعد كان « أنشف » رأس في المملكة ! ورفع الملك رأسه . ونظر الى رأس التمثال المصنوع من الجرانيت !

وكأنه كان يقارن بين صلابة التمثال وصلابة الرجال ! وسقطت حكومات ، وتألفت حكومات ، وقامت دول وهوت دول ، وانهارت عروش وتوالى حكام . وبقى التمثالان . بضعة احجار من الجرانيت صمدت لكل معاول الطغاة والمستبدين !

○ ○ ○

• الفصل الثانى عشر •

أغلقت رتيبة غرف بيت الأمة ، وتركت غرف السلاملك مفتوحة لتبقى مقرا للوفد ، وحملت حقائبها ، وقررت الانتقال الى دمياط . شعرت بأن نفقات إدارة بيت الأمة باهظمة ، فى الوقت الذى يحتاج فيه خالها سعد لكل قرش ينفقه على الحركة الوطنية فى باريس . ولم يسافر الطفلان وأمهما وأبوهما من القاهرة الى دمياط بالقطار ، كانت المواصلات مقطوعة بين العاصمة وكل مدن الدلتا ، الثوار خلعوا قضبان السكك الحديدية فى كل مكان . استقلوا مركبا شراعيا من روض الفرج . أصبح النيل وحده طريق المواصلات المفتوح . المركب مزدحم بالركاب . يأكلون ويشربون وينامون وهم فوق مقاعدهم . قطع المركب مسافة الطريق الى المنصورة فى عدة أيام كان الانجليز يستقلون لنشات بخارية . أوقفوا المركب أكثر من مرة على طول فرع الدلتا يبحثون عن أسلحة ومنشورات . وفى كل مرة يفتش الجنود الانجليز الركاب ، يعبثون بأمتعتهم . ثم يسمحون لهم بالمرور . كان الانجليز يفتشون الأطفال ولايفتشون النساء ، لم يكن يدور فى المركب غير الحديث فى موضوع واحد هو الثورة . كل راكب يروى قصص البطولة والفداء التى رآها بعينيه . كل راكب يتحدث عن المعارك التى اشترك فيها . كل قروى يفاخر بصمود أهل قريته أمام عسف الانجليز . كان المركب أشبه بمظاهرة متنقلة . أو كأنه وكالة انباء متحركة . يتوقف أمام كل قرية على شاطىء النيل ينقل الى القرى على الجانبين أنباء المقاومة . أو ينقل منهم أخبار المقاومة الى قرى أخرى .

كانت الصحف ممنوعة من نشر أخبار الثورة . أصبح الناس جرائد حية تحمل آخر الأنباء والتعليقات وأوامر قيادة الثورة الى الثوار . أصبح كل فرد من الشعب له دور يقوم به . كأن مخرجا سحريا وزع أدوار القصة على ١٤ مليونا من المصريين . كل مصر واقفه على مسرح الثورة ، لا أحد يتفرج . المصرى لايستطيع أن يتفرج على شعبه وهو يقاتل ويموت . كل قرية على الطريق لها قصتها . لها معركتها مع الاحتلال لها أبطالها ، لها شهداؤها . لا فضل لقرية على قرية الا بعدد قتلاها ! ولم تكن هذه أولى معارك هذه القرى الصغيرة مع الانجليز بعد الاحتلال . قبل قيام الثورة بأربع وعشرين سنة هاجم سبعة من الوطنيين فى منطقة عمود السوارى بالاسكندرية بحارة السفينة الحربية البريطانية (سكوت) . وجرح بعض البحارة . وقامت

الدنيا وقعدت وحوكم السبعة الوطنيون وصدر الحكم عليهم بالسجن . وفى نفس العام هاجم أهل حى السيدة زينب طابورا بريطانيا وضربوه بالطوب . وقبض على مئات من الأهالى وحكم على بعضهم بالسجن .

وبعد ذلك بعامين هاجم الفلاحون فى قليوب طابورا انجليزيا وقذفوه بالطوب وحاصر جيش الاحتلال قليوب وقبض على مئات من الفلاحين ونفى بعضهم الى السودان .

ولكن كل هذه المعارك كانت حوادث متفرقة متناثرة . أما اليوم فهذه هى المرة الأولى التى يتحرك فيها الشعب كله ، وفى وقت واحد ، كأنه كان ينتظر عشرات السنين أمرا بالانقضاض . وعندما صدر الأمر تحركت كل قوى الشعب فى وقت واحد !

والقمع والضغط والارهاب لاتطفىء الثورات الحقيقية . فالطغيان بالنسبة للثورات . كالريح بالنسبة للنار ، تطفىء الحرائق الصغيرة . وتشعل الحرائق الكبيرة ! كانت الثورة تنتقل من قرية الى قرية بالعدوى . ولكنها كانت تحتاج دائما الى من ينقل العدوى . الأرض كلها مفروشة ببترول السخط عود ثقاب واحد يكفى لاندلاع النيران . كانت المنشورات هى أعواد الثقاب . وكان كتاب المنشورات فى بيت الأمة شخصيات غريبة تجتمع فى بدروم البيت . كثيرا مارأى الطفلان رجلا معهما له شارب كبير يكتب المنشورات . انه الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى صاحب القصيدة المشهورة التى هاجم فيها الخديو يوم عودته من السفر ومطلعها :

أياب ، ولكن لاأقول سعيد   وملك وأن طال المدى سيبيد

وكان بينهم الاستاذ عبدالرحمن البرقوقى صاحب مجلة البيان . وقد اختارها سعد فى لجنة كتابة منشورات الثورة . وضما اليهما بعد ذلك الأستاذ احمد امين الذى أصبح فيما بعد صاحب مجلة الثقافة . والاستاذ أحمد حسن الزيات الذى أصبح فيما بعد صاحب مجلة الرسالة . كانت المنشورات أقوى من القنابل . كانت كل كلمة فيها تحرق وتشتعل وتنير وتضىء . ومما يؤسف له أن عمليات التفتيش المتواصلة والمصادرات والحكم باعدام كل من يحمل منشورا ، لم تترك أثرا لهذه المنشورات . وبذلك خسر الأدب العربى أدبا ثوريا رائعا كان من الممكن أن يخلد على مدى الأيام .

وكان المركب الذى استقله الطفلان مليئا بالمنشورات ! وكانت ثياب النساء هى ملجأها الأمين . وكانت أم الطفلين تربط المنشورات حول بطنها ، وبدت فى ملاءتها السوداء بدينة جدا لا تستطيع الحراك ، ولم يشعر الانجليز الذين فتشوا المركب عدة مرات بأن نصف وزن السيدة البدينة هو منشورات

ثورية ، فقد كانت أكثر السيدات في تلك الأيام بدينات ! وكان الدهن هو نصف الجمال !

ووصل المركب الى مدينة المنصورة بعد بضعة أيام . وأقاموا ليلة في بيت الأستاذ عبدالرحمن الرافعي شريك والدهما في مكتب المحاماة ، وتسلم جزءا من المنشورات . ونقص وزن أمهما وأصبحت لأول مرة . منذ بداية الرحلة ، تستطيع أن تمشي وتتحرك بسهولة !

ثم استأنفوا السفر بالقطار الى بورسعيد . وكان الانجليز قد استطاعوا في اليوم السابق اصلاح الخط الحديدي بين المنصورة وبورسعيد . وسمع الطفلان عبدالرحمن الرافعي يقول لوالدهما . وهو يودعهما على رصيف المحطة ، ان هذه هي آخر رحلة لهذا القطار ، لأن الثوار يسحطمون القضبان في أثناء الليل !

ووصلوا الى بورسعيد . نزلوا في بيت الاستاذ أحمد الصاوي قاضي المدينة وعضو الجهاز السري ، والذي أصبح فيما بعد مفتشا بوزارة التجارة والصناعة . المظاهرات لا تنقطع في المدينة . صوت الرصاص يدوي طوال الليل . معارك في كل شارع وفي كل حي بين الوطنيين والانجليز . كانت الثورة قد كلفت مدينة بورسعيد بمهمة غريبة . هي أن تطبع منشورات بلغات مختلفة تعلن للعالم تصميم الشعب على الاستقلال . تروي قصة الثورة . تحكي فظائع الانجليز وجرائمهم . كان البمبوطية يحملون هذه المنشورات الى السفن التي تمر بالقناة ويسلمونها للبحارة والخدم الهنود . وهؤلاء يحملونها الى أقاصي آسيا وأفريقيا والى موانى أوروبا . وبذلك استطاعت الثورة أن توصل صوتها الى أنحاء الدنيا . برغم الحصار المضروب عليها . وبرغم الرقابة الصارمة على البرقيات والبريد . وكان علي لهيطة بك الذي أصبح فيما بعد نائبا لبورسعيد . والشيخ يوسف عطا الله الذي أصبح فيما بعد شيخا لبورسعيد ، هما اللذين يشرفان على عملية توزيع المنشورات على البمبوطية ! وكانت السلطات البريطانية تحاول عبثا أن تعرف أين تطبع هذه المنشورات . كانت تحاصر مداخل المدينة وتفتش كل حقيبة وكل صندوق قبل دخوله بورسعيد . كما كان الانجليز يفتشون بيوت بورسعيد بيتا بيتا بحثا عن المطبعة السرية ، ولكن عبثا استطاعوا أن يضعوا أيديهم عليها .

كانت بورسعيد ملتهبة بالوطنية . لايكاد الانجليز يفرقون مظاهرة حتى يفاجأوا بمظاهرة جديدة . وكان أكثر ما يغيظهم أنه كلما رست سفينة أجنبية في ميناء بورسعيد . انشقت الأرض وخرجت مظاهرة تهتف كالرعد أمام السفينة بسقوط الانجليز . فإذا كانت السفينة انجليزية سمع ركابها هتافا باللغة الانجليزية ! وإذا كانت فرنسية سمع ركابها هتافا بالفرنسية . كان أهل

بورسعيد يجيدون اللغات الأجنبية في تلك الأيام . ولهذا استطاعوا أن يلعنوا الانجليز بجميع اللغات !

وكانت المطبعة السرية التى حيرت الانجليز في بيت الأستاذ أحمد الصاوى قاضي بورسعيد ! وكان القاضي يمضي الليل كله في طبع المنشورات بمساعدة وكلاء النيابة ، وفي الصباح يتوجه الى المحكمة . ويقدم له البوليس البريطاني عددا من المقبوض عليهم ويطلبون محاكمتهم لأنهم هم الذين يطبعون المنشورات السرية ! وكان أحمد الصاوى يستجوبهم . ويتشدد في التحقيق معهم . ثم يأمر باطلاق سراحهم لعدم كفاية الأدلة !

وحدث مرة ان جاءه بورسعيدى معترف بأنه يطبع هذه المنشورات !

وذهل القاضي الصاوى من هذا الاعتراف الغريب ، وتصور أن الانجليز عذبوا المتهم البرىء حتى أدان نفسه . ولكن المتهم أصر على أن أحدا لم يعذبه ، وأنه فعلا هو الذى يطبع المنشورات ! وقال أحمد الصاوى لوالد الطفلين أن القاعدة القانونية أن القاضي لا يحكم بعلمه ، وانما يحكم بالأوراق التى أمامه ، ولكنه أضطر أن يخرج على هذه القاعدة القانونية ، لأنه هو القاضي والجاني معا ، وأصدر قرارا بالافراج عنه . ثم استدعاه إلى غرفة المداولة وسأله لماذا ادعى انه هو الذى يطبع المنشورات . فقال الرجل ببساطة : ـ أن بورسعيد كلها تتحدث عن بطولة الرجل الذى يطبع هذه المنشورات فأردت أن أكون هذا البطل !

واستقل الطفلان مع والديهما باخرة من بورسعيد ، تسير بالمحرك . عبرت بهما بحيرة المنزلة ، ومن هناك استقلوا عربة حانطور الى دمياط ، استغرقت الرحلة من القاهرة الى دمياط سبعة أيام !

وماكادت أمهما تصل الى مدينة دمياط حتى عادت الى رشاقتها . فقد كانت وزعت ماتحمل من منشورات طوال الطريق !

وبدت مدينة دمياط مدينة صغيرة جدا بالنسبة الى القاهرة . الناس لايتكلمون وانما يتهامسون . لايضربون الأرض بأقدامهم وانما يسيرون كأنهم يرقصون الباليه ، مدينة تنام من المغرب ، لامسارح ولا دور سينما ولا قهاوى . وكان البيت الذى سكنوه كوخا بالمقارنة الى بيت سعد الضخم .

كان البيت مكونا من ثلاثة طوابق . الطابق الأول فيه مكتب والد الطفلين للمحاماة . والطابق الثانى فيه جدتهما أم والدهما . والطابق الثالث لأسرتهما . وكان البيت في الواقع جميلا . يطل على النيل . ولكنهما لم يريا هذا الجمال ، ولم تبهرها القوارب البيضاء وهى ترقص فوق مياه النهر ، ولا صوت المراكب الجميل وهم ينشدون أغانى البحر ، أن هذه المناظر الطبيعية تلهم الشعراء أجمل قصائدهم ، ولكن الطفلين لم يكونا

شاعرين . كان خيالهما هو الواقع الذى عاشا فيه . هذا الهدوء يدوى فى آذانهما كأنه ضوضاء . هذه الأغانى الغرامية لاتطربهما . لقد تعودت آذانهما على سماع الأناشيد الوطنية . لم يجدا حديقة فى البيت ، تحسرا على حديقة بيت الأمة الواسعة . أين الشرفات الواسعة المتعددة التى كانا يطلان منها على مواكب المظاهرات . لقد عاش الطفلان عدة شهور يستيقظان على مشهد المعارك . وينامان على صوت اطلاق الرصاص . ولكنهما أمضيا عدة أيام بغير أن يشهدا مظاهرة واحدة ! غير أن انتظارهما لم يطل . فجأة سمعا الصوت الذى يطربهما ويشدهما : صوت الجماهير وهى تهتف . الجزمجية فى دمياط خرجوا فى مظاهرة صاخبة . لقد انتقلت العدوى الى دمياط . وتوالت المظاهرات . ولكن المظاهرات لاتقف أمام بيتهما كما كانت تقف أمام بيت سعد . انها تذهب الى المحافظة وتضربها بالطوب ثم يفرقها البوليس ، ثم تتجمع من جديد . وتهاجم المحافظة من جديد . ويطلق الرصاص ويسقط جرحى ، وتحمل المظاهرات الجرحى أما القتلى فإنها لاتحملهم الى بيتهم كما كان يحدث فى القاهرة ان بيتهم هنا عادى مثل كل البيوت فليس فيه حديقة تسجى عليها جثث الشهداء ملفوفة بأعلام الثورة . ان بيتهم فى دمياط ليس قلعة . الفرق بين الحياة فى البيت . والحياة فى القلعة ، أشبه بالفرق بين السفح والقمة ، كانا من قبل يعيشان فى صميم الأحداث ولكنهما الآن يعيشان على هامشها ، لايريان كل المظاهرات وانما يسمعان أخبارها . لا يشهدان المعارك وانما يلتقطان أنباءها .

وبدأ الطفلان يضيقان بدمياط . ولكنهما ما لبثا أن أحباها . لقد نزلا الى الطابق الثانى حيث تقيم أم أبيهما . وجدا ابن عمتهما الطالب بمدرسة دمياط الابتدائية . انه يطبع على مطبعة « البالوظة » منشورات ! كيف لم يعلما أنهما ينامان فوق مطبعة سرية ! عرضا على ابن عمتهما أن يشاركاه فى عملية طبع هذه المنشورات . انهما شاهدا نفس العملية فى بدروم بيت الأمة . ولكن أحدا لم يدعهما للاشتراك فى عملية الطبع . تصورا أن سنهما الصغيرة تجعلهما غير صالحين لعمل شىء . أما الآن فقد هبطت عليهما هذه الفرصة الذهبية للاشتراك الفعلى فى المغامرة ، سوف يصبحان ثوارا صغارا . وكانت العملية بسيطة : يكتب المنشور بالحبر الزفر على ورقة . ثم يطبع على مادة فى طبق اسمها البالوظة . ثم يؤتى بعد ذلك بورق أبيض ويلصق بالبالوظة فينطبع عليه المنشور . وهوى الطفلان العملية . المنشورات ساذجة ليس فيها أسلوب المنفلوطى ، ولا بلاغة أحمد حسن الزيات ، ولا أناقة أحمد أمين ، ولكنها أعواد كبريت .. منشورات فيها هتافات بسقوط الانجليز وبحياة الثورة . فيها دعوة للاضراب . فيها تحريض على مهاجمة الانجليز .

نقلا بعض عبارات من المنشورات التى حملتها أمهما من القاهرة . امتلأت مدينة دمياط بالمنشورات . كان ابن عمتهما يخرج فى الليل ويلقى بهذه المنشورات من تحت أبواب البيوت المغلقة . وبدأت مدينة دمياط تتحدث عن هذه المنشورات . ولم يخطر ببال أحد أن الذين يطبعونها ثلاثة أطفال .. وكم ابتهج الطفلان عندما سمعا والدهما يقول لأمهما انه يعتقد أن بالمدينة خلية ثورية مجهولة توزع منشورات . وأن هذه الخلية غير تابعة لقيادة الثورة . انها تابعة للحزب الوطنى !

وهكذا أصبحت الحياة لذيذة لأول مرة فى مدينة دمياط . فيها أسرار ومغامرات وطبع منشورات وتوزيع منشورات . لعبة ألذ كثيرا من لعبة عسكر وحرامية التى يلعبها الأطفال . الطفل يشعر بسعادة عجيبة عندما تصبح له لأول مرة أسرار يخفيها . ويحافظ عليها . عندما يجد الناس حوله يتحدثون عن بطل مجهول ويعرف أنه هو ذلك البطل المجهول !

وكان الناس يستوقفون الطفلين فى الشوارع ويسألونهما · هل انتما من أقارب سعد باشا ؟

ويرد الطفلان بالايجاب

ويلتف الناس حولها ، ويلمسونهما بأيديهم وكأنهم يتباركون بلمس قطعة لحم لمسها النبى الجديد !

ان كل الناس فى دمياط يريدون أن يسمعوا عن المعبود الذى لم يروه . بعضهم يتصور أنه مارد قادر على أن يفتك بيديه بألوف الأعداء ! بعضهم يؤكد أنه نبى . وأن الرسالة التى يبشر بها جاءت اليه من السماء . آخرون يقولون أنه قديس . ينسبون اليه معجزات لم يصنعها ، وكرامات لم يظهرها ، وخوارق لم يأت بها ! كل واحد يضفى عليه الصفة التى يحبها ، يصوره كل فريق بخياله ويرسمه بهواه . وكان الطفلان قد شهدا أحداث الثورة يوما بيوم . وعاشاها ساعة بساعة ، ولكنها وصلت الى دمياط مكبرة ومضخمة ومبالغا فيها حتى بدت كأن معارك الثورة أكبر من معارك الحرب العالمية الأولى . أن أهل دمياط يتصورون أن الثورة لها جيوش جرارة ، ولها مدافع . وعندها طائرات ، وأن جيوشا أخرى تتحرك من ايطاليا وتركيا والسودان وليبيا تحتشد لنجدتها . وكل متحدث يؤكد معلوماته ، ويقسم على صحتها . ويروى تفاصيل معارك لم تحدث . ويضطر الطفلان الى السكوت . فليس من الحكمة أن يلقى دوش الحقيقة الباردة على نيران المبالغات التى يرقص حولها هؤلاء البسطاء الطيبون .

ولكن مبالغاتهم تتضاعف عندما يتحدثون عن قائد الثورة . إنهم يسألون الطفلين أسئلة غريبة . هل سعد يتحدث كما يتحدث الناس ؟ هل صحيح

أن صوته وهو يخطب أجمل من صوت المطربة منيرة المهدية والمطرب الشيخ سلامة حجازى ؟ هل يأكل كما يأكل الناس ؟ لقد قيل لنا أنه لاينام أبدا بل يسهر طول الليل يعد للثورة . ويفتح « على » فمه ويقول . ان الغرفة التى كان ينام فيها سعد أمام غرفة نومه . وأنه كان يشهد سعد ينام كل ليلة ، ويبتسم السامعون غير مصدقين ، ويقولون : طبعاً لن تقول لنا الحقيقة لأن هذه أسرار الثورة ! وهل صحيح أنه عندما جاء الضباط الانجليز المسلحون للقبض على سعد قاومهم وأطلق عليهم الرصاص وفروا أمامه هاربين . واضطروا أن يجيئوا بالجيش البريطانى كله ومدافعه وطائراته حتى استطاعوا أن يقبضوا عليه ؟ وعندما يقول مصطفى ان سعد بشر ، وأنه شاهد عملية القبض عليه وأن سعداً لم يقاوم الضباط ، يصاب السامعون بخيبة أمل . ان خيالهم صور لهم صورة صنعوها لسعد بأحلامهم . رسموها له بآمالهم ، لونوها بأمانيهم . تصوروه بطلا كالزير سالم ، أو سيف بن ذى يزن أو عنترة بن شداد . إنه فى أذهانهم أسطورة ، الرجل الذى يحارب وحده امبراطورية ، المصرى الذى انتصر على أقوى جيش فى العالم . وهم لايطيقون ولايريدون أن يسمعوا أنه رجل عادى مثلهم ، واحد منهم . وأنه يستمد بطولته من بطولتهم ، ويقاوم الامبراطورية مستندا إليهم . وترتفع قامته لأنهم وضعوه فوق رؤوسهم . وأصبح بائع البسبوسة يرفض أن يتقاضى منهما ثمنها لأنه عرف أنهما من أقارب سعد باشا . وبائع الشوكلاته يضاعف لهما الكمية التى دفعا فيها خمسة مليمات لأنهما من أقارب سعد باشا وبائع الهريسة يقسم أن يأكلا مايريدان مجانا حبا منه فى سعد باشا .

وشعر الطفلان لأول مرة بأهميتهما ! وخشيت عليهما أمهما من الغرور . وأشفقت على بطنيهما من هذه الأطعمة المجانية ، وفشلت فى ابقائهما فى داخل البيت .. وكان عمرهما أقل من السن القانونية لدخول المدارس الابتدائية . لقد تركت رتيبة بيت الأمة اقتصاداً للنفقات لأنها اعتقدت أن خالها فى احتياج إلى كل قرش لينفقه على الحركة الوطنية فى باريس . ولهذا أخذت قراراً بأن تنتقل الى دمياط ، ولكنها تشعر بأنها ستفقد ولديها فى دمياط . ان أهل دمياط مشهورون بالحرص الشديد ، ولكنهم لا يكادون يرون الطفلين حتى يملأوا بطنيهما بالمأكولات والحلوى . ويعتبرون هذا العمل مساهمة منهم فى الحركة الوطنية !

والواقع أن أهل دمياط تغلبوا على طبيعة الحرص التى اشتهروا بها وسرعان ما تبادروا فى التبرع للوفد . وكان المبلغ الذى تبرعت به مدينة دمياط للوفد أضعاف أى مبلغ تبرعت به مدينة أخرى فى عدد سكان دمياط . فما أسرع ما تغير الثورة الناس . تحول الحريصون الى كرماء ، تحول المترددون

الى مندفعين ، تحول الضعفاء الى أقوياء . انها أشبه بتيار كهربائى . لأيلمس أى شىء حتى يحركه . الساكن يتحرك . المظلم يضىء . الصامت يتكلم . القاعد على الأرض يطير فى الهواء ! ولكن هذا الكرم الدمياطى أشقى رتيبة أم الطفلين ، ولهذا فكرت فى أن تعود بالطفلين الى القاهرة وتدخلهما الى روضة أطفال قصر الدوبارة ، لأن دمياط لم يكن فيها روضة أطفال ..

وكانت ناظرة مدرسة البنات فى دمياط صديقة حميمة لرتيبة ، وعندما علمت بمتاعبها . خطرت ببالها فكرة ، ان شعر على ومصطفى طويل ينسدل خلف رأسيهما . فقد كانت الموضة يومئذ أن يترك شعر الأولاد طويلا . ويمكن أن يرتدى الطفلان مريلة . ويتسمى على عليه . ومصطفى صفية ، ويدخلان مدرسة البنات الابتدائية على أنهما من البنات ! وأعجبت رتيبة بالفكرة التى سوف تخلصها من شقاوة الطفلين ، ومن ملء بطنيهما الصغيرين بكرم أهل دمياط ! ونبهت الأم على الطفلين بأن اسميهما الجديدين هما علية وصفية .. وذهب الطفلان الى مدرسة البنات . وجلسا فى فصل السنة الأولى .. ومرت الحصة الأولى بسلام ولم يكتشف أحد حقيقتهما .. ومرت الحصة الثانية بسلام ..

وجرت العادة أنه بعد الحصة الثانية يصطف طابور فى حوش المدرسة على هيئة مربع .. فتقف السنة الأولى وأمامها السنة الثانية وعلى يمينها السنة الثالثة وعن يسارها السنة الرابعة .

وتقف ناظرة المدرسة والمعلمات فى وسط هذا المربع لالقاء التعليمات على التلميذات . ووقفت التلميذتان علية وصفية فى نهاية طابور السنة الأولى بجوار طابور السنة الرابعة .

واذا بتلميذات السنة الرابعة يصرخن فى فزع : ولد ! ولد !

وتتبعهن تلميذات السنة الثالثة ويولولن : ولد ! وصرخت تلميذات السنة الثانية : ولد ! . ولد ! وصرخت تلميذات السنة الأولى : ولد .. ولد !

وظهر أن « على » رفع مريلته ، وقام فى الطابور بما كان يجب أن يقوم به فى دورة مياة المدرسة !

وعاد الطفلان على الفور الى بيتهما ، ولم يعودا الى مدرسة دمياط الابتدائية للبنات بعد ذلك ! وصممت الأم على أن تحبس الطفلين فى البيت ، والا يخرجا الا معها ، وضاقت الدنيا فى وجه الطفلين ، وبدا كل واحد منهما يشعر كأنه سعد زغلول ، وأن أمهما هى بريطانيا التى سجنت سعد زغلول ! ولكن ضيقهما وتعاستهما وخيبة أملهما فى دمياط لم تلبث أن انتهت . فقد كانت جارتهما فى البيت المجاور ، صديقه حميمة لأمهما ، وكان لهذه الصديقة بنتان صغيرتان فى سنهما : الكبرى اسمها حسنية والصغرى اسمها سعاد ،

وكانت الجارة تجيء بابنتها كلما زارت أمهما .. وحينئذ تطلب الأم من الأطفال الصعود الى السطح واللعب هناك .. وكان الولدان يحدثان البنتين عن الثورة التي شاهداها . والمغامرات . والمعارك ، والقتلى والجرحى ، وهي أحاديث لا تهم بنتين في هذه السن الصغيرة ، ولكن حسنية وسعاد كانتا مبهورتين بما تسمعان . وكانتا تعجبان بالولدين الذين شاهدا كل هذه الأحداث الغريبة المثيرة .

وتوطدت الصداقة بين علي الصغير وحسنية الصغيرة ، وبين مصطفى وسعاد . ثم أصبح الأربعة يلعبون لعبة « عريس وعروسة » . وفي كل مرة يتزوج علي من حسنية ، ويتزوج مصطفى من سعاد ! ويكون كل عروسين بيتاًلهما ، ويزور كل عروسين العروسين الآخرين في بيتهما !

وسمعت أم الولدين وأم البنتين باللعبة اليومية التي يمارسها أطفالها . ولم تبد الوالدتان اعتراضا . بل على العكس كانت رتيبة لا تنادي سعاد الا بلقب عروسة مصطفى . وكانت أم الطفلتين لاتنادي علي إلا بلقب عريس حسنية ، وصدق الأطفال الدعابة .

وتطورت اللعبة الى حب حقيقي . كان مصطفى يهرب من الحمام البارد ، ولكنه بدأ يقبل عليه في انتظار عروسه سعاد ! كان الطفلان لايعتنيان بملابسهما ثم بدأ كل مهما ينافس أخاه في العناية بملابسه وفي المحافظة على نظافتها ، حتى تراه العروس في أحسن الحالات ! وأصبحت أمهما تتوعدهما اذا ارتكبا ذنبا بأنها ستبلغ الأمر إلى « العروسين » . فيحرص الطفلان على عدم ارتكاب الذنوب خوفا من الفضيحة أمام « العروسين » .

ومن الغريب ان قلب الطفل يتحرك بالحب في سن الخامسة ، يحس بلوعة الشوق . يتألم لمرارة الفراق ، يسعد في لحظة اللقاء . يبذل كي يكون دائما محل اعجاب الطفلة التي أحبها ، وانشغل الطفلان بهذا الحب . ملك عليهما حواسهما . جعلهما هذا الحب لأول مرة يتحدثان عن شيء اسمه المستقبل .

كانت أحاديثهما قبل هذا الحب تدور على الماضي والحاضر . ولكنها فجاة أصبحت تتناول الغد .

إن انتقال تفكير الطفل من اليوم الى الغد . يحدث تغييرا كبيرا في حياته . يجعله يكبر بسرعة كأنه يحاول أن يسبق الزمن . يجعله يفكر في عوالم جديدة . كأنه يسافر في رحلات الى المجهول . بما فيه من خبايا وأسرار وغموض . تجعله يفكر تفكيراً جماعياً ، كانت هذه اللعبة له وحده . ولكنها الآن أصبحت لعبته ولعبتها . كانت هذه هي حياته وحده . ولكنها الآن أصبحت حياته وحياتها . كانت أحلامه لذيذه لأنها تقبل القسمة على واحد . أما الآن فقد أصبحت أحلامه اكثر لذه لأنها تقبل القسمة على اثنين . وعندما

يشعر الطفل الصغير بأن هناك طفلة صغيرة تحبه وتهتم به يحس لأول مرة بشيء كبير لم يشعر به من قبل يحس بالثقة في نفسه . هذه الثقة تقوى عموده الفقرى . كأنها تشعره برجولة مبكرة . كأنها تطيل قامته . فالحب هو عملية تدليك نفسى . انها تربى عضلات لصفاتنا . تقوى الضعف فينا . تنمى أحلامنا . وليس صحيحا أن الحب الحقيقى دواء مخدر . إنه على العكس دواء منشط . يحول الخامل الى عامل . والكسول الى نشيط واليائس الى حالم . وعندما يتحرك القلب الطفل تنبض معه مشاعر كثيرة ، رغبة في التفوق ، إرادة فى أن يكون دائما محل إعجاب وتقدير الطفلة التى يحبها ، لتكون فخورة به ، فلاتشعر بالخجل لأنها تحب طفلا تافها لا قيمة له . وربما لو كان هذا الحب في الظلام لما أحس الطفل كثيرا بهذا الشعور . ففى الظلام لا يستطيع العاشقان أن يريا مزايا كل منهما . بينما شعور الطفلين بأن أسرتهما على علم بهذا الحب يجعلها حريصين على أن يكونا موضع اعجاب الأسرة ، فالطفل يريد أن تباهى حبيبته به . يريد أن تسمع من أمه ثناءها على خلقه وطاعته . يريد أن يحس كل من حولها بأنه جدير بها . ولهذا فهو يبذل جهدا كى يحتفظ بهذا الاعجاب ، ولايحس بأنه يبذل جهدا ، بل هو على العكس يشعر بلذة وهو يتصرف فى كل أمر بطريقة تجعله موضع اعجابها .

ولاشك أن الحب الصغير أثر في على ومصطفى . أرهف احساساتهما . نمى مشاعرهما وقبل كل شيء خلق لهما أحلاماً حلوة يعيشان فيها . بقى هذا الحب يعمر قلبيهما طويلا . فعندما كتبا لأول مرة فى الصحف كانا يتساءلان : هل قرأت حسنية وسعاد ما كتبا ! وكل امرأة عرفاها بعد ذلك كانا يقارنانها دائما بالطفلة الأولى كأن هذه الطفلة أصبحت المتر الذى تقاس به كل نساء العالم ! ومع أن هذا العرس اليومى لم يستمر سوى بضعة شهور . الا أنه طبع فى داخلها وشما ، لم تستطع أن تمحوه السنوات !

وكانت أمهما تقوم أحياناً بدور هادمة اللذات ومقلقة الراحات فتعكر عليهما صفو احتفالاتهما اليومية بالزفاف البرىء . وتدعو العرسان الأربعة لتمتحنهم فى الاملاء العربى ! وكانت هواية أمهما أن تكون دروس الاملاء هى خطب سعد زغلول وبيانات سعد زغلول .

وكان الطفلان يحبان خطب سعد زغلول وبياناته دون أن يفهما كثيرا مما تعنيه عباراتها .. ولكنهما كانا يحبان أيضاً الاحتفالات التى يقيمانها يومياً مع « العروسين » .. ويجلس الأطفال الأربعة فى غرفة الطعام . وتوزع الأم عليهم أقلاما وأوراقا بيضاء .. وتبدأ فى املاء أقوال لسعد . وكانت دائما تملى عليهم عبارة من خطب سعد زغلول .. وهى كلمة « مروءات » ! وكان لهذه الكلمة قصة هامة فى تاريخ الثورة !

كانت الكلمة التى تختارها أمهما فى امتحان الاملاء هى : يجب ألا يتخلى الثوار عن مروءاتهم ! الثوار بغير مروءات يصبحون أشبه بقطاع الطريق !

وكانت هذه هى النصيحة التى يكررها سعد لشبان الثورة قبل قيامها وبعد قيامها . كان مهما بأن يكون للثائر خلق الفارس فى القرون الوسطى ، ولهذا كان يهتم اهتماماً كبيراً بخلق الثوار الشخصى . وكان لايستطيع أن يفرق كثيراً بين الخلق الخاص والخلق العام .

وكان هذا التزمت بضايق بعض زملائه أعضاء الوفد . فكثيراً ما اعترض على ضم أعضاء للوفد بسبب سلوكهم الشخصى . فقد اعترض فى أول الأمر على دخول اسماعيل صدقى فى عضوية الوفد ، بسبب واقعة ضبطه وهو وزير فى عوامة مع ابنة أحد الوزراء . وكانت سيدة متزوجة . فانتحرت . واضطر السلطان إلى طرده من منصب وزير الأوقاف . هذا فى الوقت الذى كان ينادى فيه بأن الناس ولدوا يوم الثورة . ويجب أن يحاسبوا على أعمالهم بعد قيامها لا بأعمالهم قبلها وأن بداية الثورة هى بداية حياة جديدة لكل المصريين ، وأن الدم الذى يراق فى سبيلها يطهر المصريين من كل ذنوبهم !

وكان لطفى السيد يجد فى هذا الموقف تناقضا . فكيف يقول سعد أن الوطن غفور رحيم . ويعارض فى ضم اسماعيل صدقى الى الوفد . ولا يغفر له ذنباً ارتكبه قبل قيام الثورة بأعوام . وكانت حجة سعد أن الانضمام للثورة يغفر الذنوب التى اقترفت قبلها . ولكن ليس معنى ذلك ان يوضع المذنب السابق فى القيادة ، لا مانع من أن يكون جنديا من جنود الثورة ، أما الممنوع فأن يكون فى قيادتها ، لأن وجوده فى القيادة يعطى مثلا سيئاً للناس . وبعد مناقشات طويلة أضطر سعد أن يخضع لرأى الأغلبية ويضم اسماعيل صدقى الى عضوية الوفد .. ولكنه بقى طول حياته يندم على أنه اضطر للخضوع الى رأى الأغلبية فى هذا الضم ! ولكنه تشبث بألا يقع استثناء لهذه القاعدة التى وضعها لأعضاء الجهاز السرى للثورة ، وكان يقول ان الثوار الشبان يجب أن يكونوا أشبه بالرهبان . وأن العمل الفدائى هو دخول فى معبد مقدس . ويجب الا يدخله الا المطهرون ..

وكان هذا الشرط يجعل عبدالرحمن فهمى يدقق كثيرا فى اختيار الشبان الذين يدعوهم للانضمام الى الجهاز السرى . وكان يقول إننى أدرس كل شاب وكأنه سيتقدم للزواج من ابنتى الوحيدة ! ومن الطريف أن عبدالحمن فهمى رزق أولادا ولم يرزق بنات !

وأغرب تعليمات سعد للثوار أنه يجب الا نبدأ بالعنف ! ولكن نرد على العنف بالعنف . ولهذا السبب لم يقع حادث عنف واحد منذ تأليف الوفد المصرى من نوفبر سنة ١٩١٨ الى ٨ مارس سنة ١٩١٩ . العنف بدأ فى اليوم

التالى للقبض على سعد زغلول باعتباره ساعة الصفر . وكانت نصيحته الى الجهاز السرى أن يتفادى قتل المصريين من خصوم الثورة . يجب أن نعطى لكل مصرى فرصة كي يعود الى الصف الوطنى . نريد فقط أن نرهب كل من يخرج على الصف لكى يعود اليه . فليس المصريون هم أعداءنا .. أعداؤنا هم الانجليز وحدهم . إننا فى حاجة الى كل مصرى . نحذر المتردد ولكن لا نحكم عليه بالاعدام . نلوم الضعيف ولكن لانقتله نحاصر المتخاذل ونمنحه الفرصه ليقف على قدميه بدلا من أن ندفعه لكى يرتمى فى أحضان خصومنا . لا نأخذ الناس بالشبهات . بل نعتمد على الاقناع والمنطق مع المصريين . ونعتمد على الحزم مع الانجليز . المصرى تكسبه الرحمة . والانجليز تقنعه القوة .

وكان يطالب الثوار بأن يحافظوا على النساء والأطفال . حتى ولو كانوا من الانجليز « لا أريد أن يتعرض طفل أو امرأة لأى اعتداء » . « لا أريد أن نقتل انجليزيا مجردا من السلاح » . « حتى ولو تخلى العدو عن شرف الحرب فيجب أن يلتزم ثوارنا بشرف الحرب » .

والتزم الثوار بهذه النصائح . فخلال الثورة المصرية كلها لم تقتل سيدة انجليزية واحدة . ولقد كتب اللورد اللنبى نائب ملك انجلترا فى مصر فى تقرير الى الحكومة البريطانية : « كانت سيدة انجليزية تركب عربة مفتوحة وهاجمها الرعاع ورموها بالحجارة يوم الجمعة فى حى بولاق . وقد نجت من الأذى البليغ بأن اتخذت من مظلتها مخبأ . فمزقت الأحجار المظلة . وهذه أول مرة اعتدى فيها على امرأة فى كل السنوات الثلاث الماضية » .

ومعنى تقرير اللورد اللنبى أنه بالرغم من أن الانجليز قتلوا برصاصهم عشرات النساء المصريات وعشرات الأطفال المصريين . وبعد أن حاول جنود الجيش البريطانى الاعتداء على النساء الفلاحات فى قرية العزيزية ومدينة البدرشين فى مديرية الجيزة . وقتلوا بعض النساء اللاتى دافعن عن أعراضهن . بعد ثلاث سنوات من الفظائع والجرائم التى ارتكبها الانجليز لم تصب امرأة انجليزية واحدة وكل ما حدث انه اعتدى بعض الأطفال على امرأة انجليزية بالطوب ولم تصب بأذى . ولا نجد فى تاريخ الثورات الشعبية فى العالم ، على مدى التاريخ ، أن ثورة واحدة حافظت على نساء أعدائها كما فعلت هذه الثورة . أن المصريين هاجموا فى ديروط ودير مواس قطارا مسلحا وقتلوا الضباط والجنود الانجليز الذين كانوا فيه ، قتلوا عشرات من الانجليز المسلحين . ولكنهم لم يمسوا امرأة واحدة بسوء .

وليس سراً أن « المروءات » التى الزم بها سعد الثوار قيدت حركتهم ، وأفسدت عليهم كثيراً من عملياتهم ، وعرضت بعضهم لأخطار كان من الممكن ألا يتعرضوا لها لولا هذه الشروط التى التزموا بها ..

كان فى امكان الثوار أن يحصلوا بسهولة على القنابل عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى ..

ولكن التعليمات التى كانت لدى الثوار هى ألا يقتلوا الذين تلقى عليهم القنابل من الوزراء ورؤساء الوزراء المصريين ، بل العمل على ارهابهم فقط ليستقيلوا من مناصبهم . ولايجد الانجليز وزيرا مصريا يعمل فى ظل الحماية البريطانية !

ولهذا صدرت التعليمات الى عبدالحى كيرة عضو الجهاز السرى أن يصنع قنابل « نظيفة » .. قنابل تدوى ولكن لا تقتل ! وكان عبدالحى طالبا فى مدرسة الطب ، وكان ناظر المدرسة انجليزياً متعصباً استعماريا متطرفاً ، هو الدكتور كيتنج .. وكان يفخر بأنه يعرف كل ما يجرى فى مدرسة الطب .. فى كل شبر . فى كل بوصة من أرض المدرسة !

وصحيح أنه كان يعرف ما يجرى فى كل بوصة .. ما عدا البوصات التى يتكون منها معمل مدرسة الطب ، الذى تحول إلى مصنع لانتاج قنابل الثوار ، واشترك فى هذه المؤامرة عدد من الطلبة وعدد من الأساتذة المصريين !

وتم صنع قنابل « نظيفة » .. وألقيت فعلا قنابل على محمد سعيد باشا رئيس الوزراء فاستقال . وعلى يوسف وهبة باشا فاستقال . وكذلك محمد شفيق باشا فاستقال . وعلى كل من محمد توفيق نسيم باشا . فاستقال وحسين درويش باشا فاستقال ..

كانت القنابل النظيفة تحدث أثرها المطلوب ! تدوى ولا تقتل تهز الدولة ولا تجرح المجنى عليهم !

وحدث مرة أن كلف الدكتور محمد سيد باشا عضو الجهاز السرى بأن يلقى قنبلة فى حديقة منزل القائد العام البريطانى فى القاهرة . وتنكر الدكتور محمد سيد باشا فى ملابس كناس .. واستطاع أن يصل الى سور حديقة القائد العام .. ونظر من خلال السور فوجد القائد العام جالساً .. وأخرج القنبلة ليلقيها على القائد العام وفجأة وجد طفلا انجليزياً يجرى فى الحديقة منجها نحو القائد . وتذكر الدكتور سيد باشا التعليمات التى لديه بالمحافظة على أطفال العدو. فأعاد القنبلة إلى السلة التى يحملها ، وانتظر قليلا حتى ينصرف الطفل الصغير .. ولكن الطفل لم ينصرف وبقى يلعب بجوار القائد العام .. ثم وقف القائد العام وأمسك الطفل من يده . وعاد به الى داخل البيت وانصرف الدكتور محمد سيد باشا حزيناً تعساً أسفاً على الفرصة الذهبية التى ضاعت منه .

وكان أحد رجال الجهاز السرى يراقبه فكتب تقريراً الى قيادة الجهاز بما حدث . وتقرر اعادة المحاولة فى اليوم التالى .

وفى اليوم التالى فوجئوا بحراسة مشددة حول بيت القائد العام .. وتعذر تنفيذ الخطة .. وتصور الدكتور محمد سيد باشا انه ارتكب خطا لايغتفر ..

ولكنه فى اليوم التالى تلقى تهنئة من قيادة الجهاز السرى لانه فضل أن ينجو القائد البريطانى العام على أن يقتل طفلا انجليزياً بريئاً !

وفى يوم آخر تقرر القاء قنبلة على محمد شفيق باشا وزير الأشغال والحربية ، وحدد الموعد للقيام بالعملية ، وكلف بها الطالب عبدالقادر شحاته عضو الجهاز السرى . وكان من الممكن تنفيذ المهمة . ونجاة عضو الجهاز السرى . لأن الشارع فى تلك اللحظة كان خاليا من المارة ..

ولكن عبدالقادر شحاته فوجىء بزميله المكلف بمراقبة وزير الأشغال . والمكلف بأن يتقدم سيارته وهو يركب موتوسيكل . ليعطى اشارة الضرب ، فوجىء به يشير إليه أن يتوقف ! ولم يلق عبدالقادر شحاته القنبلة . وعرف السبب بعد ذلك ، فقد كان مع وزير الأشغال فى السيارة ابنته الصغيرة !

وتحدد موعد آخر .. وكان وزير الأشغال فى هذه المرة فى سيارته ومعه مدير مكتبه المهندس حسين سرى الذى أصبح فيما بعد رئيسا للوزارة ، وأعطيت الاشارة بالضرب ..

وأطلق الشاب الرصاص على السيارة .. لا على الوزير .. ولا على مدير مكتبه .. وتصادف وجود بعض جنود البوليس البريطانى فى الشارع فى أثناء الحادث . فانطلقوا وراء عبدالقادر شحاته حتى تمكنوا من القبض عليه . وحوكم ، ودخل السجن .. وفضلت الثورة أن تضحى بأحد شبابها على أن يطلق الرصاص على برىء !

وليس أدل على قوة التنظيم ودقته ، من التزام الشعب كله ، طوال الثورة ، بهذه « المروءات » على الرغم من تباين الأمزجة واختلاف الثقافات ، وعلى الرغم من الضغوط الهائلة التى كان يتعرض لها الثوار ، وهم يرون الانجليز يهدمون فراهم وينسفون بيوتهم ، ويعلقونهم على المشانق ، ويربطونهم فى ذيول الخيل ويجلدونهم فى الشوارع . ويواجهونهم بكل أنواع البطش والطغيان والجبروت والعدوان ، مما يدل على طبيعة الشعب المصرى ، فهو يغضب ولا يفقد مروءته . ويثور ويحتفظ بانسانيته . وهو لا ينسى السياط التى جلد بها . والسياط لا ذاكرة لها لا تذكر الذين انهالت عليهم ، ولكن الذين جلدوا بهذه السياط لايمكن أن ينسوها أبداً . تماماً كما أن المدين ضعيف الذاكرة دائماً ، ولكن الدائن لا ينسى أبداً . وعندما جاء الوقت الذى اراد فيه الشعب أن يسترد الدين . أبى أن يفعل ما فعله شيلوك فى قصة تاجر البندقية . أبى أن يقتطع من اللحم الحى . كان كريماً فى عملية الاسترداد . أبى أن يضرب فى الظهر .

كان فى امكانه أن ينتهز فرصة انشغال بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى وينقض عليها من الخلف ، ولكنه انتظر حتى انتهت الحرب وأصبحت بريطانيا أقوى دولة فى العالم وسيدة البحار . والأمبراطورية التى لا تغرب الشمس عن ممتلكاتها .. وعندئذ فقط أعلن عليها الحرب ! وهى فروسية عجيبة من شعب استعبد الاف السنين ، ولكنه لم يتحول يوماً الى عبد . ديس بالاقدام على مر التاريخ . ولكنه لم يحاول شراء خلاصه من العذاب بتقبيل أقدام الذين داسوه . وقد قامت ثورات شعبية فى بلاد أخرى فلم ترحم الأطفال ولم تشفق على النساء . ونشرت حمامات الدم ، وأقامت المذابح ، وفرشت الأرض بالجثث والجماجم والأشلاء ..

واعتذر التاريخ عن هذه الجرائم بأن الشعوب عندما تثور تفقد رأسها وتدوس على قلبها وتتحول الى حيوان كاسر ، ولكن شعب مصر لم يفقد رأسه ، ولم يدس على قلبه . ولم يتحول والضربات الوحشية تنهال على رأسه الى حيوان كاسر !

ويتصور بعض المؤرخين السذج أن هذا موقف غير ثورى ، وأن الثورة هى ثورة على كل شىء .. والواقع أن الثورة النموذجية هى ثورة على قوانين الحاكم الظالم ولكنها ليست ثورة على العدل . ثورة على نظام الحكم وليست على مبادىء الأخلاق . ثورة على المحتلين وليست ضد نسائهم وأطفالهم . وعندما يتحول الثوار من فرسان الى أعضاء عصابة تفقد الثورة قداستها وطهارتها وانسانيتها ، وهذه الصفات هى التى تميز رسالات الأنبياء . وهى الأوتاد التى تغرسها فى الأرض ، وتجعلها قادرة على الصمود أمام العواصف والأنواء .. ووقع فى أثناء الثورة خلاف شديد بين قيادة الثورة وأحد فروعها .. امتدت الثورة إلى كل مديريات الوجه القبلى . إلى كل مدينة وقرية . احتل الشعب مراكز البوليس . انقطعت المواصلات بين القاهرة والوجه القبلى . انضم عدد كبير من رجال البوليس الى الثوار ، بعد نفى سعد باسبوع عقد القائد العام البريطانى فى القاهرة اجتماعاً فى القيادة للبحث فى اجلاء الجيش البريطانى عن الصعيد كله . تقرر استدعاء قوات من السودان وقوات من فلسطين .

أرسل قطار بريطانى مسلح الى الصعيد لتأديبه . أصدر القائد العام أمراً الى السكان « بأن كل مصرى يجب أن يحيى بالتعظيم كل ضابط بريطانى يمر عليه » .

أعلنت بريطانيا أنها سوف تستعمل منتهى القسوة والشدة والعنف والبطش مع كل من لاينفذ أوامر الجيش البريطانى ، أذيعت بمختلف وسائل النشر والمنشورات الحكومية تهديدات بريطانيا بسحق الثوار ، تصور

الانجليز أن قطارهم المسلح القادم من السودان سيخيف الصعيد وسوف يستسلم بغير مقاومة . وقدم قطار آخر مهمته اصلاح السكة الحديدية والقضبان التي دمرها الثوار ، وما كاد القطار المسلح يصل الى منفلوط حتى انقض عليه الفلاحون والفلاحات وذبحوا جميع ضباطه وجنوده !

ووصل القطار الى محطة ملوى يحمل جثث الضباط والجنود الانجليز .

وخرج سكان مدينة ملوى على بكرة أبيهم يستقبلون القطار . الرجال والنساء والأطفال . كانوا يهللون ويصفقون ويكبرون . والنساء يزغردن . سمع أهل ملوى بنبأ هجوم الثوار في منفلوط على القطار المسلح سمعوا بهزيمة المنتصرين ، بذبح الفاتحين ، فأرادوا أن يحتفلوا بهذا النصر الكبير .. ووجدوا أن بين الضباط والجنود أحد الجنود الانجليز وقد اختبأ في دورة المياة ، فكان هو الوحيد الذى نجا من ركاب القطار المسلح .. وكان يحمل مدفعاً رشاشاً . ويتهيأ لأطلاقه على الجماهير . عندما يتحرك القطار .. وهاجت الجماهير على الجندى . وجرته الى خارج عربة القطار ، وقتلوه وسط تهليل الرجال وزغاريد النساء !

ولكن امرأة واحدة خرجت على اجماع هذا الشعب الغاضب الثائر الذى كان ينتفض غيظاً على الجنود الانجليز الذين قتلوا رجاله . ونساءه . وأطفاله . الذين هدموا قراه واحرقوا بيوته لقد أراد هذا الشعب الثائر بهذه المذبحة أن يرد على القائد البريطاني بانه يجب على كل مصرى أن يحيي بالتعظيم كل ضابط بريطاني يمر عليه . كانت هذه هي طريقتهم في تحية ضباط جيش الاحتلال !

ولكن امرأة واحدة خرجت على هذا الاجماع وصرخت : لا تقتلوه ! وتقدمت تحاول حماية الجندى من الشعب الغاضب . وازاحتها الجماهير جانباً . ومضت تفتك بالجندى ، وتقدمت المرأة مرة أخرى وشقت طريقها بين الجماهير ، تحاول أن تمسح عن وجه القتيل الدم بثوبها . وضربتها الجماهير وأبعدتها . ثم حملت جثة الجندى الانجليزى القتيل ومضت في الشوارع تهتف « بستين فضة يالحم انجليزى » . وظهر أن المرأة الوحيدة التى خرجت على اجماع الشعب هي عاهرة معروفة في ملوى اسمها « هانم عارف » . واهتم الانجليز بموقف المرأة الوحيدة . واعتبروها بطلة ، لانها تحدت الثوار ، وأصدروا أمراً باستدعائها الى القاهرة لمكافأتها على موقفها النبيل .

واتهمت هانم عارف بحادث سرقة وقبض عليها واعترفت بجريمتها ووضعت في سجن ملوى ولكن الانجليز اعتبروا سجنها عملا يدل على التعصب ، وأن القضية ملفقة ، اشترك في تلفيقها المصريون من رجال البوليس والنيابة والقضاء للانتقام من العاهرة البطلة !

وأمر القائد العام البريطانى بأرسال محقق بريطانى ليعيد التحقيق من جديد ، ويفرج عن العاهرة البطلة ، وفوجىء القائد العام بأن المحقق البريطانى يؤكد أن التهمة ثابتة وأن « هانم عارف » معترفة بالسرقة ! ومع ذلك صدر أمر القائد العام البريطانى بالافراج عنها ، وجمعت الجالية البريطانية أموالا للتبرع للعاهرة البطلة ! وصدر أمر باحضار هانم الى القاهرة لتتسلم التبرعات وتتلقى شكر القائد البريطانى العام .

وسمع الثوار بما حدث فأنذروا هانم بأنها إذا سافرت الى القاهرة فسوف يذبحونها . ولكن هانم كانت فرحة بالمكافاة المالية على خروجها على اجماع الشعب المصرى الثائر ، فاستقلت القطار الى القاهرة فى حراسة أحد الضباط . وماكادت تجلس فى مقصورة فى الدرجة الأولى حتى رأت عيوناً تنظر إليها شزراً من نافذة القطار ثم تختفى ، وتكرر هذا فى عدة محطات وأصيبت هانم بالذعر ، فانتهزت وقوف القطار فى محطة الواسطى ، وهربت من القطار ، وعندما اكتشف الضابط هروبها أوقف القطار ، وصدرت الأوامر بالقبض عليها . فقبض عليها وأرسلت الى القاهرة لتتلقى شكر القيادة البريطانية !

وفى هذه الأنباء أرسل الثوار فى ملوى الى قيادة الجهاز السرى فى القاهرة يطلبون اليه الموافقة على ذبح هانم عارف وجاء الرد بالرفض لأن تقاليد الثورة هى ألا تقتل النساء . ويكفى أن من خرج على اجماع الشعب الثائر فى ملوى كان امرأة عاهرة !

ولم يعجب هذا الرأى ثوار ملوى ، فأرسلوا وفداً الى القاهرة ليبلغ أن ما فعلته هانم عارف هو إهانة لكل امرأة ورجل فى ملوى ، وأنه لايغسل هذه الاهانة إلا دمها .

وأصرت قيادة الجهاز السرى على موقفها . ونجت هانم عارف من الموت بحل وسط وهو أن تترك الصعيد كله . وفعلا غادرت هانم ملوى ، ولم تعد إليها بعد ذلك ..!! ومن أجل مبدأ التمسك بالمروعات رفضت قيادة الثورة اقتراحات بعض الثوار المتحمسين ، بأن تؤلف الثورة محاكم سرية تحاكم المصريين الذين يخرجون عليها ، أو الذين تشك فى ولائهم ، وكانت حجة سعد زغلول فى هذا أنه كان قاضياً . وأن الثورة يجب أن تكون عادلة حتى مع خصومها ، وأن أى محكمة ثورية لا يمكن أن تتوافر فيها ضمانات العدالة . وعندما يتحمس القاضى يهتز ميزان العدالة فى يده . والمحاكم التى يعقدها الثوار ، هى بطبيعتها محاكم سرية ، وضمان العدالة فى علنية الجلسات ، وفى حرية المتهم فى الدفاع عن نفسه ، وفى وجود المحامين والشهود ، وفى أن تكون أحكام المحكمة قابلة للطعن والاستئناف ، وكل هذه الضمانات لا يمكن أن تتوافر فى هذه المحاكم المخصوصة .

وحدث نفس هذا الخلاف مرة أخرى عندما قام عبدالظاهر السمالوطى بدور شاهد الملك فى قضية الجهاز السرى التى عرفت باسم قضية عبدالرحمن فهمى فقد اعترف عبدالظاهر السمالوطى على كل من يعرفهم من أعضاء الجهاز السرى ، وأدت اعترافاته الى القبض على عدد منهم والحكم عليهم بالاعدام .

وكان من رأى بعض الثوار أنه يجب قتل عبدالظاهر السمالوطى عقاباً له على خيانته للثورة ، ولم تأخذ قيادة الثورة بهذا الرأى ، بل رأت أن يعاقب بأن يمتنع كل مصرى عن محادثته والتعامل معه ، وعاش عبدالظاهر السمالوطى طول حياته منبوذا ، واضطر عدد من شهود الملك أن يتركوا مصر كلها وأن يهاجروا الى السودان ، وأن يغيروا أسماءهم وأن تسند اليهم حكومة السودان وظائف لأنهم لم يطيقوا أن يعيشوا حياتهم منبوذين من أبناء وطنهم .

وكان هذا التسامح الملائكى يضايق كثيراً من الثوار الشبان المتحمسين ، الذين كانوا يرون أن هذا التسامح والصفح والغفران يضعف الثورة ، وكان سعد يعتقد أنه يقويها ..

فعندما بدأت حركة توكيلات الشعب للوفد برياسة سعد غلول . وقع جميع المستشارين فى محكمة الاستئناف التوكيل .. ولكن مستشاراً واحداً خرج على اجماع الشعب وكان هو المستشار محمد توفيق نسيم .. ووضع الثوار اسم توفيق نسيم فى القائمة السوداء ! وعندما طلب سعد من جميع المصريين أن يرفضوا تولى الوزارة فى ظل الحماية البريطانية ، خرج توفيق نسيم على اجماع الأمة وتولى رياسة الوزارة وخرجت المظاهرات تغنى أغنية تقول « أحيه يانسيم .. يا أبو عقل تخين بتلاته مليم » !

ثم حدث أن عرف سعد زغلول فى منفاه . بأن توفيق نسيم قدم مذكرة الى الحكومة البريطانية يطالب فيها باجابة مطالب الشعب فى الاستقلال التام .

واستقال من منصبه عندما رفض الانجليز مطالبه .

وصرح سعد زغلول بأن « توفيق نسيم يستحق تقدير الوطن » !

وغضب كثير من أنصار سعد على هذا التصريح الغريب ، فقد كان صدمة للرأى العام الذى كان يلعن توفيق نسيم ، لأنه كان يجهل أمر المذكرة التى تقدم بها الى الانجليز وقد سعد أن الوطن غفور رحيم .. ولم يكتف بذلك بل رشحه .. عضواً فى مجلس الشيوخ على احدى دوائر القاهرة . ثم اختاره وزيراً للمالية فى وزارته .. وكان سعد يعتقد أن صك اغفران الذى منحه لتوفيق نسيم سيكفل له البقاء فى صفوف الشعب .

ولكن ما كاد يقع الصدام بين سعد رئيس الوزراء والملك فؤاد حتى استقال

توفيق نسيم من وزارة سعد وأصبح بعد ذلك رئيسا للديوان الملكى

وحدث بعد ذلك بسنوات . أن رأى سعد أن اختلاف الأحزاب أدى الى طفحان الملك وسيطرة الانجليز .

ورأى أن وحدة الشعب تقطع الطريق على الملك والانجليز ، فرحب بائتلاف الأحزاب وأبدى استعداده لأن يضع يده فى أيدى خصومه الذين حاربوه وآذوه وتآمروا عليه .

وكان بين هؤلاء عبدالخالق ثروت باشا ، وكان أعنف هؤلاء الخصوم . رغم أنه كان صديقاً حميماً لسعد زغلول ، وهو الذى اكتشف كفايته خلال توليه وزيرا للحقانية ، واستطاع أن يعينه نائباً عاماً رغم معارضة زملائه فى مجلس الوزراء . ولكن عندما قامت ثورة ١٩١٩ وقف عبدالخالق ثروت ضد سعد ، واتهم بأنه هو الذى حرض الانجليز على نفيه ، وبأنه هو الذى دبر مؤامرة محاولة قتل سعد فى أسيوط ، وعندما كان رئيساً للوزارة بطش بالحركة الوطنية ، وملأ السجون بالثوار .

وعارضت صفية زغلول فى أن يضع سعد يده فى يد ثروت !

وقالت انها لا يمكن أن تنسى جرائمه فى حق سعد زغلول !

وقال لها سعد إن مصلحة البلد فى أن أنسى الجرائم التى أرتكبت فى حقى .

فقالت له . ولكن هذه جرائم ارتكبت فى حق البلد .

فقال سعد : ان الوطن هو إله .. ومن صفات الآلهة الغفران !

وسمع الطفلان حديث سعد عن ثروت وعجبا ، لقد أمضيا سنوات وهما يسمعان اسم ثروت » فى البيت مصحوباً باللعنات .. فكان اسمه دائماً شبيهاً باسم البعبع وابورجل مسلوخة والغول والعفريتة ففى قصص الأطفال .. شخصية رهيبة مكروهة .

وطلب ثروت مقابلة سعد فى بيته .. وحدد سعد موعداً لهذا اللقاء .. وثارت صفية . وقالت انها لا يمكن أن تبقى فى بيت سعد ، أثناء وجود ثروت فيه .. وانضمت رتيبة الى صفية وقالت أنها هى الأخرى لن تبقى فى البيت أثناء وجود ثروت فيه . وفعلا غادرت صفية ورتيبة البيت قبل حضوره . ولم تعودا اليه بعد أن اتصل سعد بصفية فى بيت شقيقتها وأفهمها أن عبدالخالق ثروت غادر البيت !

ولكن الطفلين لم يغادرا البيت . لقد حرصا على البقاء ليشهدا الحدث التاريخى ..

ولم يكن سعد يتأثر كثيراً بعواطف زوجته . فقد حدث بعد استقالة عدلى يكن من رياسة الوزارة الائتلافية . ان اختار سعد عبدالخالق ثروت باشا رئيساً للوزارة !

لقد نسى بسرعة كل إساءة لحقته على يد ثروت ، ولكن صفية لم تنس وكان سعد يداعب صفية ويقول وهو يضحك :

— كلما زهقت منك .. دعوت ثروت باشا ليجيء لزيارتى .. وبذلك تخرجين من البيت !

وعندما توفى سعد ، ذهب ثروت الى بيت الأمة . عقب عودته من الخارج . وقابل صفية وبكى بكاء حاراً .. وقالت له صفية : ان دموعك غسلت قلبى !

أما رتيبة فقد أصرت على موقفها وغادرت البيت عندما دخل ثروت !

وكان تسامح سعد مع عدوه ثروت يدهش كل من حوله ! فقبل هذا الموقف بأقل من عامين عاد سعد زغلول من منفاه فى جبل طارق عودة الأبطال الفاتحين ، وخرج الشعب على بكرة أبيه يستقبله ويضع على رأسه أكاليل الغار ، واختفى خصومه فى الجحور ، وأدرك ثروت بذكائه ودهائه أنه راهن على الحصان الخاسر ، فأدلى بتصريح يقول فيه أن يقترح أن يحتكم هو وسعد الى أمراء البيت المالك ، ليحكموا بينهما .. وأنه اذا ثبت أنه أخطأ فى حق سعد فإنه مستعد للاعتذار .. وكتب ثروت الى سعد خطابا بهذا الاقتراح . واذا بالأمراء يقولون أنهم على استعداد لأن يكونوا بين ثروت . وسعد زغلول .

وغضب سعد من هذا الاقتراح السخيف وقال للأمير عمر طوسون الذى عرض عليه فكرة التحكيم : ان الانتخابات لأول مجلس نواب مصرى على الأبواب .. واذا أراد ثروت أن يحتكم ، فليحتكم الى الشعب . ليختار أى دائرة انتخابية ويتقدم فيها وأرشح نفسى أمامه .. أى دائرة فى القطر .. حتى الدائرة التى فيها أملاكه ومزارعه وأقاربه .. والشعب هو الذى يحكم بيننا .

ولكن ثروت كان أذكى من أن يقع فى هذا المأزق . فهو يعلم أن سعد سوف يكتسحه فى أى مكان فى البلد ، ولهذا أصر على أن يكون الاحتكام للأمراء .

وألح الأمير عمر طوسون على سعد فى أن يقبل الاحتكام ، وكتب سعد الى عبدالخالق ثروت يرفض فيه الاحتكام الى الأمراء ويقول : « أمامك الصحف فاكتب بها اذا وجدت قارئاً . أمامك المجالس فتحدث بها إذا وجدت سميعاً . أمامك المنابر فاخطب بها اذا وجدت منصتاً .. أما التحاكم الى الأمراء فشرف لا يناله الا الأكفاء »

ولم يجرؤ عبدالخالق ثروت أن يرشح نفسه فى أية دائرة انتخابية فى انتخابات سنة ١٩٢٤ وتوقع الجميع أن سعد سيبطش بثروت بعد أن يتولى الشعب الحكم .

وعندما ألف سعد الوزارة ـ وزارة سنة ١٩٢٤ ـ اقترح نجيب الغرابلى باشا وزير العدل فى مجلس الوزراء . أن تؤلف محكمة تحاكم عبدالخالق ثروت باشا على جرائمه بصفته عدو الشعب رقم واحد وبهت الوزراء عندما

لم يوافق سعد على هذا الاقتراح وقال ان الحكم الذى أصدره الشعب فى الانتخابات أقسى على خصومه من أحكام الاعداء ..

قال نجيب الغرابلى باشا · ولكن الدستور ينص على تأليف محكمة لمحاكمة الوزراء .

قال سعد : الدستور صدر بعد استقالة ثروت من الوزارة . وليس من العدل أن تحاكم رجلا على جريمة لم ينص عليها القانون عندما وقعت الجريمة . ان الفرق بين النظام الديمقراطى والأنظمة الاستبدادية أن الحكام فى الأنظمة الاستبدادية يحاكمون خصومهم ، أما فى النظام الديمقراطى فإن محاكم الشعب هى الانتخابات .. وهى المقصلة ! ولا أريد أن أبدأ عهد الدستور فى مصر بأن أقيم المشانق لخصومى ! ان الانتخابات اسقطتهم جميعاً ، والضرب فى الميت حرام ! لا أريد أن أدخل التاريخ كرجل استغل ثقة الشعب لكى يقدم خصومه للمحاكمة ، ويحكم عليهم ، فأكون أنا المدعى والقاضى وشاهد الاثبات !

قال وزير العدل ولكن هؤلاء ليسوا خصوما لك . انهم خصوم الشعب . والشعب هو الذى يريد محاكمتهم وهو يرد الحكم عليه ..

قال سعد . ولكن العالم يعرف أننى زعيم الشعب ، أنا زعيم المجنى عليهم . ان العدالة تمنع أن يكون المجنى عليه قاضياً ! أنا لا أرضى أن أحاكم موتى !

وانقسم مجلس الوزراء فى هذا الرأى . ولكن الأغلبية أيدت سعداً بعد الحكم الذى أصدره الشعب فى الانتخابات لايجوز لمحكمة أن تحاكم احداً من هؤلاء الوزراء .. لأنه طبقاً لرأى سعد لايجوز قانونا محاكمة الرجل مرتين على جريمة واحدة !

وكان مكرم عبيد وقد لازم سعد فى سيشيل يقول أنه كان من رأى سعد وهو فى منفاه ضرورة محاكمة ثروت على جرائمه فى حق الثورة ، وأنه كان يمضى الليالى مع زملائه المنفيين يكيف التهم التى يقدم بها ثروت الى المحاكمة . ولكنه ما كاد يسحق خصومه فى الانتخابات ، ويتولى الحكم حتى أصبح أميل إلى الصفح والنسيان ، فالرجل المظلوم فى زنزانته يتوعد دائماً بأن يبطش بظالميه ، ولكن الرجل الكريم بعد أن يغادر هذه الزنزانة . ويتولى السلطة ، يميل الى العفو أكثر من الانتقام ، والى الرحمة أكثر من الشدة ، فالطغيان والبطش ليسا من صفات الرجل القوى ، انهما دائماً صفة الرجل الضعيف . الذين يبطشون بخصومهم هم الذين يخافونهم ويرهبونهم . والذين يعفون عن خصومهم هم الذين يشعرون بأنهم أقوى من خصومهم .

وقد يقال : لو أن الثورة فى سنة ١٩٢٤ ، عندما تولت الحكم ، بطشت بخصومها لما مكنتهم من الانقضاض عليها ، فلو أن مصر حاكمت مثلا أول وزارة اعتدت على الدستور ، لما جرؤ مصرى على تعطيل الدستور بعد ذلك ، ولكن الرد على هذا هو أن الثورات الأخرى التى بطشت بخصومها ، كالثورة الروسية مثلا ، أو الثورة الفرنسية ، لم تتخلص من خصومها ، بل على العكس ضاعفت من عددهم فإن البطش الذى بدأ ببضعة أشخاص انتهى بالبطش بالملايين ، وقامت مذابح سقط فيها الملايين ، ثم ان طبيعة الشعب المصرى أنها تكره العنف ، وتحتقر الانتقام ، وتمقت الطغيان ، فإن الشعب عندما يرى رجلا فى الطريق ينهال على رجل آخر بالضرب ، ينضم تلقائيا للمضروب ، دون أن يسأل عن سبب المشاجرة ، وقد يكون المضروب هو المعتدى ، وقد يكون لصاً ومجرماً ، وقد يكون الضارب هو المجنى عليه الحقيقى ، ولكن كل هذا لايقنع الناس بألا يعطفوا على المضروب ..

فليست مروءات الثورة فروسية فقط من الثوار ، وانما هى قبل كل شيء تلاق مع روح هذا الشعب ومزاجه وطيبته وطابعه الانسانى الذى لم يتخل عنه قط وفى أحرج الظروف وأحلك الأزمات .

لهذا كان سعد يقول دائماً :

ـ يجب ألا يتخلى الثوار عن مروءاتهم .. الثوار بغير مروءات يصبحون أشبه بقطاع الطريق !

● ● ●

• الفصل الثالث عشر •

وصلت إلى رتيبة فى دمياط رسالة من باريس . إن صفية تدعوها إلى أن تترك دمياط فورا ، وتعود إلى القاهرة ، وتفتح البيت من جديد . ان خالها سعد زغلول غاضب لأنها أغلقت البيت ما عدا السلاملك حيث مكاتب الوفد . غاضب لأن شقيقها سعيد زغلول ترك البيت وأقام فى بيت فتح الله باشا بركات وهو ابن أخت سعد أيضا . البيت يجب أن يبقى مفتوحا كما كان . يجب أن يستقبل الناس فى كل غرفة فيه كما كان يحدث فى وجود سعد . إن هذا البيت لم يعد بيتنا . انه بيت الأمة . لم نعد نملك حرية التصرف فيه . ما دامت الأمة فى مصر فيجب أن يفتح البيت على مصراعيه . السلاملك وحده ليس بيت الأمة . البيت كله هو بيت الأمة . يجب أن تفتح رتيبة البيت للناس جميعا كما كانت تفعل صفية . يجب أن يقدم الطعام للزائرين والزائرات والسكرتارية كما لو كان « سعد » لا يزال مقيما به . رتيبة يجب أن تستقبل زوجات وأمهات الشهداء فى البيت باستمرار . عليها أن تذهب كل يوم خميس لتضع الزهور على قبور الشهداء باسم سعد وصفية . يجب أن يشعر الذين يترددون على البيت بأن شيئا لم يتغير . إذا لم يكن لديكم ما يكفيكم من نقود فاقترضوا . فإذا لم تجدوا من يقرضكم فبيعوا نفائس البيت !

أسرعت رتيبة بتنفيذ الأوامر . حملت طفليها وعادت إلى القاهرة فى نفس اليوم . ان رتيبة لا تستطيع أن تقول « لا » لصفية أبدا . كانت رتيبة سعيدة وفخورا بالمهمة التى كلفت بها صفية . لم يسعد الطفلان بهذه المهمة الوطنية التى نيطت بأمهما . حزنا على فراق دمياط . حزنا على فراق صديقتيهما الصغيرتين حسنية وسعاد . حزنا على فراق سطح بيتهما الذى كان يشهد يوميا حفلات عرسهما . كان الطفلان مشدودين إلى الطفلتين لحظة الفراق أحس الأطفال الأربعة لأول مرة فى حياتهم لصغيرة بمعنى كلمة فراق . انها مزيج من الضنى والحسرة والتمزق والعذاب . تصور الأطفال الأربعة أن علاقتهم ستعيش إلى الأبد . ولكن الأبد كان عمره بضعة شهور مرت بسرعة . الأيام الحلوة تركب البرق والأيام المؤلمة تركب السلحفاة .

كان حبهم أشبه برحلة قصيرة إلى الجنة . وهاهم يخرجون من جنة اللقاء إلى جحيم الفراق .

وحلت ساعة الوداع . وجاءت أم الطفلتين تودع أمهما . ووقف الأطفال الأربعة يتبادلون النظرات فى لوعة وأسى . أجسادهم ترتعد . شفاهم ترتعش قلوبهم تتمزق . أصيبوا بالبكم فلزموا الصمت . أصيبوا بالشلل فلم يستطيعوا أن يمدوا أيديهم مودعين . ورأت أم الطفلين وأم الطفلتين شحوب الأطفال العشاق وتعاستهم وحيرتهم فانفجرتا ضاحكتين . بدا لهما منظر العشاق الصغار منظرا مضحكا كأنه مشهد كوميدى فى احدى هزليات نجيب الريحانى أو على الكسار !

وما كادت الوالدتان تنفجران بالضحك حتى انفجر الأطفال الأربعة بالبكاء والعويل ! وصاح على وهو يضرب الأرض بقدمه . لا أريد أن أسافر إلى القاهرة . اننى أريد أن أبقى مع حسنية فى دمياط . ومسح مصطفى دموعه بكفيه وقال وأنا أيضا أريد أن أبقى مع سعاد فى دمياط وتشبثت الطفلتان الصغيرتان بالولدين الصغيرين وقالتا : ونحن لن نتركهما يسافران إما أن نسافر معهما أو يبقيا معنا !

وذهلت الوالدتان . هل انقلب العبث إلى جد ؟ هل تحولت اللعبة إلى حقيقة . ماذا يعرف هؤلاء الأطفال عن الحب ؟ أيمكن لأطفال فى هذه السن أن يعشقوا ويضنيهم الحب ويشقيهم الهوى ، ويعذبهم الفراق . أيمكن للحب الصغير أن يحول الوادعين المطيعين إلى ثوار صغار يثورون على أوامر آبائهم . ولم تتمالك رتيبة نفسها فضربت الولدين عقابا على قلة أدبهما ، وضربت والدة الطفلتين ابنتيها على قلة حيائهما !

وبكى الأطفال الأربعة من قسوة الضرب المبرح ، واطمأنت الوالدتان لأن الأطفال يبكون من الضرب ، ولا يبكون من الحب !

ولكن هذا الضرب المبرح لم يشف العشاق الأربعة من هواهم المبرح ، بل انه على العكس غرسه فى قلوبهم الصغيرة ، جعل له جذورا قوية فى أفئدتهم . ان الحب يحتاج دائما إلى أن نضربه على رأسه ليثبت على الزمن . انه مثل المسمار ، كل ضربة على رأسه تثبته فى الجدران !

كان من الممكن أن ينسى الأطفال الأربعة الحب مع الأيام ، ولكنهم لم ينسوه ، لأنهم لم ينسوا العلقة التى ارتبطت به . فالألم هو الصمغ الذى يلصق ذكرياتنا فينا . الأيام الحلوة تطير من ذاكرتنا ، والأيام المؤلمة ترسب فى قلوبنا . دموعنا هى حبر ثابت تكتب به آلامنا . وآلامنا تحفر فى نفوسنا آثارا تعجز عن محوها أفراحنا . الفواجع تهز أعماقنا . ترسب فيها . فالحب الباسم يمضى كما يمضى النسيم . أما الحب العاصف فهو يقتلع أشياء منا كما تفعل العاصفة . ينتزع أشياء كثيرة . يغير كل ما يمر به . ولهذا عاش الحب

الصغير فى قلب الطفلين أكثر مما عاش أى حب فى حياتهما . وإذا كانت العاصفة تقتلع الأشجار الكبيرة وتعجز عن اقتلاع الأشجار الصغيرة . فإن الفراق قد يقتل الحب فى قلب كبير ، ولكنه يثبت الحب فى القلب الصغير

وعاد الطفلان إلى القاهرة ليعيشا فى دوامة الثورة من جديد . ولكن الطفلين لم يبهرا بالبيت الكبير هذه المرة . ولم يتلهيا بالحركة الدائمة . كانا يحملان حسرتهما معهما كانا يحسان أنهما تركا قلبيهما الصغيرين فى دمياط . وإذا انفردا معا فى غرفة نومهما تهامسا عن حسنية وسعاد . هل سنراهما مرة ثانية ؟ هل سنلعب معهما لعبة العروس والعريس ؟ هل تذكرنا الحبيبتان الصغيرتان كما نذكرهما ؟ إن المسافة بين العشاق الصغار لا يلهث فيها الحب ويسقط فيها منهوك القوى .. كلما ابتعد العشاق الصغار اقتربوا . كلما طال فراقهم قصرت المسافة بينهم . حب الأطفال فيه عناد يشبه الصمود . فيه براءة تمنحه قوة . فيه سذاجة تحوله الى شىء مثل الايمان .

ولم يكن شقاء الطفلين فى الحب وحده . كان شقاؤهما فى السياسة أكثر من شقائهما فى الحب ، كانت الحيرة تعذبهما . يذهبان إلى سلاملك بيت الأمة ويختلطان بالثوار والوفود التى تتردد على البيت ويسمعان كلاما .. ويدخلان البيت ويسمعان كلاما مختلفا . كأنهما فى خطوات قليلة ينتقلان من عالم إلى عالم .

كان زعماء الثورة يتحدثون إلى الناس الذين يفدون إلى مكاتب الوفد بلغة الورود . إن كل شىء عال . كل شىء يسير على ما يرام . الوفد فى باريس يسير من انتصار إلى انتصار . الاستقلال التام على الأبواب . إن أعضاء الوفد كتلة واحدة متراصة فى مواجهة الانجليز . ان الزعيم سعد زغلول متفائل جدا . انه سيزف قريبا إلى الأمة بشرى النصر العظيم !

ثم يرى الطفلان أمهما داخل البيت حزينة مقهورة . تتكلم وكأنها تبكى . تحاول أن تخفى زفراتها فى بسماتها ، ولكن صوت الضحكات المجروحة كانت أشبه بالتنهدات . انهما يسمعانها تهمس فى أذن شقيقها سعيد زغلول بأن صفية كتبت لها من باريس أن سعدا تعس . انه يمضى ليالى كثيرة يتقلب فى فراشه لا يغمض له جفن . انه يمضى اليوم كله بغير طعام . انها تلح عليه أن يأكل لكى يعيش ، ولكنه يقول لها انه يفضل أن يموت . الأرق والقلق والحزن والشقاء تكاد تقتله . ان كمية السكر فى جسمه تتضاعف . الطبيب وجد عنده زلالا . ان أبواب مؤتمر الصلح مغلقة فى وجهه . الدول كلها اعترفت بالحماية البريطانية . رؤساء الدول الكبرى يرفضون مقابلته ليسمعوا وجهة نظر مصر . حتى الأمير فيصل بن الشريف حسين رفض أن يقابله حتى لا يغضب الانجليز . أرسل له الأمير فيصل صديقه مختار باشا العابد يقول له

ان الأمير فيصل ينصحه بأن يقبل شروط الانجليز ، وان كل شيء بيد الانجليز . وان مصر أخطأت بالثورة ضدهم . ويثور سعد على مختار العابد باشا ويقول : الفرق بيننا وبينكم .. انكم تبحثون عن العرش ، ونحن نبحث عن الاستقلال . الانجليز يمنحون العروش ، ولكن الشعوب تنتزع الاستقلال

وتثور بينهما مشادة يفقد فيها سعد أعصابه ! وأعضاء الوفد بدأوا ييأسون . أصبحوا يقولون لا فائدة . الذين تزعموا الثورة على الانجليز أصبحوا يتزعمون فكرة التصالح مع الانجليز ! كان عدلى يكن هو رسول الوفد عند الانجليز ، فانقلب واصبح رسول الانجليز عند الوفد . كان سعد قد كلفه بأن يقنع الانجليز بأن تكون المفاوضات على أساس الغاء الحماية البريطانية ، وجاء هو يقنع سعدا بأن تكون المفاوضات على أساس بقاء الحماية البريطانية .

كان سعد يتصوره رسوله لدى العدو ، فإذا به يكتشف انه أصبح رسول الأعداء لديه !

وتقول صفية ان سعدا كان يمكن ان يحتمل هذه المفاجأة ، لولا أن أعضاء الوفد انضموا الى عدلى ضده . استهواهم فى عدلى يكن منطق رجل الدولة ، ونفرهم من سعد حماسة الثوار ، مشوا وراء سعد خطوات فى الطريق . تحملوا فيها النفي والتشريد والبطش والتهديد . وقد لهثوا من الطريق الطويل الشاق ، وأدمت الأشواك أقدامهم ، وهم يعتبرون ثورة مصر معجزة ، والمعجزات لا يمكن أن تتكرر . الشعب لا يمكن أن يبذل أكثر مما بذل ، ولا أن يضحى أكثر مما ضحى ، انه أعطى الكثير ولم يبق لديه ما يعطيه . والانجليز يعرضون علينا نصف الرغيف ، فلنسارع الى أخذ هذا النصف . إننا لم نحلم قبل الثورة بأن نحصل من أقوى دولة فى العالم على ما تعرضه علينا . فلنسارع إلى قبوله قبل أن تسحب نصف الرغيف !

وكان سعد يعتبر هذا منطق المنهزمين . إن نصف استقلال هو حماية كاملة . كما ان نصف الحرية هو عبودية كاملة . إن كفاح الشعوب هو فضيلة من الفضائل . فكما انه لا يمكن أن نرضى بامرأة نصف فاضلة ، ولا يمكن أن نحترم رجلا نصف شريف ، كذلك الشعوب فإنها ترفض نصف الحرية وتأبى نصف الاستقلال ، ان امرأة نصف فاضلة هي مومس متسترة ، ورجلا نصف شريف هو لص مختبيء من البوليس ! وعدلى التركى لا يعرف الشعب المصرى ، ولكن سعد الفلاح يعرفه . يعرف انه قادر على الصمود ، مستعد للتضحية . البذل لا يصد نفسه عن الكفاح وإنما يفتح شهيته للجهاد . انه إذا تحرك لا يمكن أن يقف . وإذا اندفع إلى الأمام فلن يرضى بالتقهقر .

إن سعدا يشعر بقوة هذا الشعب لأنه واحد منه ، من صميمه ، لأنه شرب من الترعة ، لأنه غاص فى الطين ، لأنه رأى هذا الشعب يثور فى أيام عرابى ومن أجل ذلك يصم أذنه عن سماع منطق لطفى السيد ، وعن بلاغة عبدالعزيز فهمى ، وعن دهاء اسماعيل صدقى ، وعن حكمة عدلى يكن ، وعن فصاحة محمد على علوبة ، وعن حجج محمد محمود . وهم يتهمونه جميعا بأنه رجل مستبد لا يخضع لرأى الأغلبية . ويرد عليهم بأن الأغلبية ليست هى أغلبية الوفد وإنما أغلبية الشعب . يوم يتحول الثوار الى حكماء تلفظهم الثورة . منطق الثورة اندفاعها . بلاغتها فى الدم الذى تريقه . دهاء الثورة فى تسديد ضرباتها الى العدو لا فى الاستسلام والتسليم . حكمة الثورة فى جنونها . فصاحة الثورة فى عدد شهدائها . حججها هى معاركها !

وأعضاء الوفد يتهمون سعد باشا بأنه قد جن ! ان هتاف الجماهير أفقدته اتزانه . ان تصفيق الملايين سلبه عقله . انه سكر بخمرة التأييد الشعبى ولا يريد أن يفيق .

وسعد يعترف بأن الشعب عندما رفعه فوق أعناقه جعله يعيش فى سماء الخيال . ولكنه يرى انه وهو يستند الى هذا الشعب يقف على أرض صلبة . ان الواقفين لا يستطيعون قيادة الأمم ! الخيال هو الذى يلهمها قوتها . أحلام النصر هى التى تصنع صمودها . ان الخيال هو الأب الشرعى لكل عمل عظيم . ولولا خيال العباقرة لما تطور العالم . لولا خيال العلماء لما حدثت الاستكشافات والاختراعات التى بدلت الحياة . لولا هذا الخيال لما قاد سعد زغلول ثورة ١٩١٩ . ولو ان الذين فجروا الثورة كانوا واقعيين لما دبروها ، ولما تحركوا ، ولما ندفعوا يحاربون أقوى دولة فى العالم فى اليوم التالى لاعلان انتصارها الساحق فى الحرب العالمية الأولى .

ولكن هذا الكلام الخيالى لا يعجب أغلبية أعضاء الوفد . ويتألبون على سعد ويهددونه بالاستقالة ، ويتطاولون عليه ويسبونه ! ويحتمل سعد تطاولهم وسبابهم ويمضى فى عناده . وكل ما يهمه أن يبقى الوفد كتلة واحدة ولو ظاهريا حتى لا يشجع انقسامه العدو على ضربها ، وهو يكتب الى لجنة الوفد فى القاهرة يؤكد لها ان الوفد كتلة واحدة ، وهو يعلم انه أصبح كتلتين . وينفى كل ما يشاع عن انقسامه وهو يرى بعينه الشرخ فى الوفد يزداد اتساعا . وان كل فريق يتكلم لغة لا يفهمها الآخر .

وروى الأستاذ محمد كامل سليم سكرتير سعد فى مذاكراته عما حدث فى احدى جلسات الوفد عن هذا الخلاف .. قال :

« عبدالعزيز فهمى قال لى - ان بريطانيا مزهوة بنفسها ، وهى الآن أقوى

دولة فى العالم ، وخرجت منتصرة من الحرب العالمية الأولى ، ونفوذها بين الدول ساحق ماحق ، ولا ينازعها منازع ، ومصر أضعف دولة فى العالم ، وواقعة بين براثن هذا الغول البريطانى ، ونحن هنا شحاذون نشحت منها استقلالنا وحريتنا ! »

« .. وقال لى سعد : ما رأيك فيمن يقول نحن هنا شحاذون ، وعلينا أن نطيل بالنا ؟ »

« فأظهرت دهشة ساخطة مستنكرة وقلت : من قال هذا ؟ »

« قال سعد : انه عبدالعزيز فهمى سمعته عند انصرافه (من اجتماع الوفد) يقول هذه الكبيرة الى أحد زملائه ، فغضبت أشد الغضب ، ولم أشأ أن أعود اليه لأناقشه الحساب ، وأثير معركة جديدة . يكفى ما نحن فيه من معارك وكرب وبلاء »

وهنا أطرق سعد مفكرا مهموما ثم قال :

— لا يجوز أن تكون هذه الروح الوضيعة فى رجل كريم على نفسه ، لقد كان عزيزا على أن أفاوض هنا ، وأبناء وطنى ينكل بهم فى مصر تنكيلا ، ويعذبون ظلما وعدوانا . ان ذكرى الشباب المصرى الذين يعرضون صدورهم للرصاص ، ويموتون شهداء ، وعلى ألسنتهم الهتاف باسمى واسم الوفد واسم الوطن ، تكفى لملء نفوسنا بأعظم أنواع الشجاعة وأشد أنواع السخط والمقت لأولئك المستعمرين ، الذين سطوا على بلادنا كما يسطوا القتلة ، واللصوص على الأبرياء الآمنين . نحن شحاذون ؟ ! كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذبا . ان ما شعرت به وأنا أخاطب هؤلاء الانجليز ، كان كما يشعر القاضى حين يخاطب اللص ، يطالبه برد الأمانة التى سرقها ويطالبه بالاستقامة بعد أن حاد عنها ، ويطالبه بتنفيذ الوعود التى قطعها على نفسه . وعود الشرف الذى التزم بها ، ليرد الى حقى الذى اغتصبه ، فإذا كان هناك من يخجل ويشحت فهم الانجليز ، وإذا كان هناك من يطالب بشجاعة وفخار فهم المصريون . ومتى كان المطالب بحقه شحاذا ؟ ومتى كان المطالب بماله ضعيفا خجولا ؟

والله إنى لأعجب كيف يجرؤ ملنر (اللورد ملنر وزير المستعمرات البريطانى ورئيس وفد المفاوضات البريطانى مع سعد) وهؤلاء المستعمرون أن ينظروا فى وجهى ، وأنا أطالبهم بأن يكونوا شرفاء ، فينفذوا عهودهم ووعودهم بالجلاء ، لكى ينقذوا شرفهم وسمعتهم من العار والشنار ، ويتركوا بلادى التى سرقوها بالحيل الشيطانية وبالحديد والنار ، هذه روحى وأنا أخاطب هؤلاء القوم ، وتلك هى روح عدلى وأصحابه المهازيل ، وهذا فى الواقع هو سر الخلاف بيننا ، وسر البلاء .

ثم سكت سعد وأطرق قليلا وقال فى انفعال حزين .

— ما حيلتى فى رخاوة بعض الأعضاء ؟ ان مصيبتى فى ضعفهم وهزالهم ان الواحد منهم ليفرح إذا دعاه عظيم من الانجليز لتناول الغذاء معه ، وأنا والله لا أفرح ولا أقبل أرفع نيشان يأتينى من ملك هذه البلاد ، وما لبيت دعوة إلا كنت لها كارها ، وعليها ساخطا ، لأننى أعتبرها نفاقا فى نفاق ، وآتية من قوم هم خصومى وأعدائى ، وأنا عدوهم اللدود .

وما حيلتى الآن وقد أخذ بعض الأعضاء لا يخجلون حين يظهرون اللين ، يأسا ، أو طمعا فى دخول الوزارة الجديدة التى سيكون عدلى رئيسا لها بكل تأكيد ؟ ان نفوسهم قد هزلت ، وهذا شر ما يصيب الرجل ، والرجل المجروح فى كرامته وكرامة أمته لا يثور ، وهو رجل مسكين يستحق الرثاء والاحتقار ، ولا يرجى منه خير على الاطلاق ..

هذا هو ما نقله سكرتير سعد عن الخلاف بينه وبين أعضاء الوفد ، وقد يكون سعد قسا عليهم عندما اتهمهم بأنهم يتساهلون لأنهم يريدون أن يصبحوا وزراء ، والواقع ان أحدا منهم لم يدخل وزارة عدلى بعد الاتهام الذى وجهه لهم سعد زغلول . ولكن الخلاف الحقيقى هو أن سعد كان مؤمنا بقدرة الشعب على الكفاح ، وأغلبية أعضاء الوفد كانت تتوهم أن الشعب أعطى وليس لديه بعد ذلك ما يعطيه ، وكان هذا سبب سخط سعد على صديقه عبدالعزيز الذى قال عنه يوما - إذا حال حائل بينى وبين الوفد فلا آمن عليه إلا عبدالعزيز فهمى .

وكثيرا ما تخيل الوطنى أن أمته عاجزة فإن الذى يقرأ خطابات مصطفى كامل من باريس الى صديقه الحميم فؤاد سليم الحجازى فى القاهرة ، يجد أن مصطفى كامل يقول فى خطاباته السرية غير ما يقول فى خطبه العلنية .

فبينما مصطفى كامل يقول فى خطاباته المشهورة « لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا » و« لا يأس مع الحياة » نجده يقول فى خطاباته السرية عبارة مثل : « دعنى بالله عليك من هذه الأمة التى بلانى الله بان أكون واحدا من أبنائها ، لا أستطيع الاعتماد على أحد من أبناء جنسى . إذا صورت يوما بأى صورة كانت ، لا أجد من أمتى عضدا أو نصيرا . أمتنا التى تسب من أولها لآخرها ويسب أميرها وأعز المدافعين عنها ، ويهان عرضها وشرفها من غير أبناء جنسها .. وهى لا تتحرك . أمتى هى التى بالغت فى الكرم حتى جعلته جبنا . أقرب الناس منى يخاف اليوم مراسلتى فكيف مساعدتى ؟ أملى قليل لما أعلم من ضعف الهمم عندنا وخور العزائم . أمة تريد أن تأتيها الحرية وهى نائمة فتوقظها من نومها . أمة لا تثبت فى أملها شهرا ولا فى يأسها شهرا . انها لعمر الحق أمة تباع وتشترى كالأغنام . لولا والله انى

كما تعلم يا فؤاد كثير الثبات فى المبدأ ، فخور بدفاعى عن عهد الحرية والحقيقة ، لتركت هذا الميدان الذى أنا فيه ، محتقرا لقومى وعشيرتى محتقرا لأناس أدافع عنهم وأناضل عن مصلحتهم ولا يقابلوننى بغير الطعن والانتقاد على لا وجود للمصرى ولا حق له من الحقوق البشرية ما دام بهذا الضعف والخمول . مصر لم تبرهن على انها حية تستحق نوال حقوق الحياة المدنية والسياسية كغيرها من الأمم والشعوب المستقلة . تأكد يا صديقى العزيز انى لن أمكث فى مصر بعد عودتى دون أن أرى القبر . سوف أنتحر ولا أعيش فى وسط أمة جاحدة » .

إن ما كتبه مصطفى كامل دليل على أن كثيرين من الوطنيين يصابون فى أوقات معينة بلحظات يأس ، تجعلهم يقللون من قيمة شعوبهم ، ويستهينون بقوتها ، ويسخرون من قدرتها على الصراع والتضحية والاستمرار . وعندما تطول لحظات اليأس يتحرك الوطنى الى معتدل ، يتصور انه يخدم بلده بنصف الرغيف وبنصف الحرية وبنصف الاستقلال . ولكن الاعتدال فى أثناء الثورة أشبه بربط الفرملة فجأة فى أثناء اندفاع السيارة ، فهى تنقلب على وجهها ، وكما ان رجل الدولة لا يستطيع أن يكون ثائرا ، فإن الثائر لا يستطيع أن يكون رجل دولة . ولا يجوز أن يجتمع فى ثورة واحدة الثائر ورجل الدولة ، فاجتماعهما أشبه بأن تدوس على الفرملة والبنزين فى وقت واحد ! ومن هنا كان لابد للشعب المصرى أن يختار بين البنزين والفرملة ، بين الثورة والاعتدال ، بين سعد زغلول وعدلى يكن !

وقد كان الباب الخشبى الذى يفصل بين سلاملك بيت الأمة وبين غرفة المائدة فيه ، يفصل بين عالمين مختلفين . عالم الوهم وعالم الحقيقة . أنصار الوفد يصدقون رسائله الرسمية بأن كل شىء فى باريس على ما يرام ، ورتيبة وشقيقها سعيد يعلمان من خطابات صفية ان كل شىء زفت وقطران ! باب خشبى يفصل بين الزغاريد والدموع . بين البسمات والتنهدات . بين الأحلام الوردية والوقائع السوداء ، بين الأمان الخيالى والخطر الحقيقى .

وكان سعد حريصا على أن يطلع الجهاز السرى فى القاهرة على الحقيقة كاملة ، وكان رسله يفدون من باريس ويبلغون عبدالرحمن فهمى حقيقة ما يجرى هناك .

وفجأة قبض الانجليز على عبدالرحمن فهمى رئيس الجهاز السرى . وكان يوم القبض عليه مناحة فى بيت الأمة . أحس الجميع أن أكبر قلعة سقطت فى يد الانجليز . وقال سعد زغلول . ان القبض على عبدالرحمن فهمى أخطر من القبض على سعد زغلول ! القبض على سعد أشعل الثورة والقبض على عبدالرحمن سوف يطفئها ! انه الدينمو السرى للثورة . انه قائد جيوش

الظلام فيها . ان كل الأجهزة التى تعمل تحت الأرض تتبعه شخصيا .
وعاش البيت فى حزن ووجوم وأسى وقلق . انها ضربة لسعد فى الصميم ، فى الوقت الذى تخلى فيه عنه أغلبية أعضاء الوفد . وجاء مصطفى النحاس الى البيت وهو يضحك ويقهقه . انه أحد أعضاء الوفد القلائل الذين بقوا مع سعد . ان متفائل دائما ويزداد تفاؤله فى الليالى السوداء . وقال النحاس لرتيبة ان كل شىء عال . ولم تصدق رتيبة ان كل شىء عال . وهمس النحاس بأن أحمد ماهر والنقراشى سيتوليان عمل عبدالرحمن فهمى وانه أرسل يستأذن سعد فى ذلك ، وان الانجليز لم يعرفوا أغلب الأجهزة السرية ، وان عبدالرحمن فهمى أشبه بأبى الهول ، ولا يمكن لأحد أن يحصل منه على أى سر من أسرار الوفد .
وعاد الابتسام الى وجه رتيبة ، ولم يعرف الطفلان وقتها ما قال النحاس لأمهما ، كل ما عرفاه أن النحاس كان يضحك ويقهقه ويقول . ان كل شىء عال !
ولكن رسالة النحاس السرية لم تصل الى سعد فى الحال .. كان سعد وقتئذ فى لندن يفاوض لورد ملنر . ان النحاس بعث بالرسالة السرية مع رسول خاص استقل الباخرة من بورسعيد الى لندن فى رحلة استغرقت ١٢ يوما أما الرسالة المكشوفة بالقبض على عبدالرحمن فهمى فأرسلها بالتلغراف العادى .
وما كاد يصل الى سعد نبأ القبض على عبدالرحمن فهمى حتى قرر قطع المفاوضات احتجاجا على القبض على عبدالرحمن فهمى .
وثار عليه أعضاء الوفد . وعجبوا لهذا الرجل المجنون الذى يقطع مفاوضات الاستقلال من أجل القبض على سكرتير لجنة الوفد المركزية فى القاهرة ! لقد سبق أن قبض على عدد من كبار الوفديين ، فلم يقطع سعد المفاوضات فلماذا يقطعها الآن ؟ وما هى أهمية عبدالرحمن فهمى
وكان أغلب أعضاء الوفد لا يعرفون شيئا عن الجهاز السرى ، ولا يعرفون أن عبدالرحمن فهمى هو رئيس الجهاز السرى ، ولا يعرفون شيئا عن التعليمات التى كان يرسلها سعد الى الجهاز السرى !
لقد أخفى سعد عليهم جميعا هذه التفصيلات ، وأخفى عليهم انه أمر بخطف عبدالرحمن فهمى من السجن وفشل الجهاز السرى فى تنفيذ الخطة .
وكانت حجته أن مثل هذه المسائل السرية الدقيقة تقتضى الكتمان التام
وانه لا يضمن أن يخرج عليه بعض هؤلاء فى منتصف الطريق ، ومعهم أخطر أسرار الثورة .

وكان هذا الكتمان سببا في وقوع أزمات بين سعد وأعضاء الوفد . محمد على علوبه أمين صندوق الوفد يريد أن يعرف تفاصيل المبالغ التى ينفقها سعد وابراهيم سعيد باشا أمين صندوق الوفد في القاهرة يريد أن يعرف تفاصيل عن المبالغ التي ينفقها عبدالرحمن فهمي ! ومبدأ الكتمان يقضي باخفاء كل شيء عن أمناء الصندوق !

وأعضاء الوفد في عجب من تفاهة سعد زغلول الذى شغل نفسه بمسألة القبض على عبدالرحمن فهمي .. ولم يبد هذا الاهتمام عندما قبض الانجليز على بعض الباشوات من أعضاء الوفد !

وحدث مرة أن قال محمد محمود باشا لسعد زغلول . ان من رأيه أن تلقى بعض القنابل لهز الانجليز .

وقال سعد لمحمد محمود : انه ضد سياسة العنف ! وصدق محمد محمود ما قاله سعد ولم يعرف الحقيقة إلا بعد ذلك بعشرين عاما من عبدالرحمن فهمي نفسه !

فعلى الرغم من ثقة سعد بمحمد محمود وقتئذ فلم يطمئن الى أن يضمه الى السر الكبير !

ويقرأ أعضاء الوفد في الصحف الانجليزية التهم الخطيرة الموجهة الى عبدالرحمن فهمي وفيها خلع السلطان واغتيال الوزراء الانجليز !

ويسألون سعدا عن هذه التهم فيقول انها غير حقيقية .

ويختلف أعضاء الوفد مع سعد على مشروع ملنر .

لورد ملنر قدم مشروعا بنصف استقلال .. وأغلبية أعضاء الوفد تقبله ، وسعد وثلاثة أعضاء يرفضونه ، ويشتد الصراع بين الفريقين ويتم الاتفاق على استفتاء الأمة . ويقول سعد انه إذا قبل الشعب هذه الحماية فسوف يستقيل من رياسة الوفد ويعتزل السياسة .

وكان سعد يقول : ما وثقت بي الأمة لأغرر بها ، بل لكي أسلك بها سواء السبيل . لقد نفرتها من الحماية فنفرت ، ورغبتها في الاستقلال فرغبت ، وحملتها على كثير من الضحايا فضحت ، وإن لمن أكبر الجرائم أن أصور لها ، بعد ذلك كله ، الحماية في صورة الاستقلال ، وأن أحملها على ما تكره . لا أريد أن يقول التاريخ عنى « سعى الى الاستقلال فأيد الحماية »

وسافر عدد من أعضاء الوفد الى القاهرة لاستفتاء الأمة ، وفوجىء سعد بأنهم يحبذون للأمة قبول الحماية ! فأرسل الى النحاس خطابا يطلب اليه أن يبلغ الشعب حقيقة موقفه .

وبعث برسالة أخرى الى الدكتور أحمد ماهر بهذا المعنى .. وإذا بالشعب

يعترض على مشروع ملنر ويصر على وضع التحفظات التى طلبها سعد زغلول .

وبدأ أعضاء الوفد يعودون الى القاهرة وقد صمموا على خلع سعد زغلول من رياسة الوفد إذا رفض أن يؤيد عدلى باشا فى المفاوضات !

وترك سعد لخصومه أن يسبقوه ليمهدوا لرأيهم بين الجماهير !

ولكن قبل وصولهم الى الاسكندرية بيوم واحد أبرق سعد من باريس الى أمين الرافعى بك مدير جريدة الأخبار لسان حال الوفد فى تلك الأيام قال فيها :

« لما أبت لجنة ملنر أن تبحث معنا التحفظات التى أبدتها الأمة فى مشروعها ، وأشارت الى مكان بحثها فى المفاوضة الرسمية التى تكون على أساس هذا المشروع ، صرحنا لها انه لا يمكن لنا ولا لأى انسان ، يكون للأمة أقل ثقة فيه ، أن يدخل فى هذه المفاوضة على أساس هذا المشروع قبل تعديله بالتحفظات المذكورة »

« وقد استحسنت الأمة هذه الخطة ، وأقرتنا عليها ، وجددت بنا ثقتها ، كما جددنا العهد لها بالمثابرة عليها »

« غير أن فكرة نبتت الآن فى بعض النفوس ترمى الى أن الوفد مع تمسكه بهذه الخطة فى خاصة نفسه ، لا يمنع الغير من الدخول فى المفاوضة على خلاف هذا الشرط ، بل يلزمه أن يؤيده ، ويعلن ثقته به ، من كان من أصدقائه . وهى فكرة أقل ما فيها انها غير مفهومة ، ولا قابلة للفهم ، ولا يترتب على العمل بها ، إلا افساد خطة الوفد نفسه .

« ولهذا أظهرت لجميع أبناء وطنى اننى لا أوافق على هذه الفكرة أصلا ، وأحذرهم منها ، ومن تصديق أى قول لم يصدر منى بقبولها . وانى لا أدخل فى أى مفاوضة على أساس مشروع ملنر قبل تعديله بالتحفظات ، ولا أؤيد من يدخل بدون هذا الشرط ، مهما كانت علاقته بشخصى ، ومهما كانت ثقتى به »

« وأملى فى وطنية كل مصرى أن يفهم المركز الدقيق الذى نحن فيه ، وأن يحافظ على الاتحاد الذى هو أساس قوتنا ، والمعول عليه فى نجاح قضيتنا . ورجائى فى الله قوى فى أنه ما دام هذا الاتحاد فينا فلابد أن نصل الى تحقيق الآمال »

وما كادت تنشر « الأخبار » برقية سعد حتى دوت كالقنبلة . هزت الشعب من أعماقه . انتشر السخط فى كل مكان على أعضاء الوفد الذين اختلفوا مع سعد . لطختهم البرقية بالطين . هزت صورهم فى الرأى العام . هوت بهم من مكانهم فوق القمة الى السفح . بدأت الجماهير تمزق صورهم . كان الشعب يحتفظ بصور أعضاء الوفد كأنهم نجوم السينما . ووصل أعضاء الوفد

الى الاسكندرية وهم لا يعرفون شيئا عن العاصفة التى سبقتهم ووقفت تنتظرهم على الميناء !

وكان أعضاء الوفد واثقين انهم سيكسبون المعركة مع سعد زغلول ألم يسبقوه الى مصر . سوف ينفردون بالمنابر . سوف يحتكرون الأحاديث فى الصحف . ويسيطرون على لجان الوفد . ويستأثرون بالرأى العام . سوف يستعينون بقوة الدولة وسلطانها . انهم قادرون فى هذه الفترة وسعد لا يزال فى الخارج على أن يقصوا ريش النسر فيتحول الى دجاجة ، وأن يعزلوه عن قوى الشعب ويجمعوه حولهم ، حتى إذا عاد سعد الى مصر يعود مهيض الجناح ، مقلم الأظافر ، أسدا بغير أنياب ، أو فارسا بغير جواد ، ولا يبقى أمامه إلا أن يخضع لأغلبية الوفد ويؤيد عدلى ويسير فى الطابور ، أو يعاند فتعزله الأغلبية من رياسة الوفد وتنتخب عدلى يكن رئيسا له ، ويغيب سعد فى زوايا النسيان !

كانت هذه هى أحلام أغلبية الوفد ، والباخرة تقترب من شواطىء الاسكندرية .

ورأت لجنة الوفد المركزية فى القاهرة ، أن ترسل الى الاسكندرية وفدا برياسة فتح الله بركات باشا ، ابن أخت سعد ، لتمهيد أعضاء الوفد للمقابلة السيئة التى تنتظرهم !

وقبل أن يفتح فتح الله بركات فمه ليشرح الموقف الخطير ، فاجأه عبدالعزيز فهمى بك بقوله :

— الحمد لله ! خلصنا من خالك ! الحمد لله وصلنا لبر السلامة ، وبعدنا عن وجه خالك ! لن يجد خالك رجلا واحدا يحييه بعد أن يسمع الشعب ما سنقول ضده !

وابتسم فتح الله بركات وقال :

— مهلا يا عبدالعزيز بك . هدىء أعصابك .. اسمع أولا الحكاية !

وصاح عبدالعزيز فهمى :

— أنا لا أسمع ! اسمعوا انتم الحكاية ! وعندما ستسمعون ستخرجون على سعد الذى يريد أن يتحكم فى أغلبية الوفد !

وتركه فتح الله بركات يصرخ بكلمات عصبية .

وما كاد أعضاء الوفد يضعون أقدامهم على أرض ميناء الاسكندرية حتى فوجئوا بعشرات الآلاف من الجماهير تهتف سعد . سعد . سعد . لا رئيس إلا سعد !

إنهم رأوا نفس هذه الجماهير منذ عامين تهتف لهم ، وتحملهم على الأعناق ، وتضع على رؤوسهم أكاليل الغار . ماذا دهى هذه الجماهير ؟ كيف

تحولت الهتافات الى لعنات ؟ كيف تحولت الأيدى الملوحة والأكف المصفقة الى أيد مهددة والى أكف متوعدة ! اختفى من العيون الحب ، وتصاعد منها الشرر . الألفة التى كانت تعبد ، أصبحت فى يوم وليلة أصناما تحطم !

وفى كل محطة وقف فيها القطار من الاسكندرية الى القاهرة أحاطت الجماهير بأعضاء الوفد تهددهم وتتوعدهم وتقول لهم انها مع سعد ضدهم . انها ترفض سياسة نصف الرغيف . الاستقلال التام أو الموت الزؤام !

وأصيب أعضاء الوفد بالذهول من هذا الاستقبال الغريب . كان بعضهم يختفى فى دورة مياه القطار فى أثناء وقوفه فى المحطات . كان بعضهم يضطر الى أن يهتف بحياة سعد ليشترى سلامته ، كانوا فى دهشة من أن تفعل برقية سعد بهم كل ما فعلت . ان تحولهم فى يوم وليلة من معبودى الجماهير الى منبوذين .. واصيب عبدالعزيز فهمى بحالة هستيريا وراح يرمى بطربوشه فى الأرض ويقول ان سعدا استحل دمنا بهذه البرقية !

ووصل القطار الى القاهرة ، وإذا بالمصيبة فى محطة القاهرة أفدح من كل محطة أخرى على الطريق . الجماهير المحتشدة تهتف بحياة سعد وسقوط أعضاء الوفد . ثم جاءت الأنباء اليهم بأن الشعب حاصر باب المحطة وهو مصمم على الفتك بهم وجر جثتهم فى الشوارع وأن قوات البوليس الهائلة عاجزة عن حمايتهم من ثورة الشعب الغاضب . واضطر أعضاء الوفد الى الهروب من باب خلفى فى المحطة ، وهرعوا الى سيارات مغلقة مسدلة الستائر استقلوها الى بيوتهم ! ولم تتركهم الجماهير فى بيوتهم ، بل تقاطرت عليهم الوفود والمظاهرات تطالبهم بتأييد سعد . واضطر حمد الباسل باشا ومحمد محمود باشا ومحمد على علوبه باشا أن يلقوا كلمات فى الجماهير يعلنون فيها تأييدهم لسعد . ولكن هذه الخطب لم تهدىء الجماهير الغاضبة ، واستمرت المظاهرات تطوف بيوت أعضاء الوفد تهتف بسقوطهم وتهددهم بأن تهدم بيوتهم فوق رؤوسهم !

واضطر الأعضاء الى الاجتماع وإصدار قرار أعلنوا فيه انهم متمسكون الى النهاية بالغاء الحماية الغاء صريحا ، وبجميع تحفظات الأمة التى اتخذها الوفد شرطا أساسيا لدخول المفاوضات .

وكان واضحا من هذا البيان أن أغلبية الأعضاء تراجعت عن رأيها وأصبحت تؤيد رأى سعد زغلول الذى سبق أن هاجمته وسخرت منه .

ولكن الجماهير الناضجة لم تقتنع بهذا البيان . ان البيان لم يذكر اسم سعد زغلول ! انها مناورة أراد بها أعضاء الوفد أن يتبنوا رأى الشعب ، لينقضوا على زعيم الشعب !

وخرجت المظاهرات تقول : ليعلن أعضاء الوفد انهم يؤيدون سعد

زغلول ! واضطر الأعضاء الى أن يصدروا قرارا فى يوم ٢٩ يناير سنة ١٩٢١ يقولون فيه

« انه نظرا لما لوحظ من أن البعض أراد أن يفسر قدوم الأعضاء الذين حضروا أخيرا من أوروبا تفسيرا لا يتفق مع الواقع . رأينا أن نصرح بأن الوفد بأجمعه ، وعلى رأسه رئيسنا الجليل سعد زغلول باشا ، على أتم وفاق .

« وانه ثابت كل الثبات ، ومتشدد كل التشدد فى التمسك بما قرره من انه لا يدخل المفاوضات الرسمية إلا إذا قبلت التحفظات التى طلبتها الأمة ، وفى أولها النص على الغاء الحماية ، لتكون من القواعد الأساسية التى تبنى عليها المفاوضات . وانه لا يؤيد أى هيئة أخرى تتقدم للمفاوضات الرسمية إلا إذا كانت متفقة معه على المبدأ والخطة »

ووقع البيان محمد محمود باشا وحمد الباسل باشا وعبدالعزيز فهمى بك وأحمد لطفى السيد بك ومحمد على بك وحافظ عفيفى بك وعبدالخالق مدكور باشا وهم الأغلبية التى وقفت ضد سعد ، وويصا واصف وجورج خياط بك ومصطفى النحاس بك ، وهم الأقلية التى أيدت سعد منذ أول الأمر .

وافقت الأغلبية على اصدار هذا القرار الذى تراجعت فيه عن كل مواقفها لتكسب وقتا . رأت أن سعدا الغائب كسب المعركة الأولى . غلبهم من باريس وهم فى القاهرة . سحقهم وهو وحده وهم أغلبية . وتصوروا أن برقيته الى جريدة الأخبار كانت هى الضربة القاضية فى الجولة الأولى .. فليؤجلوا المعركة العلنية ، وليبدأوا فى تنظيم أنفسهم ، وفى تدبير خطتهم ، وعندما يعود سعد الى القاهرة ، وتنتهى الغمرة العاطفية التى سيطرت على الشعب نحو زعيمه الغائب . عندئذ تبدأ الجولة الثانية

وهدأت الجماهير الغاضبة ، وتوقفت المظاهرات الصاخبة ، وسكتت الهتافات بسقوط أعضاء الوفد .

وألف عدل يكن باشا الوزارة ، وأعلن انه يؤلفها بالتفاهم مع الوفد ، وخرجت المظاهرات ترقص فى الشوارع متوهمة بأن ما حدث هو انتصار للشعب !

وكان أول ما فعله عدلى يكن بعد تأليفه وزارته أن أرسل الى سعد زغلول برقية يبلغه فيها تأليف وزارته وسأله رأيه فى المفاوضات وكيف يجب أن تكون .

ورد سعد بأنه قادم الى مصر .

وأسقط فى يد عدلى وأغلبية الوفد . لقد تصوروا أن تأليف عدلى للوزارة سوف يسحب البساط من تحت قدمى سعد . سوف يقوى مركز أغلبية أعضاء الوفد الذين تساندهم سلطة الحكم . كانوا يريدون أن يضعوه أمام الأمر

الواقع وهو موجود فى باريس .. ولكنه فاجأهم بأنه قادم الى القاهرة

وروت صفية فيما بعد للطفلين وأمهما أن سعد زغلول كان خالى الذهن من أسلوب الاستقبال الذى أعده له الشعب عند عودته الى بلاده . صحيح انه عرف كيف تألب الشعب على خصومه وأدخلهم الجحور ، ولكن الموقف قد يكون تغير . مضت بضعة شهور منذ تلك الأيام التاريخية . حكومة عدلى فى يدها الحكم والسلطان . تعز من تشاء وتذل من تشاء . السيف فى يمينها والسوط فى يسارها . وهو لم يأت للشعب بالاستقلال الذى تمناه . والسلطان فؤاد ضده ، والانجليز خصومه الألداء . والدولة تتربص به . وأغلبية الوفد انطلقت فى ظل الحكومة الجديدة تبشر بارائها وتسفه آراء سعد . عدلى يعد بالمناصب وسعد يعد بالدم . عدلى يعتمد على الوزراء وسعد يعتمد على الشهداء . عدلى يبشر بأيام من الرخاء وسعد يعد بأيام من التضحية والبذل والفداء . عدلى معه الأغنياء القادرون والملاك الموسرون والأسر الكبيرة ، والاقطاعيون المسيطرون وسعد معه الفقراء والمحرومون والمعدمون .

وفى الليلة السابقة لوصول الباخرة الفرنسية الى الاسكندرية أقام القبطان مأدبة عشاء فاخرة تكريما للزعيم المصرى ، وغرس فى الخراف والديوك الأعلام المصرية . وانتزعت صفية علمين ، وأخذتهما معها الى قمرتها ، وزينت بهما قفص العصفورين « زغلول » و« منصور » وهما عصفوران أهداهما لها الشعب فى أثناء المظاهرات .

وعاد سعد الى القمرة ، وما كاد يرى العلمين فوق القفصين حيت غضب وهاج وقال لها : كيف تزينين القفصين بالأعلام . اننى لا أعرف كيف سيقابلنى الشعب .. انزعى العلمين فورا ؟

وقامت صفية ونزعت العلمين .

وعاد سعد يقول لها :

— كيف أعود بزفة .. ماذا سيقول الناس ؟ يقولون انه يحتفل بنفسه عندما وجد أن أحدا لا يحتفل به . ويرفع الأعلام على حقائبه عندما رأى أن أحدا لا يرفع له الرايات !

وما كادت السفينة تصل الى ميناء الاسكندرية حتى بهت سعد مما رأى . فى عرض البحر وجد ألوف القوارب والسفن مزينة بالأعلام . كانت هذه أول مظاهرة بحرية تراها مدينة الاسكندرية . حتى السفن الأجنبية الراسية فى الميناء زينت بالأعلام المصرية . القوارب مسارح متنقلة فيها مطربون ينشدون الأناشيد . فيها راقصون يرقصون . فيها فرق موسيقية تعزف نشيد يحيا سعد . أرصفة الميناء مغطاة بمئات الألوف من المستقبلين الهاتفين ، أقواس

النصر فى كل شارع ، البيوت ترفع الأعلام ، الشوارع مزينة بالثريات ، خرجت الاسكندرية كلها والمدن التى حولها تهتف وترقص وتزغرد للزعيم الذى استنكر أن تضع زوجته علمين على قفص العصفورين زغلول ومنصور !

وعلى طول الطريق من الاسكندرية خرجت مصر كلها . لم يبق أحد فى بيته إلا أعضاء الوفد .. !

فلاحات يزغردن وينشدن الأناشيد : « يا سالمة يا سلامة . سعد رجع بالسلامة » الفلاحون تركوا حقولهم وحملوا غصون الأشجار . الأطفال يهللون ، توقفت القطارات على طول الطريق ، الأرض مفروشة بالناس ، صوت القطار لا يغطى على هتاف الملايين على جوانب الخط الحديدى تهتف لسعد بصوت كالرعد . القاهرة لم تشهد من قبل فى حياتها مثل هذا الزحام . لا أماكن فى الفنادق . الجماهير التى قدمت من الريف تنام فى الحدائق والطرقات . النوافذ على طول الطريق الموكب تؤجر للناس . الكراسى فى فندق شبرد وفندق الكونتننتال يؤجر بجنيه ! اللصوص أعلنوا الاضراب عن السرقة لمدة ثلاثة أيام احتفالا بعودة الزعيم . لم تسجل محاضر الشرطة فى خلال ثلاثة أيام حادث سرقة واحدا ، ولا حادث نشل واحدا . وقد تكون هناك سرقات ، ولكن الضحايا رفضوا التبليغ عنها حتى لا يشوهوا جلال الاجماع . تسلق الناس مصابيح النور وفوق الأشجار ليلقوا نظرة على الزعيم المعبود . تحولت الدنيا الى فرح كبير . كل من فيها يرقص ويغنى ويهتف . عندما يحب هذا الشعب يتحول صوته الى أحلى الأصوات . هتافه فيه موسيقى . صياحه يتحول الى غناء . تصفيقه يطرب الآذان كأنه أعذب الألحان . الناس فى الشوارع كالسكارى . النساء خرجن الى الشوارع يزحمن الرجال . أمة تغنى لحنا واحدا ليس فيه صوت واحد نشاز . الشباب يتعانقون فى الشوارع . لم يسبق لشعب من الشعوب أن استقبل زعيما أو ملكا أو فاتحا كما استقبل الشعب سعد زغلول فى تلك الأيام . إن مراسل جريدة التيمس فى القاهرة أبرق الى جريدته يقول ان سعد زغلول اليوم هو أعظم رجل فى العالم . كتب ابراهيم عبدالقادر المازنى وصفا رائعا لهذا الاستقبال فى جريدة الأخبار . ان أمة بأسرها خرجت تعانق رجلا واحدا . تحمله على أعناقها . لم يكن لقاء شعب وزعيم وإنما كان لقاء عشاق بعد فراق طويل !

وأبت مصر أن تستقبل سعد فى يوم واحد ! أصرت على أن يستمر الاستقبال عدة أيام . مواكب تسير أمام بيت الأمة بالنهار والليل . كل قرية فى مصر جاءت بنسائها ورجالها وأطفالها لتحيى الزعيم . كل صناعة لها موكب خاص بها . القضاة والمستشارون ورجال النيابة بأوسمتهم فى موكب . الممثلون والممثلات فى ملابس مسرحياتهم فى موكب . الموسيقيون والمطربون فى موكب .

مرضى مستشفى قصر العينى أصروا على أن يتركوا فراشهم ويمشوا في موكب لتحية الزعيم تتقدمهم سيارة اسعاف !

وفى صباح اليوم التالى لوصول سعد جلس مع صفية ومعه رتيبة وزوجها أمين يوسف وشقيقها سعيد وطفلاها على ومصطفى يتناولون طعام الافطار .

وقال سعد : ان هناك زيارة هامة يجب أن يقوم بها ذلك اليوم .

وسئل سعد : هل سيزور السلطان ؟

وابتسم سعد وقال : لا .. أهم من السلطان !

وذهل الجميع وبدت الحيرة في وجوههم .. من هو الذى سيزوره سعد وأهم من السلطان ؟!

وقال سعد : انه يريد أن يبدأ بزيارة قبور الشهداء . وطلب من أمين يوسف أن يصحبه معه في هذه الزيارة لأنه يعرف هذه القبور ، فقد كان يذهب مع رتيبة ليضع الباقات على القبور باسم صفية وسعد .

وطلب سعد من أمين يوسف ألا يخبر أحدا بهذه الزيارة ، لأنه يريد أن يقف مع كل شهيد على انفراد .

ولكن أمين يوسف لم يطق أن يكتم الخبر ، فقد شعر أن هذا لقاء يجب أن يسجله التاريخ . فأبلغه الى صديقه الكاتب ابراهيم عبدالقادر المازنى وقد كان يقيم يومها في مقابر الامام الشافعى . ووصف المازنى يومها هذا اللقاء التاريخى بين زعيم الثورة وشهدائها في مقال رائع . وبقى المازنى طول حياته يقول ان هذا كان أهم نصر صحفى حصل عليه في حياته الصحفية .

وأصبح سعد في يوم وليلة أقوى رجل في مصر ، أقوى من السلطان والحكومة والانجليز وأعضاء الوفد مجتمعين . كان استقبال الشعب لزعيمه استفتاء شعبيا حرا حصل به على الاجماع . تضاءل خصومه أمامه : العمالقة أصبحوا أقزاما . أغلبية الوفد الساحقة أصبحت أقلية مسحوقة . أصبح الشعب سلطانا . أصبح صاحب الدولة . أصبح صاحب الفخامة .

وتهاوى عظمة السلطان . تهالك صب الدولة عدلى يكن باشا رئيس الوزراء . أصيب صاحب الفخامة اللورد اللنبى نائب ملك بريطانيا بخيبة أمل ، وراح يصرح بأنه نادم على انه أشار في يوم من الأيام على الحكومة البريطانية بالافراج عن سعد زغلول !

وبدأت المعركة بين سعد والسلطات الثلاثة : سلطة السلطان وسلطة الحكومة وسلطة الحماية البريطانية !

وبدأت المعركة بحفلة أراد الموظفون اقامتها تكريما لسعد . وحاول الوزراء بالضغط على لجنة الاحتفال أن تعدل عن عزمها . وأصر الموظفون على

موقفهم ، وتحدوا الحكومة وأقاموا الحفلة وأحالت الحكومة في اليوم التالى أعضاء لجنة الاحتفال التسعة الى المحاكمة التأديبية !

وبدأت الحكومة تبطش بأنصار سعد ، تضطهدهم وتشردهم وتنكل بهم .. وفي تلك الأيام سافر سعد ليستريح في قرية مسجد وصيف وأخذ معه الطفلين على ومصطفى .

وكان الحديث الوحيد الذى يتناقله الجميع في القرية يدور حول اضطهاد الحكومة للشعب الذى ينادى بالاستقلال التام .

وذات يوم سأل الطفل مصطفى جده سعد :

— أريد أن أسألك يا جدى سؤالا . ألا تقول حكومة عدلى انها تسعى للحصول على الاستقلال ؟

قال سعد : نعم انها تقول ذلك .

قال مصطفى : كيف إذن تقبض هذه الحكومة على الذين يطالبون بالاستقلال !

وأعجب سعد بسؤال الطفل . وألقى خطابا عنيفا ذكر فيه سؤال الطفل له ، وهاجم حكومة عدلى هجوما قاسيا عنيفا .

وأصر عدلى على أن يتولى المفاوضات برغم معارضة سعد .

ووقف الشعب كله مع سعد ضد عدلى .

واجتاحت المظاهرات البلاد كلها تؤيد سعد . وقاومت الحكومة المظاهرات وأطلقت النار على المتظاهرين وسقط مئات القتلى والجرحى .

واستمر سعد طوال ثلاثة شهور يخطب كل يوم . يهاجم عدلى ويطالب بالاستقلال التام .

وألف عدلى يكن وفدا رسميا برياسته وسافر الى لندن للمفاوضة برغم أن أغلبية الشعب وقفت ضده .

ولكن شبح سعد برغم عدم اشتراكه ، ظل مسيطرا عليها باعتراف أعضاء الوفد الرسمى .

كان كل نص يعرضه الانجليز على الوفد الرسمى يقرأونه ويقولون : ترى ماذا سيقول سعد عن هذا النص !

واضطروا أن يقطعوا المفاوضات مع الانجليز خوفا من سعد .

وكان عدلى يكن يتصور انه وقف موقفا تاريخيا بقطع المفاوضات ، وكان يعتقد ان الشعب سيخرج لاستقباله ، وانه سوف يسترد الأرض التى فقدها .. وبدأت حكومته في القاهرة تعد له استقبالا شعبيا .

وكان من رأى الثوار الوفديين أن يهاجموا موكب أعضاء الوفد الرسمى ويفتكوا بهم عند وصولهم الى القاهرة .

ولكن سعدا اعترض على هذا واكتفى بأن وجه الى الشعب نداء قال فيه « مهما أقام خصومكم من الزينات والأقواس ، التى ما تكون إلا أقواس خزى ، فلا تمدوا أيديكم اليها . واتركوا البعثة الخائنة تمر فى الشوارع وهى خالية ، كما تمر الجنائز العادية ، واعتصموا دائما بشعارنا الذى هو الاستقلال التام أو الموت الزؤام »

ومر موكب عدلى باشا فى المدينة . وإذا بها قد تحولت الى مدينة للموتى . مدينة خلت فجأة من سكانها . الشوارع مهجورة . الحوانيت مغلقة . النوافذ مغلقة . لا عربة ترام . ولا سيارة نقل . ولا سيارة خاصة . لا عربة حانطور كأن العاصمة المزدحمة هجرها أهلها فجأة . انشقت الأرض وابتلعتهم . صمت كالموت وسكون كالقبور .

وتلفت عدلى حواليه فى موكبه الرسمي يبحث عن الناس فلم يجد أحدا . حتى الشحاذون فى القاهرة أضربوا فى ذلك اليوم واختفوا . لا نساء ولا رجال ولا أطفال .

وسأل عدلى : أين ذهب سكان القاهرة ؟!

فقال له ثروت باشا وزير الداخلية . ان سعد زغلول أمرهم بإخلاء القاهرة يوم وصول عدلى ، فاستجابوا جميعا للنداء .

وانكسر قلب عدلى ، أحس بأنه هزم فى المعركة . عرف لأول مرة أن الشعب أقوى من السلطان وأقوى من الحكومة وأقوى من الانجليز .. سمع الصمت كأنه الرعد . رأى فى هذا السكون القاتل ثورة هذه الشوارع الخالية الميتة أشد قوة من هتاف الملايين بسقوطه !

وأسرع فى اليوم التالى وقدم استقالته من رياسة الوزارة الى السلطان .

وهكذا لأول مرة فى التاريخ أصبح الصمت بلاغة وعملا ثوريا دونه المعارك فى الشوارع والقتال بين الشعب وقوات الطغيان !

ولم يفرح الطفلان الصغيران فقط بالاستقبال الذى أحيط به جدهما الكبير ، ولكنهما فرحا أيضا أن زحف مصر الى القاهرة لاستقبال سعد جاء معه بالطفلتين حسنية وسعاد من دمياط مع أمهما ليشهدن يوم الاستقبال العظيم . التقت العيون الصغيرة . اجتمع الأطفال العشاق الأربعة من جديد . تحولت الحدوتة الى قصة . أصبح فيها فراق ولقاء . قلوب يلهبها الشوق ويحرقها القرب .. ووقف الأطفال الأربعة فى شرفة الدور العلوى فى بيت الأمة يشهدون مواكب الجماهير . كأن الأفراح تقام لحبهم الصغير . كأن الناس يرقصون للقائهم . كأن الموسيقات تزفهم . ان لقاء العشاق فى عزلة عن الناس له طعم السكر فى الشفاه . ولكن لقاء المحبين فى أعياد الشعوب له طعم الرحيق الخالد ! .. المحبون العاديون هم الذين يذكرون الزهور التى أحاطت بهم

والأشجار التى ظللتهم ، ولكن عندما يكون اللقاء فى لحظات تاريخية تثبت صورة الحب كأن الجماهير كانت تحملها على أكتافها ، كأن هذا الهوى أحد الأعلام التى تحملها الملايين . تكبر الصورة من حجم بطاقة البريد الى حجم السينما سكوب بكل روعتها وضخامتها وألوانها . وكأن القدر شاء أن تكون حياتهما مظاهرة . حياة صاخبة كأنها مظاهرة مستمرة . أصبحا يشعران أنهما جزء لا يتجزأ من هذه الملايين ، يعيشان لها ومعها ، يتجاوبان معها كثيرا ، أصبحت حياتهما من طفولتهما لها طابع عام . حتى حبهما امتزج بحبهما لهذه الملايين .

العشاق يلتقون فى غفلة من الناس وهم يلتقون أمام مئات الألوف . وخيل اليهما فى طفولتهما الساذجة ان الجماهير تبارك حبهما ، وتهتف لهواهما الصغير ، وتلوح بأيديها للعرسان الأربعة . ولم يستمر هذا الحلم طويلا فقد عادت الطفلتان الى دمياط بعد ثلاثة أيام . وتجدد الشوق وتضاعف الهوى وزادت الآلام !

ولم يكن ألمهما مقصورا على الحب فقط ، فقد أمر سعد بادخالهما الى المدرسة الابتدائية ، وكلف عاطف بركات بك بأن يختار لهما المدرسة التى يذهبان اليها ، وكان عاطف بك مشهورا فى الأسرة بالشدة والحزم . يخافه أطفال الأسرة ويرهبه شبانها . كان قبل ذلك ناظرا لمدرسة القضاء الشرعى . ثم أصبح عضوا فى الوفد ، وبينما كان شقيقه فتح الله مشهورا فى الأسرة باللطف والسماحة ، كان عاطف بك مشهورا بأنه يعامل شباب الأسرة كأنهم تلاميذ فى مدارس ابتدائية . يلقى عليهم فى دخوله وخروجه محاضرات فى آداب السلوك ، وينتقد جلستهم إذا جلسوا ، ومشيتهم إذا مشوا ، وحديثهم إذا تحدثوا ، ويمتحنهم فى دروسهم أثناء تناولهم الطعام . ويوبخهم إذا ابتسموا ، ويعنفهم إذا ضحكوا ، ويؤنبهم إذا تأخروا دقيقة عن موعد الطعام .

وفجع الطفلان عندما عرفا أن جدهما اختار عاطف بك بركات بالذات ليختار لهما المدرسة الابتدائية التى يلتحقان بها . وبات الطفلان عدة ليال فى رعب . أى مدرسة سيختارها لهما عمهما عاطف بك ! أيختار مدرسة الأحداث التى يودع فيها المجرمون الصغار ! أيختار لهما أحد السجون ؟ وعاد عاطف بركات وقال لسعد انه اختار لهما مدرسة المنيرة الابتدائية لأن ناظرها هو ابن أخته الأستاذ نجيب حتاتة . وبذلك تعرف الأسرة يوميا أخبار الطفلين وتصرفاتهما .

وكان نجيب حتاتة مربيا ممتازا . تخرج فى انجلترا . وكان شابا أنيقا له شارب أحمر طويل ، يرتدى ملابس أنيقة ، ويغطى حذاءه « بجيتر » أبيض ،

ويبدو أشبه بنظار المدارس فى انجلترا ، وقد حاول أن يجعل من مدرسة المنيرة مدرسة نموذجية . ولكن المصيبة الكبرى انه قريبهما . انهما لن يستمتعا بالحرية فى المدرسة . ستكون كل خطواتهما مراقبة . ستعرف أمهما يوميا كل أخطائهما وحماقاتهما الصغيرة .

ولم تكن مخاوف الطفلين وهما ' ان قرابتهما للناظر كانت لعنة حلت عليهما . جميع المدرسين تلقوا تعليمات بأن يمتحنوا الطفلين فى كل حصة . أن يضعوهما تحت الرقابة الشديدة . أن يعاملوهما بحزم وشدة . ان سعد زغلول يشرف على دراستهما بنفسه ، فيجب أن يكون التلميذان التوأمان عنوانا على مستوى المدرسة العالى . وكان مدرسو المدارس من أشد أنصار سعد زغلول . فاعتبروا كلام الناظر أمرا لهم بأن يحاولوا أن يصنعوا من الطفلين الصغيرين عباقرة صغارا ! وكان هذا كارثة على الطفلين . التلاميذ يمتحنون ثلاث مرات فى العام . وامتحانهما وحدهما كل يوم ، بل كل حصة ' طول قامتهما يؤهلهما ليجلسا فى آخر الصفوف ، وبذلك لا يراهما المدرس وهما يلهوان أثناء الحصة أو يتحدثان متغافلين عن الدرس ولكن هذا الأمر جعل مقعديهما فى الصف الأول تحت عين المدرس وملاحظته ومراقبته المستمرة . التلاميذ الآخرون يخطئون فيتسامح المدرس ، فإذا أخطأ أحدهما ضربه المدرس بالمسطرة الخشبية وقال له « ستفضحنا أمام سعد باشا »'

كل التلاميذ يستطيعون أن يزوغوا من الحصص ، أو يستأذنوا فى الذهاب الى دورة المياه ولا يعودون ، أو يتظاهرون بالمرض فيودعون فى العيادة المدرسية ، ولكن الطفلين التوأمين وحدهما لا يستمتعان بحرية من هذه الحريات ! كان المدرسون يتنافسون فى حشو رأسيهما الصغيرين بالدرس فإذا جاءت الفسحة وخرج التلاميذ للعب استبقاهما أحد المدرسين ليشرح لهما الدرس من جديد . وكان المدرس الوحيد الذى لا يعاملهما بشدة وصرامة هو هلال افندى معلم الحساب . كانت له طريقة غريبة فى تعلم جدول الضرب . فقد لحن جدول الضرب على شكل أغنية ، وراح يعلمه للتلاميذ فيغنون معه . وبذلك استطاعت الأرقام المرعبة أن تستقر فى رؤوسهم أما باقى المدرسين فكانوا ينفذون أمر سعد باشا وهو الحزم والعزم .. وانه ما دام ففى الكتاب كان يضرب سعدا باستمرار ، فيجب على مدرسى المدرسة أن يضربوا على ومصطفى باستمرار !

وذات يوم دخل الأستاذ رامى مدرس الترجمة ..

وبدأ الحصة بأن نادى مصطفى وراح يمتحنه فى المعنى العربى لبعض الكلمات الانجليزية .

وأجاب مصطفى على السؤال الأول والثاني والثالث والرابع . الى التاسع اجابة صحيحة .

وسأله الأستاذ رامي . ما معنى كلمة FULL

وأجاب مصطفى على الفور : مجنون .. يا افندى !

وصاح الأستاذ رامي غاضبا :

— معناها مملوء وليس مجنونا يا حمار !

ثم رفع يده وهوى بكفه على وجه مصطفى . وقفز طربوش مصطفى من أول الغرفة الى آخرها . اسودت الدنيا في وجهه . رأى نجوما سوداء وحمراء تتراقص أمام عينيه . أحس بقوة الصفعة . تهاوى وكاد يسقط على الأرض . ولكنه تمسك بالمقعد واستند اليه وأخفى مكان الصفعة بيده الأخرى والدموع تنهمر من عينيه .

كانت الصفعة مؤلمة . بقى مكانها محمرا على وجه مصطفى . عاد الى بيت الأمة . ذهب الى أمه وشكا لها الأستاذ رامي فقالت له انه يستحق هذه الصفعة لأنه لم يحفظ الدرس . ذهب الى جده وروى له ما حدث . وتصور أن جده الذى يحبه سوف يسخط على الأستاذ رامي ويهاجمه كما يهاجم عدلى يكن . ألا يغضب سعد ويثور عندما تضرب الحكومة الشعب .. أليس هو جزءا من الشعب ؟ أليس الأستاذ رامي جزءا من الحكومة ؟ ولكنه فوجىء بسعد يخذله . لا يثور ولا يغضب . وإنما يبتسم ويقول :

— ان معنى ذلك انك ستنبغ في اللغة الانجليزية ! انني سوف أشكر عاطف بركات لأنه عرف كيف يختار المدرسة التي يضعك فيها .

عاد مصطفى الى غرفته باكيا . رفض أن يتناول العشاء . أحس لأول مرة ان الدنيا تخلت عنه حتى سعد زغلول تخلى عنه ! ألا يقول سعد انه يحارب الطغيان . يحارب استبداد القوى بالضعيف ! أليس الأستاذ رامي طاغية ! ألم يضرب ضعيفا . لو كان أكبر مما هو لأمسك بخناق الأستاذ رامي . ولكنه أقصر منه . بل ان الصفعة جعلته يتضاءل أمامه . ان الذين يضربوننا يبدون في أعيننا دائما عمالقة . وكلما عجزنا عن رد العدوان طالت قامتهم في مخيلتنا .. ولقد كان مصطفى يتصور أن سعدا ضخم جدا . كأنه أشبه بالجبل . ولكن عندما أبى سعد أن ينتقم له من الأستاذ رامي تضاءل حجم سعد في نظره . بدا أقصر من الأستاذ رامي . بدا قزما بجوار الأستاذ العملاق .

وأحس مصطفى انه لا يبكي نفسه فقط ، انه يبكي سعد زغلول أيضا ! إذا كان سعد لا يقوى على الأستاذ رامي فكيف سيقوى على الانجليز ؟

لم يبق لمصطفى نصير يأخذ بيده سوى الله ! انه اتجه الى الله ! ترى

هل يجيء الله الى بيت الأمة ! وإذا جاء فهل سيجلس فى الصالون الكبير المخصص لكبار الزائرين ؟ أم سيجيء الى غرفة نومه ؟ هل من المعقول أن يدخل الله الى غرف نوم الأطفال ! ولكنه مؤمن بما قالته أمه بأن الله يزور كل الناس يزور الفقراء أكثر مما يزور الأغنياء . يزور الضعفاء أكثر مما يزور الأقوياء . يزور المظلومين أكثر مما يزور الظالمين . وهو فقير فعلا . انه لا يملك دراجة ! ضعيف فعلا أمام قوة الأستاذ رامى . مظلوم فعلا لأنه أجاب على تسعة أسئلة ولم يخطيء إلا فى سؤال واحد .

ومضى الطفل مصطفى طول الليل يطلب من الله أن يأخذ الأستاذ رامى ! يأخذه من مدرسة المنيرة !

وفى صباح اليوم التالى ذهب مصطفى وعلى الى مدرسة المنيرة .. وحلت حصة الترجمة ولم يحضر الأستاذ رامى . وبهت الطفلان ! إن الله استجاب الى دعاء مصطفى وأخذ الأستاذ رامى ! سمع صلاة مصطفى وأخذ روح الأستاذ رامى !

وسأل مصطفى المدرسين أين الأستاذ رامى فقالوا انه لن يجيء بعد اليوم وسكتوا .

وتأكد مصطفى أن يد الله صفعت الأستاذ رامى ! ان يد الله أقوى طبعا من يد الأستاذ رامى . لابد أن صفعة الله كانت قوية فقضت عليه قضاء مبرما !

وعاش مصطفى عدة سنوات وهو يؤمن بأن الله أخذ الأستاذ رامى انتقاما له .

وبعد أربع سنوات ذهب مع والده الى صالة سانتى بحديقة الأزبكية ليسمع أم كلثوم .

وفوجيء بالأستاذ رامى على قيد الحياة ! فوجيء به يقف فى الاستراحة وهو يداعب أم كلثوم وتداعبه .

وعلم عندئذ فقط بأن الله لم يأخذ الأستاذ رامى الى جهنم .. وأن سر انقطاعه عن مدرسة المنيرة انه أوفد فى بعثة دراسية الى باريس لدراسة اللغة الفارسية ! وانه بعد ذلك أصبح شاعر الشباب .

ووجد مصطفى أن رامى ليس العملاق الذى صورته له الصفة المؤلمة . وإنما هو رجل رقيق الجسم . نحيف القوام ، ليس فيه أى شبه بالمصارعين والملاكمين !

وأصبح الضارب والمضروب فيما بعد صديقين حميمين !

وكلما التقى مصطفى برامى على مر السنين ذكره بالصفعة .. فيضحك رامى ويقول :

— حذار .. أن تضربنى الآن ! .. اننى لا أحتمل لطمة من أصبع !

ولكن شعور الطفلين بأن الله استجاب لدعاء مصطفى وأخذ الأستاذ رامي جعلهما يؤمنان بأن هناك قوة غير عادية في السماء . قوة أكبر من قوة جدهما سعد الذى كان يبدو لهما انه أقوى رجل في مصر . قوة أمسكت بأيديهما الضعيفة عندما تخلت عنهما كل الأيادى . انهما اعتقدا الى سنوات طويلة بأن الله دخل غرفتهما . انه سمع صلاتهما . انه استجاب اليهما . صحيح ان الله لم يستجب الى دعائهما حرفيا ويأخذ الأستاذ رامي الى السماء ، وإنما أخذه الى باريس . المهم انه أخذه من مدرسة المنيرة . لو أن مصطفى التقى به بعد هذا القلم لأحس بهوان ما بعده هوان . لشعر بألم الصفعة كلما وقعت عيناه عليه . وقد أحس بأن الله بهذا التصرف أعاد اليه كرامته المهدرة . أعاد اليه اعتباره المفقود . ان أسوأ ما يشعر به الولد الصغير أن يحس بأنه مظلوم ، وأن أحدا لم ينصفه . الشعور بالظلم يملأ نفسه بالعقد . يجعله يتصور ان الدنيا ظالمة . سوداء ليس فيها شعاع من نور . مغلقة لا ينفذ اليها نور الحقيقة . انه أحس بالمرارة عندما لجأ الى أمه فإذا بها تحيي ما اعتقد انه ظلم واستبداد . أحس بالعدم عندما سمع جده محامى كل المظلومين يؤيد الظلم الذى وقع عليه ويباركه . وعندما يستبد به اليأس يجد أن يد الله امتدت اليه لتأخذ من تصور انه ظالمه .. ان المظلوم لا يعنيه أن يؤخذ الظالم الذى يدوس على عنقه بقدمه ويوضع في السجن بقدر ما يهمه أن يرفع الظالم قدمه من فوق عنقه . ما قيمة أن يعاقب الظالم بغير أن يرفع الظلم نفسه . ما قيمة أن أرى ظالمي الذى وضعني في الزنزانة معلقا في مشنقة ، وأنا مازلت سجين زنزانتي .

ولم يكن الأستاذ رامي هذا الظالم المستبد الجبار الذى صورته الصفعة في عيني الولد الصغير ، فقد كان ينفذ تعليمات ناظر المدرسة بان يشتد مع التلميذين الصغيرين ليخلق منهما تلميذين ممتازين . ولكنها كانت بالنسبة لمصطفى أول مرة في حياته يشعر بأن ظلما وقع عليه ، ولا يستطيع أن يدفعه ، ولا يجد من ينصره ، ولقد احتمل قبل ذلك ضرب أمه وضرب المدرسين ، ولكنه كان في كل مرة يعتقد انه يستحق هذا الضرب ، ولكن هذه المرة هي المرة الأولى التى اعتقد فيها انه مظلوم وانه لا يجد من يرفع الظلم عنه . ولهذا عندما تصور أن الله مد يده وأخذ الأستاذ رامي ، عاد الى قلبه الصغير ايمانه بالعدالة ، وبأن الحق لا يمكن أن يموت ، وانه مهما تآمرت على هذا الحق كل قوى البغي والعدوان ، فإن يد الله قادرة على أن ترفع الظلم عن المظلوم .

وحدث ذات يوم أن أمطرت السماء بغزارة قبل أن يذهب الولدان الى مدرسة المنيرة في الصباح .

وخرج الولدان من بيت الأمة فرأيا عربة سعد الحانطور واقفة على الباب ودفعهما الريح الى داخل البيت من جديد . واتجها الى سعد يستأذنانه فى أن يركبا العربة الحانطور الى المدرسة بسبب الرياح والأمطار .

وكان سعد لا يزال جالسا يتناول الافطار مع صفية ورتيبة .

وقاطعتهما أمهما وقالت ان خالكما سعيد زغلول كان يذهب يوميا الى المدرسة السعيدية فى الجيزة ماشيا على قدميه ! ليس لدينا أولاد يذهبون الى المدرسة فى عربات أو سيارات !

واستنجد الولدان بسعد ولكنه قال فى حزم .

— يجب أن تتعلما المشى على أقدامكما وسط الأمار والرياح .. حتى إذا كبرتما استطعتما السير وسط العواصف ! ان كل الذين يذهبون الى المدارس فى سيارات وعربات وهم صغار ، يمشون على أقدامهم وهم كبار !

قالها سعد بعنف لم يتعوداه منه وأحس الولدان بأن لا جدوى من المناقشة !

ومشى الولدان يغوصان فى الوحل والمطر ينهمر عليهما وهما فى دهشة من قسوة جدهما وأمهما .

ان العربة الحانطور واقفة بلا عمل . والعربجى الأسطى داود على استعداد لأن يوصلهما الى المدرسة . وسعد لن يخرج من البيت قبل الساعة العاشرة . والعربة يستعملها أحيانا الحاج أحمد خادم سعد الخاص لشراء لوازم البيت من السوق . كيف يحق للخادم أن يستعمل العربة ، وتحرم على أبناء البيت ؟ ان كثيرين من زملائهما من تلاميذ مدرسة المنيرة يحضرون الى المدرسة فى سيارات وفى عربات وبعضهم له دراجة خاصة به .. ولماذا يحرم عليهما وحدهما ما يستمتع به الآخرون .. وما معنى أن يكونا أحفاد سعد باشا وتصر أمهما ويصمم جدهما على أن يذهبا ويعودا من المدرسة مشيا على الأقدام ؟

وكان هذا الحرمان يعكر عليهما صفو طفولتهما . انهما فى تلك الأيام لم يفهما حكمة سعد من هذا التصرف الذى بدا لهما تصرفا قاسيا غريبا من الرجل الذى اعتاد دائما أن يغمرهما بكل الحب والحنان ؟!

وما لبث الولدان أن أحبا المشى الى المدرسة . كانا فى طريقهما اليها يشوطان كل حجر يصادفانه فى الطريق ، وفى عودتهما كانت هوايتهما أن يضغطا على أزرار أجراس البيوت ، ويعدوا ، قبل أن يفتح الباب !

وضاق سكان شارع الفلكى بالولدين اللذين يدقان الأجراس ويعدوان ..

ورفع السكان مكان الجرس بحيث لا تستطيع أيديهما الصغيرة أن تصل اليه .

وضاق الولدان بما فعله السكان .
وحدث أن رأى مصطفى رجلا طويلا يمر فى الشارع فناداه وطلب منه أن يدق أحد هذه الأجراس .
وتصوُر الرجل الطويل بحسن نية أن هذا هو بيت الولدين . فتقدم من الجرس وضغط على الزر .
وعندئذ قال له مصطفى وعلى وهما يجريان مبتعدين عن البيت :
— إجر بقى ! احسن يمسكوك أصحاب البيت !



●● سعد باشا وحسين رشدى فى إفتتاح جمعية الاسعاف المصرية ..

● الفصل الرابع عشر ●

كانت القاهرة فى أوائل العشرينيات تختلف عن القاهرة التى نعرفها الآن . كانت شوارعها أضيق كثيرا . ميادينها أقل اتساعا . وحدائقها أكثر مما هى الآن . السيارات أقل فلا تزحم الشوارع . عربات الحانطور يجرها حصانان . الشبان الأثرياء يركبون « دوكار » وهى عربة بعجلتين يجرها حصان . الملاية اللف السوداء فى كل مكان ، وبراقع سوداء من الكوريشه فيها قصبة من الذهب تغطى أنف المرأة . نساء الطبقة المتوسطة والطبقة العالية يرتدين جبة سوداء .. تتألف من قطعتين ، ويضعن على وجوههن براقع بيضاء . الفساتين طويلة تصل الى القدمين . لا ترى أذرعا عارية فى الشارع . قص شعر المرأة لم يكن معروفا فى تلك الأيام . فتاة من المنيا قصت شعرها فأودعها أهلها مستشفى الأمراض العقلية فى العباسية . لا أحد يمشى فى الشارع حاسر الرأس . الطرابيش فوق رؤوس كل الطلبة والموظفين . العمائم فوق رؤوس رجال الدين وطلبة الأزهر . الطواقى واللاسات فوق رؤوس أولاد البلد والفلاحين والعمال . نسبة الجلاليب الى البنطلونات عشرون الى واحد . الأغنية المنتشرة فى الأحياء البلدية هى « لابس بنطلون ليه يا افندى وتشخ منين !؟ » العمامة ليست محترمة . الأطفال يجرون وراء المعممين وهم ينشدون « شد العمة شد ! تحت العمة قرد ! » كثيرا ما ترى رجلا معمما يجرى وراء أطفال ليضربهم عقابا على هذا النشيد الغريب . لم يكن « الأتوبيس » دخل المدينة . كانت عربات الترام شبه خالية . كثيرون كانوا لا يملكون أجر الركوب وهو ستة مليمات للدرجة الثانية وعشرة مليمات للدرجة الأولى . سيارات التاكسى قليلة . كان أول رقم يسجله العداد هو ثلاثة قروش . عربات الكارو فى كل مكان . المقعد فى العربة الكارو يكلفك مليما واحدا فى مشوار من الجيزة الى العباشية . دور السينما قليلة . سينما متروبول وراء شيكوريل وسينما عباس مكان سينما كوزمو فى شارع عماد الدين حيث يوجد عدد من المسارح والأندية الليلية والبارات ، ومحل ساندوتش كليبر ، وهو المكان الذى كان يقصده التوأمان مرة كل أسبوع ليأكلا واحد ساندوتش بالزبد والمربى ويدفعان فيه قرشا واحدا ! كرسى اللوج فى سينما متروبول فى الحفلات النهارية بأربعة قروش ، وأجر المقعد فى الصفوف الأمامية قرش صاغ لا غير ، ثم البذلة الجاهزة للرجل مائة قرش ، وللطفل ثلاثون قرشا ، وغداء فاخر

عند الحاتي لا يكلف الفرد الواحد أكثر من تسعة قروش مع البقشيش . ثمن الجريدة خمسة مليمات ، أجر الخادم بين العشرين والخمسة والعشرين قرشا . كان مصروف على ومصطفى فى تلك الأيام قرشا صاغا فى الأسبوع ! كانت متعة الطفلين أن يذهبا مرة كل ثلاثة أشهر الى مدينة الملاهى فى مصر الجديدة فى مكان سينما روكسى الآن والأرض التى حولها . كانت مليئة بالألعاب . قوارب تقفز من علو شاهق الى الماء . قطار سكة حديد يخترق أدغالا ويمشى تحت الماء . صينية تدور بسرعة ويقفز الواقفون فوقها الى الأرض . برج عال يتزحلق عليه الأطفال فوق حصيرة عشرات الأمتار . محلات لاصابة الهدف توزع هدايا عديدة . وكان لونابارك مصر الجديدة من أكبر مدن الملاهى فى العالم فى تلك الأيام . وكانت كل هذه الألعاب لا تكلف الطفل أكثر من ثلاثة قروش !

وكان الطفلان يذهبان مرة كل شهر مع الحاج احمد خادم سعد الخاص الى « الباتيناج » وكان فى المكان الذى تشغله الآن حديقة الأندلس على ضفاف النيل فى الجزيرة . وكان أجر الدخول قرشا واحدا . وكانت منطقة الدقى والجيزة مزارع خضراء يزرع فيها الخضار الذى تاكله مدينة القاهرة ، وكانت البيوت متناثرة فى حى الزمالك ، وكان أغلب سكان الحى من الانجليز ، وكان عدد البيوت قليلا جدا فى الجزيرة . وكان طاهر اللوزى بك زوج وهيبة ابنة أخت صفية زغلول يملك بيتا فى الجزيرة فيه حديقة من عدة أفدنة ، كان الولدان يذهبان اليها ويلعبان فيها من وقت الى آخر . ولم تنجب وهيبة أولادا وكانت تغمر بحنانها وحبها واهتمامها كل طفل فى الأسرة ، وكان لديها فى حديقتها ألعاب ومراجيح تسعد الأطفال ، وكان الطفلان يعتبران ذهابهما الى هذا البيت يوما من أيام الأعياد . وفى الزمالك كانت تقيم السيدة علية ابنة عم صفية وزوجها على فؤاد سعد الديك بك . وكان أطفالها زكى وجاذبية وكمال وسعد أعز أصدقاء الولدين . وكان الأطفال فى هذه الزيارة يتحولون الى شياطين صغيرة ، فكانت ألعابهم هى التسلق على مواسير المياه ، والقفز من النوافذ ، والملاكمة والمصارعة وكانوا يخرجون من هذه الزيارة السعيدة دائما بالجروح والخدوش .

وكان من السهل إذا رأيت الطفلين وهما فى ضمادات كمشوهى الحرب أن تعلم انهما كانا فى زيارة زكى سعد الدين واشقائه . أما إذا كانت الزيارة فى بيت الأمة فلا تحدث خسائر ولا خدوش ولا إصابات ، فلم يكن فى استطاعة الأطفال ان يقوموا بالعاب طرزان فى مركز قيادة الثورة ، حيث كانت تتابعهم باستمرار عيون صفية ورتيبة فيجلس الأطفال هادئين مؤدبين ، وقد ربعوا ايديهم فوق صدورهم متظاهرين بأنهم الملائكة الأطهار !

وكان الولدان يترددان على حديقة حيوانات الجيزة . وكانا يقفان بذهول أمام قفص الأسد . وكانا يريان في ملامحه شبها عجيبا بجدهما سعد . العينان تشبهان عيني سعد . الجبهة تشبه جبهة سعد . الأذنان صورة طبق الأصل من أذني سعد . مشية الأسد ذهابا وايابا في قفصه تشبه مشية سعد في غرفته وهو مستغرق في التفكير . النظرة الغاضبة .. النظرة الحزينة . حتى زئير الأسد تذكرهما بخطب سعد وهو يلقى خطبه الثائرة . وكان سعد يضحك كثيرا عندما يذكران له ملاحظتهما التي استرعت انتباههما في قفص الأسود . وكان يطلب اليهما أحيانا مازحا أن يحاولا أن يجدا شبيها في حديقة الحيوانات لكل فرد من أفراد الأسرة .

وعاد الولدان ذات يوم من حديقة الحيوانات وذهبا الى سعد وقالا انهما وجدا أن القرد يشبه أحد أفراد الأسرة .. وسألهما : من هو هذا الشبيه ؟ فقالا : تيزة أمينة هانم . وأغرق سعد في الضحك . وكانت أمينة هانم صديقة عزيزة للأسرة . وكانت إذا زارت البيت جعلت كل شيء فيه يضحك . الرجال والنساء والأطفال . كانت سيدة خفيفة الروح تحمل البهجة الى كل مكان تجلس فيه . لا تكف عن الضحك والمداعبة والسخرية . ومن يسمع هذه السيدة تتكلم يتصور انها أسعد امرأة في العالم . وكان والدها أغنى رجل في مصر . ورثت عنه قصرا كان يحتل المكان الذي بني فيه ضريح سعد ، وجميع العمارات التي حوله الى شارع مجلس الأمة ! ثم تزوجت رجلا اضاع هذه الثروة الطائلة على المائدة الخضراء ، واضطرت أمينة هانم أن تقيم في شقة صغيرة بإيجار زهيد . وانتقلت في ليلة واحدة من مليونيرة الى معدمة . ولم يحتمل الزوج هذه الكارثة فمات كمدا . أما هي فقد استقبلت المصيبة الفادحة بسخرية الفيلسوف ! كانت تتحدث عن الثروة التي فقدتها كأنها أضاعت تذكرة ترام بستة مليمات . وعندما كانت في الستين من عمرها كانت روحها في العشرين . وكانت تقول ان لا شيء في العالم يساوى دمعة واحدة من عينيها . وان الضحك يطيل عمر الانسان والدموع تقصفه . وكانت تؤكد انها سعيدة في غرفتها الصغيرة أضعاف ما كانت سعيدة في قصرها الباذخ . وانها سعيدة وهي تطهى طعامها وتخدم نفسها أكثر مما كانت سعيدة ولديها ثلاث وثلاثون خادمة وجارية وأغا . بل انها سعيدة وهي أرملة أكثر مما كانت سعيدة وهي عروس ! وكانت فلسفتها ومرحها الدائم وضحكاتها التي لا تنقطع تسعد الذين يعيشون في بيت الأمة ، كأنهم يحملون هموم الأمة فوق رؤوسهم . وكان سعد يسأل عنها إذا غابت . ويستفسر عن صحتها إذا مرضت ، وكان يقول فيها صمود ألف رجل !

وذات يوم جاءت الى بيت الأمة وقالت لسعد ان شابا من أصدقاء الأسرة جاء لزيارتها فى بيتها ، وانها دهشت لأنه كان « يبصبص » لها !

واهتم سعد وسألها من هو هذا الشاب المجنون !

فقالت انه محمد خيرى .. وكان محمد خيرى هو ابن أحمد خيرى باشا وكان صديقا حميما لسعد ورئيسا لتحرير جريدة الوقائع المصرية فى عهد اسماعيل ، وكانت أمه صديقة حميمة لصفية . وماتت الأم تاركة محمد وأخته نعمت ، وكانت الأسرة تسميها « نينى » وكانت فتاة رائعة الجمال تعتبر فى تلك الأيام أجمل فتاة فى مصر . ودهش سعد من أن شابا مؤدبا حسن التربية « يبصبص » لأمينة هانم وقد كانت فى عمر جدته .

ومضت أمينة هانم تقول جادة :

— لقد كان محمد خيرى فى أوروبا ، وزارنى لمناسبة عودته من السفر ، ولاحظت طوال جلوسه معى انه كان ينظر الى ، وعيناه « تبصبصان » لى ، وقلت له وأنا أضرب يدى على صدرى :

— يا ندامة يا محمد .. اتعلمت البصبصة فى أوروبا !

ولم يرد محمد ، بل استأذن وانصرف .

وغضب سعد وأرسل فى استدعاء محمد خيرى .. وما كاد يراه حتى أغرق فى الضحك كان محمد خيرى قد أصيب بحالة عصبية أثناء وجوده فى أوروبا جعلته يفتح عينيه ويغلقهما باستمرار ، فاعتقدت أمينة هانم انه « يبصبص » لها ! وكان محمد خيرى شاعرا ممتازا باللغة الفرنسية .

ثم حدثت فى الوقت نفسه مأساة هزت بيت الأمة ، فإن شقيقته نعمت خيرى تزوجت شابا من الأثرياء هو عزيز علوى بك ، وكانت تسافر معه كل عام الى أوروبا ، وكانت تهوى مثل شقيقها نظم الشعر باللغة الفرنسية .

وفى مدينة لوزان بسويسرا ، وفى فندق سافوى ، قدم الشاعر محمد خيرى صديقه الشاعر الألمانى رينر ماريا ريلكه الذى أصبح فيما بعد من أعظم شعراء القرن العشرين الى شقيقته نينى !

وما كاد الشاعر ريلكه يرى عينى نعمت علوى حتى جن بهما ، ودعاها الى أن ترقص معه رقصة الفالس ، وقال لها وهو يخاصرها على أنغام الموسيقى الهادئة « هاتان العينان هما اللتان كنت أبحث عنهما طول حياتى » !

والتصقت نعمت به وهى تسمعه يتكلم ! لم تعد تسمع الموسيقى ، وإنما كانت تسمع شعرا فى جمال عينيها ، وعندما انتهت الرقصة كانت قد أحبته ، وكان قد عبدها !

وقالت له انها أحبته قبل أن تراه . أحبته من قصائده . أحست كأنه كان يحدثها هى .

ولم ينم الشاعر الليل . في الصباح كان يدق باب نعمت ومعه قصيدة يصف فيها جمالها . ومعه قصيدة أخرى قال لها انها طلب استخدام في وظيفة خادم في قصر قلبها الملكي ! وفي القصيدة يقول :

في أجفاني عرق نبل خالد . نظرتي الحالمة فيها جزء طفولتي . تواضعي اسم مستعار لآبائي . أضع نفسي في خدمة فاتنة ساحرة . في تواضع ليس تواضع خادم صغير النفس . في كبير صامت . وأنفاسي تنطق بالهوى والحب . جبيني مرفوع ولكنه ينحني للجمال في صمت وكتمان !

ولكن الشاعر لم يبق طويلا خادما في قلب المصرية الحسناء . انه أصبح صاحب الجلالة حاكم القصر الوحيد . وقررت نعمت على الفور أن تتطلق من زوجها المصري الثري ، وتعيش مع الشاعر العاشق !

ووصل النبأ الى سعد فاعتقد ان نيني قد جنت ! وذهب شقيقها محمد خيري اليها يقول لها ان سعد باشا غاضب أشد الغضب ، وانه يأمرها بأن تعود فورا الى القاهرة ، وهو يطلب هذا باعتباره صديق والدها ، وباعتباره زعيم الأمة . ولأن فرار فتاة مصرية من أسرة كبيرة مع شاعر ألماني فيه اهانة لتقاليد المصريين ودينهم .

وقالت نعمت : ان حبي هو زعيمي ! ولو أن سعد باشا ذاق الحب لما طلب مني هذا المستحيل !

وغضب سعد لهذه الإجابة وأصدر أمره الى الأسرة بألا ترد على أي خطاب ترسله نعمت ، وكانت نعمت تراسل الأسرة أسبوعيا !

ثم حدث أن كان سعد وصفية في باريس ، وذهبت نعمت الى الفندق الذي يقيمان فيه لتقابلهما ، ولكنهما رفضا مقابلتها ! ولم تهتم نعمت بغضب زعيم الأمة فمضت في حبها وعشقها للشاعر الألماني .

ومات الشاعر فجأة في عام ١٩٢٦ . وأصيبت نيني بصدمة عصبية ، وخاصة عندما قيل انه مات بمرض حملته إليه من زوجها السابق . واعتكفت الفتاة الجميلة لا تقابل أحدا ولا تتكلم مع أحد . وحدث أن رآها الممثل السينمائي شارلي شابلن فجن بعينيها ، وأراد أن يتزوجها ، وكان في ذلك الوقت صاحب ملايين ، وصاحب شهرة عالمية ، ولكنها رفضت أن تتزوجه وقالت ان الجسد الذي التصق بالشاعر ريلكه لن يلتصق برجل آخر مدى الحياة ! وكتب شارلي شعرا وقطعة موسيقية أهداهما الى نعمت ، ولكن قلب نعمت بقي مغلقا .

ثم أدمنت فجأة شرب الخمر ، وكانت تقول انها تشرب لكي تموت وتلحق بحبيبها الشاعر ، ولكنها لم تمت . ثم عرفت أميرا روسيا اسمه الأمير نيكولاي متشرسكي . وأحبت فيه انه كان معجبا مثلها بالشاعر ريلكه !

وتزوجته ، وبعد أسابيع قامت الحرب العالمية ، ومات فيها ، وبقيت نعمت فى اوروبا تعيش مع صوره وقصائده الى أن لفظت النفس الأخير . وكانوا يسمونها فى نورماندى « الشاعرة المصرية المجنونة » إذ كانت لا تتكلم إلا بفقرات من قصائد ريلكه التى وصف فيها حبهما !

كان سعد يعتبر نينى قد ماتت يوم طلبت الطلاق ، فقد كان الطلاق فى نظره جريمة كبرى ، وكان يفخر بأنه لم يقع حادث طلاق واحد فى أسرته منذ مائة عام ! وكان لنينى عدة صور فى بيت الأمة أحرقت كلها ، وأصبح ذكر اسمها محرما ، فإن حب امرأة مسلمة لرجل مسيحى كان فى تلك الأيام دليلا على أن يوم القيامة قد اقترب ، وان هذا من علامات الساعة .

وفى تلك الأيام وقع حادث آخر .

كان لصفية زغلول ابنة أخت هى منيرة ابنة اسماعيل سرهنك باشا وكيل وزارة الحربية سابقا وتقدم لخطبتها الشاب على كامل فهمى ، وكان مليونيرا ، بل كان يعتبر أغنى شاب فى مصر فى تلك الأيام . وتمت الخطبة . وكانت التقاليد يومها أن يحتفل بتقديم الشبكة .

ويذكر الولدان كيف أن العريس لم يحضر وحده يحمل الشبكة بل أحضر معه عشرين خادما ، كل خادم يرتدى بذلة الرونجوت ، ويحمل صندوقا من الفضة فيه بعض المجوهرات . وبدا كأن الشاب المليونير اشترى محلا كبيرا للمجوهرات وقدمه لمنيرة كشبكة !

ثم جاء من يقول لسعد انه رأى الخطيب الشاب فى سيارة واحدة مع احدى ممثلات كشكش بك وهو الاسم الذى كان يطلق على نجيب الريحانى . وقامت الأسرة وقعدت . كيف يجرؤ الخطيب على الظهور مع امرأة فى الطريق العام بعد أن خطب ابنتهم . وليست امرأة فقط بل احدى ممثلات فرقة كشكش بك !

وتقرر فسخ الخطبة . وجن جنون الشاب المليونير . وطلب مقابلة سعد فرفض مقابلته . وأرسل الوسطاء لمحاولة اقناع الأسرة باستمرار الخطبة ، وعرض أن يتبرع بمبلغ ضخم جدا للوفد ، ولكنه أجيب بالرفض البات ، وأعيدت اليه كل مجوهراته وكل هداياه !

ولم يطق على كامل فهمى الحياة فى مصر بعد هذه الصدمة ، فسافر الى باريس ، وهناك التقى بسيدة انجليزية اسمها مرجريت ، وقرر أن يتزوجها ، على أن تعتنق الدين الاسلامى ، وتسمى نفسها « منيرة » باسم الفتاة المصرية التى فسخت خطبتها له بالرغم منه .

وبعد شهور قليلة تشاجر على كامل فهمى مع زوجته الانجليزية فأخرجت مسدسا وقتلته وقدمت القاتلة الى المحاكمة .. وإذا بالمحكمة تتحول من

محاكمة القاتلة الى محاكمة القتيل ، واستطاع المحامى الانجليزى الكبير سير مارشال أن يثير المحلفين على وحشية المصريين وحيوانيتهم وإذا بالمحكمة تقرر براءة القاتلة ! وضايق هذا الحادث سعد ، وكان يتساءل دائما بعد ذلك ، ترى لو كانت الأسرة صفحت عن على كامل فهمي لهذا النزق العارض لما نتهت حياته بهذه النهاية المفجعة ؟!

ولكنه مع ذلك بقى مصرا على انه لا يجوز للشاب بعد أن يخطب امرأة أن يخرج الى الشارع مع امرأة أخرى .

كانت التقاليد صارمة فى تلك الأيام . وكانت صفية ورتيبة مثلا تعتبران الفتاة التى تشرب فنجان قهوة أو تدخن سيجارة فتاة قليلة الأدب .. ولكن بعد الزواج من حقها أن تشرب فنجان قهوة وتدخن سيجارة ! وكانت صفية ورتيبة لا تدخنان ، وكان سعد مدمنا على التدخين ، ثم قال الطبيب ان التدخين مضر بصحته فأشعل سيجارة ثم أطفأها وهو يقول هذه آخر سيجارة أدخنها فى حياتى ! ومكث بعد ذلك عشرين عاما لا يدخن سيجارة واحدة الى أن مات ! ولكنه كان لا يطيق أن يرى أحدا يدخن سيجارة وهو جالس معه ، فقد كان يشعر بالاختناق ، أو لعل ارادته كانت تهتز عندما يستنشق دخان السجائر !

وكان من التقاليد الصارمة انه لا يجوز لفتاة أن تضع ساقا على ساق فى حضرة من هم أكبر منها . فإذا فعلت ذلك فهو فعل فاضح فى الطريق العام . وهو دليل أكيد على سوء سلوكها وفساد خلقها ! وإذا حدث أن دخلت سيدة كبيرة السن الى الغرفة فيجب أن يقف كل من كان أصغر منها تحية لها . فإذا كررت الدخول والخروج عدة مرات تحتم أن يتكرر الوقوف عدة مرات . وقد كان من عادة صفية أن تدخل وتخرج من الغرفة عشرات المرات ، وكان الولدان فى بعض الأحيان يقفان تحية لها ثلاثين مرة فى الساعة الواحدة ! ويتكرر نفس الشىء مع أمهما ، ومع كل أفراد الأسرة الذين يكبرونهما فى السن !

ومن العادات التى كانت شائعة أيضا انه لا يجوز للمرأة أن تمشى وحدها فى الشارع . يجب أن يتبعها خادم ، فإذا كانت مع زوجها ، تعمد أن يمشى أمامها ، وتمشى هى وراءه ، ولكن نعرف كيف كان مركز المرأة بالنسبة للرجل فى تلك الأيام ، نذكر أن صورة الزفاف لسعد زغلول وصفية قد ظهر فيها العريس سعد جالسا على مقعد والعروس صفية واقفة وراءه ! وكل صور سعد التى التقطها مع صفية فى مصر كانت هى واقفة وهو جالس .. ولكن بعد الثورة بدأت صفية تظهر فى الصور الفوتوغرافية وهى جالسة بجوار سعد ! وعندما رفع سعد الحجاب عن وجه ابنة الشيخ على يوسف فى احدى حفلات بيت

الأمة انطلقت السيدات الى تقاليدها فرفعن الحجاب ، ولم يصدق الرجال أن سعد زغلول رفع بيده الحجاب ، ومن ثم بدأت الخلافات تدب في كل بيت مصري بين كل زوج وزوجته وابنته بسبب هذا الحجاب الذي بدأت السيدات وبناتهن يتخلصن منه ! وسمع سعد بهذا الخلاف فانتهز احتفالا كبيرا حضره عشرات الألوف في سرادق كبير بجوار بيت الأمة .

ووقفت الآنسة فكرية حسني تلقي خطابا وعلى وجهها حجاب .. وتقدم سعد أمام الألوف ، ورفع الحجاب عن وجه فكرية ولم تتمالك الجماهير نفسها أن صفقت استحسانا .. وأصبح هذا أمرا من قائد الثورة بنزع الحجاب !

وعندما وقع الصراع بين عدلي وسعد ، انضمت النساء الى سعد زغلول ، حتى ان علي شعراوي باشا انضم الى عدلي .. وإذا به يفاجأ بأن زوجته هدى شعراوي تؤيد سعد وتهاجم خصومه ومنهم زوجها !

والواقع أن انصار سعد على عدلي في هذا الصراع اذهل خصوم سعد ، فقد حدث أن انضم عبدالفتاح يحيى باشا الى مؤيدي عدلي ، وإذا به يفاجأ بأبيه احمد يحيى باشا يعلن تأييده لسعد ! ورفض محمود سليمان باشا أن ينضم الى ابنه محمد محمود باشا في تأييد عدلي ، وبقي مؤيدا لسعد .. واشتد الخلاف بين الابن وأبيه ، وإذا بمحمود سليمان باشا يستقل ذهبيته من القاهرة الى أسيوط ويبقى فيها عدة سنوات لا يغادرها الى القاهرة إلا بعد أن ائتلف محمد محمود باشا مع سعد في عام ١٩٢٦ وتركت بعض الزوجات بيوت أزواجهن احتجاجا عليهم لأنهم أيدوا عدلي يكن !

وحدث أن ذهب عبدالعزيز فهمي بك أحد زعماء المنشقين من أعضاء الوفد ليتناول غداءه في مطعم « يونيون » في الاسكندرية .

وطلب عبدالعزيز فهمي من أحد الخدم النوبيين طعاما .. وإذا بالخادم النوبي يقول : أنا لا اقدم لرجل يهاجم سعد زغلول !

وثار عبدالعزيز فهمي على الخادم النوبي ، وجاء اليوناني صاحب المطعم يعتذر لعبدالعزيز فهمي وينهر الخادم الذي أصر على موقفه .. ويهدده صاحب المطعم بالطرد ولكن الخادم النوبي تمسك برأيه واصر على رفض خدمة عبدالعزيز فهمي .

وخرج عبدالعزيز فهمي ثائرا من المطعم . وصدر أمر محافظ الاسكندرية بإغلاق مطعم « يونيون » ، وبقي المطعم مغلقا ثلاثة أيام الى أن تدخل قنصل اليونان في الاسكندرية ففتح المطعم من جديد !

وأدى موقف الشعب الى فشل السلطان واللورد اللنبي في تأليف وزارة مصرية بعد استقالة عدلي يكن .. فلم يجرؤ مصري واحد على أن يؤلف

وزارة ، وراح السلطان فؤاد يقول للورد اللنبى : لم أعد سلطانا ! ان سعد زغلول أصبح هو السلطان ! أصبح نائب الملك ! انه هو الذى يعين الوزارات ويقيل الوزارات !

وطلب اللورد اللنبى من عبدالخالق ثروت باشا تأليف الوزارة فقال له : لا أستطيع ! كل وزير أعرض عليه الوزارة يرفض ويقول ان إشارة من أصبع سعد قادرة على اسقاط أى وزارة ! لا يمكن أن أؤلف وزارة وسعد فى مصر !

ويعترف اللورد اللنبى فى رسالته لوزير الخارجية البريطانية بأن سعد زغلول يكسب باستمرار !

ويستطرد فى رسالته قائلا : « كان استقباله فى القاهرة أعظم استقبال لرجل فى القرن العشرين . ان ضربة كضربة عرابى متوقعة من سعد زغلول الآن ! اننى أريد اعتقاله ونفيه الى بعض الأملاك البريطانية وراء البحار . لا ينبغى أن نسمح له بالذهاب الى أى مكان فى أوروبا . أمس كانت القاهرة مسرحا للاضطرابات بمناسبة عودة مكرم عبيد من لندن . ذهب سعد وقابله فى المحطة . هتفت الجماهير بحياة سعد وسقوط بريطانيا . فى المساء ضرب جنديان انجليزيان فى القاهرة . مات أحدهما . وجرح الثانى . عجزنا عن القبض على القتلة . سأصدر اليوم أمرا بمنع سعد زغلول من كل اشتراك فى السياسة . أصدرت أمرا الى كبار أنصاره أن يلزموا بيوتهم »

كان ذلك فى يوم الخميس ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢١

أضرب طلبة مدرسة المعلمين العليا وخرجوا فى مظاهرة الى بيت سعد . وكانت مدرسة المنيرة الابتدائية ملاصقة لمدرسة المعلمين فإذا أضرب طلبة المعلمين العليا أضرب معهم تلاميذ مدرسة المنيرة دون أن يسألوهم لماذا يضربون ؟ وكانت المظاهرة تهتف بحياة سعد والثورة وسقوط الانجليز .

ومشى الولدان فى المظاهرة يرددان بقوة الهتافات .. وذهب المظاهرة الى بيت الأمة وهتفت لسعد فخرج اليها ودعا الشعب لاستئناف الثورة على الانجليز ..

وعندما رأى سعد الولدين بعد ذلك سألهما : لماذا تركا المدرسة ؟

فقال الولدان : أضرب التلاميذ فأضربنا !

وضحك سعد وقال : ألم تسألا عن سبب الاضراب ؟

قال الولدان : إننا لم نرد أن نخرج على الاجماع !

قال سعد : من الغريب أن الأطفال لا يريدون يخرجوا على الاجماع ، وبعض الرجال يخرجون على هذا الاجماع !

وجاء الحاج أحمد خادم سعد الخاص يقول له ان ضابطا انجليزيا يقول انه وكيل حكمدار بوليس القاهرة يطلب مقابلته . ونزل سعد من الطابق العلوى وذهب الى السلاملك وهو يضحك ويقول :

— لقد وحشنا الانجليز ! مضى علىّ مدة طويلة لم أرهم ! لابد انه جاء ليقبض علىّ ! الشعب محتاج لبطش جديد ليحدث انفجار جديد !

وعندما دخل مكتبه طلب من سكرتيره الخاص أن يسأل وكيل الحكمدار عن سبب حضوره .. وبعد دقائق صعد سعد الى الطابق العلوى مرة أخرى وفى يده خطاب وهو يقهقه بصوت عال ! ووقف سعد يقرأ لزوجته ورتيبة والولدين الخطاب الذى يجعله يضحك حتى تدمع عيناه من الضحك .

وإذا بالخطاب يقول :

« سعد باشا زغلول ممنوع بهذا الأمر من القاء الخطب ، ومن حضور الاجتماعات العامة ، ومن استقبال الوفود ، ومن الكتابة فى الصحف ، ومن الاشتراك فى السياسة وعليه أن يغادر القاهرة فورا . وأن يقيم فى مسكنه بالريف تحت مراقبة مدير المديرية »

قالت له صفية فى دهشة : وما الذى يضحكك ؟

قال سعد : ان اللورد اللنبى وقع هذا الانذار بقوله : « ولى الشرف أن أكون خادمكم المطيع ـ اللنبى » ! هذا هو النفاق الانجليزى الأصيل ! يقبض بيديه على عنقى ليخنقنى ويؤكد لى فى الوقت نفسه انه خادمى المطيع !

قالت صفية : وبماذا سترد على خادمك المطيع !

قال سعد : ليس عندى سوى الرد الوحيد وهو الرفض !

وكتب سعد على الفور ردا يقول فيه : « ان هذا أمر ظالم أحتج عليه بكل قوتى ، إذ ليس هناك ما يبرره ، وبما انى موكل من قبل الأمة للسعى فى استقلالها ، فليس لغيرها سلطة تخلينى من القيام بهذا الواجب المقدس . ولهذا سأبقى فى مركزى ، مخلصا لواجبى ، وللقوة أن تفعل بنا ما تشاء أفرادا وجماعات ، فإننا جميعا مستعدون للقاء ما تأتى به ، بجنان ثابت ، وضمير هادىء ، علما بأن كل عنف تستعمله ضد مساعينا المشروعة انما يساعد البلاد على تحقيق أمانيها فى الاستقلال التام »

وكان الأستاذ عبدالقادر حمزة قد حضر اللحظة التاريخية التى رفض فيها الانذار البريطانى وكتب يقول : « دخلنا على الرئيس فوجدناه جالسا على كرسى فى وسط القاعة ، والى يمينه واصف بك غالى واقفا يداعب سلسلة ساعته كما هى عادته ، وأمامهما مصطفى النحاس بك جالسا الى منضدة فى وسط القاعة ، يكتب ما يمليه عليه الرئيس ، وبجانبه صادق بك حنين واقفا يتكىء بيده اليسرى على كرسى النحاس بك ، ويتابع بعينيه ما يخط القلم . ولقد كنا كلنا شاعرين برهبة الموقف ، وكان سعد باشا منصرفا الى الاملاء ، فلم نحى ، ووقفنا صفا بين النافذة والباب الصغير ، فكان على يمينى فتح الله باشا بركات فالأستاذ نجيب الغرابلى ، فعاطف بك بركات ، وكان على يسارى الأستاذ

أمين عز العرب ، فسينوت بك حنا . لكن هذا الأخير لم يقف إلا قليلا ، ثم أخذ كرسيا وجلس قريبا من المنضدة والنحاس بك .

« لم نحي ، ولكن الرئيس نظر الينا ساعة دخولنا ، وقال تعالوا اشتركوا معنا ، ثم استمر يملي ، وما كانت هذه أول مرة رأيته فيها يملي ، فكأنما تسكت الطبيعة من حوله لتنصت ، ولكنني في هذه المرة شعرت كأنما يحيط بنا سكون هو الخشوع ، ولا غرو فقد كان ظاهرا أن السياسة البريطانية ، وقد توعدت في تبليغها أن تحارب الحركة الوطنية حتى تقتلها ، شهرت اليوم سيفها ، ليس بين اللورد اللنبي وسعد باشا ، بل بين انجلترا ومصر . انجلترا بكل ما في يدها من بطش القوة المادية ، ومصر بكل ما في قلبها من الايمان بحقها ، وما في نفوس أبنائها من العزم والجلد .

« كانت ساعة ينطق فيها سعد باشا « بنعم » فيسجل على روح مصر الغلبة والرضى بالخوف والهزيمة ، أو ينطق « بلا » فينزهها عن الضعف ويثبت لها القوة والشمم . ولقد أجاب سعد فقال « لا » فكان بطلا . وكانت به مصر شهمة ، كتب التاريخ لها في يومها ذاك سطرا من ذهب .

« ولعل كثيرا من الذين يقفون بعيدا يقولون وهل كان لسعد باشا أن يجيب بغير ماأ جاب به حتى تكون في جوابه بطولة . فهؤلاء انما يقولون ذلك لأنهم واقفون بعيدا لا يمسهم ضر ، ولا تنزل بهم نازلة ، أما لو انهم كانوا مكان سعد باشا ، وهو يعلم انه الهدف الذى تريده السياسة البريطانية ، وتنتحل الأعذار كلها لضربه ، ثم هو شيخ ضعيف البنية ، مضطر أن يعيش بنظام طبى خاص ليحافظ على صحته ، أقول لو أن هؤلاء الواقفين بعيدا كانوا مكانه ، ثم فكروا في أن كلمة « لا » معناها فتح الباب واسعا لظلمات مجهولة ، لا يعرف لها كنه ولا حد ، لعلموا مقدار ما في جوابه من الرضى بالتضحية ، ولكن الجواب ليس تضحية فحسب ، بل هو فوق ذلك بسالة ، وقفت بها مصر الصغيرة العديمة النصير ، المجردة من السلاح ، أمام انجلترا المسلحة وسيدة العالم ، تهزأ بقوتها وسلاحها وتقول لها ما كنت لأجبن ولا لأخضع .

« أملى سعد باشا ، ثم لما كانت فكرتي أن يكون الرد احتجاجا ، يتلوه فيما بعد السفر الى العزبة ، ظهر غرضي هذا في ملاحظاتي . وحينئذ توقف سعد باشا عن الاملاء ، لأن كل الموجودين تقريبا جادلوني بسرعة ، وانى أقول تقريبا لأني لم أجد غير واحد هو الذى وافقني ، وقد كانت موافقته لي سلبية محضة ، لا يصاحبها شيء من التأييد .

« أما الرئيس فانظر كيف كان موقفه ، انه رفع رأسه كمن يتقدم لمصادمة الحوادث ، ويأبى أن يعتريه في مصادمها وهن أو لين وقال :

— انتم شبان لا يأخذكم الضعف الذى قد يأخذ الشيوخ فى ملاقاة الخطوب ، فالرأى لكم ، وأنا عندما تتفقون عليه ، ولكن اعلموا اننى لا يمسنى ضعف ، ولا تميل نفسى لأن أستبقى بقية من التضحية الواجبة .

« جرت المناقشة ، وكانت قصيرة فقال النحاس بك وسينوت بك فى صوت واحد : يجب أن يكون الجواب رفضا محضا ، وعلى اللورد اللنبى أن ينفذ أمره بالقوة .

قلت : ألا تخشيان أن يعد الرفض مخالفة لأمر صادر من السلطة العسكرية ؟

فقالا بشدة : ليكن ذلك فليس فى وسع الرئيس أن يجيب بغير الرفض .

« وانضم اليهما الباقون كلهم ، إلا فتح الله باشا فقد بقى ساكتا ، وهو الذى قلت انه وافقنى فى كلمة أسرها إلىّ ، ولكنه لم يؤيدنى .

« واتفق أن مر واصف بك أمامى فقلت له همسا : ألا ترى أن هذه آراء خطرة ؟

« فأجاب واصف غالى بلا تردد : وهل نحن هنا إلا لذلك ؟

« وفى هذه اللحظة دخل الأستاذ مكرم عبيد فألقى فى الموضوع برأيه حاسما قويا ، وبه انتهت المعركة وأقفل الجدل .. قال وكأنه يخطب فى قوم يريد أن ينقل الى صدورهم ما فى صدره من النار المتقدة :

« لا جواب غير الرفض . ان العالم هنا وفى أوروبا يترقب الآن ما يفعله الرئيس . ليأت الجنود ، ولينتزعوه بسلاحهم من داره ، كى يكون التضحية الماثلة فى كل وقت أمام أمته .

« وبعد كل هذا لم يبق إلا أن يقول الرئيس كلمته ، فتالله ما عشت لا أنسى نظرته إلينا إذ ذاك ، نظرة الجندى الفتى ، لا نظرة الشيخ المتعب ، وهو يقول بصوت مملوء حزما وقوة :

« شكرا لكم .. لقد أصبتم ما فى نفسى ! فلنكتب الجواب ، وليذهب به الرسول »

● ● ●

عاش الولدان أربعا وعشرين ساعة غريبة . كان سعد مرحا أكثر مما كان فى يوم من الأيام . كأنه طفل صغير فى طريقه الى مدينة الملاهى ، وليس رجلا مسنا مهدما مريضا فى طريقه الى رحلة الموت . ان الخطر بالنسبة اليه أشبه بجرعة من اكسير الشباب . التجاعيد اختفت من تحت عينيه . صوته المتهدج أصبح صوتا شابا . لم يعد يصعد درجات السلم وهو يتكىء على الدرابزين . كأن يدا سحرية خلقته من جديد . لأول مرة لم ينم بعد الظهر . كان كل حديثه

الساحر عن « خادمه المطيع » الذى سيجىء ليقبض عليه ويذهب به الى المجهول . جلس يبدل ويغير فى القائمة التى كتبها قبل الثورة لأسماء الطبقات التى يتألف منها الوفد . بعض الأسماء التى وضعها قبل الثورة شطبها . انهم خذلوه وانضموا الى عدلى وفريق المعتدلين . كتب قائمة جديدة . وضع فيها أسماء سبعين فردا . يؤلفون عشر طبقات للوفد . كل طبقة مؤلفة من سبعة أعضاء . إذا أعدمت طبقة أو نفيت أو سجنت حلت على الفور الطبقة التالية . كتب أسماء على ماهر ومصطفى النحاس وفتح الله بركات وعاطف بركات وسينوت حنا ومكرم عبيد . وواصف غالى وويصا واصف وجورج خياط وحمد الباسل باشا ومراد الشريعى بك وعلى الشمسى ومحمد علوى الجزار وعبدالقادر الجمال باشا ومرقص حنا بك والمصرى السعدى باشا والسيد حسين القصبى وفخرى بك عبدالنور والدكتور حسن كامل ومحمد صدقى باشا المستشار فى محكمة الاستئناف وعبدالستار الباسل بك ومحمد نجيب الغرابلى وسلامة ميخائيل بك وصادق حنين بك وامين عز العرب والشيخ مصطفى القاياتى والدكتور محجوب ثابت وحسن حسيب باشا والأميرلاى محمود حلمى اسماعيل وابراهيم راتب بك وراغب اسكندر وعبدالحليم البيلى ومصطفى بكير بك وغيرهم .

وسلم سعد القائمة الى الدكتور أحمد ماهر وقال له انه لم يضع اسمه ولا اسم النقراشى ، لأنه يريد أن يبتعد زعماء الجهاز السرى عن التنظيمات العلنية للوفد .

ولم يصبح كل هؤلاء أعضاء فى الوفد ، فإن على ماهر بك مثلا رفض أن يبقى فى الوفد ، وكان سعد يعتقد انه لن يخرج من الوفد فى يوم من الأيام ، وكان يتصور انه سيكون رئيسا للوفد بعد وفاته ! ولم يغفر سعد بعد ذلك أبدا لعلى ماهر انه خرج على الوفد ! واعتذر عبدالقادر الجمال باشا « سر تجار مصر » من عدم دخوله الوفد لكثرة أعماله التجارية ، واعتذر محمد صدقى باشا من عدم دخول الوفد أيضا لأنه لا يريد أن يذهب بقدميه الى المشنقة ، واعتذر محمد يوسف بك كذلك لأن حالته الصحية لا تسمح له بالنفى والاعتقال ، وكان سعد يقدره كثيرا فقد كان محاميا فى مكتبه عندما كان يشتغل بالمحاماة وكان وكيله فى قضاياه ، وكان شقيقه عثمان يوسف بك القاضى من أنشط أعضاء الجهاز السرى .

ورفض أعضاء الوفد قبول عضوية صادق حنين بك وأمين عز العرب بك اللذين أوصى سعد باختيارهما ، لأنهما قبلا الانذار البريطانى ولزما داريهما . وحضر الدكتور محجوب ثابت جلسة واحدة فى الوفد ثم اختلف مع الأعضاء وسافر الى الاسكندرية .

وكان الذين اختارهم سعد هم الذين لعبوا ادوارا بارزة فى أثناء ثورة ١٩١٩ والذين وقفوا بجواره خلال المعارك المتوالية . وبعد أن انتهى سعد من كتابة قائمة أعضاء الوفد كتب خطابا عاطفيا الى جاره حمد الباسل باشا يدعوه الى العودة الى الوفد ، ورياسة جلساته ، ويناشده أن ينسى الخلاف الذى بينهما ، ويقول له انه مطلوب من الوفد الجديد أن يبدأ ثورة جديدة تدعو الى سياسة عدم التعاون مع الانجليز ومقاطعتهم كأفراد ، وتجاهلهم فى الوزارات والمصالح ، ومقاطعة البضائع الانجليزية والبنوك الانجليزية والسفن الانجليزية وشركات التأمين الانجليزية والتجارة الانجليزية ، وكلف سعد خادمه الحاج أحمد أن يسلم هذا الخطاب الى حمد الباسل باشا ولا ينتظر ردا .

ثم قابل سعد بعد ذلك رجلا غريبا . رجلا معمما فى الستين من عمره . له لحية بيضاء ويرتدى الملابس البلدية . وسلمه مذكراته السرية فربطها على بطنه . وظهر فيما بعد أن الرجل الذى ائتمنه سعد على هذه المذكرات هو الشيخ جاد الله العامل فى العنابر ، والذى تبين بعد ذلك فى قضية الاغتيالات انه كان رئيس خلية العمال التى تغتال الانجليز أثناء الثورة !

وبينما كان سعد يضع خطة الثورة لمن يجيئون بعده ، شق الهدوء صوت كالرعد القاصف . ان شارع سعد زغلول والشوارع المجاورة سدت بعشرات الألوف من الرجال والنساء يهتفون بحياة سعد وسقوط الانجليز . ارتفعت الأصوات تقول : « نحن فداء سعد ! نحن وراءك يا سعد ! .. مصر كلها تقول معك للانجليز لا » !

وذهل سعد . كيف عرفت هذه الألوف المؤلفة بالانذار البريطانى وبرفضه الانذار . ان النبأ سرى فى المدى كالبرق . فخرجت القاهرة تزحف كلها الى بيت سعد . الأصوات ترتفع غاضبة . الأيدى تلوح مهددة متوعدة . الهتافات تعلن الانجليز وبرادع الانجليز . الألوف ينادون بالثورة . الثورة . الثورة !

وخرج سعد الى الجماهير وقال لها :

البركة فيكم ! انى عرفت مصيرى ، ولست مهتما ألا بكم . أنتم الذين ستعانون الشدائد . اننى واثق كل الثقة برجولتكم . الانجليز يستطيعون أن ينفوا سعدا ولكن لن يستطيعوا أن ينفوا شعبا بأكمله . يستطيعون أن يقتلوا سعدا . ولكنهم لن يتمكنوا من أن يقتلوا أمة بأسرها . ولو بقى فى هذا الشعب فرد حر واحد فلن يستطيع الانجليز أن ينتصروا على مصر ، كل ما أريد منكم أن يكون شعاركم هو الاستقلال التام أو الموت الزؤام !

ثم أدار سعد ظهره ورجع الى البيت وقد أصيبت الجماهير بحالة من الهستيريا والجنون وهى تنادى :

— الشعب سوف ينتقم لك يا سعد !

وفجأة ارتفعت الهتافات من جديد . ان حمد الباسل باشا وكيل الوفد الذى انشق على سعد ، جاء ماشيا على قدميه ، بعباءته البدوية ، وبطربوشه المغربى ذى الزر الأزرق ، وهو يشق طريقه الى باب بيت الأمة .

وما أن رآه سعد حتى عانقه وقال له حمد الباسل :

لو لم ترسل لى رسالتك لجئت اليك أيضا ! لقد جئت إليك فى ساعة الخطر ، لأننى أعتبر الاعتداء عليك هو اعتداء على هذا الشعب كله ، فأنت زعيم الأمة ، وأنا أضع نفسى تحت تصرفك .

وانطلقت المظاهرات الغاضبة تهتف للثورة ، تحطم مصابيح النور ، تحطم عربات الترام ، تخلع الأشجار من الشوارع ، تحملها تلوح بها داعية للانتقام .

وخرج الانجليز فى طوابير مسلحة ومعهم الأميرالاى محمد شاهين بك يقود فرقة من الفرسان ، وهاجمت المتظاهرين ، وسقط قتلى وجرحى .

وبعد ساعات كان جرس التليفون فى بيت الأمة لا يكف عن الرنين يحمل أنباء من كل القطر بأن مظاهرات قامت تحتج على انذار لورد اللنبى الى سعد ، الذى لم ينشر فى الصحف ، ولم يطبع بعد فى منشورات !

كانت سرعة تحرك الشعب فى ذلك اليوم غريبة ! لقد احتاج فى عام ١٩١٩ الى يوم كامل حتى يتحرك ، ولكن كيف تحرك الشعب هذه المرة بسرعة مذهلة ، بعد دقائق من رفض سعد للانذار البريطانى .

وكان سعد جالسا يسمع أنباء الثورة .. وفى أول الأمر أخفوا عليه الأنباء خشية أن يتأثر .. ولكن لم يلبث أن عرف بأنباء سفك الدماء فقال :

ان هذا الرصاص الذى يطلقه الانجليز أشبه بالموسيقى !

ان كل شىء عظيم يجىء يجب أن تسبقه طلقات المدافع ! كل رصاصة يطلقها الانجليز سوف تصيب نفوذهم وهيبتهم وقوتهم فى هذه البلاد !

أهلا بالرصاص ! انه بداية النصر !

ونامت القاهرة فى الظلام . لا يوجد مصباح واحد مضىء ! لا توجد شجرة فى شارع ! اختفت الحياة من المدينة . نزلت المدينة كلها تحت الأرض لتعد للثورة القادمة !

وفى صباح يوم الجمعة ٢٣ ديسمبر حاصر الجيش البريطانى منطقة الانشا حيث يوجد بيت الأمة . سيارات مصفحة تمنع المرور . جنود انجليز يحملون المدافع يسدون الشوارع وقد اتجهوا بفوهة بنادقهم نحو السائرين فى الطريق . كتيبة انجليزية تقف بمدافعها وبنادقها فى شارع القصر العينى

على ناصية شارع سعد زغلول . كتيبة ثانية تحتل شارع الفلكي ، كتيبة ثالثة في شارع ناظر الجيش خلف بيت سعد . كتيبة رابعة تحتل الأرض الفضاء المجاورة لبيت سعد . الجنود بملابس الميدان . كأن الجيش البريطاني كله خرج ليقبض على رجل واحد !

ووقفت سيارات عسكرية أمام بيت الأمة ، نزلت منها قوة من الجنود الانجليز تحمل المدافع الرشاشة ، يتقدمهم عدد من الضباط يحملون المسدسات وتقدم ضابط برتبة كولونيل الى الحاج أحمد وقال له انه يطلب مقابلة سعد باشا .

وصعد الخادم الى الطابق العلوى ، وكان سعد لا يزال بملابس النوم ، فقام على الفور ليرتدى ملابسه ، ورفض الضباط الانجليز أن ينتظروا حتى يتم سعد ارتداء ملابسه ، فصعدوا الى الطابق العلوى فنزل معهم .. ونزلت صفية ورتيبة والولدان وراءه .. وكان سعد قويا ثابت الجنان .. ولكن حدث فجأة أن قالت صفية :

لن أترككم تأخذونه وحده ! يجب أن أذهب معه .. انه رجل مسن مريض وهو يحتاج لعنايتي ! لن تأخذوه وحده !

وأجاب الضابط الانجليزى : ليس لدينا تعليمات بأن نأخذك وفجأة فقدت صفية ثباتها وقوة أعصابها فانهمرت الدموع من عينيها وقالت : لا .. لا .. لن تأخذوه وحده ! لن يموت وحده .. أريد أن أموت معه !

وهنا نظر اليها سعد بغضب وحزم وقال :

— صفية .. يكفى هذا !

وماتت الكلمات على شفتى صفية . وجفت الدموع في عينيها . تسمرت في مكانها لا تتحرك ولا تقول شيئا !

وتطلع الطفلان في هلع الى جدهما .. « سعد » ولكنه لم يلتفت بعد ذلك خلفه ، واتجه الى السيارة العسكرية في خطوات ثابتة ، مرفوع الرأس ، بارز الصدر ، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة !

● ● ●

● الفصل الخامس عشر ●

انفجرت الثورة من جديد . كأنك ضغطت على زر كهربائى ، فاشعل قلوب كل المصريين غضبا . معارك فى الشوارع بين الشعب والانجليز . البلد كله تحول إلى ميدان قتال . فى كل مدينة معركة . فى كل شارع مظاهرة . فى كل دقيقة قتيل أو جريح . السجون امتلأت بالثوار . المستشفيات ضاقت بالجرحى . كان لورد اللنبى قد وعد حكومة لندن بأنه إذا قبض على سعد زغلول فسوف تموت الثورة . أنه اليد التى تحمل الكبريت وتشعل النار فإذا قطعنا هذه اليد فلن تشتعل النار . ها هو ذا قد قطع اليد ، وإذا بالنار فى كل مكان . كأن أربعة عشر مليونا خرجوا فجأة وفى يد كل واحد منهم علبة كبريت !

ويحاول لورد اللنبى أن يخفف صورة الموقف الخطير حتى لا يزعج حكومته ، ولكنه يضطر أن يكتب إلى وزير الخارجية بعد نفى سعد ويقول « المدارس جميعها مضربة . الموظفون أعلنوا الاضطراب لمدة ثلاثة أيام . القتلى فى القاهرة ١١ قتيلا . والمقبوض عليهم ١٨٦ فيها ، وقبضنا على ٢٨٩ ثائرا فى الاسكندرية . قامت مظاهرة مسلحة فى بورسعيد . وقعت معركة بين الجنود الانجليز والمتظاهرين . سقط مصرى واحد قتيلا وثلاثة جرحى . استولى الجيش البريطانى على مدينة السويس . قامت مظاهرة قتل فيها مصرى واحد وجرح ثلاثة » .

قبض الانجليز على فتح الله بركات ومصطفى النحاس وعاطف بركات وسينوت حنا ومكرم عبيد . ووضعوا فى معتقل مع سعد زغول فى السويس ، لم يبق من أعضاء الوفد بلا اعتقال إلا اثنان هما واصف غالى وويصا واصف !

وأصدر الاثنان بيانا باسم الوفد بتوقيعهما وحدهما . قالا فيه « أننا مصممون على أن نواصل العمل ، وأن نثابر حتى نصل إلى غايتنا منه بعون الله ، ولئن ضربنا الخصم نحن أيضا ، فليقومن غيرنا ، لأننا لن ندع علم مطالبنا يسقط من أيدينا ، أن فى ميدان الضحايا لمتسعا للجميع » .

وجاءت الأنباء فى يوم ٣٠ ديسمبر بأن سعد وأصحابه وضعوا فى نقالة حربية حملتهم إلى عدن . وهز النبأ الشعب . وخرجت المظاهرات تهتف لا مفاوضة إلا بعد عودة سعد لا وزارة إلا بعد عودة سعد .

وفوجئت صفية بأن أغلبية أعضاء الوفد التى انشقت على سعد حضرت فجأة إلى بيت الأمة وطلبت مقابلتها .

وكانت صفية ترفض أن تستقبلهم . أنهم خرجوا على سعد . نكدوا عليه الحياة فى باريس . قسموا الأمة بالخلاف . لولا اعتماد الانجليز على انقسام الأمة لما جرؤوا على نفى سعد زغلول .

قال لها واصف غالى : ولهذا السبب يجب أن تستقبليهم . أن سعد زغلول عانق حمد الباسل عندما عاد إليه . وعليك أن تفعلى مافعله سعد !

قالت صفية وهى تضحك : استقبلهم .. ولكن لا أعانقهم ! .. لو عانقتهم فسوف اخنقهم !

ودخل أعضاء الوفد المنشقون ، وتمالكت صفية أعصابها وقالت :

— لقد طلبت من الانجليز أن أصحب سعدا ، ولكنى رأيت أن أبقى فى مكانى لأجاهد مع المجاهدين ، إن الوطن محتاج لجميع بنيه ، وأنا من أجل هذا أضع يدى فى أيديكم ، وأدعوكم إلى الأخذ بيد بلادكم متكاتفين فى هذه اللحظات التاريخية من حياة الشعب . وأنا لا أدعوكم إلى المجد ،وإنما أدعوكم إلى الموت . أدعوكم إلى المنافى والمشانق والسجون !

ورد عليها عبدالعزيز فهمى بك بالنيابة عن أعضاء الوفد المنشقين :

— إننا فى هذه الأزمة الشديدة نتقدم إلى الخطر ، مقتفين أثر رئيسنا المحبوب سعد باشا ، ومستمدين من قوته ما يكفل لنا نجاح مسعانا .

وخنقت العبرات عبدالعزيز فهمى فبكى ..

وهتف محمد على علوبة بك : لتحيا أم المصريين . ليحيا سعد ليحيا الاتحاد .

قالت صفية : بل اهتفوا نموت وتحيا مصر !

ولكن الجماهير المتحمسة قابلت عبدالعزيز فهمى بكلمات نابية ، وصاح أحدهم فى وجهه : « إلا من تاب » وغضب عبدالعزيز فهمى وأقسم أنه لن يعود إلى بيت الأمة ، وبعد خروج أعضاء الوفد الذين أعلنوا ولاءهم لسعد قالت صفية :

— ان قلبى غير مستريح لهم ! إن دموع عبدالعزيز فهمى لم تؤثر فى ، إننى أعتقد أن توبتهم غير صادقة !

ولامها الذين حولها على تشاؤمها ، فقد رأوا دموع عبدالعزيز فهمى وسمعوا أعضاء الوفد المنشقين على سعد وهم يهتفون بحياة سعد !

وعقد الوفد بكامل هيئته وأذاع نداء للأمة وقعه جميع أعضائه يعلن فيه عودة الوفد إلى وحدته .. وفرح الشعب باتحاد الصفوف .. وبدأ الوفد يعقد جلساته فى بيت الأمة لوضع خطة العمل ..

وإذا بالخلاف يدب من الجلسة الأولى ..

حمد الباسل باشا والأعضاء الذين بقوا مع سعد يطالبون بأن يصدر الوفد بيانا للأمة يعلن فيه مقاطعة البضائع الانجليزية وعدم التعامل مع الانجليز طبقا للرسالة التى كتبها سعد إلى حمد الباسل يوم القبض عليه .

أما الأغلبية من الذين انشقوا على سعد فقد عارضوا البيان وقالوا إنه عمل جنونى ، وأنه سيؤدى إلى اعدام كل من يوقع هذا البيان !

وحمد الباسل والأعضاء الذين أيدوا سعد طالبوا بأن يتبنى الوفد مانادت به المظاهرات الشعبية فى كل البلاد بأن لا مفاوضة ولا وزارة إلا بعد الافراج عن سعد وأصحابه ..

وأعضاء الوفد المنشقون قالوا ان نفى سعد شىء ، والعمل لقضية مصر شىء آخر .

وانقسم الوفد : الأغلبية تطالب بالاعتدال .. والأقلية تصر على التطرف والمضى فى الثورة إلى النهاية نفس المشكلة التى قامت فى باريس .

وجرى التصويت ..

وإذا بنتيجة التصويت رفض مقاطعة الانجليز بأغلبية تسعة أصوات ضد خمسة أصوات ..

وكانت الأغلبية مؤلفة من عبدالعزيز فهمى بك وعلى شعراوى باشا ومحمد محمود باشا وأحمد لطفى السيد وعبداللطيف المكباتى بك وعبدالخالق مدكور باشا ومحمد على علوبة بك والدكتور حافظ عفيفى وحسين واصف باشا .

والأقلية مؤلفة من حمد الباسل باشا وعلى ماهر بك وجورج خياط بك وواصف غالى بك والأستاذ ويصا واصف ..

وهنا قال حمد الباسل : إن نتيجة التصويت هى ١٤ مليون صوت ضد تسعة أصوات .. ان سعد زغلول هو صاحب هذه السياسة ، وسعد يؤيده ١٤ مليونا وهذه هى الأغلبية الحقيقية ..

وغضب أعضاء الوفد المنشقون ، وعادوا إلى موقفهم المنشق من جديد ، منسحبين من عضوية الوفد ..

وأعلن عبدالعزيز فهمى بك اعتزاله السياسة .

وضم أعضاء الوفد الخمسة إليهم ثلاثة أعضاء هم : محمد علوى الجزار ومراد الشريعى ومرقص حنا بك .

وأصدر الوفد الجديد بيانا من نار يعلن مقاطعة البضائع الانجليزية وعدم التعاون مع الانجليز ..

* * *

وفي اليوم التالى قبض الانجليز على حمد الباسل وعلى ماهر وواصف غالى وويصا واصف ومراد الشريعى وعلوى الجزار وجورج خياط .
وعلى الفور ظهر وفد جديد من المصرى السعدى باشا والسيد حسين القصبي وفخرى عبدالنور بك ومحمد نجيب الغرابلى وسلامة ميخائيل بك والشيخ مصطفى القاياتي وراغب اسكندر .
ثم أفرج عن أعضاء الوفد الثانى .
واختفى أعضاء الوفد الثالث ينتظرون دورهم ، ولم يطل انتظارهم ، فقد أصدر أعضاء الوفد الثانى بيانا يدعون الشعب إلى الثورة ، وقبض الانجليز عليهم ، وحكموا عليهم بالاعدام وعدل الحكم إلى السجن مع الأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات ..
وأصدر الوفد الثالث بيانا يحتج على مظالم الانجليز واستبدادهم ويعلن تصميم الشعب على الثورة ، فقبض الانجليز عليهم أيضا وأودعوهم قشلاق قصر النيل ..
وظهر الوفد الرابع بعضوية حسن حسيب باشا وعبدالحليم البيلى وعطا عفيفي ومصطفى بكير والأميرالاى محمود حلمى اسماعيل .. يحمل علم الثورة من جديد !
وقامت المرأة المصرية بالدور الأول في معركة مقاطعة البضائع الانجليزية ورأى الولدان الصغيران صفية زغلول وأستر فهمى ويصا ومنيرة ثابت ووجيدة ثابت وشريفة رياض وهدية بركات وعطية أبو أصبع وجميلة عطية واحسان القوصي وتماضر صبرى وهن يتولين إعداد قائمة كبيرة باسم كل محل انجليزى أو شركة انجليزية أو مطعم انجليزى أو بنك انجليزى من الاسكندرية إلى أسوان وطبعت من هذه القائمة مئات الألوف من النسخ .
وكان إقبال الشعب على المقاطعة رائعا .. وبدأت تفلس أكبر المحلات التجارية البريطانية في القاهرة . أفلس محل « ستاين » ثم محلات « مورنج » وكانا أكبر المحلات التجارية في القاهرة ، ثم توالى إفلاس المحلات التجارية واحدا أثر واحد .. وبدأت البنوك البريطانية تغلق فروعها ، ثم تغلق أبوابها . خرج الناس ينفذون المقاطعة بارار غريب . كانت بعض المحال التجارية البريطانية تخفض أسعارها إلى النصف لتغرى الفقراء ومتوسطى الحال بالخروج على قرار المقاطعة وصمد المصريون للاغراء ، فضلوا أن يشتروا البضائع غير البريطانية الغالية على البضائع البريطانية الرخيصة .
طلب الوفد من الشعب أن يسحب أمواله من البنوك البريطانية ويودعها في بنك مصر . وفي يوم وليلة خرجت الملايين من الخزائن البريطانية ودخلت

بنك مصر . نشطت الصناعات المصرية أصبح كل مصرى يتباهى بأنه يرتدى حرير اللوزى أو قماشا من صنع المحلة .

أصبح محل تجارة حامد المواردى فى العتبة أعظم محل تجارى فى القاهرة ، كبر فجأة وتغلب على شيكوريل وشملا والبون مارشيه وأورزدى باك . فشلت كل محاولات لورد اللنبى والحكومة لافساد المقاطعة . ويصاب الانجليز فى مصر بالانهيار ، ويلحون على لورد اللنبى بضرورة التسليم للثوار ويبرق اللورد إلى حكومته فى ذعر « ان الثورة تزداد اندلاعا . هذا الموقف الخطير لايمكن أن يستمر . إما أن نضم مصر العنيفة العداء للامبراطورية . وإما نستسلم استسلاما تاما ! » .

واتهمت الحكومة البريطانية أكبر قوادها وفاتح القدس بأنه تخاذل أمام الثورة وبأنه يصوب مسدسه إلى رأس الحكومة البريطانية !

وعبثا حاول الانجليز أن يعرفوا أين تطبع منشورات المقاطعة ، ولم يتصوروا أن نساء مصر هن اللاتى يتولين هذه الحرب الخفية .. ولم يتصوروا أن مقابلات السيدات فى بيوت مختلفة فى الصالونات هى اجتماعات سرية توضع فيها خطط المقاطعة .

ان المرأة المصرية التى عاشت مئات السنين فى الحريم تحولت فجأة إلى امرأة فدائية ، بطلة تهزأ بالخطر ، وهذه المرأة التى كانت تنهار أمام أى صدمة أصبحت أشبه بالجبل لا تهتز ولا تتزعزع ولاتضعف . أحكام الاعدام والسجن على أزواجهن وآبائهن واخوتهن لاتسلم النساء المصريات إلى البكاء والعويل ، بل كانت على العكس تضاعف من حماستهن ، المطارق التى تنهال على رأس المرأة المصرية لا تجعلها تهوى تحت ضرباتها بل تزيدها اندفاعا لتنقض من جديد ، كأنها كرة من المطاط كلما القيتها بقوة إلى الأرض وثبت بنفس القوة إلى السماء . بعض هؤلاء النساء كان يخفى المنشورات فى الكورسيه ويمشى بثبات عجيب أمام الجنود ، بعضهن كان يضع المسدسات فى حقيبة أيديهن مع المناديل وعلبة البودرة ، وزجاجة لكحل ، بعضهن كان يكتب بيده انذارات القتل لخصوم الثورة ويوقعها بامضاء جمعية اليد السوداء !

وذات يوم أقبلت سيدة هى أم أحد ضباط البوليس إلى بيت الأمة ، ودخلت وقالت وهى تلتقط أنفاسها أن ابنها علم بأن النية متجهة إلى تفتيش بيت الأمة بحثا عن منشورات الثورة ، وأن ابنها طلب إليها أن تبلغ أم المصريين لتتخذ الاحتياطات !

وأبلغت صفية الأمر إلى السيدات الموجودات ، وعلى الفور اندفعن جميعا إلى اخفاء الكميات الكبيرة من المنشورات داخل الملاءة السوداء ، وغادرن

بيت الأمة وبطونهن منتفخة ، وكان منظرا مضحكا أن ترى عشرين سيدة كلهن في الشهر التاسع يخرجن من البيت في وقت واحد !

وبعد ساعة من انصراف السيدات الحبالى أحاط البوليس ببيت الأمة من جميع جوانبه ..

ودخل عدد من ضباط البوليس الانجليز والمصريين إلى البيت ، وبدأوا يعبثون بكل شيء فيه . يفتحون الدواليب ، ويحفرون أرض الحديقة بحثا عن مخابيء ، ويدقون على جدران الغرف يبحثون عن مستودعات سرية .. وفتشوا الخدم ، ثم جاء ضابط انجليزى وفتش الولدين الصغيرين تفتيشا دقيقا ، وطلب إليهما أن يخلعا حذاءيهما وانبطح أحد الضباط تحت الفراش الذى ينامان عليه ليبحث عن المنشورات السرية . ثم دخل الضباط غرفة نوم صفية وسعد وفتشوها ، ثم دخلوا غرفة جانبية تستعملها للزينة . ووجدوا في أحد الدواليب صندوقا مغلقا من الحديد « شكمجية » ..

وهمس الضابط الانجليزى في أذن مأمور السيدة زينب بكلمة ، واتجه المأمور إلى صفية وقال :

— نريد مفتاح هذا الصندوق ..

واحتضنت صفية الصندوق وقالت :

— لن أدعكم تمسون هذا الصندوق ! لقد تركتكم تلوثون بأقدامكم غرفة نومى ، ولكنى لن أسمح بأن تلوثوا بأيديكم هذا الصندوق . ان فيه خطابات زوجى لى . ولهذه الخطابات قداسة خاصة . لن أسمح ليد أن تمتد إليها وأنا على قيد الحياة !

ورأى الضابط الشرر يتطاير من عينى صفية . كأنها انقلبت إلى لبؤة مفترسة تدافع عن عرينها . وكأنها ستموت فعلا ولاتسلم هذا الصندوق ..

واتصل مأمور السيدة زينب تليفونيا باللواء أبلت مساعد الحكمدار الانجليزى وأبلغه ماحدث ..

واتصل اللواء اللورد اللنبى وأبلغه موقف أم المصريين وبعد ذلك اتصل اللواء أبلت بمأمور السيدة زينب في بيت الأمة وقال له :

— مادامت أم المصريين تقرر أن في هذا الصندوق خطابات زوجها إليها فاتركوا الصندوق .

وانصرف الضابط والجنود دون أن يجدوا منشورا واحدا في بيت الأمة !

وتصور الولدان وهما يشهدان صراع صفية ودفاعها عن الصندوق أن فيه مستندات سرية تتعلق بالثورة خشيت أن تقع في يد الانجليز .. ولكن ظهر لهما أن الصندوق لم يكن فيه فعلا إلا خطابات سعد الغرامية إلى زوجته !

وكان موقف لورد اللنبي واحترامه لخطابات عدوه الخاصة ، وهو موقف القائد النبيل ، والجندي الشريف ..

ولكن لورد اللنبي وهو يقف هذا الموقف النبيل كرجل ، كان يقف موقفا آخر كنائب ملك انجلترا في مصر .. كان يصدر أوامر يومية باعدام المصريين ، وبقتلهم رميا بالرصاص !

* * *

أحس الولدان في هذه الأيام بقسوة نفي سعد أكثر مما أحسا بها عندما نفي للمرة الأولى في عام ١٩١٩ . أحسا بلوعة أمر ، وبشوق اكبر ، وبقلق أشد . وقد يكون طول مدة نفيه في المرة الثانية هو السبب ، وقد يكون مالاحظاه من مرضه وشيخوخته في أيامه الأخيرة هما السبب ، وقد يكون السبب الحقيقي أنهما أصبحا أكبر سنا وادراكا مما كانا . ففي المرة الأولى كان عمرهما أكثر من خمس سنوات وفي المرة الثانية كانا أقل من ثماني سنوات . فكلما كبر الطفل أصبحت مشاعره أكثر حساسية . فالطفل لا يرى النكبة بالضخامة التي يراها الولد ، فالذي يحزنه وهو طفل ، يبكيه وهو ولد ، ويشقيه وهو شاب ، ويعذبه وهو رجل ويقتله وهو شيخ ، إن أحزاننا تكبر معنا ، بعكس أفراحنا ، فإنها تنكمش مع أعمارنا ، فالذي يرقصنا في طفولتنا يسعدنا ونحن أولاد ، ويجعلنا نبتسم ونحن شباب ، وقد لا يحركنا ونحن شيوخ !

وكانت الأنباء التي ترد من جزيرة سيشيل إلى بيت الأمة تضاعف أحزاننا ، إنها جميعا تؤكد إن صحة سعد تسوء ، وأن جو الجزيرة الحار وسوء المعاملة يجعلان حياته لا تطاق ، وكان الجو في البيت كئيبا حزينا ، كل واحد فيه يعتقد أن هذه الرحلة لن يعود منها سعد حيا !

وكانت صفية بشخصيتين مختلفتين : شخصية المرأة ، وشخصية البطلة ، وكانت المرأة في الدور العلوي تبكي وتصلي ، وكانت البطلة في الدور الأول تغرس الأمل في قلوب اليائسين ، تملأ أرواح الثوار بشعاع من التضحية والفداء . ولم تكن صفية ممثلة بطبعها ، كانت صريحة في ملامحها وفي حديثها . ولكنها كانت إذا رأت الثوار تحولت إلى قائدة لهم ، وإذا اختلت بنفسها أو بأقاربها عادت امرأة تتعذب لفقد رجلها ، يذويها الشوق ، وتقلقها أنباء صحته ، ويدمي قلبها غيابه .

وذات يوم جاءت سيدة انجليزية إلى البيت وطلبت مقابلة صفية ، وقالت إنها قادمة من جزيرة سيشيل ، وتريد أن تخبرها عن الحالة هناك ، وأسرعت صفية إلى استقبالها ، وإذا بالسيدة الانجليزية تنبئها بأن سعدا على وشك الموت . إن صحته في انهيار مستمر . إن الجو في سيشيل أشبه بالجو في

جهنم . إن البيضة إذا وضعت فى الشمس تسلق بغير حاجة إلى إشعال وقود . وأفاضت السيدة فى وصف العذاب الذى يتعرض له سعد فى منفاه ..

وسكتت السيدة ورأت الدموع فى عينى صفية فقالت لها :

— إن من رأيى أن تكتبى إليه تنصحينه بأن يعلن اعتزال السياسة ! وبهذه الطريقة وحدها يمكن أن يفرج عنه ، ويبقى حيا !

وتحولت صفية فجأة إلى نمرة مفترسة وقالت لها :

— ماذا تقولين ؟ ! إننى أفضل أن يموت سعد وهو زعيم الثورة ، على أن يعيش وقد تخلى عن الشعب الذى وثق به ، ومات شبابه وهم يهتفون باسمه ..

وبذلت السيدة الانجليزية كل جهدها فى محاولة لاقناعها ، فطردتها صفية من البيت .

وعرف بعد ذلك أن هذه السيدة لم تكن غير رجل من المخابرات البريطانية تنكر على هيئة امرأة ليقوم بهذه المهمة . ونشر بعد ذلك أن هذه السيدة هى الجاسوس البريطانى المشهور لورنس !

وشاهد الولدان هذه السيدة فى أثناء هذه الزيارة ، وعندما نشر بعد ذلك بسنوات أنها كانت لورانس راحا يتأملان صورة لورنس ويقارنان بينه وبين الصورة التى فى ذاكرتهما لهذه المرأة المجهولة ، فوجدا فعلا أن الشبه بينهما كان غريبا ..

* * *

وكثيرا ما مر بالبيت أيام سوداء ، فجأة يخلو البيت من الناس . لا مظاهرات ولا وفود ولازائر واحد . لا أنباء عن حركات ثورية فى الأقاليم . انقطعت المنشورات التى كانت تنهمر كالمطر . البيت الذى كان أشبه بخلية النحل هدأ وسكن سكون القبور ، ويحسب السذج أن الشعب قد استسلم لغاصبيه ، وان الثورة قد انتكست ، وان الحماسة قد خمدت . وفجأة ينفجر البركان . ويتملىء البيت بالمتظاهرين ، وتعود المعارك إلى الطرقات ، وتدوى طلقات الرصاص فى كل مكان .

إن هذا الشعب شعب غريب ، لا تعرف متى ينهض ومتى يتقاعس . أين ينفجر وأين يهدأ . متى يثمر ومتى ينقض . يغمض عينيه ولا ينام ، يتراجع فجأة ليستعد للوثوب . يرفع يديه فتحسبه يستسلم ، وإذا فى يديه المرفوعتين قنبلة يلقيها على العدو . العصافير تخيفه ولكن المدفع يحرك فيه أقوى ما يملك من شجاعة واقدام . صوت الريح يفزعه ، ولكن زئير العاصفة يبدو فى أذنه كأنغام النشيد الحماسى . نقطة الدم ترعبه وعندما يرى بحرا من الدم يسبح فيه ..

ان الأيام والسنين لم تستطع أن تمحو من ذاكرة الولدين صورة معركة شاهداها في تلك الأيام أمام بيت الأمة . الجنود الانجليز في سياراتهم المصفحة وفوقها المدافع ، وفي أيديهم البنادق والرشاشات والجماهير في أيديها الطوب والأحجار وجذوع الأشجار . أطفال صغار يهاجمون السيارات المصفحة . شبان يواجهون بصدورهم الرصاص . صفوف تسقط تحت وابل الرصاص ، وصفوف أخرى تحل مكانها ، أرض شارع سعد زغول مغطاه بالجثث والدماء . كلما سقط شاب يحمل العلم . تقدم شاب ثان وحمله . وجاءت الإمدادات الانجليزية والشعب الأعزل صامدا في المعركة ويتراجع الانجليز عندما نفدت ذخيرتهم . وهللت الجماهير لأنها أجبرت الأقوياء على الانسحاب ، ولم يروعها الثمن الفادح الذى دفعته من الجثث والجرحى من أجل هذا الانتصار .

وكثيرا ما ثار سعد وغضب عندما يتلقى الأخبار بأن مجهولا سقط في المعركة قتيلا ! كان حينئذ يطالب بضرورة البحث عن اسم كل قتيل وعنوانه والتعرف عليه .

وكان في بعض الأحيان يقول :

— يجب أن تحتفظوا بأسماء كل الشهداء . سيجيء يوم تسمى شوارع المدن بأسمائهم . سيجيء يوم تسمى قرى باسم الذين أعدموا منها . ستطلق أسماؤهم على المدارس والمستشفيات ! سيقام تمثال لكل شهيد في المكان الذى سقط فيه !

وبعد خمسين سنة من ثورة ١٩١٩ لم يكن قد أطلق اسم واحد من شهداء ثورة ١٩١٩ على حارة أو شارع في أى قرية في مصر !

ولم يكن هذا هو الحلم الوحيد لسعد الذى لم يتحقق ، إن الولدين يذكران ذات مرة وكان سعد جالسا على مائدة الطعام .

إذ قال أحمد مظلوم باشا إنه سمع عدلى باشا يقول إنه ما دامت انجلترا امبراطورية فإن الجيش البريطانى سيبقى محتلا لمصر ، وأن انجلترا ستبقى قوية لمدة ألف سنة !

وقال سعد : لا توجد امبراطورية عاشت في التاريخ ألف سنة ! إن شعورى أن ثورة مصر هى بداية انهيار هذه الامبراطورية . سوف تقلدنا عدة شعوب في المطالبة بالحرية كل يوم ستكسب الحرية أنصارا .. وستفقد الامبراطورية نفوذا . المهم ألا نيأس ولا نلقى السلاح . إننى مؤمن إيمانا كاملا بأنه سيجيء يوم يخرج فيه الانجليز من مصر والسودان وستقوم دولة عظيمة اسمها دولة مصر والسودان . تنتخب حاكمها . لها عاصمتان هما القاهرة

والخرطوم . رئيسها مصرى ونائب رئيسها سودانى . وبعد خمس سنوات يصبح رئيسها سودانيا ونائب رئيسها مصريا . دولة تعطى مثلا للديمقراطية والحرية فتحتذى بها بقية الدول المغلوبة على أمرها ..

وضحك مظلوم باشا وأشار إلى السفرجى النوبى محمد وقال :

— إن محمد السفرجى سيكون حاكما لمصر والسودان ..

قال له سعد جادا :

— لا تضحك .. سيأتى يوم يصبح فيه هذا السفرجى أو غيره حاكما لمصر والسودان ! إن الشعوب هى التى تختار حكامها ..

وتحقق مع الأيام جزء من حلم سعد زغلول . فخرج الجيش البريطانى من مصر والسودان ، وأصبح الشعب هو الذى يختار رئيس الجمهورية ، وتحررت كل البلاد التى كانت تحتلها بريطانيا ، وسقطت الامبراطورية البريطانية .. ولكن مصر والسودان لم تصبحا دولة واحدة كما كان يؤمن ويؤكد ويجزم دائما .

ولعل التاريخ لم يكشف حتى الآن عن سر غريب ، فقد كان سعد يقول لأسرته أنه كان من خطة الثورة أن يحدث الانفجار فى مصر وفى السودان فى وقت واحد ، وكان لسعد بعض أصدقاء يثق بهم فى السودان ، فكتب إليهم خطابات سرية يشرح لهم أهداف الثورة ، وقد سلم هذه الخطابات إلى ضابط فى الجيش من أصدقاء عبدالرحمن فهمى بك ، وكان الضابط يعمل فى الأورطة المصرية المعسكرة فى مدينة الخرطوم ، وكانت مهمة الضابط المصرى أن يبلغ السودانيين شفويا عن ساعة الصفر التى تحددت للثورة وهى ساعة القبض على سعد زغلول ..

وانفجرت الثورة فى مصر ، ولم تنفجر فى السودان !

وتبين لسعد فيما بعد أن الضابط المصرى ما كاد يصل إلى الخرطوم حتى استدعى على الفور لمقابلة الحاكم العام .. واعتقد الضابط المصرى أن السر انكشف ، فدخل إلى دورة المياه ومزق كل الخطابات .. وفعلا حدث ما توقعه الضابط المصرى فقد تم تفتيشه فى قصر الحاكم العام ، ولم يعثر معه على شىء ، ولكن أمرا أصدر إليه بأن يعود إلى مصر فى نفس يوم وصوله إلى الخرطوم .

وهكذا تأخرت ثورة السودان المنتظرة خمس سنوات عن موعدها المقرر ، ولم تنفجر إلا فى عام ١٩٢٤ .

وكان سعد فى دهشة كيف انكشف هذا السر الوحيد من أسرار الثورة ، وكان سعد يشك فى أن الضابط المصرى ، وقد كان معروفا بأنه مدمن على

الخمر ، شرب كثيرا فى أثناء رحلته من القاهرة إلى الخرطوم ، وراح يهذى بكلمات تسربت إلى الحاكم العام ، فوقعت هذه المأساة !

ولكن إذا كان هذا السر هو الوحيد الذى تسرب ، فإن كثيرا من أسرار الثورة الخطيرة ، بقيت مكتومة ومطوية عشرات السنين ، وأكثر منها ذهبت مع أصحابها إلى القبور .

ولم يفكر واحد منهم فى أن يفتح فمه ليعلن للتاريخ قصص بطولته وأمجاد فدائيته . وقد كان فى هذه الثورة أبطال كثيرون . أبطال بلا أسماء وبلا عناوين !

أبطال سجنوا وعذبوا ، وقتلوا ، أو أعدموا ، واستشهدوا وراحوا فى طى النسيان .

لم يذكرهم أحد ، ولم يشكرهم أحد ، كل ما أخذوه من تضحياتهم الجحود والنكران .

يذكر الولدان فى تلك الأيام أن منشورا ظهر فى اليوم التالى لاعلان فؤاد نفسه ملكا فى ظل الحماية البريطانية ، ظهر منشور عنيف عنوانه « عرش الخيانة » . كان المنشور يهاجم السلطان فؤاد ويقول إنه باع مصر ليشترى لقب ملك مصر ، داس الشعب بقدمه ليضع التاج على رأسه . كان المنشور يلعنه باسم ألوف الشهداء والمسجونين والمنفيين . كان يتوعده بانتقام الشعب ، ويقول له إنه أقام عرشه فوق جماجم القتلى ، وأن الرمل الأحمر الذى فرش أمام قصره هو دم المصريين الذى سفكه من أقاموه ملكا على مصر بالرغم من إرادتها ..

وقامت السيدات بطبع المنشور على ماكينة رونيو فى بيت الأمة ، ووزع المنشور فى كل أنحاء البلاد وألقى وراء أسوار قصر عابدين ..

وهاج الملك الجديد ، وهاج معه اللورد اللنبى ، وصدرت الأوامر بإجراء تفتيش كامل فى جميع أنحاء القاهرة للبحث عن المطبعة التى تولت طبع هذه المنشورات ..

وتولى ثروت باشا رئيس الوزراء ووزير الداخلية بنفسه الاشراف على عمليات التفتيش الكبرى ..

وفوجىء بيت الأمة بمئات الجنود والضباط الانجليز والمصريين يحاصرون البيت .. وكانت هذه أول مرة يحدث التفتيش بغير أن يتلقى بيت الأمة تحذيرا سريا من الجهاز السرى للثورة بالاستعداد للتفيش .. ودخل الضباط الانجليز ومعهم بعض الضباط المصريين وقاموا بتفتيش دقيق .. ثم نزل عدد منهم إلى البدروم ..

واقترب ضابط شاب برتبة الصاغ من غرفة المكوى .. ووضع يده على قبضة الباب .. وما كاد يضع يده حتى تعلقت بها قلوب كل أهل البيت .. فقد كان فى غرفة المكوى مطبعة المنشورات وكمية هائلة منها لم توزع بعد ..

وضغط الضابط على قبضة الباب فلم يفتح الباب .. فقد كان مغلقا بالمفتاح ..

فسأل الضابط : أين المفتاح ؟

وأجاب أحد الخدم : أنه مع المكوجى .. والمكوجى غير موجود !

وهنا دفع الضابط الباب بقدمه بعنف فانفتح ..

ودخل الضابط المصرى الغرفة وبقى فيها خمس دقائق ، ثم خرج منها الضابط بهدوء ، وأغلق الباب وراءه ، واتجه إلى الأميرالاى أبلت بك مساعد الحكمدار الذى كان يرأس التفتيش وقال له لا يوجد شىء فى هذه الغرفة سوى غسيل !!

وبقى ضابط البوليس المصرى واقفا أمام الباب يحرس المنشورات إلى أن انتهى التفتيش ، وصعد الضباط إلى الطابق العلوى ..

وأسرع الولدان إلى صفية يخبرانها بما حدث . فطلبت من الحاج أحمد أن يسأل هذا الضابط المصرى الفدائى عن اسمه .

واقترب الحاج أحمد منه وقال له إن الست تريد أن تعرف اسمك .

قال الضابط : اسمى ضابط مصرى !

ورفض الضابط أن يذكر اسمه !

وتصورت صفية أن الضابط خشى أن يذكر اسمه ، حتى لا يتسرب الاسم ، وتعرف الحكومة بالتصرف الجرىء الذى اتخذه ..

ومضت الأيام وأصبح سعد رئيسا للوزارة ، وصاحب السلطان ، ولم يتقدم هذا الضابط ، ولم يطلب مكافأة عما فعل ، وفشلت كل المحاولات فى العثور عليه !

وحدث فى تلك الأيام أن أطلق مجهول الرصاص على محمد بك بدر الدين مدير الأمن العام . وكان بدر الدين خصما عنيفا للثورة ، ينكل بالثوار ويعذبهم ، وكان الثوار يسمونه « السفاح » ..

ووقع إطلاق الرصاص فى ضوء النهار فى شارع الدواوين ، فى لحظة دخول الموظفين إلى مكاتبهم ، وهى لحظة يمتلىء فيها الشارع بالطلبة والموظفين والعمال ..

ولكن أحدا لم يقبض على الجانى ، ولم يتقدم فرد واحد بشهادته عما رأته الألوف بأعينهم .

وأعلنت الحكومةأنها تدفع خمسة آلاف جنيه لمن يقدم معلومات ترشد عن الجاني .

وجاء إلى بيت الأمة عامل صغير يرتدى الجلابية ، وكانت جلابية قذرة ، حافي القدمين وقال إنه يرغبُ في مقابلة أحد المسئولين في بيت الأمة لأمر هام جدا ..

وكانت الساعة مبكرة من الصباح ولم يكن أحد من السكرتارية أو أعضاء الوفد قد حضر بعد إلى البيت ..

وقابلته رتيبة فقدم لها طربوشا وهو يقول :

— هذا الطربوش سقط من الشاب الذى أطلق الرصاص على محمد بدر الدين عندما كان يعدو في الشارع بعد إطلاق الرصاص .. إننى خشيت أن يقع هذا الطربوش في يد البوليس ، ويعرف من اسم الطرابيشى صاحبه فيقبض عليه .. ولهذا جئت بالطربوش إلى بيت الأمة !

وسألته رتيبة عن اسمه فقال أحمد عبدالمعين الفقى نجار بعمارة البابلى بالسيدة زينب ..

وسألته رتيبة عن أجره ؟ فقال : قرشان صاغ ونصف في اليوم .

قالت رتيبة : وهل تعرف ما هى المكافأة التى تدفعها الحكومة لمن يدلى إليها بمعلومات عن الجانى .

قال النجار : طبعا أعرف .. إنها خمسة آلاف جنيه !

ونظرت رتيبة إلى قدميه الحافيتين وإلى جلبابه الممزق وقالت له :

— لا أستطيع أن أكافئك بشىء سوى أن أعدك بأننى سأقول لسعد باشا عندما يعودُ من المنفى كل شىء عنك !

فقال النجار بسذاجة : قد يبلغ سعد باشا عنى البوليس !

قالت رتيبة وهى تضحك : لا .. أعدك أنه لن يبلغ عنك البوليس !

وعندما عاد سعد من منفاه روت له رتيبة قصة أحمد عبدالمعين الفقى ، فكلف عاطف باشا بركات أن يبحث عنه ، ويجىء به لمقابلته ..

وعاد عاطف باشا بعد أيام وقال إن أحمد عبدالمعين الفقى النجار مات .. إذ أصيب بالسل بسبب سوء التغذية وترك عمله ثم مات بعد عدة شهور !

وبكى سعد زغلول .. بكى على النجار الذى رفض خمسة آلاف جنيه .. وفضل أن يموت شريفا من الجوع !

* * *

عاش الولدان في لعبة تشبه لعبة « عسكر وحرامية » التى كان يلعبها الأطفال في تلك الأيام . مع فارق أن اللعبة كانت كبيرة ، وكل الذين

يلعبونها من الكبار . كان « الحرامية » هم الأشراف الثوار الذين قاموا يحاربون الاحتلال البريطانى ، وكان « العساكر » هم قوى البطش والطغيان التى تمثل الانجليز وحزب الانجليز . الأشراف يزج بهم فى السجون ، ويعلقون فى المشانق ، وينفون خارج البلاد . وأذناب المحتلين وعملاؤهم ينعمون بالمراكز ويشغلون المناصب وتغدق عليهم الأوسمة والنياشين . الذى يطالب باسترداد حقوق بلاده هو مجرم يطارد فى كل مكان . والذى يطعن الثورة بخنجر فى ظهرها ويدعو إلى الاستسلام ويبارك التردد والهزيمة هو نصير القانون ..

ما أتعس القانون فى يد الظالمين . إنه يتحول إلى مقصلة للعدالة . يصبح قناعا تختفى وراءه وجوه الطغاة . ينزل من مكانه فوق الرؤوس ليكون ممسحة تنظف أحذية المستبدين . القوانين فى يد الجبابرة تتحول إلى سياط تلهب ظهور المظلومين . مواده تتحول إلى مطاط يتسع ويضيق كما يريدون ويهوون ، تعميهم القوة ويسكرهم السلطان فلا يرون إلا ما يرضى شهواتهم ، هزائم الشعب تصبح انتصارات لهم ، وفجيعته هى أفراحهم ، وجنازات شهدائه هى مواكب أمجادهم .

وكان الولدان فى أول الأمر يشهدان هذه اللعبة المثيرة بلذة . ولكنها عندما تكررت بدأت المرارة تنفذ إلى مشاعرهما .. تحولا من متفرجين إلى ضحايا . الذين ينفون إلى خارج البلاد هم قطعة منهما ، والذين يعلقون على المشانق هم من معارفهما ، وكثيرا ما رأياهم فى بيت الأمة ، والذين يزج بهم فى السجون هم أصدقاء أسرتهما . وغير صحيح أن القلوب تتحجر كلما رأت صنوفا من المآسى والأهوال . بل إنها تذوب فتصبح أكثر حساسية وأرق شعورا . فى أول الأمر كان منظر سقوط الشهداء يذهل الطفلين .. ولكنه ما لبث أن أصبح يدمى قلبيهما . يحسان كأن الجثة المضرجة بالدم هى جثة واحد منهما . وأن الذى علق على المشنقة هو أحدهما . وأن الذى زج به فى السجن هو بعض منهما . كان الموت يبدو فى أول الأمر مشهدا بطوليا ، ولكنه أصبح مع تكراره صورة حزينة كئيبة تملأ عيونهما بالدموع ، وقلبيهما بالأسى ، وروحيهما بالسواد . إن صور الظلم المتكررة تملأ قلب الولد الصغير بالظلام ، تملأه تعاسة وشقاء ، تجعله كأنه أصيب بالعمى الكامل . يتحسس طريقه إلى منفذ للخروج فلا يجد الباب ، تبحث عيناه عن ضوء فلا تجد الشعاع . وكلما ازداد الظلم أحس المظلوم بالاختناق ، شعر بأن يدا قوية تضغط على عنقه فيعجز عن التنفس ، ويدا أخرى تقبض عليه فلا يستطيع أن يتحرك ، ويدا ثالثة تغلق فمه فلا يستطيع أن يتكلم ، الظلم يحول الظالم إلى عملاق ، ويحول المظلوم إلى قزم ضئيل . الطغيان قيد للذين هم خارج السجون ،

فالطغاة أقل حرية ممن هم في داخلها ، إن كل واحد منهم يتحرك داخل زنزانة متنقلة ! إنه يحس كأن في يديه وقدميه أغلالا غير منظورة . يشعر كأن فوق فمه كمامة تمنعه من الكلام . الطغاة تطرق آذانهم ضربات السياط كأنما تلهب ظهورهم دون أن يروا هذه السياط ، يشعرون بحبال المشانق تلف حول أعناقهم دون أن يعلقوا فيها . تتحول حياتهم إلى جحيم . رجال الطاغية هم الزبانية . وظلم الظالم هو النيران ، في بعض الأحيان يحس المظلوم بوحدة قاسية . وما أشقى الذى يشعر بوحدة قاتلة وهو يعيش بين الناس . في لحظات يحس أنه بلا أصدقاء ، وبلا أعوان . كأنه في جزيرة يحيط بها الظلم من كل مكان . كأنه في ليل بلا آخر ، كأنه في قبر النسيان . والمظلوم يغذى نفسه بالأمل ، ولكن عندما يبتلع كثيرا من شراب الأمل ، يحس بالتخمة ، ويتحول الأمل في شفتيه من شهد إلى صاب ، ومن عسل إلى حنظل ، الأنباء المتفائلة التى كانت في أول الأمر تضمد جراحه ، أصبحت تنكأ هذه الجراح ، وتنفث القيح .

في تلك الأيام اتجه الناس إلى المعابد والكنائس والمساجد هربا من الواقع الظالم .

تصوروا أن الله وحده هو القادر على أن ينقذهم من هذا البلاء .. فهم يرون يد الظالم تشتد وأيديهم تضعف ، المدفع في يده يكبر والطوب في أيديهم يتضاءل . الحق على الصليب ، والظلم فوق العرش . أصوات الثوار تحولت إلى همسات ، وخصوم الثورة الذين كانوا ينفثون كالأفاعى أصبحوا يزأرون كالأسود . اسم سعد أصبح ممنوعا من أن ينشر في الصحف . ولكن صحف الحكومة وحدها كان مباحا لها أن تذكر اسمه كل يوم . توجه إليه التهم وتتحداه أن يجيب والشيخ العجوز مكمم الفم في منفى سحيق في جزيرة سيشيل في المحيط الهندى . الخطابات تفتح وتصل إلى أصحابها مفتوحة . ثم تتواتر الأنباء بعد ذلك بأن صحة سعد تتدهور ، وأن عددا من أطباء الانجليز أجمعوا على أنه إذا بقى في جو هذه الجزيرة الملعونة فلا يمكن أن يعيش بضعة أسابيع ! واللورد اللنبى ينصح بأن يبقى سعد حيث هو ليموت وتموت معه الثورة !

وفجأة يتحرك الشعب السجين في زنزانته ، ويطلق زئيرا يتحول إلى عاصفة هوجاء ، وتنهال البرقيات على الحكومة الانجليزية من جميع أنحاء البلاد تقول للوزراء الانجليز « أيها القتلة ! أنكم مسئولون عن حياة سعد . لو مات هذا الرجل في منفاه فلن يبقى في مصر انجليزى على قيد الحياة » . وتنطلق المظاهرات تدق الدفوف وتنشد : ياعزيز .. ياعزيز .. كبة تاخد الانجليز ..

وتنطلق رصاصات مجهولة .. ويسقط عدد من الجنود الانجليز قتلى فى الشوارع والميادين .. ويصاب الانجليز بالذعر .. وتكتب الجالية البريطانية إلى رئيس وزراء بريطانيا تحذره من الموقف فى مصر إذا مات سعد زغلول فى سيشيل ..

وإذا باللورد اللنبى يبلغ صفية زغلول فى يوم ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٢ أنه بناء على أمر الحكومة البريطانية نقل سعد من جزيرة سيشيل يوم ١٦ أغسطس ، إلى جبل طارق ، حيث أعد له منزل وخادمة وطاهية ، وأن لها الحرية فى اللحاق بزوجها إذا شاءت ..

ورأت صفية أن تسافر إلى جبل طارق لتشرف بنفسها على حالته الصحية ، وطلبت من رتيبة أن تلازم البيت مع ولديها ..

وسافرت صفية إلى جبل طارق وخرج الشعب المصرى يودعها عند سفرها وداعا رائعا لم تشهد مثله امرأة فى العالم ، لم يبق فى القاهرة طفل ولا رجل ولا شيخ ولا امرأة إلا وخرج إلى الشارع ليحيى أم المصريين التى ستسافر لتشارك زوجها فى منفاه . خرج سكان القرى على الخط الحديدى من القاهرة إلى بور سعيد : النساء يزغردن لها والرجال يزفونها بالطبول والمزامير . القطار نفسه كان مغطى بالأجساد البشرية التى تسلقت فوق ظهره ترفع الأعلام . كان الناس يلقون بأنفسهم أمام القطار ليوقفوه ويحملوا صفية رسائلهم إلى سعد . الفرسان خرجوا بخيولهم والفلاحون فوق جمالهم يسيرون بجوار القطار . والقطار يتمهل ويتحول إلى سلحفاة حتى يتفادى أن يصدم هذه الألوف المؤلفة التى احتشدت فوق القضبان . كان البعض يحيى فى هذه المرأة قيادتها للثورة فى غياب زوجها . والبعض الآخر جاء يحملها رسائل الحب إلى الزعيم الغائب . والجميع يعتبرونها أم المصريين .. أمهم جميعا ذاهبة لتعنى بأبيهم جميعا . وكان بعض الفلاحين يستحلفونها أن تعنى به ، وأن تسهر على راحته ، وأن تعود به سالما . ولم ير الولدان صفية سعيدة فى حياتها كما كانت سعيدة فى تلك الساعات . كانت سعيدة لأن الحب الذى رأته فى ذلك اليوم لم يسبق أن رأته فى حياتها . الملايين تريد أن تقبل اليد التى ستلمس سعد . أو تضع أيديها على ثوبها الأسود للتبرك به . نساء يزغردن ورجال يبكون . بعضهم يتحسر لفراق المرأة التى كانت تعطى للثورة جمالا ورومانسيا ، وبعضهم سعيد لأنها ستلقى زوجها بعد غياب طويل عانت فيه من الفراق والحرمان . وكلهم يريد بهذا الموكب أن يكون ردا على الانجليز وخصوم الثورة الذين توهموا أنهم قضوا على الثورة بالبطش والارهاب ، والضغط والجبروت ..

وكانت صفية تقول لهذه الجماهير من نافذة القطار :

— فى يدكم وحدكم أن تجعلوا سعدا يعيش ويعود ! إذا استمرت الثورة فسوف يعيش ويعود .. وذا ماتت الثورة فسوف يموت فى منفاه ولن يعود !

وكانت هذه الجملة البسيطة تشبه البترول يلقى على النار ، كأنها كانت تفرش الطريق بالبترول من القاهرة إلى بورسعيد !

وما كادت الباخرة تتحرك من بور سعيد تحمل صفية إلى جبل طارق حتى تحركت الثورة من جديد . اضطرابات فى كل مدرسة ومصنع ، مظاهرات فى المدن والقرى ، معارك عنيفة بين الشعب والسلطة ..

وضاعفت السلطة من بطشها وطغيانها . كل يوم أحكام بالاعدام والسجن المؤبد . كل يوم ينفى عدد من أعضاء الوفد وزعماء الثورة إلى المعسكرات البريطانية فى الصحراء كل يوم مئات من الموظفين يشردون من وظائفهم ويفصلون من أعمالهم ، كل يوم يزج بأبرياء فى السجون ويعاملون معاملة المجرمين ..

وفى جبل طارق عرف سعد كثيرا من أسرار الثورة ..

وفى جبل طارق عرفت صفية سرا كان خافيا عليها وهو أن الانجليز عرضوا عرش مصر على سعد وهو فى منفاه فى عدن ، وقد رفض العرش باحتقار ..

وفى جبل طارق عرض الجهاز السرى فى القاهرة بواسطة الأستاذ محمد الأنصارى سكرتير سعد ، خطة لخطفه من منفاه ، وتهريبه إلى مكان أمين فى أوروبا ، وكانت خطة محكمة ، ومرسومة بدقة ، ولكن سعدا رفض أن يهرب من المنفى ، وكان رأيه أنه أقوى وهو فى منفاه ، منه وهو مطارد فى أوروبا ..

وفى جبل طارق بدأت الاتصالات السرية بين سعد زغلول والاشتراكيين الانجليز برياسة رامزى ماكدونالد ، واستطاع سعد وهو فى المنفى أن يشترى عددا كبيرا من أسهم جريدة الديلى هيرالد لسان حزب العمال البريطانى ..

وكانت هذه أول مرة فى تاريخ مصر استطاع فيها مصريون أن يشتروا أسهما فى جريدة بريطانية كبيرة ، ومن خلالها يحاربون سياسة بريطانيا فى مصر .

وفى جبل طارق حدثت واقعة تاريخية خطيرة ، لم تكشف عنها بعد كتب التاريخ الحديث ..

فقد روى سعد لأسرته أن الزعيم الشيوعى لينين أرسل له فى منفاه فى جبل طارق اثنين من الزعماء الشيوعيين ، تنكرا فى زى باعة متجولين ، ودخلا القلعة البريطانية التى كان معتقلا بها ..

وأبلغاه بأن لينين يعرض عليه الانضمام إلى الحركة الشيوعية وفى مقابل ذلك تؤيد الشيوعية العالمية مصر فى حركتها ضد الانجليز بالمال

والسلاح والدعاية ، ورفض سعد هذا العرض ، وقال إن الشعب المصرى مؤمن متدين ، ولا يمكن أن يشترى حريته ويفقد إيمانه ، وأنه لا يؤمن شخصيا بدكتاتورية البروليتاريا بل يؤمن بالديمقراطية ، ويرى أن الحرية معناها حرية كل فرد فى الشعب لا حرية طبقة واحدة فيه . وأنه يرحب بالتأييد الشيوعي بغير قيد ولا شرط . ولم يكن سعد وقتئذ قرأ كتب لينين ولم يقرأها إلا بعد ذلك بسنوات . فى كتب أعطاه أياها أحمد لطفى السيد .

* * *

جن جنون السلطة البريطانية للمظاهرة التى أقامها الشعب وداعا لصفية زغلول عند سفرها إلى جبل طارق . أحست أن كل ما اتخذته من طغيان وجبروت واستبداد لم يؤدب هذا الشعب ، ولم يصرفه عن المطالبة بالاستقلال التام ، ولم يزعزع ثقته بزعمائه المنفيين والذين أودعوا السجون والمعتقلات . فمضت السلطة تضاعف من تنكيلها بالأبرياء . وتتفنن فى تعذيب الثوار ، وتمعن فى البطش والاستبداد . لم تشهد مصر عنفا وطغيانا كالذى شهدته فى أيام الثورةكانت جرائم دنشواى البشعة ، تبدو عملا إنسانيا إذا قورنت بما تعرض له الشعب فى تلك الأيام ..

كانت الثورة ترفع كلمة مأثورة لسعدهى : « الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة » . ورأى الولدان كيف عبثت السلطة بهذا الشعار ، فالقوة الغاشمة هى التى تدوس على الحق الأعزل بحذائها والحكومة المستبدة هى التى تنقض على الأمة الراغبة فى الحرية تكتم أنفاسها ، ولكن الألم هو الذى يصنع الأمم . الجراح التى تصاب بها الشعوب فى نضالها هى أوسمة على صدرها . وكلما اشتد التنكيل بشعب تضاعفت مقاومته ، وازداد صموده . وكانت كل قرية ومدينة فى مصر قد أصيبت بجرح فى الثورة . إن الفظائع التى ارتكبها الانجليز فى « العزيزية » و « البدرشين » ونزلة الشوبك لم تخمد ثورة الفلاحين فيها ، بل على العكس زادت ثورتهم اشتعالا إنهم لا يستطيعون أن ينسوا ما فعله الجيش البريطانى بهم عندما أمرهم بأن يحفروا حفرة كبيرة ، ووضعهم فيها إلى نصف قامتهم وراح الجنود الانجليز يخزونهم بسنان السونكى حتى الموت . إنهم لا ينسون كيف سبيت النساء أمام أعينهم . كيف أرادوا الاعتداء على عرض امرأة فرفعت طفلها الصغير بين ذراعيها استرحاما ، فأردوه قتيلا بطلقة مسدس ، ثم اعتدوا عليها وجثة طفلها إلى جانبها غارقة فى بركة من الدم ..

إن سكان أبى المطامير لا ينسون كيف جاءت الطيارات البريطانية ودمرت بيوتهم بالقنابل المحرقة ، وقتلوا عشرين منهم لأنهم قاموابمظاهرة تنادى بالاستقلال ..

إن سكان المنزلة لا ينسون كيف حاصر الجيش البريطانى إحدى القرى ، وأمروا بإخراج الرجال من القرية ، وحاولوا اغتصاب النساء فيها فهب رجال المنزلة مدافعين عن شرف زوجاتهم وأمهاتهم وأخواتهم وبناتهم ، وقتل منهم فى هذه المعركة ٤٦ شهيدا ، وجرح منهم مئات ، ونهبت القرية !

إن سكان ضاحية المطرية بمدينة القاهرة يذكرون كيف دخل أحد الضباط الانجليز ومعه كريمة المستر الكسندر بيرد ، وكان العمدة جالسا أمام داره ، فأمره الضابط الانجليزى أن يقف لتحية مس بيرد .. ورفض العمدة الوقوف ، فأمر الضابط بحصار المطرية وتولى الجيش البريطانى نهبها ، وسبى النساء فيها ، وجلد رجالها !

إن سكان مدينة قنا لا ينسون ما حدث للدكتور محمد والى الذى أصبح فيما بعد أستاذ علم الحيوان فى كلية الطب ، وعضوا فى المجمع اللغوى ، كان جالسا على قهوة فى أكبر شارع فى المدينة ، عندما مر ملازم فى الجيش البريطانى ، ولم يهب الدكتور والى لتحيته ، فأمر الضابط بجلده علنا ، مع أن شقيقه جعفر والى باشا كان وقتئذ وكيلا لوزارة الداخلية ..

إن سكان كفر الشيخ لا ينسون أبدا كيف كان الانجليز يرغمون العمد على أن يقدموا لهم كل يوم ثلاثين رجلا ليجلدوهم فى الطريق العام !

كل قرية فى مصر فيها جرح لا يلتئم كل شارع فيه شهيد . كل بيت فيه مصاب ، الذى لم يقتل سجن ، والذى لم يسجن جلد ، والذى لم يجلد فصل من وظيفته ، والذى لم يفصل شرد من عمله ، ولم ينكب الثوار فقط ، بل أن النكبة شملت الثوار وخصوم الثورة ، فقد حدث أن وقف بعض الأرمن ضد الثورة ، وهاج الشعب عليهم ، وخشيت الجالية الأرمنية على حياة نسائها وبناتها ، فلجأن إلى المعسكر البريطانى فى هليوبوليس ، وإذا بالجنود الانجليز يعتدون على أعراض جميع النساء الأرمنيات اللائى لجأن إلى حمايتهن . وكانت فضيحة ! ووقعت معارك بين الرجال الأرمن والجنود البريطانيين واضطر الأرمن إلى مغادرة المعسكر والاعتصام بكنيسة الأرمن فى هليوبوليس !

صحيح أن بعض الأعيان من المصريين لم يتحمل هذه الحرب التى لا هوادة فيها ولا رحمة . لم تحتمل أعصابه المعارك التى لا تتوقف ، وسيل الضحايا الذى لا ينقطع ، رأى أن القوة تنتصر على الحق ، والحكومة يشتد بطشها بالأمة يوما بعد يوم . ورأى أن الطوب لا يمكن أن يتغلب على المدافع ، فآثر السلامة بالاستسلام ، ولكن هؤلاء كانوا أقلية مسحوقة ، لم تلبث أن داستهم الثورة فى انطلاقها ، ولم يفاجأ سعد بتخاذلهم ، فقد رأى صور هذا التخاذل من قبل فى أول الثورة عندما أرسل نداء الى الأمة من باريس يطلب

اليها أن تستمر فى الثورة ، وإذا به يفاجأ بأن اللجنة المركزية للوفد فى القاهرةتعدل بعض كلماته الثائرة ، وتحذف أو تخفف من لهجتها العنيفة !

كان سعد يقول فى بيانه للمواطنين : « صممتم على أن تستقلوا أو يكون الموت خيرا لكم » فحذفتها اللجنة واستبدلت بها جملة : « غير عابئين بالشدائد التى تنزل بكم » !

ومحت لجنة الوفد من البيان كلمة « ثورة » وضعت بدلا منها كلمة « نهضة » !

ويثور سعد فى باريس على هؤلاء الضعفاء المتخاذلين ، ولكنه يعرف بعد ذلك أنهم لا يمثلون أغلبية الشعب المصممة على الموت والبذل والفداء ..

وهكذا تمضى الثورة عنيفة كما أرادها الشعب ، تسترخص التضحيات ، وتستعذب الموت ، وتستهين بالأخطار ..

وذات مساء كان الولدان نائمين فى فراشهما بالدور العلوى فى بيت الأمة ..

وفجأة رأى الولدان غرفة نومهما الواسعة قد امتلأت بالجنود والضباط .

وتصورا أنهما يحلمان ، ولكن يدا قاسية جذبتهما من الفراش .

وأقبلت سيدة انجليزية وفتشت أمهما ، ثم فتشتهما ، وبعدها بدأ تفتيش دقيق فى كل غرفة من غرف البيت ..

وتصور الولدان أنه تفتيش كالذى تعودا عليه عشرات المرات قبل ذلك ..

وإذا بضابط إنجليزى يتكلم العربية بلكنة إنجليزية يأمر الولدين وأمهما بمغادرةبيت الأمة كما هم ..

واعترضت أمهما وطلبت منحها وقتا حتى تخلع ملابس النوم وترتدى ثوبها .. وأن يحذو الولدان حذوها وكلاهما بجلابية النوم ويرتديان ثياب الخروج ..

ولكن الضابط البريطانى أصر على أن يخرج الثلاثة من البيت كما هم ، لأن التعليمات أن يتركوا كل شىء دون أن يمس !

وبعد مناقشة طويلة قبل الضابط الانجليزى أن تضع أمهما معطفا فوق قميص النوم !

وخرجت الأم إلى الشارع وولداها يتعلقان بها ..

ورأيا الضباط الانجليز وهم يغلقون البيت ويختمونه بالشمع الأحمر ..

وكانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل ، وكان الجو باردا ، والرياح تعبث بالجلابية البيضاء ، وتصفع الطفلين ، فيرتعشان ، فى زمهرير الشتاء ..

وكانت الأم حائرة لا تعرف ماذا تفعل وإلى أين تذهب فى هذه الساعة المتأخرة من الليل . كان والد الطفلين فى دمياط ، وكان شقيقها سعيد زغلول فى أسيوط ..

إنها المرة الأولى فى حياتها التى تمشى وحدها فى شارع فى القاهرة ! إنه لم يسبق لها أن ذهبت إلى فندق .. وكيف تسير فى الشارع بعد انتصاف الليل وتدخل فندقا وهى بقميص النوم ؟ وكيف يقبلها الفندق وليس معها أمتعة ، فإن الضابط الانجليزى لم يسمح لها بأن تحمل حقيبة يدها وكيس نقودها ! وكان الولدان قد مدا أيديهما إلى لعبهما وكتبهما المدرسية وحقيبتى الكتب . ولكن يد الضابط الانجليزى القاسية كانت أسبق ونزعت من الولدين اللعب والكتب والحقيبتين . كان الضابط يمسك مسدسه فى يده .. ولكن الولدين فى فزعهما رأيا المسدس فى عينيه وهو ينظر شزرا ، كما رأياه فى شفتيه وهو يتكلم بعنف ..

وفى أول الأمر حزن الولدان على كرة القدم وعلى مضارب التنس ، أكثر مما حزنا على طردهما من البيت ، ولكن عندما وجدا نفسيهما فى الشارع ، ورأيا نظرة الحسرة والجزع فى عينى أمهما نسيا اللعب ، وشعر الثلاثة أنهم يواجهون مصيرا مجهولا . أنهم طردوا من بيتهم وأصبحوا مشردين فى الشارع بغير مأوى . الشارع مظلم مخيف . كل الشوارع حول البيت مطفأة الأنوار . فقد حطمت المظاهرات كل مصابيح الشوارع . وانصرفت السيارات التى حملت الجنود والضباط الذين هاجموا البيت . وعاد الهدوء إلى الشارع ، هدوء موحش رهيب مخيف . ولم يعد ثم صوت إلا أصوات الجنود المكلفين بحراسة الدار ..

مشى الثلاثة يتعثرون . الريح تصفعهم ، الظلام يطعنهم ، الصمت يخيفهم ، الليل حبيب العشاق وعدو البؤساء . الظلام جنة المحبين وجهنم المشردين . لم يعرف الولدان من قبل قيمة السقف الذى يأوى الناس تحته ، إلا عندما هطلت الأمطار عليهما ، ولم يجدا سقفا يحميهما مع أمهما ، لم يعرفا قيمة الجدران إلا عندما أخذت الريح بتلابيبهما ولم يجدا من يقيهما منها . كانا ينعسان ، يرغبان فى النوم ، ولكن الخوف ترك عيونهما مفتوحة . إننا عندما نشعر بالأمان نغمض عيوننا ، وعندما نحس بالخوف يتضاعف عدد العيون فى رؤوسنا .

وخطر ببال الأم أن تجلس على رصيف الشارع ، فهم يمشون على غير هدى ، لا يعرفون إلى أن يذهبون ، الصدمة عطلت تفكيرها ، جعلتها عاجزة عن أن تفكر فى مكان تذهب إليه ، نسيت الطريق إلى كل بيت تعرفه . وإذا ذكرت بيتا عجزت عن الاهتداء إليه فى الظلام الكئيب المخيف ..

وجلست الأم على الرصيف المجاور لبيت سعد على شارع الفلكى ، وأجلست حولها ولديها ، وأرادت أن تخلع معطفها لتغطيهما به ، ثم تذكرت أنها

ترتدى قميص نومها تحت المعطف ، فاكتفت بأن احتضنت الولدين وغطتهما بطرفه . وطلبت منهما أن يحاولا النوم ، أن الشمس تتأخر فى الشتاء عن الشروق .. وحاولت أن تشجعهما على احتمال البرد القارس وقالت لهما إن هناك مئات من الأولاد لا يجدون مكانا يأوون إليه .

وجاء جندى إنجليزى ، وفى يده بندقية ، وفى طرفها السونكى ، ودفعها بكعب البندقية وطلب إليها الابتعاد لأنه ممنوع الجلوس فى هذا المكان !

ولم تنفجر الأم فى الجندى الوقح كما توقع الولدان ، بل ظهر فى عينيها الذعر والفزع ، ولعلها تذكرت ما فعله الانجليز بالنساء فى العزيزية والبدرشين ، وانتفضت الأم من مكانها ، وجذبت الولدين بيديها ، وانطلق الثلاثة يتعثرون فى الظلام ، إلى أن وجدوا بيت فتح الله بركات باشا ابن خالة امهما .

وراحوا يطرقون الباب ، وما من مجيب .

وتناوبوا الطرق على الباب . ظلوا ساعة كاملة يطرقون الباب بلا جواب .

وشعروا باليأس وهموا بالانصراف ، ثم سمعوا خطوات بطيئة متثاقلة تقترب من مدخل البيت ، ثم ظهرت خادمة عجوز تحاول أن تفتح عينيها بأصابعها !

لا أحد فى البيت . فتح الله بركات باشا منفى فى جزيرة سيشيل . زوجته فى منية المرشد . أولاده بهى الدين بركات وأخوته خارج القاهرة .

كل هذا والخادمة لم تفتح عينيها بعد ، وتعرف أن التى أمامها هى رتيبة .. كانت لا تزال تحاول أن تفتح عينيها بأصابعها ..

وفجأة ضربت الخادمة يدها على صدرها وقالت :

— ست رتيبة هانم ؟ .. لقد ظننت أنكم متسولون ؟ !

وأسرعت تفتح الباب الموارب على مصراعيه . كانت طوال الحديث قبل ذلك حريصة على أن تبقى الباب مواربا ، وتطل من فتحة صغيرة فيه وتسمح لأصابعها التى تحاول أن تفتح بها عينيها !

وقالت لها رتيبة وهى تبتسم : فعلا .. نحن شحاذون ! لا نجد مأوى لنا نبيت فيه ! لقد طردونا من بيت الأمة وأغلقوا الباب ..

وأسرعت الخادمة فأضاءت الأنوار وفتحت أبواب الغرف ..

وحملت إليهم الخادمة الأغطية والبطاطين والطعام ..

ولكنهم لم يشعروا بحاجة إلى الطعام . إنهم طلبوا كل ما فى البيت من أغطية وبطاطين ..

فقد كانت حاجتهم إلى الدفء .. والأمان .. أكثر .. من حاجتهم إلى الطعام !

* * *

• الفصل السادس عشر •

إن قصة غرام التوأمين الصغيرين بالصحافة بدأت في بيت الأمة . الجو المثير حولهما هو الجو الملائم لولادة الصحف . الصحافة هي أخبار وفكر . هي ثورة وحركة . هي شيء جديد كل يوم . هي دول تقوم ودول تسقط . هي معارك وحروب هي تاريخ يكتب صباح كل يوم . هي قصص الانتصارات ومآسي الهزائم . هي ناس يصنعون الأحداث ، وأحداث تصنع الناس . هي مزيج من وظيفة المؤرخ ووظيفة النبي !

وهل يوجد خير من مركز قيادة ثورة ليكون المكان الذي يولد فيه الصحفي . يعيش مولدها . ويعرف أبطالها . يشهد معاركها ويحيا صراعها . يرقص في أفراحها ويبكي في مآتمها . الصحفي الذي يتفرج على الثورة لا يستطيع أن يتغلغل الى أسرارها وخباياها ، أما الصحفي الذي يشارك فيها فهو وحده الذي يستطيع أن يعرف الفرق بين طعم الحبر الذي تكتب به قصتها ، والدم الذي تسطر به حقيقتها .

وقد شب التوأمان الصغيران لا يسمعان إلا حديث الصحف . ما قالته الصحف اليوم وما ستقوله غدا . ما نشرته وما منعت الرقابة الانجليزية نشره . ما قاله الصحفيون تأييدا للثورة فظهر مكانه مساحة بيضاء في الجريدة ، وما كتبه خصوم الثورة فنشر كاملا بالعناوين الكبيرة . كل كلمة في الصحيفة عن الثورة تعني شيئا ! لا يمكن أن يفوت الناس ما بين السطور فيقرأوه ، وما بين الكلمات فيلهموه . يحاولون أن يستنطقوا المساحات البيضاء لتتكلم وتحكي الأسرار والأخبار الممنوعة . كتاب الثورة أشبه بالفرسان . صحفهم هي جيادهم . أقلامهم هي حرابهم ومدافعهم . مغامراتهم مع سلطة الاحتلال ومع الحكم الظالم أشبه بالحلقات الشائقة في مسلسلة سينمائية . لهم بطولات وغزوات . كلماتهم تدوى كالقنابل . مقالاتهم بتارة كالسيوف عباراتهم يرددها الناس ويحملونها كأنها مشاعل في الظلام .

وفي سنة ١٩٢٢ أصدر التوأمان مجلتهما الأولى . أطلقوا عليها اسم مجلة الحقوق . ولم يقع اختيارهما على هذا الاسم اشارة الى حقوق الشعب التي قامت الثورة لاستردادها . ولا للدفاع عن حقوقهما التي كانا يتصوران أن أسرتهما اغتصبتها عندما منعتهما من الذهاب الى المدرسة بالعربة الحانطور ، ولا لرفضها أن تزيد مصروفهما أكثر من قرش في الاسبوع ، ولا لاصرار

أمهما على أن يشرب كل واحد منهما كوبا من اللبن قبل أن يمد يده الى الطعام الشهى على مائدة الافطار . ولكنهما اختارا هذا الاسم لأن خطهما كان رديئا ' ووجدا عند والدهما مجموعة من مجلة قديمة اسمها مجلة الحقوق . وكان اسم « الحقوق » مكتوبا بخط بديع ، فنزعاه عن المجلة وألصقاه على ورقة الكراس التى تتكون منها المجلة !

وكانت المجلة كلها مكتوبة بالقلم الرصاص . صفحة بخط على وصفحة أخرى بخط مصطفى . وكانت المجلة تحوى أخبار البيت ! ولكن أخبار البيت كانت أخبار مصر كلها !

ان الانجليز نفوا جدهما ! وجدهما هو زعيم الثورة . ان مصابهما العائلى أصبح مصاب الأمة كلها . انه الحدث الذى أدى الى انفجار الثورة . الى آلاف القتلى والجرحى . إلى قيام معارك دامية فى كل شارع وكل قرية . الى قطع السكك الحديدية . الى تعليق الشهداء فى المشانق . إلى ملء السجون بعشرات الآلاف من الوطنيين ! هذا الخبر الذى نشره التوأمان فى مجلتهما « الحقوق » بالقلم الرصاص منعت كل صحف مصر من نشره .. ان مجلتهما ذات النسخة الواحدة سبقت صحف مصر بالنبأ الخطير !

والخبر الصغير الذى نشراه عن نفى ابنى خالة أمهما الى سيشيل . هو خبر هز مصر كلها . لأنه تصادف أن ابنى خالة أمهما هما فتح الله بركات وعاطف بركات عضوا الوفد ومن زعماء الثورة .

والخبر البسيط عن مصادرة السلطة البريطانية لأموال والدهما ، لم يكن خبرا له أهمية عائلية فقط ، فإن اسم والدهما كان من بين أسماء رجال الوفد الذين قررت السلطة البريطانية مصادرة أموالهم وأملاكهم ..

والخبر الذى نشراه عن طردهما من بيتهما ، لم يكن خبرا شخصيا ، فقد تصادف أن كان بيتهما هذا هو بيت الأمة مركز قيادة ثورة ١٩١٩ .

وهكذا أصبحت أخبارهما الشخصية هى أخبار الوطن ، ومآسيهما الخاصة هى مآسى شعب بأكمله ، فلم تكن مجلتهما الأولى مجلة أسرة وإنما جريدة أمة . ولم تكن أخبار ولدين صغيرين وإنما أنباء شعب كبير . فقد امتزجت واختلطت واندمجت حياتهما بحياة هذا الشعب فى محنة ومأساة .

وحدث مرة أن تقرر أن يلقى سعد زغلول خطابا سياسيا فى نادى سيروس .

وطلب التوأمان الصغيران من جدهما أن يسمح لهما بحضور هذا الاجتماع فوافق . وتصادف فى هذا اليوم بالذات أن أعلن تأليف حزب الأحرار الدستوريين . وتوقع الذين حضروا هذا الاجتماع أن يكون خطاب سعد عن هذا الحزب الذى تألف خصيصا لمحاربة سعد زغلول .

وأعد لسعد منبر للخطابة يصعد إليه على سلم مؤلف من عشر درجات .
ووقف سعد وخطب ثلاث ساعات كاملات ، وهاجم الانجليز والاحتلال ، وانتهى من خطابه دون أن يذكر حزب الأحرار الدستوريين بكلمة واحدة . وذهل الشعب أن يغفل الزعيم الحزب الجديد . ثم هبط من السلم درجة ، ثم درجة ثانية ، ثم درجة ثالثة ، ثم درجة رابعة ، ثم درجة خامسة ، ثم درجة سادسة . وفجأة أشار بيده الى الشعب الذى يدوى صوته بالهتاف والتصفيق أن يصمت .
وسكتت الجماهير .. وفجأة قال سعد ، وهو على الدرجة السادسة للسلم : نسيت أن أقول لكم أنه تألف حزب اسمه حزب الأحرار الدستوريين !
ثم مكث ساعتين كاملتين يهاجم الحزب الجديد .. وفهم الشعب من هذه الاشارة أن الزعيم أراد أن يقول للجماهير انه حزب تافه حتى إنه نسى أمره ، ولم يذكره إلا بعد أن انتهى من خطابه ، وأنه تعمد أن ينزل ست درجات من سلم المنبر ليقول للشعب انه أراد أن يهبط ليتحدث عن هذا الحزب إمعانا في احتقاره .. وجنت الجماهير بهذه الحركة التمثيلية وقالوا انه قتل بها الحزب الوليد !
وانتهز مصطفى إصدار العدد الجديد من مجلة الحقوق وكتب يصف ما سمعه في الحفلة وما قاله الناس ، وحمل هو وعلى عدد المجلة المكتوبة بالرصاص الى سعد .. وقرأ سعد الوصف وضحك وقال :
— أبدا .. أنا فعلا نسيت أن حزبا تألف اسمه حزب الأحرار الدستوريين !
وكان المقال مليئا بالأغلاط النحوية والأغلاط الاملائية واسم « كان » المنصوب ، وإسم « إن » المرفوع ، ومضى سعد يصلح الأخطاء كأنه يصحح مقالا سيقرؤه مئات الألوف لا مقالا لا يزيد توزيعه على نسخة واحدة بالقلم الرصاص ! ولم ينتقد سعد خط التوأمين لأن خطه كان أقبح من خطهما .. ولكنه انتقد قول مصطفى أن سعد لم يكن يخطب وإنما كان يغنى ! والواقع أنه كان أخطب رجل عربي في القرن العشرين . كان يخطب وكأنه يغنى ! وكان بعض الذين يسمعونه لا يتمالكون أنفسهم فيهتزون طربا وكأنهم يسمعون لحنا راقصا . وكان يحرك الجماهير وكأنه مايسترو يعزف لحنا موسيقيا . كان يتسلط على سامعيه وكأنه يسحرهم ، أو ينومهم تنويما مغناطيسيا لقد بلغ من تأثيره أنه كان قادرا على أن يبكيهم ويملأ عيونهم بالدموع ، ثم يجعلهم ينفجرون بالضحك في نفس الوقت فهو حاضر البديهة يأخذ من الجماهير ويعطيها ، يناجيها ويداعبها ، ويهز المقاعد من تحت الجالسين ، فيحول القاعدين الى ثائرين والهادئين الى متنمرين والمستسلمين الى منقضين مندفعين .

ولم يكن الميكروفون معروفا فى تلك الأيام ، ولم يكن صوت سعد صاخبا ، كان على العكس يبدأ ضعيفا وكأنه صوت رجل مريض لا يقوى على الوقوف على قدميه . ولكنه كان قادرا على أن يسمع هذا الهمس لعشرات الألوف ، فما يكاد يقف ويرفع يده حتى يصاب الألوف بالبكم ، فلا تسمع حركة ، ولا يزعجك صوت ، يتحول السامعون الى أشبه بالمصلين الخاشعين . يكاد كل منهم يكتم أنفاسه ليلتقط كل كلمة من فم الخطيب حتى السعال يحاولون حبسه داخل أفواههم حتى لا ترتفع نغمة نشاز فى اللحن الموسيقى الذى يسمعون . ثم يرتفع صوته تدريجا فيختفى فيه الرجل المريض ويظهر الخطيب الجبار يتوارى الحكيم المسن ويبدو البطل الشاب . كانت عباراته بليغة فيها سحر وروعة وبيان . وكان يقطعها بكلمات عامية أو بنوادر يترجم بها أحداث الساعة الى قصص ساخرة وأمثال سائرة مما يتردد بين أولاد البلد والفلاحين ، وكانت خطبه السياسية أشبه بمباراة للملاكمة . كأنه هو بطل العالم يصارع هواة الملاكمة فيبدأ ضرباته برقة ، وكأنه يحاورهم ، ثم يحاصرهم ، ثم ينقض عليهم بالضربة القاضية . وكان الشعب يشهد هذه الخطب كما يشهد المتفرجون مباراة فى الملاكمة يثيرهم ما فيها من مفاجآت ، ويبهرهم فن الملاكم المتمكن من فنه ويطربهم انتصاره الدائم فى كل معركة . وكان المرحوم عثمان الأعصر باشا عمدة المحلة من خصوم سعد الألداء ، وكان يقول انه يرفض أن يذهب الى أى مكان يخطب فيه سعد خشية أن يقتنع !

وكان خصومه يتهمونه بأنه ينوم سامعيه بالتنويم المغناطيسى ، بدليل أنهم لا يكادون يجلسون اليه حتى يفقدوا ارادتهم ، ويسيروا الى حيث يريدهم أن يسيروا ، ويحركهم كما يهوى ويشاء .

والواقع أن قوة سعد زغلول لم تكن فى كلماته فقط ، ولا فى إشاراته ، ولا فى طريقة خطابته إنما فى صوته فى نبرات هذا الصوت كانت تكمن قوة غريبة فى الاقناع ، كأن هذه النبرات تجرد السامع من مقاومته ، إذ كانت تتميز برنة صدق غريبة . إن الصوت فى بعض الأحيان يفضح الناس . إن كلمة واحدة يقولها شخصان مختلفان فتصدق أحدهما وتكذب الآخر . هناك صوت يدخل القلب وصوت يدخل الأذن . صوت يشجيك ولا يقنعك ، وصوت يطربك ويقنعك . مطرب يغنى للحب فتهتز رأسك ومطرب يغنى للحب فيهتز قلبك ، ويعيش اللحن فى أذنك وتحس كأنه يغنى لك وحدك ! ولكن لا يكفى أن تكون محطة الارسال قوية ، حتى تستقبل الخطبة جميع محطات الاستقبال . إن الخطيب العظيم يجب أن يكون مقتنعا ليقنع ، يجب أن يؤمن بما يقول لينتقل ايمانه الى الملايين . النبرات المؤمنة الصادقة وحدها هى محطات الارسال القوية ، أما النبرة غير المؤمنة الخادعة فإنها لا تلقى أذنا واعية !

ولكن سعد زغلول لم يعجبه أن مصطفى كتب فى مجلته الصغيرة ذات النسخة الواحدة انه كان لا يخطب وإنما كان يغنى . ولعله كان يحكم العصر الذى يعيش فيه يعتبر الخطابة أعظم كثيرا من الغناء ، ولم يعش العصر التالى عندما أصبح المطربون أقوى تأثيرا من أخطب الخطباء ، وأن الناس تحفظ أغانيهم الوطنية ولا تحفظ خطب الزعماء !

وشهدت صفية بعض أعداد مجلة الحقوق وأعجبت بها . لكن أمهما لم تعجب بالمجلة ، وطلبت من التوأمين أن يستغلا وقتها فى مراجعة دروسهما بدلا من اضاعته فى كتابة مجلات بالقلم الرصاص . وشكا الولدان الى صفية وسعد موقف أمهما العدائى من مشروعهما الصحفى الوطنى العظيم . وفوجئا بصفية تؤيد أمهما وتقول انه يكفى ما أصدراه من أعداد ، ويجب التفرغ لدروسهما !

وأحس التوأمان بخيبة أمل مريرة . لقد فقدت مجلتهما جميع القراء فى وقت واحد ! وبدأ التوأمان يفكران فى قراء جدد ! وهداهما تفكيرهما الى أن يستبدلا بقراء بيت الأمة زملاءهما من تلاميذ مدرسة المنيرة الابتدائية ..

كان قراؤهما فى بيت الأمة هم جدهما وستهما وأمهما وأباهما وخالهما ! خمسة قراء فقط .. ومع ذلك لا يشجعون هذا المجد الصحفى المكتوب بالقلم الرصاص ..

فإذا خسرا هؤلاء القراء الخمسة .. فإن لديهما ٣٠٠ تلميذ هم تلاميذ مدرسة المنيرة ! ولكن هذه المغامرة الجديدة تقتضى أن يتجها الى العمل السرى ! أن تنزل المجلة تحت الأرض بعد أن كانت تصدر فوق الأرض ، فالمفروض ألا تعرف أسرتهما أنهما خالفا الأمر الصادر بوقف المجلة والالتفاف الى دروسهما . وليس من المعقول أن يقرأ ثلثمائة تلميذ نسخة واحدة بالقلم الرصاص .

وتذكر التوأمان أنهما استفادا من مشاهدة طبع المنشورات فى بيت الأمة . ان مجلتهما هى منشور سرى . فلماذا لا يطبعانها على البالوظة كما يطبع الثوار المنشورات ؟

ان طريقة البالوظة كانت هى الطريقة المتبعة للطبع قبل انتشار ماكينات الاستنسل التى لم تكن معروفة فى تلك الأيام ..

ووجد التوأمان مطبعة بالوظة قديمة فى البدروم فسطا عليها ونقلاها الى السطح لتكون مطبعة المجلة .. ولم يجدوا ورقا أبيض ليسرقاه .. وكما يحدث لأصحاب الصحف فقد كانت المشكلة الأولى هى مشكلة الورق ! وفكرا فى أن يجمعا من كل تلميذ سن ريشة لم يستعمل ثمنا للنسخة الواحدة ، وجمعا

السنون وباعاها لمكتبة الوفد فى شارع الفلكى وأخذا بدلا منها ورقا أبيض وهكذا صدر العدد الأول من مجلتهما !

وكان عدد المطبوع من المجلة ٣٠ نسخة .. وعدد النسخ المبيعة ١٨ والمرجوع ١٢ نسخة !

وبدأت حالتهما المالية ترتبك ! لم يكف مصروفهما لتغطية الخسارة ، ولم يعد ممكنا صدور المجلة مرة كل اسبوع كما وعدا القراء ، فظهرت مرة كل شهر ، وأحيانا مرة كل شهرين عندما يضطران لشراء شوكلاتة من كانتين المدرسة فيضيع رأسمال المجلة !

ان البطون فى بعض الأحيان يعلو صوتها على صوت الأفكار ، وقد كان نداء الشوكلاتة ماركة « نسلة » يضعف مقاومة الصحفيين الصغيرين فتتهاوى إرادتهما أمام غلافها الأحمر المذهب ! وكانت شركة نسلة تتفنن فى جذب الصغار الى شوكلاتتها فتضع فى كل قطعة رسما له رقم ، وكانت تعلن بأن من يجمع جميع الأرقام ينال عشرة جنيهات . وكان الرقم النادر هو صورة « عش » للعصافير .

وأقنع الصغيران نفسيهما بأن أكلهما الشوكلاتة هو جزء من مغامراتهما الصحفية . فلعلهما يقعان على صورة العش فيكسبا الجنيهات العشرة وبذلك يضمنان رأسمال مستمرا لمجلتهما المفلسة !

ولكن العش لم يجىء قط ، واستمرت أزمتهما المالية الطاحنة ، واستمرت مجلتهما الصغيرة فى عدم انتظامها فى الصدور .

ولم يكن المال وحده أكبر مشاكلهما ، فقد كانت المشكلة الكبرى هى مشكلة « الأمن » كيف يستطيعان طبع المجلة فى غفلة من أمهما وأبيهما وكيف يستطيعان توزيعها على التلاميذ فى غفلة من قريبهما ناظر المدرسة ! وقد تعلما فى مركز قيادة الثورة كيف يكون العمل السرى كيف تطبع المنشورات فى غفلة من الرقباء وكيف يتم توزيعها فى غفلة من رجال البوليس . وكيف يمكن تخبئة آلة الطباعة من هول التفتيش .

وأمكنهما أن يطبقا كل ما تعلماه ! انهما عاشا فى بيت خارج على السلطة . وهما بهذا العمل يخرجان على سلطة أمهما . إن أسرتهما تتفنن فى الخروج على القانون ، وهما يتفننان فى الخروج على قانون الأسرة الذى يلزمهما بالطاعة العمياء . ولعل الأسرة لم يخطر ببالها أن المبادىء التى تنادى بها لمقاومة الانجليز سوف يرثها التوأمان ليقاوما بها إرادة الأسرة التى ترى أن اشتغال تلاميذ صغار بإصدار مجلات هو كلام فارغ ومضيعة للوقت وإهمال للدروس وسقوط مؤكد فى الامتحانات .

كانت أمهما تتابعهما باستمرار . عيناها تقتفيان أثرهما . تحاول أن تعرف دائما ماذا يفعلان . وكانت قدرتها العجيبة على كشف جرائمهما الصغيرة تثير ضيقتهما . وكانا يسميان أمهما « شارلوك هولمز » وهو بطل القصص البوليسية المتخصص في كشف الجرائم الغامضة ، وكانا يسميان أباهما « الدكتور واطسن » وهو مساعد شارلوك هولمز في هذه القصص ! وبالرغم من عبقرية شارلوك هولمز وكفاية الدكتور واطسن استطاع التوأمان الصغيران أن يضللا أمهما وأباهما مدة طويلة ، فيصعد على الى غرفة الغسيل في السطح ويتولى طبع مجلة الحقوق ، بينما يقف مصطفى على رأس سلم السطح يراقب الطريق ، فإذا سمع وقع أقدام أمهما صفر بفمه ، فيسرع على بإخفاء آلة الطباعة تحت أكوام الغسيل ، وتصعد أمهما فترى الولدين يلعبان عسكر وحرامية !

ونجت المجلة من كل عمليات الضبط والمصادرة . كان الولدان يتفننان في اخفاء آلة الطباعة فهما لا يخفيان في مكان واحد مرتين وقد برعا في اخفائها حتى بلغت بهما الجرأة انهما أخفياها ذات مرة تحت سرير صفية زغلول ، ولم يخطر ببال أحد أنه من الممكن أن يخفى الطفلان إناء البالوظة في هذا المكان المقدس !

ولكن ذات يوم وقعت كارثة لم يتوقعها التوأمان الحريصان ، فقد وقع أحد أعداد المجلة في يد ناظر المدرسة !

وأحس التوأمان أن القيامة قامت . انها نهاية العالم فعلا . ان أمهما ستفعل بهما ما يفعله الانجليز بالثوار . ستعلق لهما المشانق ستضعهما في السجن مكبلين بالسلاسل والأغلال ستحرمهما من المصروف . وحاولا عبثا اقناع ناظر المدرسة بأن يتولى تأديبهما ويخفي الخبر عن أمهما ولكن ناظر المدرسة أصر على أن يذهب ويقابل أمهما ويضع بين يديها جسم الجريمة !

وكانت المجلة مكتوبة هذه المرة بخط مصطفى ، وأراد مصطفى أن يتحمل المسئولية وحده ، ولكن على أبى إلا أن يشاركه في المسئولية ، ويتحمل نصيبه من العقاب ، وكان العقاب قاسيا لا يخطر لهما على بال ، فقد غلت الأم بيضة ساخنة ووضعتها في الكف اليمنى لكل منهما . ولسعت النار الكفين الصغيرتين وحرقتهما . وكان الألم مروعا . ودهش الولدان من هذا العقاب الوحشى ، من الأم الحنون التى كان قلبها كله يفيض بالرقة والحب والحنان ، ولكن الأم اعتذرت عن قسوتها بأنها أرادت أن تحرق الأيدى التى كتبت هذا الكلام الفارغ . انها أرادت بهذه الطريقة الغريبة أن تشفيهما من لعنة الصحافة !

ولم يستطع الكى بالنار أن ينتزع من أصابع الولدين المحترقة حب

الصحافة . ان عملية الحرق لم تقتل هوايتها بل حفرتها فيهما كالوشم ! بقيت أصابعهما طوال عمرها تأكلهما لتقبض على القلم وتكتب . يمكن للنار أن تزيل ما رسم على السطح ، أما ما تحت السطح فإنها لا تصل اليه ولا يمكن محو أثره . كان التعذيب مؤلما شعر كل واحد منهما بأنه يشم رائحة لحمة وهو يشوى ويتصاعد منه الدخان . بقيت الآلام المبرحة في كفيهما زمنا . ومع ذلك تأصلت هوايتهما للصحافة تحولت الهواية الى هوى ، وأصبح الحب غراما مبرحا . أحس الولدان أنهما أصبحا بطلين صغيرين . كانا قد قرأ قصة جان دارك التي أحرقوها لتتخلى عن عقيدتها ففضلت الموت مع الايمان ، على الحياة مع التنكر لمبادئها . شعر كل واحد منهما أنه أصبح « جان دارك » صغيرا ، وتولد فيهما عناد وصمود وإصرار على الاستمرار في هذا الهوى الذى أحرقا أيديهما من أجله . ولم يشعر التوأمان بحقد على أمهما من أجل هذه القسوة الغريبة . فهما يدركان تماما أنها تحبهما حبا يقرب من العبادة . وأنها فعلت ما فعلت لكى تشفيهما من مرض تعتقد أنه عضال !

كانت تتصور أنهما كلما هما بالكتابة في مجلة وتناولا القلم تذكرا ألم أصابعهما المحترقة فألقيا بالقلم ، كان شعورها الداخلى ضد اشتغالهما بالصحافة كانت تعتبرها مهنة ملعونة . مهنة الشقاء والعذاب مهنة السجن والاضطهاد كانت تعلم أن الصحفيين يعيشون حياتهم مشردين مطاردين . إما أن يموتوا من الجوع أو يموتوا في السجن . وكانت تريد أن تبعد ولديها عن هذا الشقاء لا تريد لهما هذا المصير . تفزع من هول هذه المهنة على أحب مخلوقين الى قلبها . ومن أجل هذا تقسو هذه القسوة العجيبة على الطفلين الصغيرين . متوهمة انها تنتزع بالنار هذه الهواية التى سيدفعان في المستقبل حياتهما وحريتهما وعمرهما وكل ما يملكان على مذبح هواها ! كان من الغريب أن تكره الأم هذه المهنة كل هذه الكراهية ، وتخاف منها كل هذا الخوف ، وقد كان خالها سعد صحفيا وكان أصدقاء زوجها من الصحفيين وكان والد زوجها صاحب مجلة « نور الاسلام » وكان الحديث دائما على مائدة خالها عن الصحفيين وكثيرا ما أحاطهم بهالة من البطولة فكيف عرفت الأم ما يكابده الصحفيون وهى لم تعرف الصحفيين ، ولم تختلط بهم . كيف تصورت أن مهنتهم هى مهنة الخطر ولم تواجه الصحافة يؤمئذ الأخطار التى واجهتها بعد ذلك . كان أقسى حكم على الصحفى يومئذ ستة شهور سجن ، لم يكن قد حكم بعد على صحفى بالسجن المؤبد ، ولا على كاتب بالاعدام . لم يكن الصحفى المصرى قد ذاق بعد عنف الطغاة ولا طعنات المستبدين لم تتعرض الصحف يوما لالقاء القنابل عليها ولا نسفت دورها بالديناميت . كيف تنبأت الأم بكل هذا . أيكون قلب الأم دليلها ؟ إن قلب الأم هو قلب نبى . ترى الخطر

على ولدها قبل سنوات من وقوعه . ولكن عنفها في مقاومة هذا الخطر هو الذى جعل التوأمين يقبلان عليه . ويتشبثان به . كل ما كانت تردده الأم عن مساوىء الصحافة كانت أدلة جديدة تثبت إيمانهما بهذه المهنة التى ملأت عليهما تفكيرهما وأحلامهما ..

لقد عاش الولدان في جو التمرد جو الثورة . جو الرفض . رأيا كبار الأسرة يتمردون على السلطة الانجليزية ، على السلطان ، على الدولة ، رأيا مثلهم يثورون على الأنظمة القائمة ، يرفضون الأوامر ، يتحدون التعليمات . رأيا كل من حولهما يرفضون الخضوع لتحذيرات قيادة الجيش البريطانى . يتحدون منشورات نائب الملك . يرحبون بالخطر . يستعذبون الموت . هذا الجو نفسه هو الذى جعلهما يتمردان على أوامر أمهما بترك الصحافة . يثوران عليها . يرفضانها ويتحديانها .

ولكن الفرق بين أمهما وقيادة الاحتلال أن الشعب كان يكره المحتلين ، وكانا يحبان أمهما ، ولهذا أراد أن يريحاها من عذابها وقلقها وآلامها فتظاهرا بأنهما شفيا من داء الصحافة الوبيل .

ولم تطمئن الى هذا التأكيد ، وتصورت ككل أم أن ولديها ضحية عصابة شقية من زملائهما في مدرسة المنيرة . وأن هؤلاء الأولاد الأشقياء غير المؤدبين الوقحين هم الذين يحرضون ولديها على إصدار المجلات . ورأت أن الحل أن تذهب بولديها من بيت فتح الله بركات باشا ، وتغادر الى دمياط ، حيث تدخل الولدين المدرسة الابتدائية هناك بعيدين عن جو مدرسة المنيرة الموبوءة بهواة الصحافة من التلاميذ !

وشعر الولدان بأن أمهما تنفيهما من القاهرة كما نفت السلطات الانجليزية جدهما الى مالطة وسيشيل وجبل طارق ، وصور لهما خيالهما الطفل أنها تضحية يقدمانها من أجل صاحبة الجلالة الصحافة !

وكانا في قرارة نفسيهما سعيدين بهذا النفى ! ففى هذا المنفى السحيق سليتقيان من جديد بجارتيهما الحبيبتين حسنية وسعاد ! اذا كان قد خسرا قراءاهما في مدرسة المنيرة فقد ربحا حبيبتيهما في دمياط ! سوف يطويان مشروع المجلة ، وينشران الحب ! سوف يختبئان في السطح من أمهما لا من أجل القيام بطبع المجلة ، بل من أجل استئناف حفلات الزفاف !

وما كادا يصلان الى دمياط ويدخلان مدرستهما ويجتمعان بالحبيبتين القديمتين حتى قررا أن يستأنفا المشروعين معا .. الحب والصحافة !

كانت ستهما أم أبيهما هى المخبأ السرى كانت تقيم في طابق وحدها في نفس البيت بدمياط . وكانت تعطيهما نقودا من وراء أمهما لشراء حلوى الهريسة واللذيذة والمشبك . وعندما علمت أن الحلوى الحقيقية بالنسبة إليهما هى

إصدار مجلة بالبالوظة ، قبلت أن تخفى عندها المطبعة وأن تتولى حراستهما فى أثناء طبع المجلة الممنوعة . وكانت فخورا بأن زوجها المرحوم الشيخ أمين يوسف كان يصدر مجلة نور الاسلام ، فماذا يمنع من أن يرث حفيداه هذه الهواية . كانت مجلة جدهما تخسر باستمرار ولكنه كان سعيدا لأن الشيخ محمد عبده يكتب فيها باستمرار . فماذا يمنع من أن تخسر مجلة التوأمين المطبوعة بالبالوظة ؟ ! وعندما علمت ستهما بأن أمهما كوت أيديهما حتى يكفا عن إصدار مجلة أخرى غضبت أشد الغضب ، وتحمست لأن تشترك معهما فى المؤامرة ، وتتستر عليهما حتى لا تحرق أمهما أيديهما مرة أخرى !

وعادت مجلة الحقوق الى الظهور بانتظام وراحا يوزعان المجلة على تلاميذ مدرسة دمياط الابتدائية ولم يكتفيا بمجلة واحدة ، فاستقل مصطفى بمجلة الحقوق . وأصدر على مجلة منافسة باسم « البيان » . وكان اختيار اسم البيان للسبب نفسه الذى اختارا من أجله اسم مجلة الحقوق ، فقد كان والدهما يحتفظ بمجموعات من مجلة البيان التى كان يصدرها الكاتب الشيخ عبدالرحمن البرقوقى ، وكان اسم البيان مكتوبا بالخط النسخ الجميل !

وكانت تقيم مع ستهما احسان ابنة عمتهما . وكانت تكبرهما ببضع سنوات وكانت أمهما تطلب من احسان أن تصحبهما للتنزه فى شارع البحر بدمياط . كان هذا الكورنيش الصغير على النيل هو المكان الوحيد الذى يتنزه فيه الناس فى تلك المدينة . وكانت احسان صديقة للأخت الكبرى لحسنية وسعاد . ومكنت هذه الصداقة للولدين من لقاء الحبيبتين الصغيرتين كل يوم عدة مرات . مرة فى السطح ومرة فى شارع البحر ومرات من نوافذ ستهما المطلة على بيت حسنية وسعاد ! وكانت هذه الأيام أسعد أيام التوأمين الصغيرين ، يصدران مجلتيهما ، ويقابلان حبيبتيهما فإذا رأت أمهما أنهما ارتكبا ذنبا يستحقان عليه العقاب أسرعا عدوا الى الطابق الذى تقيم فيه ستهما ، فحمتهما من كل ضرب أو عقاب !

وتقدم مهندس شاب اسمه عبدالعظيم طنطاوى وخطب احسان ابنة عمتهما ، وعقد قرانه عليها . وكانت التقاليد العجيبة يومها تمنع الزوج ان ينفرد بزوجته إلا بعد الزفاف . وكانت الفترة بين عقد القران والزفاف تتراوح بين عام وعامين ! واختارت الأسرة التوأمين الصغيرين ليحرسا ابنة عمتهما من زوجها ! فكانت لا تستقبله فى المنزل إلا فى وجودهما ، وكانت لا تخرج معه الى شارع البحر إلا بصحبتهما !

وكان عبدالعظيم شابا متفتحا ، أقام فى ألمانيا ، ونال منها بكالوريوس الهندسة فى الكهرباء . وكان عجيبا أن يتحمل شاب عاش فى أوروبا هذه التقاليد العتيقة ، ولكنه تحمل بصبر عجيب هذا الحصار. وكان عبدالعظيم

أول من حدث التوأمين عن أوروبا وما فيها ، عن ذلك العالم الغريب الذى يجهلان كل شيء عنه . وكان مفتونا بقائد ألمانى هو الماريشال هندنبرج ، حتى أنه كان يصر على أن يسمى ولده الأول « هندنبرج » . وعندما تمسكت الأسرة بأن يكون اسمه محمد بإسم والد التوأمين اكتفى الأب بأن يطلق على ولده اسم هندنبرج على سبيل التدليل !

وتأثر الولدان بما سمعاه عن أوروبا من عبدالعظيم . وبدأ نوع جديد من المقالات يدخل فى مجلتهما المملوءة بأخبار مصر ، فهناك مقالة عن الحياة فى أوروبا ، والتعليم فى ألمانيا ، والمرأة الأوروبية وكيف أنها تختار زوجها بنفسها ، وتخرج مع الرجل الى الشارع بدون حراس ! وحدثهما عبدالعظيم عن الصحف الألمانية ، وجاد عليهما ببعض المجلات الألمانية ، وفيها صور لممثلات ألمانيا .. ولأول مرة ظهرت مجلة البيان وعلى غلافها صورة امرأة مقصوصة من المجلات الألمانية .. ومع ان قراء « البيان » لا يتجاوزون التاسعة من عمرهم ، فإن الاقبال على هذا العدد كان أضعاف الإقبال على كل أعداد مجلات الحقوق والبيان !

النجاح الصحفى والحب السعيد والحياة فى حماية ستهما من عقاب أمهما ومطاردتها جعلهما يعيشان فى حلم . كان التوأمان يعيشان فى نشوة انتصار واستقرار وهناء لم يشعرا به فى يوم من الأيام كأن الدنيا بدأت تبتسم لهما بعد طول عبوسها وتجهمها . الوطن نفسه أصبح فى عيد ، بعد أن أفرج الانجليز عن سعد زغلول تحت ضغط الثوار وحوادث اغتيال الانجليز .. أفرج الانجليز عن الزعماء المنفيين وعادوا الى بلادهم . أفرجوا عن أعضاء الوفد المحكوم عليهم بالاعدام ، وكانوا معتقلين فى معسكر الماظة أفرجوا عن زعماء الوفديين المعتقلين فى معتقل المحاريق فى الصحراء . أفرجوا عن أعضاء الوفد المعتقلين فى قشلاق قصر النيل . ألوف من المعتقلين خرجوا من السجون والمعتقلات تلقى والد التوأمين خطابا من السلطة العسكرية تطلب منه الحضور لاستلام بيت الأمة الذى كان مغلقا بالضبة والمفتاح أفراح فى كل مكان . الثورة انتصرت على أعدائها . كان خصوم الثورة يؤكدون أنه لن يفرج عن مسجون واحد . كانت الصحف البريطانية الاستعمارية تؤكد أن سعد زغلول سيبقى الى آخر يوم فى حياته مسجونا فى قلعة جبل طارق . عاش التوأمان الصغيران فى ليل ليس له آخر . كانت الأنباء قبل ذلك تبعث على اليأس . مرت بمصر فى تلك الفترة أيام بدت فيها هادئة ساكنة كأنها رضيت بمصيرها واستسلمت لقضائها ، رضيت بالهوان الذى فرضه عليها الأقوياء .

وكان حسنى أفندى مدرس اللغة الانجليزية فى مدرسة دمياط يقول للتلاميذ :

— احفظوا الدرس الانجليزى يا أولاد ! يظهر أن الانجليز سيحكموننا الى الأبد ! سيكون القرآن باللغة الانجليزية !

ولعل حسنى أفندى كان يريد بهذه الطريقة الاستفزازية أن يحمس التلاميذ ويضاعف من حقدهم على أعدائهم . ولكن الولدين الصغيرين كانا يكرهان حسنى أفندى . كان يبدو فى عيونهما كغراب الشؤم يحمل إليهما نبأ الهزيمة . وكان الولدان يعودان الى أمهما باكيين منتحبين يشكوان ما يقوله حسنى أفندى !

وكانت أمهما تقول لهما : عودا وقولا له إن مصر سوف تنتصر وتهزم الانجليز .. ويعود الولدان ويكرران كلمات أمهما كالببغاوات ، ويسخر حسنى أفندى ويقول :

— خذوا فالكم من عيالكم ! .. فى المشمش إن شاء الله ! احفظوا دروس اللغة الانجليزية وإلا فستموتون من الجوع !

وخطر ببال الولدين أن الماريشال هندنبرج ، الذى حدثهما عنه عبدالعظيم طنطاوى قد يصنع المعجزة " قد يعلن الحرب على بريطانيا وتستقل مصر ! وحمل الولدان هذه الفكرة الى حسنى أفندى وقالا له انهما سمعا من أوثق المصادر أن الماريشال هندنبرج سيقود جيشا ألمانيا ويهزم الانجليز فى مصر !

وسخر حسنى أفندى من جهل الصبيين ، وقال ان الماريشال هندنبرج هزمه الانجليز من عامين وأن ألمانيا استسلمت لبريطانيا !

ولام الولدان زوج ابنة عمتهما لأنه جعلهما يضعان آمالهما فى قائد مهزوم !

وفى يوم آخر أذيعت أنباء انتصارات مصطفى كمال أتاتورك على جيوش الانجليز واليونانيين ، وتحمس الشعب لمصطفى كمال .. وتصور أنه بعد أن ينتهى من هزيمة الانجليز فى تركيا ، سيخف بجيوشه لنجدة مصر ويخرج الانجليز منها ، وبدأ الناس يعلقون صور مصطفى كمال على الجدران !

ولكن مصطفى كمال أتاتورك ما لبث أن خيب أمل المصريين ، وأعلن أن كل ما يهمه هو استقلال تركيا ! ونزع المصريون صور مصطفى كمال أتاتورك من الجدران ، وأدركوا أن على المصريين وحدهم أن يحرروا بلدهم !! واعتمد المصريون فعلا على أنفسهم ! أمنوا بأن ثورتهم العرجاء خير من حمار مصطفى كمال . وانقلب اليأس الى أمل . وخرج شبان مجهولون يقتلون كل انجليزى يلتقون به فى الطريق . قتلوا الجنود والضباط وكبار الموظفين . وأصيب الانجليز بهلع . لم يعد يستطيع جندى انجليزى أن يخرج من معسكره بعد غروب الشمس . أصبح الموظفون من الانجليز لا ينتقلون إلا فى حماية المدافع الرشاشة فشلت محاولات القبض على هؤلاء الشبان الفدائيين المجهولين .

فشلت كل محاولات الدولة لحماية أرواح الانجليز . وذهب توفيق نسيم رئيس الوزراء الى المندوب السامى لورد اللنبى وأبلغه أنه لا يضمن حياة الانجليز فى مصر اذا ظل سعد زغلول منفيا فى الخارج وزعماء الوفد فى المنافى والمعتقلات . وقال له :

— إذا أفرجتم عنهم استطعت أن أضمن لكم حياة أى بريطانى من الاعتداء أما إذا أصررتم على بقائهم فى السجون ، فإننى لا أضمن حياة أى فرد .. ولا حياة اللورد اللنبى نفسه !

سمع كبار الموظفين الانجليز بما قاله رئيس الوزراء المصرى للمندوب السامى البريطانى فانزعجوا . وإذا بزوجاتهم يقابلن اللورد اللنبى ويقلن له ان حياة أزواجهن فى خطر وأنهن عرفن أن المصريين مصممون على قتل كل انجليزى الى أن يتم الافراج عن سعد والمنفيين والمعتقلين . وتشجع الموظفون الانجليز وقدموا مذكرة بهذا الشأن الى وزير الخارجية البريطانية . وقام مستر رامزى ماكدونالد زعيم حزب العمال البريطانى بحركة فى البرلمان ، وقابل رئيس الوزراء وطالبه بالافراج عن سعد زغلول حفاظا على حياة الرعايا الانجليز فى مصر .

واضطرت الحكومة البريطانية أن تعدل عن تعسفها وسياستها الخرقاء وتوافق رغم أنفها على الافراج عن سعد زغلول وعن عدد كبير من المعتقلين .

ان شبانا مصريين هم الذين صنعوا هذه المعجزة بمسدساتهم بقنابلهم بفدائيتهم لم يعد المصريون فى حاجة الى الماريشال هندنبرج الألمانى ، ولا للغازى مصطفى كمال التركى ! ولم يعد حسنى أفندى مدرس اللغة الانجليزية يكرر على سمع التوأمين أنه سيجىء يوم يقرأ التلاميذ فيه القرآن باللغة الإنجليزية !

وعندما جاءت الأنباء الى دمياط تحمل بشرى الافراج عن سعد خرجت المدينة على بكرة أبيها ترقص فى الشوارع . قامت مظاهرة من مسجد البحر تضم تلاميذ المعهد الدينى ، وانضمت اليها كل فئات الشعب ، ولأول مرة فى تاريخ مدينة دمياط المحافظة خرجت النساء الى الشوارع واشتركن فى المظاهرة ! ولم تذهل ضخامة المظاهرة التوأمين وإنما الذى أذهلهما أنهما رأيا حسنى أفندى مدرس اللغة الانجليزية فى مقدمة المظاهرة ، وكان هو دون سواه الذى يقودها .. وكان يهتف هتافات ثورية حماسية .. وفى بعض الأحيان كانت تشتد به الحماسة فيهتف بسقوط الانجليز .. باللغة الانجليزية !

لم يتصور التوأمان أن يكون فى مقدور رجل واحد أن يهتف بحياة الانجليز وسقوطهم فى آن واحد أن يحمل علم الاحتلال وعلم الاستقلال فى يد واحدة ! أن يكون بقلبين وبلسانين وبمبدأين فى وقت واحد ! ولكن حسنى أفندى

كان يمثل مدرسة المنافقين ، وهى مدرسة تولد فى عصور الاستبداد . تلاميذها هم العبيد . وأساتذتها هم الطغاة ، وهى تنبت فى جو الخوف والارهاب تحاول أن ترقص على الحبلين ، وتأكل على المائدتين ، وتبكى فى كل مآتم وترقص فى كل فرح . تعبد القوة . فهى أشبه بعباد الشمس يتجه الى حيث تشرق الشمس ، تتجه الى القادم وتدير ظهرها الى المدبر . السوط هو إلهها لا يهمها من يمسك به فهى تنتقل معه من يد إلى يد . هى مع السلطان لأنها تخشاه . ومادام السلطان ممسكا بالسوط فإن الحق معه ! الحق هو ظل السوط . أما الحق الأعزل فهو مهيض الجناح يضر ولا ينفع يفقر ولا يغنى

ولهذا يرى المنافق أن مكانه الطبيعى فى معسكر الأقوياء . وكلما اشتد الطغيان ازداد عدد المنافقين . فهم تماثيل الظلم فى كل مكان . فإذا رأيت عدد المنافقين زادوا فى مدينة فاعلم أن الظلم زاد فيها

أما بلاد الأحرار فلا مكان فيها للمنافقين . فالخفافيش لا تعيش إلا فى الظلام ، وعندما يضاء النور تفقد القدرة على الابصار .

ومن حسن الحظ أن أمثال حسنى أفندى كانوا قلائل جدا فى تلك الأيام . ان الثورة الحقيقية تخرج من الناس أحسن ما فيهم . فالثورة المنتصرة أشبه بالعيد . نرتدى فيه أحسن ملابسنا . ومن هنا فإن ثورة ١٩١٩ لم تر إلا أحسن ما فينا . كثير من عيوبنا وأمراضنا ونقط ضعفنا زالت أو تضاءلت أو اختفت . ولو اننا هزمنا فى هذه الثورة لأطلت منا كل عيوبنا ، واختفت فضائلنا . ان الأمم كالنساء يضعن الطلاء على وجوههن فى الأعياد ، ويظهرن بوجوههن الملطخة فى المآتم ! أمثلة البطولة والفداء التى أظهرها الرجال والنساء فى هذه الثورة كنست أمامها الجبناء والمترددين . ضاعت همساتهم فى زئير أسودها . داستهم مواكب الثورة الهادرة . ان الجماهير ترقص عادة على النغمة العالية . وكلما كان صوت الشعب قويا تزايد عدد المنضمين الى معسكره . وتضاءل عدد المنفضين عن صفوفه . وكان حرص الثورة على الاجماع هو سبب قوتها ، وسبب انكشاف الذين خرجوا عليها . ومن أجل هذا كان الشعب كله فرحا بنجاح ثورته ، وبإطلاق سراح زعمائه ، وبأنه فرض إرادته على أقوى دولة فى العالم .

وكان التوأمان فرحين لأسباب عامة ولأسباب خاصة ! أما الأسباب العامة فهى انهما من أفراد هذا الشعب المنتصر . أما الأسباب الخاصة فلأن زعيم الأمة الذى أفرج عنه الانجليز هو جدهما ! وأن زعماء الوفد الذين أعيدوا من المنافى هم أقاربهما وأصدقاء أسرتهما . وبيت الأمة الذى سلمه الانجليز هو بيتهما !

وكانت هناك أسباب أخرى شخصية . ان أمهما أعلنت حدادا وطنيا على نفي سعد وزملائه ! إذا أراد التوأمان الذهاب الى السينما قالت أمهما كيف تذهبان الى السينما وزعيم الأمة مسجون ؟ إذا أرادا زيادة مصروفهما قالت أمهما كيف أزيد مصروفكما وأموال زعماء الأمة مصادرة ؟ إذا أرادا أن يشتريا ملابس جديدة قالت أمهما كيف ترتديان ملابس جديدة بينما صفوة رجال البلد يرتدون ثياب السجن ؟ إذا هفت نفساهما الى الشوكلاتة قالت لهما : ألا تشعران بالخجل من أكل الشوكلاتة وهناك ألوف في المعتقلات لا يجدون لقمة عيش ! وكان الولدان يسلمان أمرهما الى الله ويقنعان نفسيهما بأنه ما دام البلد في ثورة فلا يجوز أن يأكلا شوكلاتة أو يذهبا الى السينما أو يشتريا بذلة جديدة أو حذاء جديدا !

أما الآن .. وقد تم الافراج عن سعد وزملائه فقد عادت اليهما حرياتهما المسلوبة ، حرية الذهاب الى السينما ، وحرية شراء بذلة جديدة ، وحرية أكل الشوكلاتة ، وحرية المطالبة بزيادة المصروف ! وأسرع الولدان الى أمهما يطالبانها بالوفاء بوعدها فتفرج عن الحريات الأربع التي سلبت منهما بسبب الثورة ! ووعدتهما أمهما بإجابة كل طلباتهما .. وإن كانت قد أجلت شراء الملابس الجديدة الى يوم عودة سعد من أوروبا ، حتى يقابلاه وقد ارتديا ملابس جديدة !

وطار الولدان من الفرح وانتظرا وصول الزعيم بفارغ الصبر !

وكان سعد زغلول قد سافر الى إحدى مدن المياه المعدنية في فرنسا للاستشفاء قبل أن يعود الى مصر . وأرسل سعد يستدعي ابن اخته سعيد زغلول الى فرنسا ليقف منه على صورة كاملة للموقف في البلاد قبل عودته اليها . وذات يوم كان الولدان جالسين مع أمهما في بيتهما بدمياط وفجأة دخلت ابنة أخت طاهر اللوزي بك جاءت على غير موعد ، وبعد مقدمة طويلة قالت لرتيبة انه وصل نبأ من فرنسا بأن شقيقها سعيد زغلول مريض وصرخت رتيبة وقالت : كلا ! انه مات !

وذهلت السيدة وقالت لها : أبدا .. انه مريض ..

وبدأت رتيبة تصرخ وتولول وتقول ان قلبي يحدثني بأنه مات ! أخي الوحيد مات ! مات دون أن أراه .

وأقبلت السيدات اللاتي اجتمعن في بيت طاهر اللوزي بك ثلاث ساعات يبحثن كيف يبلغن رتيبة نبأ الكارثة بالتدريج .. وفوجئن برتيبة تصيح وتصرخ : سعيد مات .. سعيد مات .. سعيد مات !

وتصورت السيدات أن رسولتهن الأولى أبلغت الحقيقة الى رتيبة ـ ولكنها

قالت انها لم تقل سوى أنه مريض .. ولكنها في دهشة كيف عرفت رتيبة على الفور أن شقيقها مات !

وحاولت السيدات أن يؤكدن لرتيبة أن النبأ غير صحيح ، ويقسمن على أنه مريض فقط ولكنها أصرت على أنه مات ..

واضطرت السيدات الى الاعتراف بالحقيقة المؤلمة أمام تصميمها الغريب !

هزت الفاجعة رتيبة . كان سعيد في الثلاثين من عمره . وهو يصغرها بعامين . كانت تعتبر نفسها أما له لأنهما فقدا والديهما في طفولتهما المبكرة . كانا يتكاتبان باستمرار . كان قطعة منها . في لحظات انهارت هذه المرأة التى كان يضرب بها المثل في الصمود . كبرت عشرين سنة في يوم واحد . انطفأ لمعان عينيها . تحولت الى طفل بلا إرادة . حياتها دمعة لا تكف ولا تنتهى .

وسافرت رتيبة مع التوأمين الى القاهرة لاستقبال جثمان شقيقها .

كان الانجليز قد وافقوا على فتح بيت الأمة وسلموه الى محمد أمين يوسف والد التوأمين .

لقد تحول البيت الى مأتم كبير . أشرفت هدية بركات على طبع البيت بلون الحداد كانت تقاليد الحزن في تلك الأيام مقبضة . السجاجيد والأبسطة قلبت على ظهرها . الصور المعلقة على الجدران غطيت بأقمشة سوداء . الثريات الكهربائية وضعت في أكياس سوداء . المقاعد والأرائك غطيت بأقمشة صبغت باللون الأسود . حتى الناموسيات البيضاء صبغت باللون الأسود . كل شيء أسود . قاتم . غامق . مقبض . الأنوار تضاء في النهار فتزيد البيت كآبة فوق كآبته . السواد والحزن والكآبة لفت كل شيء وغمرت كل شيء .

النساء بملابس سوداء وفوق رؤوسهن طرح سوداء . القهوة سادة ليس فيها ذرة من السكر . الرجال ببذلات سوداء وكرافتات سوداء . طوابير لا تنتهى من المعزين والمعزيات . كأن الناس كلها حبست دموعها طوال هذه السنين المريرة ووجدت هذه فرصتها لتفرج عن دموعها المحبوسة .

واعتبر الشعب وفاة سعيد زغلول وفاة لابن سعد . قرأوا أن يشاركوا زعيمهم في حزنه . وأقيمت لسعيد جنازة شعبية ضخمة في الاسكندرية ، وحملوا جثته في قطار خاص إلى القاهرة حيث أقيمت جنازة شعبية من أكبر الجنازات التى شهدتها البلاد .

ورثاه شوقى بقصيدة خالدة . ورثاه حافظ ابراهيم . ووجه الى الشعب نداء قال فيه : سبحانك ربى . ما أبلغ حكمتك . وأوسع رحمتك . تدبر الدواء قبل الداء . وتلهم الصبر عند القضاء . فلك الشكر في الضراء . كما في السراء . أصبتنى في مكان الحب في قلبى . وموضع الرجاء من نفسى . ولكنك أفضت أجمل العزاء » .

« قضى وحيدنا في غربته . وامتنع علينا السير في جنازته . فجزعنا وابتأسنا . واشتد بنا الكرب . ولكن الله تعالت قدرته ، ادركنا بواسع رحمته . فعوض العزيز عن والديه شعبا برمته نعاه فحنا عليها وحف بنعشه وشيعه بزفراته الصاعدة ودعواته الصالحة .

« خففت هذه الرعاية من أحزاننا . ولطفت من آلامنا . بل زادت فقوت انتسابي لهذا الشعب الكريم . وأكدت تعهدي بالفناء في محبته ، وتضحية كل عاطفة دون خدمته .

« كيف يمكن بدون هذه التضحية وذاك الفناء أن أفي بواجب شكره . وهو يزيد في وزنه عند كل شدة ورخاء . وفي كل فرصة بين عزاء وهناء . بما يسدل عليّ من المكارم الجليلة والتعطفات السامية .

« أيها المصريون ! أنتم عزائي أنتم فخري ومقصد رجائي . بكم سلوتي . ومنكم حسرتي . ولكم حبي وقلبي . ولكم الحياة الباقية .

« ســـعد زغلول »

وكانت رتيبة قد اشترت لكل من ولديها التوأمين البذلة الجديدة التي مكثت سنوات تعدهما بها . ولكنها كانت بذلة سوداء . ليرتدياها في جنازة خالهما !

وحرص التوأمان على أن يشتركا في جنازة خالهما سعيد زغلول . صحبهما والدهما الى الاسكندرية . ذهبا الى الميناء لاستقبال الجثمان . ركبا لنشا مع فتح الله بركات وعاطف بركات وسينوت حنا ومكرم عبيد والشيخ مصطفى القاياتي أعضاء الوفد . صعدا الى الباخرة « سفنكس » التي حملت الجثمان . كانت الباخرة الفرنسية قد رفعت العلم المصري منكسا على ساريتها مشاركة للشعب في حداده . قابلا على الشمسي عضو الوفد الذي اختاره سعد ليصحب الجثمان من أوروبا . كان على الشمسي يبكي وينتحب ويقول ان وفاة سعيد كانت أكبر ضربة أصيب بها سعد . لا النفي ولا التشريد ولا المرض فعل به ما فعله وفاة الشاب الذي كان يعتبره ابنه . كان سعد مشهورا بأنه يتماسك في الشدائد ويصمد أمام المصائب . ولكنه في هذه المرة تهاوى وقال انه يشعر بأن جزءا كبيرا منه قد مات !

واقتربت الباخرة من رصيف الميناء .. واحتشدت ألوف مؤلفة . صامتة ساكتة . كأنها تسمع خطابا لسعد زغلول ! ثم تحرك الموكب . فرق الكشافة بموسيقاها وأعلامها . هذه فرقة الكشافة المصرية ، ثم فرقة كشافة الناصرية ، ثم فرقة كشافة نهضة مصر ، ثم فرقة الكشافة السعدية ثم فرقة كشافة المرشدات . ثم فرقة كشافة وادي النيل للبنات ثم فرقة الكشافة اللبنانية ، ثم فرقة الكشافة السورية .

كانت الثورة قد اهتمت بحركة الكشافة في مصر ، وساعدت على انشاء فرق

الكشافة وفرق المرشدات في كل مكان .. ولعبت فرق الكشافة دورا مهما في الثورة ، كانت تحافظ على النظام في المواكب ، وتقوم بإسعاف الجرحى وتحمل جثث القتلى ، وكانت تدرب الطلبة على المقاومة . وكان انضمام فرقة الكشافة السورية والكشافة اللبنانية الى المواكب الوطنية أول علامة على وحدة الشعور الوطني . فقد كان اللبنانيون والسوريون قبل ثورة ١٩١٩ بعيدين كل البعد عن الحركات الوطنية المصرية ، وطالما شكا مصطفى كامل من موقفهم كل الشكوى ، ولطالما هاجم السوريين بعنف في مقالاته وخطاباته الخاصة . حتى أنه بعث بخطاب في يوم ١٦ يونيو سنة ١٨٩٥ من باريس الى صديقه فؤاد سليم الحجازى وصف فيه السوريين بأنهم « أقبح ما خلق الله وأدنى العباد » ! ولكن الأغلبية العظمى من السوريين واللبنانيين أيدت ثورة سعد زغلول . وكانت صورة سعد معلقة في كل بيت في سوريا وفي لبنان .

واشترك في جنازة الاسكندرية كل طلبتها وطالباتها . سارت مدرسة محمد على الصناعية ثم مدرسة الأقباط المرقصية ثم مدرسة العباسية ثم المدرسة الكاملية ثم مدرسة النهضة الحديثة ثم مدرسة محرم بك ثم مدرسة رأس التين ، ثم طلبة المعهد السكندرى يرتدون العمم والقفاطين . ثم خلفهم طالبات مدارس البنات . ويبدو أن لجنة تنظيم الجنازة حرصت على أن تفصل بين الطلبة المراهقين والطالبات المراهقات فوضعت بينهم طلبة المعهد الدينى !

وطلب فتح الله بركات من التوأمين أن يسيرا في الصف الأول باعتبارهما من أسرة الفقيد وسار التوأمان الصغيران بجوار الأمير عمر طوسون والأمير جميل طوسون ومحمد سعيد باشا رئيس الوزراء السابق وحسين رشدى باشا رئيس الوزراء السابق .. وذهل التوأمان حين وجدا أن بين كبار المشيعين عددا من خصوم سعد الألداء ! وسمعا حسين رشدى باشا يقول بصوت عال : انني لا أشترك في هذه الجنازة من أجل سعد .. إنما أشترك من أجل سعيد . لو أن سعد زغلول هو الذى مات لما مشيت خطوة واحدة في جنازته !

وسمع الطلبة ما قاله رشدى باشا فكادوا يفتكون به ، ولكن فتح الله بركات أصدر أمرا حازما بالمحافظة على حياة رشدى باشا وكل خصوم الوفد ، فصدع الطلبة بالأمر .

وسمع التوأمان من خصوم سعد أشياء لم يعرفاها عن خالهما سعيد زغلول . انه في أشد أيام الصراع بين خالهما وخصومه لم يقل مرة واحدة كلمة سوء ضد خصوم الرجل الذى تبناه وأقام في بيته . كان مؤمنا بسعد زغلول ولكنه في الوقت نفسه كان مؤمنا بحرية الرأى . كان يرى أن الشتائم والاتهامات هى أسلحة الضعفاء وكان هذا الموقف يبدو غريبا في عصر اشتدت فيه الحرب وتخاصم الأشقاء ، وتقاتل الأصدقاء ، وتمزقت الأسر ، وطلقت زوجات من أزواجهن لأنهم خرجوا على سعد زغلول .

ومن الغريب أن سعيد اتخذ لنفسه هذا الموقف وهو عضو بارز فى الجهاز السرى للثورة ولكنه كان دائما يفرق بين العلاقات الشخصية والخصومة السياسية . وكان يرفض أن يلقى خصومه بالطين .

ويبدو أن الذين يؤمنون فى أثناء الحركات الوطنية بالمسدس والقنبلة يأبون أن يلوثوا الأصابع التى تمسك بالمسدس والقنبلة بالطين والتراب !

وقد وصفت جريدة الأهرام جنازة الاسكندرية بأنها كانت يوما كبيرا مشهودا ، وأن الاحتفال كان شعبيا مهيبا محركا لعواطف الحزن والوطنية فى الجمهور ، وأن الموكب كان من أجل المواكب وأفخمها وأشدها وقعا فى النفوس ، وأن أول الجنازة كان فى محطة الاسكندرية وآخرها فى شارع شريف .

واستقل التوأمان القطار مع الجثمان . وكان القطار يقف فى المحطات على الطريق ، وقد احتشدت ألوف الجماهير تحيى الجثمان ، وكان يصعد الى القطار فى كل محطة وفود من كل اقليم ومدينة وقرية وكان الخطباء يلقون المراثى الوطنية ويتولى فتح الله بركات الرد عليهم باسم سعد زغلول .

وكانت جنازة مدينة القاهرة أضخم كثيرا من جنازة الاسكندرية . أصر العمال على أن يحملوا النعش . اشتركت فى الموكب عشرات من فرق الموسيقى تعزف ألحانا حزينة . اشترك كل ضباط الجيش المصرى فى الجنازة برغم معارضة السردار البريطانى . أضربت كل مدارس القاهرة واشتركت فى الجنازة أضرب عمال النسيج وعمال الصنائع اليدوية ، وسائقو السيارات وموظفو الحكومة ، وموظفو البريد ، وموظفو وزارة الحربية ، وموظفو السكة الحديد ، كما أضرب موظفو المطبعة الأميرية واحتشدوا فى الموكب . تحولت الجنازة الى مظاهرة وطنية كبرى . مظاهرة صامتة . كأن الأمة حولت القاهرة الى مأتم كبير . كأنها أرادت أن تقول لسعد : لا تحزن لأنك حرمت من تشييع جنازة ولدك فتوليناها عنك انه ولد كل واحد منا . انه شقيق كل واحد منا . انه قطعة من كل واحد منا .

وتطلع التوأمان الى الألوف المؤلفة . هذه العيون الدامعة . هذه الرؤوس المنكسة . هذه الزفرات الحارة . ان الكثيرين منهم لم يروا سعيدا ، ولم يعرفوه ، وربما لم يسمعوا باسمه قبل أن يموت . ولكنهم يشعرون كأن الفقيد فقيدهم ، والكارثة كارثتهم ، والمأتم مأتمهم .

بدأت الجنازة والتوأمان يسيران فى الصف الأول مع أسرة الفقيد . ولكن ما لبثت الجماهير الزاحفة المحتشدة أن دفعتهما الى الوراء . إن كل واحد من هؤلاء يشعر بأنه عضو فى أسرة الفقيد . ان من حقهم أن يحتلوا الصفوف الأولى . ان الرابطة التى بينهم وبين زعيمهم لا تقل عن الرابطة التى تربط

التوأمين به . ألم يموتوا وهم يهتفون بإسمه . ألم يدخلوا السجون من أجل مبادئه . ألم يقفوا على المشانق ينادون بحياته . انهم جميعا أقاربه . كلهم أولاده وأحفاده . في تلك اللحظات أحس التوأمان أن أسرتهما كبرت . انها لم تعد الأسرة الصغيرة التي كانت تجتمع على مائدة الافطار في بيت الأمة . انها أصبحت أمة بأكملها . أمة لها أب واحد هو سعد ، وأم واحدة هي صفية . ان هذه اللحظات أثرت في تفكير التوأمين الصغيرين على الرغم من أن عمرهما كان يومئذ تسع سنوات وخمسة شهور . وجوه الناس قالت لهم أشياء كثيرة . دموعهم شرحت معاني عديدة . صمتهم كان يتحدث ببلاغة عجيبة . ان هذا الشعب اذا أحب عرف كيف يحب . فيه من النبل والعاطفة الصادقة ما لو وزع على الدنيا لحول كل الآدميين الى نبلاء صادقين . ان كل تضحية من أجل هذا الشعب تهون . كل ما بذله جدهم الشيخ له لا يساوى هذه العاطفة الحلوة . ما أرخص الثمن الذى دفعه من نفي وتشريد وعذاب من أجل دمعة يذرفها الملايين في لحظة واحدة !

ولكن كل هذا الحنان الذى غمر به الشعب خالهما لم يطفىء النار المشتعلة في قلب أمهما انه على العكس ضاعف الحريق في قلبها . دموعها لا تجف . حزنها لا ينتهي . يقولون ان الزمن هو خير طبيب للأحزان . ومع ذلك فإن كل يوم يجىء كان يضاعف لوعتها ويزيد شقاءها .

وكان التوأمان يتعذبان لدموع أمهما . كانت أشبه بالخنساء وهي ترثي شقيقها . كل شيء يحدث يذكرها به . وكل شيء لا يحدث يذكرها به أيضا . الحديث عنه يبكيها وعدم الحديث عنه يشقيها ! كانت تبكي ماضيه وكانت تبكي مستقبله . وكانت تذهب كل يوم الى قبره وتحدثه وتناجيه وكأنه لا يزال حيا ! وخشى الولدان وأبوهما أن تفقد الأم عقلها . حاولوا أن يسلوها فكانت كلمات السلوى أشبه بالخناجر في قلبها . كانوا يحاولون أن يضحكوها فتأبى البسمة أن تطل من شفتيها . وكان السواد الذى يحيط بالجو في بيت الأمة يجعل الحياة فيه أشبه بالحياة في قبر مظلم ! ما أتعس البيوت التى لا تشرق عليها بسمة ولا تضيئها ضحكة !

وولم ان هذا الجو الكئيب يسمح للتوأمين بأن يطالبا بزيادة مصروفهما ولا بالذهاب الى السينما ، ولا بالخروج من البيت !

وقال والد التوأمين لرتيبة ان خالها سعد زغلول وضع تقليدا عند وفاة أمه ألا تزيد مدة المأتم على ثلاثة أيام .. فلماذا تخرج على أوامره ويدوم مأتم أخيها عدة شهور !

وقالت رتيبة ان مأتمها على أخيها سيدوم طوال الحياة ! انها كانت قررت أن تعيش الى جوار قبره الى أن تلحق به ، ولكنها رأت أن تضحي بشعورها هذا من أجل ولديها . وهذا هو أقصى ما تستطيع أن تفعله !

وأعلن عن موعد عودة سعد زغلول الى القاهرة .

وقال والد التوأمين لأمهما أنه يجب أن يعاد بيت الأمة الى حالته الأولى فتعود السجاجيد الى ما كانت عليه ، وتنزع الأغطية السوداء من المقاعد ، وترفع الأكياس السوداء من الثريات ..

وأبت رتيبة أن تفعل شيئا من هذا وقالت ان سعد أرسل يقول لها انها حرة تفعل فى البيت ما تشاء !

وألح الأب والولدان على أمهما حتى قبلت أن تستأجر شقة تنقل اليها أثاث بيتها من دمياط ، وتقيم فيها مظاهر الحزن كما تشاء ، وتترك بيت الأمة فى حالته الطبعية . وقبلت رتيبة هذا ..

وانتقل المأتم الدائم من بيت الأمة الى شقة فى شارع الدواوين ـ شارع نوبار الآن !

واذا بسعد يرسل كتابا الى الوفد فى القاهرة يقول فيه انه حزين على وفاة ابنة سعيد . ولهذا لا يريد مواكب ولا استقبالات ، ولا موسيقى ، ولا حفلات .

واجتمع الوفد وبحث هذا الطلب الغريب ..

ان الشعب يريد أن يحتفل باستقبال زعيمه بعد عودته من منفاه الطويل فى سيشيل وجبل طارق . ان كل مدينة وقرية تريد أن تقيم مهرجانا لمناسبة النصر الذى حققه الشعب عندما أرغموا الانجليز على اطلاق سراح زعيمهم ..

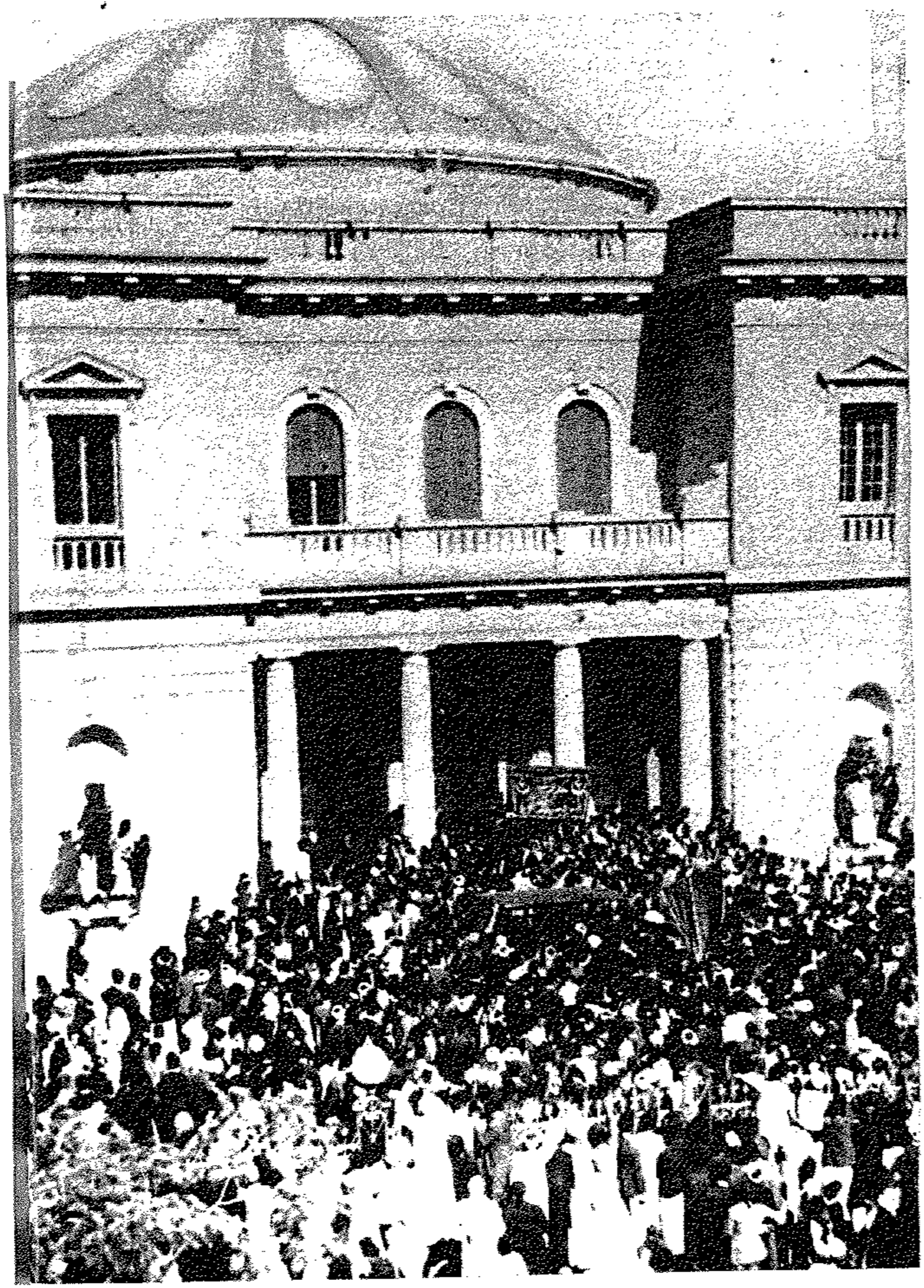
كيف نمنع الشعب من حقه فى الاحتفال بهذا اليوم المشهود ..

ثم ان الوفد لم يبلغ هذه الاحتفالات عند عودة سعد من منفاه فى مالطة وكان قد سقط فى الثورة ألوف الشهداء ، تيتم أطفال ، ثكلت أمهات ، فجع آباء فكيف يلغى الوفد أفراح الشعب بواحد من انتصاراته بسبب مصاب شخص ، حتى لو كان هذا الشخص هو زعيم الثورة نفسها . ان سعد زغلول لم يعد رجلا عاديا من حقه أن يحزن كما يشاء ويفرح كما يشاء ، انه أصبح مؤسسة وطنية ، ولا يملك وحده أن يصدر أمرا بوقف أفراح الشعب فى يوم انتصاره !

وكان أن قرر الوفد بالاجماع رفض طلب سعد زغلول ، وقرر إقامة الاحتفالات والمهرجانات والمواكب والزينات وأقواس النصر احتفالا بعودة الزعيم ، وطلب الوفد الى سينوت حنا بك عضو الوفد أن يكتب الى سعد يبلغه الدوافع التى حدت بالوفد الى رفض قرار الزعيم .

وكتب سعد من فرنسا خطابا مؤثرا الى سينوت حنا بك يقول فيه « اننى أرضخ لقرار الوفد واننى آسف اننى تصرفت هذا التصرف كأب وإنسان ، فقد نسيت فى غمرة حزنى وفى ألم فجيعتى أننى زعيم هذه الأمة . وواجبى نحو هذه الأمة يجب أن يعلو على عاطفتى كأب ثكل فى ولده الوحيد ..! »

● ● ●



●● طلاب المدارس فى مجلس النواب ..

• الفصل السابع عشر •

خرج الشعب يرقص فى الشوارع . مواكب الجماهير تنشد الأناشيد . فرق الموسيقى تعزف الألحان الأعلام فوق البيوت . بيت الأمة مزين بألوف اللمبات الكهربائية . الأطفال يرتدون ملابس العيد النساء يزغردن . الأمة كأنها فى فرح كبير . وسعد هو العريس !

زحفت الأقاليم الى القاهرة . ليس فى فنادق القاهرة فراش خال . ليس فى القهاوى مقعد غير محجوز ، إذا أطللت من نافذة وجدت الطرق كلها مفروشة بأجساد متلاصقة . ورؤوس متقاربة ، ضاقت العاصمة الواسعة بالوافدين من الأقاليم . بعض الناس جاءوا فى القطار . وبعضهم فى السيارات . وأكثرهم زحفوا مشيا على الأقدام . نساء ورجالا وأطفالا . شيبا وشبابا . فقراء وأغنياء . محيت الألقاب . زالت الفروق . انتهت الطبقات . الباشا يمشى بجوار الكناس . الشيخ يعانق القسيس . الخواجات يرقصون مع أولاد البلد . مصر كلها خرجت تستقبل زعيمها بعد عودته من منفاه فى جزيرة سيشيل وجبل طارق . صدرت الأوامر الى الجنود الانجليز بأن يلزموا ثكناتهم . لم يظهر واحد منهم فى الطريق العام . بدت مصر لأول مرة وكأنها عادت الى أصحابها الفرحة فى كل وجه . البسمة على كل الشفاه . فى عيون المصريون وميض الانتصار . كل واحد منهم يشعر بأن له نصيبا فى هذا النصر . هم الذين حطموا قيود زعيمهم . هم الذين كسروا أغلاله هم الذين انتزعوه من سجنه . هم الذين ذهبوا الى المشانق وكأنهم يذهبون الى حفلات زفافهم . هذه الأرض التى سيمر عليها الزعيم من محطة القاهرة الى بيته كم فرشوها بجماجمهم . كم رشوها بدمائهم . كم زلزلت سماؤها بهتافهم هنا كانت معاركهم . وفوق هذه الأرض سقط شهداؤهم . هنا تحدوا المدافع ، وواجهوا الرصاص واستقبلوا الموت وهم يهتفون بحياة زعيمهم . ان من حقهم أن يقيموا الأفراح والليالى الملاح من حقهم أن يرقصوا بقدر ما شقوا ، وأن يضحكوا بقدر ما بكوا ، وأن يزغردوا بقدر ما نفثت قلوبهم من أنين ! انهم يعلمون أن الصراع لم ينته . يعلمون أن بلادهم لا تزال محتلة . يعلمون أن استقلالهم لم يكتمل . ولكنهم يعلمون أنهم كسبوا معركة كبرى عندما أرغموا أكبر امبراطورية فى العالم على فتح سجونها ومنافيها وإطلاق سراح زعماء الثورة ، بعد أن كانت تعلن وتؤكد انهم سيموتون حيث هم فى منافيهم وسجونهم !

كان الشعب يشعر لأول مرة من سنوات طويلة بأنه يملك الشوارع التى يمشى عليها ! يملك الألسنة التى يتكلم بها . تمشى مواكبه فى الشوارع ولا يطلق عليها الرصاص . يهتف بحياة سعد فلا ترد عليه المدافع . لم يعد الهتاف بحياة سعد جريمة تستحق السجن . لم تعد الهتافات بحياة الاستقلال تخرس بطلقة من مدفع رشاش !

تفنن الشعب فى استقبال سعد وتكريمه والاحتفال به يوم وصوله الى القاهرة ، الشعراء نظموا أروع قصائدهم ، والمطربون ترنموا بأحلى أغانيهم ، والكتاب سطروا أبلغ مقالاتهم . والفنانون رسموا أجمل لوحاتهم . والموسيقيون عزفوا أعذب ألحانهم . البيوت كانت توزع الشربات على المارين فى الشوارع . محل حسن الحاتى رفض أن يتقاضى ثمن ما يأكله الناس فى مطاعمه فى ذلك اليوم . دور السينما والمسارح فتحت أبوابها مجانا للشعب . محلات حامد المواردى وكثير من المحلات الوطنية وزعت ألوفا من أثواب الأقمشة على الفقراء . الشعب حاول أن يحمل سيارة سعد على كتفيه وتوسل سعد اليهم أن يتركوا السيارة تسير على عجلاتها ! وكانت السيارة التى يقف فيها سعد هى سيارة الأمير عزيز حسن . وكان هذا الأمير قد نفاه الانجليز فى أثناء الحرب العالمية الأولى وأفرج عنه مع المفرج عنهم . وعندما وصل الموكب الى بيت الأمة احتشدت مئات الألوف أمام البيت تطلب كلمة من سعد!

ولكن الأمير عزيز قال لسعد : أنا أريد أن أقول خطبة !

ولم يكن سعد يعرف مقدار بلاغة الأمير عزيز حسن فى اللغة العربية فوقف وأشار الى الجماهير أن تسكت ثم قال .

— الأمير الجليل عزيز حسن سيلقى خطابا وطنيا .

وسكتت الجماهير لتسمع الأمير الجليل ..

وإذا بالأمير الجليل يقف ويقول :

— اسمع ياراجل أنت وهوه ! .. البلد دى فيها راجل واحد دى !

وقال كلمة « دى » بصوت ضخم وداس على حرف الياء فأصبحت دى ى ى ى ى !

وكان يشير بأصبعه الى سعد زغلول ..

وسكت الأمير الجليل قليلا ثم استطرد :

— والباقى .. كلهم أولاد كلب !

ثم جلس الأمير الجليل !

وأحرج سعد ! فقد أراد الأمير « الجليل » أن يمدح زعيم مصر فشتم جميع المصريين ! ولكن ظهر فيما بعد أن الأمير لم يقصد هذا ، وأن بلاغته خانته

فقد كان يقصد أن يقول أن الملك فؤاد وجميع رؤساء الوزارات من خصوم سعد هم أولاد الكلب !

واضطر سعد أن يلقى كلمة أزال بها سقطة الأمير ، وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي سمح فيها سعد لأحد الأمراء أن يلقى خطابا في اجتماع وطنى ! وكان أغلب أمراء أسرةمحمد على يجهلون التحدث باللغة العربية !

وكان هؤلاء الأمراء والأميرات يحدثون صداعا مستمرا في رأس سعد . كلما اختلف واحد منهم مع الملك فؤاد أعلن تأييده لسعد . فسارع الملك الى استرضائه وكان بينهم المجنون والمعتوه والشاذ والأفاق . وكان كل واحد منهم يحلم بأن يخلع سعد الملك فؤاد وينصبه على العرش بدلا منه ، ولم يخطر ببال واحد منهم أن رأى سعد فيهم جميعا كان رأيا واحدا وهو أنهم غرباء عن هذا البلد بجنسيتهم ولغتهم وتفكيرهم وشعورهم وأن مصر لا يجوز أن يحكمها إلا مصرى لحما ودما !

وكانت الأميرة شيوكار تطارد سعد باستمرار ! كانت في شبابها امرأة فاتنة . في عينيها سحر ، وفي شفتيها داع يدعو « حى على القبلات ! » . تخصصت في اغراء الرجال واشتهرت بمغامراتها في ميادين الهوى والغرام

وكانت تتردد على بيت الأمة وتطلب مقابلة سعد زغلول وكانت صفية تعتذر من عدم تدبير المقابلة بانه مشغول . ولكنها كانت لا تيأس فتعود تطلب مقابلته من جديد

وكانت صفية تكرهها ، وكانت تتصور أن الانجليز يريدون أن يدسوها على الزعيم لتشويه سمعته بين الجماهير . فكانت تستقبلها بأدب وتعتذر من عدم استقبال سعد لها بأعذار مختلفة ، وتنتهز الفرصة لتفهمها بلباقة بأن سعد سعيد في زواجه ، وأن قلبه مشغول بحب مصر وليس فيه أى مكان لامرأة أخرى !

وكانت صفية معذورة في توجسها من الأميرة شيوكار . فقد كانت تعرف أن أميرة أخرى حاولت أن تنتزع منها سعد وتمنع زواجها منه !

ويذكر التوأمان ذات يوم أنهما كانا جالسين مع صفية وكانت تقرأ مقالا كتبته عنها إحدى الصحف المصرية وجاء في المقال « ان الفضل في زواج سعد وصفية يعود الى الأميرة نازلى حليم ، فهى التى توسطت في هذا الزواج وشجعته وباركته وأقنعت مصطفى فهمى باشا رئيس وزراء مصر أن يزوج صغرى بناته للقاضى الشاب الفلاح سعد زغلول » !

وثارت صفية زغلول على هذا المقال وقالت

— أنهم يزيفون التاريخ ونحن على قيد الحياة إن الأميرة نازلى حليم وقفت عقبة ضد زواجى لقد لجأت إلى اللورد كرومر طالبة ان يتدخل لمنع

الزواج . وذهبت إلى الخديو لنفس الغرض . وذهبت إلى أبى وقالت له إن سعد زغلول متزوج من سيدة أخرى يخفيها فى بلدته فى إبيانه . وأرسلت إحدى كلفواتها - أى جواريها - لتبلغ أمى ان العريس فلاح لا يعرف كيف يأكل بالشوكة والسكين !

وعندما فشلت فى كل محاولاتها هددت بالانتحار إذا تم هذا الزواج . كل هذا لأنها ارادت ان تتزوج هى من سعد . فكيف يقال اليوم أنها هى التى شجعت وباركت زواجى من سعد ؟

ودخل سعد إلى الغرفة فى أثناء صياحها ، وسألها عما حدث . فروت له ما كتبته الجريدة فابتسم ولم يقل شيئا ! وكأنه أحس أن زوجته لا تزال تغار عليه من قصة حب جرت منذ أكثر من خمس وثلاثين سنة !

ولهذا لم يكن غريبا أن تخشى صفية على زوجها الذى تحبه من أميرة أخرى قد تنجح فيما فشلت فيه الأميرة نازلى حليم !

وكانت شهرة الأميرة شيوكار كافية لأثارة هذه المخاوف ، اذ كانت متزوجة من الأميرة أحمد فؤاد قبل أن يصبح ملكا ، وضبطها الأمير مع أحد عشاقها ، فطردها من البيت وشتمها ولعن اباها . وذهبت الأميرة الى شقيقها الامير سيف الدين وأخبرته بأن زوجها لعن اباها ، وغضب الامير سيف الدين وذهب الى نادى محمد على وبحث عن الأمير أحمد فؤاد ولعن اباه ، ثم اخرج مسدسه ، واطلق عليه عدة رصاصات اصابته ، وأخرج الاطباء كل الرصاصات ما عدا واحدة ، بقيت فى عنق الأمير فؤاد . وعندما أصبح فؤاد ملكا كانت الرصاصة تجعله يسعل بطريقة مضحكة تشبه نباح الكلب . وكان هذا النباح يؤدى الى مواقف حرجة . ففى بعض الاحتفالات التى كان يحضرها جلالته يحدث ان تتقدم اليه تلميذة تحمل باقة من الزهور تحية لجلالته واذا بجلالة الملك ينبح فجأة . فتلقى الطفلة الزهور من يدها ، وتجرى صارخة خائفة مولولة ! ولهذا كان رجال القصر يحرصون على أن ينبهوا على تلاميذ المدارس التى يزورها الملك الا يضحكوا اذا نبح جلالته فجأة !

وطلق الأمير أحمد فؤاد الأميرة شيوكار ، واحبت الأمير سيف الله يسرى باشا ، وكان من أجمل شباب الطبقة الارستقراطية وكان بطلا من أبطال المبارزة بالسيف .

ولكن الحب لم يستمر طويلا ، فقد احبت شيوكار ضابطا انجليزيا شابا من ضباط جيش الاحتلال ! وكان هذا الضابط هو ابن خالة مستر ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطانى فيما بعد ، ووزير البحرية فى تلك الايام ، وكان الضابط « نورمان » يبلغ من العمر ٢١ سنة واصغر من شيوكار بعدة سنوات . وقد أدى هذا الغرام الى مشكلة دولية ! ففى كتاب « جينى »

وهو قصة حياة لأذى راندولف تشرشل ام تشرشل تروى المؤلفة انيتا ليسلى حفيدة عمة تشرشل تفاصيل هذه الفضيحة الدولية !

فهى تروى كيف وقع الملازم نورمان فى هوى زوجة سيف الله يسرى باشا الفاتنة ، وكيف أن سيف الله باشا ضبط الرسائل الغرامية التى كان يتبادلها الضابط الانجليزى مع الزوجة اللعوب . وطلب سيف الله باشا من الضابط الشاب ان يحدد موعدا للمبارزة ، لأن الشرف الرفيع لا يسلم من الأذى الا اذا اريق على جوانبه الدم !

واسقط فى يد الضابط الانجليزى الشاب ، وكان عليه ان يختار بين امر من اثنين ، أن يقبل المبارزة مخالفا تعليمات الجيش البريطانى ، او يرفض المبارزة وبذلك يهين شرف الجيش البريطانى بأن تبدو احد ضباطه جبانا يأبى قبول التحدى والتقاط القفاز .

ورأى قائد الجيش البريطانى أن يبعد الضابط العاشق عن القاهرة حقنا للدماء ! ولكن سيف الله يسرى باشا بقى مصمما على مبارزة الضابط الذى لوث شرفه فى أى مكان فى العالم !

وعقدت اجتماعات سرية فى منزل خالة تشرشل حضرها صاحب السمو الملكى الدوق كنوت ولود كرومر . والمالى المشهور سير أرنستت كاسل ولورد شارل بيرفورد . لبحث ما يمكن عمله لمواجهة هذه المشكلة الخطيرة ! ووصل المجتمعون الى قرار سرى ، وهو أن الضابط العاشق يجب أن يقبل مبارزة سيف الله يسرى باشا . ولكن على أن يتم هذا بصفة سرية ، لأن الأمير زوج الامبراطورة فيكتوريا أصدر اوامر مشددة بمنع المبارزة !

وكان الضابط نورمان لاعبا ممتازا للبولو مثل سيف الله باشا ، ولكنه لم يكن يعرف المبارزة بالسيف ، وكان سيف الله باشا بطلا فيها .

وبدأوا فى تعليم الضابط العاشق المبارزة بالسيف ، وكان يتلقى سرا هذه الدروس يوميا . ولكن استاذ السيف وصل إلى أن الطريقة الوحيدة لانقاذ حياة الضابط الشاب ان يكتفى بأن يتعلم الدفاع فقط ! لأنه لو حاول ان يهاجم اللاعب الممتاز سيف الله باشا فإن النهاية المؤكدة لهذا ان يقتله الباشا بسيفه !

وحرصا على أن تتم هذه العملية بسرية تامة ، تقرر ان يتخذ المشتركون فيها والأماكن التى ستجرى فيها المبارزة اسماء وهمية فاطلقوا على سيف الله يسرى باشا اسم مستر جونسن وعلى مدينة باريس حيث تجرى المبارزة اسم « بريتون »

وتمت المبارزة فى باريس وامكن للضابط العاشق ان يتخذ موقف الدفاع ساعة كاملة يتلقى فيها ضربات سيف الله الزوج المخدوع !

وأخيرا أصاب سيف الله يسرى باشا الضابط الشاب بجروح فى قلبه ، ولكن الجرح كان سطحيا .

ومع ذلك اعتبر سيف الله باشا أن الدم الذى اريق ، غسل الشرف الملطخ وبعد ذلك طلق شيوكار !

كانت هذه المغامرة وغيرها سببا فى شهرة الاميرة شيوكار باعتبارها خاطفة الرجال . وكان هذا من الاسباب التي دعت صفية إلى أن تعتذر للأميرة من عدم استطاعة سعد مقابلتها !

ولم يعرف سعد مطلقا أن الأميرة شيوكار طلبت مقابلته أكثر من مائة مرة ، وأنه رفض مقابلتها !

فالمرأة هى المرأة ، بقلقها ، ومخاوفها ، وغيرتها ، حتى ولو كانت هذه المرأة هى أم المصريين !

* * *

استقبلت رتيبة خالها عند وصوله إلى القاهرة بملابسها السوداء . وطرحتها السوداء ، ووجهها الحزين . ودموعها التى لا تنتهى حزنا على شقيقها سعيد زغلول .

وفوجئت رتيبة بسعد يقول لها : إننى اتشاءم من الملابس السوداء !

وحارت رتيبة ماذا تفعل لترضى خالها . إنها لا تستطيع ان تخلع ملابس الحداد ، ولا تستطيع ان تنقطع عن رؤيته . وخطر ببالها حل غريب ان تضع فى احدى الغرف ثوبا غامقا . فإذا دخلت بيت الأمة خلعت الملابس السوداء . وارتدت الثوب الملون . وفهم سعد الحيلة التى لجأت اليها رتيبة ولم يعلق عليها .

وكان سعد فى تلك الأيام يبدو للجماهير فى صورة القائد المنتصر ، والزعيم الذى دانت له الرقاب ، ومعبود الملايين الذى ربح كل المعارك ، وانتصر على خصومه ، وأرغم اعداءه الانجليز على أن يفرجوا عنه ويسمحوا بعودته الى بلاده ، ولكنه كان يبدو فى عيون التوأمين ، وهو فى داخل بيته ، رجلا حزينا ، مهموما ، مقطب الجبين ، قلق النظرة ، متجهم الوجه . كانه وحده الذى يعلن انه لم ينتصر فى المعركة ! .

وكان فى ذلك الوقت مشغولا بالترشيحات لانتخاب اول برلمان مصرى بعد الاحتلال البريطانى . وكان الخلاف على اشده بين أعضاء الوفد ، هل يتقدم الوفد بقائمة للترشيحات ، أم يترك لكل مصرى الحق فى أن يتقدم للانتخابات على مبدأ الوفد ، مادام أن الوفد ليس حزبا ، وإنما هو الأمة مجتمعة . فليس من حق احد أن يفرز المرشحين ، وإنما يترك للشعب أن يختار ممثليه بغير توجيه من الوفد .

وكان سعد في أول الأمر يميل إلى هذا الرأى . ولكنه لم يلبث أن عدل عنه ، فقد شعر انه بهذه الطريقة يظلم الثوار الحقيقيين . اولئك الذين اقتضت واجباتهم البقاء والعمل تحت الارض ، والتعرض لكل المخاطر ، والموت او الاعدام يتهددهم في كل لحظة بينما الاعضاء الظاهرون للشعب أثناء الثورة هم الذين كانوا يتولون القاء الخطب وقيادة المظاهرات .. لهذا عرفتهم الجماهير .

ثم انه خشى ان يندس بين المرشحين عدد من خصوم الوفد الذين حاربوا الثورة في الخفاء ، وقاوموها في السر ، وهذه الطريقة تعطيهم فرصة أن يتنكروا فيضعوا على وجوههم قناع الثورة بعد نجاحها ، فإذا فازوا بعضوية البرلمان انقلبوا على الثورة ، وانقضوا عليها من الخلف !

ثم إنه خشى اخيرا ان يسقط عدد من الوفديين الاقباط في دوائر كل الناخبين فيها من المسلمين ، وبذلك يقضى على اعظم نجاح له وهو توحيد عنصرى الأمة ، ويعطى حجة لخصوم الثورة الذين كانوا يطالبون بتخصيص نسبة في البرلمان للأقباط تساوى نسبتهم من عدد السكان ، وبذلك نرقص على الموسيقى التى يعزفها الاستعمار البريطاني باستمرار وهى انه يحتل مصر للمحافظة على الاقليات وفي مقدمتهم الاقباط من تعصب المسلمين !

ومن هنا قرر سعد ان يتولى الوفد اختيار مرشح معين يتقدم باسمه في الانتخابات ولا باس ان يكون للوفد مرشحان أو ثلاثة مرشحين في دائرة واحدة .

وأحدث هذا القرار صداعا حادا لسعد ، اذ اكتشف بعد قليل أن أغلب الناخبين يريدون أن يكونوا اعضاء في البرلمان !

ووضع سعد قواعد بأن تكون الاسبقية في الترشيح للذين قاموا بأدوار هامة في الثورة ، بشرط أن توافق لجان الوفد في كل دائرة انتخابية على هذا الترشيح ، بمعنى انه اذا اختار سعد مرشحا ، ولم توافق عليه لجنة الوفد ، فإنه يعدل عنه ، وينزل على ارادة لجنة الوفد .

واختلفت لجان الوفد فيما بينها ، واختلفت اللجان القروية مع لجان المديريات ، واختلفت لجان المديريات مع الوفد نفسه !

واقتضى التوفيق بين هؤلاء جميعا جهدا كبيرا من سعد .

ثم حدثت أزمة في الوفد ..

تقدم عدد من الكفايات من المستقلين يطلبون الترشيح على مبدأ الوفد . وكان من بينهم محمد سعيد باشا رئيس الوزراء السابق ، وتوفيق نسيم باشا رئيس الوزراء السابق وأحمد مظلوم باشا رئيس الجمعية التشريعية السابق .

وعارض هذه الفكرة الشبان الثوار ، وفى مقدمتهم الدكتور أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشي وعلى الشمسى . وكانت وجهة نظرهم ان هؤلاء وقفوا ضد الوفد فى أيام المحنة ، واقبلوا فى أيام الرخاء ، وأن الواجب عزلهم عن برلمان يمثل الشعب .

وجمعهم سعد وقال انه يقتدى برسول الله محمد ﷺ عندما قال : من دخل الكعبة فهو أمن ومن دخل بيت ابى سفيان فهو أمن .. وأنه يرى المصلحة فى أن يفتح الوفد ابوابه للجميع ، وأن الثورة لم تنته ، وأنها فى حاجة إلى كل كفاية .

واستمرت المناقشة عدة ساعات ، واقتنعوا على مضض .. وقالوا لسعد :

— سوف ترى أنهم سوف يتخلون عنك فى أول عاصفة !

وكان هؤلاء الشبان اصدق نظرا فى هذه القضية بالذات من زعيمهم المجرب العجوز ، فقد اثبتت الأيام بعد ذلك أن أغلبهم كان اشبه بفئران السفينة تهرب حين توشك على الغرق ! .

وفى الوقت نفسه دبت خلافات فى شأن الترشيحات الأخرى .. فقد تقدم عدد كبير من أصحاب الاقطاعيات يطلب الترشيح على مبدأ الوفد .

وكان هؤلاء قد رفضوا ان يتبرعوا للثورة فى اثناء اشتعالها . وكانوا يهربون من رسل الوفد ، ويختفون خلال المعارك .

وكان من رأى بعض اعضاء الوفد ترشيحهم لانهم اقوياء فى دوائرهم الانتخابية ، ومن المستحيل ان يفوز عليهم أى مرشح للوفد فى دوائر يملكون كل شبرا من أرضها ..

ولكن سعدا رفض هذا الراى وقال إنه يعتقد انه يكفى ان يحمل اى صعلوك علم الوفد ليكتسح مالك الالف فدان ! .

ووقع حادث طريف فى الترشيحات ..

فقد اراد حسن ياسين زعيم الطلبة ان يرشح نفسه فى بلده بمديرية بنى سويف .. وتقدم عميد الأسرة وطالب بأن يرشحه الوفد لهذا المقعد ، وكان حسن ياسين مجهولا فى دائرته الانتخابية بالنسبة الى الثرى الكبير الذى يتزعم الاسرة ..

واصر سعد على ترشيح حسن ياسين !

واعترض اعضاء الوفد وقالوا كيف يرشح الوفد لعضوية مجلس النواب تلميذا فى مدرسة الحقوق رسب عشر سنوات فى الليسانس . ولا يزال تلميذا فى هذه المدرسة !

وقال سعد إن الطلبة قاموا بجهد ضخم فى الثورة ، ومن حقهم أن يكون لهم نائب فى مجلس النواب . وكان يستطيع ان يفهم هذا الاعتراض لو أن كل

المرشحين كانوا من حملة الشهادات العالية . بينما هنالك كثيرون منهم لا يحملون شهادة البكالوريا التى يحملها حسن ياسين . ولا يضير حسن أن يمتحن فى الليسانس وهو عضو فى مجلس النواب . فإنه هو ـ أى سعد زغلول ـ امتحن فى الليسانس وهو مستشار فى محكمة الاستئناف !

واكتسح حسن ياسين الانتخابات فعلا واصبح عضوا فى مجلس النواب .. بل عضوا فى لجنة المعارف !

ولكنه انقطع بعد ذلك عن الذهاب الى مدرسة الحقوق ، ولم يدخل امتحاناتها وان كان سعد اعتاد كلما قابله فى مجلس النواب ان يقول له وهو يضحك . اياك ان تهمل فى دروسك !

وقد كان لحسن ياسين دور بارز فى الحركة الوطنية . وفى ثورة ١٩١٩ ، وفى قيادة الاضرابات وتوزيع المنشورات الثورية واعتقل عشرات المرات فى أثناء الثورة .

ويومها فرح التوأمان الصغيران ، لأن تلميذا مثلهما رشحه الوفد لعضوية البرلمان ! وكان سعد يسمي الطلبة « اولاد سعد » ولكن ترشيحه تلميذا جعل التلميذين الصغيرين يشعران بفخر عبرا عنه لجدهما !

وضحك سعد وقال : اننا لم نرشح حسن ياسين لأنه سقط فى الامتحان ، ولكن لأنه قام بدور فى الثورة !

وكان الصبيان يسألان سعد عن كل ما يسمعانه فى بيت الأمة . يسألانه عن كل ما يقران فى الصحف . وعن كل ما يثير انتباههما من أحداث . وكان سعد يشجعهما على هذه الاسئلة ، ويحاول ان يشرح لهما كل شيء ، ويسمى الاشياء باسمائهما . وكان يتلقى الاسئلة الساذجة بشيء غير قليل من الصبر ، ويبسط لهما المشاكل . ويوضح ما يبدو للولدين انه اشبه بالمعميات والألغاز .

كان أول ما أثار دهشتهما ، أنهما رأيا فى تلك الايام وجوها جديدة لم يرياها فى اثناء الثورة ، لم يرياها فى المعارك الدامية التى كانت تجرى أمام بيت الأمة . لم يرياها فى الجو العابس المكفهر ، عندما كانت حراب الانجليز تغمد فى صدور الوطنيين ، عندما كانت قنابلهم تحول اجساد الشباب الى اشلاء . لم يسمعا اسماءهم فى قوائم المنفيين والمسجونين والمحكوم عليهم بالاعدام ! إن صور الابطال الذين تبينوها فى ظلال الليل البهيم انطبعت فى رؤوسهم ، السحب الثقيلة من الآلام التى كانت تجثم على صدورهم لم تخف ملامح هذه الوجوه الشابة التى كانت تشبه الضياء المجهول فى هذا الظلام الطويل . من اين جاءت هذه الوجوه الجديدة ؟ هل كفرت فى ايام النقمة وامنت فى ايام النعمة ؟ هل هربت من ميادين الموت ، ثم اقبلت مع مواكب الحياة ؟

هل اعماها ظلام الطغيان ، ولم تبصر الا مع شعاع الحرية ؟ إن هذه الوجوه الجديدة تتصرف فى بيت الامة وكأنها صاحبة الفرح ! حماسها اقوى من حماس المجاهدين . وصوتها أقوى من أصواتهم واعذب من نبراتهم ، انهم اشبه بالمتفرجين الذى رفضوا التطوع فى الجيش المقاتل ، واثروا السلامة ، وتركوا غيرهم يحارب ويقاتل ويموت ، وعندما جاءت ساعة النصر تقدموا موكب المنتصرين ورصعوا صدورهم بالاوسمة والنياشين !

وسمع سعد ملاحظة الولدين وهو يبتسم فى دهشة ، ويتفرس فى الوجهين الصغيرين فى جنان ، ويصيخ سمعه اليهما وهما يتحدثان هذا الحديث الغريب ، وقال لهما سعد : إننى سعيد جدا بقوة ملاحظتكما ! إن ما تقولان هو مشكلتي الكبرى ان اعلى الاصوات التى تطالب الآن بالغنيمة هي اصوات الذين لم يشتركوا فى المعركة . إن هتاف الجماهير شيء يسكر . وواجبى الآن أن أحاول التفريق بين الذين يهتفون بألسنتهم وبين الذين يهتفون بقلوبهم بين الذين خاضوا المعركة فعلا والذين تفرجوا عليها . بين الذين لم يبخلوا باية تضحية اثناء الثورة حين كانت التضحية بلا ثمن ، وبين الذين خرجوا من جحورهم يطالبون بثمن انتصار لم يشاركوا فى صنعه . وهذه مهمة ثقيلة مضنية . ولقد اضطررت ان اعيد النظر فى جميع الترشيحات التى أقرها الوفد فى أثناء وجودى فى أوربا ، ومع ذلك فإننى غير مطمئن إلى النتائج التى وصلت إليها . إنهم يقولون إن الأقوياء فى وطنيتهم . ضعفاء فى دوائرهم الانتخابية ! يقولون إن الشعب يفضل الذين يعدونه بالمنافع على الذين يعدونه بالموت فداء للوطن ، ولكنى لا اصدق هذا الزعم ، ولا اتصور ان الشعب الذى عرفته جيدا تغير فى أثناء غيبتي الطويلة فى منفاى فى سيشيل وجبل طارق ، لقد اقترح البعض الا ارشح الا فى الدوائر المضمونة ، لأنه لا يجوز ان يسقط مرشح لسعد .. ولكنى رفضت هذا الرأى وسارشح فى كل دائرة . طلبوا منى الا ارشح وفديا فى دائرة منيا القمح لان رئيس الوزراء يحيى باشا ابراهيم رشح نفسه فى هذه الدائرة . وهو أغنى رجل فيها واسرته صاحبة أكبر نفوذ فيها أيضا ، وهو الذى سيجرى الانتخابات ، واقل ما نفعله هو أن نترك له هذه الدائرة مجاملة ! فقلت لهم ! إنه لا مجاملات فى مصلحة الوطن . وقررت أن ارشح ضده الأستاذ كامل مرتجى المحامي بالزقازيق .. إنه غير معروف فى الدائرة بعصبيته . ولكنه معروف فى المديرية كلها بوطنيته . إننا الآن فى أول امتحان للشعب فى الديمقراطية . وانا اؤمن بأن الشعب الذى نجح خلال الثورة فى امتحان البطولة والفداء . قادر على أن ينجح فى امتحان اختيار النواب !

وكانت الانتخابات تجرى على درجتين . ينتخب كل ثلاثين من الناخبين مندوبا عنهم . ثم ينتخب المندوب الثلاثيني عضو مجلس النواب . وكان سعد معترضا على هذا النظام ، وكانت حجته أن الجماهير لا يمكن التأثير فيها ولكن عندما يقل عدد الناخبين تستطيع الحكومة أن تؤثر فيهم ، كما أن خصوم الوفد هم من كبار الاغنياء والاقطاعيين واصحاب النفوذ . وهؤلاء يستطيعون شراء المندوبين الثلاثين . في حين أن من الصعب شراء ملايين الناخبين . ثم إن اغلب الذين رشحهم سعد من الفقراء الذين لا يملكون الا لقب مرشح الوفد . والذين ليس لهم جاه الا ماضيهم الوطني في اثناء الثورة . ومع ذلك فقد أصرت الحكومة وأصر الملك واصر الانجليز على أن تجرى الانتخابات على درجتين . وكان من راى بعض انصار الوفد ان يمتنع سعد عن دخول الانتخابات احتجاجا على هذا القانون الذى قصد به أن تتحكم الحكومة في ارادة الناخبين . ولكن سعد قبل التحدى ، وقرر دخول الانتخابات رغم اعتراضه على هذا القانون .

وقرر عدلى يكن باشا ان يرشح نفسه في دائرة عابدين . واختار هذه الدائرة بالذات لأنها الدائرة التى يقع فيها قصر الملك . وفيها أكثر دوائر الأمراء .. وفيها بيوت اغلب موظفي القصر والخاصة الملكية . وفيها قصور أسرة يكن وإنصارها . وبيوت الذوات . وهي دائرة مضمونة . لأنه ليس فيها من كان يسميهم خصوم سعد « بالرعاع » لم يكن فيها وقتئذ مصانع . ولا عشش ولا اكواخ . إن كل سكانها ذوات من جيران الملك ، وفيها عدد من الوزارات والمصالح ، إن كل هذا يضمن لعدلى يكن ان يكتسح مرشح سعد زغلول .

وكان القانون يقضي بأن ينتخب المرشح مندوبا ثلاثينيا أولا ، حتى يسمح له بأن يتقدم للترشيح لعضوية البرلمان .

وجرت الانتخابات الثلاثينية .

وتقدم عدلى يكن باشا ليكون مندوبا ثلاثينيا .

وفوجىء بأن الوفد رشح طباخ عدلى باشا ليكون مندوبا ثلاثينيا منافسا صاحب الدولة عدلى يكن باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، ورئيس الوزراء السابق وصهر الاسرة المالكة !

وظن الناس انها نكتة ان يرشح سعد الطباخ عدلى لينافسه !

ولكن سعدا قال انها ليست نكتة ، وإنما هو مظهر للديمقراطية الجديدة التي ينادى بها . إن من حق الطباخ ان ينافس صاحب الدولة !

وظهرت النتيجة واذا بطباخ عدلى يكن ينجح ويصبح مندوبا ثلاثينيا ، واذا بعدلى يكن باشا يسقط ، ويصبح عاجزا عن ترشيح نفسه لعضوية مجلس النواب .

وغضب عدلى يكن باشا على هذا الشعب « قليل الأدب » واستقال من رياسة حزب الاحرار الدستوريين ، واعلن اعتزاله السياسة !

ثم جرت الانتخابات لعضوية مجلس النواب ..

وكان الملك والانجليز والحكومة على ثقة بأن سعد زغلول لن ينال الأغلبية .

إن المديرين الذين يشرفون على الانتخابات من خصوم الوفد ، إن رجال الادارة جميعا من أنصار الاحرار الدستوريين واصدقائهم . إن مرشحى الاحرار هم الباشوات واصحاب الاقطاعيات الضخمة ، وعمداء الاسر الكبيرة . وكبار الاعيان ، وأما الذين رشحهم سعد فإن اغلبيتهم الكبرى من المحامين والاطباء الشبان ، والاسماء غير المعروفة ، ليس لهم عصبية يعتزون بها ، ولا ثروة يعتمدون عليها ، ولا القاب ترهب الجماهير .

وكان سعد مؤمنا بأنه سينال الاغلبية . ولكنه كان يقدر أنها ستكون أغلبية بسيطة ، فكثير من انصاره احترقوا بنار الثورة ، والاغنياء منهم فقدوا ثرواتهم ، والموظفون طردوا من مناصبهم ، بيوتهم خربت ، اسرهم تشتتت اعمالهم تعطلت مصالحهم ضاعت . وكان يقدر ايضا ان المال والسلطان والنفوذ والعصبية والروابط العائلية قد تؤدى الى خسران حوالى مائة مقعد من مقاعد مجلس النواب التى يبلغ عددها ٢١٤ مقعدا .

وجرت الانتخابات لعضوية مجلس النواب.

واذا بسعد يفوز بحوالى مائتى مقعد ..

واذا بخصومه جميعا يسقطون فى دوائرهم الانتخابية التى تصوروا انها قلاعهم التى لا يمكن ان تقتحم .

شبان مجهولون يكتسحون كبار الأعيان فقراء معدومون ينتصرون على أصحاب الملايين .. غرباء عن الدائرة تحتضنهم الدائرة وتلفظ اصحاب الاقطاعيات الضخمة فيها . موظفون كبار يكتسحهم عدد من صغار الموظفين يحيى باشا ابراهيم رئيس الوزراء الذى ادار الانتخابات يسقط فى بلده مقر عزوته واسرته واراضيه . فى مواجهة المحامى الشاب كامل مرتجى ! الوزير الخطير اسماعيل صدقى باشا سقط فى دائرته الانتخابية امام المحامى الشاب نجيب الغرابلى .

وعندما رأى سعد هذه النتائج المذهلة قال

— انها الثورة الجديدة !

كان سعد مبتهجا بهذه النتيجة الهائلة التى لم يتوقعها لانها اثبتت انه كان على حق فى ايمانه بهذا الشعب هذا الايمان الذى لم يتزعزع امام الخطوب والاهوال . وكان يقول

— ان الذين لم يخافوا من الانجليز لا يمكن ان يخافوا من الباشوات !

الفقراء الذين لم تستطع ان تشتريهم اغنى امة فى العالم عجزت عن شرائهم ثروات اصحاب الملايين !

وأذهلت النتيجة خصوم الوفد لم يتوقعوا مطلقا أن خدمهم سيصوتون ضدهم أن عبيدهم سيثورون عليهم أن مئات الألوف من الفلاحين الذين يعملون فى أراضيهم سيصغون لصوت ضمائرهم لا صوت بطونهم !

لقد أنفق كثير من خصوم الوفد عشرات الألوف من الجنيهات فى معركة الانتخابات وسقطوا ! باع أحد أعيان الصعيد ثلثمائة فدان من أجود الأطيان وانفق ثمنها فى الانتخابات وفشل أمام مرشح الوفد الذى لم يكن يملك فدانا واحدا ! انفق الدكتور أحمد ماهر أربعة جنيهات واصبح نائبا للدرب الأحمر ! صرف محمود فهمى النقراشى جنيهين ونصف جنيه وأصبح نائبا للجمرك صرف إسماعيل صدقى باشا خمسة عشر الف جنيه فى دائرة فرسيس بالغربية كان يملك فيها هو وأخوته ألف فدان وكانت أسرة زوجته تملك فيها سبعة الاف فدان وانفق مرشح الوفد محمد نجيب الغرابلى عشرة جنيهات وكان الغرابلى يدخل هذه الدائرة لأول مرة فى حياته . ولا يملك فيها قيراطا واحدا ليس له فيها اقارب ولا اصهار وسقط اسماعيل صدقى باشا ونجح محمد نجيب الغرابلى أفندى !

وكان سعد على حق عندما قال إن نتيجة هذه الانتخابات ثورة حقيقية . لم يحدث قبل ذلك فى تاريخ العالم ان سقط رئيس وزراء الدولة فى دائرته الانتخابية ضد مرشح مجهول فى تلك الايام هوت عروش الاقطاع سقطت دولة الباشوات اهتزت التقاليد الموروثة ديست مئات الالوف من الجنيهات بالأقدام خلع الملوك غير المتوجين فى الريف تحطمت الطبقة الارستقراطية التى تتوهم أنها ورثت مصر ومن عليها أصوات الملايين من الفقراء والمعدمين والمحرومين والمنبوذين فعلت فى حصون هذه الطبقة ما تصنعه المدافع فى القلاع هذه ثورة شعبية عجيبة . لم ترق فيها نقطة دم واحدة . لم يسقط فيها قتيل واحد . ومع ذلك فإنها استطاعت ان تحقق فى يوم واحد ما فعلته ثورات غيرها فى عشرات السنين . وبثمن باهظ من المذابح الجماعية وحمامات الدم . والمشانق والسجون والمعتقلات .

اصبح صندوق الانتخاب هو النعش الذى دفن فيه الشعب خصومه ومستغليه ومستفيديه وكانت أوراق الانتخاب هى الكفن الذى لف به الشعب هؤلاء الخصوم !

وغضب الملك فؤاد من نتيجة الانتخابات التى لم يتوقعها وكان أكثر غضبه على مديرى المديريات ومحافظى المحافظات الذين كانوا يؤكدون للقصر باستمرار ان سعد لن ينال اغلبية فى الانتخابات ، وإنما ستتوازن القوى

فيه . بحيث يستطيع الملك أن يتحكم في البرلمان ، بدلا من ان يتحكم البرلمان فيه .. فلما جاءت النتيجة المذهلة شعر الملك بأنه لا يستطيع ان يواجه سعد بهذه الاغلبية الساحقة ، ورأى ان يكسب المعركة بالدهاء والصبر والطعن من الخلف !

وكان الملك فؤاد قد استقبل سعد بعد ظهور نتيجة الانتخابات الثلاثينية . وجرى حديث حول من يؤلف الوزارة وهل يكون هو سعد اذا نال الاغلبية ؟

وقال سعد إنه لا يميل إلى تأليف الوزارة . وأنه يرى أن مركزه كرئيس للوفد أكبر من منصب رئيس الوزراء .

واطمأن الملك إلى أن سعدا لن يتولى رياسة الوزارة .

وكان سعد يميل الى البقاء خارج الحكم ، ولكنه فوجىء بعد ذلك بأن الملك هو الذى لا يريده . وبأن لورد اللنبى المندوب السامى قال إنه لا يطمئن إلى أن يتولى سعد الحكم واعترض الثوار على قرار سعد وقالوا له إن رفضه تولى الوزارة معناه انه ينفذ إرادة القصر والانجليز . ومعناه أنه برغم الثورة التى أعلنها الناخبون لا يزال الانجليز والقصر هم أصحاب الحق في تعيين رؤساء الوزارات !

وقال سعد إنه يفكر في أن يتولى رياسة الوزارة أحد حلفائه أمثال محمد سعيد باشا أو توفيق نسيم باشا أو أحمد مظلوم باشا .

وثار اعضاء الوفد الشبان على هذا وقالوا إنهم لن يدخلوا وزارة لا يرأسها سعد .

واذا بالأمير عمر طوسون يدلى بتصريح للصحف يقول فيه أن من رأيه الا يتولى سعد رياسة الحكومة ، لأنه بذلك يعترف بتصريح ٢٨ فبراير الذى نص على استقلال ناقص . ولم يعترف به سعد ..

وقرأ سعد تصريح الأمير عمر على مائدة الافطار وقال :

— إن الامير عمر لا يريد أن يكون فلاح مصرى رئيسا لوزارة مصر ! إنه اعترض قبل ثورة ١٩١٩ على أن أرأس الوفد ، وكان يريد أن يرأس الوفد ، لولا ان الانجليز طلبوا من السلطان فؤاد وقتئذ أن يأمره بالابتعاد عن حركة الوفد ، فابتعد عنها ، ورفض أن يدفع لها مليما واحدا ! إن الأمير عمر وأمثاله يريدون أن يهدروا ارادة الأمة التى اعلنتها في الانتخابات .. ومادام الأمر كذلك فسوف اتمسك بحقى الدستورى في أن أكون رئيس الوزراء بصفتى صاحب الأغلبية الساحقة .

وأدلى سعد بتصريح طالب به رئيس الوزراء أن يستقيل أمام حقيقتين كبيرتين ، الأولى : أن البلاد اوضحت رأيها بشكل لا يقبل الشك فيه ، والثانية : أن رئيس الوزراء قد هزم في الانتخابات ..

وقدم رئيس الوزراء استقالته ولكن الملك فؤاد لم يقبل الاستقالة ، وأجل النظر فيها حتى يعود من زيارة يقوم بها لمدينة السويس !

وقال سعد باشا لأسرته أن هذه الحجة غير حقيقية وأنه علم أن الملك ارسل إلى لندن يقترح عليها أن يحل مجلس النواب .. الذى لم يجتمع بعد !

ويظهر ان الانجليز لو يوافقوا على هذا الرأى ، لأن الملك قبل استقالة الوزارة بعد عشرة أيام من تقديمها ، واستدعى سعد وعرض عليه تأليف الوزارة فقبل سعد تأليفها !

ومنذ اللحظة الاولى التى ألف فيها سعد الوزارة لاح فى الأفق شبح أزمات ضخمة !

ففى اليوم الاول حدثت أزمة بين الملك ورئيس وزرائه ، وكانت الأزمة بسبب الكتاب الذى ارسله الى الملك بقبول تأليف الوزارة فإن سعدا كتب يقول فى كتابه ان الرعاية السامية التى قابلت بها جلالتكم ثقة الأمة ونوابها بشخصى الضعيف توجب على ، والبلاد داخلة فى نظام نيابى يقضى باحترام ارادتها ، وارتكان حكومتها على ثقة وكلائها الا انتحى عن مسئولية الحكم التى طالما تهيبتها فى ظروف أخرى ، وأن أشكل الوزارة التى شاء جلالتكم تكليفى بتشكيلها من غير أن يعتبر قبولى لتحمل اعبائها اعترافا بأية حالة أو حق استنكره الوفد المصرى الذى لا ازال متشرفا برئاسته »

وجاء توفيق نسيم باشا إلى بيت الأمة فى ساعة الغداء وطلب الاجتماع بسعد لأنه مكلف برسالة مستعجلة من الملك .

وتأخر سعد عن العودة إلى غرفة المائدة ثم راه التوأمان يدخل وهو يبتسم ويقول :

يظهر أنه لن يكون لنا شهر عسل ! إن الخناقة بدأت فى يوم الزفاف ! إن توفيق نسيم باشا جاء يقول لى إن الملك يرجو أن أحذف هذه الفقرة من خطاب تأليف الوزارة لأننى جعلت الأصل فى الولاية ثقة الناخبين . لا ارادة الملك . ورفضت أن أبدل حرفا واحدا من هذه الفقرة . وقلت لتوفيق نسيم !

— قل للملك إن سعدا ليس منافقا ، ولو حاول أن ينافق لما عرف كيف ينافق ! كيف أقول إنه هو الذى اختارنى وأنا اعرف جيدا أنه لولا ثقة الناخبين لما قبل أن يعيننى فراشا فى مجلس الوزراء لا رئيسا لمجلس الوزراء . إن الذى أقرره هنا هو الواقع .

ونزل الملك على إرادة سعد وقبل بقاء هذه الفقرة بلا تبديل ولا تغيير !

وانتهت الأزمة .. لتبدأ الأزمة الثانية ..

فقد جاء إلى بيت سعد امين انيس باشا مدير الادارة العربية فى القصر ، يقول إن هناك غلطة بروتوكولية فى مشروع الكتاب الذى قدمه سعد إلى

الملك فقد اعتاد رؤساء الوزراء المصريون ان يوقعوا خطابات قبولهم تشكيل الوزارة بجملة « عبدكم الخاضع وخادمكم المطيع » .

ولكن سعد لم يكتب هذه الجملة وكتب بدلا منها « شاكر نعمتكم وخادم سدتكم » وان هذه مخالفة للتقاليد التى جرى العرف عليها مع كل رؤساء الوزارات !

وغضب سعد وقال لمدير الادارة العربية :

— قل للملك ان سعدا رفض طول حياته ان يكون عبدا ولا يمكن ان يقبل اليوم أن يصبح عبدا ليكون رئيسا للوزراء !

قال أمين أنيس باشا :

— إن هذا تعبير بروتوكولى متبع فى قصور العالم !

قال سعد :

— للاسف أنا فلاح ، ولا افهم فى بروتوكولات القصور . وبلادى اعطتنى هذه الاغلبية لأننى فلاح مثل ملايين الفلاحين . واحب ان تقول لجلالة الملك أنه لا يشرفه أن يكون رئيس وزرائه عبدا من العبيد .. بل يشرفه أن يكون حرا من الاحرار !

وقبل الملك فؤاد مضطرا هذه المخالفة البروتوكولية !

وانتهت الأزمة .

* * *

وفى تلك الأيام رأى التوأمان الصغيران على مكتب سعد فى الدور العلوى « بلكنوت » صغيرا كتب فيه سعد بخط يده :

« سعد : الرياسة والداخلية : واصف غالى : الخارجية . على الشمسى · المالية . أحمد ماهر الحربية . صادق حنين : الزراعة . عاطف بركات : المعارف . الشيخ مصطفى القاياتى : الأوقاف . محمود فايد : الأشغال . مصطفى النحاس : المواصلات . محمد صدقى : للحقانية »

وتصور الولدان الصغيران أنهما حصلا على نصر صحفى . أنهما عرفا أسماء وزارة سعد قبل أن يعرفها أحد . الناس جميعا حائرون حول الذين وقع عليهم اختيار سعد ليكونوا وزراء فى وزارته . كانوا يتخبطون فى الأسماء وخطر ببال الولدين أن يسبقا بهذا النصر الصحفى صحف العالم ، وينشراه فى مجلتهما المطبوعة بالبالوظة ، والتى يقرأها زملاؤهما تلاميذ مدرسة المنيرة !

ولكن لم يلبث الولدان أن خافا من نتائج هذه المغامرة ، أنها سوف تثير ضجة . وسوف يتصل خبر الضجة بأمهما ، وتحرق أيديهما بالبيض المغلى كما فعلت قبل ذلك .. وفضلا أن يضحيا بهذا النصر الصحفى العالمى !

ولو أن الجراة وانتهما لنشر هذا السبق الصحفى لكانت اعظم خيبة صحفية فى تاريخهما الصحفى !

فعندما أعلنت مراسيم تأليف الوزارة وجدها التوأمان مخالفة للأسماء التى كتبها سعد فى « البلكنوت » !

لم يدخل الوزارة إلا ثلاثة وزراء فقط من العشرة الذين كتب سعد أسماءهم فى « البلكنوت » !

لم يصبح على الشمسى وزيرا للمالية . وانما توفيق نسيم باشا ، وأحمد ماهر لم يصبح وزيرا للحربية وإنما حسن حسيب باشا الذى عين وزيرا للحربية والبحرية ! وصادق حنين لم يكن وزيرا للزراعة ، بل فتح الله بركات باشا ، وكذلك عاطف بركات لم يعين وزيرا للمعارف . وإنما محمد سعيد باشا الذى وقع عليه اختيار سعد ليكون وزيرا لها ، وكذلك الشيخ القاياتى لم يصبح وزيرا للأوقاف ، وإنما أحمد مظلوم باشا الذى تولى وزارة الأوقاف ! ومحمود فايد لم يتول وزارة الأشغال ، وإنما اختار سعد مرقص حنا بك وزيرا لها ، ومحمد صدقى باشا استبعده سعد من القائمة ليكون وزيرا للحقانية وإنما حل محله نجيب الغرابلى أفندى ليصبح وزيرا لها .

ماذا حدث للوزراء الذين اختارهم سعد زغلول ، بل ماذا كان سيحدث للتوأمين لو أنهما نشرا هذا النصر الصحفى الكبير ، ثم تبين بعد ذلك أنه أكذوبة صحفية كبرى ؟

ومن ثم تعلم الولدان فى تلك الأيام درسا فى الصحافة لم ينسياه طوال حياتهما ، وهو أنه ليس معنى أن تحصل على خبر من أكبر مصدر فى الدولة ان يكون هذا الخبر صحيحا ! قد يكون اليوم وبعد ساعة نصف صحيح ، وبعد ٢٤ ساعة لا أساس له من الصحة !

تبين التوأمان من أحاديث سعد بعد ذلك أن الاسماء التى دونها فى « البلكنوت » هى أول الأسماء التى فكر فى تعيينها فى وزارته ثم حدثت بعد ذلك مفاجآت لم تخطر على باله !

فقد استدعى المهندس محمود فايد وعرض عليه منصب وزير الاشغال وكان محمود فايد شابا عبقريا حصل على شهادة الهندسة من مدرسة السنترال فى باريس ، وقد كانت أعظم مدارس الهندسة فى العالم فى تلك الأيام واعجب به سعد عندما أرسل إليه عبد الرحمن فهمى أثناء وجوده فى باريس بحثا وضعه محمود فايد هاجم فيه مشروعات الانجليز للرى التى أرادوا بها فصل مصر عن السودان .

وفوجىء سعد بمحمود فايد يرفض أن يكون وزيرا ويقول إنه يريد ان يعيش حرا ، وان الحرية اعظم من مقعد الوزارة ! ولم يتول محمود فايد

طوال حياته أي منصب ، وفى أواخر حياته رشحه الدكتور أحمد ماهر نائبا فى مجلس نواب عام ١٩٤٥ !

ورأى سعد الا يستبد برأيه فى اختيار الوزراء ، وأن يستشير اعضاء الوفد . إنهم قادة ثورة ومن حقهم أن يبدوا رأيهم فى الوزراء الذين اختارهم .

وعندما تلا سعد عليهم الاسماء التى رشحها قوبلت من الاعضاء بالصمت !

وفهم سعد أن الاعضاء لم يعجبهم هذا الاختيار ، وخشية أن يحرجهم بأن يبدوا آراءهم فى مواجهة زملائهم رأى أن يجتمع بكل عضو على انفراد ليسمع وجهة نظره !

واذا بالأغلبية تعترض على اقتراح الوزراء الجدد بأن معظمهم لاخبرة له بالوزارة . وأن الواجب أن يكون نصف الوزراء من الوزراء السابقين ، إلى ان يتدرب النصف الآخر على أسلوب الحكم ، ثم بعد ذلك يفتح المجال أمامهم لوضعهم موضع التجربة فى الحكم .

ومن بين الذين اعترض عليه عدد منهم الدكتور أحمد ماهر لأنه صغير السن !

وقال آخرون إن محمد صدقي باشا المستشار السابق الذى رشحه سعد وزيرا للعدل رفض ان يكون عضوا فى الوفد أيام كانت عضوية الوفد تعنى المشانق والمنافى ولم يكن سعد على علم بهذه الواقعة التى تمت أثناء نفيه .

واعترض اعضاء الطبقة الخامسة من الوفد على اختيار الشيخ القاياتى أحد أعضاء هذه الطبقة ولا يختار حسن حسيب باشا الذى كان رئيسا للوفد .

وتكلم مرقص حنا بك نقيب المحامين بعنف وحدة واحتج على اختيار صادق حنين بك الذى قبل الانذار البريطانى واعتزل فى بيته ، بينما حكم عليه هو بالاعدام ولم يهرب من الميدان !

واضطر سعد إلى أن يعيد تشكيل الوزارة من جديد . واحتج بعض الثوار أن يخضع سعد لهذه الاعتراضات ، وقال سعد إن حكومته ديمقراطية وأن أول شرط للديمقراطية هو الشورى ..

ورأى سعد أخيرا أن تؤلف الوزارة من خمسة وزراء تولوا الوزارة من قبل وجعل نفسه وزيرا للداخلية ، وجعل محمد سعيد باشا وزيرا للحقانية وتوفيق نسيم باشا رئيس الوزارة السابق وزيرا للمالية وأحمد مظلوم باشا الوزير السابق ورئيس الجمعية التشريعية وزيرا للاوقاف وحسن حسيب باشا الوزير السابق وزيرا للحربية والبحرية .

واختار خمسة وزراء من الذين لم يسبق لهم تولى الوزارة وهم مصطفى النحاس بك وزيرا للمواصلات ومحمد عاطف بركات بك وزيرا للمعارف ومرقص حنا بك وزيرا للأشغال وعلى الشمسى افندى وزيرا للزراعة .

وضحك فتح الله بركات باشا فى مرارة عندما سمع اسماء الوزارة الجديدة وقال — يظهر أننا خرجنا من المولد بلا حمص ·

وتضايق الشبان من أسرة سعد من اختيار سعد لعاطف بك بركات وزيرا للمعارف واغفال فتح الله بركات باشا . كان عاطف بك مشهورا فى الأسرة بالشدة والحزم ، وكان فتح الله مشهورا بالرقة والحنان . وذهبت رتيبة وقالت لسعد ·

— إن شبان الأسرة يقولون انهم إذا كانوا لا يطيقون عمى عاطف فكيف يطيقه الطلبة والتلاميذ ! هل تكافىء الطلبة الذين قاموا بدور عظيم فى الثورة بأن تأتيهم بوزير معارف شديد عنيف .

فقال لها سعد إن عاطف مرب كفء وقد نجح نجاحا عظيما كناظر لمدرسة القضاء الشرعى ، وتلاميذه لعبوا دورا بارزا فى الثورة .

قالت رتيبة ولكن هذه وزارة الشعب ، ويجب ان تتألف من شخصيات محبوبة من الشعب !

ولم يقل لها سعد إنه اقتنع برأيها ، ولكن عندما ظهر المرسوم الملكى بتأليف الوزارة اختفى منه اسم عاطف بركات ، واكتفى سعد بتعيينه وكيلا لوزارة المعارف !

ثم حدثت مفاجأة جديدة ، فقد اعترض الملك فؤاد على اسم على الشمسى ، وقال إن لديه معلومات بانه أحد رجال الخديو السابق !

وقال سعد إن هذا غير صحيح ، وإن على الشمسى هو ابن أمين الشمسى باشا الذى كان من رجال الثورة العرابية وحكم عليه بأن يكنس شوارع الزقازيق . فكيف يكون على الشمسى أحد رجال ابن الخديو توفيق الذى أهانه هذه الاهانة البالغة !

قال الملك فؤاد مادام أبوه اشترك فى الثورة العرابية فيجب ألا يكون وزيرا !

قال سعد وهذا ينطبق على ايضا ! فأنا أحد رجال الثورة العرابية وسجنت بسببها .. ولهذا لا أصلح رئيسا للوزارة !

وانتهى الأمر بأن طلب الملك تأجيل اسم على الشمسى بضعة شهور حتى يتحرى عن حقيقة الاتهام الموجه إليه !

وقبل سعد هذا الحل . وكانت غلطة من غلطات سعد .. وأجرى تغييرا فى الوزارة فعين محمد نجيب الغرابلى أفندى وزيرا للحقانية وعين محمد سعيد باشا وزيرا للمعارف ..

ثم تأزم الموقف مرة أخرى فقد أمسك الملك بقائمة الوزراء وراح يعد الاسماء باصابعه ثم قال

— توجد غلطة فى الوزارة · إن عدد الوزراء عشرة وفيهم وزيران قبطيان

مع أن التقاليد المتبعة أن يكون فى الوزارة قبطى واحد فى مقابل تسعة وزراء مسلمين !

قال سعد : هذه ليست وزارة تقاليد ، وإنما هى وزارة ثورة . وعندما كان الانجليز يطلقون الرصاص على الشعب لم يلاحظوا نسبة واحد على عشرة بين الأقباط والمسلمين ، وعندما نفونا إلى سيشيل لم يراعوا النسبة أيضا فكنا أربعة مسلمين وإثنين من الأقباط ، وعندما حكم الانجليز على أعضاء الوفد بالاعدام لم يراعوا النسبة كذلك فكانوا ثلاثة من المسلمين وأربعة من الأقباط . فكيف نراعى نحن الآن هذه النسبة !

وهز الملك فؤاد رأسه ووافق مضطرا .

ثم عاد يقرأ ويقول :

— إن فى الوزارة اثنين من الأفندية هما واصف غالى وزير الخارجية ومحمد نجيب الغرابلى افندى وزير الحقانية . ولم تجر التقاليد على أن يصبح الأفندية وزراء .. ولهذا فإننى أرى أن أنعم عليهما برتبة الباشوية ويصدر المرسوم بأسماء الوزارة جميعا باشوات !

قال سعد : هذا تكريم عظيم . ولكننى أريد أن يصدر المرسوم وفيه أفندية يتولون الوزارة .. وبعد أن يصدر المرسوم يمكن لجلالتكم أن تنعموا عليهما برتبة الباشوية !

وخضع الملك فؤاد وأمسك قلمه ووقع المرسوم وهو يقول :

— طيب مبروك !

وصدر المرسوم الملكى على الوجه التالى :

سعد زغلول باشا رئيسا للوزراء ووزيرا للداخلية . محمد سعيد باشا وزيرا للمعارف العمومية . محمد توفيق نسيم باشا وزيرا للمالية . أحمد مظلوم باشا وزيرا للأوقاف . حسن حسيب باشا وزيرا للحربية والبحرية . محمد فتح الله بركات باشا وزيرا للزراعة . مصطفى النحاس بك وزيرا للمواصلات . مرقص حنا وزيرا للأشغال . واصف بطرس غالى افندى وزيرا للخارجية . محمد نجيب الغرابلى افندى وزيرا للحقانية .

وفرح الشعب لأن اثنين من الأفندية أصبحا وزيرين لأول مرة فى تاريخ مصر !

ولم يعرف الشعب أن المشروع الأصلى لتأليف الوزارة كان عدد الأفندية فيه خمسة !!

وشعر التوأمان الصغيران ، كما شعر كل المصريين ، بأن حدثا هائلا وقع فى البلد . إنها ليست وزارة جديدة تقوم مقام وزارة قديمة . إنه شىء هز مصر من أعماقها . إن دولة جديدة ولدت ، ودولة قديمة سقطت . عالم جديد مختلف عن عالم مضى . تقاليد موروثة اندثرت وأفكار جديدة ظهرت . إن دخول

الأفندية إلى الوزارة كان أشبه بتيار جارف يكتسح القصور القديمة والقلاع القديمة والوجوه القديمة . رفض سعد أن يسمى وزارته الوزارة السعدية وأطلق عليها اسم وزارة الشعب .

منع الوزراء أن يشتركوا في نادى محمد على كما جرت التقاليد بأن يصبح الوزير اوتوماتيكيا عضوا في النادى الارستقراطى . قال لوزرائه في أول اجتماع لمجلس الوزراء إن مكانكم في الشارع . إن الشارع هو الذى جعلكم وزراء . وإذا كان لديكم وقت فراغ فامضوه في الشارع مع الناس ، لأن نادى محمد على مع الذوات والوجهاء

واعطى سعد المثل ولم تطأ قدمه نادى محمد على !

وأدلى سعد للصحفيين الأجانب بتصريح قال فيه : إننى زعيم الفلاحين . زعيم ذوى الجلاليب الزرقاء . إن أغلب أقاربى حفاة يحملون الفأس ويزرعون الأرض ويرتدون الجلاليب الزرقاء . وأنا أتشرف بأننى زعيم هؤلاء الفقراء !

وفي يوم وليلة أصبحت جلابية الفلاح المصرى الزرقاء علما ، بعد أن كانت عارا ، واصبحت كلمة فلاح شرفا بعد أن كانت سبابا . وبعثت هذه الكلمة في الفلاحين المصريين شعور الفخر والاعتزاز . ايقظت فيهم روحا حاول الغزاة الفاتحون من يونانيين ورومان وفرس وأتراك وانجليز وفرنسيين أن يطأوها بأقدامهم ، وجاء هذا الفلاح المصرى وبعث هذه الروح من جديد . وأعجب الشعب بخطابه إلى الملك الذى قبل فيه تأليف الوزارة الذى قال فيه :

« لقد لبثت الأمة زمنا طويلا ، وهى تنظر إلى الحكومة نظرة الطير للصائد لا الجيش للقائد ، وترى فيها خصما قديرا يدبر الكيد لها ، لا وكيلا أمينا يسعى لخيرها ، وتولد من هذا الشعور سوء تفاهم اثر تأثيرا سيئا في ادارة البلاد ، وعاق كثيرا من تقدمها . فكان على الوزارة الجديدة أن تعمل على استبدال سوء هذا الظن بحسن الثقة في الحكومة . وعلى إقناع الكافة بأنها ليست الا قسما من الأمة تخصص لقيادتها والدفاع عنها . وتدبير شئونها بحسب ما يقتضيه صالحها العام . »

وقال سعد في خطابه للملك : إن مهمة حكومته : « أن تبث الروح الدستورية في جميع المصالح وتعود الكل على احترام الدستور والخضوع لأحكامه »

وفهم الشعب أن سعدا يقصد بكلمة « الكل » الملك نفسه !!

وفهم الملك ما يقصد سعد بقوله في خطابه بأن حكومته لن تسمح « لأى كان » بالاستخفاف بالروح الدستورية والاخلال بما تقتضيه .

وكان الملك فؤاد يكره الدستور ويمقت الروح الدستورية ولايطيق كلمة « البرلمان » !

كان ملكا مستبدا بمعنى الكلمة ، وقد وقع الدستور برغم أنفه . وحاول أن يقصقص مواده ، ويضعف حقوق البرلمان ويسلب الأمة سلطانها ، ولكنه اضطر إلى التسليم فى نهاية الأمر أمام أجماع الشعب بمختلف هيئاته وفئاته وأحزانه .

ورأى أن يعتمد على دهائه . وعلى تعاليم المدرسة التركية الخبيرة بالدسائس ، وعلى الاصطدام المتوقع بين سعد والانجليز .

وبدأ يستقبل اعضاء مجلس النواب المنتخبين واحدا واحدا ، لعله يستطيع أن يطويهم ، وينتزعهم من سعد

وفشل فى محاولاته .

ثم بدأ يستقبل الوزراء فرادى ، ويغمرهم بعطفه ، ويفيض عليهم من عنايته ، ويغمرهم بالمديح والرتب والنياشين !

وفشل فى محاولاته !

وكان قبل ذلك قد حاول أن يكسب سعدا ، ويقلم أظافره فى الوقت نفسه فكان يبدى اهتماما غريبا بصحته ، ويصر على أن يتولى طبيبه الخاص علاجه ، ويرسل إليه أدوية يقول أنها جاءته خصيصا من أوربا ويدعوه إلى الغداء فى قصره ، ولا يقدم على المائدة الا الاطعمة الصحية التى يتناولها سعد ، ويشاركه فى أكلها ! ثم يستشيره فى مسائله الخاصة وفى خلافاته مع الملكة نازلى ، وفوجىء الملك بأنه لم يستطع ان يقلم أظافر سعد .. بل اكتشف أن هذه الأظافر تحولت إلى أنياب !

وتضايق الملك من أنه يجد صدى لعطفه السامى .. فقرر أن « ينكد » على سعد !

سمع أن سعدا اعتاد أن ينام يوميا بعد الغداء ، فإذا لم ينم ساعة كاملة ، أصبح عصبيا !

وتعمد الملك أن يجعل مواعيد لقائه معه فى الساعة الثالثة ظهرا !

وذهب سعد فى الموعد الأول متضررا .. وذهب الى الموعد الثانى غاضبا وقد فهم ما قصد الملك من اصراره على تحديد هذه الساعة بالذات

وفى المرة الثالثة اتصل سعد ذو الفقار باشا كبير الأمناء بسعد وقال له إن جلالة الملك حدد للقائه الساعة الثالثة بعد الظهر .

فقال سعد لكبير الأمناء بجفاء : قل لجلالة الملك إن هذه هى الساعة التى ينام فيها سعد .. ولو جئت لمقابلته دون أن أنام فسوف اتشاجر معه ، وأنا لا أريد هذا الشجار . أما اذا كان جلالته يريده فهذا أمر آخر !

وعاد كبير الأمناء واتصل بسعد وقال له

— إن جلالة الملك يطلب منك أن تحدد الساعة التى تريدها .

قال سعد . إنني لا أحدد موعدا . إن جلالته هو الذى يحدد الساعة فى أى وقت ما عدا الساعات التى أنام فيها . أنا أنام يوميا من الثالثة إلى الرابعة بعد الظهر ، وأنام من منتصف الليل إلى الساعة الرابعة صباحا . وأنا تحت أمر جلالته فى أى ساعة من الأربع والعشرين ساعة غير هذه الساعات !

وذهب كبير الأمناء وعاد يقول لسعد فى تليفونه :

— إن جلالة الملك يحدد لكم الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر .

وضحك سعد وقال :

— اشكر جلالة الملك لأنه ترك لى فرصة أغسل فيها وجهى وارتدى ملابسى !

ولم تكن الجماهير تعرف شيئا عن هذه الأزمات المتوالية بين الملك ورئيس وزرائه .. وكانت المظاهرات تهتف بحياة الملك لأول مرة فى حياته .. ولكن كان الهتاف هو : « يعيش الملك ويحيا سعد » ..

وكان المفهوم أن الملك فؤاد سعيد بأن تهتف المظاهرات بحياته فقد سمع منها طوال أيام الثورة الهتاف بسقوطه .. ثم علم سعد من توفيق نسيم باشا وزير المالية الذى كان على صلة بالملك أن الملك غاضب لهذا الهتاف وقال لنسيم باشا :

— معنى ذلك ألا يهتف بحياتى الا مقرونا باسم سعد .. وبغير اسم سعد لا استحق الهتاف باسمى !

وسخر سعد من عقلية الملك ، وانتهز فرصة سماعه هذا الهتاف فقال للجماهير : لا تهتفوا يعيش الملك ويحيا سعد ، وإنما اهتفوا لتحيا مصر وليحيا الملك » .

وأعتقد سعد بأنه أرضى عقلية الملك بهذه الدعوة ، ولكنه عجب عندما علم أن هذا الهتاف أيضا لم يعجبه !

وضرب سعد كفا بكف ، وقال لصفية وهو يضحك :

احترت يا صاحب الجلالة ابو سك منين ؟

وكان سعد بذلك يشير إلى المثل الشعبى الذى يقول « احترت يا بخرة أبوسك منين » أى احترت يا صاحبة الفم ذى الرائحة الكريهة أين اقبلك !

ولكن حيرة سعد لم تستمر طويلا ..

فقد أوعز القصر إلى بعض الأزهريين من رجاله أن يقوموا بمظاهرة .

وخرجت مظاهرة الأزهريين تهتف :

— يعيش الملك فقط .. يعيش الملك فحسب !

وعندئذ عرف سعد لأول مرة ما كان يحاول أن يعرفه ! عرف أن الملك فؤاد لا يريد أن يقرن باسمه أى اسم آخر ، ولا مصر كلها ، وإنما الملك فقط .. والملك فحسب !!

○ ○ ○



●● الهلال والصليب الشعار الذى نجحت به ثورة ١٩١٩

• الفصل الثامن عشر •

أضرب جميع الحوذية فى القاهرة . توقفت جميع عربات الحانطور . مشى الحوذية فى الشوارع يحملون كرابيجهم . كانوا يلوحون بها . ويطرقعونها ، فى أثناء سيرهم فى المظاهرة . فيحدث صوتها فرقعة غريبة كطلقات المدفع الرشاش . اتجهوا الى بيت الأمة يهتفون هتافات صاخبة . كانوا متنمرين غاضبين ساخطين . الشرر يتطاير من أعينهم . الغضب يملأ وجوههم . كانوا يهزون سياطهم فى أيديهم وكأنهم يهددون بأن يلهبوا بها ظهر زعيم الأمة ورئيس الوزراء !

وطلبوا أن يخرج لهم سعد . لم يتقدموا بهذا الطلب كرجاء . وإنما توجهوا به كأمر يستوجب التنفيذ .

وقال لهم عم آدم البواب ان سعد يتناول افطاره . وصاحوا فى وجهه : إننا جئنا دون أن نذوق لقمة . كيف يأكل سعد افطاره ونحن سنموت من الجوع !

وفى عهود سابقة كانت مثل هذه المظاهرة لا تستطيع أن تصل الى بيت رئيس الوزراء . كان البوليس يحاصرها ويقبض على زعمائها . كان يسكت الهتافات بالهراوات الثقيلة تنهال على رؤوس الهاتفين . ولكننا الآن فى عهد وزارة الشعب . والبيت الذى يقصدون هو بيتهم .. بيت الأمة .. ورئيس الوزراء الذى يقصدون هو الرجل الذى رفعوه الى هذا المقعد ، ومن حقهم أن ينتزعوه من هذا المقعد الكبير . ثم ان سعدا أباح للشعب حق التظاهر . انه حق مقدس كحق الكلام وكحق الانتخاب .

وترك سعد مائدة الافطار دون أن يتم طعامه ، وخرج الى شرفة السلاملك يستقبل الحوذية الثائرين .

قال العربجية . انهم يطلبون من سعد رئيس الوزراء وزعيم الأمة أن يصدر قانونا يمنع السيارات من السير فى شوارع العاصمة ! ان سيارات التاكسى بدأت تنتشر فى القاهرة . الناس أصحبوا يفضلون ركوب السيارات على ركوب العربات . ان السيارات تهددهم فى أرزاقهم وتنتزع القوت من أفواههم . انها تهددهم بالبطالة والموت جوعا . الحانطور صناعة مصرية والسيارة صناعة أجنبية . الشعير الذى تأكله الخيل يزرعه الفلاح المصرى . وبنزين السيارات يستورد من عدوتنا انجلترا . ثم ان السيارة إذا صدمت مصريا قتلته ، بينما العربة الحانطور لا تقتل أحدا . ان واجب وزارة الشعب أن تصدر هذا

القانون لتحمى الصناعة المصرية ، لتحمى الفلاح المصرى ، لتحمى حياة المصريين من حوادث اصطدام السيارات .

ووقف سعد يستمع فى اهتمام الى خطباء الحوذية المتحمسين ، حتى إذا انتهوا من كلماتهم النارية قال لهم فى هدوء :

— ان السيارات دخلت الى القاهرة قبل تولى وزارتى بعدة سنوات ، فلماذا لم تتقدموا بهذا الطلب من قبل الى الحكومات الأخرى !

فصاح الحوذية · لأن الحكومات الأخرى عينها الانجليز لتعمل لمصلحة الانجليز . أما حكومتك فنحن الذين انتخبناها لتعمل لمصلحتنا .

وتطلع سعد الى عيون العربجية فقرأ فيها التحدى والعنف والاصرار الذى لا يقبل التراجع أو التأجيل . ثم ابتسم ، وكأنه أراد بهذه الابتسامة أن يحتضنهم جميعا !

ثم قال :

— انني عربجي مثلكم ! مهمتي أن أقود العربة كما تقودونها . ان حكومة الشعب هي العربة الحانطور . ومصر هي الزبون الوحيد الذى يركب هذه العربة . وواجبى أن أوصل هذا الزبون الى الجهة التى يريد الذهاب اليها ، وهى الاستقلال التام لمصر والسودان . الفرق الوحيد بيني وبينكم انكم تحملون الكرباج وأنا لا أحمل الكرباج !

وضحك العربجية الثائرون . اختفى الشرر من عيونهم . أحسوا بسعادة غامرة ان زعيم الأمة ورئيس وزرائها يؤكد لهم انه عربجي مثلهم ، ويشبه عمل زعيم الأمة ورئيس وزرائها بعمل العربجية !

وعندما شعر سعد انه كسب قلوبهم ، قال لهم ·

— والآن ساتحدث اليكم كعربجي يتحدث مع زملائه العربجية ! ان الزبون يريد أن يصل الى الجهة التي يريدها بسرعة . تماما كما تريد مصر أن أحقق لها الاستقلال بسرعة . وكل إبطاء أو تأخير ليس فى مصلحة الزبون . ونحن الآن فى عصر السرعة . السيارة هى علامة التقدم . انها تحل فى العالم كله محل العربات الحانطور . ولا أستطيع كزعيم هذه الأمة أن أسمح لها أن تتخلف . أن تمشى ببطء فى عصر السرعة . غير معقول أن أرى الطيارة تحل محل السيارة فى بلاد أخرى ، وألزم بلدى بأن تركب عربة حانطور . ستكون نتيجة ذلك أن تسبقنا الأمم الأخرى . أتقبلون أن تتقدم الأمم الأخرى ونتاخر نحن ؟ انني واثق من أن وطنيتكم لن تسمح بذلك . انني واثق من انكم تفضلون أن تسير بلادنا بسرعة السيارة وبسرعة الطيارة . أفهم أن تفكروا فى مستقبلكم فهذا حقكم . والذى لا يعمل من أجل المستقبل لا يستحق حاضره ولا ماضيه . أفهم بدلا من أن تطلبوا منع السيارات . أن تلزموا الحكومة

بأن تنشيء مدرسة لتعليم قيادة السيارات . أن تساعدكم على الالتحاق بها في وقت فراغكم . أن تمكنكم من التدرب على الآلات الحديثة . وبذلك يتضاعف دخلكم ويتأمن مستقبلكم . ان واجبكم أن تطالبوني بإدخال الأجهزة الحديثة الى بلادنا ان الانجليز يسعدهم أن نتخلف . أن نتأخر . أن تسبقنا دول العالم أن نركب العربات الحانطور ويركبوا هم الطائرات . ولن تقبلوا أن يقول التاريخ ان حوذية مصر نادوا بأن تتأخر مصر عن بلاد العالم ، خاصة وأنا أعلم مقدار وطنيتكم وغيرتكم على بلادكم . أعلم انكم اشتركتم في الثورة . وأعلم انكم ضحيتم بقوتكم في أحلك الأيام من أجل مصر وحريتها وأعلم انكم في استعداد أن تكرروا هذه التضحية من أجل تقدمها . فلا حرية مع التأخر ، ولا استقلال مع التخلف . ماذا كنتم تقولون لو أن أصحاب العربات الكارو طلبوا منع العربات الحانطور . وأصبحنا الشعب الوحيد في العالم الذى لا ينتقل إلا فوق عربات كارو ؟ وأنا لا أكلمكم كرئيس وزراء . ولا كزعيم أمة ، ولكنى أتكلم كواحد منكم يهمني مستقبلكم . لأن مستقبلكم هو مستقبلي . سوف أفعل ما تريدون . إذا كنتم تريدون أن تتقدم مصر بسرعة العربة الحانطور فساخضع لرأيكم وإذا أردتم أن نتقدم بسرعة السيارة وبسرعة الطيارة فسوف أفعل ما تأمرون به !

وصاح الحوذية : بسرعة الطيارة !

قال سعد : إذن اتفقنا !

وهتف الحوذية يعيش سعد باشا

وضحك سعد وقال : لا بل قولوا . يعيش الأسطى سعد

وهتف الحوذية وهم ينصرفون يعيش الأسطى سعد !

وعاد سعد سعيدا الى مائدة الطعام ، يستأنف تناول افطاره . انه لم يعط الحوذية شيئا ، وأعطاهم في الوقت نفسه كل شيء . لم يستجب لمطالبهم بمنع السيارات ولكنه أعطاهم أضعاف هذه المطالب ، أعطاهم الشعور بالكرامة ، الشعور بالأهمية ، أمن لهم مستقبلهم . نزل اليهم ورفعهم اليه منحهم احساسا جديدا بالاحترام . حتى ذلك اليوم كانت كلمة « عربجي » هي احدى كلمات السباب المتداولة . وكان إذا أراد مصرى أن يصف كلاما بالحقارة والتفاهة والوقاحة قال انه « كلام عربجية » ولكنه لم يهزأ من طلبهم الساذج ، ولم يسخر به ، ولم يحط من شأنه ، وإنما رفع شأن هؤلاء العربجية الثائرين . جعلهم في مقام المسئولية جعلهم يتصورون انه يترك لهم أن يختاروا بين مصلحتهم الشخصية ومصلحة الوطن ، ولم يترك لهم خيارا غير أن يختاروا ما أراده لهم . وفي الوقت نفسه فتح أمامهم آفاق المستقبل . بين لهم أن الطريق لرفع أجر العامل ليس هو منع المنافسة ،

وإنما هو فى التدرب على الآلة الحديثة ، هو فى الاشتراك فى سباق التقدم بأسلحة التقدم .

كان التوأمان يسمعان جدهما وهو يتحدث الى الحوذية مبهورين مفتونين . كانا فى سن العاشرة ولم يكن فى استطاعتهما أن يفهما كل ما فى كلماته من بلاغة ، وكل ما فى عباراته من فصاحة . لكنهما لمسا هذه البلاغة فى عيون الحوذية . كأن حديثه موجات من الكهرباء تنعكس على ملامح الحوذية الغاضبين الساخطين . كانت هذه الموجات كحرارة أشعة الشمس تضىء الملامح المظلمة ، كأنها رذاذ منعش لذيذ يغسل الوجوه الكالحة . كأن الكلمات تحولت الى أصابع تدغدغهم فيضحكون . ثم تحولت الى أيد تمسح على رؤوسهم فيحسون بحنان حرموا منه طوال السنين ، ثم تتحول الكلمات الى أذرع تعانقهم ، ثم أخيرا تتحول الى شفاه تقبلهم .

كان الولدان يشعران بأن قلبيهما يخفقان بشدة وهما يشهدان سحر جدهما ، وكيف استطاع أن يحول العاصفة الى نسيم . كيف تحكم فى التيار الغاضب وجعله هواء منعشا لذيذا . كيف حول الساخطين الى راضين . كان صوته أشبه بأنغام الناى . أنغام ساذجة ولكنها تهوى الى قاع قلوبهم وتستقر فيها . ولو ان جدهم عزف لهؤلاء الحوذية لحنا من ألحان الأوركستر لردته آذانهم ، ولرفضته أرواحهم . ولكن السر الخفى كان فى أن جدهم يتكلم مع الحوذية بلغتهم ، ولهذا استطاع ان يفتنهم ويسحرهم . فالصدق فى التعبير فيه من البلاغة أكثر مما فى كتب البلاغة . ورب نغمة صادقة على ناى ساذج فيها من الفن أكثر مما فى كتب السيمفونيات جميعا . ان الطبيعة هى الفن . الرسامون العباقرة يحاولون أن يقلدوها . الشعراء الفحول يتفننون فى نقلها . الموسيقيون الموهوبون يكدحون لتصويرها . ولكن تبقى الطبيعة بعد كل هذا أجمل من رسومهم وقصائدهم وألحانهم !

وقال مصطفى لسعد : ألم يخطر ببالك يا جدى ماذا كنت تفعل لو ان الحوذية اختاروا العربة الحانطور عندما جعلتهم حكما فى بقاء السيارة أو الغائها !

قال سعد وهو يضحك ويغلق عينيه من شدة الضحك :

— لا .. لم يخطر ببالى هذا مطلقا !

قال على : هل معنى ذلك انك كنت واثقا من بلاغتك ؟

قال سعد : لا .. بل كنت واثقا من قوة هذا الشعب . من استعداده الدائم للتضحية من أجل الوطن . المهم أن تمنحه ثقتك ، وأن تشرح له القضية ، وعندئذ ستكسب القضية . ان شعبنا ذكى جدا وطيب جدا فى الوقت نفسه . وطيبته تجعل البعض يتصور انه من الممكن خداعه ، فيذهلون عندما يجدون

ان هذا الشعب الطيب فيه دهاء علمته له الأهوال التي مرت به . الشعوب التي تحملت الضغط والظلم والاستبداد ، تكون عادة أكثر ذكاء وحرصا من الشعوب التي لم تذق طعم الطغيان . ان الضعيف يحتاج الى دهاء ليعيش مع الطاغية ، لأنه يغلبه بدهائه أكثر مما يغلبه بقوته . وكان بعض الأوروبيين يعتقدون ان صبر شعبنا هو خضوع وذلة واستسلام . وكنت دائما على ثقة من أن هذا الصبر هو ذكاء ودهاء . هو انتظار للفرصة الملائمة للانقضاض . وما حدث في ثورة ١٩١٩ أكبر دليل على صدق نظريتي .

كان سعد يهتم دائما بأن يشرح لحفيديه الصغيرين كل شيء . كان يشجعهما على أن يسالا ويستوضحا ويستفسرا . ولم يكن يخصهما وحدهما بهذا الاهتمام ، فإن طبيعة المعلم فيه كانت أقوى صفاته وأبرز ميزاته . وكان مستعدا دائما لأن يكرر ليوضح ، وأن يوجه الأسئلة ليمتحن السامع فيما سمعه . وكان غريبا أن يجد الزعيم المشغول بأمور الدولة وقتا للولدين الصغيرين . ولكنه كان يزاول لذته الكبرى في القاء دروسه بغير أن يفهم التلميذ انه تلميذ ، وبغير أن يشعره بأنه الأستاذ . كانت بساطته في الشرح تحول المسائل العويصة كأنها « حدوتة » فيها طلاوتها وطرافتها واثارتها وجدتها ! كان يختار لهما دائما الكلمات البسيطة ، والمعاني الواضحة ، ويلجأ الى تشبيهات قريبة الى أفهامهما ، وكان قلبه العجوز يشرق إذا أحس انه نقل الى الأذهان الصغيرة ما في رأسه الكبير . وكأنه يشعر بأنه زرع قمحا في أرض جدباء ، وبدأ يرى سنابل القمح فوق أعوادها الصغيرة .

وكان الولدان سعيدين بهذه المدرسة الجديدة . مدرسة فيها تلميذان اثنان ومعلم واحد . دروسها ممتعة . وحصصها متفرقة ، مدرسة بغير كتب ولا كراريس ، فيجلسان في مقعديهما ملتصقين بهما ، مبهورين بحديث المدرس ، متتبعين لشرحه ، كأنهما يشهدان قصة سينمائية مثيرة ، هو بطلها ، فيلم مسلسل ، حلقاته لا تنتهي . كل حلقة فيها مغامرة جديدة . لقد شاهدا في تلك الأيام في السينما فيلم أحمد لص بغداد . كان يقوم به الممثل دوجلاس فيربانكس . وقد رأيا فيه كيف يلقي دوجلاس التراب فيتحول الى جنود يهاجمون قصر الخليفة ! ان جدهما يفعل يوميا ما يفعله دوجلاس فيربانكس . ان كلماته أشبه بالتراب الذي يلقيه لص بغداد . فتنشق الأرض ويخرج منها مئات الألوف يسيرون خلف هذا الزعيم لتحقيق أهدافه في انتزاع الحرية لبلادهم من مخالب الأقوياء والمحتلين !

وفي اليوم الأول من تأليف الوزارة سمعا من شفتيه كلمة استقالة الوزارة : في يوم مولد الوزارة كان يتوقع موتها !

وكان تهديده بالاستقالة بسبب المسجونين السياسيين . ان الانجليز

افرجوا عن أغلب المسجونين السياسيين ، ورفضوا الافراج عن عبدالرحمن فهمي وزملائه في قضية المؤامرة الكبرى ، وعن عدد آخر من المسجونين وكانت هذه المشكلة هي شاغله الأكبر ومشكلته الجاثمة فوق صدره كان الانجليز يعارضون بشدة في هذا الافراج والعقلاء منهم يرون تركها للمفاوضات بين مصر وبريطانيا ، لتكون « كارت » يساومون به سعد في أثناء المفاوضات . وكان سعد يحرص في كل مناسبة على أن يثير موضوع الافراج عن المسجونين السياسيين .

عندما أفرج الانجليز عنه من جبل طارق ، وانتقل بالباخرة الى ميناء طولون بفرنسا خرج مئات الطلبة المصريين والعرب الذين يتعلمون في جامعات أوروبا ، خرجوا يستقبلونه في عرض البحر ، ويذكرون بطولته ويشيدون بالمجد الذى صنع لبلاده وإذا به يخطب فيهم راجيا أن ينسوه في تلك اللحظة « وليفكروا في الذين لا يزالون يرسفون في قيود السجن والاعتقال »

وعندما ألف وزارته أصر على أن يكتب في خطاب تأليف الوزارة الى الملك ان الشعب يريد العفو عن المسجونين السياسيين وهو بذلك قد أعرب عن مطلب الأمة . وهو مطلب واجب التنفيذ

وكان سعد يقول لأسرته في ضيق

— انني لا أشعر بأى سعادة في هذا الكرسى ! كيف أجلس على مقعد الرياسة وأنصارى يرسفون في قيودهم في الزنازين . كيف أرتدى بدلة التشريفة الموشاة بالقصب وأولادى يرتدون ملابس السجن الزرقاء ! كيف أحضر الاحتفالات الكبرى التى تقام لى ، وجنود الثورة وأبطالها يشربون الماء في جرادل ويأكلون الطعام الذى تعافه الكلاب !

ان أزمة الافراج عن المسجونين السياسيين لم تستمر سوى بضعة أيام وكانت تبدو في عين سعد كأنها أجيال وأجيال . كان يقول ان الانجليز يتعمدون إذلاله وتحقيره أمام أنصاره كلما تأخروا ساعة في الافراج عن المسجونين السياسيين . كان يقول ان تعطيل الافراج عنهم معناه ان البلد ليس فيه حرية ولا فيه دستور . معناه ان مصر كلها لا تزال في اغلال . ان وجود مسجون سياسى واحد في السجن يعنى ان الأمة كلها مقيدة . فليس في البلاد الحرة جريمة سياسية !

واضطر الانجليز أن يذعنوا أمام تصميمه وعندما خرج المسجونون من سجونهم لم يذهبوا الى بيوتهم . وإنما ذهبوا الى بيت الأمة وعندما رآهم سعد دمعت عيناه وقال :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما   يظنان كل الظن ألا تلاقيا !

ثم التفت الى الوزراء الموجودين وقال

— اننى الآن فقط أشعر باننى أصبحت رئيسا للوزراء !

ولم يكتف سعد بالافراج عن المسجونين السياسيين راح يبحث عن ظروفهم وأحوالهم انه يعرف ان المسجون السياسى لا يفقد حريته فقط . بل انه يفقد ايضا حياته . يخرب بيته تبيع أمه سوارها الذهبى لتنفق عليه . تبيع زوجته الحلل النحاس لتشترى له الطعام الذى تحمله اليه فى زيارة السجن . يفقد وظيفته إذا كان موظفا يطرد من عمله إذا كان عاملا . يفصل من مدرسته إذا كان طالبا يخرج من السجن مشردا . ضائعا . لا يجد مأوى يلجأ اليه . لا يجد مالا يعيش عليه ان سعدا ذاق هذا التشرد عندما خرج من السجن بعد الثورة العرابية . كان يبحث عن أصدقاء فلا يجدهم . يبحث عن عمل فتغلق فى وجهه الأبواب . يجب أن يكون هناك فارق بين الثورة المنتصرة والثورة المهزومة . لا تستطيع الثورة الناجحة أن تتخلى عن أبنائها الذين أحرقوا أنفسهم لينيروا لها الطريق .

وأمر سعد بأن يسند الى جميع أعضاء الجهاز السرى وظائف فى الحكومة . ولكنه اصطدم بالقانون المالى الذى يضع اشتراطات للتعيين لا تتوافر فى الذين أمضوا أحلى أيام شبابهم فى الزنزانات مقيدين بالسلاسل والأغلال . ووجد سعد حلا لهذه المشكلة ان قانون انشاء سكرتارية البرلمان أعفى موظفيه من قواعد القانون المالى ولهذا قرر أن يعين أعضاء الجهاز السرى فى كل وظائف سكرتارية البرلمان . وتولى أحمد ماهر والنقراشى وضع كشف بأسمائهم وصدر قرار تعيينهم فى الحال

وقامت قيامة صحف المعارضة كيف يعين من لا يحمل الليسانس بمرتب حامل الليسانس كيف يعين راسب الكفاءة فى وظيفة حملة البكالوريا .

وثار الموظفون على هذه التعيينات ان المرتبات تزيد جنيهين أو ثلاثة جنيهات على زملائهم ولكن هذه المبالغ التافهة أسخطت الموظفين ، وخاصة من أيد منهم كل وزارة ووقف يتفرج على الثورة ولم يكتو بنارها .

ورأى سعد ان من مصلحة الثورة ألا تدافع عن نفسها انها قد تحتاج الى كل هؤلاء الأبطال المجهولين فى أى وقت ، فليس من الحكمة أن تكشف عن أوراقها ، وتذيع أسرارها لتدافع عن تصرف لها ! كانت الصحف تقول مثلا كيف يعين توفيق تادرس بمرتب عشرة جنيهات وهو راسب فى دبلوم مدرسة الفنون والصنائع وكان يمكن الرد على ذلك بأن توفيق تادرس كان من أنشط أعضاء جهاز المنشورات الذى كان يهز العرش تحت مقعد السلطان !

كانت صحف المعارضة تردد كيف يعين وكيل مكتب مرقص حنا بعشرين جنيها . وكان يمكن افحام هؤلاء بأن هذا الذى يسمونه « محسوبا » كان

ابرز أعضاء جمعية الشعلة الفدائية التى كانت تقتل الجنود الانجليز فى الثورة . وكان القائد البريطانى قد وعد بمكافاة خمسة آلاف جنيه لمن يجيء برأسه !

وعاش هؤلاء الأبطال فى محنة . يهاجمهم خصوم سعد وهم ممنوعون من الرد . يتهمون بأنهم محاسيب ودلاديل وهم الفدائيون الحقيقيون الذين وضعوا رؤوسهم على أكفهم ، ولم يهابوا الموت ، ولم يحرصوا على الحياة . وكانوا يضيقون بهذه الاتهامات وكان كثيرون منهم يذهبون الى سعد ويقولون انهم يفضلون أن يتركوا هذه الوظائف التافهة ويموتوا جوعا على أن يتحملوا هذا السباب اليومى ، فكان سعد يقول لهم ان هذه تضحية جديدة يجب أن يضيفوها الى سلسلة تضحياتهم . وانه يعتقد ان الغرض من الحملة ليس القروش البسيطة التى يقبضونها وإنما محاولة احراجهم للكشف عن الجهاز السرى الذى يعمل تحت الأرض ، ليتمكنوا من ضربه فى الوقت المناسب .

ولم يكن خصوم سعد هم الساخطين وحدهم . بعض الموظفين الذين نالوا هذه الترقيات بدأوا يسخطون أيضا . النفس البشرية تصور لكل انسان انه يستحق أكثر مما أخذ . الذين ضحوا بحياتهم بشر أيضا . ان قصة الثورة الكاملة لم تكن معروفة حتى لبعض أبطالها . كان العمل تحت الأرض يقتضى الكتمان . لم يكن الفدائيون يعرفون زملاءهم فى الجهاز . الذين يتصورون انهم يعرفون كل القصة لا يعرفون فى الواقع إلا الجانب الضئيل منها . بعض الفدائيين وجدوا أسماء غريبة دست عليهم . خيل لهم انهم فضوليون تسلقوا على أكتافهم . انهم يجنون ثمار أرض لم يرووا زرعها بدمائهم . وكانت الحقيقة غير ما يتصورون .

واضطر سعد أن يقابل بعضهم ليوضح له ان مخاوفه لا أساس لها . وانه شخصيا لم يعرف كل أسماء أبطال الثورة . واستعان بعدد ممن يثق بهم من زعماء الجهاز السرى لمعرفة الأسماء . ولكن لا يزال هناك أبطال مجهولون لا يعرف أسماءهم . رجال قاموا بخدمات جليلة ولم يظهروا . بينهم ضباط البوليس الشاب الذى اكتشف المنشورات الخطيرة فى بيت الأمة وتستر عليها . انه حتى الآن يبحث عنه فى كل مكان ولا يجده . ولكن بعض هؤلاء لم يقتنعوا بهذا الراى . وقد وقعت أحداث جسام نتيجة عدم الاقتناع .. لعل أبرزها خروج احدى الخلايا السرية على قيادة الجهاز السرى وقتلها سير لى ستاك سردار الجيش المصرى وحاكم السودان . وهو الحدث الذى اعتبره سعد موجها ضده شخصيا .

وحدث فى هذه الفترة أن عين سعد محمود فهمى النقراشى وكيلا لمحافظة القاهرة .

ودهش أعضاء الجهاز السرى كيف يقبل أحد زعمائهم وواحد من أبرز أعضاء الوفد هذا المنصب الضئيل .

والذى حدث أن سعد استدعى النقراشى وقال له : انني أريد أن أعينك وزيرا للداخلية ولكنني أرى أن تبدأ من أول السلم لتدرس هذه الوزارة المليئة بالثعابين . انني سأعينك فى أقل منصب وهو منصب وكيل محافظة القاهرة . وبعد شهور سأعينك وكيلا لوزارة الداخلية ، وبعد عام ستصبح وزير الداخلية .

وقبل النقراشى هذا المنصب على الفور ، وفى الوقت نفسه استدعى الدكتور أحمد ماهر وقال له لقد كنت أريد أن أعينك وزيرا . ولكن قيل انك ما زلت صغير السن سأجعلك سكرتيرا برلمانيا . ثم سكرتيرا للهيئة البرلمانية الوفدية وهو أهم منصب فى البرلمان فى رأيى ، وبعد أن تصبح فيه مرموقا ستصبح وزيرا .

ولم تمض بضعة شهور حتى كان أحمد ماهر وزيرا للمعارف والنقراشى وكيلا لوزارة الداخلية

ولكن هذه المهام لم تكن كل أسباب الصداع فى رأس سعد . فقد كانت الأزمات تلاحق وزارته بالليل والنهار !

ففى الأسبوع الأول للوزارة وقعت أزمة حادة بين الملك فؤاد ورئيس وزرائه . كان دستور سنة ١٩٢٣ ينص على تعيين الخمسين من أعضاء مجلس الشيوخ ، أما ثلاثة أخماس المجلس فتتم بالانتخاب

وأراد الملك أن يعين الخمسين من أعضاء الشيوخ كما يقضى الدستور

وقال سعد ان هذا ليس من حقك . انه من حق الحكومة !

قال الملك ولكن الدستور ينص على ان الملك هو الذى يختار أعضاء الشيوخ المعينين

قال سعد ان الدستور ينص على ان الملك يملك ولا يحكم . بمعنى ان الحكومة هى التى تقترح الأسماء وجلالتكم توقعون على المرسوم .

واستشاط الملك غضبا وقال

— يعنى وظيفتى بصمجى أبصم ما تقرره أنت ، أنا لا أقبل أنْ أكون طرطورا .

قال سعد ان الحق الذى تريد أن تأخذه جلالتك هو حق الشعب ، ولا أملك أن أنزل عنه . ان الدستور صريح فى ان هذا هو حق الحكومة التى اختارها الشعب فى الانتخابات

وعاد الملك وقال غاضبا

— انك تتعمد أن تهيننى بهذا الموقف .

قال سعد : معاذ الله أن أتعمد اهانة جلالتكم .. وإذا اختلفنا فيمكن أن نحتكم الى البرلمان .. وهو الذى يحكم بيننا !

قال الملك : البرلمان ؟! البرلمان كله معك . والمقصود بهذا أن تفضحنى أمام الشعب وتصورنى بصورة الملك الذى يعتدى على حقوق الشعب .

قال : ممكن أن نعرض الخلاف فى جلسة سرية !

واشتدت ثورة الملك ، وبقى سعد هادىء الأعصاب ، لا يتزعزع عن الموقف الذى قرره .

وبعد مناقشات طويلة ومقابلات عديدة ، تم الوصول الى حل وهو تقرير مبدأ أن حق الوزارة ثابت بحكم الدستور فى انها هى وحدها التى تعين أعضاء مجلس الشيوخ ، وفى الوقت نفسه يجامل سعد الملك فيوافق على عدد من الأعضاء الذين يختارهم .

وتقدم الملك بقائمة فيها أسماء عدلى يكن باشا ويحيى ابراهيم باشا من رؤساء الوزارات السابقين واسماعيل صدقى باشا من الوزراء .

ورفض سعد الموافقة عليهم . وقال ان الشعب أسقط عدلى يكن فى الانتخابات الثلاثينية ، والشعب أسقط يحيى ابراهيم باشا واسماعيل صدقى باشا فى انتخابات مجلس النواب ، فتعيينهم فى البرلمان بعد سقوطهم معناه تحدى ارادة الشعب . معناه ان الملك يفرض على الشعب رجالا رفض أن يكونوا أعضاء فى البرلمان .

ونزل الملك على ارادة سعد ، وشطب الأسماء الثلاثة .

وجامل رئيس الوزراء الملك فعين والد محمد نجيب باشا ناظر الخاصة الملكية عضوا فى مجلس الشيوخ ! وجامله فى تسعة أشخاص آخرين ! أما باقى أعضاء مجلس الشيوخ المعينين فقد اختارهم مجلس الوزراء وحده !

ووقع الملك المرسوم وهو يبكى !

وعاد سعد الى بيته فى دهشة من بكاء الملك ، انه لم يوجه اليه أى اهانة . انه حرص على ألا يوجه اليه كلمة خارجة . ثم ابتسم وقال :

— إذا كان الملك يبكى لأننى أرفض أن أسلم له فى حق من حقوق الشعب ، فإنه سيبكى كثيرا !

وكان الملك فؤاد ممثلا كبيرا . دموعه هى دموع التماسيح . كان يتظاهر أمام رئيس وزرائه بالضعف والاستكانة وقبول الهزيمة ، بينما كان فى الظلام يدبر المؤامرات ، ويحيك المكائد ، ويضع الألغام الناسفة فى طريق وزارته . كان يتظاهر بأنه يؤيد رئيس وزرائه فى مواقفه ضد الانجليز ، وفى الوقت

نفسه يؤلبهم ضده ، ويؤكد للورد اللنبى المندوب السامى البريطانى أن سعد يريد أن يقوى نفوذه داخليا ، ليقوم بالانقضاض على الانجليز ، وأن الثورة القادمة أخطر من ثورة سنة ١٩١٩ ، فإن الحكومة سوف تكون فى يد الثوار بدلا من أن تكون فى يد الانجليز !

وفى تلك الأثناء حدثت أزمة طريفة ..

اتصل الملك فؤاد تليفونيا بسعد وقال له انه يرغب فى أن يراه فى قصر عابدين لأمر هام .

وقال سعد : آسف اننى لا أستطيع الحضور . ان ساقى متعبة ولا أستطيع الصعود على السلالم الى مكتب جلالتكم فى الطابق الثانى فى قصر عابدين .

وأحرج الملك وقال : سوف أستقبلكم فى الطابق الأول فى مكتب سعيد ذو الفقار باشا كبير الأمناء .

وقال سعد : إذن سأحضر لجلالتكم .

وأصبح الملك يضطر الى الهبوط الى الطابق الأرضى فى القصر ، فى كل مرة يستقبل فيها رئيس وزرائه .

وتصور الملك أن سعد يتعمد اهانته برفضه الصعود الى الطابق الثانى ، وبأنه يحاول أن يظهره أمام حاشيته وخدمه بأنه يضطر الى أن يغادر الطابق الثانى فى كل مرة يستقبل فيها رئيس وزرائه .

والواقع أن سعد فى تلك الأيام بدأ يشكو من ساقيه ، حتى ان صفية أعدت له مقعدا كبيرا يجلس عليه ، ويحمله خادمان ويصعدان به من الطابق الأول الى غرفة نومه فى الطابق الثانى فى بيت الأمة .

وأمر الملك ببناء مصعد لأول مرة فى قصر عابدين . وجرى العمل فى بناء المصعد ليلا ونهارا حتى لا يضطر الملك الى النزول من الطابق الثانى ليستقبل رئيس وزرائه فى الطابق الأرضى .

وأطلق موظفو القصر على هذا المصعد اسم « اسانسير سعد باشا » وبقى هذا هو اسم المصعد الى آخر أيام الملك فاروق !

وتنتهى أزمة المصعد لتبدأ أزمة جديدة .

وجد سعد أن فى ميزانية الدولة مبلغا ضخما تدفعه الحكومة المصرية سنويا للحكومة البريطانية هو نفقات جيش الاحتلال !

وقال سعد : انه لا يفهم أن يدفع المستعبدون ثمن السياط التى يجلدون بها ! ان دفعنا هذا المبلغ معناه اننا راضون بالاحتلال .. وما دمنا نرفض القيد فيجب أن نرفض دفع مصاريف صيانة السلاسل والأغلال !

وعارض المستشار المالي في وزارة المالية ، وهو انجليزي ، هذا الالغاء وقال انه التزام لا تستطيع أن تتحلل منه مصر بغير موافقة انجلترا

قال سعد إنني لا أجد معاهدة وقعتها مصر تلزمها بهذا الدفع

فقال المستشار المالي ان حكومة مصر تدفع هذا المبلغ لبريطانيا منذ العام الأول للاحتلال . واستمرارها على الدفع هو التزام يرتفع الى مرتبة العقد

قال سعد هذه الحكومات التى تدفع لكم هي الحكومات التى عينتموها . وما ارتبطت به لا يلزم حكومتي لنفرض أن وكيلي دفع لمستأجر بيتي أجرا بدل أن يحصل منه ايجارا فهل يلزمني هذا الخطأ فما بالك والجيش البريطاني لم يستأجر بيتي وإنما اغتصبه !

فقال المستشار المالي من الوجهة القانونية يجب أن تستمر في الدفع !

قال سعد محتدا أريد أن أعرف هل أنت مستشار الحكومة المصرية أم مستشار الحكومة البريطانية

فقال المستشار المالي أنا مستشار الحكومة المصرية

قال سعد ولكنك متحمس للدفاع عن وجهة نظر بريطانيا ! وقد كان من الواجب أن تدفع الحكومة البريطانية مرتبك بدلا من أن أدفعه أنا !

وحذف سعد نفقات جيش الاحتلال البريطاني من ميزانية الدولة المصرية وامر بعدم تجديد عقد المستشار المالي الذى كان سينتهي في خلال شهور

وقامت دار المندوب السامي البريطاني ولم تقعد

وقامت قيامة الحكومة البريطانية

وأصر سعد على موقفه

والقارىء في الستينيات أو السبعينيات قد يرى في هذا الموقف الذى وقفه رئيس وزراء مصر أمرا عاديا ليس فيه بطولة غير عادية ولكن لكي نحكم على هذا الموقف يجب أن نذكر كيف كانت مصر في تلك الأيام . فقد كان الجيش البريطاني يحتل أراضيها وكان حكمدارو البوليس في المحافظات من الانجليز وقائد الجيش المصري من الانجليز . وقواد الأسلحة من الانجليز بل ان محافظ سيناء كان انجليزيا ! وكان البوليس السرى بقيادة انجليزي ، وعدد من كبار الموظفين في المناصب الحساسة من الانجليز .

ثم كان ملك مصر نفسه معينا بقرار من وزير خارجية بريطانيا ! ولم يكن في تلك الأيام أمم متحدة ، ولا ميثاق للأمم المتحدة ، ولا مجلس أمن ، ولا رأى عام دولي وكانت هناك عصبة أمم لم تكن مصر عضوا فيها . وكانت بريطانيا يومئذ أقوى دولة في العالم وسيدة البحار ، والامبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس .

فقيمة موقف رئيس الوزراء المصرى ومدى شجاعته يقدران بمقاييس تلك الأيام ، لا بمقاييس هذه الأيام . وبمكانة بريطانيا يومئذ لا بمكانتها اليوم وبأن دول العالم الكبرى فى تلك الأيام كانت خاضعة لبريطانيا ، ولم تكن هناك دولة واحدة تنازعها على الزعامة أو تقاسمها النفوذ .

ثم بدأت أزمة أخرى .

قبل تولى سعد رياسة الوزارة التجأ عشرة من زعماء ليبيا الى مصر ، وقبض عليهم مدير الحدود الانجليزى ووضعتهم وزارة يحيى ابراهيم باشا فى السجن .

وما كاد سعد يتولى الوزارة حتى كتب السنيور موسولينى رئيس وزراء ايطاليا خطابا الى سعد زغلول يطلب فيه تسليم ايطاليا هؤلاء الزعماء العشرة لتحاكمهم !

ورفض سعد طلب السنيور موسولينى !

وكتب السنيور موسولينى خطابا الى رئيس وزراء بريطانيا يطلب اليه أن يضغط على سعد زغلول ليسلم له الزعماء العشرة .

وطلب رئيس وزراء بريطانيا من سعد أن يسلم الزعماء الليبيين العشرة الى موسولينى ، لأن الحكومة البريطانية حريصة على علاقاتها الودية الطيبة مع حليفتها ايطاليا وخاصة لأن السنيور موسولينى مصر على محاكمتهم لأنهم مجرمون سياسيون .

قال سعد وأنا أيضا كنت مجرما سياسيا فى نظركم وربما ما زلتم تعتبرونني الى اليوم مجرما سياسيا ! ان تهمتهم هى نفس التهمة التى أنا متهم بها وأتشرف بها وهى تهمة المطالبة بالاستقلال . وجريمتهم هى نفس جريمتى ، وهى الدفاع عن حرية بلادهم ! ألا يكفيكم انهم ألقوا سلاحهم انهم هربوا من بلادهم . لماذا هذه المطاردة . هل يرضى القتيل وليس يرضى القاتل !

وأصر موسولينى على ضرورة تسليم الزعماء الليبيين العشرة ووعد بمحاكمتهم محاكمة عادلة !

وضحك سعد وقال : أنا خير من يعرف هذه المحاكمات العادلة ! نفس المحاكم التى حكمت على أعضاء الوفد بالاعدام لأنهم طالبوا بحرية بلادهم !

وهدد موسولينى وتوعد .

وهددت بريطانيا وتوعدت .

وقرر سعد أن يطلق سراح الزعماء العشرة على أن يبرحوا مصر الى حيث يشاءون .

ولم يعجب هذا القرار الثوار المصريين ، وكان عبدالرحمن عزام يتناول الغداء مع سعد زغلول في وجود التوأمين .

وقال عزام : كان واجبك أن تفرج عنهم وتبقيهم في مصر متحديا بريطانيا وايطاليا معا .

قال سعد لو كنت أضمن أن حكومتي باقية في الحكم ٢٤ ساعة لفعلت ذلك . ولكنني أعرف ان بقائي في الحكم مؤقت . وأن الانجليز يتآمرون للخلاص مني .. فلو خرجت من الحكم غدا فستجيء حكومة بعدي وتسلمهم الى موسوليني ليشنقهم . إنني فضلت هذا الحل .

قال عزام : كان أشرف لنا أن يشنقهم موسوليني . من أن نفرج عنهم ونطلب منهم أن يبرحوا القطر الى حيث يشاءون .

قال سعد . ان البلد المحتل لا يستطيع أن يتصرف كالبلد المستقل . انني أردت أن أحل المسألة هذا الحل الكريم خشية أن تتمسك بريطانيا بتصريح ٢٨ فبراير الذى تدعي فيه بريطانيا مسئوليتها عن حماية الأجانب وعلاقات مصر الخارجية عندما يقع خلاف يؤذن بتعريض مصر لاعتداء أو تهديد من احدى الدول القوية . أردت إذا أراد الانجليز أن يتدخلوا بهذه الحجة أن اجيبهم : ليس عندى زعماء معتقلون لأنهم فعلا خارج البلاد . وهذا ما وقع فعلا .

قال عبدالرحمن عزام : ومع ذلك فإنني غير مقتنع بهذا الحل .

قال سعد : لو كنت مكانك لقلت هذا .. ولكن لو كنت أنت مكاني لفعلت ما فعلته الآن !

ثم جدت أزمة أخرى أيضا .

علم سعد أن مستر هولدن مدير مصلحة الأملاك يعتبر أملاك الدولة أملاكه الخاصة ، يستغل نفوذه ، ويخالف القوانين ، ويوزع أرض الدولة على من يشاء وكيف يشاء .

وأمر سعد بإحالة مستر هولدن الى التحقيق .

وثار لورد اللنبى السامي البريطاني ، واعتبر التحقيق مع الموظف الانجليزى الكبير اهانة للامبراطورية البريطانية وطلب وقف التحقيق مع مستر هولدن وتقديم الاعتذار له !

وأمر سعد باستمرار التحقيق .

وقابل لورد اللنبى رئيس الوزراء مقابلة عاجلة وقال له ان الحكومة البريطانية تنظر بقلق لهذا التصرف . وانها تعتبره عملا عدائيا . فلم يسبق أن جرى تحقيق قضائى مع موظف بريطاني في مصر .

قال له سعد : لأنه لم يسبق أن قامت فى مصر حكومة لم يعينها الانجليز !
قال اللورد اللنبى : ولكننا نعتبر التحقيق معه تحقيقا مع بريطانيا .
قال سعد : ألا تحققون فى بريطانيا مع الموظفين الذين يجرمون !
قال لورد اللنبى : نعم ..
قال سعد : هل تريد أن تقول ان الجريمة تعتبر جريمة إذا وقعت فى بلادكم .. ولا تعتبر جريمة إذا وقعت فى بلاد أخرى !
قال لورد اللنبى : اننا نعتقد أن مستر هولدن يحقق معه لأنه انجليزى .
قال سعد . ان فى مصر مئات الموظفين الانجليز .. فلماذا لم نحقق معهم .. أخشى أن يعتقد المصريون أن الجيش البريطانى موجود فى مصر لحماية الجريمة والمجرمين .. وكل الذى أعدك به أن أقرأ بنفسى التحقيق مع مستر هولدن لا باعتبارى سعد زغلول رئيس الوزراء ولكن باعتبارى سعد زغلول القاضى .

وقرأ سعد التحقيق ، وأمر بإحالة مستر هولدن الى مجلس تأديب ، على الرغم من احتجاج المندوب السامى البريطانى !

ثم بدأت أزمة جديدة .

حدث أن اكتشف مستر كارتر مقبرة توت عنخ آمون ، وكان هذا الاكتشاف حدثا عالميا فى تلك الأيام ، كأنه الوصول الى القمر ، وكانت صحف العالم تحدث عن مستر كارتر هذا كأنه ارمسترونج أول من لمس بقدميه سطح القمر .

وانتهز مستر كارتر هذه الفرصة ، وأراد أن يعتبر مقبرة توت عنخ آمون ملكا خالصا لبريطانيا ، وكأن توت عنخ آمون تجنس بالجنسية البريطانية بعد أن اكتشفه مستر كارتر ! فكان يستبد بفتح المقبرة كما يشاء ، ويمنع موظفى مصلحة الآثار المصرية من الدخول ، ولا يبالى بما تقرره المصلحة المصرية من تعليمات .

ولما نبهته الحكومة المصرية الى مخالفته للترخيص المعطى له بالتنقيب أبرق الى سعد ينذره بأن يغلق مقبرة توت عنخ آمون ومقاضاة الحكومة المصرية !

وتصور مستر كارتر أن سعدا سيفزع من هذا التهديد فأبرق سعد اليه يقول :

« لكم الحرية فى أن تقاضوا الحكومة . ولكن الحكومة تريد أن تكون مواعيد الزيارات مصونة ومحترمة . وأما ما يتعلق بإغلاق المدافن كما تقولون ، فإنه يشق على أن أضطر الى تذكيركم بأن المدفن ليس ملكا لكم . وان العلم الذى تدعونه بحق لا يمكن أن يسلم باقدامكم مع زملائكم ـ من أجل أمر خاص بزيارة أفراد تريدون أن تميزوهم ـ على ترك التنقيبات العلمية ، التى

لا تهتم بها مصر وحدها أعظم اهتمام ، بل يهتم بها العالم كله أيضا »
وقامت الصحف البريطانية بحملة عنيفة على سعد فلم يهتز ، وغضب المندوب السامى البريطانى فلم يهتم ، وأصر على موقفه وقال للورد اللنبى :
— باى حق يباح للانجليز وحدهم زيارة توت عنخ آمون ! انه ملك مصرى وليس ملكا لبريطانيا ! ومع ذلك فإننا لا نتعصب فى هذا الشأن ، اننا نطالب بالمساواة بين جميع الأمم فى زيارة هذا الكشف العلمى ، لأن العلم لا يجوز أن تحتكره أمة واحدة ، حتى ولو كانت مصر صاحبة المقبرة ان تصريح ٢٨ فبراير الذى لا أعترف به ، وتتمسكون به ، يقول انكم تحمون الأجانب . ومعلوماتى التاريخية تؤكد ان توت عنخ آمون كان مصريا ولم يكن أجنبيا !
وأذعن الانجليز مرة أخرى !
ثم قامت أزمة جديدة ..
علم سعد أن السودان سيمثل رسميا فى معرض « ويمبلى » مع المستعمرات البريطانية وكتب سعد الى حاكم السودان يقول له : « على أى قاعدة دعى السودان للاشتراك فى هذا المعرض الخاص بالمستعمرات ؟ وكيف قبلتم الاشتراك فيه من غير إذن الحكومة المصرية ؟ »
ولم يرد حاكم السودان على سعد .
بل أرسل المندوب السامى البريطانى الى سعد مذكرة يقول فيها ان حاكم السودان أبلغه نبأ تلك البرقية ، وانه كتب الى حكومة لندن يستفسر عن هذه المسألة ، وسيكتب الى الحكومة المصرية بجواب لندن .
ورفض سعد أن يتلقى رد حاكم السودان عن طريق المندوب السامى البريطانى . فأبرق الى حاكم السودان يسأله ما سبب تأخير رده . ويقول له « ان المسائل التى كلفتك بها هى من شأنك دون سواك ، لأنها تتعلق بأعمال من اختصاص منصبك ، وانى ما زلت فى انتظار الرد منكم ، وأرجو ألا يتأخر الرد زيادة عما مضى »
ثم أبرق سعد الى عزيز عزت باشا وزير مصر المفوض فى لندن يطلب منه ابلاغ الحكومة البريطانية احتجاج مصر على تمثيل السودان بين المستعمرات البريطانية . وان السودان ليست مستعمرة بريطانية . وأن مصر والسودان دولة واحدة . وأن تصرف الحكومة البريطانية فيه اعتداء على حقوق مصر وعمل غير ودى موجه للحكومة المصرية .
ويهرول الحاكم العام ويكتب الى سعد معتذرا من التأخير لأنه أبلغ المعلومات المطلوبة الى المندوب السامى فى القاهرة ، الذى هو الطريق المعتاد للمخاطبة بين الحكومة المصرية وحكومة السودان فى جميع العهود السابقة .
ويرد سعد بأن حاكم السودان موظف يعينه ملك مصر ويستمد سلطته

من هذا التعيين وأن الطريق الطبيعى الوحيد للتخاطب بين الحكومة المصرية وحاكم السودان العام انما هو الطريق المباشر .

وترسل الحكومة البريطانية مذكرة لسعد فحواها أن الحكومة البريطانية لم يخطر ببالها أن تطلب أخذ رأيها إذا وجهت الحكومة المصرية دعوة لحكومة السودان لتشترك فى معرض تجارى شبيه بهذا المعرض . وأن معرض ويمبلى ليس وقفا على الامبراطورية البريطانية بل ان فيه أشياء متنوعة مثل صورة لمسجد فارسى فى ايران ، ونماذج لشلالات نياجرا فى الولايات المتحدة الأمريكية ومعرض من التبت .

وأصر سعد على أن هذا التصرف عمل يمس حقوق مصر وأن واجبه يقضى بالاحتجاج عليه .

وهكذا كان سعد ينتهز كل فرصة ليدافع عن حقوق مصر ، ويحافظ على استقلالها . وكان يحرص على أن يعلم الشعب بتفاصيل كل أزمة تقع بينه وبين الانجليز . وكان الانجليز يغضبون لأن هذه الأسرار الدبلوماسية تخرج الى الشارع .

وكان سعد يقول ان الفرق بين الحكومة الديمقراطية والحكومة الدكتاتورية ، ان الحكومة الدكتاتورية تتألف من عشرة وزراء هم وحدهم الذين يعرفون السياسة العليا ، وأحيانا يجهل الوزراء الأسرار ويحتفظ بها الدكتاتور وحده ! أما الحكومة الديمقراطية فهى مؤلفة من ١٤ مليونا من المصريين هم سكان مصر جميعا ، وان واجبه أن يطلع كل مصرى على حقيقة الموقف السياسى ، وكأنه وزير معه فى الوزارة !

وكان سعد يرفض أن تعتبر هذه المواقف مواقفه الفردية ، بل كان يصر على انها مواقف البلد كله ، ويقول ان التاريخ لا يصنعه فرد واحد ، انه لا يزعم انه وحده هو صاحب كل فكرة ، وهو وحده محرك الجماهير ، وهو وحده محقق الانتصارات . كلا ان الذى يصنع كل هذا هو تجاوب الشعب معه ، هو تأييده له . ولولا هذا التأييد لما قوى على الوقوف أمام أكبر امبراطورية فى العالم .

وحدث فى تلك الأيام أن استقبلت الملكة نازلى صفية زغلول فقالت لها الملكة :

— ان الملك يقول ان الشعب كله يسير وراء سعد باشا .

قالت صفية :

— هذا غير صحيح . الصحيح ان سعد هو الذى يسير وراء الشعب .

وروت صفية لسعد ما جرى بينها وبين الملكة فقال سعد .

— لقد حاولت أن أفهم الملك بكل طريقة هذه الحقيقة . ولكنه لا يريد أن

يفهم ! هؤلاء الناس يتصورون ان الشعوب هى قطعان من الماشية يسوقها الزعماء أمامهم كما يفعل الرعاة . ان الشعوب ، وخاصة الشعب المصرى ليست غنما . فيجب أن تفهمها لتفهمك . ويجب أن تحبها ، لتحبك . ويجب أن تثق بها ، لتثق بك . لقد قال لى الملك فؤاد مرة أثناء خلاف بيننا :

— انك تقول ان الشعب لا يمكن أن يرضى بهذا الحل . بينما أنا واثق ان الشعب سيرضى بأى حل ترضاه ، وسيصفق لأى رأى تقوله .

فقلت للملك :

— أنا آسف انك لا تفهم هذا الشعب الذى تحكمه . ان الشعب يصفق لى لأنه يعلم اننى أطالب بحقوقه ، ويوم أفرط فى هذه الحقوق سيكون هذا الشعب أول من يلعننى .

قال لى الملك :

— أنا واثق من انك لو قلت لهم ان الشمس تشرق من الغرب وتغرب من الشرق فسوف يصدقونك . ان الشعب أعطاك شيكا على بياض .

قلت له :

— الشعب المصرى لا يعطى أحدا شيكا على بياض . انه أعطانى توكيلا . ولكنه يراقبنى . لا يغلق عينيه عنى . ويوم أخرج على هذا التفويض يعزلنى من وكالتى . وأؤكد لك ان هذا الشعب لا يسهل خداعه . ان نابليون بونابرت ارتدى العمامة والجبة والقفطان وقال للشعب انه يؤمن بأن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله . فلم يصدق الشعب دعواه وثارت عليه القاهرة . وأمكنه أن يخدع بعض شعوب أوروبا ويوهمها انه المخلص والمحرر ولكن الشعب المصرى كشف ألاعيبه وعرف خداعه . هذا الشعب طيب ولكنه ليس عبيطا .

ومن الأسف ان الملك فؤاد لم يعرف المصريين على الرغم من انه ملك مصر ، ان كل أصدقائه من الأجانب ، وكل خلصائه من غير المصريين . وهو ملك ذكى ومتعلم . ولكنه لا يفهم الشعب الذى يحكمه .

ومن سخرية القدر ان ملك مصر يستطيع أن يتفاهم مع المندوب السامى البريطانى بسهولة ، ولا يستطيع أن يتفاهم مع رئيس وزراء مصر بسهولة !

● ● ●

وكان التوأمان الصغيران يتابعان سعد وهو يروى هذه القصص والأسرار والأحداث فى انتباه غريب . كانت لذتهما أن يتفحصاه وهو يتكلم . كانت عيناه وحاجباه وأصابعه ويديه تقول أحيانا أشياء لا يقولها لسانه . وكانت قسمات وجهه تعبر عن الأحداث قبل أن ينطق بها . فإذا استطال فكه الأسفل قليلا فوق عنقه فهو متألم . وإذا لمعت عيناه ، فهو منتصر . وإذا ضاق حاجباه فهو يفكر . وإذا تجمدت قسمات وجهه فهو يدبر أمرا . بل انهما كانا

يحكمان على الموقف السياسى من خطواته ، فإذا ثقلت الخطوات وتباطأت كان مهموما وكأنه يجر أثقالا وسلاسل فى قدميه ، وإذا خفت الخطوات وأسرعت فهو سعيد . وكان التوأمان يراهنان ستهما صفية وأمهما على صدق فراستهما . يصغيان بسمعهما الى خطوات جدهما وهو يصعد درجات السلم قادما من مجلس الوزراء . ثم يسرعان الى ستهما ويقولان فرحين مغتبطين .

— الأزمة انتهت !

وتسألهما صفية : كيف عرفتما ؟

فيقولان ان حذاء جدهما هو الذى يتكلم !

وتضحك صفية ، ويدخل سعد ، فتروى له صفية ما ادعاه الولدان فيقهقه ويقول .

— انها حقيقة فعلا !

وكان سعد يردد كثيرا .

— أنا سياسى فاشل ! المفروض فى السياسى أن يتكتم وجهه ما فى قلبه . ولكنى عيبى ان ما فى قلبى على لسانى ، وما على لسانى فى قلبى ! وفى بعض الأحيان أبذل جهدا عنيفا لأكتم حقيقة مشاعرى فى مقابلتى للملك ، ولكننى أجد نفسى فى نهاية المقابلة « أفرقع » فجأة وأقول له بصراحة كل ما فى قلبى ! فأنا لا أعرف كيف أكذب . وأعتقد ان الصمت هو نوع من أنواع الكذب ! كما أعتقد ان الضعيف هو الذى يكذب ، وان الانسان الذى يؤمن بقوته لا يستطيع أن يكذب ، ولو فعل ذلك فإنه يحتقر نفسه .

وعلى الرغم من أن سعدا كان يؤكد فى كل مناسبة انه سياسى فاشل ، فإن الولدين وجدا نفسيهما فى مدرسة للسياسة والأخبار ! والطفل إذا ولد فى ورشة نجار ، وشب يسمع صوت المنشار ودقة القادوم لابد أن يكون نجارا . وإذا ولد فى بيت عازف على الكمان فإن صوت أوتارها المشدودة تتحول فى أذنه الى صلاة مقدسة . ان أصابعه تدق الأرض مع أنغامها ، وقدماه تتحركان وتهتزان مع ألحانها ، فإذا انقطع وتر فيها أحس كأن شريانا فى قلبه قد انفجر . وإذا رقص القوس فوق أوتارها أحس ان هذا القوس يعزف على أوتار روحه . فالوراثة هنا لا تفعل ما تفعله البيئة . فإذا اجتمعت الوراثة والبيئة معا تحول القادوم الى معبود ، وتحولت الكمان الى معشوقة !

وكان سعد فى نظر الولدين مزيجا من النجار وعازف الكمان فى وقت واحد . فهو يحاول أن يشكل من الخشب أثاثا ، يشقه ويثبته ويجففه فى الشمس ، ويعرضه للهواء . ثم يحاول أن يجعل من هذا الخشب كمانا يغنى ! وهو لا يريد أن يجعل هذا الكمان يصدر الأنغام الشجية فقط ، بل يريد أن يكون جسرا يعبر عليه شعب بأسره الى عالم جديد !

وفى بعض الأحيان يجد الخشب المتين ، ولكنه يجد انه لا يغنى !

أو يجد الخشب الذى يصلح كمانا ، ولكنه يجده أضعف من أن يحتمل أقدام شعب يريد أن يعبر نهر الزمن الى المستقبل الجديد !

وهكذا كان الولدان يعيشان بين صوت القادوم ولحن الكمان ! كانت أيامهما صاخبة مضطربة ، ومنغمة شجية . فيها مزيج من صناعة البناء وصناعة النغم . فيها الدم والعواطف . والحقائق والأحلام . الشمس الضاحكة والضباب المخيف . كل هذا كان يدخل فى رأسيهما الصغيرين فى شكل صور وأحداث ، كل يوم حدث جديد وشىء مختلف . التاريخ يكتب أمامهما ولا يقرآنه فى الكتب . ما ألذ أن تسمع التاريخ من أفواه أبطاله وتعيش معه فى بيت واحد . ولكن هذه الحياة ليست لذيذة دائما انها أحيانا شاقة مرهقة . ان تعاقب الأحداث والأخطار والمفاجآت تحرم الولد من أمتع ايام عمره . عمر بلا مسئولية . ولا هموم ولا متاعب ولا أزمات . ولكن القدر وهو يعطيهما متعة الحياة مع التاريخ حرمهما متعة اللامسئولية !

والحياة فى ظل المارد أو العملاق تلغى فى بعض الأحيان شخصية الطفل . وقد حرصت أمهما دائما على أن تحارب فى الولدين رغبتهما فى التعلق بالعملاق ، وتقاوم شهوتهما فى المباهاة بأنهما حفيدا زعيم الأمة وانهما يقيمان فى بيت الأمة . وكانت تؤكد لهما دائما ان نسبتهما الى سعد زغلول لا ترفع من قدرهما ، وإنما الذى يرفع من قدرهما هو عملهما وحده .

وكانت تنبه عليهما ألا يتحدثا لزملائهما فى المدرسة بأنهما اقارب سعد رئيس الوزراء وزعيم الأمة ، وانهما يقيمان فى بيت سعد ، وكانت تبذل جهدا مستمرا لاعادتهما من السماء الى الأرض ، وتؤكد انهما « لا شىء » وانه يجب أن يعتمدا على مجهودهما الخاص ليشقا لنفسيهما طريق الحياة .. وكان لحديث أمهما هذا صدى عميق فى نفسيهما ، وكانا مقتنعين بأن قرابتهما لسعد لا تفيدهما .. بل انها أساءت اليهما عندما كان المدرسون يمتحنونهما فى كل حصة دون سائر التلاميذ !

ولكن قربهما الى سعد جعلهما يعتبرانه « المتر » الذى يقيسان به كل رجل سواه . وبدا الرجال أمامهما كالأقزام ! كل رجل يطبقان عليه هذا المقياس يبدو قصيرا جدا أو يبدو تافها فارغا . وقد عذبهما هذا الشعور فى حياتهما المستقبلة كثيرا .

وقد يكون صغر سنهما هو الذى جعلهما يريان سعد أكبر مما هو وقد تكون قلة تجربتهما هى التى صورته لهما فى فى صورة الأسطورة . وقد يكون اتصالهما الوثيق به هو الذى مكنهما من أن يريا كل جوانب الرجل . وقد يكون أخيرا حبه لهما واهتمامه بهما سببا من أسباب « الانبهار » بهذه الشخصية . قد يكون كل هذا . ولكن تبقى الحقيقة الواقعة وهى انهما كانا أشبه بالعاشق الذى يحب فتاة حبه الأول ، ويحاول طول حياته أن يبحث عن نساء

أخريات يشبهن فتاته الأولى ، أو فيهن كل صفاتها !

وليس معنى هذا أن الولدين لم يجدا عيبا فى الرجل الذى اعتبراه جدهما ، واعتبرهما حفيديه ، وتزوج أبوهما وأمهما فى بيته . وولدا فى بيته وشبا معه .

كانا أحيانا ينتقدانه . لقد تعلما منه النقد . كان يشجعهما على المعارضة . وكان الولدان إذا اجتمعا معا ناقشا آراءه . وقد كان زملاؤهما فى المدرسة الابتدائية ماهر توفيق دوس ابن توفيق دوس باشا الذى كان خصما عنيفا لسعد وحسن ابراهيم وعلى ابراهيم ابنى الدكتور على ابراهيم الذى كان عضوا فى مجلس إدارة حزب الأحرار الدستوريين وكان الأولاد متحمسين لآراء آبائهم وكثيرا ما دارت فى المدرسة مناقشات عنيفة . كانت الأغلبية العظمى من التلاميذ من أنصار سعد وكان هؤلاء الثلاثة وحدهم خصوم سعد بين الثلثمائة تلميذ ! وكان التلاميذ يقاطعونهم ويرفضون التحدث اليهم أو مناقشتهم . ولكن على ومصطفى كانا على علاقة طيبة بخصوم جدهما . وكانا قد تعلما كيف يستمعان للرأى الآخر . ويقتنعان ببعض حجج هؤلاء الخصوم الصغار إذا رأيا انها على صواب فكانا يحملان هذه المعارضة الى سعد فلا يبدى امتعاضا من أن يناقش رأى أطفال صغار . فيعود الولدان فى اليوم التالى ومعهما حجج جديدة تدمغ حجج الخصوم !

وذات يوم قال سعد على مائدة الافطار

— اننى والحمد لله نمت اليوم نوما عميقا ، نمت ساعتين !

وتبادل الولدان النظرات فيما بينهما ولم يقولا شيئا ! وبعد أن خرج سعد قالا :

— ان جدى يقول انه لا يكذب أبدا ! .. وانه لا يعرف كيف يكذب .. ولكننا ضبطناه اليوم يكذب ! انه يقول انه لم ينم سوى ساعتين ليلة أمس . مع اننا رأيناه يدخل غرفة النوم الساعة العاشرة مساء ، ويخرج منها اليوم الساعة الثامنة صباحا . معنى ذلك انه نام عشر ساعات فكيف يقول انه لا يكذب !

كان الولدان يعتقدان ان الانسان إذا دخل غرفة النوم واستلقى على السرير نام على الفور ، فإذا استيقظ غادر غرفة النوم ! وبعد ذلك بسنوات عديدة عرفا أن سعدا لم يكذب . عرفا شيئا لم يكونا يعرفانه اسمه « الأرق » ! عرفا انه من الممكن أن يرقد الانسان فى فراشه عشر ساعات دون أن يغمض له جفن . عرفا أن الأطفال والأولاد وحدهم هم الذين يستسلمون للنوم إذا آووا الى الفراش ، واننا كلما كبرنا قلت ساعات نومنا ، وزادت ساعات أرقنا ، وقلقنا !

وعرفا أكثر من ذلك أن الذين عملهم حراسة الشعوب لا يستطيعون أن يغمضوا عيونهم طويلا !

○ ○ ○



●● السهم يشير للأخوين على ومصطفى أمين فى صورة تذكارية مع زملائهما بمدرسة المنيرة الأميرية عام ١٩٣٤ .

• الفصل التاسع عشر •

وصل الى سعد زغلول في بيته مظروف أصفر كبير ، مختوم بعدد من الأختام بالشمع الأحمر ، مكتوب عليه « سرى للغاية » و « مستعجل جداً » . و « يسلم باليد لصاحب الدولة رئيس الوزراء » !

وكان سعد جالسا مع أفراد أسرته ، بعد أن انتهى من تناول العشاء . وفض سعد المظروف ، ووضع نظارة القراءة فوق عينيه ، وأمسك ورقة وراح يقرؤها باهتمام ، ثم انفجر يضحك بصوت عال !

واهتمت الأسرة أن تسمع هذه النكتة التى وصلت الى سعد فى مظروف مكتوب عليه سرى للغاية ومستعجل جداً !

وقال سعد إن وزارة الداخلية أرسلت إليه منشورا ضده كان يوزع فى الجامع الأزهر ، وأن المنشور بعنوان عدو الاسلام ، ويقول ان سعد لم يكتف بالاعتداء على الاسلام عندما عين وزيرين قبطيين فى وزارته ، لأول مرة فى دولة دينها الاسلام . بل انه مضى فى عدوانه على الشريعة السمحاء والدين الحنيف وأمر بإقامة مسابقة بين العاهرات فى مصر ، يتبارين وأيهن أكثر فجوراً . وأشدهن فحشاً ، وكلف وزيره القبطى مرقص حنا باشا بأن يوزع جوائز مالية على هؤلاء المومسات ، وهى أموال مقتطعة من أموال المسلمين . وبدلا من أن ينفقها عدو الاسلام على إنشاء بيوت الله ، ينفقها على تشجيع بيوت الدعارة . وبدلا من أن يرفع بها مرتبات رجال الدين . يكافىء المومسات اللاتى يرتكبن الفحشاء فى الطريق العام !

وأمسك سعد التليفون وهو يضحك واتصل بمرقص حنا باشا وزير الأشغال وسأله ـ متظاهراً بالجدية ـ هل صحيح أنك أقمت مسابقة بين المومسات ؟

ودهش مرقص حنا باشا لهذا السؤال الغريب .

فقال له سعد إن بعض العلماء فى الأزهر وزعوا منشوراً يقولون فيه هذا ..

وقرأ سعد نص المنشور على وزير الأشغال .

وغضب مرقص باشا وقال إن هذه أكذوبة حقيرة لا أساس لها من الصحة .

قال سعد وهو لا يزال يضحك :

ـ الازهريون لا يكذبون . وأنا أزهرى قديم أعرف دائماً ماذا يقصدون بكل كلمة يقولونها ! إنهم يقصدون المباراة المسرحية التى أقامتها وزارة الأشغال للممثلين والممثلات ، وتوليت أنت توزيع الجوائز فيها!!

ـ وكانت حكومة سعد أول حكومة فى مصر تقيم مباراة للتمثيل المسرحى ، تشجيعاً للفن ، كما تفعل دول العالم المتقدمة ، وأقيمت حفلة فى دار الأوبرا ، وكانت الفنون فى تلك الأيام تابعة لوزارة الأشغال بصفتها المشرفة على دار الأوبرا . وتألفت لجنة اختارت أبرز الممثلين والممثلات فى فنون الدراما والتراجيدى والكوميدى ، وأبرز المطربات والمطربين فى المسرح الغنائى ، ومنحت المتفوقين منهم جوائز مالية كبيرة .

واعتبر بعض الأزهريين المتعصبين الممثلات والمطربات مومسات وعاهرات ! واعتبروا دور المسارح دور دعارة ، وتشجيع المسرح المصرى تشجيعاً للفسق والفجور ، وارتكاب الفحشاء فى الطريق العام !

ثم اكتشف سعد بعد ذلك أن بعض رجال القصر الملكى هم الذين حرضوا هؤلاء الأزهريين على طبع هذا المنشور ، وأنهم دفعوا لهم نفقات الطبع !

وكان من رأى مرقص حنا باشا ضرورة القبض على موزعى المنشور ، وتقديمهم إلى المحاكمة .

ورفض سعد هذا الرأى وقال :

ـ نحن فى عهد ديمقراطى .. وهذا يعتبر حرية رأى ! أن من رأينا أن تشجيع المسرح هو عمل ثقافى . وهم يعتبرونه إثماً وفجوراً . وبدلا من أن نقبض عليهم نناقشهم . ان واجب وزير الأشغال أن يعمل على إقامة حفلات مخفضة فى المسارح ، ويدعو إليها طلبة الأزهر . ليروا بأعينهم أن التمثيل المسرحى ليس إثماً وفجوراً . وإن من الممكن أن يقوم المسرح بما تقوم به المدرسة من تعليم وتثقيف . كما يمكن أن تقوم مسرحية ممتازة بالدعوة الى الدين خير مما تقوم به هيئة كبار العلماء !

وهكذا كان سعد يحرص دائما على ألا يستعمل الكرباج ! كان يقول ان الحكم بالسوط لا يحتاج الى عبقرية ، فمن السهل أن تتحكم فى العبيد . ولكن حكم الشورى يحتاج الى جهد وصبر وذكاء وعمل متواصل . لأن من الصعب أن تحكم الأحرار ، فى مقدور أى غبى أن يضع الأقفال على جميع الشفاه . ويتكلم وحده فيصبح أفصح البلغاء . ولكن الفصاحة الحقيقية لاتكون الا إذا أبحت للآخرين أن يتكلموا كما تتكلم ، ثم استطعت بعد ذلك أن تنتصر عليهم بفكرك ورأيك وأسانيدك وحججك . ان الكرباج لن يقنع الأزهريين بأن القصر ضللهم عندما أفهمهم أن دور المسارح هى دور للدعارة ، الكرباج قد يسكت أصواتهم . ولكنه سيثبت عقيدتهم . أن صوته قد يرتفع فوق أصواتهم . ولكن همساتهم ستوجع الحاكم أكثر مما أوجعتهم ضربات السياط ! وليكفى أن يكون الحاكم مقتنعاً برأيه ليفرضه على الآخرين . الرأى المفروض يفقد كل قيمته وكل أسانيده . والفرق بين الطاغية المستبد والحاكم

الديمقراطى . ان المستبد يتصور أنه أعلم الناس فى شعبه ، وأعرفهم بمصلحتهم ، فيرغمهم على أن يذعنوا لارادته ، وأن ينحنوا لمشيئته . وأن تذوب كل إرادتهم فى إرادته ، وتنمحى كل آرائهم فى رأيه . بينما الزعيم الديمقراطى يحاول أن يقنع الشعب برأيه ، أن يتفاهم معه ، أن يبصره بالحقائق ، أن يشرح له كل الأمور ويترك له حق الاختيار . وما الشعب الا أسرة ، وحاكمه هو رب الأسرة .

وقد كان الآباء فى الماضى يضتربون أبناءهم ليؤدبوهم ، ثم أثبتت التربية الحديثة أن الضرب لايؤدب ، وإنما يحول الأبناء الى جبناء لاشخصية لهم . يتظاهرون بالطاعة ويؤمنون بالعصيان ، ينحنون لآبائهم فى مواجهتهم ثم يلعنونهم اذا أداروا ظهورهم . ان العنف قد يلد النظام . ولكنه يلد مع النظام الضعف والتخاذل والجبن والهزيمة ، ولهذا نصح علماء علم النفس الحديث بتغيير الطريقة القديمة فى التربية . ومن الغريب أن الأسر الحديثة اقتنعت بها ولكن الحكام لم يقتنعوا بها . لأن الكرباج أشبه بالأفيون . ما أن يشعر الحاكم بنشوته فى المرة الأولى حتى يدمن عليه . ويمضى حياته والكرباج فى يده . يضرب به بمناسبة وبغير مناسبة ، بسبب وبغير سبب ، حتى يجىء يوم ينتزع فيه الشعب الكرباج من يد الطاغية وينهال به على رأسه !

وعندما يتربع الحاكم الديمقراطى فى مقعده ، يواجه ضغطاً متزايداً من أنصار استعمال الكرباج . ان بعض أنصاره يعتبر الدعوة لاستعمال الكرباج نوعاً من الولاء ، وتعبيراً . عن الاخلاص والذين يدعون لاستعمال الكرباج هم دائماً الجدد فى الدعوة ، الذين لم يستعملوا خناجرهم فى المعركة ، وجاءوا بعد المعركة يستعملون حناجرهم ! المتحمسون للعنف هم دائماً أضعف أنصار الدعوة . إنهم يعوضون ضعف إيمانهم بالالحاح فى استعمال القوة . وإذا ضعف الحاكم الديمقراطى أمام ضغط هؤلاء المؤمنين الجدد فقد نفسه ، وأصبح سجين المنافقين ، يضربون باسمه خصوم زعيمهم وهم فى حقيقة الأمر يضربون زعيمهم !

وشاهد التوأمان الصغيران سعد وهو يتعرض لهذا الضغط الغريب وهو رئيس للوزراء ، فقد شنت عليه صحف المعارضة هجوماً عنيفاً لم يتعرض لمثله حاكم أو زعيم فى تاريخ البلاد ، كتبت هذه الصحف تقول ان سعد أفاق ونصاب ودجال ومشعوذ . وخائن . ويسلم البضاعة للانجليز ، ومضلل وصعلوك وحقير وشيطان رجيم وكافر وزنديق وبهلوان وعميل للانجليز ولص ومحتال . وأهبل وعبيط وكل ما فى قاموس اللغة العربية من ألفاظ الشتائم والسباب !

ولم تكتف هذه الصحف بالقذف فيه ، والحط من شأنه ، وإنما مضت تسب أسرته وتهاجم أهله وقالت إحداها انه لم يكن تلميذاً من تلاميذ الشيخ محمد عبده ، وإنما كان خادماً عنده . وكان يمشي حافياً في الطرقات ، يحمل فانوساً في حوارى الحسين ، ليضيء الطريق للشيخ محمد عبده ، وقالت صحيفة أخرى إنه صعلوك من بيت صعاليك ، وانه عار على مصر أن يحكمها رجل لا أصل له ، وفيها الباشوات أبناء الباشوات وأحفاد الباشوات !

وكان الأستاذ أحمد فؤاد صاحب مجلة الصاعقة الأسبوعية أستاذاً في القذف والسب والهجاء فكان كل أسبوع يؤلف القصص والروايات عن وضاعة سعد وحقارة شأنه وقذارة منبته . وبلغ به الأمر أن هاجمه في رجولته فكتب يقول أنه عندما كان سعد تلميذاً في الأزهر ، كان ينام في صحن الأزهر ، لأنه ليس له البيت الذى يؤويه ، وجاء تلميذ آخر ، وأزاح ملابسه ، واعتدى عليه اعتداء جنسياً . فقال سعد :

ـ من أنت ؟

قال الأزهرى : مادمت رضيت عن الفعل فلا تسأل عن الفاعل !

وكانت هذه المطاعين القذرة تثير ثائرة سعد ، فان المعارضين انتهزوا حرية الصحافة الواسعة التى منحها سعد للشعب فراحوا يستغلونها للنيل من الرجل الذى أعطى صحافة مصر حرية لم تشهد في أى عهد من العهود .

وكان سعد يقرأ كل هذه الصحف التى تهاجمه وتشتمه ، مهما صغر شأنها . وضعف توزيعها ، وقل انتشارها ، وكان يرى أن هذا ثمن بسيط يجب أن يؤديه من أجل الحرية ، وكان يقول دائماً ان الشعب يعاقب هذه الصحف والمجلات بما فيه الكفاية ، انه يضرب عن قراءتها . ان توزيعها في هبوط مستمر . ان هذه الصحف والمجلات أشبه بسفهاء يشتمونه في مجالسهم الخاصة ، وليس من حقه أن يقطع الألسنة التى تسبه في المجتمعات الخاصة !

وكان من عادته أن يقرأ الصحف والمجلات في دورة المياه . فكان يقضي في كل يوم ساعة في هذا المكان يقرأ كل ما يكتب عنه ، وكان يضع بجوار التواليت رفاً من الخشب تتكدس فوقه الصحف والمجلات ، ولا يخرج من التواليت الا بعد أن يكون انتهى من قراءة كل ما يكتب ضده من شتائم وسباب !

. ولم يكن اختيار سعد لهذا المكان بالذات بسبب قذارة ما تكتبه الصحف عنه بل لأنه اعتاد أن يقرأ في التواليت الصحف المؤيدة والمعارضة على حد سواء !

ولكن هذه الأعصاب القوية في مواجهة الشتائم والسباب كانت تثير ثائرة

انصاره . وكان بعضهم يلح عليه فى أن تتقدم حكومة الشعب بقانون جديد للصحافة . وكانت حجتهم أن هذه المطاعن لا توجه لسعد بصفته الشخصية . وإنما توجه اليه بصفته زعيم الشعب وقائد ثورته . انها خناجر توجه اليه فى ظهره وهو فى معارك مستمرة مع الملك ومع الانجليز . ان المقصود بها إضعاف ثقة الشعب بقائد المعركة . ان لسعد أغلبية ساحقة فى البرلمان وهى مستعدة للموافقة على مثل هذا القانون ، لأن الغرض منه فى الواقع هو حماية الثورة لا حماية الزعيم . وكان سعد يرفض أن يصدر مثل هذا القانون وكان يقول :

كنت وزيراً فى سنة ١٩٠٨ ووافقت على قانون للصحافة وبعد ذلك فوجئت بأن هذا القانون يستعمل ضد الشعب . أصبح خنجراً فى ظهره ، وقد كنت أريده سيفا فى يده . ولا أريد أن اكرر هذه الغلطة مرة أخرى ! ان الثورة لا تحميها القوانين ، وإنما يحميها الشعب ، ويوم تصبح فى حاجة الى قوانين لحمايتها فهذا اعتراف منى بأن الشعب تخلى عن حمايتها والدفاع عنها ،

ووضع محمد سعيد باشا وزير الحقانية (العدل) مشروع قانون للصحافة .. ورفض سعد الموافقة عليه .

وجاء اليه أحمد زيور باشا رئيس مجلس الشيوخ متحمساً مطالباً بإصدار هذا القانون ، وقال له ان أعضاء مجلس الشيوخ مصممون على ضرورة إصدار قانون للصحافة لأنها أصبحت فوضى ، وأن الشيوخ لم يعودوا قادرين على ضبط أعصابهم وهم يرون زعيمهم يشتم يومياً ويوصف بأحط النعوت والأوصاف .

ورفض سعد أن يخضع لالحاح زيور باشا الذى بكى وهو يكرر الألفاظ التى وصفت بها الصحف الزعيم !

ومن سخرية القدر أن الذين كانوا يلحون على سعد فى تقييد الصحافة ، وكان صوتهم أعلى الأصوات حماساً فى الغضب ضد الطين الذى كان يلقى يومياً على الزعيم كانوا من أول من خرج عليه ! فعندما استقالت وزارة سعد ، تولى زيور باشا رياسة الوزارة التى خلفته ، وأعلنت الحرب عليه ، أما محمد سعيد باشا فاكتفى باعتزال السياسة !

وليس معنى هذا أن هؤلاء المتحمسين كانوا يريدون أن يورطوا سعد فى تقييد الصحافة ، ولكن معناه أن أكثر الذين يتفانون فى الولاء للحاكم ، يكونون عادة أقل المخلصين له ! وعذر سعيد باشا وزيور باشا أنهما كانا من المدرسة التركية القديمة التى لم تكن تؤمن بحرية الصحافة ، وترى أن الحرية هى ترجمة دقيقة لكلمة الفوضى !

ومضت الصحف والمجلات المعارضة تمعن فى مهاجمة سعد .. وتوجيه

التهم اليه واشتد الضغط . على سعد بسبب سكوته على هذه الحملات ، وقيل له ان سكوته أصبح يعرض الثورة نفسها للخطر ، وبدأ بيت سعد يشهد يومياً هجوماً عنيفاً عليه لأنه يتحمل ما لا يستطيع أنصاره أن يحتملوه !

وبعد الحاح قبل سعد أن يستعمل حقه كفرد عادى من الشعب ، وأن يبلغ النيابة ضد جريدة السياسة لسان حال حزب الأحرار الدستوريين .

ورفض أن يشكو باقى الصحف والمجلات التى أفحشت فى التهجم عليه ، وكانت حجته انها صحف لايقرؤها أحد ، وبهذا لا يتوافر فيها « ركن العلنية » بالتعبير القانونى !

وقدمت النيابة الدكتور محمد حسين هيكل بك رئيس تحرير السياسة الى محكمة الجنايات .

وعقدت جلسة المحاكمة برياسة أحمد طلعت باشا رئيس محكمة الاستئناف

وحشد حزب الأحرار أعظم محاميه للدفاع عن هيكل .. وكان من بينهم توفيق دوس باشا وتصادف أن توفى شقيق توفيق دوس باشا فى أسيوط فى يوم انعقاد الجلسة .

وبدأ توفيق دوس باشا مرافعته بقوله تركت مأتم أخى .. لأحضر مأتم الحرية !

إن الأحرار الدستوريين الذين عطلوا بعد ذلك مئات الصحف وصادروها بغير محاكمة اعتبروا تقديم صحيفة الى محكمة الجنايات هو مأتم للحرية !

بينما كان رئيس التحرير المتهم بإهانة رئيس الوزراء مطلق السراح !

وحكمت محكمة الجنايات ببراءة الدكتور محمد حسين هيكل وقالت فى أسباب حكم البراءة : إنه ما دام سعد زغلول يشتغل بالمسائل العامة ، فواجبه أن يتحمل هذه الشتائم والاهانات .

وكان التوأمان الصغيران يتابعان باهتمام هذه القضية ، ومع حبهما لسعد فقد فرحا ببراءة هيكل الذى شتم جدهما ! كان يتنازعهما عاملان فى تلك الأيام عامل قرابتهما لسعد . وحبهما له ، وعامل هوايتهما للصحافة . وعبادتهما لها !

وتغلبت العبادة على الحب ! إنهما عاشا طفولتهما يسمعان أحاديث عن حرية الصحافة وحرية القلم ، وأن لا سلطان لأحد عليه ، وأن حرية الصحفى هى أساس الحكم الديمقراطى ، ولاشك أن تكميم الأمة يبدأ بتكميم صحافتها ، ومهما قيل فى مطاعن جريدة السياسة فى جدهما فلم يشعرا بأنها أحدثت أثراً ! فهما لم يسمعا شتائم السياسة فى سعد الا من فم سعد وحده ، لم يسمعاها

من زملائهما تلاميذ المدرسة ، حتى خصوم سعد الثلاثة من زملائهما في مدرسة المنيرة لم يكونوا يقراون جريدة السياسة ! فكيف نزل سعد على رأى أغلبية النواب وشكا الجريدة التى لم تبلغ شتائمها مبلغ الشتائم الأخرى التى تحملها الا بنسبة واحد في المائة ؟ ان ما جرى في محكمة الجنايات لم يكن محاكمة لجريدة السياسة وإنما محاكمة لسعد نفسه . فواجب الحاكم أن يتحمل النقد . الرجل الذى تهتف الملايين بحياته ليس من حقه أن يغضب إذا هتف رجل واحد بسقوطه ! وما كان الطوب الذى يلقى على الزعماء ليقتلهم الا أشبه بطلقات المدافع في مواكب الفاتحين ان الطوب كان يعلن دائما عن قدوم مواكب الأنبياء !

وعندما صدر العدد الجديد من مجلة الطالب التى كان يصدرها التوأمان لتلاميذ السنة الثالثة فصل ثالث بمدرسة المنيرة الابتدائية نشر فيها خبر بعنوان « مبروك » قالا فيه « نهنىء زميلتنا جريدة السياسة الغراء بالحكم الذى صدر ببراءتها ! »

وقد لا يكون الغرض الذى نشر من أجله التوأمان هذا الخبر الغريب هو انهما ارادا ان يقولا ان جريدة الطالب هى زميلة لجريدة السياسة .. ولكنهما احسا بأن لهما شخصية مستقلة عندما كتبا هذا الخبر الصغير عن الجريدة التى شتمت جدهما !

وحمدا الله على أن هذا العدد من مجلتهما لم يقع في يد أمهما ولا في يد سعد . وكانا يتساءلان ماذا سيحدث لهما لو أن جدهما قرا مجلة الطالب واطلع على تهنئتهما لزميلتهما جريدة السياسة الغراء .

هل كان سيغضب لهذه التهنئة التى وجهاها الى الجريدة التى شتمته أم أنه كان سيبتسم لأن جريدة معارضة تصدر في بيت رئيس الوزراء ؟

ولكنهما كانا سعيدين باستقلالهما ! كان سعد يربى فيهما هذا الاستقلال ويشجعه . وهاهما يزاولانه لأول مرة وعلى حسابه !

انهما لم يعرفا أن هناك جريدة اسمها السياسة الا من سعد ، لقد كانا ينتهزان فرصة خروج جدهما من دورة المياه فيسرعان إليها . ويأخذان منها الصحف والمجلات وكانا يجدان في جريدة السياسة شيئاً جديداً ليس في الصحف الأخرى التى تؤيد جدهما . وكثيراً ما شكا جدهما من تخلف الصحف التى تؤيده من الناحية الصحفية ، فكان يردد أن الصحافة في جريدة السياسة افضل منها في البلاغ وكوكب الشرق والنظام وباقى الصحف التى كانت تشيد به ونهاجم خصومه .

بل ان الولدين وهما يقلبان في مذكرات خالهما المرحوم سعيد زغلول وجدا أنه يشيد بجريدة « السياسة » التى تهاجم خاله والرجل الذى سماه « وحيده » .

قال سعيد فى مذكراته « مهما كنت لا أرى فى الشئون العامة رأى « جريدة السياسة » وأصحابها ، ومهما كنت أحس بأنها وأصحابها عاملون على انتقاص خصومهم بالحق وبالباطل ، وأنهم لا يثبتون على رأى . ولا يدافعون عن فكرة . اعتقادا منهم بأنها محض خير ، فإن هذا لا يمنعني من أن أقر لهم بأن صحيفتهم « السياسة محض » هى الصحافة المصرية الوحيدة التى يخدمها أصحابها على قواعد الفن الصحفى . وأما كتابها الذين يشتغلون فيها بأجر ويوالونها بالكتابة مجاناً ، فهم فى رأيى ممن حازوا قصب السبق فى مضمار الآداب وحسب القارىء منهم طه حسين ، وما يخطه يراعه على صفحاتها اليوم بعد اليوم يجب فى نظرى أن يعترف الكل لهذا الكاتب بجليل القدر وعظم المكانة

فاذا كان خالهما سعيد زغلول . الذى عاش فى بيت سعد ، وتولى سعد تربيته ، يعترف بهذه الشهادة لجريدة السياسة التى تهاجم خاله بعنف ، ولطه حسين الذى يطعنه بقلم من نار . أليس من حقهما أن يتحمسا لبراءة جريدة السياسة .

ولكن الجماهير لم تشارك الولدين التوأمين فى هذا الانصاف نحو الجريدة المعارضة ، فقد خرج طلبة المدارس فجأة على جريدة السياسة ومجلة الكشكول ورجموا الجريدتين بالطوب . وهاجموا المحررين وحاولوا إشعال النار فى الجريدتين ولم تستطع قوات البوليس الضخمة ان تصد هذه الجماهير الغاضبة الساخطة الا بإعجوبة ..

وغضب سعد أشد الغضب على الهجوم على الصحف التى تشتمه .. وقال ان واجب الحكومة أن تحمى خصومها قبل أن تحمى نفسها .

ولم تكن هذه هى أول مرة خرج فيها الشعب على أوامر زعيمه ، وأبى أن يطيعه !

فقد حدث قبل ذلك أن رشح الوفد برياسة سعد زغلول وكيلين لأول مجلس نواب .

وكان الوكيل الأول هو حمد الباسل باشا وكيل الوفد المصرى .

وكان الوكيل الثانى هو الأستاذ ويصا واصف عضو الوفد ونقيب المحامين أمام المحاكم المختلفة .

وكان الانتخاب سيجرى فى أول جلسة يعقدها مجلس النواب بعد افتتاحه .

ورشح الوفد احمد مظلوم باشا وزير الأوقاف فى وزارة سعد ورئيس الجمعية التشريعية السابق رئيساً لمجلس النواب الجديد .

وكان لسعد الأغلبية الساحقة فى مجلس النواب .

وتصور سعد أن النواب الوفديين سينزلون على قرار الوفد .

واجتمع مجلس النواب وانتخب أحمد مظلوم باشا رئيسا للمجلس باغلبية ساحقة طبقاً لقرار الوفد .

وفوجىء سعد مفاجأة لم تخطر له على بال فى انتخابات الوكيل !

انتخب النواب أحمد محمد خشبة بك نائب أسيوط وكيلا أول للمجلس بدلا من حمد الباسل باشا وكيل الوفد !

وانتخبوا حمد الباسل باشا وكيلا ثانياً وأسقطوا ويصا واصف عضو الوفد !

وعرف سعد أن النواب الوفديين رفضوا أن يلتزموا بقرار الوفد ، فإن نواب الوجه القبلى أثاروا العصبية الاقليمية وقالوا ان سعد زغلول رئيس الوزراء من نواب الوجه البحرى وأحمد مظلوم باشا من نواب الوجه البحرى فيجب أن يكون وكيلا المجلس من نواب الوجه القبلى !

وفى الوقت نفسه عز على بعض النواب أن يكون فى الوزارة وزيران من الأقباط وأن يكون وكيل المجلس من الأقباط أيضاً .

وكان أحمد خشبة بك هو الذى يتزعم هذه الحملة ، فانتخبوه وكيلا أول ، وانتخبوا وكيل الوفد وكيلا ثانياً !

واستدعى سعد زغلول أحمد خشبة وقال له !

ـ اننى لا أستطيع أن ألومك .. لأننى أنا نفسى فعلت ما فعلت أنت فى أول جلسة للجمعية التشريعية . فقد أسقطنا مرشح الحكومة للوكالة وانتخبت أنا وكيلا .. وما دمت أبحث لنفسى أن افعل هذا فليس من حقى أن أحرمك من هذا الحق !

* * *

وفى حفلة افتتاح البرلمان حدثت وقائع طويلة ..

فقد دعت الملكة نازلى زوجات الوزراء لحضور حفلة افتتاح البرلمان ، وجاء فى الدعوة أن تحضر السيدات وقد ارتدين « اليشمك »

وكان أغلب زوجات وزراء سعد من الفلاحات أو من بنات الشعب اللاتى لا يعرفن ماهو هذا اليشمك المكتوب فى الدعوة الملكية !

وعرفن أن اليشمك هو عبارة عن قطعة قماش أبيض تلفه السيدة حول رأسها كالعمامة ويسقط على وجهها فلا تظهر منه الا العينان ! ويثبت بعدد من الدبابيس بطريقة تخفيها عن العيون ، وهو يحل محل البرقع الأبيض الذى اعتادت النساء الشرقيات أن يضعنه فوق وجوههن ..

وأسقط فى يد زوجات الوزراء الفلاحات وبنات الشعب .. وأرسلت صفية زغلول السيدة هدية بركات زوجة الدكتور بهى الدين بركات لتعليم زوجات الوزراء الطريقة العويصة لارتداء اليشمك ! فقد كان والد هدية فى وقت من الأوقات ناظر الخاصة الملكية وكان شقيقها عطا عفيفى بك تشريفاتى السلطان ، وهكذا اكتسبت خبرة فى طريقة ربط اليشمك !

ورفضت زوجة فتح الله بركات باشا وزير الزراعة أن تتعلم كيف تربط اليشمك . وقالت انها سيدة فلاحة . تريد أن تعيش فلاحة وتموت فلاحة .. رفضت أن تحضر افتتاح البرلمان حتى لا تضع على وجهها هذه « المسخرة » . ! وأمضت السيدة هدية عدة أيام فى تعليم زوجات الوزراء طريقة ارتداء اليشمك ..

وكانت أصعب التلميذات هى السيدة حرم نجيب الغرابلى باشا وزير الأوقاف ، فأنها عبثاً حاولت ان تتعلم طريقة ربط اليشمك !

وأخيراً طلبت من هدية أن تربط لها اليشمك فى اليوم السابق لافتتاح البرلمان وبقيت طول اليوم ساهرة وعلى رأسها اليشمك الى أن جاء موعد الاحتفال فذهبت باليشمك المربوط !

ولم تكن حيرة وزراء الشعب أقل من حيرة زوجاتهن ! فقد اقتضت التقاليد أن يرتدوا فى افتتاح البرلمان ثوب التشريفة الكبرى . وهى عبارة عن بدلات سوداء موشاة بالقصب ، وتتدلى منها سيوف نحاسية . وأن يضعوا فوق البذلات الأوسمة والنياشين التى منحها لهم الملك .

وكان الخياط الايطالى ديليه هو المتخصص فى صنع الملابس التشريفية ..

وتولى الخياط ديليه تعليم وزراء الشعب كيف يرتدون الملابس الموشاة بالقصب . وأفهمهم أن السيوف يجب أن تتدلى من الجانب الأيمن وأن الوشاح يعلق فى الكتف اليسرى ويتجه الى تحت الأبط ، وشرح لهم المكان الذى يعلق فيه الوسام !

وعندما جاء صباح يوم افتتاح البرلمان كان وزراء الشعب قد نسوا تعليمات مسيو ديليه الخياط !

وارتدى أحد الوزراء الوشاح بالمقلوب ، وعلق وزير آخر السيف الى يساره بدلا من يمينه ، ووضع وزير ثالث الوسام تحت عنقه بدلا من أن يعلقه على صدره وذعر الوزراء القدامى عندما رأوا زملاءهم الوزراء الجدد ، وصحبوهم الى غرفة جانبية فى مجلس النواب ، وبدأوا يرتبون قيافتهم وأناقتهم لتناسب آداب السلوك فى حضرة الملوك .

وعندما أقبل موكب الملك ومعه رئيس وزرائه كان وزراء الشعب فى استقباله

وقد ارتدوا ملابس التشريفة كما أرادها مسيو ديليه الخياط ! ثم حدثت أزمة !

فقد لاحظ الملك أن محمد سعيد باشا وزير الحقانية وتوفيق نسيم باشا وزير المالية وأحمد مظلوم باشا وزير الأوقاف قبلوا يد جلالته ! .. أما باقى الوزراء الوفديين فاكتفوا بالانحناء وصافحوا الملك !

وتجهم وجه الملك واعتقد أن سعد هو الذى أمر الوزراء من أعضاء الوفد ألا يقبلوا يد جلالته .

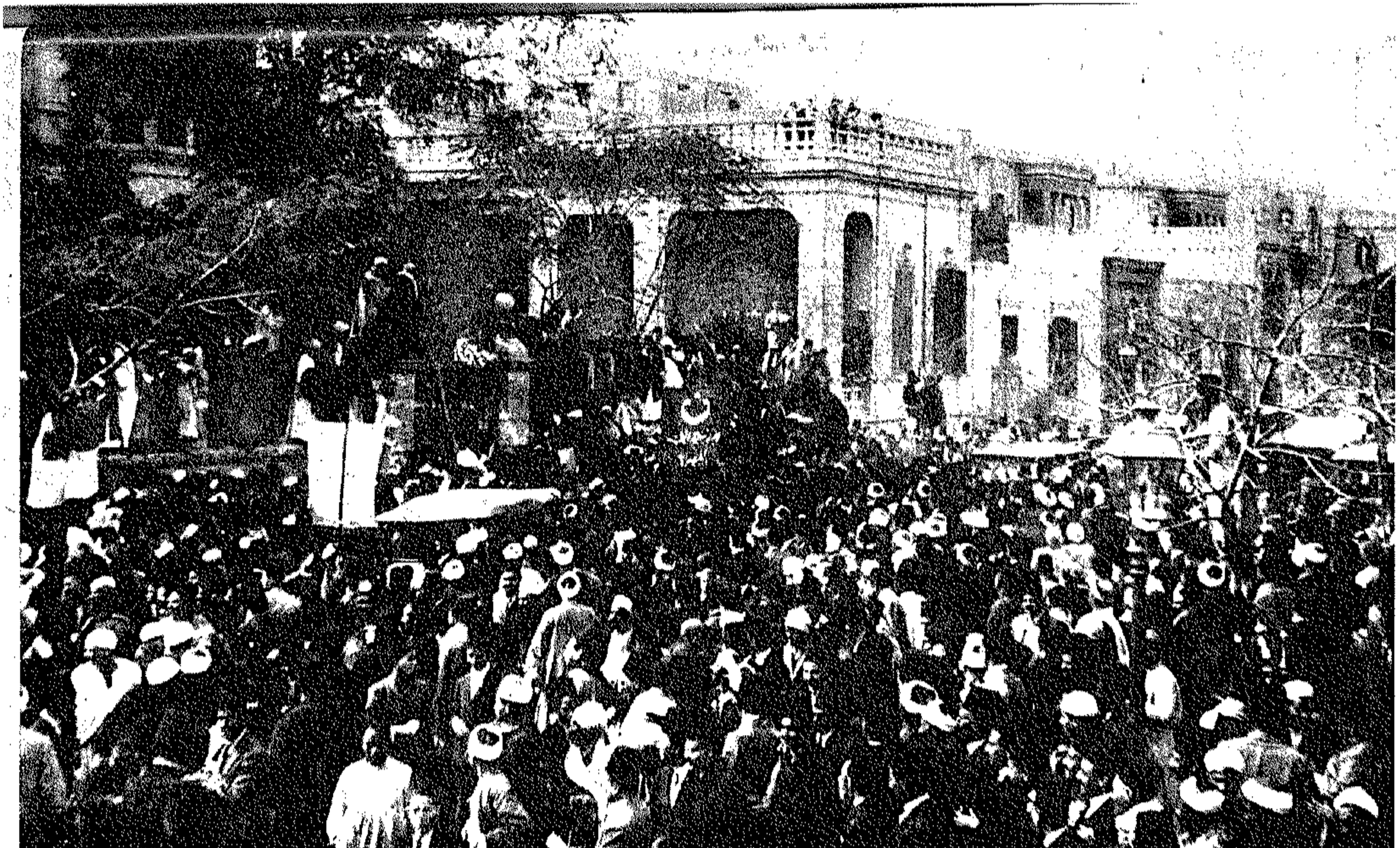
واستدعى الملك توفيق نسيم باشا وقال له

ـ اننى سكت لأن سعد باشا لا يقبل يدى لأنه أكبر منى سناً ، ولأنه يتصور إنه فوق البشر ، ولكننى لا أسكت على أن يرفض الوزراء الهلافيت تقبيل يدى ! أن جميع رؤساء مصر ووزرائها كانوا يقبلون يدى منذ جلست على عرش مصر . ان هؤلاء الوزراء الذين أظهروا قلة الأدب هذه هم الوزراء الذين كانوا أفندية وبكوات وجعلتهم باشوات فهل هذا جزائى لأنى جعلتهم باشوات رغم اعتراض سعد باشا .

وذهب توفيق نسيم باشا وأبلغ سعد الغضب السامى . وقال سعد ! إننى لم أصدر للوزراء أمراً بعدم تقبيل يد الملك ، ولو كنت أصدرت مثل هذا الأمر لكنت أصدرته لك أنت ومحمد سعيد باشا ومظلوم باشا الخديو ولكن لو سألنى الوزراء . هل يقبلون يد الملك أم لايقبلونها ؟ لقلت لهم إننى عندما كنت وزيراً فى عهد الخديو عباس لم أقبل يده . وعندما كنت وكيلا للجمعية التشريعية فى عهد السلطان حسين لم أقبل يده ، ولتركتهم أحراراً فى أن يقبلوا يد الملك أو لايقبلوها فإننى لا أفرض الكرامة على أحد . أما إذا كان الملك يريد أن يشترى الوزراء بألقابهم فإننى لا أمانع فى أن يجردهم من هذه الألقاب وأنا مستعد لأن اقترح تقليداً دستورياً بأن يكون الوزراء بلا ألقاب ما داموا أعضاء فى البرلمان . قل لجلالة الملك ان تقبيل الأيدى ليس دليل الاخلاص

فقال توفيق نسيم باشا ان جلالة الملك يقول ان التقاليد فى انجلترا أن يقبل رئيس الوزراء والوزراء يد الملك .

○ ○ ○



● جموع الشعب حول بيت الأمة



• الفصل العشرون •

عاش الولدان الصغيران مع الاسطورة ؛ أمضيا بقربها الأعوام العشرة الأولى من عمرهما ينامان مع الأسطورة فى بيت واحد ، يأكلان معها على مائدة واحدة ، ضحكات الأسطورة تنير قلبيهما ، دموعها تسقط فوق خديهما ، كان حديث سعد معهما أشبه بالأرجوحة التى يلهو عليها الأطفال ، كان يهبط الى حداثتهما ، ثم يرفعهما الى شيخوخته ، وكانت فى لعبة هبوطه إليهما ورفعهما إليه نشوة ، كانهما يتأرجحان بين الطفولة والشباب ، وبين صباهما بما فيه من احلام ، وكهولته بما فيها من حاضر مجيد ، كان أحيانا يجلسهما فوق ركبتيه ويلاعبهما ، وأحيانا يحدثهما حديث الرجال ، فيتظاهر بأنه

يستشيرهما ، وهو يقصد أن يشرح لهما ما خفي عليهما من أمور ، كان يتوكأ عليهما إذا انتقل من غرفة الى غرفة ، وكانا يشاركان الخدم في حمله فوق مقعده الكبير على أكتافهما ، ويصعدان به من الطابق الأول الى الطابق الثاني ، وكان يبدو أحيانا كأنه سيموت بين أيديهما ، فإذا وقف على المنبر انتصبت قامته ، واشتد عوده وانطلق لسانه ، كانت الجماهير هي أكسير الحياة الذى يمنحه القوة والفتوة والشباب ، وعندما يكون حديثه في الغرفة المغلقة أقرب إلى الوشوشة والهمس ، يصبح صوته في مواجهة مئات الألوف أقرب الى الهدير والزئير !

ولقد قيل ان الذى يقترب من اللوحة الفنية الخالدة لا يستطيع أن يرى كل ما فيها من روعة وجمال ، بل إنه لا يكاد يراها إذا التصق بها ، وعليه أن يبتعد عنها ليستوعب كل مافيها من إبداع ، ولكن الأمر اختلف مع هذه الأسطورة ، فإن الولدين كلما اقتربا منها رأيا في دقائقها وتفاصيلها من روعة الجمال ما لا يستطيع البعيد عن الصورة أن يحيط بكل مافيها من ألوان وأضواء وظلال

كان الرجل حينا أشبه بالمكتبة الغاصة بالكتب ، وحينا أشبه بمنظر الريف المصرى فيه سواق تدندن ، وفيه أشجار تتمايل وكأنها ترقص ، وفيه شمس ضاحكة تطل على البيوت الصغيرة ، وفيه فلاح شباب يغنى مواويل قروية على أنغام نادى حزين ، وحينما يبدو الرجل كحديقة ملاء فيها كل ما يشوق الأولاد ويسليهم ، وحينا يبدو كتيار عارم تتولد من سقوط مياهه قوة الكهرباء !

وكثيرا ما كان الرجل أشبه بالنافذة الضخمة يطل منها الولدان على الماضى والحاضر والمستقبل ، كان يتحدث عن الماضى كمؤرخ ، ويتكلم عن الحاضر كمصور فوتوغراف ، ويرى المستقبل كنبى !

ومن خلال هذه النافذة العجيبة أطل الولدان على عوالم مجهولة مسحورة ، ما كان في قدرتهما أن يشهدا تفاصيلها ومعالمها لولا صعودهما الى قمة هذا الجبل الذى أصبح نافذتها ! وكان في مكانهما هذا يتصوران أنهما أعلى من الجبل ، بل لعلهما فوق القمر ، كان الرجل يبدو للملايين كأنه قمر في سماء الوطنية ، كان ثورة يضيء لهم جميعاً ، كان يلهم الشعراء فيهم بأجمل قصائدهم ، والكتاب منهم بأبلغ مقالاتهم ، وكان الولدان يشعران بأنهما من القلائل الذين هبطوا فوق القمر الذى يراه الملايين من بعيد .

وكان حب سعد لهما ولأمهما هو المركبة القمرية التى أتاحت لهما هذه المغامرة ، وتركت فيها أثراً غامضاً مبهما ، أضرمت في قلبيهما عواطف غريبة . احسا أنهما أكبر من عمرهما ، وكان هذا الشعور كفيلا بأن يسعد الولدين

فى هذه السن ، ولكن هذا الشعور أتعبهما ، شعرا كان صورة الناس قد تغيرت ، ضايقهما أنهما أصبحا بريان الناس الذين يعرفونهم أقصر قامة مما هم فى الحقيقة ، لم يعد هناك من يملأ عيونهما الصغيرة ، إن مصيبة الذين يعيشون طويلا بجوار العباقرة هى أنهم يقسون فى أحكامهم ، يتوقعون أن تكون قامة جميع الرجال بطول الجبال التى اقتربوا من قممها ، وهم يرون فى مكانهم على هذا العلو الشاهق الأشياء الكبيرة فى السفح وقد تضاءلت ، فتبدو السيارة الكبيرة صغيرة فى حجم علبة الثقاب ، وتظهر العمارة الشامخة فى مساحة الكتاب الصغير !

أصبح الولدان يعجبهما شىء ، ولايرضيهما شىء ، لاتعجبهما أوامر أمهما ، ولا آراء والدهما ، ولاتقنعهما أفكار أساتذتهما فى المدرسة ، ولاتبهرهما حكم ومواعظ أقاربهما ! الذين يعيشون فى دنيا العمالقة يتصورون أن الناس العاديين أقزام ، ويغيب عن ذكائهم أن ينظروا الى المرآة ليروا أنهم أقصر كثيراً ممن يعتبرونهم أقزاماً !

أصيب الولدان بحمى الرفض ! أصبحا يرفضان ما قبلاه فى الماضى صاغرين ، أصبحا يناقشان مالم يكن يقبل المناقشة ، أصبحا يعارضان تعليمات أمهما التى كانت فى نظرهما قرارات ألهيه جاءت من السماء !

وكانت أمهما تقاوم بعنف هذا الشعور الطارىء على الولدين ، لم تتصور أن الولدين بلغا سن المراهقة فى العاشرة من عمرهما ، ثم ان للمراهقة مظاهر ليس فيها رفض كل شىء ، والسخط على كل شىء ، ونقد كل شىء .

واعتقدت الأم الولدين الصغيرين أصيبا بجنون الغرور ، ولايوجد فى الأمراض العقلية مرض اسمه جنون الغرور ، ولكن الأم اعتقدت أن تدليل سعد للولدين وتقريبه لهما هو الذى جعلهما يصابان بهذا الغرور الأحمق الذى سوف يقتلهما ويقضى عليهما .

ولكن الولدين لم يصابا بالغرور ، كانا يشعران بضآلة شأنهما ، وبقلة تعليمهما ، وبعجزهما عن أن يكونا صورة من الأسطورة التى اقتربا منهما ، ولكنهما كانا يشعران بالتمرد ، بالرفض ، بالرغبة فى أن يقولا كلمة « لا » ! كانت فى كلمة « لا » موسيقى لايجدانها فى كلمة « نعم » ، كانت « لا » فى نظرهما تعنى أن لهما شخصية ، أن لهما حرية ، أن لهما ارادة ، أنه أصبح لهما حق جديد هو حق الرفض!

لقد تعلما أن يناقشا كل شىء ، ألا يقبلا الأمور المسلم بها ، طالما سمعا سعد يناقش أشياء يتوهم الناس أنها لاتقبل المناقشة ، كان يجادل أمامهما أمورا قالت لهما أمهما أنها لاتقبل الجدل ، سمعاه ينتقد الملك فى الوقت الذى كانت

فيه الجماهير تهتف يعيش الملك ويحيا سعد ، سمعاه ينتقد أنصاره ، بل كثيراً ما سمعاه ينتقد نفسه ، بينما كانت الملايين تعتبره معصوما من الخطأ كالأنبياء ، وطالما جلس على المائدة يعدد أخطاء ارتكبها ، ويأسف عليها ، وكأنه مذنب أمام كرسى الاعتراف ، وكانت هذا النقد الذاتى يثير حماس الولدين ، ويجعلهما يشعران بأنه لا يوجد إنسان فوق النقد ، ان من حقهما أيضاً أن ينقدا تصرفات أمهما وأبيهما وجدهما وستهما بل وكل الناس !

وكانت أمهما تصاب بالهلع عندما تسمع هذا الكلام ، وكانت تؤمن بأن انتقاد الصغير هو ذنب يلى مباشرة الشرك بالله .. خصوصاً إذا كان الكبير هو خالها سعد زغلول !

ولكنهما سمعا من جدهما أن حق النقد هو حق مقدس لكل إنسان ، كحقه فى أن يتنفس ، وحقه فى أن يتكلم ، وحقه فى أن يفكر ، وحقه فى أن ينتقل الى أى مكان .

وكان يقول إنه لايتصور أن يعيش فى بلد ألسنة الشعب فيه مقطوعة ، والفرق بين الانسان والحيوان هو اللسان ، فإذا قطع الحاكم ألسنة الشعب أصبحوا حيوانات ! وليس صحيحاً أن الانسان هو حيوان ناطق ، فإن كثيراً من الحيوانات تنطق ، ونحن نعرف من أصواتها ما تريد ، فهى إذن تعبر عما تريد ، وهذا هو النطق ، ولكن الانسان وحده هو الذى ينتقد ، وهو ينتقد لأنه يفكر ، والحيوانات لاتنتقد لأنها لا تفكر !

كان يقول ان من حق كل فرد أن ينتقد حاكمه ، أن يقول له فى مواجهته قف ! انت مخطىء ! .. وهذا النقد هو المصابيح التى يرى الحاكم الطريق فى ضوئها ، فإذا أطفئت هذه المصابيح ضل طريقه أو تعثرت خطاه . إننا يجب أن ندخل الديموقراطية فى كل مكان . ويتمسك الولدان بما قاله جدهما . ويقولان ان أسرتهما الصغيرة هى دولة ، الأم فيها هى الملكة ، والأب رئيس الوزراء ، ومصطفى وعلى هما الشعب ! ولا يجوز للأسرة أن تنادى بالديموقراطية فى خارج البيت وتحرمها داخل البيت !

وتذهب الأم ساخطة غاضبة الى خالها ، وتروى له أنباء تمرد الولدين الصغيرين عليها . وتطلب اليه ان يساعدها فى إفهام الولدين أن هناك فرقا كبيرا بين نظام الحكم فى الأسرة ونظام الحكم فى الدولة ! ويضحك سعد لهذه الأزمة الدستورية فى بيت ابنته المتبناة ! ويقول لرتيبة انه يؤيد الولدين كل التأييد فى ثورتهما على التربية بالطريقة الدكتاتورية ، وأنه يؤمن بان البيت يجب أن يدار بطريقة الاقناع والتفاهم ، لابطريقة الارغام والاجبار

وتقول رتيبة : ولكن الأولاد صغار لا تفهم مصلحتها !

ويقول سعد · هذه دائما حجة الطغاة ! انهم يستبدون بالشعوب بحجة انها لا تفهم مصلحتها ! ان ممارسة الحرية هي الطريقة الوحيدة ليفهم الانسان مصلحته .

وتضطر الأم ويضطر الأب الى قبول نظرية سعد في التربية ويعلنان النظام الديموقراطي داخل الأسرة !

وهكذا أصبح للأسرة برلمانها الصغير ' وكان هذا البرلمان ينعقد على مائدة الافطار ومائدة العشاء ! وكان يناقش كل شئون الأسرة ومتاعبها ، أصبح الأب يستشير ولديه في كل أمور الأسرة ، أصبحت الأم تعرض على البرلمان الصغير مشاكل البيت .

ووضع الأب نظاماً للتصويت ، فأى قرار يجب للموافقة عليه ، أن ينال ثلاثة أصوات على الأقل ، فإذا تساوت الأصوات اعتبر القرار مرفوضاً ! وكانت تعرض على البرلمان الصغير مسائل طريفة ، منها : ماذا يأكلون اليوم ، وأى فيلم يشهدونه هذا الأسبوع ، وهل تمضى الأسرة الصيف في القاهرة أو الاسكندرية أو في مسجد وصيف ، وكانت الأم تعرض على البرلمان ميزانية البيت الشهرية فيعرفون المبلغ المخصص للطعام ، والمبلغ المخصص لمصاريف البيت ، والمبلغ المخصص للترفيه ، وبذلك لا يطالب الولدان بشراء مالاتسمح بشرائه ميزانية البيت .

وكانت الأم تضيق أحيانا عندما ترى الولدين الصغيرين على رأى واحد ، لايختلفان أبداً ، ما يكاد يسمع واحد منهما رأى أخيه حتى ينضم إليه ويؤيده ويتحمس له ، وكانت الأم تقول لهما انه يجب أن يكون لكل منهما شخصية مستقلة خاصة به ، لها كيانها ، ولها إرادتها ، ولكن الولدين فشلا في أن يتحولا الى شخصيتين مستقلتين ، كان حبهما المتبادل بينهما قد جعلهما يندمجان معاً . كانا أشبه بشخصية واحدة باسمين مختلفتين ، وكثيراً ما كانت الأم تلجأ الى سؤال كل واحد منهما على انفراد عن رأيه في مسألة معينة ، فإذا بها تفاجأ بأن الاثنين لهما إجابة واحدة بغير أن يجتمعا وبغير أن يتشاورا ! وكانت الأم تضحك وتسميهما حزب المعارضة في الأسرة ! واستطاعت هذه الطريقة الجديدة في التربية أن توثق العلاقة بين الولدين وأمهما وأبيهما ، ان إشراكهما في إدارة البيت لم يؤد الى الفوضى ، بل على العكس حقق النظام ، أشعرهما بأنهما شريكان في الأسرة لا تابعان لها ، قضت على تمردهما ، اختفت كلمة « لا » أو قل عدد المرات التى تستعمل فيها ، التفاهم حطم عناد الرفض ، قرب المسافة بين الأبناء والآباء ، كلما أعطتهما *أمهما حرية التعبير ، أعطاها الولدان حبا ، ان عاطفة الحب أقوى بين الأحرار*

منها بين العبيد ، كان الولدان يخافان الوالدين ثم أصبحا يحترمانهما ، فرق بين أن يحترم الابن والده وأن يخافه ، ان الاحترام المصحوب بالحب أكثر جلالا من الاحترام المصحوب بالرهبة . لم تعد أمهما تلجأ الى ضربهما ، قلت ذنوبهما عندما زادت حريتهما ، فعل الاقناع فيهما أضعاف ما فعل العقاب .

ولم يكن الطريق مفروشاً بالورد أمام البرلمان الصغير ، فقد كانت تعنف فيه المناقشات أحيانا وتشتد الخلافات ، ثم تنتهي بانتهاء التصويت ! وكان من أعنف المناقشات التي دارت في هذا البرلمان الصغير ، تلك التي دارت حول « الجلابية » !

كان الولدان يريان زملاءهما التلاميذ لايكادون يعودون الى بيوتهم حتى يخلعوا بذلاتهم ويرتدوا الجلاليب ، وينزلوا الى الشارع وقد ارتدوا الجلابية يلعبون كرة القدم

وكانت أمهما تصر على ألا يغادر الولدان البيت الا وقد ارتديا الجاكتة والبنطلون والطربوش !

وكان الولدان يشعران بأن الجلابية فيها من الحرية ما ليس في البنطلون !

وكانا يشعران بمنظرها الشاذ ، وهما وحدهما يرتديان الجاكتة والبنطلون بين زملاء يرتدون الجلاليب ، وأصبحت أمنية الولدين في الحياة أن يلبسا الجلاليب وينزلا الى الشارع ! وعارضت الأم في هذا وقرر الولدان أن يعرضا الأمر على البرلمان الصغير . وشرحا وجهة نظرهما ، وأنهما لايفهمان أن يكونا وحدهما دون بقية الأولاد اللذين يرتديان الجاكته والبنطلون أثناء لعب الكرة .

وأبدى والدهما عطفا على وجهة نظرهما . فأسرعا يطالبان بأن تعرض هذه المسألة الخطيرة للتصويت ، واذا بهما يفاجآن بوالدهما ينضم الى أمهما في التصويت وتصبح النتيجة هي صوتين ضد صوتين وبذلك سقط الاقتراح !

وعاتب الولدان والدهما أن يعطف على وجهة نظرهما ثم يصوت ضدهما .. وقال لهما أبوهما . ان هناك فرقا بين العطف على وجهة النظر وبين الاقتناع بها ! فالقاضي مثلا قد يعطف على متهم ومع ذلك يحكم عليه بالاعدام !

وفهم الولدان من هذا ان الجلابية قد حكم عليها بالاعدام !

وعاش الولدان طول حياتهما دون أن يحققا حلمهما الجميل ، بأن ينزلا الى الشارع بالجلابية !

وكانت جلسات هذا البرلمان فرصة للولدين يعبران فيها عن آرائهما ، تلقيا من خلالها كيف يستمعان الى الرأى الآخر ، وكيف أن لكل رأى عيوبه ومزاياه .. وعليهما ألا يتعصبا لرأى دون دراسة ، وقد حلت هذه المناقشات

كثيرا من عقد الولدين وأوهامهما ، وأصبحا لايترددان فى التعبير من خلال هذا البرلمان عن كل ما يفكران فيه .

ولكن شيئا واحدا لم يتمكن الولدان من عرضه على برلمانهما الصغير ، وقد كان أهم شيء فى حياتهما ، وهو هوايتهما للصحافة ! كان هذا الموضوع وحده هو الموضوع غير القابل للمناقشة أو البحث أثناء انعقاد هذا البرلمان الصغير !

وهكذا بقى للولدين سرهما الكبير !

وساعد على اشتعال هوى الصحافة فى قلبى الولدين أن قيام وزارة الشعب وصدور الدستور ، ووجود البرلمان المصرى والحرية الواسعة ، كل ذلك أدى الى نشاط كبير فى الصحافة المصرية ، جرائد يومية جديدة ظهرت ، فى كل يوم كانت تصدر مجلة أسبوعية جديدة ، الكبت الطويل الذى عاناه الشعب من الأحكام العرفية جعله يلتهم الصحف التهاماً ويقبل على قراءتها ، جرائد باللغة العربية وباللغات الأجنبية ، مجلات سياسية ومجالات رياضية ومجلات أدبية .. ثم ان نهضة المسرح المصرى ولدت مجلات مسرحية مختلفة الأشكال والأحجام .

وكان الولدان يجدان يوميا كنزا من الصحف والمجلات فى بيت سعد ، كانت كل جريدة عربية أومجلة ترسل نسخة مجانا الى سعد وقرأ الولدان صحفاً يومية عربية تصدر فى نيويورك وفى بونس أيرس وفى ريودجانيرو وفى شيلى ، ومئات المجلات العربية ، التى كان يصدرها المهاجرون السوريون واللبنانيون فى أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية واستراليا .

وكانت المجلة التى استهوتهما بصفة خاصة هى مجلة عربية يصدرها المهاجرون العرب فى أمريكا الجنوبية . وكانت المجلة شيئا جديدا بالنسبة الى المجلات المصرية ، كان ورقها ثقيلا لامعاً ، وكانت صورها متقنة ، وطبعها أنيقا ، وأحس الولدان لأول مرة أن طباعة بلادهما متخلفة عن الطباعة الحديثة .

وفى مجلة السائح قرأ الولدان لأول مرة مقالات وشعرا لجبران خليل جبران ، واستهواهما أسلوبه وخياله ، ووقعت فى أيديهما صحف يومية ومجلات أسبوعية تصدر فى بغداد والموصل ودمشق وحلب وبيروت .. وكان اغربها جريدة يومية تصدر فى الحجاز اسمها « القبلة » وكان أغرب ما فيها غير أسلوبها المعقد أن رئيس تحريرها هو صاحب الجلالة الملك حسين ملك الحجاز فى ذلك الحين ، وكانت هذه أول مرة فى التاريخ يرأس فيها ملك تحرير جريدة فى العالم ! واحس الولدان بفخر وهما يريان أن مهنة الصحافة

التي يهويانها مهنة محترمة ، وأن لهما زميلا يحمل لقب حضرة صاحب الجلالة الملك !

وهذا الاطلاع الواسع على هذا العدد الضخم من الصحف والمجلات ، جعل الولدين يبدلان ويغيران ويجددان في المجلة التي يصدرانها لتلاميذ مدرسة المنيرة ، فقد اكتشف التوأمان بين زملائهما في فصل سنة ثالثة تلميذا حسن الخط ، استعانا به في مغامرتهما ، وكان أول ما فعلاه أن ألغيا اسمي « الحقوق » و « البيان » اللذين كانت تحملهما مجلتاهما ، وبفضل التلميذ الخطاط أصبح لهما مطلق الحرية في اختيار الاسم الذي يعبر عن صفة المجلة ، فأصبح اسمها « سنة ثالثة ثالث » ثم أصبح بعد زيادة قرائها بين تلاميذ كل الفصول مجلة « الطالب » وقد كتبا تحت اسم المجلة أنها « مجلة أسبوعية تصدر كل يوم سبت » ! ولم يعرفا لماذا اختارا يوم السبت ليكون موعدها الأسبوعي لم يعرفا يومها أن يوم السبت هو أهم أيام حياتهما ، فقد ولدا في يوم السبت ، وماتت أمهما يوم السبت ، وصدرت أخبار اليوم يوم السبت ، وحكم على أحدهما « مصطفى » بالسجن المؤبد يوم السبت أيضاً !

وفي عدد مجلة الطالب الصادر في ١٩ يوليو سنة ١٩٢٤ يكتب الولدان ، وهما في سن العاشرة ، تحقيقاً صحفيا عن إطلاق الرصاص على سعد زغلول ، والتحقيق مختلف عما نشرته الصحف الكبرى عن الحادث ، فالتوأمان كتباه وهما يعيشان في الغرفة التي رقد فيها سعد زغلول في مستشفى الدكتور علي ابراهيم رامز بالروضة ، انهما بحكم وجودهما فيه عرفا معلومات دقيقة لم تصل الى الصحف ، إنهما يصفان الحادث كما رواه سعد ، ان عنوان التحقيق هو « أين المسدس ؟ » . ويقول التحقيق ان المسدس الذي أطلقه الجاني محمد عبدالخالق على سعد زغلول في محطة مصر اختفى ، وأن معنى ذلك أن الجاني له شركاء ، ان شريكا مجهولا انتهز فرصة الفوضى بعد إصابة سعد بالرصاص ونزف الدم منه فأخذ المسدس من الجاني واختفى ، حتى لايعرف أحد مصدر المسدس الذي ارتكبت به الجناية .

وفي التحقيق أشياء دقيقة عن حياة سعد ، منها أن صفية قالت لزوجها سعد ، صباح الحادث : « عيني بترف » ، فنصحها سعد أن تضع قطرة ! ووضعت القطرة في عينيها ، واستمرت عينها « ترف » الى أن جاء إليها سعد والدم ينزف منه !

وفي التحقيق جرأة غريبة من الولدين ، فهما يقولان فيه ان الحادث وقع يوم التشريفات الملكية ، وذهب سعيد ذو الفقار باشا كبير الأمناء يبلغ الملك فؤاد نبأ اطلاق الرصاص على رئيس وزرائه ، فقال الملك :

ـ اذا كانت الاصابة قاتلة تستمر التشريفات ، واذا كانت الاصابة غير مميتة تلغى التشريفات ..

وظهر أن الاصابة غير قاتلة ، وعلى ذلك أمر الملك بالغاء التشريفات وأدلى بتصريح قال فيه ان صحة سعد هي أغلى شيء في الدولة !

وقالت مجلة الطالب كذلك إنه لوحظ أن حسن نشأت باشا وكيل وزارة الأوقاف والمقرب من الملك ، حرص على حضور كل التحقيقات ، مع أنه من المعروف أن النيابة ليست تابعة لوزارة الأوقاف !

ولو أن هذا العدد من مجلة الطالب وصل الى أحد من رجال قصر الملك لقامت الدنيا وقعدت ، ففي هذا التحقيق عيب صريح في الذات الملكية ، وفيه اتهام صريح للملك فؤاد بأنه كان المحرض على قتل زعيم الأمة ، أو على الأقل كان يتمنى أن تكون إصابته قاتلة ، وأن أقرب المقربين للملك يتدخل في التحقيق ليمنع الوصول الى شركاء الجاني !

والذين قرأوا هذا العدد من المجلة قرأوه باعتباره منشورا سريا أكثر مما قرأوه على أنه مجلة مدرسية !

ومن حسن حظ الولدين أنهما لم يتماديا في الكتابة السياسية ، لأنهما لو استمرا في الكتابة بهذه الجرأة أو على الأصح بهذه الحماقة لدخلا السجن قبل الموعد الذي قرره القدر لدخولهما !

وكان السبب في ذلك أن أميل وشكري زيدان أصدرا في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٢٤ مجلة المصور وكان أول مجلة تطبع بالروتوغرافور في مصر وكانت مجلة حافلة بالصور .

وتصادف أن سعد زغلول وصفية عادا من رحلتهما في أوربا في يوم ٢١ أكتوبر سنة ١٩٢٤ ، وأحضرت صفية لعلي ومصطفى هديتين من انجلترا ، هما عبارة عن آلتي تصوير وكمية من الأقلام .

هنا حدث تطور ضخم في مجلة الطالب ! فقد تغير اسمها وأصبح « الطالب المصور » وامتلأ بصور رديئة جدا من تصوير الولدين ، منها صورة غير واضحة لافتتاح الدورة الثانية للبرلمان المصري في شهر نوفمبر سنة ١٩٢٤ . وصورة غير واضحة لسعد يوم استقالته في الوزارة ، وصور لمباريات الكرة لاتستطيع أن تتبين منها أين هي الكرة وأين هي رؤوس اللاعبين ! وكل هذه الصور من تصوير الولدين اللذين لم ينتظرا حتى يجيدا التصوير ، ويتعلما أصوله قبل أن ينشرا الصور المهزوزة على القراء المساكين !

ولم تستمر سعادة الولدين بمجلتهما « الطالب المصور » طويلا !

فبعد استقالة وزارة سعد بأيام دخل حجاج افندى ضابط مدرسة المنيرة

فصل سنة ثالثة ثالث واتجه الى مقعدى على ومصطفى ، وفتش الدرجين اللذين يضعان فيهما الكتب واستولى على نسخ مجلة الطالب ، والطالب المصور ..

وكان الولدان يحتفظان بنسخ المجلات فى المدرسة خشية أن تكشفها أمهما إذا أبقياها فى البيت ! ثم فتش حجاج أفندى بعد ذلك جميع أدراج التلاميذ وصادر منها كل نسخ مجلات الطالب القديمة والحديثة !

وغضب الولدان ، انها أول مرة فى حياتهما تصادر لهما مجلة ! ما أتعس الصحفى عندما يرى أفكاره تصادر ! انه يشعر كما يشعر الأب الذى يرى أولاده يحكم عليهم بالخنق أمام عينيه !

ثم تضاعفت المصيبة عندما رأى الولدان حجاج افندى يذهب الى دورة المياه حاملا النسخ المصادرة ، ويخرج عددا من الثقاب ، ويشعله ، وتلتهم النار كل المجلات !

انفجر الولدان بالبكاء ! ان قطعة منهما تحرق أمامهما ! ان هذا الرماد هو كل مابقى من أفكارهما وجهدهما وعرقهما ، بدا لهما هذا العقاب أشد هولا من عقاب أمهما لهما عندما أحرقت أصابعهما حتى لايكتبا صحفا ومجلات ! ان هذا الورق المحترق هو لحمهما ودمهما ، هو حياتهما ، هو أحلامهما ..

وتأثر حجاج افندى عندما رأى دموع الولدين فقال لهما :

ـ إننى فعلت هذا لمصلحتكما ! لقد وقع فى يدى نسخة من المجلة التى شتمتم فيها الملك ، لو وقعت هذه النسخة فى يد الوزارة الجديدة فسيقضى على مستقبلكما ، وسيقضى على مستقبلى بصفتى ضابط هذه المدرسة ، وعلى مستقبل الناظر والمدرسين ، وسيؤدى الأمر الى طرد والدكما من وظيفته والاساءة الى سعد باشا نفسه لأن الوزارة ستتهمه بأنه هو الذى أملاكما هذا الكلام ضد الملك .

وكان حجاج افندى يتحدث بعاطفة صادقة ، وقد كان شابا وطنيا من شباب الثورة ولكن هذه العاطفة لم تقنع الولدين ، انهما أحسا أن مجلة كل منهما المكتوبة بالرصاص والمطبوعة بالكربون وبالبالوظة أهم من مستقبلهما ، وأهم من مستقبل جميع المدرسين ، وأهم من مستقبل أبيهما ، وأهم من مستقبل سعد باشا نفسه ! إنهما لم يقدرا يومئذ خطورة ماكتبته مجلة الطالب عن الملك فؤاد ..

ولكن ما الذى جعل الولدين يتناولان الملك فؤاد بهذا العنف ؟ إنهما طالما سمعا فى بيت سعد قصصا عن طغيان الملك وجبروته وكراهته لسعد ، ولكن كل هذه القصص لم تؤثر فيهما كما اثرت فيهما قصة معينة وقعت أحداثها

عندما كان سعد رئيسا للوزراء ، وروى أمامهما أنه كان يزور الملك فى قصر القبة ، ودعاه الملك فؤاد للتفرج على حديقة القصر ، وبينما كانا يمشيان معا بين الزهور ، اقترب منهما الأمير فاروق ولى العهد وكان عمره خمس سنوات وهتف بصوت عال : يعيش الملك ويحيا سعد .

ثم أخذ يعدو الى الناحية الأخرى .

وناداه الملك فؤاد وقال له مبتسما : من الذى علمك هذا الهتاف ؟

قال الأمير فاروق .

ـ لم يعلمه لى أحد .. إن الناس كلها تهتف أمام القصر يعيش الملك ويحيا سعد !

واحتضن سعد الأمير الصغير وقبله فى جبينه ..

وكان سعد مسرورا وهو يروى القصة من أن الهتاف بحياة زعيم الشعب فرض نفسه حتى على ابن الملك .. خصم الشعب !

ولكن صفية قالت انها تشك فى أنها تمثيلية دبرها الملك لايهام سعد أن القصر بدأ يحبه بدليل أن ابن الملك يقول يحيا سعد !

وقال سعد : انه من غير المعقول أن طفلا عمره خمس سنوات يشترك فى مثل هذه التمثيلية ، فقد كان الأمير الصغير يهتف ببراءة وبحماس غير مصطنع ، ولو كان الملك فؤاد هو الذى كان يهتف لما صدقته فأنا أعلم أنه ممثل قدير !

وبعد أيام قالت صفية لسعد على مائدة الغداء

ـ لقد كنت على حق ياسعد عندما قلت من ثلاثة أيام ان الأمير فاروق كان يهتف لك هتافاً غير مصطنع ..

قال سعد وقد سر أن فراسته فى الأمير الطفل كانت صادقة

— وكيف تأكدت من ذلك ؟

قالت صفية :

— كانت عندى الأميرة أمينة زوجة الأمير عادل طوسون ، وقالت لى انها منذ يومين كانت تزور شقيقتها الملكة نازلى فوجدتها تبكى بكاء حارا . فسألتها ماذا حدث . فقالت لها انه فى اليوم السابق رأى الأمير فاروق الملك وسعد باشا يتمشيان فى حديقة القصر . فهتف : « يعيش الملك ويحيا سعد » .

وتظاهر الملك أمام سعد باشا بالسرور ، ولكن بعد انصرافه ، أمر مربيته الانجليزية بأن تجلد الأمير الصغير عشر جلدات، بالسوط على ظهره ، لأن الملوك لا يجوز أن يهتفوا بحياة رعاياهم !

وقد نزف الدم من ظهر الأمير الصغير ، ومازالت آثاره على ظهره !

وما كاد سعد يسمع هذه القصة حتى رأى الولدان وجهه متوقدا كالجمر . أغمض عينيه من الألم وكأنه ذاق لسعات السياط العشرة على ظهره هو . ثم شحب وجهه ، كأنه الثلج بياضا . ثم قطب حاجبيه ، وكأنه يتحاشى أن يبسطهما ويرى منظر الطفل الصغير وهو يجلد أمام عينيه بسوط المربية الانجليزية . وبدأ وجهه يتشنج كأنه أصيب بحمى عصبية ، أو بذبحة صدرية .

ولاحظت صفية الاضطراب المفاجيء الذى عرا وجه سعد . وقد امتزج فيه الغضب بالألم .

لم ير الولدان سعد من قبل ممرور الملامح ، منقبض القسمات ، شقيا ، تعسا ، حزينا يتوقد وجهه لحظة كالجمر ، ثم يتحول اللون النارى الى بياض كقناع الشمع ، ثم يعود مصفرا من جديد ..

ونظرت صفية بهلع اليه وقالت

— ماذا جرى لك ياسعد .. ؟! ألم تتصور أن الملك فؤاد يفعل هذا ؟

قال سعد والكلمات تخرج من شفتيه كالتمتمة : لا .. إننى أعرف أنه قادر على أن يفعل أكثر من هذا ؟

قالت صفية : هل أنت حزين كل هذا الحزن من أجل الأمير فاروق ؟

قال سعد : إذا كان الملك فؤاد يفعل هذا فى ابنه الوحيد لأنه قال يحيا سعد ، فماذا سيفعل فى هذا الشعب الذى يقول يحيا سعد ! اننى تصورت هذا السوط وهو ينهال على كل رجل وامرأة وطفل من الأربعة عشر مليونا من المصريين ..

ولم يستطع الولدان أن ينسيا صورة سعد الحزين ، صورته وهو يبكى بغير دموع . وينزف بغير دم . ويصرخ بغير صوت .. فلما أطلق الرصاص على سعد ، لم يترددا فى أن ينشرا فى مجلتيهما كل ما سمعاه عن دور الملك فى محاولة اغتيال رئيس وزرائه !

انطبعت فى رأسى الصغيرين نظرات جدهما الهالعة الحزينة وهو يستمع لصفية تروى قصة ضرب الأمير الصغير بالكرباج . رأيا فى هذه النظرات عدة صور طالما سمعاها من شفتى جدهما على مر السنين ، صورة الفارس التركى وهو ينهال على والد سعد بالكرباج ، ووالد سعد وهو ينتزع الفارس من فوق الحصان . صورة السياط وهى تنهال على ظهور مئات الألوف من الفلاحين فى عهود الطغيان والاستبداد . صورة المربية الانجليزية وهى ظهر تلهب الأمير الصغير بالكرباج . نبوءة سعد بأن الملك فؤاد سيلهب ظهور الملايين

بالكرباج لأنهم يهتفون يحيا سعد ! لابد أن جدهما كان يفكر فى كل هذا عندما انقلبت صورة وجهه وبدا تارة كالحمامة الجريح وكالأسد الجريح تارة أخرى . عندما انفطر قلبه لوعة وأسى وحسرة . عندما شاهداه يتعذب فوق مقعده عذاب المضروب بالسياط !

كان سعد يكره الكرباج . كان يعبر بهذه الكلمة وحدها عن كل ما فى الدنيا من ظلم وطغيان واستبداد وجبروت وإرهاب . وفى تلك الأيام بالذات كان حكم موسولينى قد توطد فى ايطاليا ، وحكم مصطفى كمال قد تأكد فى تركيا ، وكان قيام هذين الحكمين هو أول ظهور للدكتاتورية بعد الحرب العالمية الأولى . وكان لهذه الدكتاتورية بريق يعمى بعض العيون . ان من عادة الطغاة أن يعتمدوا على الطبول والاستعراضات والمظاهر البراقة التى تبهر السذج وتثير اعجابهم وتحرك حماسهم . وكان بعض هؤلاء السذج يسألون سعدا لماذا لا يقلد مصطفى كمال وموسولينى ! ان شعبه يؤيده أكثر مما تؤيد مصطفى كمال وموسولينى شعوبهما . لماذا لا يفعل مثلهما ويلغى جميع الأحزاب فى مصر ، ويجعل الوفد هو الحزب الواحد ، كحزب الشعب فى تركيا وحزب الفاشيست فى ايطاليا . لماذا يسمح بالمعارضة فى البرلمان المصرى . ان موسولينى قتل النائب الايطالى ماتيوتى الذى عارضه فى البرلمان الايطالى . ومصطفى كمال شنق فى يوم واحد تسعة رجال عارضوه فى قراره بإلغاء الطربوش . كيف يسمح للصحف أن تهاجمه كل يوم . وتتهمه فى وطنيته ، وتوجه اليه المطاعن والسباب . ان الدكتاتورية تستطيع أن تبنى فى شهر ما تبنيه الديموقراطية فى عام .

ان مصر فى حاجة الى المستبد العادل الذى يجمع كل القوى فى يديه ، ويسيطر على كل شىء ولا يسمح لصوت أن يرتفع ضده بالمعارضة والانتقاد .

وكان سعد يثور على هذه المراهقة السياسية . فقد كان مؤمنا بالحكم الديموقراطى ، كان يقول ان الثورة التى قدتها تهدف الى أن أنتزع الكرباج من أيدى المحتلين والمستبدين ، وأحطم الكرباج ، لا أن أنتزع الكرباج لأستعمله بدلا من المحتلين والمستبدين . فليست ثورتنا ضد الاستبداد الأجنبى فقط ، انما هى ضد كل استبداد وطغيان . ولهذا أقاوم الملك فؤاد كما أقاوم الانجليز لأنه مستبد مثلهم . وأقاوم كل مستبد مصرى بنفس العنف الذى أقاوم به الاستبداد الأجنبى . لم يكن سعد مقتنعا بأنه من الممكن اصلاح أى شىء بالكرباج . ان الشعب الذى يتعلم بالكرباج ، ويتعلم النظام بالكرباج . ويطيع الحاكم بالكرباج يفقد حيويته ، ويتحول المواطنون فيه إلى أشباح . كأنهم ظلال لحاكم واحد . هذه الظلال تطول وتقصر طبقا لانعكاس أشعة

الشمس على جسم الحاكم . فإذا جاء الليل ، والشعوب قد تواجه بليل بين وقت وآخر ، اختفت هذه الظلال ، وبقى الحاكم وحده يقاوم فى المعركة .

ثم يستطرد :

— انني لا أريد أن أحرر المصريين من حكم الانجليز لأستعبدهم . ان هذا أشبه بنقل المسجون من سجن الى سجن ، بل هو أشبه بتغيير اسم السجن وبقاء السجين فى نفس الزنزانة !

وكان سعد يسمع تفاصيل غريبة عن حكم موسوليني . منها مثلا أنه يستبدل وزراءه كما يستبدل أحذيته . ويتساءل كيف ألغى شخصية معاونيه ، وأصبح وحده الحاكم بأمره ، كيف ملأ السجون بمعارضيه . كيف تحولت الدولة الى عصابة تحكم بعقلية العصابات وبتقاليد العصابات . كيف صمت الايطاليون المشهورون بكثرة الكلام . كيف أصبحوا يمشون فى طوابير كأنهم تحولوا جميعا الى جنود فى ميدان قتال .. كيف اتخذ موسوليني لنفسه شارات الامبراطورية وبدأ يتكلم لغة الغزاة الفاتحين .. قد أحس سعد بخطر موسوليني وهو يقرأ الخطابات التى كان يطالب فيها بضم واحة جغبوب الى ايطاليا ، أو وهو يطالب بأن يتسلم الزعماء الليبيين الذين التجأوا الى مصر فرارا من الاحتلال الايطالى .

كان سعد يؤمن بأن هذه الطريقة لا يمكن أن تخلق ايطاليا ، أو تجعلها امبراطورية ، وكان يقول ان الطغاة هم ممثلون . وان أعمالهم هى مناظر مسرحية مصنوعة من الورق ، تعلق على المسرح ، وتسلط عليها الأنوار ، فتبدو فى أعين السذج أنها قلاع وقصور .. ولكن اذا هب الهواء عليها تطايرت المناظر الورقية فى الهواء ! وكان يقول انه لا يتصور أن فى إمكان موسوليني أن يصنع جيشا من العبيد الخائفين الراجفين . أن سبب هزيمة روسيا فى الحرب العالمية الأولى فى رأيه : هو استبداد القيصر والطبقة الحاكمة وإذلالهم للشعب . الشعب الذى يفقد حريته أعجز من أن يدافع عن أرض بلاده ، لأن الضعفاء لا يستطيعون أن يكونوا مخلصين . وكان يهزأ من تهديد موسوليني باحتلال جغبوب بالقوة ، ويقول انه يعتقد أن جيشه من الورق !

ولم يعش ليرى نبوءته تتحقق بعد ذلك بعشرين عاما عندما تحول الجيش الايطالى الى جرذان تهرب فى الصحراء فى أثناء الحرب العالمية الثانية !

وكان سعد ينتقد حكم مصطفى كمال ، ويقول انه يعتقد أنه من الممكن تنفيذ كل المشروعات التقدمية التى ينادى بها بالمنطق والاقناع بدلا من الكرباج والمشانق .

وانه اذا كان لديه مشروع إقامة ترعة يمكن بناؤه فى شهر واحد بالكرباج ويمكن بناؤه فى خمس سنوات بغير كرباج ، فإنه يفضل أن ينتظر خمس

سنوات ، لأنه اذا استعمل الكرباج ، فسيجد الماء فى الترعة ، ولكنه لن يجد الرجال الذين يشربون منها ! لأن الكرباج سيفقدهم رجولتهم وآدميتهم ويجعلهم يتحولون إلى حيوانات !

وكان أغرب ما يستهوى الولدين فى سعد أن أفكاره كانت شابة فى سن الستين ..

وقد خطب مرة فقال وهو فى السادسة والستين :

« اتخيل كأننى عدت الى الصبا ، وعادت الى صدرى حماسته ، فأستسهل كل صعب ، وأستهين بكل خطب ، وألبى كل صوت يدعو الى التقدم والارتقاء »

وكان الولدان يلاحظان فى استغراب أن عقل سعد كان يتفاهم مع الشباب أسرع مما يتفاهم مع الشيوخ . يفهمهم ويفهمونه . يتجاوبون معه ويتجاوب معهم . وكأنهم من جيل واحد لا تفرق بينهم عشرات السنين !

وكان خصوم سعد يذهلهم كيف أن سعد يزداد تطرفا وثورة كلما تقدمت به السن . ان الزمن عادة هو الذى يبرد الحماسة . العمر يجعل من المندفع حكيما ، ومن الثائر واقعيا ، ومن النار رمادا ! ولكن هذه القاعدة شذ عنها هذا الرجل ، حتى أن جريدة التيمس البريطانية كتبت فى مقال افتتاحى تقول : « المعروف فى الزعماء فى الشرق انهم يعتزلون العمل قبل زملائهم الغربيين ، إلا سعد زغلول . انه احتفظ بنشاطه الغزير الى النهاية . وليس بين الثائرين المتطرفين فى التاريخ ! إلا عدد قليل بقيت له عقيدته السياسية على شدتها وعنفوانها بعد الخمسين ، ولكنه هو بلغ أقوى ما بلغ من السلطان على الجماهير عندما ناهز الستين . وكأنما كان كلما تقدم فى السن ، يزيد من حماسة الشباب ونزواته » .

وقد لاحظ الولدان أن أفكار سعد كانت فى بعض الأحيان تسبق عصره ، فإن الزعيم الحقيقى هو الذى يسبق الشعب بخطوة ، لا الذى يتخلف عنه بخطوات ، أو يسبقه بخطوات . فالزعيم الذى يسير خلف الجماهير يفقد طريقه ، والزعيم الذى يتقدم الجماهير بخطوات واسعة يفقد جماهيره ، فلابد الا تتسع المسافة بين موقف الزعيم وموقف شعبه فتتوه الجماهير من قائدها ، ولا تضيق هذه المسافة فيصبح الزعيم صدى لا صوتا ، وظلا لا حقيقة . وقد شهد الولدان مناقشات عنيفة بين سعد وبعض أنصاره وخصومه بشأن سفور المرأة . ان بعض المتزمتين كان ينظر فى تلك الأيام الى سفور المرأة المصرية المسلمة كأنه دعوة للمرأة لكى تتجرد من كل ملابسها وتمشى عارية فى الطريق العام . وأن هذا يجدد عهد « سدوم وعامورة » ، وما فيه من اثم وفجور ، وأن المجتمع المصرى سينزلق الى الانحطاط ، وأنه سوف يكون من نتيجته

أن يضرب الرجال عن الزواج ، وأن أغلبية نساء مصر سيتحولن الى عاهرات ، فإن منظر المرأة السافرة يثير في الرجل أحط الغرائز الجنسية ، وأن الطبيعة الانسانية للمرأة مركبة بحيث لا تستطيع مقاومة هذا الاغراء ! كان هؤلاء يعتبرون سفور المرأة معناه إطلاق حرية الجنس !

وكان سعد يفند هذه الآراء ، ويؤكد أن سفور المرأة ليس هو الفساد ، وأن وجه المرأة ليس عورة ، وأن الناس لن يضربوا عن الزواج بعد ان خلعت المرأة حجابها ، بل سيتزوجون كما كانوا يتزوجون ، وستبقى العفة كما كانت ، فإن « البرقع » ليس هو حزام العفة الذى يمنع المرأة من السقوط ، وسفور المرأة عن وجهها ليس معناه انها خلعت ملابسها الداخلية في الطريق العام !

وكان سعد يقابل بصبر عجيب هذه الآراء الغريبة التى كان ينادى بها عدد من المتعلمين الذين لم يتصوروا عالما فيه امرأة مسلمة بغير حجاب !

ولكن آراء أخرى جديدة كانت تصدمه ، ففى تلك الأيام نشرت الصحف أن الزعيم لينين أصدر أمرا بإلغاء الزواج ، وأراد نسف القاعدة العائلية للمجتمع .

ولم يفهم سعد هذا الرأى . ولم يستسغه وقال ان من رأيه أن الزواج هو من أحلى الروابط الانسانية التى اكتشفها الانسان ، وأن إلغاء الزواج هو حرمان البشر من أجمل صور الحياة . وأنه يعتقد أن الانسان لن يقبل هذا القرار ، بل أنه يتوقع أن الناس سيتزوجون سرا . أكثر مما يعشقون سرا . اذا منعهم الحاكم من الزواج .

وصدقت الأيام نبوءته ، فإن الاتحاد السوفيتى الذى خرج على الدين رسميا وقانونيا وفعليا ، ما لبث أن أعاد التشريعات الخاصة بالزواج ، واكتفى بتنظيم الزواج وتسهيله وتبسيطه أمام الراغبين فيه !

وكانت كل هذه المسائل تناقش بصراحة أمام الولدين . فلم يكن رب الأسرة يؤمن بأن هناك مسائل تقال أمام الكبار ، ولا تقال أمام الصغار ، وأن الأحاديث التى سمعها الوزراء لا يجوز أن يسمعها رجل الشارع . وأن هناك كلاما يقال أمام الرجال ولا يقال أمام النساء والأطفال . كان يؤمن بمجتمع مفتوح . بأن الذى لا تستطيع أن تقوله لكل الناس لا يجوز أن تهمس به فى أذن واحد من الناس . كل شيء واضح وصريح ومفتوح . لا سياسة عليا . ولا أحاجى وأسرار وألغاز . ولا أقلية عليمة ببواطن الأمور ، وأغلبية جاهلة بكل ما يجرى فى بلادها .

ومن هنا كان من رأيه أن الصحافة يجب أن تقول للشعب كل شيء . وقد كان هو أول وزير فى تاريخ مصر استقبل الصحفيين ، وأدلى بأحاديث الى الصحف ،

وكان أغلب الذين يترددون عليه من الصحفيين والشعراء ورجال الأدب . يتردد عليه باستمرار عبدالقادر حمزة صاحب جريدة البلاغ وعباس محمود العقاد كاتبها الأول ، وكان يطلق عليه اسم « الكاتب الجبار » وأحمد حافظ عوض صاحب جريدة كوكب الشرق ، ومصطفى لطفى المنفلوطى وأحمد شوقى أمير الشعراء وحافظ ابراهيم شاعر النيل ، وقبلهم كان أمين الرافعى صاحب جريدة الأخبار ضيفا دائما على مائدة سعد قبل أن يدب الخلاف بينهما ، وفى نهاية سنواته كان يستقبل كثيرا فكرى اباظة ومنيرة ثابت أول مصرية أصدرت صحيفة باللغة الفرنسية هى « الأسبوار » ومجلة عربية اسبوعية هى « الأمل » والكاتبة المعروفة مى زيادة ومصطفى صادق الرافعى .

ورأى الولدان كيف يضع زعيم الأمة كتابها ورجال الصحافة فيها فى مقام الوزراء ، بل انه عندما كان يدعوهم لتناول الغداء على مائدته يقدم مكانهم على المائدة عن المكان الذى يجلس فيه الوزراء ورؤساء الوزارات ' كان يناقش الكاتب فى مقالته ، والشاعر فى آخر قصيدة له ، والصحفى فى الخبر الذى نشره . وكان ينصت لآرائهم ويهتم بسماع أفكارهم . وكان متقدما فى نظرته الى الصحافة عن الصحفيين أنفسهم .

طالما سمعه الولدان ينتقد الحروف التى تظهر فى البلاغ بأنها تتعب عيون القراء ، وأن الحروف مكسرة ،ويجب استبدالها بحروف مطبوعة واضحة ، وانه يجب التجديد فى طريقة ابراز الخبر وشرحه ، ثم هو يطلب من أحمد حافظ عوض صاحب كوكب الشرق أن يشترى مطبعة جديدة ، تطبع الصور ، ويدفع اليه ببعض الصحف الأجنبية التى تلقاها فى البريد وبها صور الأحداث ، ويطلب من الصحف التى تؤيده ألا تتخلف عن التطور الصحفى ، معتمدة على توزيعها الضخم بفضل تأييدها له وحماسها لسياسته .

وسمع الولدان سعد يتحدث عن أمنيته فى أن تقوم فى مصر جريدة كبيرة ، مثل جرائد العالم الكبرى لها مراسلوها فى عواصم الدنيا ، وفيها صفحات متخصصة وكتاب متخصصون ، وكان يحلم بأن يشترى أنصاره جريدة الأهرام ويطوروها . وطلب جبرائيل تقلا صاحب الأهرام ثلاثين الف جنيه ثمنا لجريدته ، واستكثر الوفد المبلغ ، وبدأ سعد يفكر فى انشاء شركة كبيرة لانشاء جريدة كبرى ' وكان يكرر بأن تكميم الصحف يؤدى حتما الى انتشار الجمعيات السرية ، وأنه يحكم على حرية كل بلد من صحافته ، فإذا وجد صحافة بلد حرة عرف على الفور أن شعبها حر وإذا وجد الصحافة مكممة عرف أنها تصدر فى شعب مكمم الأفواه ، مقيد بالسلاسل والأغلال .

وكان هذا الحديث الدائم عن الصحافة يلهب خيال الولدين الصغيرين ، ويضاعف من هوايتهما للصحافة ويحول هذا الحب الى عشق ملتهب وغرام عنيف !

وكان إصدار الصحف فى أول هوايتهما لعبة كما كانت هواية السياسة لعبة أخرى مثل لعبة عسكر وحرامية . كانا فى أول الأمر ينظران الى اشتغالهما بالصحافة والسياسة كأنها زيارة مستمرة الى لونابارك مصر الجديدة وهو اسم حديقة الملاهى فى تلك الأيام !

انهما كانا يتتبعان تأليف الوزارات وسقوط الوزارات بنفس الشغف الذى كانا يتابعان به لعبة « الصينية » فى حديقة الملاهى ، عندما تدور الصينية بالواقفين ببطء ثم بسرعة ثم تلقيهم على الأرض . كانا يتابعان السياسيين فى اهتزازهم فوق المسرح السياسى كما كانا يتابعان الشبان والشابات فى لعبة « الغربال » الذى يلف بهم ويدور فيحولهم جميعا الى راقصين وراقصات كانا يشهدان مغامرات السياسيين بنفس اللذة التى كانا يشهدان بها القطار الكهربائى الذى يصعد الهضاب ويسقط بركابه فى الكهوف ، ويدور بهم فى الغابات الصناعية التى تخرج منها أصوات الوحوش ثم يخرج القطار الى النور بين التهليل والتصفيق . وكانت الصحافة لعبة أيضا من ألعاب لونابارك . فيها بنادق تصوب على الذين تنتقدهم مجلتهم الصغيرة . فيها المرايا التى تغير ملامح الناظرين اليها ، فتطيل القصير ، وتحول القزم الى عملاق ، وتجعل النحيف بدينا والسمين فى شكل العصا أو النبوت !

ولكن كلما تقدم العمر بالولدين عرفا أكثر عن الصحافة والسياسة ، اختفت اللعبة وتحول اللهو الى جد . أصبحت السياسة والصحافة فى عيونهما مهنة الخطر ! انهما أكثر خطورة من الطيران . ان الطيار العادى يطير مرتين او ثلاثا فى الاسبوع ثم يستريح وفى سن معينة يعتزل الطيران . ويمشى على الأرض من جديد . أما الصحفى والسياسى فكلاهما يطير كل يوم . يخاطر كل يوم يواجه الموت كل يوم . الطيار العادى يلتقى بالعواصف فى الشتاء . والصحفى والسياسى يعيشان فى العواصف طول الحياة ! الطيار اذا تحطمت طائرته يستطيع أن يهبط بمظلة النجاة ويجد طيارة جديدة يطير بها . ولكن الصحافة والسياسة ليس فيهما مظلة نجاة . ان كوارث الصحافة مثلا أكثر من كوارث الطيران . ففى الطيران تفقد رأسك فقط ولكن فى الصحافة تفقد حريتك .. وهى أغلى من الحياة !

ولم تضعف هذه المخاطر من حماس الولدين الصغيرين للسياسة أو الصحافة . بل تطورت هذه الحماسة وأصبحت هوى جارفا . ان سن العاشرة هى السن التى يبدأ فيها الصبى يحب المغامرات ويعشق الأخطار ،

كان سعد يقول لهما ان لديه نصيحة يوجهها اليهما أن يعدا من واحد الى عشرة قبل أن يقوما بعمل من الأعمال . اننا اذا عددنا من واحد الى عشرة قبل ان نقول الكلمة .. لا نخطىء ، وإذا عددنا من واحد الى عشرة قبل ان نقوم بمغامرة .. نضمن الا نحطم رؤوسنا !

وعبثا حاول الولدان أن يتقيدا بنصيحة جدهما . كانا دائما يتكلمان ثم يعدان من واحد الى عشرة ! ويغامران .. بعد ذلك يعدان من واحد الى عشرة !

وتصور الولدان عندما أتما العاشرة من عمرهما أنهما عرفا كل تجارب الحياة . ألم يتعلما من زعيم الثورة . ألم يشهدا معاركها . حضرا انتصارها . عانيا هزائمها . تصورا أنهما لا يمكن أن تتيح لهما الحياة شهود مآس كالمآسى التى رأياها . تصورا انهما شاهدا كل ما فى الحياة من أحداث جسام . من اهوال واخطار . لن يضحكا كما ضحكا . لن يبكيا كما بكيا . لن يتيح لهما القدر أن يعيشا انتصارات أخرى وهزائم أخرى . لن تتاح لهما فرصة يشهدان فيها التاريخ وهو يكتب فى حضورهما . لن تضحك الدنيا كما ضحكت . ولن تعبس لهما أكثر مما عبست . لن يتكرر ما رأياه من ظلم . وما كابداه من عذاب ، وما شهداه من طغيان واستبداد .

وسمعهما القدر ، فضحك ساخرا من سذاجة الولدن الصغيرين ! لأن القدر كان يعرف أن « البقية تأتى » !

لأن الحياة لا تتوقف أبدا .. إنما تتجدد دائما . كل شىء فيها يتغير ويتبدل .

البشر يولدون ويموتون . الابنية تشيد وتنهار . الزهور تتفتح وتذبل . الدول تقوم وتسقط ..

كل شىء يتغير .. كل شىء يتبدل .. إلا معانى بعض الكلمات .

الحرية تبقى دائما حرية ..

الطغيان يبقى دائما طغيانا ..

العدل يبقى دائما عدلا ..

الظلم يبقى دائما ظلما ..

ويجىء العادلون والطغاة ويذهبون . ويظهر أنصار الحرية وأعوان الاستبداد ويختفون . وتشرق شمس الديمقراطية وتغيب ويجثم ظلام حكم الفرد ، ثم يطل نهار حكم الأمة ويعلق الأحرار فى المشانق ، ويجلس الظالمون فى مقاعد السلطان .

كل شىء يتغير . يولد ويموت . يكبر ثم يتضاءل .

ولكن الشعب يبقى دائما .. ولا يموت !

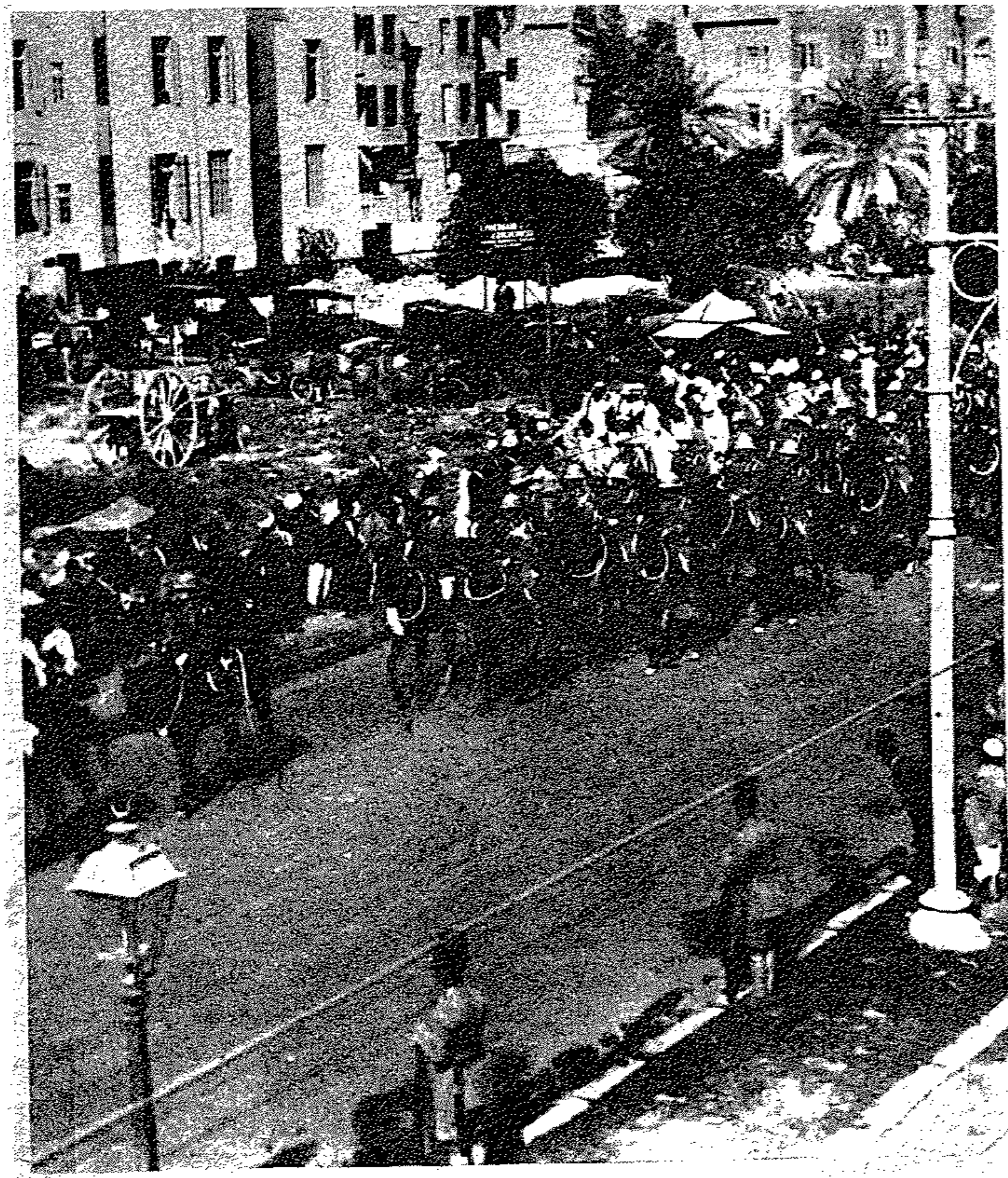
● ● ●



●● طالبات مدرسة السنية فى ثورة ١٩١٩



●● شهيد مجهول من مئات الشهداء



●● طابور الاحتلال لارهاب الشعب



●● جموع الشعب حول بيت الأمة

كتب للمؤلف

- **أمريكا الضاحكة :**

حياة طالب مفلس فى أمريكا .
الطبعة الأولى سنة ١٩٤٣ - « نفذت » .
الطبعة الثانية سنة ١٩٤٣ - « نفذت » .
الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٤ - « نفذت » .

- **فاطمة :**

مثلتها للسينما أم كلثوم وأنور وجدى سنة ١٩٤٧ .

- **عمالقة وأقزام :**

ساسة مصر قبل الثورة .
سنة ١٩٥١ - « نفذت » .

- **ليالى فاروق**

قصة حياة الملك السابق
الجزء الأول سنة ١٩٥٤ - « نفذت » .
الجزء الثانى سنة ١٩٥٤ - « نفذت » .

- **معبودة الجماهير :**

الطبعة الأولى سنة ١٩٦١ - « نفذت » .
مثلها للسينما عبدالحليم حافظ وشادية .

- **صاحبة الجلالة فى الزنزانة :**

قصة الصحافة المصرية فى الأغلال والصراع بين الصحافة والطغيان .
الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ - « نفذت » .
الطبعة الثانية سنة ١٩٧٤ - « نفذت » .
الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٥ .

- **سنة أولى سجن :**

الطبعة الأولى سبتمبر ١٩٧٤ ـ « نفذت » .
الطبعة الثانية ديسمبر ١٩٧٤ ـ « نفذت » .
الطبعة الثالثة يناير ١٩٧٥ ـ « نفذت » .
الطبعة الرابعة فبراير ١٩٧٥ ـ « نفذت » .
الطبعة الخامسة مايو ١٩٧٥ ـ « نفذت » .
الطبعة السادسة يناير ١٩٧٨ .
الطبعة السابعة ابريل ١٩٨١ . .

- **الكتاب الممنوع :**

أسرار ثورة ١٩١٩ .
الطبعة الأولى ١٩٧٤ ـ « نفذت » .
الطبعة الثانية ١٩٧٥ .

- **سنة أولى حب :**

يناير ١٩٧٥ .
مثلها للسينما محمود ياسين ونجلاء فتحى .

- **ست الحسن :**

الطبعة الأولى ١٩٧٦ ـ « نفذت » .
الطبعة الثانية ١٩٨١ .

- **من واحد الى عشرة :**

الطبعة الأولى ١٩٧٧ .
الطبعة الثانية ١٩٨١ .

- **سنة ثانية سجن :**

الطبعة الأولى ١٩٧٧ .

- **سنة ثالثة سجن :**

الطبعة الأولى ١٩٧٨ .

- **لا ..**

الطبعة الأولى ١٩٧٧ .

- **لكل مقال أزمة :**

الطبعة الأولى ١٩٧٩ .

- **الـ ٢٠٠ فكرة :**

الطبعة الأولى ١٩٧٩ .

- **تحيا الديمقراطية :**

الطبعة الأولى ١٩٨٠ .

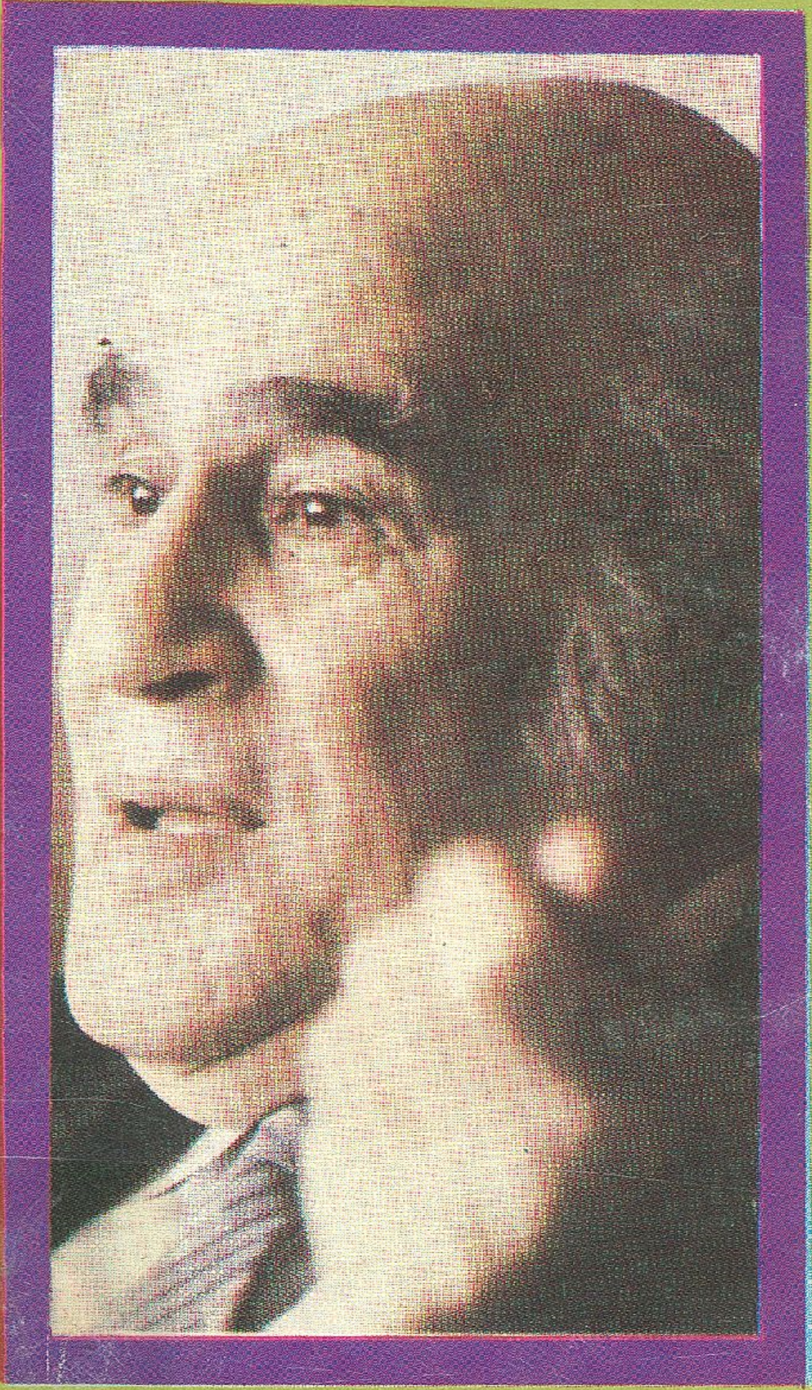
- **من عشرة لعشرين :**

الطبعة الأولى ١٩٨١ .

● ● ●

رقم الايداع بدار الكتب والثائق القومية ٤٩١٤ / ١٩٩٠

من واحد لعشرة



من واحد .. إلى عشرة ، كتاب تسمعه وتقرأه ، تصغى فيه إلى نبض التاريخ والزمن ، وترى أحداثه ، من خلال الموقع الفريد الذى عاش فيه مصطفى أمين ، الهرم الأكبر للصحافة العربية . عاش فى بيت الأمة ، فى بيت سعد ، ورأى حياته ، وأحداث الثورة ، المظاهرات ، الوفود ، النفى ، الفلاحات الفقيرات اللواتى جئن إلى سعد بمصاغهن ، لم ينصف كاتب المرأة المصرية كما انصفها مصطفى أمين فى هذا الكتاب . إنه شهادة حية على تاريخ شعب عريق ..

٤ جنيهات

طبع بمطابع أخبار اليوم